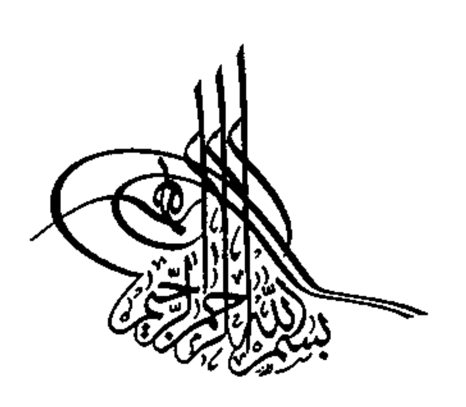
سلسلة الخلفاء



محمود شاكر

المكتب الإسلامي



الخلفاء
(٤٣-٥٠)

الخلفاء في عصر السيطرة السلجوقية

٤٣ - القائم بأمر الله : ٤٢٢ - ٤٤٧ هـ
٤٤٧ - ٤٦٧ هـ

٤٤ - المقتدي بأمر الله : ٤٦٧ - ٤٨٧ هـ

٤٥ - المستظهر بالله : ٤٨٧ - ٥١٢ هـ

٤٦ - المسترشد بالله : ٥١٢ - ٥٢٩ هـ

٤٧ - الراشد بالله : ٥٢٩ - ٥٣٠ هـ

٤٨ - المقتفي لأمر الله : ٥٣٠ - ٥٥٥ هـ

٤٩ - المستنجد بالله : ٥٥٥ - ٥٦٦ هـ

٥٠ - المستضيء بأمر الله : ٥٦٦ - ٥٧٥ هـ

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ ـ هاتف: ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥



مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله الأمين وعلى إخوانه النبيين وآله الطاهرين وصحبه المهديين والتابعين المتقين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين *أما بعد* :

فإن أصعب بلاءٍ يحلّ بالأمة وأشدّ محنةٍ تنزل بها وأخطر مصيبةٍ تقع بها وأكبر نكبةٍ تصيبها وأفدح نازلةٍ تنتابها وأعظم كارثةٍ تتعرّض لها أن يتسلّم زمامها من ليس منها عاش مدةً بين أبنائها فأعلن انتماءه لها وهو غريب عنها فليس على ملّة أهلها ولا هدفه من أهداف أبنائها يُظهر أنه على طريق سيرها والواقع أنه على دربٍ مغايرٍ ويُبدي أنه موافق لمنهجها وداعٍ له وشديد الحماسة لذلك والحقيقة أنه مُعادٍ لذلك المعاداة كلها وعلى عقيدةٍ تختلف الاختلاف كله، يُعلن أنه يبني ويشيد وهو يهدم ويُبيد لا يضع المعول من يده ولا يترك المتفجّرات في عمله، يُنادي أنه يزرع وهو دائماً يقطع، يدّعي أنه يعمل على جمع الكلمة ورأب الصدع وهو

يُثير الفتنة ويمنع الأُلفة ويُصدّع الملتئم ويُفرّق المجتمِع، يرفع راية الوفاق ويحمل شعار الوحدة وهو يسعى بالفرقة ويعمل جاهداً للخلاف، يُنادي بالمحبة والأحقاد تأكل كبده لا أمل له إلا القضاء على الأمة وعقيدتها ومحوها وإزالتها.

وسائل الترويج بيد الذي يُمسك الزمام؛ ينشر الشائعات التي يريد ويُوزّع الدعايات التي يرغب ويبثّ الافتراءات التي يختار ويُصدّق الذي يُحبّ ويُكذّب الذي يكره، ويُصفّق لكل هذا المنتفعون الذين يُحيطون به فيده بحلوقهم، وأيديهم إلى أكواعها بالرزق ويمرحون بخير الدنيا، فلا يرون إلّا ما يقول ولا يصل إلى أسماعهم إلا ما ينطق به، ويتبع آثارهم الذين يريدون المكانة ويعشقون الشهرة ويسيرون وراء الشهوة يرفعون رؤوسهم ليراهم الناس ويتحدّثون تزلّفاً ليُسمع صوتهم ويُحاولون إجادة النطق ليكونوا حديث الخلق، ويتبخترون لتظنّ العامّة أنهم على شيء، وما هم بشيء إن هم إلا في قلوبهم مرض. فالمساكين لا يعرفون إلا ما يُشاع ولا يسمعون إلا ما ينتشر فيقبلون ويسيرون كالقطيع يبحث عن مرعاه، ويفتش عن غذائه، ويسير وراء مواطن الغيث.

والسلطة كذلك بيد الذي يُمسك الزمام فيكمّ نَفَسَ من لا يُساير الركب ويقطع نَفَسَ من يُعاند فلا يرتفع بعدها صوت، ولا تخرج كلمات فيُغطّى الصواب ولا يظهر، ويبدو ما يقال وما فيه من الحق إلا القليل، ويحجب الكثير من الخير ويتلألأ غيره بأثوابٍ مزخرفةٍ وأقوالٍ مُنمّقةٍ وأضواءٍ على ذلك مسلّطةٍ وأفواهٍ هادرةٍ مؤيّدةٍ وأكفٌّ مُصفّقةٍ فيختفي ما يُراد خفاؤه ويظهر ما يُحبّ ظهوره.

كان أعداء الإسلام إذا ما سيطروا على مصرٍ إسلامي يبذلون جهدهم ليولّون زمام ذلك المصر رجلاً من غير ملّة أهله غير أنه يُظهر عقيدتهم بلسانه ويُخفي في قلبه غير ذلك، وقد استطاع أن يعيش في هذا المجتمع مدةً من الزمن مع أهله الذين قدموا إلى هذا المصر لتمثيل دورٍ أو تحقيق هدفٍ وقد استطاعوا أن يُظهروا غير ما يُبطنون وأن يُعايشوا المجتمع كأنهم جزء منه وبمقدار ما يستطيع الذي يُهيّأ أن ينجح في تمثيل دوره بمقدار ما يقترب مما تصبو إليه نفسه ويحلم به لغده.

إذا نجح أحدهم في اتباع ما يجب عليه وساعدته الظروف لتسلّم زمام المصر الذي يعيش فيه أبدى تمسّكه

بملّته التي هي ملّة مجتمعه وأظهر حرصه عليها ودفاعه عنها فيؤيّد المقرّبون ويشهد على ذلك المتزلّفون ويُصدّق بعد ذلك المساكين. ولكن تجري المخالفات بهدوءٍ، ويسير الراعي برعيته مُبتعداً عن منهج الأمة مع تصريحاتٍ متكررةٍ بالتزام النهج والحرص عليه لذا يظهر على الساحة ما يُحزن ويبدو ما يُفتت الأكباد فترى الأمة تحتضر والغناء يصدح، والرقص يعمّ، والأبناء مشغولون بالألعاب يهتفون ولا يُبالون بما يجري إذ لا يدرون ماذا على الساحة. ويلتقي الراعي أو من يمثّله مع الخصم اللدود لبحث الخلافات فإذا باللقاء لقاء عرفان، لقاء أحبابٍ غير أن التصريحات تصريحات خلافٍ وعدوانٍ، والاجتماع اجتماع أصحاب.

ينتبه بعض الناس إلى ما يجري فيأخذهم العجب ويتكلّمون فيتأثّر بهم غيرهم ويسود ذلك فيميلون عما يرون، ويتجهون إلى طرفٍ آخر يرونه إلى الحق أقرب وعن سوء النية أبعد وإلى طريق السداد أكثر ميلاً فيسيرون نحوه عسى أن يكون الفتح.

ارتحل آل بويه من بلاد فارس إلى بلاد الديلم وأقاموا هناك مدةً حتى نُسبوا إلى تلك البلاد، وكذا شأن كل من يريد أن يُغيّر معالم شخصيته ليلعب دوراً،

وخدم أبناء بويه ملك طبرستان «ما كان بن كاني» ثم انتقلوا إلى الملك «مرداويح» عندما تغلّب على الملك السابق، وأبدوا الخدمة التامة وأظهروا الطاعة وعملوا بإخلاص لمرداويح فاستعملهم على أعمال البلدان، فأعطى علي (عماد الدولة) بن بويه نيابة الكرخ فأظهر أنه من ملّة أهلها فالتفّ حوله الناس وأحبوه، فحسده «مرداويح» وبعث إليه يعزله عنها، ويستدعيه إليه فامتنع من القدوم إليه، وسار إلى أصبهان واستولى عليها، فبعث له مرداويح جيوشاً أخرجوه منها فقصد أذربيجان واستطاع أن يحتلّها وحصل على أموالٍ كثيرةٍ جداً، فأعطى المال وجمع العسكر إذ كانت تسعى وراء القويّ لتحصل على المال من السلب والنهب وما يُعطيه الفائز بالمعركة فاشتهر أمره فقصده الناس واجتمع إليه من الجند خلق كثير، واستطاع هو وأخواه أحمد (معز الدولة) والحسن (ركن الدولة) أن يملكوا بغداد من أيدي الخلفاء العباسيين الذي كانوا قد ضعف أمرهم لسيطرة العقلية العسكرية التركية الانتهازية فصار لبني بويه في بغداد القطع والوصل والولاية والعزل وإليهم تجبى الأموال ويُرجع إليهم في سائر الأمور والأحوال.

منذ أن دخل بنو بويه بغداد أعلنوا أنهم من

المسلمين الملتزمين ومن أتباع الطالبيين وأشياعهم الذين يعملون لإقامة سلطانهم وإنشاء دولتهم في سبيل عزّة الأمة وإحياء مجدها وإعادة مكانتها والحقيقة أنهم يريدون أن يجدوا لهم سنداً، وقد اختاروا هذا الاتجاه لأن الأقلية تكون أكثر تماسكاً وأكثر حماسةً، كما أن هذا الفريق أصحاب عاطفةٍ بالدرجة الأولى وأصحاب العاطفة يمكن التأثير عليهم بسهولةٍ واللعب بعواطفهم وتوجيههم إلى أيّ منحىً يريدون، وفعلاً وجد بنو بويه الهدف الذي كانوا يتوقّعون، فكان أدعياء التشيّع للطالبيين دعامتهم الأساسية التي يحرّكونها كما يشاءون.

وما أن رسخت أقدام بني بويه في بغداد وتمّت لهم السيطرة على الخلافة حتى ظهرت أبعاد ما يهدفون إليه ويمكن ملاحظة بعض النقاط:

١" ـ ما أن أحسّ بنو بويه بقوتهم وسلطانهم حتى ثارت فيهم العصبية الجاهلية ونزعوا إليها يسمّون أبناءهم بالأسماء الجاهلية وتركوا الأسماء الإسلامية التي اتخذوها مدةً تغطيةً وادعاءً بقبولها. فأحمد (معز الدولة) سمى ابنه بختيار، والحسن (ركن الدولة) سمى ابنه فناخسرو. وفناخسرو هذا سمّى أبناءه: فيروزشاه، وفيروز، والمرزبان.

وعُرف من أسمائهم: رستم، سلار، بهرام، وكامرو، واسفنديار، وخسروشاه، وفولاستون، وخسروفيروز، وأبو كاليجار. وهذه كلها من أسماء الذين حكموا المدن والأمصار.

وكان بعضهم يحاول إخفاء الاسم الجاهلي باللقب مثل: عز الدولة، مؤيد الدولة، سند الدولة، بهاء الدولة، تاج الدولة، عضد الدولة، فخر الدولة، قوام الدولة، جلال الدولة و.... كما يكون إخفاء الاسم بالكنية مثل: أبو طاهر، أبو نصر، أبو الفوارس، أبو شجاع، أبو المظفر و.... وتركوا الأسماء الإسلامية التي رأيناها في البداية: أحمد، الحسن، علي. أي فضّلوا الأسماء الجاهلية على الإسلامية، وقد بدّلوها حين وصلوا إلى مبتغاهم ولهذا معناه الكبير وأبعاده الخطيرة.

ومن المؤسف أن هذا لم يذكره أحد من قبل.

٢" ـ ما أن وصل معز الدولة بن بويه إلى بغداد في الحادي عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ حتى التقى بالخليفة المستكفي بالله وأظهر الطاعة والمودة ريثما تستقرّ الأوضاع، وبعدها يبدأ في مخططه وهو إثارة الفتنة وتجزئة الأمة، فلما كان الثاني

والعشرون من شهر جمادى الآخرة من السنة نفسها حضر معز الدولة البويهي والناس عند الخليفة وحضر رسول صاحب خراسان ومعز الدولة جالس ثم حضر رجلان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفي بالله فظنّ أنهما يريدان تقبيلها فمدّها إليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته في حلقه، ونهض معز الدولة، واضطرب الناس ونُهبت الأموال، وساق الديلمان المستكفي بالله ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها، ونُهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء، وقُبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي بالله، وأُخذت القهرمانة عَلَم فقُطع لسانها[1].

كانت الغاية إضعاف الخلافة، وإلقاء الرعب في نفس الخليفة حتى يطيع، وبذر بذور الفتنة بين الخليفة وهو من أهل السنة ومعز الدولة والديلم ممن يدّعي التشيّع للطالبيين ويجب أن تكون الفتنة مشتعلةً دائماً بين الفريقين وعلى الرغم من أن العباسيين والطالبيين من بني هاشم إلا أنهم يريدون أن تكون الخلافة محصورةً في أسرةٍ واحدةٍ كي تبقى الفتنة قائمةً حتى في أبناء العمومة.

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير. والبداية والنهاية: ابن كثير.

كان الديلم يظهرون التشيّع ويُغالون في ذلك ويعتقدون أن العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها (الطالبيين) لذا لم يكن عندهم باعث ديني يحثّهم على الطاعة.

استشار معز الدولة البويهي جماعةً من خواصّ أصحابه في إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعزّ العبيدي صاحب مصر أو لغيره من الطالبيين فكلهم أشار عليه بذلك عدا بعض خواصّه فإنه قال: ليس هذا برأيٍ فإنك اليوم مع خليفةٍ تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة[1] ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه، ومتى أجلست بعض الطالبيين خليفةً كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمر بقتلك لفعلوه فأعرض عن ذلك[2].

لا بدّ من ممارسة إثارة الفتن بين أبناء الأمة، ولكن هذا لا يكفي فأخذت الأصابع تلعب فوقعت فتنة بين أهل السنة وبين الشيعة ونهبت منطقة الكرخ وذلك

---

(١) يؤكّد هذا الاعتقاد أن الدعم الذي لقيه العباسيون من هذه الجماعة لم يكن عن محبةٍ أو تأييدٍ صحيح بل هو لإثارة الفتنة التي قاموا وهي أكبر أهدافهم.

(٢) الكامل في التاريخ، والبداية والنهاية.

في شهر ربيع الأول سنة ٣٣٨هـ، وكذلك وقعت الفتنة سنة ٣٤٦هـ وسببها سبّ الصحابة وكتابة شتمهم على الجدران بالأسماء الصريحة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، ومعاوية ﷺ. ودون أن يعير المسيطرون على البلد أي اهتمامٍ بل بموافقتهم وتشجيعٍ منهم. ووقعت الفتنة بأصبهان بين أهلها وأهل قم بسبب المذهب، ووقع عدد كبير من القتلى إذ استغاث أهل أصبهان بأهل السواد على أهل قم وغضب معز الدولة وأرسل المال والمساعدات لأهل قم وذلك سنة ٣٤٥هـ، وتجددت هذه الفتنة بين الطرفين في بغداد سنة ٣٤٩هـ، وذهب ضحيتها الكثير.

وفي سنة ٣٥١هـ كتبت العامة من الديلم سبّ الصحابة على أبواب المساجد وبلغ ذلك معزّ الدولة البويهي فلم يُنكره ولم يُغيّره، ثم بلغه أن أهل السنة محوا ذلك وكتبوا عوضه: لعن الله الظالمين لآل محمد من الأولين والآخرين.

وفي العاشر من المحرم سنة ٣٥٢هـ أمر معزّ الدولة بن بويه أن تُغلق الأسواق وأن تلبس النساء المسوح من الشعر، وأن يخرجن في الأسواق حاسراتٍ عن وجوههن ناشرات شعورهن يلطمن وجوههن، ينحن

على الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ. ولم يستطع الطرف الآخر فعل شيءٍ لكون السلطان مع الفريق الأول. وفي الثامن عشر من شهر ذي الحجة من السنة نفسها أمر معز الدولة بن بويه بإظهار الزينة في بغداد وأن تُفتح الأسواق بالليل كما في الأعياد، وأن تُضرب الأبواق، وأن تُشعل النيران عند أبواب الأمراء وعند الشرط فرحاً بعيد الغدير ـ غدير خمّ[1] ـ فكان وقتاً عجيباً مشهوداً وبدعةً شنيعةً ظاهرةً مُنكرةً[2]. وغدت هاتان المناسبتان تتكرران كل سنةٍ تقريباً وتتكرّر معهما الفتن والخلاف والتفرقة وتقف السلطة ومن يتبعها من الديلم مع أشياع الطالبيين لا حُبّاً بهم كما يدّعون ولا تأييداً كما يزعمون بل لأنهم الأقلّ، والمخطط يقضي ألا يُقضى على فريقٍ ويبقى الآخر يتسلّم الأمر ويسير بالركب يُعلن الجهاد وينطلق بالفتح، يقوم بالدعوة وينشر الإسلام بل يقضي أن يبقى الفريقان يقتتلان تذهب

(١) غدير خم: موقع بين مكة والمدينة على مقربةٍ من مدينة رابغ اليوم. وفي هذا الموقع خطب رسول الله ﷺ يوم الأحد الثامن عشر من ذي الحجة في السنة العاشرة من الهجرة، وذلك بعد عودته من مكة بعد أداء مناسك حجة الوداع، وذكر في خطبته بعض فضائل علي بن أبي طالب ﷺ.

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير.

الضحايا وتستمر الفتن وتضعف الأمة وتسير نحو الهاوية وإذا أعلن المؤشّر قرب الزوال تحرّك المتلوّنون ونادوا بعودة جاهليتهم حكماً وملّة وأعلنوا استلامهم السلطة واعتناقهم المجوسية.

٣" ـ في عهد السيطرة البويهية سيطر على البلاد الإسلامية كلها عدا الأندلس أسر متعددة تلتقي جميعها بخطٍ واحدٍ وهدفٍ واحدٍ وإن كانت تختلف من حيث المبدأ وتتباين من حيث الأرومة، فكلها تُظهر دعم الطالبيين ومشايعتهم وقد يدّعي بعضها الانتماء إليهم كالعبيديين والقرامطة وفي هذا الادّعاء منتهى السخرية كما يدّعي طائر البوم أنه يعود في أصله إلى الأسد، وكذلك تتفق على هدفٍ واحدٍ وهو الهدم من الداخل وبثّ تعاليم باطلة لإفساد العقيدة وعمل النخر فيها.

يعود البويهيون والسامانيون والقرامطة إلى أرومةٍ واحدةٍ ولهم هدف واحد وقد يقع بينهم خلاف ويُؤدّي إلى صدامٍ نتيجة أطماع عمال المناطق المتجاورة ورغبتهم في النفوذ أو المكانة وزيادة المال، ولكن لا يلبث أن ينتهي الخلاف إلى صلحٍ وتفاهمٍ، وقد كان للقرامطة مندوب عند البويهيين في بغداد، وهو ابن شاهويه.

ويرجع الحمدانيون إلى أرومةٍ ثانيةٍ فهم من العرب لكنهم أصحاب مصالح بالدرجة الأولى لذا كانوا مع القائم القوي فأظهروا مشايعة الطالبيين وتشدّدوا، وتعاونوا مع القرامطة واستخدموا بعضهم، وقاتلوا الإخشيديين في مصر لمصلحة العبيديين في المغرب، ولما جاورهم العبيديون بعد انتصارهم على الإخشيديين كان التعاون والتنسيق وكانت الصلة. وقد يقع الخلاف بين الحمدانيين والبويهيين ولكن ينتهي الأمر بالتفاهم والصلح، وكأن الأمر ما كان إلا للتغطية ورشّ الرماد على الأعين.

وينتمي العبيديون إلى أرومةٍ بعيدةٍ البعد كله عن المكان والزمان والانتماء والعقيدة ومع ذلك يدّعون الانتماء إلى علي بن أبي طالب ﷺ ادّعاء كذبٍ وزورٍ. ورغم ذلك فقد كان التأييد والتعاون مع أصحاب السيطرة، فقد فكّر معزّ الدولة بن بويه أن يدعو للعبيديين في بغداد بعد أن دخلها، وخطب لهم البساسيري سنةً كاملةً في بغداد، ودعا لهم السامانيون مدةً، وكانت صلتهم حسنةً مع القرامطة والحمدانيين، وحارب الحمدانيون الإخشيديين لمصلحة العبيديين.

٤" ـ لم يُعلن المسيطرون الجهاد أبداً سواء أكان

ذلك في قتال الروم أم قتال غيرهم لأن الجهاد يُثير همّة المسلمين ويزيد في اندفاعهم ويُشعل فيهم الحماسة، وهذا ما يُقوّي المسلمين، وهم يريدون إضعافهم.

وهكذا عمل البويهيون ومن والاهم على إنماء العصبيات الجاهلية أرومات وعقائد، وعملوا كذلك على إضعاف المسلمين بترك الجهاد ومحاولة إماتة هذه الفكرة وبالتفرقة والفتن التي يُثيرونها دائماً، والعمل على نشر الضلال بالبعد عن الحكم بما أنزل الله وبثّ أفكارٍ مخالفةٍ ومحاولة إدخال أمورٍ غريبةٍ ليست من الدين والادّعاء بأنها من الدين كالإمامة و....

ضعفت الأمة ووصلت إلى مرحلةٍ متعبةٍ طمع بها العدوّ وأشرأبت أعناق المتلوّنين الذين يحلمون بهذا ويأملون أن يسترجعوا ماضيهم الجاهلي.

انتبه بعض الناس إلى ما يجري وأخذ الحديث عن العمل، وتحرّكت بعض الهمم، وظهرت جماعة على الساحة ليست بعيدة العهد بالإسلام فالعاطفة عندها لا تزال متأججةً والحماسة لا تزال قويةً، فارتفع شأنها، ودخلت ميدان المنافسة العسكرية وتمكّنت من دخول عدة مناطق فاتجهت نحوها الأنظار، وأعلن أميرها طغرل بك أنه ينوي الجهاد فمالت إليه القلوب، وغزا

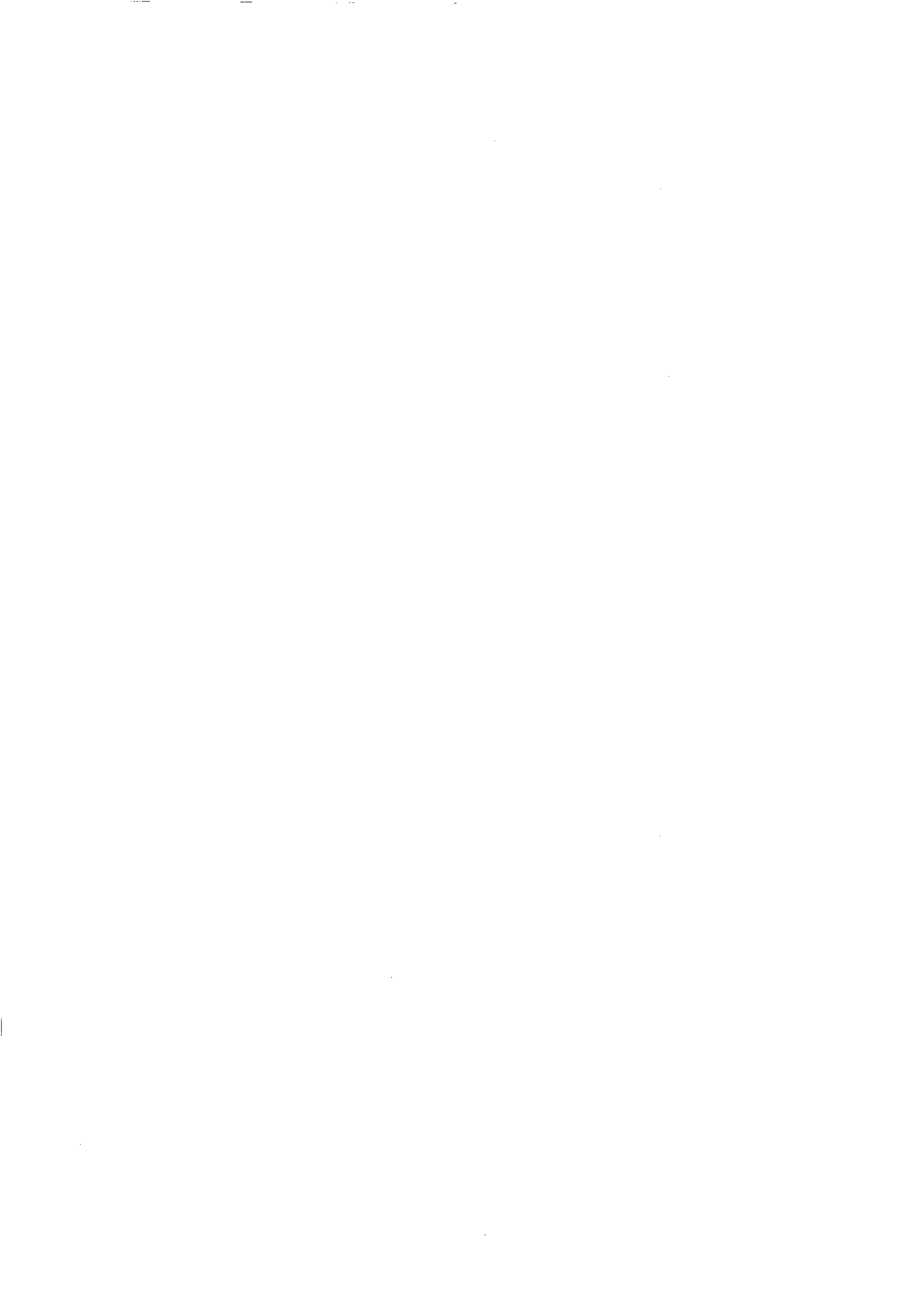
الروم مجاهداً، وراسله الخليفة وكانت السلطنة قد انحلت بسبب الخلاف، فقدم طغرل بك إلى العراق ودخل بغداد، وآلت إليه السلطنة، وعامل من كان قبله من البويهيين معاملة اللين، بل أوكل إلى بعضهم أعمالاً كي لا تكون عصبيات وتفتق جراحات.

ومع غياب البويهيين شعر القرامطة بدنو أجلهم وأحسّ العبيديون بقرب زوالهم إذ ظهرت فكرة محاربة الضلال وبدت الحماسة للجهاد... فكان هذا نذيراً لأولياء المتلوّنين بالرحيل وسنرى مصرعهم عما قريب.

وأخيراً نرجو من الله العلي الكريم أن يُوفّقنا بالعمل ويُجنّبنا الزلل، ويدفعنا للسعي وراء الحق، ويُبعدنا عن الغلط، ويُيسّر لنا الصواب، ويجعلنا هداة مهديين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض: غرة ربيع الأول ١٤٢٢هـ
٢٥ أيار ٢٠٠١م

محمود شاكر

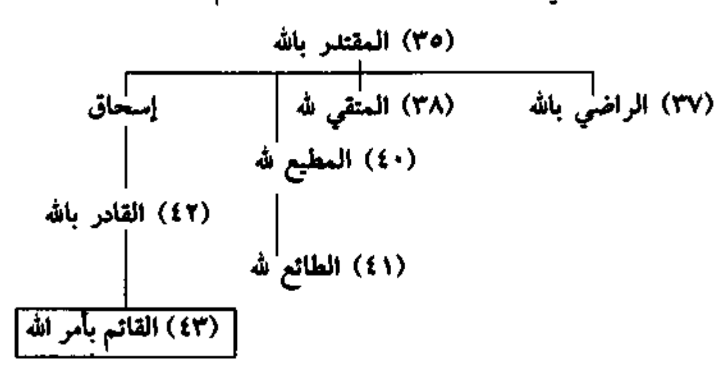


الفصل الأول

٤٣ - القائم بأمر الله

٤٢٢ - ٤٤٧هـ
---
٤٤٧ - ٤٦٧هـ

القائم بأمر الله هو الخليفة أبو جعفر عبد الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.



كان الخليفة القائم بأمر الله خليفةً في عهد السيطرة البويهية منذ ٤٢٢هـ أي قبل خمسٍ وعشرين سنةً من عصر سيطرة السلاجقة. وكان أبو الحارث أرسلان البساسيري التركي أحد موالي بني بويه قد طغى واستبدّ وخافه الناس جميعاً. وثبت للخليفة أن البساسيري سيئ العقيدة، وأن عنده رغبةً بالقبض على الخليفة وإلغاء الخلافة العباسية فما كان من الخليفة القائم بأمر الله إلا أن راسل طغرل بك أبا طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق سلطان الأتراك الغزّ وهو بالريّ يستنهضه للقدوم إليه ببغداد، وكان قد عاد من الجهاد في بلاد الروم فأحبه الناس ومالت إليه القلوب، ووصل إلى همذان وأظهر أنه ينوي الحج، ويريد إصلاح طريق مكة ويبغي المسير إلى الشام ومصر وإزالة دولة العبيديين، وكتب إلى أصحابه في الدينور وقرميسين وحلوان وغيرها فأمرهم بإعداد الأقوات والعلوفات فاتجهت نفوس المؤمنين إليه وفتّ في عضد غيرهم وشغب الأتراك ببغداد وهو منهم لأن ما يريده يقطع سبيل النهب وقصدوا ديوان الخلافة.

وصل طغرل بك إلى حلوان وانتشر أصحابه في طريق خراسان لاستقباله وأجفل الناس إلى غربي بغداد، وأخرج الأتراك خيامهم إلى ظاهر بغداد، وسمع خسرو فيروز البويهي (الملك الرحيم) بقرب طغرل بك من بغداد فسار من

واسط إليها، وفارقه البساسيري في الطريق لمراسلة وردت من الخليفة إلى الملك الرحيم البويهي، وتنصّ: إن البساسيري خلع الطاعة وكاتب الأعداء ـ ويعني العبيديين ـ وإن الخليفة له على الملك عهود وله على الخليفة مثلها، فإن آثر البساسيري فقد قطع ما بينهما وإن أبعده وقدم إلى بغداد تولّى الديوان تدبير أمره، فقال الملك الرحيم ومن معه نحن لأوامر الديوان متبعون وعن البساسيري منفصلون.

سار البساسيري إلى نور الدين دبيس بن علي بن مزيد الأسدي أمير بادية الحلّة حيث كانت بينهما مصاهرة، وسار الملك الرحيم إلى بغداد. وأرسل طغرل بك رسولاً إلى الخليفة يُبالغ في إظهار الطاعة، وإلى الأتراك في بغداد يعدهم الجميل والإحسان فأنكروا ذلك وراسلوا الخليفة بهذا المعنى وقالوا: إننا فعلنا بالبساسيري ما فعلنا وهو كبيرنا ومقدمنا بتقديم أمير المؤمنين له، ووعدنا أمير المؤمنين بإبعاد هذا الخصم عنا ونراه قد قرب منا[1] ولم يمنع من المجيء.

---

(١) يخشى الأتراك في بغداد من زيادة النقمة عليهم من البويهيين والديالمة بقدوم أحد الزعماء الأتراك إلى بغداد رغم أنف أصحاب السيطرة السابقين. لذا رغب الأتراك في إظهار كراهية العصبية وعدم رغبتهم بهذا القادم الجديد.

وصل خسروفيروز البويهي (الملك الرحيم) إلى بغداد في منتصف شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ وأرسل إلى الخليفة يظهر له الطاعة، وأنه قد سلّم أمره إليه ليفعل ما تقتضيه العواطف معه في تقرير القواعد مع السلطان طغرل بك وكذلك قال من مع الملك الرحيم من الأمراء فأُجيبوا بأن المصلحة تقتضي بأن يُدخل العساكر خيامهم من ظاهر بغداد إلى داخلها وأن يُرسلوا رسولاً إلى طغرل بك يبذلون له الطاعة والخطبة فأجابوا إلى ذلك وفعلوه، وأرسلوا رسلاً إليه فأجابهم إلى ما طلبوا ووعدهم الإحسان إليهم، وتقدّم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرل بك بجوامع بغداد فخُطب له يوم الجمعة لثمانٍ بقين من رمضان سنة ٤٤٧هـ. وأرسل طغرل بك يستأذن الخليفة في دخول بغداد فأذن له فوصل إلى النهروان فخرج الوزير في موكبٍ عظيمٍ من القضاة والأعيان والأمراء من عسكر الملك الرحيم البويهي فلما علم بهم طغرل بك أرسل إلى طريقهم الأمراء ووزيره أبا نصر الكندري، فلما وصل وزير الخليفة إلى السلطان طغرل بك أبلغه رسالة الخليفة واستحلفه للخليفة وللملك الرحيم وأمراء الأجناد، وسار طغرل بك ودخل بغداد يوم الاثنين لخمسٍ بقين من شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ، ونزل بباب الشماسية، ووصل إليه قريش بن

بدران صاحب الموصل وكان في طاعته في هذا الوقت.

دخل عسكر طغرل بك بغداد وتوزّعوا يشترون ما يحتاجون إليه وأحسنوا معاملة السكان، وفي اليوم الثاني وهو يوم الثلاثاء أراد أحد العسكر أن يشتري علفاً لدابته وابن بغداد لا يفهم ما يريد العسكري فاستغاث عليهم وصاح العامة بهم وهاجوا عليهم وعلا الصياح وظنّ الناس أن الملك الرحيم البويهي وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك وخاصةً أن الصيحة الأولى إنما صدرت عن بعضهم، وعمّت الفتنة محال بغداد كلها تقريباً إلا أهل الكرخ فإنهم لم يتعرّضوا للسلاجقة أبداً بل جمعوهم وحفظوهم خوفاً من شائعة التهمة فيخشى إن سرت أن تحلّ بهم نازلة. وبلغ السلطان طغرل بك ما فعله أهل الكرخ من حماية أصحابه فأرسل عميد الملك الوزير إلى عدنان بن الشريف الرضي نقيب الطالبيين يأمره بالحضور فحضر فشكر له عن السلطان وترك عنده خيلاً بأمر السلطان تحرسه وتحرس المحلة، وأما أعيان أصحاب الملك الرحيم البويهي فقد دخلوا دار الخلافة وأقاموا بها نفياً للتهمة عن أنفسهم ظنّاً منهم أن ذلك ينفعهم، فكان ذلك مؤشّراً على الذين كانوا وراء ما حدث.

أرسل طغرل بك من الغد إلى الخليفة يعتب، وينسب ما جرى إلى الملك الرحيم البويهي وعسكره، ويقول: إن حضروا برئت ساحتهم، وإن تأخّروا عن الحضور أيقنت أن ما جرى إنما كان بوضعٍ منهم، وأرسل للملك الرحيم البويهي وأعيان أصحابه أماناً لهم، فطلب الخليفة منهم يستقدمهم إلى طغرل بك فركبوا إليه، وأرسل الخليفة معهم رسولاً يبرئهم مما خامر خاطر السلطان. ولما دخل الملك الرحيم البويهي خيمة السلطان طغرل بك أمر بالقبض عليه وعلى من معه، فقُبض عليهم جميعاً في آخر أيام شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ وحُبسوا، ثم حُمل الملك الرحيم إلى قلعة السيروان، وكان الملك الرحيم قد ملك بغداد ست سنواتٍ وعشرة أيامٍ. ونُهب في هذه المدة صاحب الموصل قريش بن بدران، ثم علم السلطان طغرل بك بما أصاب قريش بن بدران فأرسل إليه وخلع عليه واعتذر منه وأمره بالعودة إلى أصحابه.

وأرسل الخليفة القائم بأمر الله إلى السلطان طغرل بك ينكر ما جرى من القبض على الملك الرحيم البويهي وأصحابه وما حدث من تعدياتٍ في بغداد، وقال: إنهم إنما خرجوا إليك بأمري وأماني فإن

أطلقتهم وإلا فأنا أغادر بغداد فإني إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني أن الأوامر الشريفة تزداد مكانةً وأن حرمة الحريم تعظم وأرى الأمر بالضدّ فأطلق بعضهم وأخذ إقطاعات عسكر الملك الرحيم جميعها وأمر أصحابه بالسعي في أرزاقٍ يحصّلونها لأنفسهم فتوجّه كثير منهم إلى البساسيري ولزموه فكثر جمعه. وأمر طغرل بك بأخذ أموال الأتراك في بغداد ـ كي لا تظهر عصبيات ـ وأرسل إلى نور الدولة دبيس بن علي الأسدي يأمره بإبعاد البساسيري عنه ففعل، فسار البساسيري إلى رحبة مالك على نهر الفرات جنوب قرقيسيا، وكاتب المستنصر العبيدي صاحب مصر بالدخول في طاعته، وخطب نور الدولة دبيس الأسدي لطغرل بك في مناطق نفوذه.

ضمن السلطان طغرل بك البصرة والأهواز من هزارسب بن بنكير بن عياض بثلاثمائةٍ وستين ألف دينارٍ، وأقطعه أرجان، وأمره أن يخطب لنفسه بالأهواز دون الأعمال التي ضمّها، وأقطع الأمير أبا علي كيخسرو بن المرزبان أبي كاليجار البويهي، وأبو علي هو أخو الملك الرحيم البويهي خسروفيروز أقطعه قرميسين وأعمالها (أقطعه ذلك كي لا تكون خلافات

بين السلاجقة الأتراك وبين البويهيين الديالمة «الفرس» كما كانت سابقاً). وأمر طغرل بك أهل الكرخ أن يُنادى بآذان السحر «الصلاة خير من النوم». وأمر كذلك بعمارة دار المملكة فعمرت وزيد فيها، وانتقل إليها في شهر شوال ٤٤٧هـ.

وعقد الخليفة القائم بأمر الله على خديجة ابنة داود أخي طغرل بك وذلك في شهر شوال سنة ٤٤٨هـ، وبنى بها في شهر شعبان من السنة نفسها.

سار إلى واسط علاء الدين أبو الغنايم بن المحلبان للنظر على واسط وأعمالها وذلك سنة ٤٤٨هـ وما أن قضى مدةً حتى صار له أتباع فغرّته نفسه فخلع الطاعة وخطب للمستنصر العبيدي صاحب مصر فسيّر الخليفة لحربه أبا نصر الكندري عميد الملك وزير السلطان طغرل بك، فالتقى الجمعان، وانهزم أبو الغنايم، وأُسر عدد كبير من أصحابه، وتسلّم أبو نصر البلد وضبط أمورها وعاد إلى بغداد وما أن اقترب منها حتى بلغه أن ابن فسانجس قد رجع إلى واسط وأعاد الخطبة إلى العبيديين فطلب منصور بن الحسين النجدة من بغداد فكتب إليه عميد الملك أبو نصر أن يقصد واسطاً هو وابن الهيثم وأن يحاصراها فأقبلا إليها وألقيا

الحصار عليها سنة ٤٤٩هـ حتى ملّ الطرفان الحصار، وخرج أهل واسط للقتال فلم يثبتوا، وهرب ابن فسانجس من واسط فلحقه جماعة فأدركوه وقُبض عليه وحمل إلى بغداد فقُتل هناك.

أما البساسيري فإنه قد سار نحو الموصل ومعه نور الدولة دبيس بن علي الأسدي لقتال صاحب الموصل قريش بن بدران ومعه قتلمش ابن عم السلطان طغرل بك فالتقى الطرفان عند سنجار، فانهزم قريش صاحب الموصل وقُتل عدد كبير من أصحابه، وأصابت قريش جراح وحمل أسيراً جريحاً إلى نور الدولة فأكرمه وخلع عليه، وساروا جميعاً إلى الموصل، وخطبوا للعبيديين.

ووصلت أخبار البساسيري والوقعة السابقة إلى السلطان طغرل بك وهو يريد أن يغادر بغداد ليُخفّف عن أهلها عبء عسكره فسار عن بغداد في العاشر من شهر ذي القعدة سنة ٤٤٨هـ، وكانت إقامته في بغداد ثلاثة عشر شهراً وأياماً، وسار إلى نصيبين، ورجع إلى طاعته نور الدولة دبيس بن علي الأسدي وقريش بن بدران فعفا عنهما وأكرمهما، وقال: أما البساسيري فذنبه إلى الخليفة ونحن متبعون أمر الخليفة، فرحل

البساسيري عند ذلك إلى الرحبة وجماعات من الأتراك إلى بغداد.

وقصد السلطان طغرل بك ديار بكر فسار إلى جزيرة ابن عمر فحاصرها، ووصل إليه أخوه لأمه إبراهيم ينال فلقيه الأمراء، ثم سار السلطان إلى سنجار ودخلها واشتدّ على أهلها، وطلب إبراهيم ينال من أخيه السلطان العفو فعفا وسلمه الموصل والمنطقة بما فيها سنجار، وعاد السلطان إلى بغداد.

عندما وصل السلطان طغرل بك إلى بغداد ولّاه الخليفة جميع ما ولي من بلاد وطلب منه أن يتقي الله فيما ولّاه وأن يعرف نعمة الله عليه وأن يجتهد في نشر العدل وكفّ الظلم وإصلاح الرعية، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب، فأعطى العهد وخرج.

كان السلطان طغرل بك قد ضمّن هزارسب بن بنكير بن عياض البصرة والأهواز وأرجان وشيزار، ولما كان السلطان بالموصل كان هزارسب معه، وأثناء غياب هزارسب عن بلاده أغار عليها رسول تكين ابن عم السلطان ومعه فولاذ، فلما فرغ السلطان من ناحية الموصل وديار بكر ردّ هزارسب إلى بلاده وأمره بقتال رسول تكين وفولاذ فالتقى بهما وقاتلهما قتالاً شديداً

فقتل فولاذ وأسر رسول تكين ابن عم السلطان فأبقى عليه ثم بعثه إلى دار الخلافة بناءً على طلبه عسى أن يشفع له الخليفة.

غادر إبراهيم ينال أخو السلطان طغرل بك لأمه الموصل وما سلّمه إياه أخوه السلطان وارتحل إلى بلاد الجبل فعدّ السلطان رحيله عصياناً فبعث إليه رسولاً يستدعيه، وكذلك كتب له الخليفة فرجع إبراهيم إلى أخيه السلطان وهو ببغداد فخرج إليه الوزير أبو نصر الكندري يستقبله، ولما فارق إبراهيم الموصل قصدها البساسيري وقريش بن بدران وحاصراها وملكاها بعد يومٍ واحدٍ، أما القلعة فبقي العسكر فيها يحمونها فحاصراها أربعة أشهرٍ حتى ضاق من فيها ذرعاً بفقد التموين فخاطب صاحب إربيل أحد القادة المحاصرين وهو قريش بن بدران فأمّن من في القلعة فخرجوا فهدّمها البساسيري وأزال أثرها.

سار السلطان طغرل بك إلى الموصل في ألفي فارسٍ فلم يجد بها أحداً إذ كان البساسيري وقريش بن بدران قد غادراها، فسار السلطان إلى نصيبين ليتتبع آثارهم ويخرجهم من البلاد ففارقه أخوه إبراهيم ينال وسار نحو همذان فوصل إليها في السادس والعشرين

من شهر رمضان سنة ٤٥٠هـ، وقد أُشيع أن العبيديين قد راسلوه وأن البساسيري قد استماله وأطمعه في السلطنة والبلاد مكان أخيه، فلما رجع إلى همذان سار السلطان في أثره، وجاءه مدد من بغداد من عسكره.

جاء إلى بغداد دبيس بن علي الأسدي بأمرٍ من الخليفة، وقوي الإرجاف بمسير البساسيري نحو بغداد، ثم تحقق وصوله إلى هيت[1] فاقترح دبيس على الخليفة والوزير خروجهما معه إلى هزارسب في واسط فيقيمان هناك ويسير هو وهزارسب لحرب عدوهما البساسيري فأجاباه: يحتاج الأمر إلى وقتٍ لدراسته فقال: إن ما معي من الأعراب لا يطيعونني لذا سأخرج إلى ديالي وانتظركما فإذا وصلتما إليّ سرت في خدمتكما، فأقام في ديالي ينتظر قدومهما فلم يأتيا فانطلق إلى باديته.

وصل البساسيري إلى بغداد يوم الأحد الثامن من شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ، ومعه قريش بن بدران، وركب عميد الملك أبو نصر الكندري ومعه العسكر والعامة وأقاموا مقابل عسكر البساسيري ثم عادوا، وخطب البساسيري بجامع المنصور لصاحب مصر

(١) هيت: مدينة على الجانب الغربي من نهر الفرات، إلى الشمال الغربي من بغداد وعلى بُعد مائة وخمسين كيلو مترٍ منها.

المستنصر العبيدي، وأمر فأُذّن بـ«حيّ على خير العمل»، وخطب يوم الجمعة بجامع الرصافة للمستنصر العبيدي. وجرى بين الجماعتين حروب أثناء الأسبوع. وكان هناك من يشير بالتوقّف عن المناجزة ويرى المحاجزة ليرى ما يكون من السلطان طغرل بك أما رئيس الرؤساء فيرى المبادرة إلى الحرب، واستأذن القاضي في أحد الأيام رئيس الرؤساء في قتال البساسيري فأذن له فخرج ومعه الناس والتقى الجمعان فأخذ البساسيري يستجرهم ويتراجع أمامهم فلما ابتعدوا عن مواقعهم حمل عليهم فعادوا منهزمين وقُتل منهم جماعة، ورجع البساسيري إلى معسكره، واستأمن رئيس الرؤساء لنفسه وللخليفة من قريش بن بدران، ولكن البساسيري عاتب قريشاً على فعله بمخالفة ما اتفقا عليه من المشاورة في كل أمرٍ، وقبل البساسيري الأمان للخليفة وسلّمه قريش بن بدران[1] إلى ابن عمه مهارش بن المجلّي[2] وهو رجل

(١) قريش بن بدران العقيلي: صاحب الموصل ونصيبين، له إمارة بني عقيل، واستمرت إمارته عشر سنوات، ومات بالطاعون في نصيبين سنة ٤٥٣هـ.

(٢) مهارش بن المجلّي بن عكيث العقيلي، أبو الحارث، مجد الدين: أمير الحديثة، له معرفة بالأدب، وله شعر، كان مع ابن عمه قريش بن بدران، أقام عنده الخليفة مدة الفتنة=

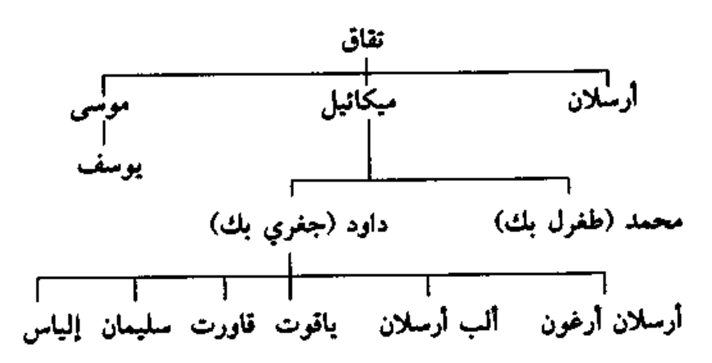
صاحب دينٍ فحمله إلى الحديثة على الفرات قرب عانة، وسار من كان مع الخليفة إلى السلطان طغرل بك وأما رئيس الرؤساء فقد أهانه البساسيري وعذّبه حتى مات، وكذا قتل البساسيري عميد العراق.

سار البساسيري إلى الأهواز فبعث صاحبها هزارسب بن بنكير إلى دبيس الأسدي يطلب منه أن يصلح الأمر على مالٍ يحمله إليه، فلم يقبل البساسيري ذلك، وقال: لا بد من الخطبة للمستنصر العبيدي صاحب مصر، وأن تكون السكة باسمه فلم يفعل هزارسب وتوقّع البساسيري أن السلطان طغرل بك يمدّ هزارسب بالعسكر، وقصد واسط في مستهل شهر شعبان سنة ٤٥١هـ.

وأما السلطان طغرل بك فإنه لما سار وراء أخيه لأمه إبراهيم ينال كان في قلّةٍ من العسكر على حين اجتمع مع إبراهيم كثير من الأتراك وحلف لهم أنه لا يصالح أخاه طغرل بك كما لا يكلّفهم المسير إلى بغداد، وجاءته قوات أيضاً مع محمد وأحمد ابني أخيه أرتاش فازداد قوةً فما كان من طغرل بك إلا أن

= فأكرمه، وعندما رجع الخليفة إلى بغداد حفظ له الخليفة ذلك وأحسن مكافأته، وبقي في الحديثة حتى توفي سنة ٤٩٩هـ.

انسحب نحو الريّ، وراسل ألب أرسلان وياقوت وقاورت أبناء أخيه داود (جغري بك). وكان ألب أرسلان قد ملك خراسان بعد وفاة أبيه، فأرسل إليهم طغرل بك يستدعيهم إليه فجاءوا إليه بالعساكر الكثيرة فالتقوا مع إبراهيم ينال بالقرب من الريّ فانهزم إبراهيم ومن معه، وأُخذ هو ومحمد وأحمد ابنا أخيه أسرى فقُتلوا في التاسع من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٥١هـ. وكان إبراهيم ينال قد خرج على أخيه لأمه طغرل بك عدة مراتٍ وكان في كل مرةٍ يعفو عنه، غير أنه في هذه المرة لم يعفُ عنه لأن ما أصاب الخليفة إنما كان بسببه، وأرسل السلطان طغرل بك إلى هزارسب بالأهواز يعلمه بما جرى، وكان عميد الملك أبو نصر الكندري فسار إلى السلطان.



لما فرغ السلطان طغرل بك من أمر أخيه إبراهيم

ينال عاد يطلب العراق ليس له همّ إلا إعادة الخليفة القائم بأمر الله إلى دار الخلافة في بغداد فأرسل إلى البساسيري وقريش بن بدران في إعادة الخليفة إلى داره على أن لا يدخل طغرل بك العراق ويقنع بالخطبة والسكة فلم يُجب البساسيري إلى ذلك، فانطلق السلطان طغرل بك إلى بغداد وما أن اقترب منها ووصلت الأخبار حتى ارتحل البساسيري وأهله عن بغداد وارتحل معهم أكثر أهل الكرخ. كان دخول البساسيري بغداد في السادس من ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ وكان خروجه منها في السادس من ذي القعدة سنة ٤٥١هـ.

خرج مهارش بن المجلي في الحادي عشر من ذي القعدة سنة ٤٥١هـ من بلده الحديثة ومعه الخليفة متجهين إلى بغداد، ولما سمع السلطان طغرل بك بذلك أرسل وزيره الكندري والأمراء والحجاب ومعهم الخيام ووسائل الركوب فالتقوا به وكانوا في خدمته. ووصل الخليفة إلى النهروان في الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٤٥١هـ فخرج السلطان إلى خدمته فاجتمع به وهنّأه بالسلامة وأظهر الفرح بسلامته، واعتذر عن تأخّره بعصيان إبراهيم ينال وقتله، وبوفاة أخيه داود جغري بك بخراسان، وقال: أنا أمضي خلف هذا. . . البساسيري،

وأقصد الشام وأفعل في حق صاحب مصر ما أجازي به فعله. وقلّده الخليفة بيده سيفاً. وتقدّم السلطان في المسيرة ووصل إلى بغداد يوم الاثنين لخمسٍ بقين من شهر ذي القعدة سنة ٤٥١هـ.

بعد أن استقرّ الخليفة في بغداد بعث السلطان طغرل بك جيشاً عليهم خمارتكين الطغرائي في ألفي فارس، وأُضيفت إليهم سرايا أخرى، وسار السلطان طغرل بك في أثرهم فلم يشعر دبيس بن علي الأسدي والبساسيري إلا والسرية قد وصلت إليهم في الثامن من شهر ذي الحجة سنة ٤٥١هـ من طريق الكوفة، وبدأت الأعراب ترحل من طريق الجيش وحاول نور الدولة دبيس أن يردّ الأعراب إلى القتال فلم يرجعوا فمضى، ووقف البساسيري في جماعته وحمل عليه الجيش فأسر عدداً من أصحابه ومنهم: منصور، وحماد، وبدران بنو نور الدولة دبيس. وسقط البساسيري[١] عن فرسه، وأصابته ضربة في وجهه، ودلّ عليه بعض الجرحى

(١) البساسيري: نسبة إلى بلدة «بسا» بفارس قرب شيراز، والعرب تجعل الباء فاء، وهو مملوك تركي من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي، واسمه أرسلان وكنيته أبو الحارث. وكان سيد هذا المملوك الأول من «بسا» فنُسب إليه، وشُهر بذلك.

فأخذه كمشتكين إلى عميد الملك أبي نصر الكندري وقتله. أما نور الدولة دبيس فقد مضى إلى البطيحة.

تمّ اتفاق بين داود جغري بك أمير خراسان أخي طغرل بك وبين إبراهيم بن مسعود بن محمود الغزنوي على أن يكون كل واحدٍ منهما على ما بيده ويترك منازعة الآخر في ملكه.

وتوفي جغري بك داود في شهر رجب سنة ٤٥١هـ وتولّى خراسان بعده ابنه ألب أرسلان. وكان جغري بك داود خيّراً عادلاً حسن السيرة معترفاً بنعمة الله تعالى عليه شاكراً عليها، فمن ذلك أنه أرسل إلى أخيه طغرل بك مع عبد الصمد قاضي سرخس يقول له: بلغني إخرابك البلاد فتحتها وملكتها وجلا أهلها عنها وهذا ما لا خفاء به في مخالفة أمر الله تعالى في عباده وبلاده وأنت تعلم ما فيه من سوء السمعة وإيحاش الرعية، وقد علمت أننا لقينا أعداءنا ونحن في ثلاثين رجلاً وهم في ثلاثمائةٍ فغلبناهم، وكنا في ثلاثمائةٍ وهم في ثلاثة آلافٍ فغلبناهم، وكنا في ثلاثة آلافٍ وهم في ثلاثين ألفاً فدفعناهم، وقاتلنا بالأمس شاه ملك وهو في أعدادٍ كثيرةٍ متوافرةٍ فقهرناه وأخذنا مملكته بخوارزم، وهرب من بين أيدينا إلى خمسمائة فرسخٍ من موضعه فظفرنا به وأسرناه وقتلناه واستولينا

على ممالك خراسان وطبرستان وسجستان وصرنا ملوكاً متبوعين بعد أن كنا أصاغر تابعين وما تقتضي نعم الله علينا أن نقابلها هذه المقابلة، فقال طغرل بك: قل له في الجواب: يا أخي ملكت خراسان وهي بلاد عامرة فخربتها ووجب عليك مع استقرار قدمك عمارتها وأنا وردت بلاداً خرّبها من تقدّمني واجتاحها من كان قبلي فما أتمكن من عمارتها والأعداء محيطة بها والضرورة تقود إلى طرقها بالعساكر ولا يمكن دفع مضرتها عنها[1].

بعد أن فرغ السلطان طغرل بك من تنظيم شؤون بغداد انطلق إلى واسط، فحضر إليه هزارسب بن بنكير وأصلح معه حال دبيس بن علي بن مزيد الأسدي وأحضره معه إلى خدمة السلطان، وجعل أمراء على واسط والبصرة ورجع إلى بغداد في شهر صفر سنة ٤٥٢هـ ومعه بعض الأمراء منهم: هزارسب بن بنكير ودبيس بن علي الأسدي وأبو علي بن الملك أبي كاليجار البويهي، والتقوا بالخليفة القائم بأمر الله.

وتزوج السلطان طغرل بك سنة ٤٥٤هـ ابنة الخليفة القائم بأمر الله.

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير. حوادث سنة ٤٥١هـ.

سار السلطان طغرل بك[1] من بغداد في شهر ربيع الأول سنة ٤٥٥هـ باتجاه خراسان فوصل إلى الريّ فأقام فأصابه المرض وتوفي يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان سنة ٤٥٥هـ، وعمره سبعون سنةً، وكان عقيماً، فلم يلد ولداً. وكانت مملكته في ظلّ الخلافة سبع سنواتٍ وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً.

ولما مات السلطان طغرل بك أجلس عميد الملك الكندري في السلطنة سليمان بن داود جغري بك (ابن خي طغرل بك) وكان طغرل بك قد عهد إليه بالملك وكانت والدة سليمان عند طغرل بك بعد وفاة أخيه داود جغري بك، فلما خُطب لسليمان بالسلطنة اختلف

---

(١) طغرل بك: محمد بن ميكائيل بن سلجوق، أبو طالب، ركن الدين، أول ملوك الدولة السلجوقية، كانوا يسكنون قبل تملكهم بلاد ما وراء النهر قرب بخارى، ولا يدينون لأحدٍ من الملوك فإذا قصدهم من لا يطيقونه دخلوا المفاوز، وهم أتراك، ولهم مع ولاة خراسان وقائع، وأول من ملك منهم أبو طالب طغرل بك هذا، وقد ولد سنة ٣٨٥هـ، وملك سنة ٤٢٩هـ، وكان حليماً ضابطاً لما يتولّاه صاحب دينٍ. وهو الذي ردّ ملك بني العباس بعد أن اضمحل وخُطب للعبيديين في بغداد عندما استولى عليها البساسيري. وأعاد طغرل بك الخليفة القائم بأمر الله من الحديثة إلى بغداد، وقتل البساسيري، وأزال ملك بني بويه، وتوفي بالريّ سنة ٤٥٥هـ.

الأمراء إذ خطب أكثرهم لعضد الدولة ألب أرسلان محمد بن داود جغري بك وهو صاحب خراسان بعد أبيه، فلما رأى عميد الملك ذلك وهو الذي خطب لسليمان بدّل رأيه وخطب بالريّ لألب أرسلان ومن بعده لأخيه سليمان.

قبض السلطان ألب أرسلان على الوزير عميد الملك أبي نصر منصور الكندري وزير طغرل بك، وبعث به إلى مدينة مروالروذ وبقي سنةً معتقلاً هناك ثم بعث إليه غلامين فقتلاه في شهر ذي الحجة سنة ٤٥٦هـ.

واستولى السلطان ألب أرسلان على هراة وصغانيان سنة ٤٥٦هـ.

عصى شهاب الدين قتلمش على السلطان وجمع جموعاً كثيرة وقصد الريّ ليستولي عليها، فجهّز السلطان ألب أرسلان جيشاً وسيّره إلى الريّ فسبقوا قتلمش إليها، وسار ألب أرسلان من نيسابور في أول الشهر المحرم سنة ٤٥٦هـ، فلما وصل إلى دامغان[١] أرسل إلى قتلمش ينكر عليه فعله، وينهاه عما قام به

(١) دامغان: مدينة بين الريّ ونيسابور، وهي قصبة قومس.

ويأمره أن يرعى القرابة والرحم، فأجاب قتلمش وهو من السلجوقية أيضاً جواب المغترّ بمن معه من الجموع. فقال نظام المُلك[1] للسلطان: قد جعلت لك من خراسان جنداً ينصرونك ولا يخذلونك ويرمون ذلك بسهامٍ لا تُخطئ وهم العلماء والزهّاد فقد جعلتهم بالإحسان إليهم من أعظم أعوانك. واقترب السلطان من قتلمش، وحاول قتلمش المحاجزة فجعل سبخةً بين العسكرين فخاض ألب أرسلان الماء وتبعه العسكر وخرجوا سالمين وكان اللقاء فلم يثبت عسكر قتلمش لعسكر السلطان وانهزموا لساعتهم ومضى قتلمش فارّاً لإحدى قلاعه وأصاب عسكره القتل والأسر، ثم وُجد قتلمش ميتاً ولا يُعرف كيف كان موته، فبكى السلطان لموته وجلس لعزائه وعظم عليه قتله. ودخل ألب

---

(١) نظام الملك: الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، أبو علي، الملقب بقوام الدين، نظام الملك، وزير حازم، أصله من نواحي طوس، ولد سنة ٤٠٨هـ، وتأدب بآداب العرب، واشتغل بالأعمال السلطانية، وسمع الحديث، اتصل بالسلطان ألب أرسلان فاستوزره، وبقي في خدمته عشر سنواتٍ، ومات ألب أرسلان فخلفه ولده محمود ملكشاه، فصار الأمر كله لنظام الملك، وبقي على هذا عشرين سنة، وتوفي نظام الملك سنة ٤٨٥هـ.

أرسلان مدينة الريّ في آخر شهر المحرم سنة ٤٥٦هـ.

وسار السلطان ألب أرسلان من الريّ في أول شهر ربيع الأول سنة ٤٥٦هـ إلى أذربيجان، فوصل إلى مدينة مرند عازماً على الجهاد في أرض الروم، فلما كان بمرند أتاه أمير من أمراء التركمان ـ الترك المسلمون ـ كان يكثر الجهاد في بلاد الروم اسمه طغتكين ومعه عدد كبير من عشيرته قد ألفوا الجهاد وعرفوا تلك البلاد، وحثّه على قصد بلادهم، وضمن له سلوك الطريق المستقيم إليها فسار معه فسلك بالعساكر في مضائق تلك الأرض، وأمر بعمل السفن لعبور نهر أراس. وقيل له: إن سكان بعض مناطق أذربيجان لم يقوموا بواجب الطاعة وقد امتنعوا ببلادهم فسيّر إليهم عميد خراسان ودعاهم إلى الطاعة وتهدّدهم إن امتنعوا فأطاعوا وصاروا من جملة جنده.

اجتمع للسلطان ألب أرسلان حشد كبير فجعل مكانه بالعسكر ولده ملكشاه ووزيره نظام المُلك، وتقدّم الجيش في بلاد الكرج وفتح عدداً من القلاع والحصون، ودخل كثيراً من البلدان، وأسلمت أعداد من السكان وخرّبوا كنائسهم وبنوا المساجد، وسارت البشرى بهذه الفتوحات فسُرّ المسلمون وقرئ كتاب

الفتح ببغداد في دار الخلافة، وأثنى الخليفة القائم بأمر الله على السلطان ألب أرسلان ودعا له. ورتّب السلطان ألب أرسلان أميراً على البلاد التي فتحها وعنده عسكر كافٍ، ورجع السلطان عائداً فقصد أصبهان ثم سار منها إلى كرمان فاستقبله أخوه قاورت بن داود جغري بك، ثم سار منها إلى مرو فزوّج ابنه ملكشاه بابنة خاقان ملك ما وراء النهر، وزوّج ابنه أرسلان شاه بابنة صاحب غزنة، واتحد البيتان السلجوقي والغزنوي واتفقت الكلمة، وخفّ أثر العصبية الجاهلية الخفية والمغطاة بإظهار الإسلام.

وفي سنة ٤٥٨هـ عهد السلطان ألب أرسلان بالسلطنة من بعده لابنه محمود ملكشاه وأخذ على جماعة أمراء دولته العهود والمواثيق بذلك.

وسار شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران صاحب الموصل إلى السلطان ألب أرسلان فأقطعه الأنبار وهيت، ووصل إلى بغداد فخلع عليه الخليفة القائم بأمر الله أيضاً.

وعصى ملك كرمان قره أرسلان على السلطان ألب أرسلان، وذلك أن وزير قره أرسلان لمّح له أن الوالي إذا عصى على سيّده الملك تمسّك به وزاد

احترامه له حرصاً على طاعته فخلع قره أرسلان الطاعة وقطع الخطبة فلما وصل الخبر إلى ألب أرسلان سار إلى كرمان فلما اقترب منها التقت طليعته مع طليعة قره أرسلان ووقع القتال وانهزمت طليعة قره أرسلان فلما سمع قره أرسلان بهزيمة طليعته حلّ به الخوف ولم يعد يدري ما يفعل فأرسل إلى السلطان ألب أرسلان يظهر الطاعة ويسأل العفو عن زلّته، فعفا عنه، وحضر عند السلطان فأكرمه وبكى وأبكى من عنده فأعاده إلى مملكته ولم يُغيّر عليه شيئاً من حاله، وذلك سنة ٤٥٩هـ. ثم سار إلى فارس فوصل إلى اصطخر فدخل قلعتها، وأطاعه جميع حصون فارس.

وكان بنو كلاب بالرحبة على نهر الفرات ويتبعون العبيديين بمصر فجرى قتال بينهم وبين شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران صاحب الموصل وذلك سنة ٤٦٠هـ فانتصر شرف الدولة وأخذ راياتهم العبيدية وأسلابهم إلى بغداد، فأُرسلت الهدايا والخلع إلى شرف الدولة.

جاء إلى السلطان ألب أرسلان ببغداد رسول أمير مكة محمد بن أبي هاشم ومعه وفد يخبره بإسقاط الخطبة للعبيدي صاحب مصر، وترك عبارة «حيّ على خير العمل» من الأذان، وإقامة الخطبة للخليفة القائم

بأمر الله وللسلطان ألب أرسلان فأعطاه مكافأةً نفيسةً وأجرى له مخصصاً من المال كل سنةٍ، وكان ذلك سنة ٤٦٢هـ، ووعد أمير المدينة بما يُشبه ذلك إن فعل ما فعله أمير مكة.

وخطب كذلك صاحب حلب محمود بن صالح بن مرداس سنة ٤٦٣هـ للخليفة القائم بأمر الله وللسلطان ألب أرسلان، وذلك أن صاحب حلب رأى إقبال دولة السلطان وقوتها وانتشار دعوتها ورفعها راية الجهاد فجمع علماء حلب وأعيانها، وقال: هذه دولة جديدة ومملكة شديدة ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلّون دماءكم لأجل مذاهبكم ـ إذ كانت حلب تتبع العبيديين ـ والرأي أن نُقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل فأجاب الحضور ذلك، ولبس المؤذنون السواد وخطبوا للخليفة القائم بأمر الله وللسلطان ألب أرسلان، فأرسل الخليفة إلى محمود بن صالح بن مرداس الخلع مع نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي[1]، وقال أبو عبد الله بن عطية يمدح الخليفة

---

(١) طراد بن محمد بن علي الهاشمي العباسي الزينبي، أبو الفوارس، نقيب النقباء: ولد سنة ٣٩٨هـ، كان أعلى الناس منزلةً عند الخليفة، وولي نقابة العباسيين بالبصرة، وتوفي سنة ٤٩١هـ.

القائم بأمر الله، ويذكر الخطبة له بمكة والمدينة وحلب:

كم طائعٍ لك لم تجلب عليه ولم
تعرف لطاعته غير التقى سببا
هذا البشير بإذعان الحجاز وذا
داعي دمشق وذا المبعوث من حلبا

وسار السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٣هـ إلى حلب وجعل طريقه على ديار بكر فخرج إليه صاحبها نصر بن مروان وحمل إليه ما عليه من مالٍ وهو مائة ألف دينارٍ فردّه إليه، وسار إلى الرها، وحاصرها فلم يظفر منها بطائلٍ فسار إلى حلب وكان قد وصل إليها نقيب النقباء أبو الفوارس طراد برسالة الخليفة القائم بأمر الله فقال له محمود بن صالح بن مرداس صاحب حلب: أسألك الخروج إلى السلطان واستعفاءه لي من الحضور عنده، فخرج نقيب النقباء وأخبر السلطان بأنه قد لبس الخلع القائمية وخطب، فقال: أي شيءٍ تساوي خطبتهم وهم يُؤذّنون «حيّ على خير العمل» ولا بدّ من الحضور ودوس بساطي فامتنع محمود من ذلك، فحاصر السلطان البلد واشتدّ الحصار، وغلت الأسعار، وعظم القتال، فلما عظم الأمر على محمود خرج ليلاً ومعه والدته

منيعة بنت وثاب النميري فدخلا على السلطان، فقالت له: هذا ولدي فافعل به ما تحب فتلقّاهما بالجميل وخلع على محمود وأعاده إلى بلده فأنفذ إلى السلطان مالاً جزيلاً.

سار السلطان ألب أرسلان من حلب باتجاه أذربيجان ونزل بمدينة خوى من أذربيجان وبلغه خبر خروج ملك الروم أرمانوس بمائتي ألفٍ من المقاتلين ووصوله إلى ملازكرد، فكان اللقاء الذي سنذكره في أخبار الروم ـ إن شاء الله ـ.

بعث محمود ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان أحد أمرائه، وهو اتسن بن أوق الخوارزمي سنة ٤٦٣هـ إلى الشام فدخل بيت المقدس والرملة وأنقذها من أيدي العبيديين، وعجز عن دخول دمشق.

وطلب السلطان ألب أرسلان من الخليفة القائم بأمر الله أن يأذن في أن يجعل ولده محمود ملكشاه ولي عهده في السلطنة فأذن الخليفة بذلك وأمر عميد الدولة أن يخطب ابنة السلطان ألب رسلان لولي العهد المقتدي بأمر الله فأُجيب إلى ذلك وتمّ العقد بظاهر نيسابور، ورجع عميد الدولة إلى بغداد في شهر ذي الحجة سنة ٤٦٤هـ.

وبعث السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٤هـ وزيره نظام الملك في عسكر إلى قلعةٍ يعتصم بها فضلون في بلاد فارس لا يدين بالطاعة، وتُعدّ قلعته من أمنع الحصون وأعتاها فنازله نظام الملك وحاصره ودعاه إلى طاعة السلطان فامتنع فقاتله فلم يبلغ بقتاله غرضاً لعلو الحصن وارتفاعه، ولم يطل مقامهم عليه حتى نادى أهل القلعة بطلب الأمان ليسلّموا الحصن فعجب الناس من ذلك، وكان السبب فيه أن جميع الآبار التي بالقلعة غارت مياهها في ليلةٍ واحدةٍ فقادتهم ضرورة العطش إلى التسليم، فلما طلبوا الأمان أمنهم نظام الملك وتسلّم الحصن والتجأ فضلون إلى أعلى موضعٍ في القلعة وفيه بناء مرتفع فاحتمى به فسيّر نظام الملك فرقة من العسكر إلى الموضع الذي فيه أهل فضلون، واختفى فضلون ثم أُلقي القبض عليه وأُخذ أسيراً وحُمل إلى نظام الملك فأخذه وسار به إلى السلطان فأمّنه وأطلقه.

مقتل السلطان ألب أرسلان:

في أول سنة ٤٦٥هـ قصد السلطان ألب أرسلان بلاد ما وراء النهر وصاحبها شمس الدين تكين، فعقد السلطان جسراً على نهر جيحون وعبر عليه في نيفٍ وعشرين يوماً ويزيد عسكره على مائتي ألف فارسٍ فأتاه

أصحابه بمستحفظ قلعة يعرف باسم «يوسف الخوارزمي» في السادس من شهر ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ، فتعالى عليه فأراد قتله بالنشاب فأخطأه فوثب يوسف عليه فوقع السلطان عن السدة على وجهه فبرك عليه يوسف وضربه بسكينٍ كانت معه في خاصرته فجرحه عدة جراحاتٍ، وأسرع رجال مع السلطان فقتلوا يوسف. ولما جرح السلطان قال: ما من وجهٍ قصدته ولا عدوٌّ أردته إلا استعنت بالله عليه، ولما كان أمس صعدت على تلٍّ فارتجّت الأرض تحتي من كثرة الجيش، فقلت في نفسي أنا ملك الدنيا ولا يقدر أحد عليّ فعجّزني الله بأضعف خلقه، وأنا أستغفر الله تعالى وأتوب إليه من ذلك الخاطر. فتوفي في العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٤٦٥هـ، وحُمل إلى مدينة مرو، ودُفن عند أبيه. وكان عمره أربعين سنةً وشهوراً، إذ كان مولده سنة أربع وعشرين. وكانت مدة ملكه منذ أن خُطب له بالسلطنة(١)

---

(١) ألب أرسلان: محمد بن داود جغري بك بن ميكائيل: كان كريماً عاقلاً عادلاً، لا يسمع السعايات والوشاية، رحيم القلب، رقيقاً بالفقراء، كثير الدعاء بدوام ما أنعم الله به عليه، وكان يكثر الصدقة فيتصدّق في شهر رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء الكثير من الفقراء في ممالكه يدر عليهم الإدرارات والصلات، ولم يكن في بلاده جميعها جناية=

إلى أن قُتل تسع سنين وستة أشهرٍ وأياماً. ولما وصل خبر موته إلى بغداد جلس الوزير فخر الدولة بن جهير[1]

= ولا مصادرة قد قنع من الرعية بالخراج الأصلي يؤخذ منهم كل سنةٍ دفعتين رفقاً بهم. وكتب إليه بعض السعاة سعاية في نظام الملك وزيره وذكر له ما في ممالكه من الرسوم والأموال، وتركت على مصلاه فأخذها فقرأها ثم سلّمها إلى نظام الملك، وقال له: خذ هذا الكتاب فإن صدقوا في الذي كتبوه فهذّب أخلاقك وأصلح أحوالك وإن كذبوا فاغفر لهم زلّتهم وأشغلهم بما يشتغلون به عن السعاية بالناس، وهذه حالة لا يذكر عن أحدٍ من الملوك أحسن منها. وكان كثيراً ما يقرأ عليه من تاريخ الملوك وآدابهم وأحكام الشريعة، ولما اشتهر به بين الملوك بحسن سيرته ومحافظته على عهوده فقد أذعنوا له بالطاعة. وكان شديد الحرص على كفّ الجند عن أموال الرعية.

(١) ابن جهير: محمد بن محمد بن جهير التغلبي، فخر الدولة، مؤيد الدين، أبو نصر: وزير، ممن اشتهروا بالحزم وأصالة الرأي، ولد سنة ٣٩٨هـ بالموصل ونشأ بها، وانتقل إلى حلب فجعل ناظراً لديوانها، وعزل، فانتقل إلى آمد فاتصل بالأمير نصر الدولة أحمد بن مروان فاستوزره، وولي الوزارة ببغداد للقائم بأمر الله العباسي سنة ٤٥٤هـ واستمر إلى أن ولي المقتدي بأمر الله سنة ٤٦٧هـ فأقرّه مدة سنتين وعزله فخرج إلى ديار بكر، وطلب مساعدة السلطان ملكشاه فساعده فدخل ميافارقين سنة ٤٧٩هـ، ودخل كذلك آمد وكانت له إمارة في تلك المناطق، ثم ولّاه ملكشاه ديار ربيعة سنة ٤٨٢هـ فامتلك الموصل ونصيبين وسنجار والخابور والرحبة، وأقام بالموصل=

للعزاء به. وقد خلّف ألب أرسلان ستة أولادٍ ذكوراً وثلاث بناتٍ.

السلطان ملكشاه:

لما جرح السلطان ألب أرسلان أوصى بالسلطنة من بعده لولده ملكشاه وكان معه، وأمر أن يحلف له العسكر فحلفوا جميعاً، وكان المتولي للأمر في ذلك نظام الملك، وأرسل ملكشاه إلى بغداد يطلب الخطبة له، فخطب له على منابرها، وأوصى ألب أرسلان ابنه ملكشاه أيضاً أن يعطي أخاه قاورت بك بن داود جغري بك فارس وكرمان وشيئاً عيّنه من المال.

رجع ملكشاه من بلاد ما وراء النهر إلى خراسان في ثلاثة أيامٍ، وقام بوزارة ملكشاه نظام الملك، ثم سار ملكشاه من نيسابور إلى الريّ.

بلغ صاحب سمرقند ملك ألتكين وفاة ألب أرسلان وعودة ملكشاه عن خراسان فطمع في البلدان المجاورة فسار في شهر ربيع الثاني سنة ٤٦٥هـ إلى ترمذ ودخلها ونقل ما فيها من ذخائر إلى سمرقند.

= إلى أن توفي سنة ٤٨٣هـ، وكان من أكثر الرجال حزماً ودهاءً ورأياً.

وكان إياز بن ألب أرسلان قد سار عن بلْخ إلى الجوزجان فخاف أهل بلْخ فأرسلوا إلى ملك ألتكين يطلبون منه الأمان فأمنهم فخطبوا له فيها فجاء إليها وترك فيها بعض عسكره ورجع إلى ترمذ فثار فيها الغوغائيون وقتلوا بعض عسكره فرجع مسرعاً إليها وأمر بإحراق المدينة فخرج إليه أعيان أهلها وسألوه الصفح واعتذروا له فعفا عنهم لكنه أخذ أموال التجار. ووصلت هذه الأخبار إلى إياز بن ألب أرسلان فعاد من الجوزجان إلى بلْخ فوصل إليها في غرة شهر جمادى الأولى سنة ٤٦٥هـ فأطاعه أهلها وسار عنها إلى ترمذ في عشرة آلاف فارس، في الثالث والعشرين من شهر جمادى الآخرة فلقيهم عسكر ملك ألتكين فانهزم عسكر إياز وقُتل الكثير منهم كما غرق عدد كبير ولم ينج منهم إلا القليل.

كان قاورت بك بن داود جغري بك في كرمان فلما بلغه وفاة أخيه السلطان ألب أرسلان سار إلى الريّ يريد الاستيلاء على الممالك فسبقه إليها ابن أخيه ملكشاه ووزيره نظام الملك وسارا منها إليه فالتقوا به بالقرب من همدان في شهر شعبان سنة ٤٦٥هـ، وكان العسكر يميلون إلى قاورت بك فحملت ميسرة قاورت

على ميمنة ملكشاه فهزموها، وحمل شرف الدولة مسلم بن قريش وبهاء الدولة منصور بن دبيس بن مزيد وهما مع ملكشاه ومن معهما من العرب والأكراد على ميمنة قاورت بك فهزموها وتمت الهزيمة على أصحاب قاورت بك، ووصلت الأخبار إلى أن قاورت بك في بعض القرى فأرسل السلطان ملكشاه إليه من أخذه وأحضره فأمر سعد الدولة كوهرائين فخنقه وأقرّ كرمان بيد أولاده وسيّر إليهم الخلع.

تفويض الأمور إلى نظام الملك:

مدّ عسكر ملكشاه أيديهم في أموال الرعيّة، وقالوا: ما يمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك، فنال الرعية أذًى شديداً، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان فبيّن له ما في هذا الفعل من الوهن وخراب البلاد وذهاب السياسة، فقال له: افعل في هذا ما تراه مصلحةً، فقال له نظام الملك: ما يمكنني أن أفعل إلا بأمرك، فقال السلطان: قد رددت الأمور كلها كبيرها وصغيرها إليك فأنت الوالد، وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان، من جملته طوس مدينة نظام الملك، وخلع عليه، ولقبه ألقاباً من جملتها «أتابك» ومعناها الأمير الوالد، فظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته

ما هو مشهور، فمن ذلك أن امرأةً ضعيفةً استغاثت إليه فوقف يُكلِّمها وتكلِّمه، فدفعها بعض حُجابه فأنكر ذلك عليه، وقال: إنما استخدمتك لأمثال هذه فإن الأمراء والأعيان لا حاجة بهم إليك ثم صرفه عن حجابته[١].

الإمارات

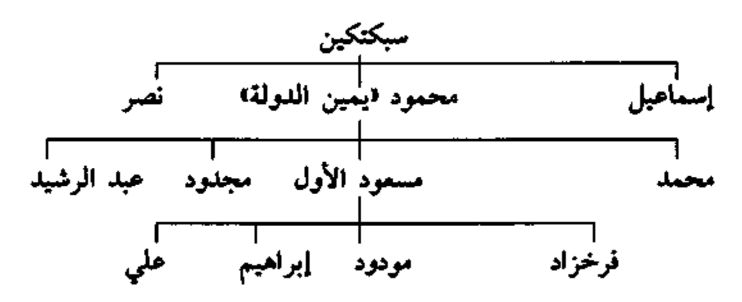
قلّ عدد الإمارات، وزال بعضها التي تُؤيّد بني بويه أو تلتقي معهم على المبدأ، وفي الوقت نفسه ظهرت إمارات جديدة تقوم على المنهج الإسلامي كالملثمين في المغرب.

١" ـ الغزنويون:

قُتل صاحب غزنة عبد الرشيد بن محمود يمين الدولة بن سبكتكين وذلك سنة ٤٤٤هـ، وتسلّم ملك غزنة ابن أخيه فرخزاد بن مسعود الأول بن محمود بن سبكتكين وكان محبوساً في بعض القلاع فأُحضر وأُجلس بدار الإمارة، وجرى قتال بينه وبين السلاجقة في خراسان فانتصرت جيوشه في بداية الأمر ثم هُزمت، واضطر فرخزاد إلى أن يُطلق الأسرى الذين وقعوا أسرى

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير. حوادث سنة ٤٦٥هـ.

بأيدي أصحابه. وبقي فرخزاد سيّد غزنة حتى سنة ٤٥١هـ حيث أُصيب بمرض القولنج فمات في شهر صفر، وملك بعده أخوه إبراهيم بن مسعود الأول بن محمود فأحسن السيرة واستعدّ للجهاد في الهند ففتح حصوناً امتنعت عن أبيه وجدّه، واستمرّ في ملكه حتى سنة ٤٩١هـ.



٢" ـ القرامطة:

تراجع القرامطة حتى انحصر نفوذهم في منطقة البحرين وما جاورها، ومع زوال البويهيين ضعف أمر القرامطة، وخرجت جزيرة أوال (البحرين) عن طاعة القرامطة سنة ٤٥٨هـ وتبعت للدولة العباسية، وكان أول الأمر أن بنى المسلمون مسجداً لجذب التجار إلى جزيرتهم وخطبوا فيه للخليفة العباسي دون ذكر العبيدي صاحب مصر فعزل القرامطة واليهم عن الجزيرة، وفرضوا على أهلها ضرائب جديدةً، الأمر الذي أثار السكان فهبّوا ضدّ القرامطة واستطاعوا الانتصار عليهم ـ

بإذن الله ـ، وقد هيّأ هذا النصر أن يتصل المسلمون في بلاد العرب بالخليفة العباسي ويطلبوا الدعم منه، إذ اتصل عبد الله بن علي العيوني شيخ قبيلة بني عبد القيس بالخليفة العباسي وبالسلطان السلجوقي ووجد عندهما تجاوباً، وأرسلا له جيوشاً دعمته ضد القرامطة في سبيل القضاء على جرائيم الضلال، وتمكّن عبد الله بن علي العيوني أن يهزم القرامطة سنة ٤٦٧هـ. وتجمّع المسلمون من كل ناحيةٍ في تلك الجهات وقضوا على القرامطة في معركةٍ سنة ٤٧٠هـ في شمالي الإحساء، وبزوال القرامطة من منطقة هجر زال حكم عمالهم الأخيضريين في اليمامة، وانتهى أمرهم تماماً ـ ولله الحمد ـ ولكن فرّت بعض فلولهم إلى الجبال الكلبية في أقصى الشمال الغربي من البلاد العربية وجنوبي الأناضول.

"٣" ـ العبيديون:

ضعف أمر العبيديين فانتبهوا إلى أنفسهم وعملوا على تغيير شيءٍ من مبادئهم فأظهروا التشيّع غير أن أصولهم وانتماءهم وتصرّفاتهم يدلّ على ضلالهم العقديّ والفكريّ ويلقي ضوءاً على أهدافهم السياسية البعيدة مهما ادّعوا من أصولٍ وأظهروا من أقوالٍ وكذبوا وافتروا وأشاع أعوانهم المنتفعون وقد أصبح

هذا يتضح للرعية عندما بقوا وحدهم في الميدان وزال الآخرون ممن يدّعي الانتساب إلى آل بيت النبيّ ﷺ، أو يزعم التشيّع لهم الذين كانوا يغطّون الساحة فيختفي فيها العبيديون، وعندما انكشفوا ووضح أمرهم صار الناس يكرهونهم، وينتبهون إلى أفعالهم فأخذ أمرهم بالضعف، ويسير نحو السقوط والزوال حتى قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي رحمه الله سنة ٥٦٧هـ.

العبيديون:

(١) عبيد الله (المهدي) ٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ.
(٢) محمد (القائم) ٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ.
(٣) إسماعيل (المنصور) ٣٣٤ ـ ٣٤١هـ.
(٤) معد (المعزّ) ٣٤١ ـ ٣٦٥هـ.
(٥) نزار (العزيز) ٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ.
(٦) منصور (الحاكم) ٣٨٦ ـ ٤١١هـ.
(٧) علي (الظاهر) ٤١١ ـ ٤٢٧هـ.
(٨) معد (المستنصر) ٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ.

توفي صاحب مصر العبيدي أبو الحسن علي (الظاهر)[١] سنة ٤٢٧هـ، وخلفه ابنه أبو تميم معد الذي

---

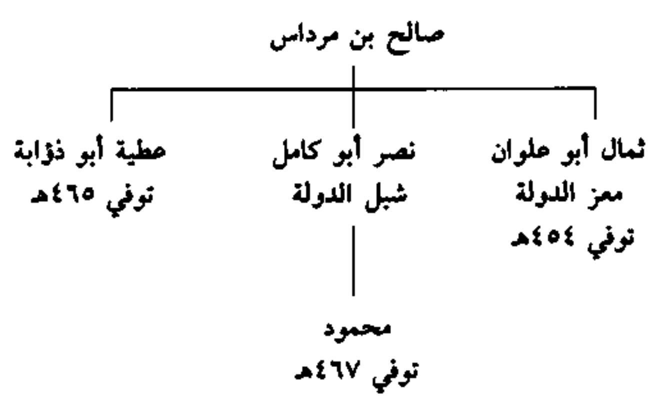
(١) الظاهر، علي، أبو الحسن بن منصور (الحاكم): من ملوك=

تلقّب بالمستنصر[1]، وكان صغيراً لم يبلغ الثامنة من العمر فقام بأمره وزير أبيه أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي وفي سنة ٤٥٢هـ اتجه إلى حلب محمود بن نصر شبل الدولة بن صالح بن مرداس الكلابي فحاصرها وضيّق على أهلها ولكن لم يتمكّن من دخولها فرحل عنها ولكن رجع إليها واستطاع دخولها عنوةً في شهر جمادى الآخرة سنة ٤٥٢هـ، واستعصت عليه قلعتها، وأرسل من

= الدولة العبيدية، كانت له مصر والشام والخطبة في بلدان شمالي إفريقية، ولي بعد وفاة أبيه سنة ٤١١هـ، وكانت عمته (ست الملك) أخت الحاكم، هي القائمة بأمور الدولة واستمرّت إلى أن توفيت سنة ٤١٥هـ، واضطربت الديار المصرية والبلاد الشامية في أيامه، ودامت دولته قرابة ستة عشر عاماً، كان هادئاً مع ميل إلى اللهو، وتوفي بالقاهرة سنة ٤٢٧هـ.

(١) المستنصر، معد بن علي (الظاهر)، أبو تميم: ولد بالقاهرة سنة ٤٢٠هـ، وقام بأمره وزير أبيه أبو القاسم علي بن أحمد الجرجرائي، ثم تغلبت أمه على الدولة، فكانت تصطنع الوزراء وتوليهم، ومن استوحشت منه أمرت بقتله، فيقتل، وجرى في أيامه ما لم يجر في أيام أحد من أسلافه، إذ خطب له البساسيري سنةً في بغداد، وخطب له الصليحي في اليمن وقطعت الخطبة باسمه في إفريقية ٤٤٣هـ، وقطعت في الحرمين سنة ٤٤٩هـ، وحدث غلاء شديد بمصر ودام سبع سنين، واستمر في الخلافة، وكان كالمحجور عليه في أيام بدر الجمالي وابنه شاهنشاه بن بدر إلى أن توفي سنة ٤٨٧هـ.

فيها إلى المستنصر العبيدي صاحب مصر وإلى نائبه على دمشق يستنجدونهما فبعث ناصر الدولة أبا محمد الحسين بن الحسن بن حمدان الأمير بدمشق أن يسير بمن عنده من العساكر إلى حلب يمنعها من محمود بن نصر بن صالح بن مرداس فسار إلى حلب فلما سمع محمود بقربه منه خرج من حلب ودخلها عسكر ناصر الدولة فنهبوها، ثم وقع القتال بين محمود وناصر الدولة بظاهر حلب فانهزم ناصر الدولة وعاد مقهوراً إلى مصر وملك محمود حلب فوجّهت إليه حكومة مصر عمّه ثمال بن صالح بن مرداس، وخرج محمود من حلب وملكها عمّه ثمال بن صالح سنة ٤٥٤هـ، وأوصى إلى أخيه عطية أبو ذؤابة بن صالح فتسلّمها ولم يزل فيها حتى غلبه عليها شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ٤٦٣هـ وسار عطية إلى بلاد الروم ومات بالقسطنطينية سنة ٤٦٥هـ.



وتوفي قريش بن بدران العقيلي سنة ٤٥٣هـ وهو صاحب الموصل ونصيبين، وسمع فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير[١] بما جرى فسار من (دارا) إلى نصيبين وجمع بني عقيل على أن يُؤمّروا ابنه أبو المكارم مسلم بن قريش عليهم، وكان القائم بأمره جابر بن ناشب فزوّجه فخر الدولة بأخت مسلم بن قريش، وزوّج مسلماً بأخت نصر بن منصور. وسار مسلم سنة ٤٥٨هـ إلى السلطان ألب أرسلان فأقطعه هيت والأنبار.

وقعت حرب سنة ٤٦٠هـ بين شرف الدولة أبي المكارم مسلم بن قريش وبين بني كلاب بالرحبة الذين يتبعون العبيديين بمصر، وجاءت الخلع إلى شرف الدولة من بغداد.

وفي سنة ٤٦٥هـ قتل في مصر ناصر الدولة أبو علي الحسن بن حمدان بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله أبي الهيجاء بن حمدان بن حمدون، ويبدأ الموضوع من ضعف العبيديين وانحلال أمر المستنصر وسببه أن أمه كانت غالبةً على أمره وقد اصطنعت أبا

(١) وزير الخليفة القائم بأمر الله في بغداد.

سعيد إبراهيم التستريّ اليهوديّ وصار وزيراً لها فأشار عليها بوزارة أبي نصر الفلاحي فولّته الوزارة واتفقا مدةً ثم صار الفلاحي يتفرّد بالتدبير فوقعت بينهما وحشة فخاف الفلاحي أن يفسد أمره مع أم المستنصر، فاصطنع الغلمان الأتراك واستمالهم وزاد في أُعطياتهم، فلما وثق بهم حرضهم على قتل اليهودي فقتلوه فعظم الأمر على أم المستنصر وأغرت به ولدها فقبض عليه، وأرسلت من قتله تلك الليلة وكان بين قتل هذا وذاك تسعة أشهرٍ، وتسلّم الوزارة بعده أبو البركات حسن بن محمد فوضعه على الغلمان الأتراك فلم يُحسن معاملتهم وأخذ يشتري العبيد للمستنصر ويكثر منهم فحرّضته أم المستنصر ليغري العبيد بالأتراك فخاف عاقبة ذلك ولم يفعل فتنكّرت له وعزلته عن الوزارة، ووقع العدوان بين الأتراك والعبيد وشكا الأتراك إلى ناصر الدولة أبو علي الحسن بن حمدان وهو أكبر قائدٍ في مصر كما استمالوا إليهم من القبائل كتامة ومصمودة فقوي أمرهم وضعف العبيد فخرجوا من القاهرة إلى الصعيد وكثر جمعهم فخاف الأتراك وشكوا إلى المستنصر، وأخيراً اقتتل الأتراك والعبيد، وتشابكت الأمور كثيراً وتعددت الوقائع وقُتل ناصر الدولة.

٤" ـ اليمن:

ظهرت الدعوة إلى العبيديين في اليمن، وكان من أتباعها عامر بن عبد الله الرواحي فصحبه علي بن محمد بن علي الصليحيّ، وفي موسم حج عام ٤٢٨هـ عاهده ستون رجلاً شهدوا الموسم على الدعوة للمستنصر العبيدي وعندما عادوا إلى بلدهم تحصّنوا بجبل مسار بناحية حراز سنة ٤٢٩هـ، وتشكلت له قوة وقد دخل صنعاء وأخرج منها بني يعفر، واحتلّ مدينة زبيد بعد أن سقى أميرها نجاح سمّاً سنة ٤٥٢هـ بيد جاريةٍ، ووصل إلى عدن، ودعا إلى المستنصر العبيدي فولّاه أمر مكة.

وفي سنة ٤٥٨هـ اتجه نحو مكة ويريد الموسم ويرغب بعد ذلك زيارة المستنصر العبيدي بمصر فأغار عليه سعيد بن نجاح[1] في تهامة وقتله، وكان علي

---

(١) سعيد بن نجاح: سعيد الأحول، ثاني أمراء دولة بني نجاح، خاف بعد مقتل أبيه سنة ٤٥٢هـ فتوارى إلى أن علم بسفر الصليحي إلى الحج أو إلى مصر لزيارة العبيدي فكتب سعيد إلى أخيه جيّاش بن نجاح وكان قد فرّ أيضاً بعد مقتل أبيه وقام يجمع عبيداً وأعواناً، فجاءه جيّاش بمن معه، ومضوا إلى جهة المهجم حيث أناخ الصليحي فدخلوا في غمار الناس وقتلوا علي بن محمد بن الصليحي وكثيراً ممن معه، واستولوا=

الصليحي قد ولّى مكانه على اليمن ابنه المكرّم[1].

٥" ـ بنو باديس:

كان المعزّ بن باديس والي إفريقية للعبيديين في مصر، وقد قطع الخطبة للمستنصر سنة ٤٤٤هـ، وأصبح سيّد المنطقة، وتوفي ٤٥٣هـ بمرضٍ أصابه وهو ضعف الكبد، ولما توفي قام مكانه ابنه تميم[2]، وطمع

= على ذخائره وخزائنه وخيله وذلك سنة ٤٥٩هـ. وكانت زوجة الصليحي أسماء بنت شهاب معه فأسرها سعيد الأحوال وجعل رأس زوجها أمام هودجها وسار إلى زبيد فدخلها بهيبةٍ، وعاد إلى بني نجاح ملك تهامة بأسرها، واستمرّ سلطان سعيد الأحوال إلى أن قتله الصليحيون سنة ٤٨١هـ.

(١) المكرّم: هو أحمد بن علي بن محمد الصليحي، تولّى أمر اليمن بعد مقتل أبيه سنة ٤٥٩هـ أقام بصنعاء ثم حارب سعيد الأحول بن نجاح قاتل أبيه، وكان قد استولى على زبيد فأخرجه منها واستولى عليها، واستنقذ أمه الحرّة الصليحية (أسماء بنت شهاب)، وكانت في أسر سعيد الأحول بن نجاح، وأصيب بالفلج ففوّض أمر اليمن إلى زوجته أروى بنت أحمد الصليحية، وتوفي سنة ٤٧٧هـ.

(٢) تميم بن المعز بن باديس بن المنصور، أبو يحيى الصنهاجي: من ملوك الدولة الصنهاجية بالمغرب، ولد بالمنصورية في منتصف رجب سنة ٤٢٢هـ، وولّاه أبوه المهدية سنة ٤٤٥هـ، ثم ولي الملك بعد وفاة أبيه سنة ٤٥٤هـ، وكانت الدولة في اختلالٍ واضطرابٍ، فجدّد معالمها، واستردّ مدن سوسة=

أصحاب البلاد بسبب الهلاليين الأعراب وزالت الهيبة والطاعة للسلطان أيام المعزّ فلما توفي زادت الأطماع وأظهر كثير منهم الخلاف وممن أظهر الخلاف القائد حمو بن مليك صاحب صفاقس واستعان بالأعراب وقصد المهدية وخرج إليه تميم والتقى الفريقان واقتتلوا فانهزم حمو بن مليك وأصحابه وكثر فيهم القتل، ومضى حمو ونجا بنفسه وتفرّقت خيله ورجاله وذلك سنة ٤٥٥هـ، وسار تميم إلى مدينة سوسة وكان أهلها قد خالفوا أباه المعزّ وعصوا عليه فدخلها تميم وملكها وعفا عن أهلها وحقن دماءهم.

وفي سنة ٤٥٧هـ وقعت الحرب بين الناصر بن

= وصفاقس وتونس بعد أن ملكها الأعراب الهلاليون وغيرهم من الثائرين وكانوا قد غلبوا أباه عليها وأخرجوه من المهدية. وهاجمت بعد ذلك مراكب الإفرنج سواحل بلاده سنة ٤٨٠هـ فاستولوا على المهدية فصالحهم على مالٍ أخذوه، كما استولى الأعداء الفرنجة في أيامه على جزءٍ من جزيرة صقلية سنة ٤٨٤هـ بعد أن بقيت بأيدي المسلمين أكثر من ٢٧٠ سنةً وهاجمه الإيطاليون في سفنٍ حربيةٍ فهزمهم وقتل كثيراً منهم، واعتلّت أموره في أواخر أيامه فكان ينتقل بين المهدية وقابس وصفاقس وجزيرة جربا إلى أن توفي بالمهدية سنة ٥٠١هـ، فكانت أيام ملكه ستاً وأربعين سنةً وعشرة أشهرٍ. وكان شجاعاً، وله عناية بالأدب وينظم الشعر.

علناس[1] بن حماد ومن معه من رجال المغاربة من صنهاجة ومن زناتة ومن العرب عدي والأثبج وبين رياح وزعبة وسليم ومع هؤلاء المعزّ بن زيري الزناتي[2] على مدينة سبتة، وكان سببها أن حمّاد بن بلكين جدّ الناصر كان بينه وبين باديس بن المنصور من الخلاف، ومات باديس وهو محاصر قلعة بني حمّاد. وامتنع حمّاد هو وأولاده من بعده بها وهي من أمنع الحصون، وخلع القائد بن حمّاد طاعة المعزّ بن باديس واستبدّ بما تحت يده وكذلك ولده محسن من بعده ثم ابن عمه بلكين بن

---

(١) الناصر بن علناس بن حماد الصنهاجي: أمير من بني حماد، كان من سكان قلعتهم، واستنكر عتو قريبه بلكين بن محمد فتصدّى له وقتله اغتيالاً وتولّى بعده القلعة (قلعة بني حماد) ولكنه كره الإقامة فيها فبني قريباً منها بالجبل قصوراً سُمّيت بعدة أسماء. واتسعت مملكته وبايعه أهل القيروان سنة ٤٦٠هـ، وبنى مدينة بجاية، وأول ما اختطها حوالي سنة ٤٥٧هـ وسمّاها الناصرية نسبةً إليه، ومات بها سنة ٤٨١هـ.

(٢) المعز بن زيري بن عطية بن عبد الله الزناتي المغراوي: من ملوك فاس في أواخر عهد بني أمية بالأندلس، أقامه بنو عمّه أميراً عليهم بعد وفاة أبيه سنة ٣٩١هـ، وجاءه تقليد المظفر بن أبي عامر بولايته على المغرب كله عدا سجلماسة، فأقام تابعاً لقرطبة إلى أن انقرضت الدولة الأموية بالأندلس بعد انقراض الدولة العامرية فاستقلّ بالأمر واستمرّ إلى أن توفي بفاس سنة ٤٢٢هـ. وكانت أيامه في هدنةٍ وأمان.

محمد بن حمّاد وبعده ابن عمه الناصر بن علناس بن محمد بن حماد، وكل منهم بالقلعة متحصن وقد جعلوها دار ملكهم، فلما رحل المعز بن باديس من القيروان إلى المهدية تمكنت الأعراب ونهبت الناس وخربت البلاد وانتقل كثير من أهلها إلى ديار بني حماد لأنها جبال وعرة يمكن الامتناع بها من الأعراب فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم. ولما مات المعز بن باديس وقام بعده ابنه تميم استبدّ كل منهم ببلدٍ وقلعةٍ بمكانه وتميم بن المعز يصبر ويداري ويتجلّد، ثم وصل إليه أن الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمّه وأنه قد عزم على المسير إليه بالمهدية وأنه قد حالف بعض صنهاجة وزناتة وبني هلال ليساعدوه على حصار المهدية فلما صحّ ذلك عنده أرسل إلى أمراء بني رياح فأحضرهم إليه وأخبرهم الخبر فطلبوا منه المساعدة فأعطاهم المال والسلاح فجمعوا قومهم وتحالفوا واتفقوا على لقاء الناصر بن علناس. وأرسلوا إلى الذين مع الناصر من بني هلال يُقبّحون مساعدتهم للناصر ويُخوّفونهم منه إن قوي وأنه يهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجة، وأنهم إنما يستمرّ لهم المقام والاستيلاء على البلاد إذا تمّ الخلاف وضعف السلطان، فأجابهم بنو هلال إلى الموافقة، وقالوا: اجعلوا أول حملةٍ

تحملونها علينا فنحن نُهزم بالناس ونعود عليهم ويكون لنا ثلث الغنيمة فأجابوهم إلى ذلك واستقرّ الأمر، وأرسل المعزّ بن زيري الزناتي إلى الذين مع الناصر من زناتة بنحو ذلك فوعدوه أيضاً إلى أن ينهزموا فحينئذٍ رحلت رياح وزناتة جميعها وسار إليهم الناصر بصنهاجة وبعض زناتة وبني هلال فالتقت العساكر بمدينة سبتة فحملت رياح على بني هلالٍ وحمل المعزّ بن زيري على زناتة فانهزمت الطائفتان وتبعهم عسكر الناصر منهزمين ووقع فيهم القتل، فقُتل فيمن قُتل القاسم بن علناس أخو الناصر، وسلم الناصر في نفرٍ يسيرٍ، وغنمت الأعراب جميع ما كان في المعسكر فاقتسموها على ما اتفقوا عليه وبهذه الوقعة تمّ للأعراب ملك البلاد.

لقد أهمّ انتصار الأعراب تميم بن المعزّ وأصابه حزن شديد وبلغ ذلك الناصر وكان له وزير اسمه أبو بكر بن أبي الفتوح وكان يحب الاتفاق بينهما فقال للناصر: ألم أشر عليك أن لا تقصد ابن عمك وأن تتفقا على الأعراب فإنكما لو اتفقتما لأخرجتما الأعراب، فقال الناصر: لقد صدقت ولكن لا مردّ لما قُدّر فأصلح ذات بيننا فأرسل الوزير رسولاً من عنده إلى

تميمٍ يعتذر ويرغب في الإصلاح فقبل تميم قوله وأراد أن يرسل رسولاً إلى الناصر فاستشار أصحابه فاجتمع رأيهم على محمد بن البعبع، وقالوا له: هذا غريب وقد أحسنت إليه وحصل له منك الأموال والأملاك، فأحضره وأعطاه مالاً ودواب وعبيداً وأرسله فسار مع الرسول حتى وصل إلى الناصر فلما أوصل الكتاب وأدّى الرسالة، قال للناصر: معي وصية إليك وأُحبّ أن تُخلي المجلس، فقال الناصر: أنا لا أُخفي عن وزيري شيئاً، فقال: بهذا أمرني الأمير تميم، فقام الوزير أبو بكر وانصرف، فلما خرج، قال الرسول: يا مولاي إن الوزير مخامر عليك هواه مع الأمير تميم لا يخفي عنه من أمورك شيئاً، وتميم مشغول مع عبيده قد استبدّ بهم واطرح صنهاجة وغير هؤلاء، ولو وصلت بعسكرك إلى المهدية ما بتَّ إلا فيها لبغض الجند والرعية لتميمٍ، وأنا أشير عليك بما تملك مدينة المهدية وغيرها وذكر له عمارة بجاية وأشار عليه أن يتخذها دار ملك ويقرب من بلاد إفريقية (منطقة تونس اليوم)، وقال: أنا أنتقل إليك بأهلي وأدبر دولتك، فأجابه الناصر إلى ذلك وارتاب بوزيره وسار مع الرسول إلى بجاية وترك الوزير بالقلعة فلما وصل الناصر والرسول إلى بجاية أراه موضع المينا والبلد والدار السلطانية وغير ذلك فأمر

الناصر من ساعته بالبناء والعمل وسُرّ بذلك وشكر له وعاهده على وزارته إذا عاد إليه ورجعا إلى القلعة، فقال الناصر لوزيره: إن هذا الرسول محب لنا، وقد أشار ببناء بجاية، ويريد الانتقال إلينا، فاكتب له جواب كتبه ففعل، وسار الرسول، وقد ارتاب به تميم حيث تجدّد بناء بجاية عقيب مسيره إليهم وحضوره مع الناصر فيها. وكان الرسول قد طلب من الناصر أن يرسل معه بعض ثقاته ليشاهد الأخبار ويعود بها فأرسل معه رسولاً يثق به فكتب معه إنني لما اجتمعت بتميم لم يسألني عن شيءٍ قبل سؤاله عن بناء بجاية وقد عظم أمرها عليه واتهمني فانظر إلى من تثق به من الأعراب ترسلهم إلى موضع كذا فإني سائر إليهم مسرعاً، وقد أخذت عهود زويلة وغيرها على طاعتك وسيّر الكتاب فلما قرأه الناصر سلّمه إلى الوزير فاستحسن الوزير ذلك وشكر له وأثنى عليه، وقال: لقد نصح وبالغ في الخدمة فلا تؤخّر عنه إنفاذ الأعراب ليحضر معهم ومضى الوزير إلى داره وكتب نسخة الكتاب وأرسل الكتاب الذي بخط الرسول إلى تميم، وكتاباً منه يذكر الحال من أوله إلى آخره، فلما وقف تميم على الكتاب عجب من ذلك وبقي يتوقّع له سبباً يأخذه به إلا أنه جعل عليه من يحرسه في الليل والنهار من حيث لا يشعر فأتى بعض

أولئك الحرس إلى تميم وأخبره أن الرسول صنع طعاماً وأحضر عنده الشريف الفهري، وكان هذا الشريف من رجال تميم وخواصه فأحضره تميم، فقال: كنت واصلاً إليك وحدّثه أن ابن البعبع الرسول دعاني فلما حضرت عنده، قال: أنا في ذمامك أحبّ أن تعرفني مع من أخرج من المهدية فمنعته من ذلك وهو خائف، فأوقفه تميم على الكتاب الذي بخطه وأمره بإحضاره، فأحضره الشريف، فلما وصل إلى باب السلطان لقيه رجل بكتاب الأعراب الذين سيّرهم الناصر ومعهم كتاب الناصر إليه يأمره بالحضور عنده فأخذ الكتاب وخرج الأمير تميم فلما رآه ابن البعبع سقطت الكتب منه فإذا عنوان أحدها من الناصر بن علناس إلى فلان، فقال له تميم: من أين هذه الكتب؟ فسكت فأخذها وقرأها، فقال الرسول ابن البعبع: العفو يا مولانا، فقال: لا عفا الله عنك، وأمر به فقُتل وأُغرقت جثته[1].

٦" ـ المرابطون:

وهم من المُلثّمين والمُلثّمون عدة قبائل ينتمون إلى اليمانية وينتسبون إلى حمير، وأشهر هذه القبائل: لمتونة

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

ومنها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وجدالة، ولمطة، وكان أول مسيرهم من اليمن أيام أبي بكر الصديق ﷺ فسيّرهم إلى الشام، وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نصير، وتوجّهوا مع طارق بن زياد إلى طنجة فأحبّوا الانفراد فدخلوا الصحراء واستوطنوها، وفي سنة ٤٤٠هـ ارتحل رجل من قبيلة جدالة وهي فرع من صنهاجة إلى المشرق لأداء فريضة الحج، ويُدعى هذا الرجل يحيى بن إبراهيم ـ وكان محباً للعلم، وعند عودته حضر حلقة علمٍ لعالمٍ يُدعى أبا عمران الفاسي فلاحظ توجّه يحيى بن إبراهيم نحو العلم وعندما اختبره وجده لا يعرف شيئاً رغم أنه أمير قومه، وعندما سأله عن موطنه أخبره وأعلمه أن الجهل يسود تلك المواطن، ثم طلب منه أن يرسل معه أحد تلامذته ليُفقّه الناس، وعندما سأل الشيخ طلابه في الارتحال مع يحيى لم يستجب أحد لبُعد الشقة وطول الطريق رغم أنه قد شجّعهم كثيراً، ولما وجد الشيخ هذا الإحجام من طلابه أرسله إلى أحد فقهاء المغرب وزوّده بكتابٍ، ويدعى هذا الفقيه «واجاج بن زللو» اللمطي، فاستقبل واجاج ضيفه يحيى ورحّب به، وبعث معه عبد الله بن ياسين الجزولي إلى حيث تنتقل لمتونة ومسوفة وجدالة الصنهاجية، وأصله من مدينة سجلماسة.

بدأ عبد الله بن ياسين في تعليم رجال القبائل أمور دينهم، لكنه لم يجد صلاحاً في سلوكهم لذا قرّر الرحيل عن ديارهم مغاضباً لما وجد من إعراضٍ غير أن يحيى بن إبراهيم الجدالي قد تمسّك به وانتقل معه إلى جزيرةٍ في نهر السنغال حيث أسّسا هناك رباطاً للمحافظة على الدين والبعد عن العادات المخالفة للإسلام لكن سرعان ما اتجه أناس نحو هذا الرباط وتتلمذوا على يد عبد الله بن ياسين وقبلوا نصائحه ووصل عددهم إلى ألف رجلٍ، وقد أثار فيهم روح الجهاد لإحياء نظام الإسلام وقتال الظالمين الذين يقفون في وجه الدعوة وأمام تطبيق المنهج الإسلامي بشكلٍ سليمٍ. ولما بلغ عدد المرابطين هذا العدد وهو الألف قادهم شيخهم عبد الله بن ياسين إلى الجهاد.

انطلق عبد الله بن ياسين برجاله نحو بلاد دولة غانة، واستطاع فتح مدينة «أودغشت» عام ٤٤٦هـ، وحملوا أهلها على اعتناق الإسلام، وقد استشهد يحيى بن إبراهيم الجدالي في المعركة التي فُتحت فيها مدينة «أودغشت»، وخلفه في زعامة المرابطين يحيى بن عمر سيد قبيلة لمتونة.

استنجد أهل سجلماسة ووادي درعه بالمرابطين

فسار إليهم عبد الله بن ياسين وجماعته من المرابطين، واستطاعوا تخليص هذه المناطق من حكم دولة مغراوة، وفي إحدى المعارك استشهد يحيى بن عمر اللمتوني فأعطى عبد الله بن ياسين قيادة جيش المرابطين إلى أبي بكر بن عمر اللمتوني أخي يحيى بن عمر، وأمره بغزو بلاد السوس (جنوبي بلاد المغرب الأقصى) فعيّن أبو بكر بن عمر على مقدّمة جيشه ابن عمه يوسف بن تاشفين، واستولى المرابطون على بلاد السوس، ودخلوا بلاد جزولة وماسة، ثم اتجهوا إلى بلاد المصامدة فدخلوا مدينة نفيس، ثم ساروا إلى مدينة أغمات وعليها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي الذي لم يستطع مقاومة المرابطين ففرّ إلى أبناء عمومته بني يفرن ملوك سلا، وتادلا، واستطاع المرابطون أن يدخلوا مدينة أغمات عام ٤٤٩هـ وأن يجعلوها قاعدةً لهم.

اتجه عبد الله بن ياسين إلى قتال قبيلة برغواطة التي تُقيم على ساحل المحيط الأطلسي بين مدينة سلا شمال مدينة الرباط ومدينة آسفي شمال غربي مدينة مراكش في سهول الشاوية الحالية جنوب مدينة الدار البيضاء، وقد استشهد عبد الله بن ياسين أثناء قتال هذه القبيلة وذلك سنة ٤٥١هـ، واستمرّ أبو بكر بن عمر في

قتال برغواطة حتى خضعوا له، ثم انصرف هو إلى الحرب في الصحراء على حين ترك ابن عمّه يوسف بن تاشفين لقتال قبيلة مغراوة.

سار أبو بكر بن عمر للقتال في صحارى الجنوب فتقدّم في بلاد السودان الغربي، وأحرز انتصاراتٍ واسعةً ورجع إلى أغمات بعد انتهاء مهمته فوجد ابن عمه يوسف بن تاشفين قد نظّم أمره، ونازل خصومه، وانتصر عليهم، فتنازل أبو بكر ليوسف عن إمارة المرابطين أمام سادات القوم وعاد إلى الجنوب يجاهد في سبيل الله، وقد تمكّن من دخول عاصمة امبراطورية غانة «كومبي صالح» عام ٤٦٩هـ وذلك بمعاونة قبائل التكرور، ودعا إلى اعتناق الإسلام في جميع البلاد التي دخلها، وقبل ملك غانة (تنكامنين) الدخول بالإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، وبإسلام الملك دخل كثير من رعاياه بالإسلام، وتوفي أبو بكر بن عمر اللمتوني سنة ٤٨٠هـ، وضعف أمر المرابطين فاستقلت قبائل السوننكي، وأعلنت الارتباط بالدولة العباسية، وبدأت تدعو إلى الإسلام، وأصبحت مملكة غانة مسلمةً، وغدت اللغة العربية لغتها الرسمية.

أما يوسف بن تاشفين فقد أرسل كتاباً إلى الخليفة

العباسي يعلمه ببيعته، واستطاع أن يدخل مدينة فاس سنة ٤٦١هـ وقضى على الإمارة المغراوية، وابتنى يوسف مدينة مراكش وجعلها حاضرة ملكه. وانتقل إلى الأندلس لدعم المسلمين، وقاتل النصارى الإسبان في معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ في منتصف شهر رجب، وقيل: في أوائل شهر رمضان.

٧" ـ الإمارة المغراوية:

قامت قبيلة صنهاجة في بلاد المغرب بالدعوة للعبيديين ولكن قبيلة زناتة ثبتت على الدعوة لأمويي الأندلس، وقادها زيري بن عطية من قبيلة مغراوة وهي فرع من قبيلة زناتة فملك مدينة فاس، ثم اتسع سلطانه، وخاض حروباً كثيرةً كان آخرها قتاله لجيوش ابن أبي عامر من الأندلس فأثخن بالجراح ومات سنة ٣٩١هـ، وخلفه ابنه المعزّ بموافقة أبناء عمه وجاءه تقليد المظفر بن أبي عامر بولايته على المغرب كله عدا سجلماسة، فأقام تابعاً لقرطبة إلى أن انقرضت الدولة الأموية بعد انقراض الدولة العامرية فاستقلّ بالأمر واستمرّ إلى أن توفي بمدينة فاس سنة ٤٢٢هـ، وكانت أيامه أيام هدوءٍ وأمنٍ، ثم تولّى الأمر من بعده بعض أبناء عمومته، وفي سنة ٤٥٧هـ آل الأمر إلى معنصر بن

المعزّ بن زيري بن عطية الزناتي المغراوي وقد كان في أيام أبيه بقرطبة رهينةً لدى المظفّر بن أبي عامر فلما شبّت الفتنة بالأندلس عاد إلى فاس وبقي حتى أصبح له أمرها، قاوم المرابطين وفقد إحدى عينيه عام ٤٦٠هـ، وقام ابنه تميم مكانه، فهاجمه المرابطون ودافع عن فاس إلى أن قُتل عام ٤٦١هـ، ودخل المرابطون فاس وانقضت دولة مغراوة.

الروم

كان الروم يدركون أهداف المتنفّذين أيام السيطرة البويهية وعملهم في الهدم الفكري بما يبثّونه من أفكارٍ دخيلةٍ على الإسلام تفرّق الأمة وتُعكّر صفاء المبدأ ونقاء المنهج، كما كان يعرف الروم أبعاد مخطط أدعياء الإسلام في إضعاف قوة الأمة بتفرقتها وبإماتة فكرة الجهاد التي تُعدّ القوة الفعّالة بانتصارات المسلمين ـ بإذن الله ـ، لذا كانوا يحرصون على تجزئة المجتمع إلى طالبيين ومؤيّدين أدعياء وإلى متمسّكين بالنهج الإسلامي بعيدين عن عصبيات النسب والقبيلة والشعب والمدينة والمصر و. . . .

كان الروم ينتظرون نجاح مخططات أدعياء الإسلام في ديار الإسلام كي يضعف المسلمون فكرياً وقتالياً

وعندها يعود الأدعياء إلى ما كانوا عليه قبل ظهور الإسلام ويُحقّقون ما يريدونه من عودتهم إلى ممالكهم السابقة وعقيدتهم المندرسة وفي الوقت نفسه يستعيد الروم مكانتهم القديمة ومجدهم الماضي ويسترجعون ما فقدوا من أمصارٍ وما تخلّوا عنه من بلدان.

ولتحقيق ما تهفو إليه النفوس وللوصول إلى ما يُسعى إليه ولتأمين نجاح المخططات كان الروم لا يُسيّرون الجيوش الجرارة ولا يستعدّون للقتال على نطاقٍ واسعٍ لأنهم لو فعلوا ذلك لالتأم الصف الإسلاميّ ولارتفعت راية الجهاد وعندها لا يُحقّق الروم إلا الخسران المبين ولا يحصدون إلا الهزائم ولا يصلون إلا إلى ترك أراضٍ جديدةٍ وإلى التخلّي عن مواقع حصينةٍ. لذا كان الروم لا يتعدّون في حروبهم على الغارات ولا يزيدون في هجماتهم على مداهمة مواقع جانبيةٍ ولا يقصدون من هجماتهم ومداهماتهم سوى إثبات الوجود حتى لا يطمع فيهم الخصم ولا تستذلّهم جماعات الثغور بل وتجمّعات الشباب.

صبر الروم وطال صبرهم، ويحلمون ولكن لم يتحقّق الحلم، ويأملون ولكن لم يصلوا إلى الأمل المنشود، ثم أخذت الغيوم تتلبّد في الأفق ولكن ما كان

برقها إلا خُلّباً وما كان تكاثفها سوى ظلمةٍ تدلّ على خيبة أملٍ وتغطيةٍ لكل حلمٍ إذ أخذ الأدعياء يتساقطون وبدأ الذين يهدمون من الداخل يحفرون قبورهم بأيديهم، ويهدمون بيوتهم بمعاولهم، ثم ينزلون القبور ويردمون على أنفسهم التراب، فدالت دولة السامانيين وزالت إمارة الحمدانيين وأخذ القرامطة يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وبدأت خلافة العبيديين تضيق عليهم وتنكمش من أطرافها، ويسير الانكماش نحو قاعدة سلطانهم، وتُسحب الديار من تحت أقدامهم. وضعف أمر البويهيين إذ رُدّ كيدهم في نحرهم ومكرهم في صدرهم فوقع الخلاف بينهم، وخلع بعضهم طاعة بعضٍ، وقاتل بعضهم بعضاً فتساقطت أوراقهم وتكسّرت أغصانهم وتهاوت جذوعهم. وشعر كل مراقبٍ للأحداث أن الوقت قد حان لزوال سلطان الأدعياء.

وشعر الروم أن الظنّ قد خاب والأمل قد زال والحلم قد تلاشى وأن الآمال أضحت آلاماً والأفكار أحلاماً والمستقبل خيالاً. وزاد الأمر التهاباً عند الروم حين خفقت راية الجهاد يرفعها قادم جديد وقد انضوى تحت لوائها المبايعون، وهدر التكبير فضجّت به الساحات ووصل صدى أثرها إلى أسماع ملك الروم

أرمانوس فأصابه الفزع وحلّ به الإعياء فاستلقى يُفكّر ما يصنع، وجاءه قرينه الشيطان يقول له: ماذا تنتظر؟ أتنتظر حتى تجتمع الرايات، وتتم الحشود، ويصحو الوسنان، ويستيقظ النائم، ويُنفض ما ذُرّ في العيون مدة قرنين ونيّف و... ما أطول سباتكم أيها الروم، وما أشدّ غفلتكم، انهض فاحشد وقم فنادِ القواد وادعُ الرهبان ليسيروا بالمقدمة فهو النصر إن أسرعت والهزيمة والذلّ إن توانيت و... . هيا انهض كفاك خمول كفاك انتظار وقد ولّاك الروم أمرهم، أتحبّ أن ترى المسلمين يقرعون عليك أبواب القسطنطينية... .

نهض أرمانوس كالمجنون وصرخ كالملدوغ اجمعوا القادة وادعوا البطارقة... . هيا أسرعوا. بدأ النفير، واتجه المدعون نحو دار الملك، وتمّ اللقاء، وتكامل الاجتماع، وأُخبر أرمانوس فدخل المكان فرأى رؤوس القادة إلى جانب كبار البطارقة فأبدى السرور وإن كان لهيب الفزع يسيطر على جوفه ويكاد يحرق قلبه. قال: يا عظمة البطارقة ويا سادة الميادين، كان الأمل أن هؤلاء... . المسلمين في طريق الزوال وأن الذين يهدمون من الداخل قد أصبحوا أصحاب الشأن، وكان الاستعداد منا أن ندخل أمصارهم ونحتل بلدانهم

ونمحو آثارهم ولكن يبدو أن الروح قد عادت إليهم ورجعت عروقهم تنبض، وعلينا الآن الحركة قبل أن يستعيدوا الحياة، ويجب أن نستعدّ بإمكاناتنا كلها ونجهّز حملةً كاسحةً تقضي على خضرائهم فلا تقوم لهم قائمة بعدها، ولا يصحّ التأجيل أبداً فنحن على حدّ الخطر كما لا يصحّ التهاون أبداً فلا سلم ولا صلح ولا هدنة ولا انتظار بل السيف هو الحكم ولا شفاء لنا إلا بجزّ الرؤوس والدوس على الجثث الملقاة، وحتى نصل إلى الريّ ونترك ما بعدها لغيرنا، ويكفينا ما ملكنا.
وأنتم يا سادة فأبشروا فلكل واحدٍ منكم قُطر يحكمه لا يُرفع عنه، وإقطاع يملكه لا يُؤخذ، يسعد به وأهله ما دام حيّاً. ووزّع ورقةً بتقسيم الإمارات وتعيين الأملاك، فسبح البطارقة والقادة بالخيال وعاشوا بالأحلام وشعروا بأنواع السعادة فتصوّروا المكانة والأموال والعبيد والإماء والطاعة والامتثال و . . . وبعد فترةٍ من الصمت جالوا خلالها في عالم الأوهام، قالوا: وما العمل؟ قال: تستعدّوا فتستنفروا الشعوب والأحلاف والأصدقاء والجوار وكل أعداء المسلمين وتُهيئوا التجهيزات الكافية وتستعدوا الاستعدادات التامة وتُؤمّنوا الحاجيات اللازمة، وتخبروني عند الانتهاء من كل أمرٍ.

أخبر قادة الروم ملكهم بالاستعداد للمسير فسار بهم سنة ٤٦٢هـ من القسطنطينية ونزل على مدينة منبج فنهبها وقتل أهلها وهزم محمود بن صالح بن مرداس وبني كلاب وابن حسان الطائي ومن معهما من جموع الأعراب. ثم إن ملك الروم أرمانوس ارتحل وعاد إلى بلاده.

كانت هذه الحرب جسّاً لنبض المسلمين واختباراً لقوتهم وإشعاراً لهم أنها مجرد غارةٍ كالأسلوب المعهود كي لا يأخذ المسلمون حذرهم ويزيدوا من استعداداتهم وحتى لا يلتئم شملهم وتجتمع كلمتهم وفي الوقت نفسه رفعاً لمعنويات جنده وجذباً للمقاتلين الذين يخشون نزال المسلمين فيتوارون عند النفير ويختفون عند سير الجيوش ويتعلّلون عند الحركة وبهذا يطمعهم بالأرباح التي حصلت بالنهب والسلب. ولم تمض إلا أشهر قليلة حتى تمّ الاستعداد من جديدٍ على الحركة إلى بلاد المسلمين.

خرج أرمانوس ملك الروم سنة ٤٦٣هـ في مائتي ألف مقاتلٍ على أقلّ تقديرٍ للمؤرّخين ويضمّ هذا الجيش أخلاطاً من الروم والفرنجة والصرب والروس والبوشناق والأرمن والكرج وغيرهم من طوائف تلك

البلاد، ساروا في تجمّلٍ كثيرٍ وزيٍّ عظيمٍ وقصد أرمانوس بلاد الإسلام واتخذ طريقه إلى العراق، وقد أقطع بطارقته الأرض حتى بغداد، وعيّن له نائباً على بغداد قبل أن يسير، واستوصى نائبه بالخليفة خيراً، فقال له: ارفق بهذا الشيخ فإنه صاحبنا. وقد عزم أرمانوس أن يُبيد الإسلام وأهله، وإذا انتهى من العراق وخراسان مال على الشام وأهله ميلةً واحدةً فأباد المسلمين فيها أيضاً دون تمييزٍ.

وصل ملك الروم أرمانوس إلى «ملازكرد» من أعمال خلاط في شرقي تركيا اليوم وعلى مقربةٍ من بحيرة «وان» ووصل الخبر إلى السلطان السلجوقي ألب أرسلان وهو في أذربيجان بمدينة «خوى» قد عاد من مدينة حلب، وسمع ما مع ملك الروم من كثرة الجموع وزيادة الاستعداد، وهو «ألب أرسلان» لا يستطيع جمع الجند لبعده عن مقرّ حكمه، ولقرب العدوّ منه، فسيّر الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى همذان، وسار هو فيمن معه من العسكر وهم خمسة عشر ألفاً للقاء العدو متوكّلاً على الله وجدّ في السير، وقال: إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي، وساروا

فلما اقترب من العدو أرسل مقدمته أمامه فالتقت عند مدينة خلاط بمقدمة الروس في نحو عشرة آلاف مقاتل فاقتتلوا فانهزم الروس، وأُسر قائدهم وحُمل إلى السلطان ألب أرسلان فجدع أنفه وبعث بالقائد الأسير مع الغنائم إلى نظام الملك، وأمره أن يرسله إلى بغداد.

واقترب الجمعان بعضهما من بعضٍ فأرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب المهادنة فأجابه: لا هدنة إلا بالريّ (موقع طهران اليوم)، فتأثّر السلطان من هذا الجواب المتغطرس فاستشار إمام جنده أبا نصر محمد بن عبد الملك البخاري، فأجابه: إنك تقاتل عن دينٍ وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي يكون فيها الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة، وكان يومها يوم الأربعاء لخمسٍ بقين من ذي القعدة سنة ٤٦٣هـ.

جاء يوم الجمعة وحان وقت الزوال فصلّى أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بالناس، فبكى السلطان وبكى الناس لبكائه، ودعا بعد الصلاة ودعوا معه، وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف فما

هاهنا سلطان يأمر وينهى وإنما جهاد ورغبة في لقاء الله، ثم ألقى القوس والنشّاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنّط، وقال: إن قُتلت فهذا كفني وزحف إلى الروم وزحفوا إليه، فلما اقترب منهم ترجّل ومرّغ وجهه بالتراب وبكى وأكثر الدعاء، وطلب من الله النصر ثم ركب وحمل على الروم وحملت العساكر معه حتى وصلوا إلى وسط عساكر الروم، وحجز الغبار بينهم فأنزل الله نصره على المسلمين فما هي إلا جولة حتى هُزم الروم ومنحوا أكتافهم للمسلمين فقتلوا منهم ما لا يحصى إذ امتلأت الأرض بالجثث، وقُدّر عدد القتلى من الروم بمائةٍ وخمسين ألفاً، أي أن كل مسلمٍ قتل عشرةً من الروم، وأُسر أرمانوس ملك الروم، أسره بعض الغلمان وأراد قتله ولم يعرفه فقال له خادم مع الملك: لا تقتله فإنه الملك، وكذلك وقع بطارقته جميعاً وقعوا بالأسرى وكذا كل من أخذ قسمةً أو إقطاعاً من تقسيم الملك أرمانوس بعض المناطق الإسلامية بين بطارقته وقادته.

حُمل ملك الروم أرمانوس أسيراً إلى السلطان ألب أرسلان، فلما وقف بين يديه ضربه بيده ثلاث

مقارع، وقال له: لو كنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل بي؟ قال: كل قبيحٍ. قال: فما ظنّك بي؟ قال: إما أن تقتل بعد أن تُشهّر بي في بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتُعيدني. قال: ما عزمت على غير العفو والفداء. فافتدى أرمانوس نفسه بمليونٍ ونصف المليون من الدنانير. فقام أرمانوس بين يدي السلطان وسقاه شربةً من ماءٍ، وقبّل الأرض بين يديه. وقد ترك له السلطان عشرة آلاف دينارٍ ليتجهّز بها، وأطلق معه جماعةً من البطارقة الأسرى. وكان من شروط الفداء أيضاً أن يرسل أرمانوس عساكر الروم إلى السلطان في أي وقتٍ يطلبها، وأن يُطلق كل أسيرٍ للمسلمين في بلاد الروم.

أنزل السلطان أسيره ملك أرمانوس في خيمةٍ، وأرسل إليه عشرة آلاف دينارٍ يتجهّز بها، وخلع عليه من الغد، فقال ملك الروم: أين جهة الخليفة؟ فدُلّ عليها فقام وكشف رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة، وهادنه السلطان خمسين سنةً وسيرّه إلى بلاده، وسيّر معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه، وشيّعه السلطان فرسخاً.

وأما الروم فلما بلغهم خبر الوقعة وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد، فلما وصل أرمانوس الملك

إلى قلعة دوقية بلغه الخبر فلبس الصوف وأظهر الزهد، وأرسل إلى ميخائيل يعرفه ما تقرّر مع السلطان، وقال: إن شئت أن تفعل ما استقرّ وإن شئت أمسكت، فأجابه ميخائيل بإيثار ما استقر، وطلب وساطته وسؤال السلطان في ذلك. وجمع أرمانوس ما عنده من المال فكان مائتي ألف دينارٍ فأرسله إلى السلطان وطبقاً ذهباً عليه جواهر بتسعين ألف دينارٍ، وحلف له أنه لا يقدر على غير ذلك، ثم إن أرمانوس استولى على أعمال الأرمن وبلادهم[1].

وفاة الخليفة القائم بأمر الله:

توفي ليلة الخميس الثالث عشر من شعبان سنة ٤٦٧هـ، عن عمرٍ يناهز السادسة والسبعين، وكان قد فُصد ونام منفرداً فانفجر فصاده وخرج منه دم كثير ولم يشعر فاستيقظ وقد ضعف جسمه وتدهورت قوته فأيقن بالموت فأحضر حفيده ولي العهد ووصّاه بوصايا، وأحضر قاضي القضاة والوزير ابن جهير والنقباء وأشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله ولي

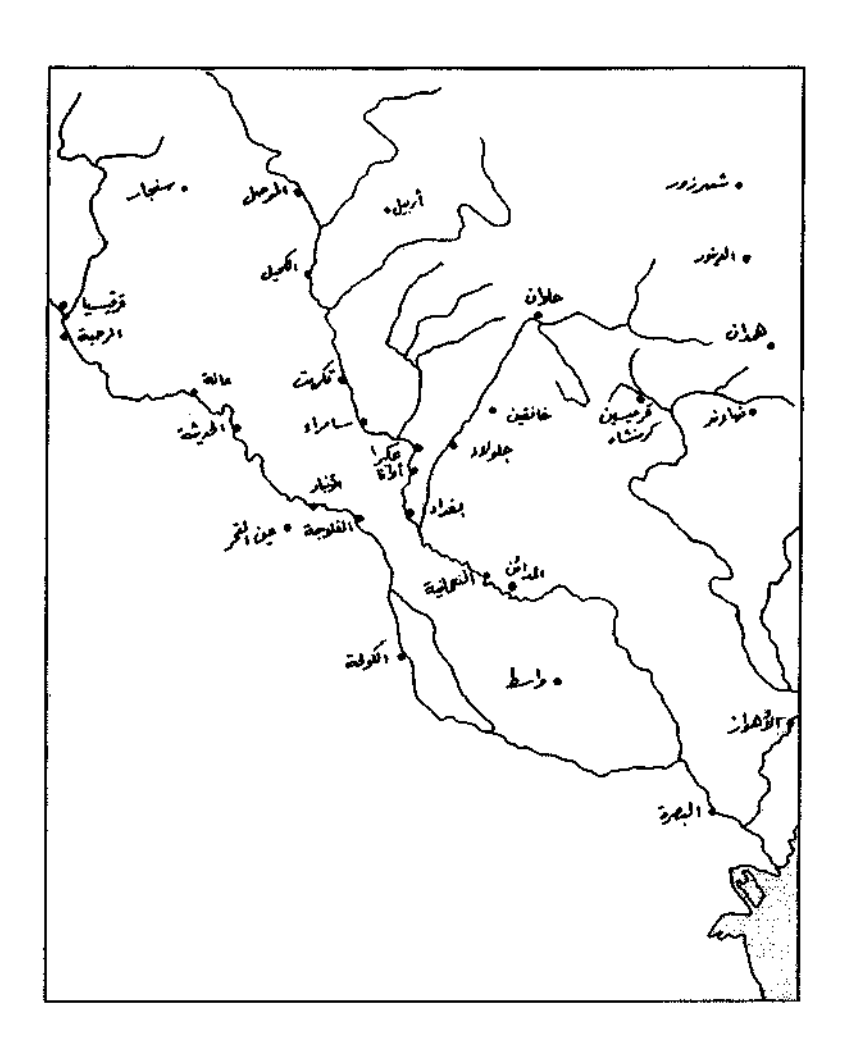
(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

عهده. ولما توفي صلّى عليه ولي العهد.

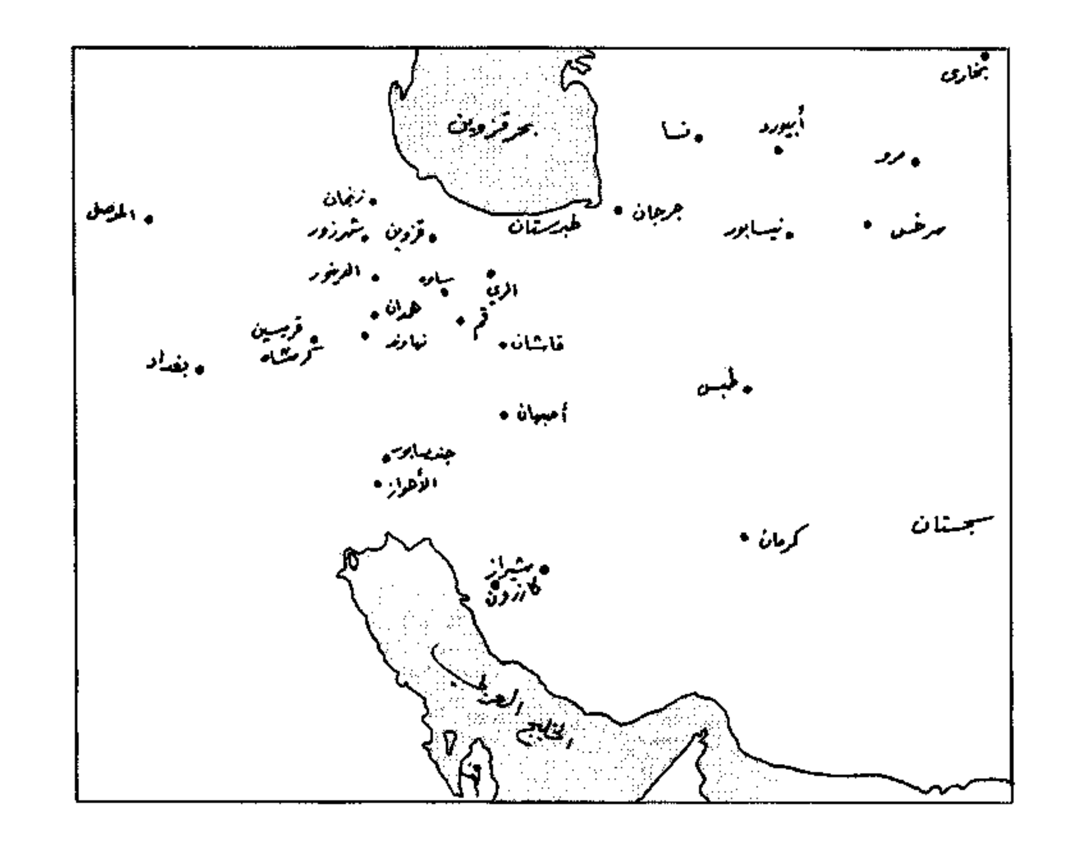
وكانت خلافته أربعاً وأربعين سنةً وثمانية أشهرٍ وأياماً، منها خمسة وعشرون سنةً في عهد السيطرة البويهية وثلاثة وعشرون سنةً وأشهر في عهد السيطرة السلجوقية.

شخصية الخليفة القائم بأمر الله:

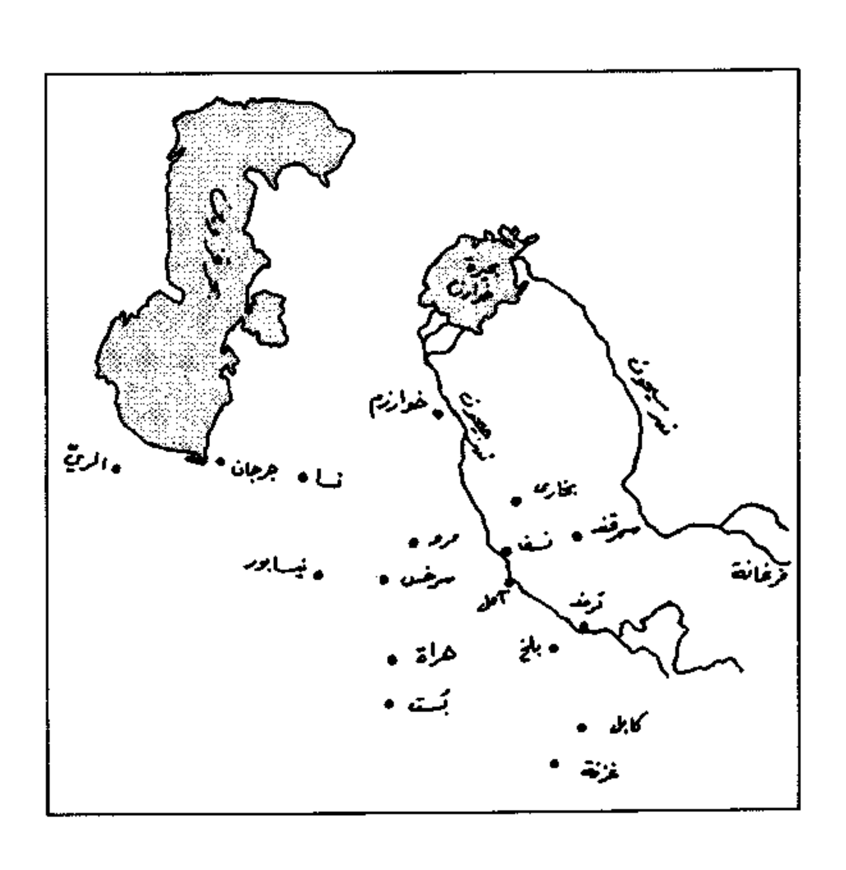
كان جميلاً، مليح الوجه، أبيض مشرباً بحمرة، حسن الجسم، ورعاً ديناً زاهداً عالماً، قوي اليقين بالله تعالى، كثير الصبر والصدقة، له عناية بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، مؤثراً للعدل والإحسان وقضاء حوائج الرعية، لا يرى المنع من شيءٍ طلب منه.



سنجار
الموصل
أربيل
شهرزور
الزنوز
الكحيل
قرقيسيا
الرحبة
حلوان
همذان
تكريت
عانة
خانقين
قرميسين
كرمنشاه
الحديثة
سامراء
عكبرا
أوانا
جلولاء
الأنبار
بغداد
الفلوجة
عين التمر
المدائن
النعمانية
الكوفة
واسط
الأهواز
البصرة



بخارى
أبيورد
نسا
مرو
بحر قزوين
زنجان
الموصل
قزوين
شهرزور
طبرستان
جرجان
نيسابور
سرخس
الدينور
ساوه
الري
همذان
قم
قرميسين
كرمنشاه
نهاوند
قاشان
بغداد
الطبس
أصبهان
جنديسابور
الأهواز
سجستان
كرمان
شيراز
كازرون
الخليج العربي



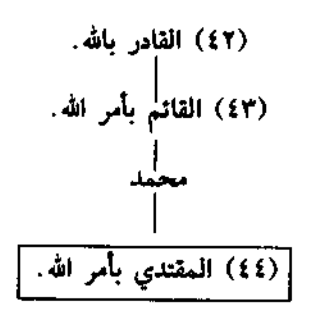
بحيرة خوارزم
نهر سيحون
نهر جيحون
خوارزم
الري
جرجان
نسا
نيسابور
بخارى
سمرقند
نسف
مرو
سرخس
آمل
ترمذ
فرغانة
بلخ
هراة
بُست
كابل
غزنة

الفصل الثاني

٤٤ - المقتدي بأمر الله

٤٦٧ - ٤٨٧هـ

المقتدي بأمر الله هو الخليفة أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عمّ رسول الله ﷺ.



المقتدي بأمر الله قبل الخلافة:

كان للخليفة القائم بأمر الله ولد وحيد يُسمّى محمداً ويكنى أبا العباس ويُلقّب بذخيرة الدين وُلد في شهر جمادى الآخرة سنة ٤٣١هـ، ولم يعش طويلاً فقد توفي في شهر ذي القعدة سنة ٤٤٧هـ أي في عهد أبيه أمير المؤمنين القائم بأمر الله. وكانت له جارية تُدعى «أرجوان» وكانت حاملاً عند وفاة سيدها أبي العباس ذخيرة الدين بن أمير المؤمنين، وفي شهر جمادى الأولى سنة ٤٤٨هـ وضعت حملها فأنجبت مولوداً ذكراً سمّاه عبد الله أي باسمه وهو جده وكنّاه أبا القاسم وهو المقتدي. و لم يكن له شأن قبل الخلافة بل ولا ذكر لأن الخليفة نفسه كان مجرد رجلٍ يحمل لقب الخليفة. وقد رباه جده أمير المؤمنين وتعهده بالحب والرعاية.

خلافة المقتدي بأمر الله:

لما توفي الخليفة القائم بأمر الله عبد الله بن أحمد في الثالث عشر من شهر رجب سنة ٤٦٧هـ بويع الخليفة المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد، وكان عمره تسع عشرة سنةً وحضر مؤيد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الدولة بن جهير، وابنه عميد الدولة، والشيخ أبو إسحاق، وأبو نصر بن الصباغ ونقيب النقباء طراد

والنقيب الطاهر المعمر بن محمد وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني وغيرهم من الأعيان فبايعوه، وقيل: كان أول من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي فإنما لما فرُغ من غسل الخليفة القائم بأمر الله بايعه وأنشده:

إذا سيّد منا مضى قام سيّد

ثم ارتجّ عليه فقال المقتدي بأمر الله:

قؤول بما قال الكرام فعول

فلما فرغوا من البيعة صلّى بهم العصر، ولم يكن للقائم بأمر الله من أعقابه ذكر سواه فإن ذخيرة الدين أبا العباس محمد بن القائم بأمر الله توفي أيام أبيه ولم يكن له غيره فأيقن الناس بانقراض نسله وانتقال الخلافة من بيت القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر إلى غيره، ولم يشكّوا في اختلال الأحوال بعد القائم بأمر الله لأن الذين من غير هذا البيت كانوا يخالطون العامة في البلاد ويجرون مجرى السوقة، فلو اضطر الناس إلى خلافة أحدهم لم يكن له ذلك القبول ولا تلك الهيبة فقدّر الله تعالى أن ذخيرة الدين أبا العباس كان له جارية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما توفي ورأت ما نال القائم بأمر الله من المصيبة واستعظمه من انقراض عقبه

ذكرت أنها حامل، فتعلّقت النفوس بذلك فولدت بعد موت سيدها بستة أشهرٍ ولدها المقتدي فاشتدّ فرح القائم بأمر الله وعظم سروره وبالغ في الإشفاق عليه والمحبة له، فلما كان حادثة البساسيري كان للمقتدي قريب أربع سنين فأخفاه أهله وحمله أبو الغنائم بن المحلبان إلى حرّان، ولما عاد القائم بأمر الله إلى بغداد أُعيد المقتدي إليه، فلما بلغ الحلم جعله ولي عهده ولما ولي الخلافة أقرّ فخر الدولة بن جهير على وزارته بوصيةٍ من القائم بأمر الله بذلك وسيّر عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة، وكان مسيره في شهر رمضان سنة ٤٦٧هـ وأرسل معه من أنواع الهدايا ما يجلّ عن الوصف[١].

أرسل المستنصر العبيدي صاحب مصر إلى أمير مكة ابن أبي هاشم رسالةً وهديةً جليلةً وطلب منه أن يُعيد له الخطبة بمكة ـ حرسها الله تعالى ـ وقال: إن أيمانك وعهودك كانت للقائم بأمر الله وللسلطان ألب أرسلان وقد ماتا فخطب له بمكة وقطع خطبة المقتدي بأمر الله وذلك سنة ٤٦٧هـ، وكانت مدة الخطبة

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

للعباسيين بمكة أربع سنين وخمسة أشهرٍ، ثم أُعيدت في شهر ذي الحجة سنة ٤٦٨هـ.

وفي التاسع عشر من شهر شوال سنة ٤٧٠هـ ولد للخليفة المقتدي بأمر الله ولده أحمد أبو العباس الذي لقّب المستظهر بالله، وزُيّنت البلاد، وجلس الوزير للهناء، ثم في يوم الأحد السادس والعشرين من شهر شوال سنة ٤٦٠هـ، ولد له ولد آخر وهو هارون أبو محمد.

وعُزل فخر الدولة أبو نصر بن جهير من وزارة الخليفة المقتدي بأمر الله ووزر بعده أبو شجاع محمد بن الحسين.

وفي ٤٧١هـ وُلد للسلطان ملكشاه ولدٌ هو بركيارق.

ووُلد للخليفة المقتدي بأمر الله ولد سنة ٤٧٢هـ فسمّاه موسى وكنّاه أبا جعفر وزُينت بغداد سبعة أيامٍ.

سار السلطان ملكشاه إلى الريّ واستعرض عسكره فأسقط منهم سبعة آلاف رجلٍ لم يرض حالهم فساروا إلى أخيه تكش، وهو بـ«بوشنج»[1]، فقوي بهم، وأظهر

(١) بوشنج: بلدة بالقرب من هراة على بعد خمسين كيلو متر منها، وتعدّ متنزهاً في وادٍ مشجرٍ.

العصيان على أخيه ملكشاه، واستولى على مرو الروذ ومرو الشاهجان وترمذ، وسار إلى نيسابور طامعاً في ملك خراسان، ووصل خبره إلى أخيه السلطان ملكشاه، فسار مجدّاً إلى خراسان ووصل إلى نيسابور قبل أن يستولي عليها أخوه تكش فلما سمع تكش بقرب أخيه ملكشاه سار عنها وتحصّن بترمذ فحاصره أخوه بها، وكان تكش قد أسر جماعة من أصحاب أخيه السلطان فأطلقهم واستقرّ الصلح بينهما، ونزل تكش إلى أخيه السلطان ملكشاه ونزل عن مدينة ترمذ.

وخطب الخليفة المقتدي بأمر الله ابنة السلطان ملكشاه وذلك ٤٧٤هـ فأرسل الخليفة الوزير فخر الدولة أبا نصر بن جهير إلى السلطان يخطب ابنته لنفسه، فسار فخر الدولة إلى أصبهان حيث السلطان فوضعت زوجة السلطان شروطاً فأُجيبت إلى ما تريد، وعاد فخر الدولة إلى بغداد بالموافقة.

وتوفي جمال الملك بن نظام الملك سنة ٤٧٥هـ، ووصل الخبر إلى بغداد، فكان العزاء وجلس أخوه مؤيد الملك للعزاء فعزّى به الخليفة والوزير.

وعاد تكش بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه إلى العصيان سنة ٤٧٧هـ وذلك بعد أن رأى أخاه

السلطان بعيداً عنه، وقد حسّن له أصحابه مفارقة طاعة أخيه فأجابهم وسار معهم إلى مروالروز فملكها ثم سار إلى قلعةٍ قرب مدينة سرخس، وقصد السلطان خراسان بعد ثلاثة أشهرٍ وسار إلى أخيه تكش وأخذه، وجعل الأمر إلى ولده أحمد، فأمر أحمد بكحله فكُحّل وسجن.

استطاع سليمان بن قطلمش دخول أنطاكية وأخذها من الروم سنة ٤٧٧هـ، فأرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش[١] يطلب منه ما كان يحمله إليه صاحب أنطاكية من المال ويخوّفه معصية السلطان، فأجابه: أما طاعة السلطان فهي شعاري ودثاري والخطبة له والسكة باسمه في بلادي، وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعادته من هذا البلد وأعمال الكفار، وأما المال الذي

---

(١) مسلم بن قريش بن بدران العقيلي، أبو المكارم، شرف الدولة: أمير مستقل، كان صاحب الموصل وديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة الفراتية، ولي بعد وفاة أبيه سنة ٤٥٣هـ، واستولى على قلعة حلب، وأخذ الأتاوة من بلاد الروم، وملك حران، وأساء إلى أهل السنة فيها، وكان يتشيّع، ودانت له البادية. ورام الاستيلاء على بغداد بعد طغرل بك، وقاتل سليمان بن قطلمش بظاهر أنطاكية، فقيل: إنه قُتل في المعركة، وقيل: خنقه خادم في الحمام سنة ٤٧٨هـ.

كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي فهو كان كافراً، وكان يحمله جزية رأسه وأصحابه، وأنا بحمد الله مؤمن ولا أحمل شيئاً، فنهب شرف الدولة أنطاكية فنهب سليمان أيضاً بلد حلب فلقيه أهل السواد يشكون إليه نهب عسكره، فقال: أنا كنت أشد كراهيةً لما يجري ولكن صاحبكم أحوجني إلى ما فعلت، ولم تجر عادتي بنهب مال مسلمٍ ولا أخذ ما حرّمته الشريعة وأمر أصحابه بإعادة ما أخذوه منهم فأعادوه.

ثم إن شرف الدولة جمع الجموع من العرب والتركمان وكان ممن معه جبق أمير التركمان في أصحابه، وسار إلى أنطاكية ليحاصرها، فلما سمع سليمان الخبر جمع عساكره، وسار إليه فالتقيا في الرابع والعشرين من شهر صفر سنة ٤٧٨هـ في طرفٍ من أعمال أنطاكية واقتتلوا فمال تركمان جبق إلى سليمان فانهزمت العرب، وتبعهم شرف الدولة منهزماً فقُتل بعد أن صبر وقُتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، وكان تحت يده ديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب وما كان لأبيه[1] وعمه

---

(١) قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي: صاحب الموصل ونصيبين، وأحد الأمراء البسل العقلاء، كان من=

قرواش[1]. وكان عادلاً حسن السيرة، والأمن في بلاده عام والرخص شامل، وكان يسوس بلاده سياسةً عظيمةً حيث يسير الراكب والراكبان فلا يخافان شيئاً، وكان له في كل بلدٍ وقريةٍ عامل وقاضٍ وصاحب خبرٍ حيث لا يتعدّى أحد على أحدٍ. ولما قُتل قصد بنو عقيل أخاه إبراهيم بن قريش[2]، وهو محبوس، فأخرجوه وملكوه

= أمراء الدولة العباسية وله إمارة بني عقيل، واستمرت دولته عشر سنواتٍ، ومات بالطاعون في نصيبين سنة ٤٥٣هـ.

(١) قرواش بن المقلد بن المسيب العقيلي، من هوازن، أبو المنيع، معتمد الدولة: صاحب الموصل والكوفة والمدائن، وليها بعد مقتل أبيه سنة ٣٩١هـ، وكان أديباً شاعراً، أحسن تدبير ملكه وسياسته، ودامت إمارته خمسين سنةً، ووقع خصام بينه وبين أخيه بركة بن المقلد، فقبض عليه بركة سنة ٤٤١هـ وسجنه في إحدى قلاع الموصل، ثم نقله ابن أخيه قريش بن بدران بن المقلد إلى قلعة الجراحية من أعمال الموصل فتوفي بها سنة ٤٤٤هـ.

(٢) إبراهيم بن قريش بن بدران بن المقلد بن المسيب العقيلي: أمير بني عقيلٍ، صاحب الموصل، كان في أيام أخيه قريش معتقلاً، فلما قُتل أخوه سنة ٤٧٨هـ أخرجه بنو عقيل من سجنه وولّوه عليهم مكان أخيه. واستدعاه السلطان ملكشاه واعتقله سنة ٤٨٢هـ، ثم أُطلق بعد وفاة ملكشاه، فسار إلى الموصل فاستردّها ممن كان قد استولى عليها، وجرت حرب بينه وبين والي الشام تتش بن ألب أرسلان أخي ملكشاه وزحف عليه تتش ولقيه إبراهيم بثلاثين ألفاً في المضيع من أعمال الموصل، فأُسر إبراهيم وقُتل صبراً سنة ٤٨٦هـ.

أمرهم، وكان قد مكث في السجن سنين كثيرةً حيث لا يستطيع المشي ولا الحركة لما أُخرج. ولما قُتل شرف الدولة سار سليمان بن قطلمش إلى حلب فحاصرها في مستهل ربيع الأول سنة ٤٧٨هـ وأقام عليها حتى الخامس من ربيع الثاني من السنة نفسها فلم يبلغ منها غرضاً فرحل عنها.

وبعد مقتل شرف الدولة مسلم بن قريش أرسل سليمان بن قطلمش إلى ابن الحتيتي العباسي مقدم أهل حلب يطلب منه تسليم مدينة حلب إليه، فبعث إليه يستمهله إلى أن يكاتب السلطان ملكشاه، وأرسل ابن الحتيتي إلى تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق وأخي السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان يعده أن يُسلّم إليه حلب، فسار تتش يطلب حلب فعلم سليمان بذلك فسار نحوه مجداً فوصل إلى تتش وقت السحر من غير تعبئة فلم يعلم به حتى اقترب منه فعبّأ أصحابه، وكان الأمير أرتق بن أكسب مع تتش، وكان منصوراً، لم يشهد حرباً إلا وكان الظفر له، وكان قد حضر مع ابن جهير إلى آمد، وإطلاقه شرف الدولة من آمد، فلما فعل ذلك خاف أن ينهي ابن جهير ذلك إلى السلطان ففارق خدمته ولحق بتاج الدولة تتش فأقطعه بيت المقدس وحضر معه

هذه الحرب فأبلى فيها بلاءً حسناً وحرّض العرب على القتال فانهزم أصحاب سليمان وثبت وهو في القلب فلقي مصرعه، واستولى تتش على عسكره. وطلب ابن الحتيتي من تتش أن يراسل السلطان ومهما أمره فعل. فحاصر تتش البلد، وأقام عليه، وضيّق على أهله، وكان ابن الحتيتي قد سلّم كل برجٍ من أبراجها إلى رجلٍ من أعيان البلد ليحفظه، وسلّم برجاً فيها إلى رجلٍ يعرف بـ«ابن الرعوي» ثم إن ابن الحتيتي أوحشه بكلامٍ أغلظ له فيه، وكان هذا الرجل شديد القوة، ورأى الناس ما فيه من الشدّة فدعاه ذلك إلى أن أرسل إلى تتش يستدعيه، وواعده ليلةً برفع الرجال إلى السور في الحبال فأتى تتش للميعاد الذي ذكره فأصعد الرجال بالحبال والسلالم وملك تتش المدينة، واستأمن ابن الحتيتي بالأمير أرتق فشفع فيه. وأما القلعة فكان بها سالم بن مالك بن بدران وهو ابن عم شرف الدولة مسلم بن قريش، فأقام تتش يحاصر القلعة سبعة عشر يوماً فبلغه خبر وصول مقدمة أخيه السلطان ملكشاه فرحل عنها. وكان ابن الحتيتي قد راسل السلطان ملكشاه يدعوه ليسلّم إليه حلب وذلك عندما خاف من تاج الدولة تتش، فسار السلطان من أصبهان في شهر جمادى الآخرة سنة ٤٧٩هـ وجعل على مقدمته الأمير

برسق وبوزان وغيرهما من الأمراء وجعل طريقه على الموصل فوصل إليها في شهر رجب، وسار منها فلما وصل إلى حران سلّمها إليه ابن الشاطر فأقطعها السلطان محمد بن شرف الدولة، وسار إلى الرها وهي بيد الروم فحاصرها ودخلها عنوةً، وسار إلى قلعة جعبر[1] فحاصرها يوماً وليلةً وملكها، وعبر نهر الفرات إلى مدينة حلب فأخذ في طريقه مدينة منبج فلما اقترب من حلب رحل عنها أخوه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، وكان قد ملك المدينة، وسار تتش في البرية ومعه الأمير أرتق فأشار بكبس عسكر السلطان، وقال: إنهم قد وصل بهم التعب وبدوابهم ما ليس عندهم معه امتناع، ولو فعلنا لظفرنا، فقال تتش: لا أكسر جاه أخي الذي أنا مستظلّ بظلّه فإنه يعود بالوهن عليّ أولاً وسار إلى دمشق، ولما وصل السلطان ملكشاه إلى حلب تسلّم المدينة وسلّم سالم بن مالك القلعة على أن يعوضه عنها قلعة جعبر، وكان سالم قد امتنع بها أولاً فلما رأى قوة السلطان صالح عنها بقلعة جعبر وسلّمها وسلّم السلطان إليه قلعة جعبر فبقيت بيده وبيد أولاده

---

(١) قلعة جعبر: على نهر الفرات بين مسكنه (بالس) والرقة، وهي غير قائمة الآن.

إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود بن زنكي.

أرسل الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني[1] صاحب شيزر إلى السلطان ملكشاه فدخل في طاعته وسلّم إليه اللاذقية، وكفرطاب[2] وأفامية فأجابه إلى المسالمة وترك السير إليه وأقره على شيزر. لما ملك السلطان ملكشاه حلب سلّمها إلى قسيم الدولة آقسنقر فعمرها وأحسن السيرة فيها، وأما ابن الحتيتي فإنه كان واثقاً من إحسان السلطان ونظام الملك إليه فإنه دعاهما، فلما ملك السلطان البلد طلب أهله أن يعفيهم من ابن الحتيتي فأجابهم إلى ذلك واستصحبه معه ثم أرسله إلى ديار بكر.

أسقط السلطان سنة ٤٨١هـ ما كان يُؤخذ من الحجاج من الخفارة.

توفي فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جهير الذي كان وزير الخليفة، وكانت وفاته بالموصل

---

(١) نصر بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، أبو المرهف، عزّ الدولة: أمير، كان له ولأسلافه من قبله حصن شيزر، شمال حماة على نهر العاصي، ملكه بعد أبيه سنة ٤٧٩هـ، واستمرّ إلى أن توفي سنة ٤٩١هـ، وكان شجاعاً كريماً وشاعراً أديباً.

(٢) كفرطاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في براري قليلة المياه.

في شهر المحرم سنة ٤٨٣هـ، وعُزل في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٤هـ أبو شجاع الذي حلّ مكانه، وتولّى الوزارة عميد الدولة بن جهير في شهر ذي الحجة سنة ٤٨٤هـ.

كان السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك[١] في

---

(١) نظام الملك: الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، أبو علي: ولد سنة ٤٠٨هـ، وكان من أبناء الدهاقين بـ«طوس» فزال ما كان لأبيه من مالٍ وملكٍ، وتوفيت أمه وهو رضيع فكان أبوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبةً، وشبّ وتعلّم العربية، وكان يطوف بلاد خراسان، ووصل إلى غزنة في صحبة بعض المتصرفين، ثم لزم أبا علي بن شاذان متولي الأمور ببلْخ لداود والد السلطان ألب أرسلان فحسنت حاله معه وظهرت كفايته وأمانته، وصار معروفاً عندهم بذلك، فلما حضرت أبا علي بن شاذان الوفاة أوصى الملك ألب أرسلان به وعرفه حاله فولّاه شغله ثم صار وزيراً له إلى أن ولي السلطنة بعد عمه طغرل بك، واستمرّ على الوزارة لأنه ظهرت منه كفاية عظيمة، ولما توفي ألب أرسلان قام بأمر ابنه ملكشاه، وقيل: إن ابتداء أمره أنه كان يكتب لأميرٍ تاجرٍ هو صاحب بلْخ، وكان الأمير يصادره في رأس كل سنةٍ، ويأخذ ما معه ويقول له: قد سمنت يا حسن ويدفع إليه فرساً ومقرعة، ويقول: هذا يكفيك. فلما طال ذلك عليه أخفى أولاده فخر الملك ومؤيد الملك وهرب إلى جغري بك داود والد ألب أرسلان في مرو، ودخل عليه، فلما رآه جغري بك داود أخذ بيده وسلّمه إلى ولده ألب أرسلان، وقال له: هذا=

أصبهان وعاد نظام الملك إلى بغداد وعندما كان قريباً من نهاوند أتاه صبي ديلمي من الباطنية في صورة إنسانٍ مستغيثٍ وضربه بسكينٍ كانت معه فقضى عليه وهرب فعثر بوتد خيمةٍ فأدركوه فقتلوه، وكان مقتل نظام الملك في العاشر من شهر رمضان سنة ٤٨٥هـ، وقد بقي وزيراً للسلطان مدة ثلاثين سنةً غير ما وزر للسلطان ألب أرسلان صاحب خراسان أيام عمه طغرل بك قبل أن يتولّى السلطنة.

بعد مقتل نظام الملك سار السلطان ملكشاه[1] إلى

= حسن الطوسي فتسلّمه واتخذه والداً لا تخالفه، وكان الأمير تاجر لما سمع بهرب نظام الملك وسار في أثره إلى مرو، فقال لداود: هذا كاتبي ونائبي قد أخذ أموالي، فقال له داود: حديثك مع محمد (يعني ألب أرسلان)، فلم يتجاسر تاجر على خطابه فتركه وعاد.

كان شافعياً أشعرياً، وقيل: إنه ما جلس إلا على وضوء، وما توضأ إلا تنفّل، ويصوم الاثنين والخميس. بنى المدرسة النظامية ببغداد، وبنى كذلك مدارس في كلٍّ من: مرو، هراة، بلْخ، البصرة، أصبهان، كما بنى مشفىً أنفق عليه خمسين ألف دينارٍ، وكان يتصدّق كل صباحٍ بمائة دينارٍ.

(١) ملكشاه: السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه بن السلطان ألب أرسلان محمد بن جغري بك داود السلجوقي، ملك بعد أبيه ألب أرسلان ودبّر دولته نظام الملك بوصيةٍ من أبيه ألب=

بغداد ودخلها في الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٤٨٥هـ ولقيه وزير الخليفة عميد الدولة ابن جهير[(١)].

= أرسلان إليه سنة ٤٦٥هـ فخرج عليه عمه قاورت ملك كرمان فالتقوا قرب همدان فانكسر جمعه، وأتي بعمه أسيراً فوبّخه، فقال: أمراؤك كاتبوني وأحضر خريطةً فيها كتبهم فناولها لنظام الملك ليقرأها فرماها في منقل نارٍ، ففرح الأمراء وبذلوا الطاعة، وخنق عمّه. وكان ملكشاه حسن السيرة، مغرى بالعمائر، وحفر الأنهار، وتشييد القناطر، والأسوار، وعمّر ببغداد جامعاً كبيراً، وأبطل المكوس والخفارات في بلاده جميعها.

تزوج الخليفة المقتدي بأمر الله بابنته وكان العرس سنة ٤٨٠هـ فولدت له جعفراً. وكانت مدينة أصبهان مقرّ ملكشاه، وقدم بغداد مرتين، ولم يكن للخليفة المقتدي بأمر الله معه غير الاسم. وقدم بغداد للمرة الثالثة عليلاً، وكان الخليفة قد فوّض الأمر من بعده لابنه المستظهر فألزمه ملكشاه بعزله، وأن يولّي مكانه ابن ابنته جعفراً، وأن يسلّم بغداد إليه ويتحوّل إلى البصرة، فشقّ على الخليفة وحار، ثم طلب المهلة عشرة أيامٍ ليتجهّز فلم يقبل منه السلطان، واشتدّ المرض على السلطان ملكشاه ومات، ولم يعمل له عزاء، ونُقل إلى أصبهان، ودُفن بها في مدرسةٍ هناك.

وتزوج الخليفة المستظهر بالله بابنة ملكشاه الأخرى. وتنازع أبناء ملكشاه من بعده الملك وكان آخرهم موتاً ابنه سنجر صاحب خراسان عاش بعد أبيه أقلّ من سبعين سنةً.

(١) عميد الدولة ابن جهير: محمد بن محمد بن محمد، أبو منصور عميد الدولة بن فخر الدولة ابن جهير: وزير ولي=

وفي الثالث من شهر شوال خرج السلطان ملكشاه للصيد وعاد مريضاً، وتوفي ليلة الجمعة النصف من شوال سنة ٤٨٥هـ.

ولما مات السلطان ملكشاه سترت زوجته تركان خاتون المعروفة بخاتون الجلالية موته وكتمته، وأعادت جعفر بن الخليفة من ابنة السلطان إلى أبيه الخليفة المقتدي بأمر الله، وبذلت الأموال للأمراء سرّاً واستحلفتهم لابنها محمود، وكان تاج الملك يتولّى ذلك لها. وكان عمر ابنها محمود أربع سنين وشهوراً، وأرسلت إلى الخليفة المقتدي بأمر الله بالخطبة لولدها أيضاً، فأجابها إلى ذلك وشرط أن يكون اسم السلطنة لولدها والخطبة له ويكون المدبّر لقيادة الجيوش ورعاية البلد هو الأمير أنز، ويصدر عن رأي تاج الملك، ويكون ترتيب العمال وجباية الأموال إلى تاج الملك أيضاً، وكان تاج الملك هو الذي يدبّر الأمر بين يدي تركان خاتون، فلما جاءت رسالة الخليفة إلى خاتون

= الوزارة لثلاثةٍ من الخلفاء العباسيين، كان فصيحاً خبيراً مدبّراً مهيباً، مدحه الشعراء وانتهى أمره بأن حبسه الخليفة المستظهر بالله في داره، واستصفى أمواله وأموال من يلوذ به، ثم قتله في سجنه سنة ٤٩٣هـ.

بذلك امتنعت من قبول الشرط، فقيل لها: إن ولدك صغير ولا يُجيز الشرع ولايته، وكان المخاطب لها في ذلك الغزالي[1] فأذعنت له وأجابت إليه، فخطب لولدها ولُقّب ناصر الدنيا والدين وكانت الخطبة يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر شوال سنة ٤٨٥هـ، وخُطب له بالحرمين الشريفين.

ولما مات السلطان ملكشاه أرسلت تركان خاتون إلى أصبهان بالقبض على بركيارق بن السلطان ملكشاه وهو أكبر أولاده إذ خافته أن ينازع ولدها في السلطنة فقبض عليه، فلما انتشر خبر موت السلطان ملكشاه وثب المماليك النظامية على سلاحٍ كان لنظام الملك بأصبهان فأخذوه وثاروا في البلد وأخرجوا بركيارق من السجن وخطبوا له بأصبهان وملكوه، وكانت والدة بركيارق زبيدة ابنة ياقوتي بن داود جغري بك وهي ابنة عمّ ملكشاه خائفة على ولدها من خاتون أم محمود

---

(١) الغزالي: محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، ولد سنة ٤٥٠هـ، في الطابران (قصبة طوس بخراسان) رحل إلى نيسابور، ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلده وتوفي بها سنة ٥٠٥هـ، ونسبته إلى غزالة إحدى قرى طوس أو إلى صناعة الغزل. له نحو مئتي مصنف، وأشهرها: إحياء علوم الدين.

فأتاها الفرج بالمماليك النظامية، وسارت تركان خاتون من بغداد إلى أصبهان فطالب العسكر تاج الملك بالأموال فوعدهم فلما وصلوا إلى قلعة برجين صعد إليها لينزل الأموال منها فلما استقرّ فيها عصى على خاتون ولم ينزل خوفاً من العسكر فساروا عنه لينهبوا خزائنه فلم يجدوا فيها شيئاً فإنه كان قد علم ما جرى فاستظهر وأخفاه، ولما وصلت تركان خاتون إلى أصبهان لحقها تاج الملك واعتذر بأن مستحفظ القلعة حبسه وأنه هرب منه إليها فقبلت عذره، وأما بركيارق بن ملكشاه فإنه لما قاربت خاتون وابنها محمود بن ملكشاه خرج منها هو ومن معه من النظامية وساروا نحو الريّ فلقيهم أرغش النظامي في عساكره ومعه جماعة من الأمراء وصاروا يداً واحدةً، وإنما حمل النظامية على الميل إلى بركيارق كراهتهم لتاج الملك لأنه كان عدوّ نظام الملك والمتهم بقتله، فلما اجتمعوا حصروا قلعة طبرك[1] وأخذوها عنوةً فسيّرت خاتون العسكر لقتال بركيارق فالتقى العسكران فانحاز جماعة من الأمراء الذين في عسكر خاتون إلى بركيارق ومنهم

---

(١) طبرك: قلعة على رأس تلٍّ قرب مدينة الريّ على يمين القاصد إلى خراسان.

الأمير «يلبرد» و«كمشتكين» الجاندار وغيرهما فقوي بهم وجرت الحرب بينهم في أواخر شهر ذي الحجة سنة ٤٨٥هـ واشتدّ القتال وانهزم عسكر خاتون وعادوا إلى أصبهان وسار بركيارق في أثرهم فحاصرهم بأصبهان. وأما تاج الملك فإنه عندما حلّت الهزيمة بعسكر خاتون فقد هرب بأصحابه نحو الشمال ثم عاد وحمل على عسكر بركيارق وهو يحاصر أصبهان، وكان يعرف كفايته وأراد أن يستوزره، فشرع تاج الملك بالصلة بكبار النظامية وفرّق فيهم مائتي ألف دينار سوى العروض فزال ما في قلوبهم، فلما بلغ ذلك عثمان نائب نظام الملك الخبر ساءه فوضع الغلمان يستغيثون بأنهم لا يقنعون إلا بقتل قاتل صاحبهم ففعلوا فانفسخ ما دبّره تاج الملك وهجم النظامية على تاج الملك فقتلوه وذلك في شهر المحرم سنة ٤٨٦هـ.

ولما حاصر بركيارق أصبهان كان فيها عز الملك بن نظام الملك فخرج منها، فلما اتصل ببركيارق احترمه وأكرمه وفوّض أمور دولته إليه وجعله وزيراً له.

كان تتش بن ألب أرسلان صاحب دمشق أخا ملكشاه فسار إليه من دمشق فلما وصل إلى هيت بلغه موته فاستولى على هيت وعاد إلى دمشق يتجهّز يطلب

السلطنة فجمع العساكر وأخرج الأموال وسار نحو حلب وبها قسيم الدولة آقسنقر فرأى قسيم الدولة اختلاف أولاد ملكشاه وصغر سنهم فعلم أنه لا يطيق دفع تتش فصالحه وصار معه، وأرسل إلى باغي سيان صاحب أنطاكية وإلى بوزان صاحب الرها وحرّان يشير عليهما بطاعة تاج الدولة تتش حتى يروا ما يكون من أولاد ملكشاه ففعلوا وصاروا معه وخطبوا له في بلادهم، وقصدوا الرحبة فحاصروها وملكوها في شهر المحرم سنة ٤٨٦هـ، وخطب تتش لنفسه بالسلطنة، ثم ساروا إلى نصيبين فحاصروها فسبّ أهلها تاج الدولة تتش فدخلها عنوةً وقهراً وقتل من أهلها كثيراً وقسا عليهم، ثم سلّمها إلى الأمير محمد بن شرف الدولة العقيلي، وسار يريد الموصل وأتاه الكافي بن فخر الدولة بن جهير وكان في جزيرة ابن عمر فأكرمه واستوزره.

كان إبراهيم بن قريش بن بدران قد استدعاه السلطان ملكشاه سنة ٤٨٢هـ ليحاسبه فلما حضر عنده اعتقله وأرسل فخر الدولة بن جهير إلى الموصل فملكها وبقي إبراهيم مع السلطان ملكشاه وسار معه إلى سمرقند وعاد إلى بغداد، فلما مات ملكشاه أطلقت تركان خاتون إبراهيم من الاعتقال فسار إلى الموصل. وكان

ملكشاه قد أقطع عمته صفية مدينة الموصل، وكانت زوجة شرف الدولة ولها منه ابنها علي،وقد تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه إبراهيم، فلما مات ملكشاه قصدت الموصل ومعها ابنها علي فقصدها محمد بن شرف الدولة وأراد أخذ الموصل فافترقت العرب فرقتين فرقة مع محمد بن مسلم بن قريش بن بدران وفرقة مع صفية زوجة أبيه وابنها علي الذي هو أخوه واقتتلوا بالموصل عند الكناسة فظفر علي وملك الموصل وانهزم محمد.
فلما وصل إبراهيم إلى جهينة وبقي بينه وبين الموصل خمسة وعشرون كيلاً سمع أن الأمير علي بن أخيه مسلم بن قريش قد ملك الموصل ومعه أمه صفية عمة ملكشاه فأقام مكانه وراسل صفية خاتون التي هي زوجته وترددت الرسل بينهما فسلّمت البلد إليه فأقام به، فلما ملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان نصيبين أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة ويعطيه طريقاً إلى بغداد ليسير إليها ويطلب الخطبة بالسلطنة فامتنع إبراهيم من ذلك فسار تتش إليه وتقدّم إبراهيم نحوه أيضاً فالتقوا بالمضيع من أعمال الموصل في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٦هـ وكان إبراهيم في ثلاثين ألفاً وكان تتش في عشرة آلافٍ وكان آقسنقر على ميمنته وبوزان على ميسرته فحمل العرب على بوزان فانهزم، وحمل آقسنقر على

العرب فهزمهم، وتمت الهزيمة على إبراهيم وأصحابه وأُخذ إبراهيم أسيراً ومعه بعض أمرائه فقتلوا صبراً، وملك تتش الموصل وسوادها واستناب بها علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العقيلي وأمه صفية عمة تتش بن ألب أرسلان، وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة.

سار تتش بعد أن ملك الموصل إلى ديار بكر في شهر ربيع الثاني سنة ٤٨٦هـ فملك ميافارقين وسائر ديار بكر وسار منها إلى أذربيجان وانتهى خبره إلى ابن أخيه ركن الدولة بركيارق بن ملكشاه وكان قد استولى على كثيرٍ من البلدان ومنها الريّ وهمدان وما بينهما فلما تحقّق الحال سار في عساكره ليمنع عمه عن البلاد فلما تقارب العسكران قال قسيم الدولة آقسنقر لبوزان إنما أطعنا هذا الرجل لننظر ما يكون من أولاد صاحبنا ملكشاه والآن فقد ظهر ابنه ونريد أن نكون معه فاتفقا على ذلك، وفارقا تتش، وصارا مع بركيارق، فلما رأى تاج الدولة ذلك علم أنه لا قوة له بهم فعاد إلى الشام واستقامت البلاد إلى بركيارق، ولما قوي أمره امتدّ نفوذه إلى بغداد.

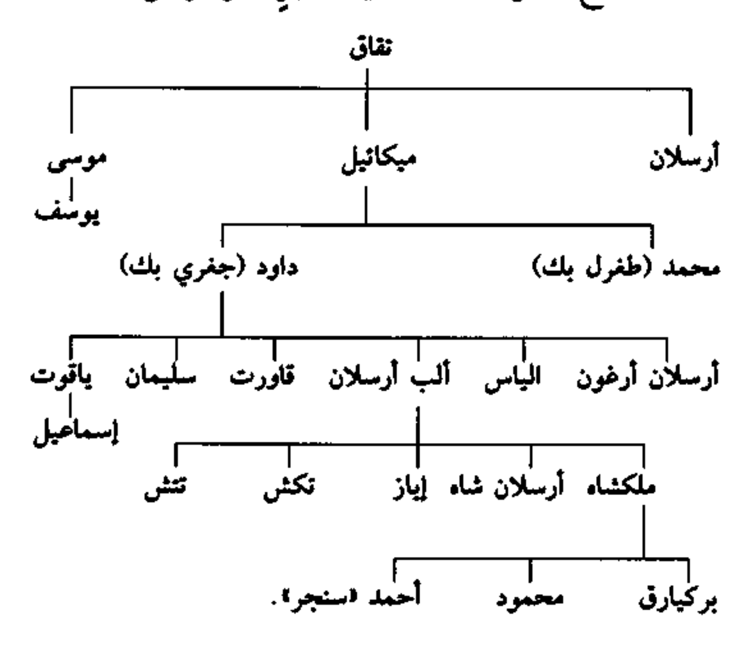
كان أمير أذربيجان إسماعيل بن ياقوتي بن جغري بك داود وهو خال بركيارق وابن عم أبيه ملكشاه،

فأرسلت إليه تركان خاتون زوجة ملكشاه تطمعه أن تتزوج به وتدعوه إلى محاربة بركيارق (ابن زوجها) فأجابها إلى ذلك وجمع حشداً من التركمان وغيرهم، وأرسلت إليه تركان خاتون كربوقا وغيره من الأمراء في عسكرٍ كثيرٍ مدداً له فجمع بركيارق عساكره وسار إلى حرب خاله إسماعيل والتقى الفريقان، وانحاز الأمير «يلبرد» إلى بركيارق وصار معه فانهزم إسماعيل وعسكره وتوجّه إلى أصبهان فأكرمته تركان خاتون وخطبت له، وضربت اسمه على الدينار بعد ابنها محمود بن ملكشاه، ولم يتمّ الزواج بين إسماعيل وتركان خاتون إذ خشي الأمراء نتيجة ذلك وخاصةً صاحب الجيش الأمير «أنز» وآثر الأمراء خروج إسماعيل عنهم إذ خافوه وخاف هو أيضاً منهم ففارقهم وراسل أخته زبيدة والدة بركيارق باللحاق بهم فأذنت له في ذلك فوصل إليهم وأقام عندهم أياماً يسيرةً فخلا به كمشتكين الجاندار وآقسنقر وبوزان وباسطوه بالقول فأطلعهم على سرّه وأنه يريد السلطنة وقتل ابن أخته بركيارق فوثبوا عليه فقتلوه وأعلموا أخته زبيدة خبره فسكتت عنه.

وخُطب يوم الجمعة الرابع عشر من شهر المحرم سنة ٤٨٧هـ ببغداد للسلطان بركيارق بن ملكشاه، وكان قد أرسل للخليفة المقتدي بأمر الله يطلب الخطبة فأُجيب إلى

ذلك وخُطب له ولقُب ركن الدين، وحمل الوزير عميد الدولة بن جهير الخلع إلى السلطان بركيارق.

وفي يوم السبت الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٤٨٧هـ توفي الخليفة المقتدي بأمر الله فجأةً، وأُحضر الوزير فأُعلم فشرعوا بالبيعة لولي العهد ابنه المستظهر بالله فصلّى عليه ودفنوه، وكان عمره ثماني وثلاثين سنة وثمانية أشهرٍ وسبعة أيامٍ، وكانت خلافته تسع عشرة سنةً وثمانية أشهرٍ غير يومين[١].



(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

الإمارات

انتهت أكثر الإمارات التي كانت تسير مع بني بويه في طريق الهدم من الداخل حيث انتهى السامانيون سنة ٣٨٩هـ، وانتهى الحمدانيون سنة ٣٩٤هـ، وزال البويهيون سنة ٤٤٧هـ، وانتهى القرامطة سنة ٤٦٧هـ، ولم يبق سوى العبيديين من تلك المجموعة، ولكن ظهر المرابطون في المغرب، وكان الغزنويون في المشرق، كما كانت هناك إمارات قبلية في إفريقية.

١" ـ العبيديون:

بدأ الضعف يدبّ في إمارة العبيديين التي أعلنوها خلافةً، وأخذوا يلفظون أنفاسهم منذ زال بنو بويه.

سار اتسز بن أوف الخوارزمي (الأقسيس) سنة ٤٦٣هـ وهو من أمراء السلطان ملكشاه، سار نحو فلسطين فدخل مدينة الرملة، وسار منها إلى بيت المقدس وحاصره وفيه عسكر العبيديين فدخله وملك ما يجاورهما من بلدان عدا مدينة عسقلان، ثم قصد دمشق وحاصرها وضاق الأمر بالناس ولكن صبروا ولم يمكّنوه من ملك البلد، فعاد عنها ولكنه جعل يقصد أعمالها كل سنةٍ عند حصاد الغلال فيأخذها فيقوى هو وعسكره ويضعف أهل دمشق وجندها فلما كان رمضان سنة ٤٦٧هـ سار إلى دمشق

فحاصرها وأميرها المعلّى بن حيدرة من قبل المستنصر العبيدي صاحب مصر فلم يتمكّن من دخولها فانصرف عنها في شهر شوال، ثم هرب أميرها المعلّى في شهر ذي الحجة من السنة نفسها، وكان سبب هربه أنه أساء السيرة مع الجند والرعية وظلمهم فكثر الدعاء عليه وثار به العسكر وأعانهم العامة فهرب منها إلى بانياس (الداخل) ثم منها إلى صور، ثم أُخذ إلى مصر فحُبس بها فمات محبوساً. ولما هرب المعلّى من دمشق اجتمعت المصامدة وولّوا عليهم القصار بن يحيى المصمودي المعروف برزين الدولة، وغلت الأسعار وتضايق الناس، ووقع الخلاف بين المصامدة وأحداث البلد وعرف الأقسيس ذلك فعاد إلى دمشق في شهر شعبان سنة ٤٦٨هـ فحاصرها وعُدمت الأقوات فسلّم أهلها مدينتهم إلى الأقسيس بأمانٍ وعوض انتصاره عليها بقلعة بانياس ومدينة يافا، ودخلها هو وعسكره في شهر ذي القعدة سنة ٤٦٨هـ، وخطب بها يوم الجمعة لخمسٍ بقين من ذي القعدة للخليفة المقتدي بأمر الله العباسي، وكان آخر ما خُطب بها للعبيديين المصريين. وتغلّب على أكثر الشام ومنع الأذان بـ«حيّ على خير العمل» ففرح أهلها فرحاً عظيماً[1].

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

والأقسيس هو أول من استعاد الشام من أيدي العبيديين وأزال الأذان بـ«حيّ على خير العمل» بعد أن كان يُؤذّن به على منارات دمشق وسائر الشام مائة وست سنين، وكان على أبواب الجوامع والمساجد مكتوب لعن الصحابة ﷺ، فأمر هذا الأمير المؤذنين والخطباء أن يترضوا على الصحابة أجمعين، ونشر العدل وأظهر السنة[1].

وسار الأقسيس من دمشق إلى مصر وحاصرها وضيّق على أهلها، ولم يبق غير أن يملكها، فاجتمع أهلها مع ابن الجوهري الواعظ في الجامع وبكوا وتضرّعوا ودعوا، ولم يقع قتال، ورجع الأقسيس دون حرب إلى دمشق، وأتى بيت المقدس فوقف أهله من القادم موقف المخالف فحاصرهم ودخل بيت المقدس عنوةً.

أقطع السلطان ملكشاه أخاه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان الشام وما يملكه في تلك النواحي وذلك سنة ٤٧٠هـ، فأتى تاج الدولة حلب وحاصرها فلحق أهلها مجاعة شديدة فبعث إليه الأقسيس (اتسز بن أوف)

(١) البداية والنهاية: ابن كثير.

الخوارزمي يستنجده ويعلمه أن عسكر مصر قد حصرته بدمشق. وكان أمير الجيوش العبيدية بدر قد سيّر عسكراً من مصر وقائدهم يعرف بنصر الدولة فحاصر دمشق فأرسل الأقسيس إلى تاج الدولة يستنصره فسار إليه، فلما سمع عسكر العبيديين بقرب تاج الدولة ولّوا منهزمين، وخرج الأقسيس يتلقّاه عند سور المدينة فاغتاظ منه تاج الدولة تتش حيث لم يبتعد في استقباله وعاتبه على ذلك فاعتذر إليه بأمورٍ لم يقبلها تاج الدولة فقبض عليه في الحال وقتله من ساعته، وملك البلد، وأحسن السيرة في دمشق وعدل في أهلها.

وحاصر تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان مدينة حلب مرةً بعد أخرى واشتدّ الحصار بأهلها، وكان شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل يمدّ أهل حلب بالأقوات والغلال. وعاد تاج الدولة تتش لحصار حلب سنة ٤٧٢هـ وأقام عليها أياماً ثم رحل عنها وملك بزاعة[١] والبيرة[٢] وأحرق ضواحي

---

(١) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب في متنصف الطريق بينهما، فيها عيون ومياه جارية وأسواق جيدة.

(٢) البيرة: في عدة مواضع، والمقصودة هنا: قلعة حصينة قرب سُميساط بين حلب والثغور الرومية.

أعزاز[1] وعاد إلى دمشق. ولما رحل تاج الدولة عن حلب استدعى أهلها شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي ليسلّموه بلدهم فلما اتجه نحوهم واقترب من مدينتهم غيّروا رأيهم وامتنعوا من ذلك، وكان مقدمهم يُعرف بـ«ابن الحتيتي العباسي» واتفق أن ولده خرج يتصيد بضيعةٍ له فأسره أحد التركمان وهو صاحب حصنٍ بنواحي حلب وأرسله إلى شرف الدولة فقرّر معه أن يسلّم البلد إليه إذا أطلقه فأجابه إلى ذلك فأطلقه فعاد إلى حلب واجتمع بأبيه وعرّفه ما استقر فأذعن إلى تسليم البلد، ونادى بشعار شرف الدولة وسلّم البلد إليه فدخل حلب سنة ٤٧٣هـ، وحاصر القلعة واستنزل «سابق» و«وثاب» ابني محمود بن صالح بن مرداس، فلما ملك البلد أرسل ولده وهو ابن عمة السلطان إلى السلطان يخبره بملك البلد وبعث معه شهادةً فيها خطوط المعدلين بحلب بضمانها وسأل أن يقرر عليه الضمان فأجابه السلطان إلى ما طلب، وأقطع ابن عمته مدينة بالس (مسكنة).

سار أمير الجيوش العبيدي في عساكر مصر إلى

---

(١) إعزاز: بلدة في جبل سمعان شمال حلب إلى الغرب قليلاً تبعد عنها ٤٦ كيلاً، على مقربةٍ من الحدود التركية اليوم.

الشام في شهر ربيع الأول سنة ٤٧٨هـ، واتجه إلى دمشق وألقى الحصار عليها، وفيها صاحبها تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان فضيّق عليه وقاتله فلم يظفر منه بشيءٍ فعاد إلى مصر خائباً.

وعادت الجيوش العبيدية فخرجت من مصر إلى الشام في جماعةٍ من القادة فحاصروا مدينة صور، وكان قد تغلّب عليها القاضي عين الدولة بن أبي عقيل وامتنع عليهم وذلك سنة ٤٨٢هـ، ثم توفي عين الدولة ووليها أولاده فحاصرهم العسكر العبيدي فلم يكن لهم من القوة ما يمتنعون بها فسلّموها إليهم، ثم سارت العبيدية إلى صيدا ففعلوا بها كذلك، ثم ساروا إلى مدينة عكا فحاصروها وضيّقوا على أهلها فدخلوها وساروا عنها إلى مصر عائدين، واستعمل أمير الجيوش على هذه البلدان الأمراء والعمال .

كان السلطان ملكشاه ببغداد فقدم عليه أخوه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان من دمشق سنة ٤٨٥هـ، كما قدم إليه قسيم الدولة آقسنقر من حلب، وبوزان من الرها. ثم أذن لهم السلطان بالعودة إلى بلدانهم أمر قسيم الدولة آقسنقر وبوزان أن يسيرا مع عساكرهما في خدمة أخيه تاج الدولة حتى يستولي على المراكز التي

يحتلّها العبيديون على ساحل الشام، ثم يسيروا معه إلى مصر لينهي أمر العبيديين هناك. فساروا جميعاً إلى الشام، ونزلوا على حمص وصاحبها ابن ملاعب فيها، فحاصروا البلد وضيّقوا على من به، وتمكّنوا من دخولها، وأخذ تاج الدولة ابن ملاعب وولديه وسار إلى قلعة عرقة شرق طرابلس على بُعد أربعةٍ وعشرين كيلاً منها فملكها عنوةً، وسار إلى قلعة أفامية فدخلها أيضاً، وكان بها خادم للمستنصر العبيدي فنزل بالأمان فأمنه، ثم سار إلى طرابلس فنازلها فرأى صاحبها جلال الملك ابن عمار جيشاً لا يُدفع إلا بحيلةٍ فأرسل إلى الأمراء الذين مع تاج الدولة وأطمعهم فلم ير فيهم مطمعاً، غير أنه وجد ليناً من بعضهم واضطر تاج الدولة إلى الرحيل غضبان أسفاً إذا لم يظفر بحاجته.

والمهم أن العبيديين قد زال سلطانهم عن الحجاز والشام، وانتهى أمرهم في المغرب، ولم يبق لهم سوى مصر، وتوفّي المستنصر العبيدي سنة ٤٨٧هـ وآل الحكم من بعده إلى ولده الأصغر أحمد أبي القاسم الذي لُقّب بالمستعلي، وأُبعد ابنه الأكبر نزار.

٢" ـ اليمن:

استقرّ حكم الصليحيين في اليمن ودانت لهم

مناطقها كلها بل واستولى الصليحيون على المدينة المنورة سنة ٤٧٧هـ. وكان سعيد الأحوال بن نجاح قد فرّ إلى جزر دهلك في البحر الأحمر بالقرب من سواحل ارتيرية، ورجع بعد مدة وقاتل المكرّم بن علي الصليحي غير أنه قد هُزم أمامه عام ٤٨١هـ، وفرّ جيّاش بن نجاح أخو سعيد الأحوال إلى الهند وعاد بعد سنتين، وقاتل المكرم بن علي الصليحي واستطاع أن ينتصر عليه وأن يعود إليه حكم أجزاء من اليمن.

أما المكرّم بن علي الصليحي فقد توفي سنة ٤٨٤هـ وهو في طريقه إلى صنعاء، وقد أوصى بالملك من بعده إلى زوجته أروى بنت أحمد الصليحي(١)، وفي الدعوة إلى ابن عمه سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي، وقد تزوج سبأ زوجة المكرم أروى بعد وفاة زوجها بخمسة أشهرٍ بعد الإذن من المستنصر العبيدي صاحب مصر بناءً على اقتراحها، وحكم سبأ بن أحمد الصليحيين حتى عام ٤٩٢هـ. والتقى مع بني نجاح في عدة معارك.

---

(١) أروى بنت أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي: توفي أبوها عامل الصليحيين على عدن وهي طفلة صغيرة فكفلها علي الصليحي وربتها زوجته أسماء بنت شهاب فلما كبرت تزوجها المكرم بن علي الصليحي.

وتبعت عدن الصليحيين بعد أن أخذوها من عمال بني يعفر، وولّى علي بن محمد بن علي الصليحي على عدن أحمد بن جعفر بن موسى الصليحي والد أروى، ثم توفي أحمد بن جعفر بسبب انهدام منزله عليه فتولّى أمر عدن للصليحيين علي بن محمد بن معن، ولما توفي خلفه ابنه معن بن علي فخلع طاعة المكرّم الصليحي عام ٤٦٧هـ، وأعلن نفسه سلطاناً مستقلاً على عدن.

وفي سنة ٤٧٠هـ غزا المكرم الصليحي عدن وطرد منها معن بن علي، وولّى عليها العباس والمسعود ابني المكرم اليامي الهمداني المعروفين بابني الزريع، واستمرّ لهما الأمر حتى توفي العباس سنة ٤٧٧هـ فخلفه ولده زريع بن العباس، وتوفي المسعود سنة ٤٨٠هـ فخلفه ولده أبو الغارات بن المسعود الذي توفي سنة ٤٨٥هـ فخلفه ابنه محمد حتى سنة ٤٨٨هـ، كما توفي الزريع بن العباس سنة ٤٨٠هـ فخلفه ابنه السعود بن الزريع، واستمرّ حكمه حتى سنة ٤٩٤هـ. ويتّبع الصليحيون مبدأ الإسماعيلية.

٣" ـ الغزنويون:

كان إبراهيم بن مسعود الأول بن محمود بن سبكتكين ملك غزنة من ٤٥١ ـ ٤٨١هـ، وكان قوي

الشكيمة انتصر على السلاجقة وأسر عثمان ابن عمّ السلطان ملكشاه وحمله أسيراً مع خزائنه إلى غزنة، ولكن لم تمض مدة حتى هُزم أمام السلاجقة سنة ٤٨١هـ.

غزا الملك إبراهيم بن مسعود بلاد الهند سنة ٤٧٢هـ، وحاصر قلعة أجود وهي على بُعد خمسمائة كيلو متر من لاهور، وهي قلعة حصينة في غاية الحصانة كبيرة تحوي عشرة آلاف مقاتلٍ، فقاتلوه وصبروا على الحصار، وزحف عليهم غير مرةٍ فرأوا من شدّة حربه ما ملأ قلوبهم خوفاً ورعباً فسلّموا القلعة إليه في الحادي والعشرين من صفر سنة ٤٧٢هـ.

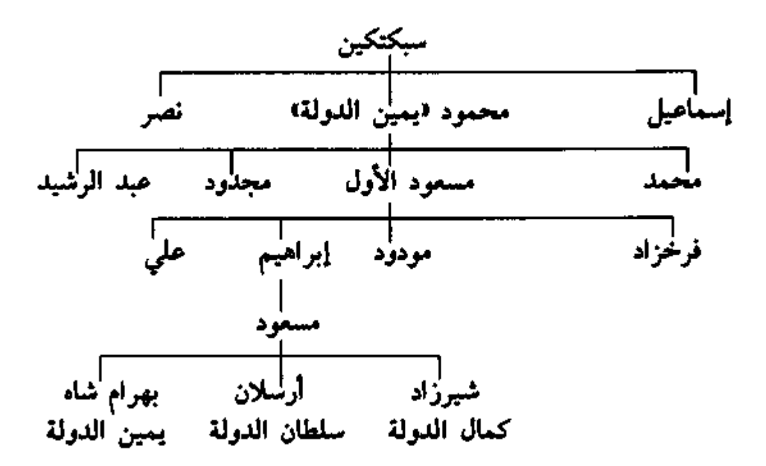
وسار إبراهيم بن مسعود إلى قلعة أُخرى يقال لها «روبال» على رأس جبلٍ شاهقٍ وتحتها غياض كثيفة وخلفها، ولا يوصل إليها إلا من ممرٍ ضيقٍ وهو مملوء بالفِيَلة، وبالقلعة ألوف الرجال فتابع عليهم الهجمات وألّح عليهم بالقتال حتى ملك القلعة واستنزل حُماتها منها.

وفتح عدداً من القلاع وحصل على كثيرٍ من الغنائم، ودعا إلى الإسلام وعاد إلى غزنة منصوراً.

وتوفي إبراهيم بن مسعود سنة ٤٨١هـ، وكان يُلقّب

الملك المؤيد، وخلفه ابنه مسعود ولقب جلال الدين، وكان أبوه قد زوّجه بابنة السلطان ملكشاه.

وبعد ذلك أخذت دولة الغزنويين تميل نحو الضعف.



٤" ـ شاه خوارزم:

كان أحد سقاة بلاط السلطان ملكشاه رجل يدعى «أنوشتكين» ووظيفة الساقي هي الإشراف على موائد القصر، وقد اشترك أنوشتكين بالقتال الذي دار بين السلاجقة والغزنويين وكان له باع في إحراز النصر السلجوقي بعد الهزيمة التي حلّت بهم فكافأه السلطان ملكشاه وأعطاه إقطاعية خُوارزم (مدينة خيوه) الواقعة جنوب بحيرة خُوارزم (بحر آرال) بمائتين وثلاثين كيلاً،

فبدأ ملك أنوشتكين سنة ٤٧٠هـ، واستمرّ مدة عشرين سنةً حيث توفي وخلفه ابنه قطب الدين سنة ٤٩٠هـ.

٥" ـ آل زيري:

توفي المعز بن باديس سنة ٤٥٤هـ فخلفه ابنه تميم، وكان في أيام أبيه والياً على المهدية، وتمّ الصلح بينه وبين الناصر بن علناس وهو من بني حماد عمّ جدّ تميم، ووالد زوجة تميم «بلارة»، وقد استعمل تميم ابنه مقلداً والياً على طرابلس الغرب سنة ٤٧٠هـ.

استطاع تميم بن المعزّ أن يستردّ مدن صفاقس وسوسة وتونس من أعراب بني هلال وكانوا قد غلبوا أباه عليها، وحاصر مدينة قابس ٤٧٤هـ حصاراً شديداً، وضيّق على أهلها، وعاث عساكره في بساتينها.

وحاصر مالك بن علوي مدينة المهدية بعد أن حشد جموع الأعراب لذلك غير أن الأمير تميم بن المعز ألزمه على الرحيل عنها، فسار مالك بجموعه إلى القيروان وألقى الحصار عليها وتمكّن من دخولها، فجرّد تميم إليه الجند فحاصروه بها فلما رأى مالك أنه لا طاقة له بتميمٍ خرج عنها وتركها، فاستولى عليها عسكر تميم وعادت إلى ملكه كما كانت.

نقض مالك بن علوي سنة ٤٨٢هـ ما بينه وبين

تميم بن المعز[1] من عهد، وسار في جمعٍ من الأعراب إلى مدينة سوسة وأهلها غافلون لم يعلموا به فداهمهم ودخل مدينتهم عنوةً، وجرى قتال بينه وبين من فيها من العسكر، وذهب قتلى كثيرون من الجانبين وإن كان من جانب الغزاة أكبر كما وقع عدد كبير منهم بالأسر، وعلم مالك أنه لا نصر له على تميمٍ لذا ارتحل عن مدينة سوسة ولحق بالصحراء.

وكان الصراع في جزيرة صقلية بين المسلمين والنصارى وكل جانبٍ يستنجد بأهل ملّته فالمسلمون يستنجدون بالأقرب مكاناً إليهم من المسلمين ومن يظنّون أنهم منهم، والنصارى يستنجدون بالروم والفرنجة. وقد أنجد تميم بن المعز أهل صقلية بأسطولٍ وقدّم عليه ولديه أيوب وعلياً فوصلوا إلى صقلية ونزلوا مدينة «جرجنت»، وأمر علي بن تميم بن

---

(١) تميم بن المعز بن باديس بن المنصور، أبو يحيى الصنهاجي: من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية الشمالية. ولد بالمنصورية سنة ٤٢٢هـ، وولّاه أبوه المهدية سنة ٤٤٥هـ، ثم ولي المُلك بعد وفاة أبيه سنة ٤٥٤هـ، أعاد للدولة قوتها بعد ضعفٍ، استولى الفرنجة على المهدية عن طريق البحر سنة ٤٨٠هـ فصالحهم على مالٍ أخذوه، وتوفي بالمهدية سنة ٥٠١هـ. له ديوان شعر كبير، وكان شجاعاً ذكياً.

المعزّ أحد المتنفّذين في الجزيرة حاكم مدينة جرجنت وهو علي بن النعمة والمعروف بـ«ابن الحواس» أمره أن ينزل من قصره. فلما أقام أيوب بن تميم فيها أحبّه أهلها فحسده ابن الحوّاس فكتب إليهم ليخرجوه فلم يفعلوا، فسار إليه في عسكره وقاتله فقاتل أهل جرجنت مع أيوب وقُتل ابن الحواس، ثم وقعت فتنة بالمدينة بين عبيد تميم وبين أهل المدينة فرجع أيوب وعلي بالأسطول إلى إفريقية سنة ٤٦١هـ ورجع معهم جماعة من أعيان صقلية، وهذا ما سهّل للفرنجة بالاستيلاء على الجزيرة ولم يقف في وجههم سوى جرجنت وقصريانة فحاصرهما الفرنجة وضيّقوا على المسلمين بهما فضاق الأمر على أهلهما حتى أكلوا الميتة ولم يبق عندهم ما يأكلون فأما أهل جرجنت فقد سلّموا بلدهم إلى الفرنجة وبقيت قصريانة بعدها ثلاث سنين فلما اشتدّ عليهم الأمر أذعنوا إلى التسليم فملك الفرنجة الجزيرة سنة ٤٨٤هـ، وتحكّم روجر بجميع صقلية، وأسكن الروم والفرنجة مع المسلمين وشدّد على المسلمين، ومات روجر حوالي سنة ٤٩٠هـ، وملك بعده ولده روجر (يحمل اسم والده نفسه)، وعامل المسلمين معاملةً غير معاملة أبيه إذ كانت معاملةً حسنةً نسبياً وملك الجزائر بين صقلية وإفريقية مثل: مالطة، وقوصرة، وجربة، وقرقنة.

وهاجم الإيطاليون بلاد تميم بن المعز بأسطولٍ كبيرٍ غير أنه وقف في وجههم وتمكّن من هزيمتهم والانتصار عليهم بعد أن قتل عدداً كبيراً منهم. وتوفي تميم بن المعز بالمهدية سنة ٥٠١هـ.

وفي إمارة آل حماد توفي الناصر بن علناس بن حماد سنة ٤٨١هـ وتولى مكانه ابنه المنصور.

٦" ـ المرابطون:

كان عبد الله بن ياسين يقاتل قبيلة برغواطة التي تُقيم على ساحل المحيط الأطلسي في سهول الشاوية جنوب الدار البيضاء اليوم، وقد نال الشهادة سنة ٤٥١هـ، واستمرّ أبو بكر بن عمر اللمتوني في قتال برغواطة حتى خضعوا له، ثم اتجه إلى القتال في الصحراء على حين ترك ابن عمه يوسف بن تاشفين لقتال مغراوة.

تقدّم أبو بكر بن عمر اللمتوني في السودان وأحرز انتصاراتٍ واسعةً ورجع إلى أغمات بالقرب من مدينة مراكش اليوم بعد انتهاء مهمته فوجد ابن عمه يوسف بن تاشفين قد نظّم أمره، وقوّى جيشه، ونازل خصمه، وانتصر عليه وارتاح أبو بكر من عمل ابن عمه وقيادته فتنازل له عن إمرة المرابطين أمام سادات القوم، وعاد هو متجهاً إلى الجنوب مجاهداً في سبيل الله.

تمكّن أبو بكر بن عمر اللمتوني من هزيمة امبراطورية غانة القديمة ودخل عاصمتها «كومبي صالح» عام ٤٦٩هـ بمعاونة قبائل التكرور، وفرض الإسلام على جميع البلاد التي دخلها، وقبل ملك غانة «تنكامنين» الدخول في الإسلام والخضوع لسلطان المرابطين، وبإسلام الملك دخل كثير من رعاياه في الإسلام. وتوفي أبو بكر بن عمر اللمتوني سنة ٤٨٠هـ، وضعف أمر المرابطين هناك فاستقلت قبائل السوننكي وأعلنت ارتباطها بالدولة العباسية مباشرةً وأخذت تدعو إلى الإسلام. وأصبحت مملكة غانة مسلمةً، وغدت اللغة العربية لغتها الرسمية.

أما يوسف بن تاشفين فقد أرسل كتاباً إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله يُعلمه ببيعته له. وقد تمكّن عسكرياً من دخول مدينة فاس سنة ٤٦١هـ، وقضى على دولة مغراوة، وابتنى مدينة مراكش وجعلها حاضرة ملكه.

الأندلس

كانت بلاد الأندلس مقسمةً بين ملوك الطوائف، كان أشهرهم المعتمد بن عبّاد حاكم مدينة إشبيلية، واستطاع أن يتغلّب على بني جهور في قرطبة وقد

استنجدوا به ضد حاكم طليطلة المأمون بن ذي النون[1] الذي استولى على مدينتهم قرطبة فجاء ابن عبّاد ودخل قرطبة وغدت تابعةً لإشبيلية.

ومن ممالك الطوائف التي كانت في الأندلس:

---

(١) المأمون بن ذي النون: يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر بن ذي النون الهواري الأندلسي، أبو زكريا، المأمون: من ملوك طوائف الأندلس، ولي طليطلة بعد وفاة أبيه سنة ٤٣٥هـ. نشأ خلاف بينه وبين ابن هود صاحب سرقسطة على مدينة وادي الحجارة، وهي على الحدود بين منطقتيهما، وفي أهلها من يرغب بسيادة هذا، وفيهم من يرغب بسيادة ذاك، فأرسل ابن هود جيشاً احتلّ مدينة وادي الحجارة فغضب المأمون بن ذي النون، فجرت بينهما حروب رجحت فيها كفة ابن هود صاحب سرقسطة، فلجأ ابن ذي النون إلى أخبث الوسائل، فاستنصر بالنصارى الإسبان وهم يتحيّنون مثل هذه الفرصة فأرسلوا جيشاً أغار على سرقسطة وبلدانها وأفسدوا فيها فساد الحاقد اللئيم، ولم يكن ابن هود أفضل رأياً من خصمه ابن ذي النون إذ لجأ إلى الاستغاثة بفريقٍ آخر من الإسبان، وبعث إليهم بأموالٍ وهدايا، فبعثوا بجيشٍ إلى طليطلة عاث بمناطقها فساداً، واستمرّت هذه الحال من سنة ٤٣٥هـ إلى أن مات ابن هود سنة ٤٣٨هـ. وطمع الإسبان ببلاد الطرفين، وقاتل المأمون بن ذي النون صاحب بطليوس، واستولى على بلنسية سنة ٤٥٨هـ، وحالف صاحب إشبيلية المعتضد بن عباد على بني جهور في قرطبة، ثم نُقض الحلف، وتوفي بطليطلة سنة ٤٦٠هـ.

١" ـ مملكة سرقسطة، الثغر الأعلى، ويحكمها بنو هود.

٢" ـ إمارة قرطبة، وسط الأندلس، ويحكمها بنو جهور.

٣" ـ مملكة طليطلة، الثغر الأوسط، ويحكمها بنو ذي النون.

٤" ـ مملكة بطليوس، الثغر الأدنى، ويحكمها بنو الأفطس.

٥" ـ مملكة إشبيلية، غربي الأندلس، ويحكمها بنو عبّاد.

٦" ـ مملكة بلنسية، شرقي الأندلس، وتداولتها عدة أسرٍ.

٧" ـ مملكة غرناطة جنوبي الأندلس، ويحكمها بنو زيري.

فمملكة سرقسطة، وقد حكمت من قبل أسرة تجيب لدى أول وقوع الفتنة المؤدّية إلى قيام ممالك الطوائف، ثم انتقل الأمر إلى أسرة بني هود، وأولهم أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامي[1]

---

(١) سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى مولى أبي=

الملقّب المستعين بالله ٤٣١ ـ ٤٣٨هـ.

قسّم أبو أيوب سليمان قبل وفاته مملكته بين أبنائه الخمسة، ووقع صراع بين بعض الإخوة، وكان أشدّهم طموحاً أبو جعفر أحمد الملقّب المقتدر بالله الذي استطاع بوسائله الغاشمة أن يُحقّق كثيراً مما أراد. وتوفّي المقتدر سنة ٤٧٤هـ بعد أن حكم خمساً وثلاثين سنةً، وقسّم المملكة بين ولديه: أبو عامر يوسف الملقّب المؤتمن وأخيه المنذر، وجرت بين الأخوين أحداث وحروب، واستعان كل منهما بملوك الإسبان النصارى لقاء ما يدفع لهم من أموالٍ أو يُقدّم من حصونٍ أو يُعطي من امتيازات.

وتوفي المؤتمن سنة ٤٧٨هـ بعد أن حكم أربع سنواتٍ، ثم خلفه ابنه أبو جعفر أحمد الملقّب المستعين بالله (المستعين الأصغر).

= حذيفة الجذامي: كان يقيم في «تطيلة» ويعدّ من كبار الجند، فلما اضطرب أمر الأمويين استولى على تطيلة سنة ٤١٠هـ وتلقّب المستعين بالله، وملك لاردة ثم سرقسطة سنة ٤٣١هـ، وانتقل إليها، وانتظم أمره، وتوسّع ملكه، وجعل لكلٍّ من أولاده الخمسة ولايةً خاصةً به، واستمرّ في ملكه حتى توفي سنة ٤٣٨هـ.

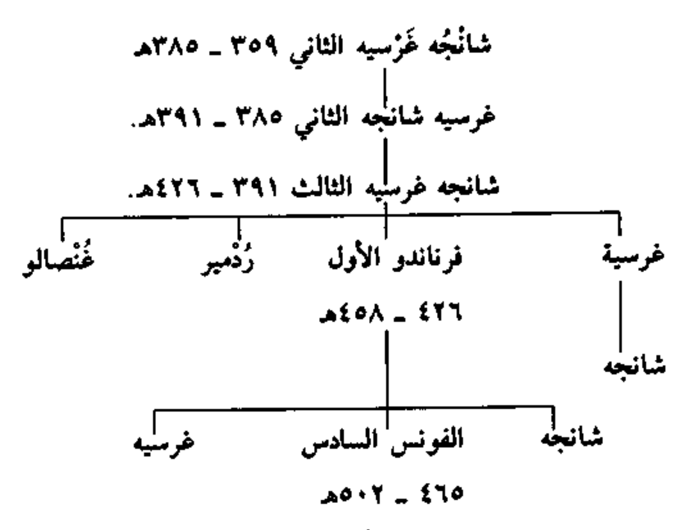
سليمان بن محمد بن هود ٤٣١ ـ ٤٣٨هـ.

أحمد المقتدر بالله	٤٣٨ ـ ٤٧٤هـ.	يوسف المظفر
يوسف المؤتمن	٤٧٤ ـ ٤٧٨هـ.	
أحمد المستعين بالله	٤٧٨ ـ ٥٠٣هـ.	
عبد الملك عماد الدولة	٥٠٣ ـ ٥٢٤هـ.	
أحمد سيف الدولة	٥٢٤ ـ ٥٤٠هـ، آخر حكام بني هود.	

وأما طليطلة فقد كان يحكمها المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون وقد توفي سنة ٤٦٧هـ، وخلفه في حكمها حفيده يحيى الملقّب بالقادر، وبدأ تفكير الفونس السادس بالاستيلاء على طليطلة شغله الشاغل وذلك منذ سنة ٤٧٠هـ.

وكان شمالي إسبانية لا يزال بيد النصارى، ولم يفتحه المسلمون بصورةٍ نهائيةٍ إذ هو منطقة جبلية وعرة، وشُغل المسلمون في بداية الأمر بفتح بلاد الفرنجة (فرنسا) للأهمية وللدعم الذي كان يأتي منها لنصارى الأندلس، ثم شُغل المسلمون بقضاياهم الداخلية والنزاعات.

كان يحكم شمالي إسبانية ثلاث إمارات هي: إمارة ليون، وإمارة نَبارة، وإمارة قشتالة.



كانت إمارة ليون أوسع وأقوى الإمارات النصرانية في القرن الرابع الهجري، ثم تغيّر الوضع فغدت إمارة نبارة هي الأكبر. وتوفي حاكم نبارة غرسيه شانجه الثاني بن شانجه غرسيه سنة ٣٩١هـ، وخلفه ابنه شانجه غرسيه الثالث الذي كان متزوجاً من إلبيرة أخت غرسيه حاكم قشتالة.

اغتيل أمير قشتالة غرسيه بن شانجه سنة ٤٢٠هـ في كنيسةٍ بمدينة ليون أثناء الاحتفال بمراسيم زواجه من شانجا أخت أمير قشتالة بِرَمُودُهُ، وعندها ورث شانجه غرسيه الثالث مُلك قشتالة. وكان شانجه غرسيه الثالث قبل وفاته قد قسّم مملكته بين أولاده الأربعة، وأبقى حكم قشتالة لأكبرهم وهو فرناندو، وأعطى غرسيه

نبارة، وكانت إمارة أرغون لرُدْمير، وأما غُنصالو فكان من نصيبه أواسط البُرتات، وأدّى هذا الوضع إلى قيام حربٍ أهليةٍ بين الإخوة، فاغتيل غُنصالو الذي ضُمّت منطقته إلى رُدْمير، وقُتل غرسيه الذي خلفه شانجه ملكاً على نبارة.

عمل فرناندو الأول أمير قشتالة وليون على مهاجمة المسلمين في الأندلس والإفساد في بلادهم، واستولى على بعض المناطق في شمال غربي الأندلس سنة ٤٤٩هـ. كما احتلّ مناطق أخرى من مملكة بطليوس الخاضعة لبني الأفطس، ووصل إلى الأجزاء الشمالية من مملكة طليطلة التي يحكمها بنو ذي النون وذلك سنة ٤٥٤هـ، وتوجّه نواحي مملكة إشبيلية وعاث الفساد في أجزاء منها وأخيراً توفي سنة ٤٥٨هـ.

قسم فرناندو مملكته قبل وفاته بين أبنائه الثلاثة، فوضع ولده الكبير «شانجه» بقشتالة، وولده الثاني «الفونس» السادس بليون واستوريش، وولده الثالث «غرسيه» بجيليقية والبرتغال ووقعت الحرب بين الإخوة الثلاثة، وجرت معارك بين «شانجه» و«الفونس»، وانتصر فيها شانجه وقبض على الفونس فأقام في دير ساهاجون حيث هرب منه إلى طليطلة لاجئاً عند ملكها

المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون فأكرمه المأمون، وأسكنه بدارٍ إلى جانب قصره، وأعطاه داراً أخرى خارج المدينة تكون منتزهاً له، وكان هذا الإكرام مع من ليس أهلاً للإكرام.

قضى الفونس في طليطلة مدة تسعة أشهر لاجئاً إليها، وقد درس خلال هذه المدة أحوال المدينة تنفيذاً للاستيلاء عليها.

بعد أن انتصر شانجه على الفونس وضمّ إليه ليون انتصر كذلك على أخيه الآخر غرسيه وضمّ إليه أيضاً جيليقية والبرتغال فلجأ غرسيه إلى إشبيلية عند بني عبّاد. ولم يكتف شانجه بما عمله بأخويه الفونس وغرسيه بل ذهب للاستيلاء على «سمورة» التي كانت تحت إدارة أخته «أوراكة» وفي طريق ذهابه اغتاله أحد الفرسان، وربما كان بتدبيرٍ من أخته.

يُستدعى الفونس السادس اللاجئ إلى طليطلة ليتولّى الحكم مكان أخيه شانجه فرحل عن طليطلة مسروراً لما ناله من الإكرام، وقطع الفونس السادس للمأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون ما شاء من العهد، وأصبح الفونس السادس ملكاً لقشتالة وليون وجيليقية وبذا أصبحت إسبانية النصرانية شبه موحدةٍ على

حين أن الأندلس الإسلامية مجزأة والصراع بين أجزائها قائم.

توفي المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون ملك طليطلة سنة ٤٦٧هـ وخلفه حفيده يحيى بن إسماعيل الملقّب بالقادر، وأصبح الشغل الشاغل للفونس السادس هو الاستيلاء على طليطلة.

(١) إسماعيل بن عبد الرحمٰن.
|
(٢) يحيى (المأمون).
|
إسماعيل
|
(٣) يحيى (القادر) ٤٦٧ ـ ٤٧٨هـ.

وأخذ يعمل لهذا الأمر بالإغارة على أراضي مملكة طليطلة ويعيث فيها سفكاً وتخريباً ويُتلف المزارع، واستمرّ ذلك سنواتٍ ليُنهك قواها.

كان الفونس السادس قد وعد حاكم طليطلة يحيى (القادر) على أن يُعاونه بالاستيلاء على بلنسية، وذلك عندما خرج من عنده بعد أن كان لاجئاً بدياره، وقد أمدّه فعلاً بفرقةٍ قويةٍ من الجنود القشتاليين رغم أنه كان يُغير على مملكته إذ كان يتوقّع أن تكون تحت سلطانه بعد الاستيلاء على طليطلة.

سار حاكم طليطلة يحيى بن ذي النون مع الفرقة القشتالية نحو بلنسية ووصلوا إليها، وجرت مراسلات بين حاكم طليطلة وبين أهل بلنسية وانتهت بالموافقة على مطالب حاكم طليطلة واستبعاد مطالب حاكم سرقسطة ابن هود الذي كان يريد ضمّ بلنسية إليه، وخُلع أبو عمرو بن عثمان الذي آل إليه حكم بلنسية بعد وفاة أبيه أبي بكر عثمان، ودخل يحيى (القادر) ابن ذي النون وجنود قشتالة النصارى مدينة بلنسية. ولكن أصبح رذريق قائد الجنود القشتاليين سيّد الموقف يفرض الضرائب التي يريدها ويضع يده على الأملاك التي يرغبها[1]، ويسفك دم من يخشاه بل أصبح حاكم طليطلة يحيى بن ذي النون خاضعاً له ويسير في حماه.

أصبحت قوة طليطلة وحاكمها في بلنسية بل ويخضع هناك لقائد القشتاليين رذريق فتقدّم حاكم قشتالة الفونس السادس نحو طليطلة واحتلّها سنة ٤٧٨هـ بعد غاراته عليها وحصاره لها مدة سبع سنواتٍ قبل أن يمدّه للاستيلاء على بلنسية، إذن ما كانت نجدته سوى وسيلةٍ لاحتلال مملكته بدلاً من الغارة عليها، كما أن

(١) التاريخ الأندلسي: عبد الرحمن الحجي.

الفونس السادس كان قد عرف من أين تُؤتى طليطلة، وبذا زادت قوة الفونس السادس واتسع ملكه، وانتفخت أوداجه وظهرت أطماعه.

وكان المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة يُؤدّي ضريبةً إلى الفونس السادس فلما ملك الفونس طليطلة أرسل له ابن عباد الضريبة على عادته فردّها إليه ولم يقبلها، وأرسل إليه يتهدّده ويتوعّده بأن يسير إلى مدينة قرطبة ويحتلّها إلا أن يسلّم إليه الحصون التي في الجبل جميعها، ويبقى السهل للمسلمين. وكان وفد الفونس السادس إلى المعتمد بن عبّاد خمسمائة فارسٍ، فأنزلهم محمد بن عبّاد ووزّعهم على قادة عسكره، ثم أمر كل من عنده رجل منهم أن يقتله ففعلوا ذلك، وأحضر رئيس الوفد وصفعه حتى خرجت عيناه، وأبقى من الوفد ثلاثة نفرٍ فعادوا إلى الفونس السادس فأخبروه الخبر، وكان متوجّهاً إلى قرطبة ليُحاصرها فلما بلغه الخبر عاد إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار، ورحل المعتمد بن عباد إلى إشبيلية.

شعر أهل الأندلس ما يحلّ بهم من نكباتٍ نتيجة خلافات ملوك الطوائف وما ينزل بهم من مصائب بسبب

أطماع وأحقاد ملوك النصارى وما ينالهم من مآسي وكوارث لاستعانة بعض ملوك الطوائف المسلمين بأعدائهم ملوك الإسبان النصارى. وكانت أخبار أمير المرابطين في العدوة المغربية يوسف بن تاشفين تصل إلى الأندلس وفيها أنباء جهاده فأخذت الأسماع تتلقّف أخباره، وبدأ الناس يتمنّون انتقاله إليهم عسى أن ينضوي الأمراء تحت لوائه، وتلتقي الأمة عليه بعد فرقتها، وعسى أن ترتفع راية الجهاد بعد سكونٍ، فوفدت عليه وفود الثغور مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بالفقهاء عندهم.

كانت فكرة تلبية الدعوة قائمةً عند يوسف بن تاشفين والاستجابة حاضرةً والرغبة في الجهاد هي مطلبه، غير أنه يرى أن هذه هي دعوة المجتمع وقد لا يرضى عنها المسؤولون فيستنجدون بملوك الإسبان النصارى فيزداد الأمر صعوبةً وقد يقبل فريق ويرفض آخر ويستنجد أحدهما بالأعداء فتتعقّد الأمور أكثر، فلا بدّ من رأي الملوك والتنسيق للعمل.

كان هذا قبل سقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ بيد الفونس السادس ملك ليون وقشتالة وجيليقية فعندما سقطت وهي من الحصون المنيعة شعر ملوك الطوائف

بالذعر، ووصل التهديد إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبلية وقرطبة، والفكرة عنده قائمة من قبل ولكن زادت وضوحاً وتأكّدت واجباً. وعقد اجتماع في قرطبة وحضره الزعماء والفقهاء وكثير من الناس ومنهم المعتمد بن عباد، واتخذ في ذلك الاجتماع قرار الموافقة على استدعاء المرابطين إلى الأندلس للنصرة، وأُشير خلاله إلى التخوّف من نتائج ذلك، فأجاب المعتمد بكلمته السائرة مثلاً: (رعي الجمال خير من رعي الخنازير) أي أن أكون مأكولاً لابن تاشفين أسيراً عنده أرعى جماله في الصحراء، خير من أن أكون ممزّقاً للفونس السادس أرعى خنازيره في قشتالة.

دعا المعتمد بن عباد غيره من ملوك الطوائف إلى هذا الأمر، فاجتمعوا لاتخاذ ترتيبات عبور الوفد إلى العدوة المغربية ودعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. ولما عزم المعتمد خاطب اثنين من جواره هما: المتوكل عمر بن محمد صاحب بطليوس، وعبد الله بن حبّوس بن ماكسن الصنهاجي صاحب غرناطة يأمرهما أن يبعث إليه كل واحدٍ منهما قاضيه، ففعلا، ثم استحضر قاضي الجماعة بقرطبه أبا بكر عبيد الله بن أدهم، فلما اجتمع القضاة عنده بإشبيلية

أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون، وعرّفهم أنهم رسله إلى يوسف بن تاشفين، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى ابن زيدون[1] ما لا بدّ منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية. وانطلق رجال السفارة إلى قصدهم وما عبروا البحر إلا ورسل ابن تاشفين بالانتظار.

كان يوسف بن تاشفين قد آذن صاحب سبتة بقصده الغزو، وتشوّقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس، وسأله أن يخلي الجيوش تجتاز المجاز، فتعذّر عليه، فشكاه يوسف إلى الفقهاء، فأفتوا جميعاً بما لا يسرّ صاحب سبتة وهو سقّوت بن محمد، وقد أفتوا بقتاله للصدّ عن سبيل الله، فقُتل هو وابنه وفتح الله على ابن تاشفين سبتة، وحصل على مراده. وكانت محادثة سفارة المعتمد بن عباد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين في غرة جمادى الأولى سنة ٤٧٨هـ أي بعد ثلاثة شهورٍ من سقوط طليطلة الذي وقع في شهر المحرم من السنة نفسها.

لما انطلق وفد السفارة من إشبيلية إلى المغرب

---

(١) أبو بكر بن زيدون: هو محمد بن أحمد أبي الوليد بن زيدون الشاعر المعروف المتوفى سنة ٤٦٣هـ.

نزلوا بالجزيرة الخضراء وعليها يزيد بن المعتمد، الملقّب بالراضي، ثم أجازوا البحر منها، واجتمعوا بابن تاشفين مرةً بعد مرةٍ. وتفاوضوا في المكان الذي تنزل فيه العساكر فأشار ابن زيدون بجبل طارق.

معركة الزلاّقة:

بدأت الجيوش المرابطية تعبر مضيق جبل طارق من سبتة بالمغرب إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس بإمرة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي استنفر قواته للجهاد فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارسٍ وعدد كثير من الرجالة، وعبرت هذه الجيوش تباعاً: أولها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة، وآخرها موكب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩هـ. فهبّت ريح عاصف أثارت أمواجاً عالية، فرفع الأمير يوسف يديه يدعو الله عزّ وجل: اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا خيرة للمسلمين فسهّل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعّبه حتى لا أجوزه. فسهّل الله المركب، وقرّب المطلب.

تمّت الإجازة، ثم تحرّكت العساكر إلى إشبيلية ورَدَفَهم ابن تاشفين، ونزل بظاهرها، وبلغه على أثر ذلك موت ابنه أبي بكر، فحيّره حتى همّ بالانصراف عن

وجهه، ثم آثر الجهاد. وأنفذ مَزْدَلي إلى مراكش.

ولما اقترب يوسف بن تاشفين والجيش المرابطي من إشبيلية خرج المعتمد بن عباد وجماعته من الفرسان للقائه، وتعانقا ودعوا الله تعالى أن يجعل جهادهما خالصاً لوجهه.

سارع ملوك الطوائف للاشتراك بقواتهم. أعدوا ما أمكن للمشاركة في البذل والتضحية، فرحين بشهود هذا اليوم الجليل. يقول عبد الله بن بُلُقِّين[1] ـ أمير غرناطة ـ عن تلك الأحداث، في كتابه التبيان: «وأمرْنا بضرب الطبل وما يُستعدّ به للفرح ـ عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة. وظننا أن إقباله للأندلس مِنّة من الله عظُمت لدينا، لا سيما خاصةً من أجل القرابة، وللذي شاع من خيرهم، وإقبالهم على طلب الآخرة، وحكمهم بالحق، فنعمل أنفسنا وأموالنا في الجهاد معه كل عامٍ، فمن

(١) عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس بن حبّوس الصنهاجي: آخر ملوك غرناطة من الدولة الصنهاجية في أيام ملوك الطوائف بالأندلس، وليها بعد وفاة جده باديس بن حبوس سنة ٤٦٥هـ، واستمر فيها إلى أن هاجمه يوسف بن تاشفين وتغلّب عليه سنة ٤٨٣هـ وأخذه معه في عودته إلى مراكش، وضمّ إليه أخاً له اسمه تميم، وأنزلهما بالسوس الأقصى، وأقطع لهما إلى أن هلكا. وهو صاحب كتاب التبيان.

عاش منا كان عزيزاً، تحت سترٍ وحمايةٍ، ومن مات كان شهيداً. والعجب في تلك السفرة من حسن النيّات وإخلاص الضمائر، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك».

«ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بَطَلْيوس بجريشة، ورأينا من إكرامه لنا وحفاوته بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا، فضلاً عن أموالنا. ولقينا المتوكل بن الأفطس[1] محتفلاً بعسكره:

---

(١) المتوكل بن الأفطس: عمر (المتوكل) بن محمد (المظفّر) بن عبد الله بن محمد بن مسلمة، أبو حفص التجيبي: آخر ملوك بني الأفطس أصحاب «بطليوس» في الأندلس، مات أبوه سنة ٤٦٠هـ، وهو عامل له على «يابرة» فاستقلّ بها وبما حولها، وحلّ له أخ اسمه يحيى (المنصور) محل أبيه. ومات المنصور سنة ٤٧٣هـ عقيماً، فانفرد المتوكل بالملك، وانتقل إلى عاصمة آبائه «بطليوس»، وكان أديباً شاعراً. وكان يُعرف بـ«ساجة» وهي شجرة هندية ولعله شُبّه بها لسمرته. كتب المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين، بعد معركة الزلّاقة، يخبره أنه شعر أن المتوكل اتصل بالطاغية الفونس السادس ملك قشتالة، ويُحرّضه قبل وصول الطاغية إلى الثغر، فزحف ابن تاشفين إلى بطليوس، واستولى عليها، وقبض على المتوكل وولديه (الأفضل والعباس) ثم قتلهم يوم الأضحى سنة ٤٨٩هـ.

كل يرغب في الجهاد، قد أعمل جهده، ووطّن على الموت نفسه».

استقرّ يوسف بن تاشفين أياماً في إشبيلية، ثم اتجه إلى بطليوس، وكانت قوات عددٍ من ملوك الطوائف تلحق بهم، وتلقّاهم المتوكل عمر بن الأفطس أمير بطليوس. وبعد أيام انتظمت القوات الأندلسية وحدها ـ في المقدمة ـ بقيادة المعتمد بن عباد، في حين جُعلت الجيوش المرابطية في المؤخّرة.

سار الجيش الإسلامي إلى موضعٍ سهلٍ من أعمال بطليوس وأحوازها يقع على بُعد اثني عشر ميلاً في شمالها الشرقي، في العدوة الشمالية لوادي يانه، يُسمّى بسهل الزلّاقة، وبقيت العساكر بظاهر بطليوس في المضارب أياماً إلى أن قصدهم الفونس السادس وتلاقوا بالزلّاقة على مقربةٍ من بطليوس يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب سنة ٤٧٩هـ.

حين سمع الفونس السادس أنباء الجيش الإسلامي ترك حصار مدينة سرقسطة، وبدأ يستعدّ، فكاتب ملك أرغون «شانجه بن رُذْمير» وأمراء ما وراء جبال البيرنة يطلب النجدة فتجمّعت جيوش من جيليقية واستوريش ونباره مع جيوش قشتالة، ولحق بهم سيل من الفرسان

المتطوعين من جنوبي فرنسا وإيطالية.

سار الفونس السادس بجيشه مزهواً بتفوّقه بالعدد والعدة والإمكانات الفنية لقواته، وجعل على مقدمة جيشه قائده البارهانش، وقد يزيد عدد الجيش النصراني على الخميسن ألفاً، وربما لا يصل عدد الجيش الإسلامي إلى نصف عدد خصمه.

جرت مراسلات بين الطرفين. أرسل يوسف بن تاشفين ـ عملاً بالمنهج الإسلامي ـ إلى ألفونس السادس يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو السيف، ومما جاء في رسالة ابن تاشفين: وبلغنا يا ألفونس أنك دعوت إلى الاجتماع بك، وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا، فقد أجزناه إليك، وجمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك [وما دعاء الكافرين إلا في ضلال][(١)]. فغضب الفونس السادس لهذه الرسالة وردّ بكتابٍ عنيفٍ مملوءٍ بالوعيد. اكتفى ابن تاشفين بالردّ أن يكتب على ظهر الرسالة: الذي يكون ستراه.

جرت الاستعدادات في المعسكرين بكل أشكالها

---

(١) سورة غافر: الآية ٥٠.

وبالحثّ على الحرب والصبر فيها، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم، ونشروا أناجيلهم وخرجوا يتبايعون على الموت، ووعظ يوسف وابن عبّاد أصحابهما، وقام الفقهاء والعباد يعظون الناس ويحضّونهم على الصبر، ويحذّرونهم الفرار، وجاءهم الطلائع بخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم، وهو يوم الأربعاء، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافّهم، ورجع الفونس السادس إلى أعمال الخديعة ورجع الناس إلى محلاتهم، وباتوا ليلتهم.

أراد الفونس السادس خديعة المسلمين، فكتب إليهم يوم الخميس الحادي عشر من شهر رجب سنة ٤٧٩هـ يخبرهم أن تكون المعركة يوم الاثنين منتصف رجب، لكن ابن تاشفين وابن عبّاد أدركا هذه الخديعة، وأكّدت ذلك أخبار استعداد معسكر النصارى فاتخذ المسلمون الحذر، وبات الناس على أهبةٍ واحتراس بالمحلات جميعها خائفين من كيد العدو.

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من شهر رجب زحف الفونس السادس بجيشه على المسلمين، ودارت معركة حامية الوطيس عنيفة الحركة شديدة الضراب، ظهرت فيها براعة الجيش الإسلامي والقائدين

ابن تاشفين وابن عباد. وبدا فيها أمير المسلمين ابن تاشفين ليس فقط فارساً صوّالاً جوّالاً بل ذا مقدرةٍ عسكريةٍ يبتكر الخطط المناسبة أثناء المعركة. فما أن اشتدّت المعركة واختلّ المعسكر الإسلامي حتى دفع ابن تاشفين إلى قلب معسكر العدوّ بمجموعةٍ، ثم حمل نفسه بالقوة الاحتياطية إلى المعسكر القشتالي فهاجمه بشدّةٍ، ثم اتجه إلى مؤخرته فأثخن فيه وأشعل النار، وهو على فرسه يُرغّب بالاستشهاد، وقرع الطبول يدوي في الآفاق. قاتل المرابطون في صفوفٍ متراصّةٍ ثابتةٍ، مثل بقية أجنحة الجيش. وما أن حان المغرب حتى اضطر الفونس السادس إلى الانسحاب، وقد أُصيب هو نفسه. وكان الانسحاب حفظاً لحياة من بقي، وطورد الفارون النصارى في كل مكانٍ حتى دخل الظلام فأمر ابن تاشفين بالكفّ. استمرّت المعركة يوماً واحداً لا غير، وقد حطّم الله شوكة العدو الكافر.

تسلّل في الظلام مع الفونس السادس حوالي خمسمائة فارسٍ نحو طليطلة وهم مثخنون بالجراح، وقد مات أكثرهم على الطريق ولم يدخل طليطلة معه إلا حوالي مائة فارسٍ. وكانت خسائر الجيش القشتالي عاليةً وأقلّ من ذلك بكثيرٍ كانت خسائر الجيش

الإسلامي. وقد استشهد عدد من العلماء منهم: أحمد بن رميلة القرطبي، أبو مروان عبد الملك المصمودي قاضي مراكش، والفقيه أبو رافع الفضل ولد الحافظ العالم الأندلسي الفقيه الأديب محمد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ.

سرت أنباء معركة الزلّاقة إلى القواعد الأندلسية، وكتب بها ابن تاشفين إلى المغرب فاستبشر به الناس خيراً وسُرُّوا أيما سرور. ولأسباب عجّل أمير المسلمين بالعودة إلى المغرب مما فوّت الإفادة من هذا النصر المؤزّر في تتبع الجيش القشتالي ومهاجمته في عقر داره أو على الأقل استعادة طليطلة[١].

وفي العام التالي لمعركة الزلّاقة أي عام ٤٨٠هـ عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، وحضر معه المعتمد بن عباد في عسكره، وعبد الله بن بُلقّين الصنهاجي صاحب غرناطة في عسكره، وساروا حتى نزلوا على (ليط) وهو حصن منيع بيد النصارى الإسبان فحاصروه حصاراً شديداً فلم يستطيعوا فتحه فرحلوا عنه بعد مدةٍ، ولم يخرج إليهم أحد من الأعداء

(١) التاريخ الأندلسي: عبد الرحمن الحجي.

لما أصابهم في العام الماضي، وعاد المعتمد بن عباد إلى إشبيلية، وعاد أمير المسلمين ابن تاشفين على غرناطة وهي في طريقه، وأخذ معه صاحبها عبد الله بن بُلقّين وأخاه تميماً لما بلغه عنه من المعتمد بن عباد نفسه، كما أخذ خزائنه، وأناب على غرناطة بعض أصحابه وانتقل إلى العدوة المغربية، ومعه صاحب غرناطة سابقاً وأخوه تميم. وقال له علماء الأندلس: إن طاعته ليست بواجبةٍ حتى يخطب للخليفة، ويأتيه تقليد منه بالبلاد، فأرسل ابن تاشفين إلى الخليفة المقتدي بأمر الله ببغداد فأتاه الخلع والأعلام والتقليد ولُقّب بأمير المسلمين وناصر الدين.

ورأى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ما يجري على أرض الأندلس من لهوٍ وعدم استعدادٍ للعدو بل وربما محاولة تفاهم بعضهم مع الطاغية لذا لم ير بُدّاً من ملك الأندلس لإنهاء ما يجري على أرضه، فسار من مراكش إلى سبتة وأقام بها، وسيّر العساكر مع سيري بن أبي بكر وغيره إلى الأندلس فعبروا المجاز فأتوا مدينة مرسية فملكوها وأعمالها، وأخرجوا صاحبها أبا عبد الرحمٰن بن طاهر منها، وساروا إلى مدينة شاطبة ومدينة دانية فملكوهما، وكان النصارى الإسبان

قد ملكوا بلنسية بعد أن حاصروها سبع سنين فلما وصلت إليهم أخبار معركة الزلّاقة فارقوها فملكها المسلمون أيضاً وعمروها وسكنوها فصارت الآن للمرابطين، كما كانوا قد ملكوا غرناطة فقصدوا مدينة إشبيلية وبها صاحبها المعتمد بن عبّاد فحاصروه بها وضيّقوا عليه فقاتل أهلها قتالاً شديداً، وظهر من شجاعة المعتمد وشدّة بأسه وحسن دفاعه الكثير. وكان النصارى الإسبان قد سمعوا بقصد عساكر المرابطين بلاد الأندلس فخافوا أن يملكوها وتتوحّد الجهود وترتفع راية الجهاد ويقصدوا بعدها بلادهم لذا فقد جمعوا ما أمكنهم جمعه وساروا ليساعدوا المعتمد بن عبّاد في إشبيلية فيعملوا على إيقاع الخلاف بين المسلمين ويضمنوا لأنفسهم موقف الحكم والقوة ويأمنوا بلادهم من غزو المسلمين لها، وفي الوقت نفسه ينتقمون من المرابطين الذين أذلّوهم فسمع سيري بن أبي بكر مقدّم المرابطين بمسيرهم فغادر إشبيلية وتوجّه إلى لقاء الفرنج فلقيهم وقاتلهم وهزمهم وعاد إلى إشبيلية فحاصرها ولم يزل الحصار مفروضاً والقتال مستمراً حتى العشرين من شهر رجب سنة ٤٨٤هـ، واشتدّ الأمر على أهل إشبيلية ودخلها المرابطون من الوادي الكبير، وأُخذ المعتمد وأولاده

ذكوراً وإناثاً كأسرى، وسُيّروا إلى مدينة أغمات بالقرب من مراكش حيث سُجنوا هناك.

ولما فرغ المرابطون من إشبيلية ساروا إلى المرية وكان صاحبها محمد بن معن بن صمادح[1] فقال لولده ما دام المعتمد بإشبيلية فلا تبالي بالمرابطين، فلما سمع بملكهم لها وما جرى للمعتمد مات في تلك الأيام غمّاً وكمداً، فلما مات سار ولده الحاجب وأهله في مراكب ومعهم كل مالهم وقصدوا بلاد بني حمّاد فأحسنوا إليهم. ولم يترك سيري بن أبي بكر من ملوك الأندلس سوى بني هود في شرقي الأندلس فإنه لم يقصد بلادهم، وكان صاحبها حينئذٍ المستعين بالله بن هود[2]

---

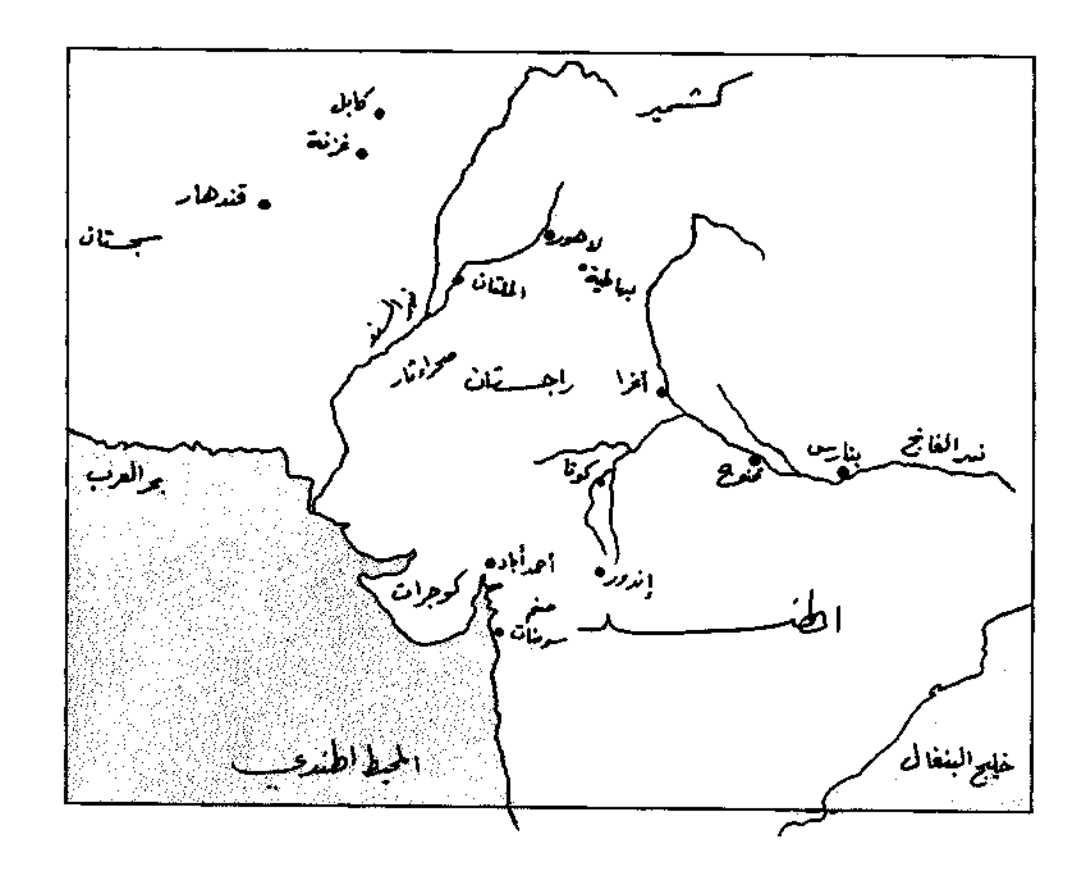
(١) محمد بن معن بن محمد بن صمادح، أبو يحيى التجيبي الأندلسي: صاحب المرية وبجاية والصمادحية من بلاد الأندلس، ولد سنة ٤٢٩هـ، وولي بعد وفاة أبيه سنة ٤٤٣هـ بعهدٍ منه، وسمّى نفسه معز الدولة، ثم لما تلقّبت ملوك الأندلس بالألقاب السلطانية لقّب نفسه «المعتصم بالله الواثق بفضل الله»، كان كريماً حليماً، ممدوح السيرة، عالماً بالأدب والأخبار، شاعراً، مقرّباً للأدباء، وكانت مدة ملكه ٤١ سنةً، وهاجمه جيش المرابطين وهو يعالج سكرات الموت سنة ٤٨٤هـ.

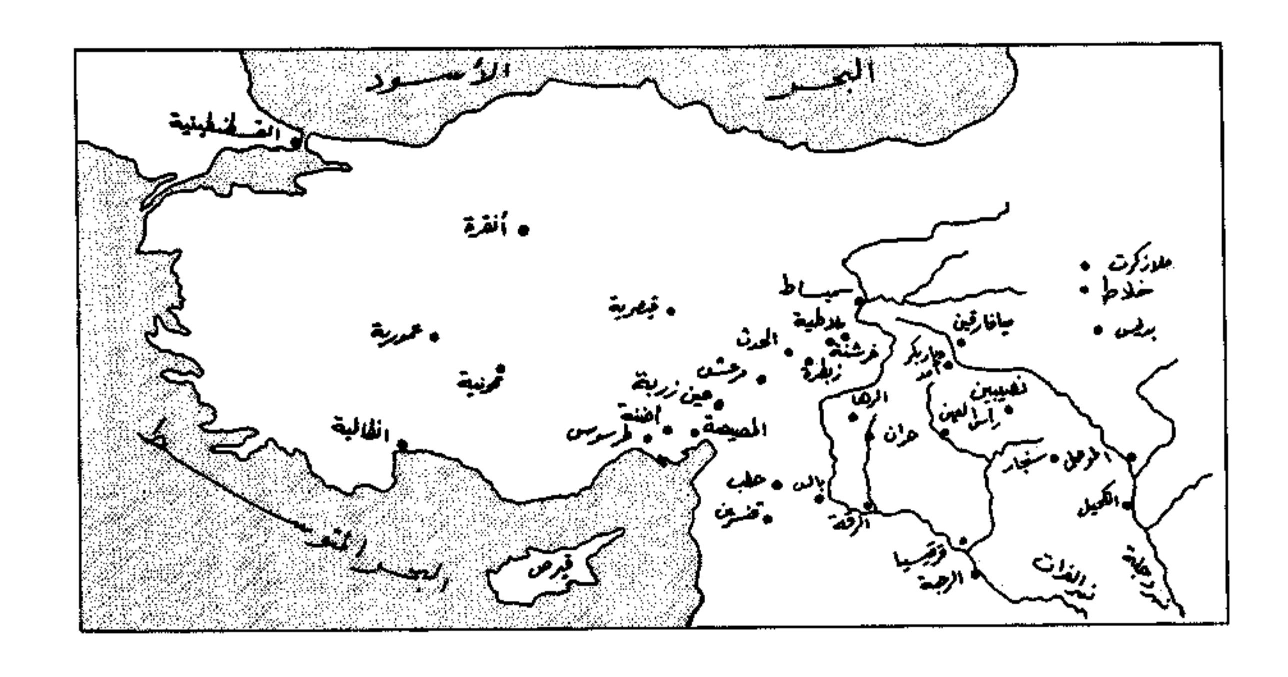
(٢) أحمد (المستعين) بن يوسف (المؤتمن) بن أحمد (المقتدر) بن سليمان بن محمد بن هود: رابع ملوك دولة بني هود وكان=

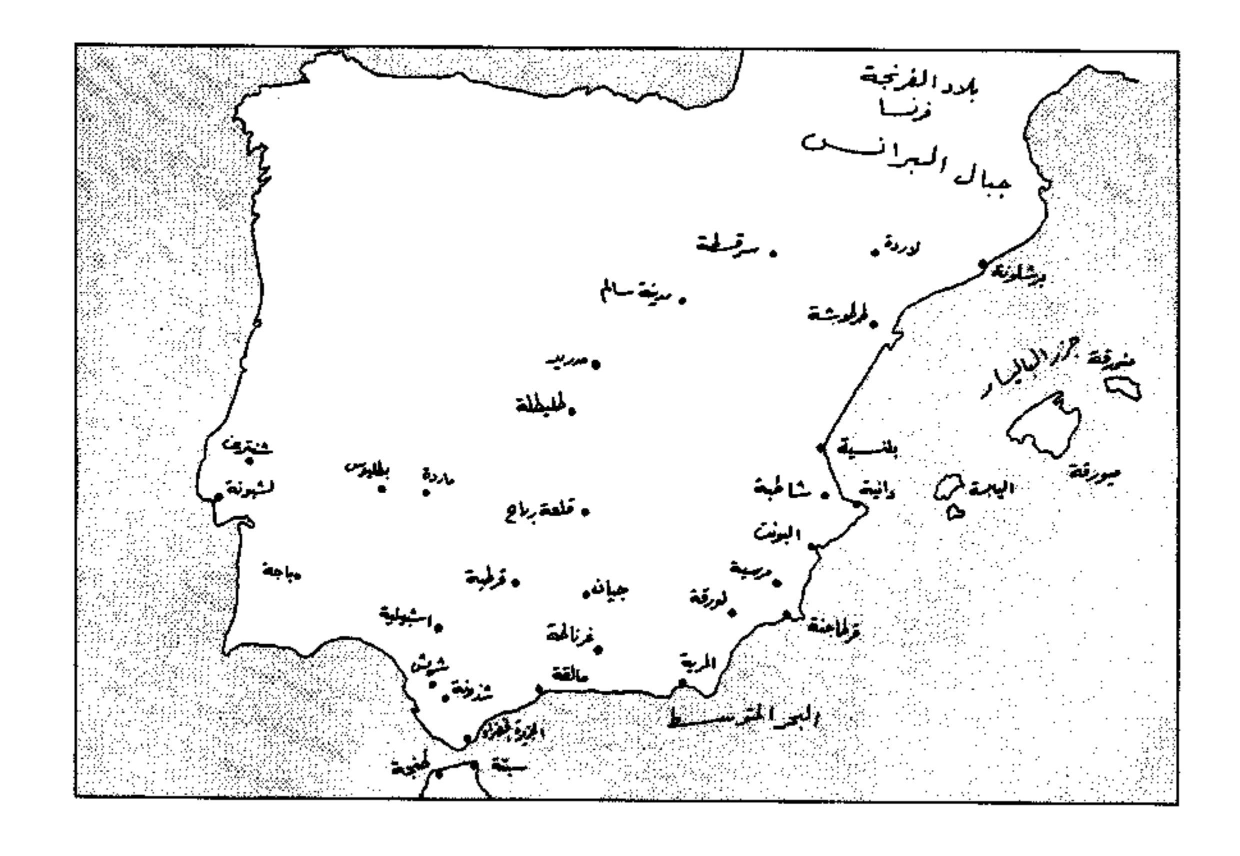
وهو من الشجعان الذين يضرب بهم المثل، وكان قد أعدّ كل ما يحتاج إليه الحصار، وترك عنده ما يكفيه من المؤن عدة سنواتٍ.

وجمع الفونس السادس عساكره وحشد ما استطاع حشده سنة ٤٨٥هـ وغزا «جيان» من الأندلس إلى الشرق من قرطبة وعلى بُعد ٨٢ كيلاً منها، فلقيه المسلمون وقاتلوه واشتدّ القتال فهُزم المسلمون في بداية الأمر، ثم دارت الدائرة على النصارى الإسبان فكثُر القتل فيهم وانهزموا، ولم ينجُ منهم إلا قائدهم الفونس السادس في نفرٍ يسيرٍ، وكانت هذه الوقعة من أشهر الوقائع بعد معركة الزلّاقة.

= مقام ملوكها بمدينة سرقسطة، ولي بعد وفاة أبيه سنة ٤٧٨هـ، وكان من الغزاة، وله وقائع مع الإفرنج، وكانت في أيامه وقعة «وشقة» سنة ٤٨٩هـ وقُتل فيها نحو عشرة آلاف من جيشه، واستمر في الإمارة إلى أن استشهد في معركةٍ لدفع العدو بظاهر سرقسطة سنة ٥٠٣هـ.


كشمير
كابل
غزنة
قندهار
سجستان
لاهور
باطية
الملتان
نهر السند
صحراء ثار
راجستان
أغرا
بحر العرب
كوتا
قنوج
بنارس
نهر الغانج
أحمد أباد
إندور
كوجرات
سومنات
الهند
المحيط الهندي
خليج البنغال


البحر الأسود
القسطنطينية
أنقرة
عمورية
قيصرية
قونية
العالية
طرسوس
أذنة
المصيصة
عين زربة
مرعش
الحدث
زبطرة
ملطية
سميساط
خرشنة
ديار بكر
آمد
ميافارقين
ملازكرت
خلاط
بدليس
نصيبين
رأس العين
الرها
حران
حلب
بالس
الرقة
قرقيسيا
الرحبة
سنجار
الموصل
الكحيل
نهر الفرات
نهر دجلة
قبرص
البحر المتوسط

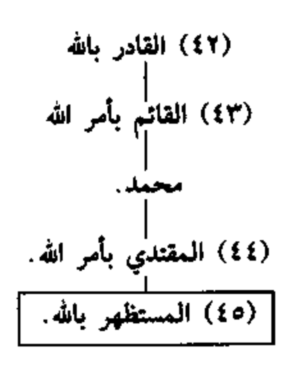

بلاد الفرنجة
فرنسا
جبال البرانس
سرقسطة
لاردة
برشلونة
مدينة سالم
طرطوشة
مدريد
طليطلة
جزر البليار
منورقة
ميورقة
اليابسة
بلنسية
دانية
شاطبة
شنترين
لشبونة
بطليوس
ماردة
قلعة رباح
باجة
قرطبة
جيان
مرسية
لورقة
قرطاجنة
اشبيلية
غرناطة
المرية
شريش
شذونة
مالقة
الجزيرة الخضراء
البحر المتوسط
سبتة
طنجة

الفصل الثالث

٤٥ - المستظهر بالله

٤٨٧ - ٥١٢ هـ

المستظهر بالله هو الخليفة أبو العباس أحمد بن عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عمّ رسول الله ﷺ.



المستظهر بالله قبل الخلافة

ولد المستظهر بالله في شهر شوال سنة ٤٧٠هـ، ولم يكن له شأن قبل أن يلي الخلافة إذ كان صغيراً كما أن الخليفة نفسه كان قليل الشأن إلا من اسم الخليفة واللقب فكيف بولده الذي لا يزال صغيراً لا يدخل المجتمعات ولا يحتكّ بذوي السلطة ولا يُقدم عليه أصحاب الحاجات وأولي المقامات.

خلافة المستظهر بالله:

توفي المقتدي بأمر الله والد المستظهر بالله في منتصف شهر المحرم سنة ٤٨٧هـ، وبدأت البيعة لولي العهد أبي العباس أحمد بن الخليفة الراحل المقتدي، وكان عمر الخليفة الجديد سبع عشرة سنة وشهرين.

أخذ تاج الدولة تتش يجمع الجموع ويحشد الحشود فلما تكامل جمعه خرج من دمشق يقصد حلب ليطلب السلطنة، فاجتمع قسيم الدولة آقسنقر وبوزان وأمدّهما ركن الدين بركيارق بالأمير كربوقا فلما اجتمعوا ساروا إلى طريق تاج الدولة تتش فالتقوا به قريباً من تلّ السلطان على بُعد ٣٥ كيلاً من حلب فاقتتلوا واشتدّ القتال فانهزم بعض العساكر الذين مع آقسنقر فتبعهم الباقون وتمّت الهزيمة، وثبت آقسنقر

فأُخذ أسيراً، وأحضر عند تاج الدولة تتش فقال له: لو ظفرت بي ما كنت صنعت، قال: كنت أقتلك، فقال له: أنا أحكم عليك بما تحكم عليّ فقتله صبراً، وسار نحو حلب، وكان قد دخل إليها كربوقا وبوزان فحفظاها منه، وحاصرها تاج الدولة ولجّ في قتالها حتى ملكها، سلّمها إليه المقيم بقلعة الشريف، ومنها دخل البلد، وأخذ كربوقا وبوزان أسيرين، وأرسل إلى حران والرها يسلّمهما من بهما وكانتا لبوزان، فامتنعوا من التسليم إليه فقتل بوزان وأرسل رأسه إليهم وتسلّم البلدين، وأما كربوقا فإنه أرسله إلى حمص فسجنه بها إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد مقتل أبيه تتش. فلما ملك تاج الدولة تتش حرّان والرها سار إلى الديار الجزرية فملكها جميعها، ثم ملك ديار بكر وخلاط، وسار إلى أذربيجان فملك بلادها كلها، ثم سار منها إلى همدان فملكها.

كان فخر الملك[1] بن نظام الملك بخراسان فسار

---

(١) فخر الملك: علي بن الحسن بن علي بن إسحاق، أبو المظفر فخر الملك بن نظام الملك: أكبر أولاد نظام الملك. تولّى الوزارة للسلطان بركيارق سنة ٤٨٨هـ، ثم فارقه قاصداً نيسابور فاستوزره صاحبها الملك سنجر (أحمد بن ملكشاه) أخو بركيارق، فاغتاله أحد الباطنية سنة ٥٠٠هـ.

منها إلى السلطان بركيارق ليخدمه، غير أن السلطان أراد أن يقبض عليه إذ أنه من عسكر أخيه محمود بن السلطان ملكشاه بأصبهان فهرب فخر الملك ونجا بنفسه وسار إلى همدان فصادفه تتش بها، فأراد قتله فشُفع فيه، وأُشير عليه أن يستوزره لميل الناس إلى بيته فاستوزره وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة من الخليفة المستظهر، فألحّ في طلبها فأُجيب إلى ذلك بعد مدَّةٍ.

كان بركيارق بن ملكشاه في مدينة نصيبين فلما سمع بمسير عمه تتش إلى أذربيجان سار هو من نصيبين إلى إربيل ومنها اتجه نحو عمّه تتش في أذربيجان حتى لم يبق بينهما سوى خمسين كيلاً، ولم يكن معه غير ألف رجلٍ، وكان مع عمه تتش خمسون ألف رجلٍ، فسار الأمير يعقوب بن آبق من عسكر عمه فكبسه وهزمه فلم يبق معه إلا برسق وكمشتكين الجاندار واليارق وهم من الأمراء الكبار فسار إلى أصبهان، وكانت خاتون أم أخيه محمود قد ماتت فمنعه من بأصبهان من الدخول إليها، ثم أذنوا له خديعةً منهم ليقبضوا عليه، فلما اقترب منها خرج أخوه محمود بن ملكشاه فلقيه ودخل أصبهان واحتاطوا عليه، فاتفق أن أخاه محموداً قد أصابته الحمى ومرض الجدري فأراد الأمراء أن يكحلوا

بركيارق فقال لهم أمين الدولة بن التلميذ[1] الطبيب إن الملك محمود قد أُصيب بالجدري وما كأنه يسلم منه وأراكم تكرهون أن يليكم ويملك البلاد تاج الدولة تتش فلا تعجلوا على بركيارق فإن مات محمود أقيموه ملكاً، وإن سلم محمود فأنتم تقدرون على كحله فمات محمود في شوال سنة ٤٨٧هـ، وجلس بركيارق للعزاء، وقصده مؤيّد الملك[2] بن نظام الملك فاستوزره في شهر ذي

---

(١) أمين الدولة بن التلميذ: هبة الله بن صاعد بن (هبة الله بن) إبراهيم، أبو الحسن، أمين الدولة، موفق الملك، المعروف بـ(ابن التلميذ) حكيم، عالم بالطب والأدب، له شعر، كله مُلح ولطائف، في بيتين أو ثلاثة، ولد ببغداد سنة ٤٦٥هـ، عمّر طويلاً، وخدم الخلفاء من بني العباس، وانتهت إليه رئاسة الأطباء في العراق، وكان عارفاً بالفارسية واليونانية والسريانية، وتولّى المستشفى العضدي إلى أن توفي، وكان رئيس النصارى ببغداد وقسيسهم. ومات ببغداد سنة ٥٦٠هـ.

(٢) مؤيد الملك: عبيد الله بن الحسن (نظام الملك) بن علي: وزير، نشأ في بيت الوزارة بأصبهان، ولم يكن في أولاد نظام الملك أكفأ منه واستوزره السلطان بركيارق بن ملكشاه السلجوقي سنة ٤٨٧هـ وكانت الدولة السلجوقية في أسوأ أيامها فنهض بها، ثم تغيّر عليه السلطان فعزله واعتقله، وخلص من الاعتقال فأظهر الانقطاع للعبادة، واتصل بمحمد بن ملكشاه وهو أخو السلطان بركيارق وولي عهده، فاتفق معه على خلع أخيه فخلعاه سنة ٤٩٢هـ، وفر السلطان=

الحجة، وكان أخوه عزّ الملك بن نظام الملك قد مات لما كان مع بركيارق بمدينة الموصل، وحمل إلى بغداد فدفن بالنظامية. ثم إن بركيارق قد أصابه الجدري بعد أخيه وعوفي وسلم ـ بإذن الله ـ فلما عوفي كاتب وزيره مؤيد الملك الأمراء في العراق وخراسان واستمالهم فعادوا كلهم إلى جانب بركيارق فعظم شأنه وكثر عسكره.

سيّر تاج الدولة الملك تتش أخو ملكشاه أحد الأمراء وهو يوسف بن آبق التركماني إلى بغداد وذلك في شهر صفر سنة ٤٨٠هـ، ومعه جمع من التركمان فمُنع من دخول بغداد، وجاء إليه صاحب الحلّة صدقة بن منصور الأسدي[1]، وكان يكره الملك تتش

= من أصبهان، وقام مؤيد الملك بوزارة السلطان محمد أحسن قيام. ثم خرج إلى همدان في بعض أعماله فأحاط به عدد ممن بقي على الولاء لبركيارق فأسروه وحملوه إليه فضرب عنقه بيده سنة ٤٩٥هـ.

(١) صدقة بن منصور بن دبيس المزيدي الناشري الأسدي أبو الحسن، سيف الدولة: أمير بادية العراق، وباني مدينة الحلّة (بين الكوفة وبغداد)، ولي إمرة بني مزيد بعد وفاة أبيه سنة ٤٧٩هـ فبنى مدينة الحلة، وأسكن بها أهله وعساكره سنة ٤٩٥هـ، وكان شجاعاً بطلاً، ثارت في أيامه الفتن بين أبناء السلطان ملكشاه السلجوقي فاحتل صدقة الكوفة واستولى على=

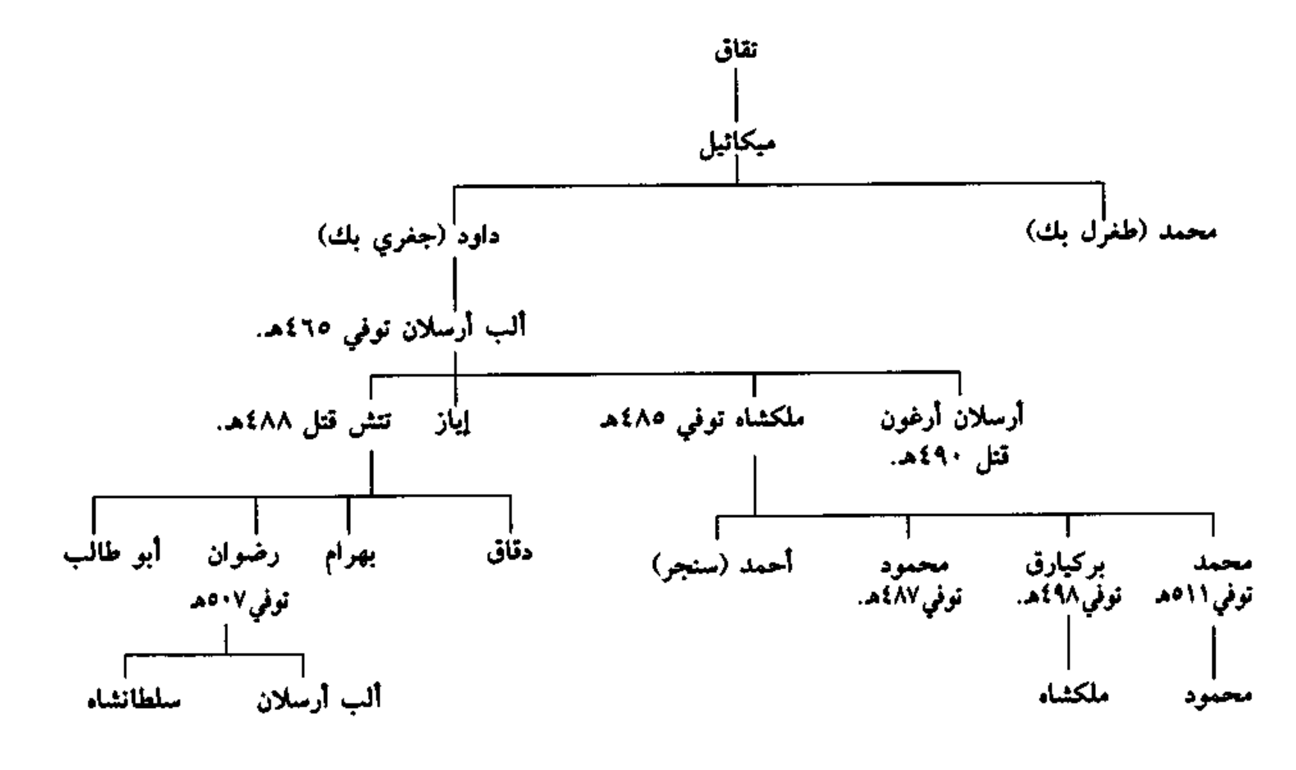
ولم يخطب له في بلاده، فلما سمع يوسف بن آبق عاد إلى طريق خراسان وقاتله العسكر ببعقوبة فهزمهم وعاد إلى بغداد، وكان صدقة قد رجع إلى الحلّة فدخل يوسف بن آبق بغداد ثم وصل إليه الخبر بقتل الملك تتش فرحل عن بغداد إلى الموصل ومنها سار إلى حلب.

بعد أن انتصر تاج الدولة تتش على ابن أخيه بركيارق بن ملكشاه بالقرب من همدان سار من مكان الموقعة إلى همذان فإذا بأميرٍ آخر قد تحصّن بها فرحل عنها تتش فتبعه أمير ثانٍ لأجل أثقاله فرجع عليه تتش فهزمه فعاد إلى همدان واستأمن إليه وصار معه، وبلغ تتش مرض ابن أخيه بركيارق فسار إلى أصبهان وتابع إلى الريّ، وأرسل إلى الأمراء الذين بأصبهان يدعوهم إلى طاعته ويبذل لهم الكثير، وكان بركيارق مريضاً بالجدري، فأجابوه يعدونه بالانحياز إليه، وهم ينتظرون ما يكون من بركيارق فلما عوفي أرسلوا إلى تتش: ليس بيننا إلا السيف، وساروا مع بركيارق من أصبهان وهم

= هيت وواسط ثم البصرة، وانتظم له ملك بادية العراق إلى أن زحف عليه محمد بن بركيارق بن ملكشاه بجيشٍ فيه خمسون مقاتلٍ فنشب بينهما القتال وانتهى بمقتل صدقة سنة ٥٠١هـ عند بلدة النعمانية على ضفة نهر دجلة بين واسط وبغداد.

في نفرٍ يسيرٍ ولكن ما أن قطعوا مسافةً حتى أقبلت عليهم العساكر من كل مكانٍ حتى صاروا في ثلاثين ألفاً فالتقوا مع تاج الدولة الملك تتش في موضعٍ قريبٍ من الريّ فانهزم عسكر تتش وثبت هو فقُتل، وقيل: قتله بعض أصحاب آقسنقر صاحب حلب أخذاً بثأر صاحبه، وكان قد قبض على فخر الملك بن نظام الملك وهو معه فأُطلق، واستقام الأمر والسلطنة لبركيارق بن ملكشاه.

كان تاج الدولة الملك تتش قد أوصى أصحابه بطاعة ابنه رضوان، وكتب إليه من بلاد الجبل قبل المعركة التي قُتل بها يأمره أن يسير إلى العراق، ويقيم بدار المملكة فسار في عددٍ كثيرٍ منهم: الغازي بن أرتق وكان قد سار إلى الملك تتش فتركه عند ابنه رضوان في حلب وانطلق هو لمواجهة ابن أخيه بركيارق ومنهم الأمير وثّاب بن محمود بن صالح بن مرداس، فلما اقترب من مدينة هيت بلغه مقتل أبيه فعاد إلى حلب ومعه والدته فملك حلب وكان بها أبو القاسم الحسن بن علي الخوارزمي قد سلّمها إليه تتش وملّكه البلد والقلعة، ولحق برضوان بن تتش زوج أمه جناح الدولة الحسين بن ايتكين، وكان مع تتش فسلم في المعركة، وكان مع رضوان أيضاً أخواه الصغيران أبو طالب وبهرام، وكانوا كلهم مع أبي القاسم كالأضياف لتحكّمه في البلد.


تقاق
ميكائيل
محمد (طغرل بك)
داود (جغري بك)
ألب أرسلان توفي ٤٦٥هـ.
أرسلان أرغون
قتل ٤٩٠هـ.
ملكشاه توفي ٤٨٥هـ
إياز
تتش قتل ٤٨٨هـ.
محمد
توفي ٥١١هـ
بركيارق
توفي ٤٩٨هـ.
محمود
توفي ٤٨٧هـ.
أحمد (سنجر)
دقاق
بهرام
رضوان
توفي ٥٠٧هـ
أبو طالب
محمود
ملكشاه
ألب أرسلان
سلطانشاه

واستمال جناح الدولة زوج أم رضوان المغاربة وكانوا أكثر جند القلعة، فلما انتصف الليل نادوا بشعار الملك رضوان واحتاطوا على أبي القاسم، وأرسل إليه رضوان يُطيّب قلبه واعتذر إليه فقبل عذره، وخُطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها، ولم يكن يخطب له من قبل بل كانت الخطبة لأبيه بعد قتله نحو شهرين، وسار جناح الدولة في تدبير المملكة سيرةً حسنةً.

خالف على الملك رضوان صاحب أنطاكية الأمير باغيسيان بن محمد بن ألب التركماني، ثم صالحهم وأشار على الملك رضوان أن يقصد ديار بكر لخلوها من والٍ يحفظها فساروا جميعاً وقدم عليهم أمراء الأطراف الذين كان السلطان تتش رتّبهم فيها وقصدوا «سروج»[1] فسبقهم إليها الأمير سقمان بن أرتق وأخذها ومنعهم عنها، وأمر أهل البلد فخرجوا إلى رضوان وتظلّموا إليه من عساكره ويسألونه الرحيل فرحل عنهم إلى الرها، وكان بها رجل من الروم يقال له «الفارقليط» وكان يضمن البلد من بوازن فقاتل المسلمين بمن معه

---

(١) سروج: بلدة قريبة من حران، غلب عياض بن غنم على أرضها، ثم دخلها صلحاً على مثل صلح الرها وذلك سنة ١٧هـ في عهد عمر بن الخطاب ﷺ.

واحتمى بالقلعة وشاهدوا من شجاعته ما كانوا لا يظنّونه ثم ملكها رضوان، وطلب باغيسيان القلعة من رضوان فوهبها له فتسلّمها وحصّنها ورتّب رجالها، وأرسل إليهم أهل حران يطلبونهم ليسلّموا إليهم حران فسمع ذلك أميرها قراجه فاتهم ابن المفتي، وكان ابن المفتي هذا قد اعتمد عليه تاج الدولة تتش في حفظ البلد فأخذه قراجه وأخذ معه بني أخيه فصلبهم، ووصل الخبر إلى رضوان وقد اختلف جناح الدولة الحسين بن أيتكين زوج أم رضوان وباغيسيان وأضمر كل واحدٍ منهما الغدر بصاحبه فهرب جناح الدولة إلى حلب فدخلها واجتمع بزوجته أم الملك رضوان، وسار رضوان وباغيسيان فعبروا الفرات وسمعوا بدخول جناح الدولة إليها، ففارق باغيسيان الملك رضوانِ وسار إلى أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي، وسار رضوان إلى حلب.

وأما دقاق بن تتش أخو رضوان فإن أباه كان قد سيّره إلى عمه السلطان ملكشاه ببغداد وخطب له ابنة السلطان، وسار بعد وفاة السلطان سار مع زوجة عمه ملكشاه خاتون الجلالية وابنها محمود إلى أصبهان، وخرج إلى ابن عمه السلطان بركيارق بن ملكشاه سرّاً وصار معه، ثم لحق بأبيه تتش وحضر معه الوقعة التي

قُتل فيها، فلما قُتل أبوه أخذه غلام لأبيه اسمه أيتكين الحلبي، وسار به إلى حلب وأقام عند أخيه الملك رضوان، فراسله سرّاً الأمير ساوتكين الخادم الوالي بقلعة دمشق يدعوه ليُملّكه دمشق، فهرب من حلب سراً وجدّ في السير فأرسل أخوه رضوان عدداً من الخيالة فلم يدركوه، فلما وصل إلى دمشق فرح به الخادم وأظهر الاستبشار ولقيه خارج المدينة، فلما دخل دمشق أرسل إليه باغيسيان يُشير عليه بالتفرّد بملك دمشق عن أخيه رضوان، واتفق ذلك مع وصول معتمد الدولة طغتكين إلى دمشق ومعه جماعة من خواص تتش وعسكره، وقد سلموا في المعركة التي قُتل فيها تتش، وأُسر طغتكين يومها، وبقي حتى الآن وخلص من الأسر، فلما وصل إلى دمشق لقيه الملك دقاق وأركان دولته، وبالغوا في إكرامه وكان زوج والدة دقاق لذلك مال إليه، وحكّمه في بلده، وعملوا على قتل الخادم ساوتكين فقتلوه، وسار إليهم باغيسيان من أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي فجعله وزيراً لدقاق، وحكّمه في دولته[1].

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

وفاة وزير الخليفة:

توفي سنة ٤٨٨هـ محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله وزير الخليفة، وُلد بالأهواز سنة ٤٣٧هـ، وأصله من روذ روار، ويكنى أبا شجاع، ويُلقّب بظهير الدين، وقرأ الفقه على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وكان عالماً بالعربية، وله تصانيف منها (ذيل تجارب الأمم)، وكان حسن السيرة عفيفاً، كثير الخير والمعروف، ولي الوزارة للمقتدي بأمر الله العباسي سنة ٤٧٦هـ، وعُزل سنة ٤٨٤هـ، وذهب للحج سنة ٤٨٧هـ، وأقام بالمدينة مجاوراً فتوفي هناك سنة ٤٨٨هـ، ودُفن بالبقيع.

مقتل أرسلان أرغون:

في شهر المحرم سنة ٤٩٠هـ قُتل أرسلان أرغون بن ألب أرسلان، وهو أخو السلطان ملكشاه، وكان مقتله بيد أحد الغلمان في مدينة مرو، وكان قد ثار على ابن أخيه بركيارق، وسلّم بركيارق خراسان إلى أخيه سنجر.

القتال بين رضوان وأخيه دقاق:

سار رضوان بن تتش سنة ٤٩٠هـ إلى دمشق بقصد أخذها من يد أخيه دقاق، فلما اقترب منها رأى حصانتها فشعر بعجزه عن أخذها فرحل إلى نابلس

ومنها إلى القدس فلم يستطع أخذها، وابتعدت العساكر عنه فعاد ومعه صاحب أنطاكية باغيسيان وجناح الدولة الحسين بن أيتكين زوج أم رضوان، ثم إن باغيسيان فارق رضوان، وقصد دقاق، وحسّن له محاصرة أخيه رضوان بحلب جزاءً لما فعله، فجمع عساكر كثيرةً وسار ومعه باغيسيان، فأرسل رضوان رسولاً إلى سقمان بن أرتق وهو في سروج يستنجده، فأتاه بخلقٍ كثيرٍ من التركمان، فسار نحو أخيه فالتقيا بقنّسرين فاقتتلا فانهزم دقاق وعسكره، وعاد رضوان إلى حلب، ثم اتفقا على أن يُخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق وبأنطاكية.

رأى جناح الدولة الحسين بن أيتكين زوج أم رضوان تغيّراً من رضوان نحوه ففارقه وسار إلى حمص، وهي له. ورأى باغيسيان بُعده عن رضوان فصالحه وقدم إليه بحلب ونزل بظاهرها. وجاءت إلى رضوان رسل من العبيديين في مصر يدعونه إلى طاعتهم، ويبذلون له المال، ويُغرونه بإرسال العساكر إليه ليملك دمشق وينتصر على أخيه. وكان لرضوان منجم يقال له الحكيم أسعد، وكان يميل إليه فقدّمه بعد مسير جناح الدولة (زوج أمه) من عنده فحسّن إليه مذهب العبيديين وما يدعون إليه، فخطب للعبيديين

بشيزر وأكثر أعمال مملكة رضوان سوى أنطاكية وحلب والمعرة، خطب أربع جمعٍ، ثم حضر عند رضوان من حران صاحبها سقمان بن أرتق ومن أنطاكية صاحبها باغيسيان وأنكرا ذلك عليه واستعظماه، فامتثل لهما وأعاد الخطبة إلى العباسيين، وترك الخطبة للعبيديين، وأرسل إلى بغداد يعتذر عما كان منه. وسار باغيسيان إلى أنطاكية.

كان مؤيد الملك بن نظام الملك وزيراً للسلطان بركيارق، غير أن بركيارق لم يلبث أن عزله وولّى مكانه أخاه عزّ الملك وأبا الفتح علي بن الحسين الطغرائي الشاعر المعروف، فأصبح مؤيد الملك عدوّاً لبركيارق، فارتحل إلى بغداد واستطاع أن يؤثّر على الخليفة فيقلّد محمداً أخا بركيارق السلطنة ويُلقّبه «غياث الدنيا والدين» وقد طالت الحروب بين الفريقين فزادت على خمس سنواتٍ، فكانا يتصالحان ثم يعودان للقتال.

وتوفي بركيارق سنة ٤٩٨هـ فخلفه ابنه ملكشاه ولقّبه الخليفة جلال الدولة غير أنه كان صغيراً لم يتجاوز الخامسة من عمره، ولم يتمّ له الأمر سوى شهرٍ حتى عُزل وخلا الجو لعمه محمد بن ملكشاه، وبقي في السلطنة حتى سنة ٥١١هـ، ولعل أهم الحوادث التي وقعت في أيامه.

١ ـ مناوأة عمه إياز بن ألب أرسلان الذي عمل لاستلام السلطنة.

٢ ـ حرب صدقة بن مزيد صاحب البصرة والحلّة وواسط الذي انضمّ إلى الأمير ابن إياز، وقد استولى على تكريت عام ٤٩٩هـ، وانتصر على السلاجقة ثم هُزم وقتل سنة ٥٠١هـ، كما أُسر ابنه دبيس، وهرب ابنه الآخر إلى الحلّة. وعاد السلطان إلى بغداد ولم يصل إلى الحلّة. ولكن أطلق دبيساً واستخلفه.

٣ ـ الحروب مع الباطنية: كثر أتباع الباطنية في أصبهان سنة ٤٩٢هـ ثم انتشروا إلى العراق بسبب الخلاف على السلطنة بين بركيارق ومحمد، وعمل الباطنيون على اغتيال أهل الفضل، فلما صفا الجو للسلطان محمد جرّد حرباً على الباطنية واستطاع سنة ٥٠٠هـ أن يحتلّ قلعة أصبهان.

٤ ـ القتال مع الصليبين، إذ أرسل السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه جيشاً كثيفاً، وسار معه أيضاً أمراء الموصل والجزيرة، واتجهوا إلى بلاد الشام لقتال الصليبيين، وحاصروا مدينة الرها غير أنهم لم يتمكّنوا من دخولها، فتابعوا سيرهم، وسار معهم سلطان بن منقذ أمير شيزر، والتقوا مع الصليبيين عند طبرية سنة

٥٠٧هـ، وانتصر المسلمون، وقُتل يومئذٍ مودود صاحب الموصل بدمشق على يد أحد الباطنيين. وأمر غياث الدين محمد بن ملكشاه بتسيير الجيوش سنة ٥٠٩هـ لقتال الصليبيين.

الغزنويون:

كان ظهير الدين إبراهيم بن مسعود يحكم دولة غزنة في هذه المرحلة، وتوفي سنة ٤٩٢هـ، وخلفه ولده مسعود الثالث، واستمرّ في حكمه حتى سنة ٥٠٨هـ إذ توفي وخلفه أبناؤه الثلاثة إذ تعاقبوا على الحكم، وهم:

١ ـ شيرزاد: ولُقّب كمال الدولة، توفي سنة ٥٠٩هـ.

٢ ـ أرسلان: ولُقّب سلطان الدولة، وتوفي سنة ٥١٢هـ.

٣ ـ بهرام شاه: ولُقّب يمين الدولة، واستمرّ في حكمه حتى سنة ٥٤٧هـ.

دولة خوارزم:

كان السلطان بركيارق قد ولّى على خراسان سنة ٤٩٠هـ حبشي بن التونتاق على خراسان بعد عصيان يارقطاش وقودن، فسار حبشي وقاتل يارقطاش منفرداً فانتصر عليه وأخذه أسيراً، ووصل الخبر إلى قودن فثار عليه عسكره ونهبوا خزائنه وما معه من مالٍ، وتفرّقوا

عنه، فبقي في سبعة نفرٍ فهرب إلى بخارى فقبض عليه صاحبها، ثم أحسن إليه وبقي عنده، ثم ارتحل إلى الملك سنجر في مدينة بلْخ فقبله أحسن قبول، ووعده قودن أن يكفيه أموره وأن يقوم بجمع العسكر على طاعته، ولكن لم تطل أيامه إذ جاءه الأجل المحتوم، وأما يارقطاش فقد بقي أسيراً حتى قُتل الأمير داذ حبشي.

لما صفا الجو في خراسان إلى داذ حبشي ولّى محمد بن أنوشتكين أميراً على خُوارزم وأقطعه إياها (مدينة خيوه) الواقعة جنوب بحيرة خُوارزم (بحر آرال) وتبعد عنها مائتين وثلاثين كيلاً. وكان أبوه (أنوشتكين) مملوك أمير من السلاجقة يدعى «بلكباك» قد اشتراه من رجل من «غرشتان» فقيل له «غرشحة» فكبر وعلا أمره، وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف، وكان مقدّماً مرجوعاً إليه، وولد له ولد سمّاه محمداً، وعلّمه وخرّجه وأحسن تأديبه. وكان أنوشتكين أحد سُقاة بلاط السلطان ملكشاه، ووظيفة الساقي هي الإشراف على موائد القصر، وقد اشترك أنوشتكين في القتال الذي دار بين السلاجقة والغزنويين، وكان له باع في إحراز النصر السلجوقي بعد الهزيمة التي حلّت بهم فكافأه السلطان ملكشاه وأعطاه إقطاعية خوارزم وذلك سنة ٤٧٠هـ،

واستمرّ في حكمه لها مدة عشرين سنةً حيث توفي سنة ٤٩٠هـ، وخلفه ابنه محمد قطب الدين، وكان ذا همّةٍ عاليةٍ فعيّنه السلطان بركيارق حاكماً على بلاد خُوارزم ولقّبه شاه أي ملك، عندما ملك أحمد (سنجر) أخو بركيارق خراسان أقرّ محمد قطب الدين على ما تحت يده، وبقي مدة حياته تابعاً للسلطان، وتوفي سنة ٥٢١هـ.

اليمن:

عاد جيّاش بن نجاح من الهند إلى زبيد وملكها، واستمرّ في حكمها حتى سنة ٤٩٨هـ حيث خلفه ابنه فاتك بن جيّاس حتى سنة ٥٠٣هـ إذ تولّى بعده ابنه منصور بن فاتك حتى سنة ٥٢١هـ.

أما الصليحيون فكان أميرهم سبأ بن المظفّر الصليحي[1] الذي تزوج أروى بنت أحمد الصليحي، وتوفي سبأ سنة ٤٩٢هـ فبقيت زوجته أروى سيدة الموقف، وقد خرج عن طاعتها ابن بخيت واليها على إقليم جَنَد فوجّهت إليه جيشاً قوامه عشرون ألفاً وقد

---

(١) سبأ بن أحمد بن المظفر بن علي الصليحي: تولى اليمن سنة ٤٨٤هـ بعد وفاة المكرم وبعهدٍ منه.

جاء به أسيراً للسيدة أروى طائعاً ذليلاً معتذراً، وكان الخليفة العبيدي يطلبه فرفضت تسليمه، ثم إن أعداءه قد عظموا للسيدة أروى خلافها للعبيديين فأرسلته وبعثت إلى العبيدي صاحب مصر تستعطفه في الإحسان إليه. وتوفيت أورى سنة ٥٣٢هـ في مدينة (ذي جبلة).

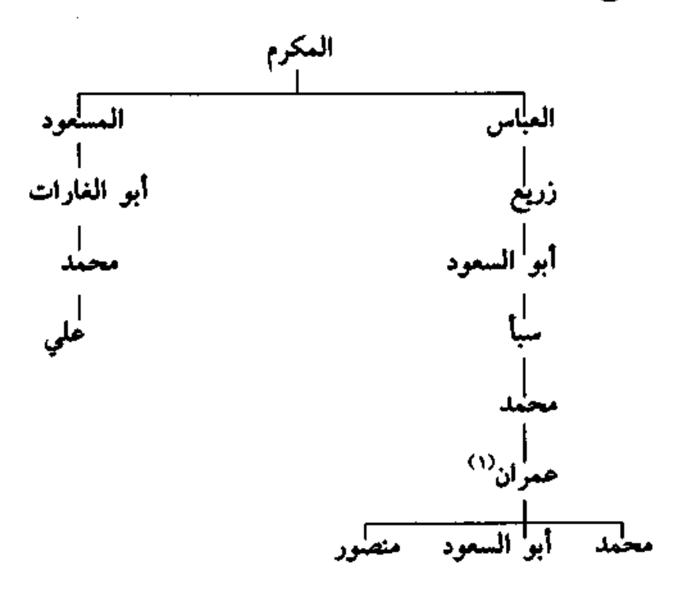
وفي عدن كان بنو زريع يحكمون المنطقة فمن جهةٍ كان أبو السعود بن زريع[١] يحكم، ومن جهةٍ ثانيةٍ كان محمد بن أبي الغارات بن المسعود الذي توفي سنة ٤٨٨هـ فخلفه ابنه علي وقد حاربه سبأ بن أبي السعود[٢] قرابة سنتين، وقد استطاع سبأ أن ينتصر على خصمه وأن يحكم المنطقة كاملةً، وقلّده العبيدي بمصر الدعوة لذا لُقّب بالداعي، واستطاع أن يقتل أبناء عمه أولاد

---

(١) زريع بن العباس بن المكرم اليامي الهمداني: من دعاة الباطنية الإسماعيلية في عدن وما حولها، وكانت لأبيه العباس سابقة مع علي بن محمد الصليحي بالقيام بالدعوة للعبيديين وتقدّم في خدمتهم، وهو رأس الأسرة الزريعية التي حكمت عدن وعاشت إلى أن داهمها توران شاه أخو صلاح الدين الأيوبي، وقبض على بقايا أمرائها سنة ٥٦٩هـ.

(٢) سبأ بن أبي السعود بن زريع بن العباس بن المكرم اليامي الهمداني: من دعاة الباطنية الإسماعيلية، وقد انفرد بحكم عدن بعد انتصاره على علي بن محمد بن أبي الغارات وقتله وإخوته سنة ٤٩٠هـ.

ابن أبي الغارات كلهم، واستمرّ سبأ في حكمه عدن حتى سنة ٥٣٢هـ.



العبيديون:

توفي بدر الجمالي[٢] صاحب جيوش مصر ومدبّر

---

(١) كان لعمران بن محمد بن سبأ ثلاثة أبناءٍ هم: محمد، أبو السعود، منصور، وتوفي سنة ٥٦٠هـ، وأبناؤه صغار فكفلهم أبو الدر جوهر المعظمي حتى قضى عليهم جميعاً الأيوبيون سنة ٥٦٩هـ.

(٢) بدر بن عبد الله الجمالي، أبو النجم: أمير الجيوش المصرية، والد الملك الأفضل شاهنشاه، أصله من أرمينية، اشتراه جمال الدولة بن عمار غلاماً، فتربّى عنده ونُسب إليه، وتقدّم=

شؤون المملكة العبيدية في شهر ذي القعدة سنة ٤٨٧هـ، وقام مقامه ابنه الأفضل[١]، ثم توفي المستنصر العبيدي صاحب مصر في الثامن عشر من شهر ذي الحجة من السنة نفسها، وكان قد عهد بالحكم من بعده إلى ابنه الأكبر نزار[٢] إلّا أن الأفضل بن بدر الجمالي قد خلع

= في الخدمة حتى ولي إمارة دمشق للمستنصر صاحب مصر سنة ٤٥٥هـ، ثم استدعاه إلى مصر، واستعان به على إطفاء فتنةٍ نشبت، فوطّد له أركان الدولة، فقلّده وزارة «السيف والقلم» وأصبح الحاكم في دولة المستنصر والمرجوع إليه، وكان حازماً شديداً على المتمردين، توفي في القاهرة سنة ٤٨٧هـ.

(١) الأفضل: أحمد بن بدر الجمالي، أبو القاسم شاهنشاه، خلف أباه في إمارة الجيوش المصرية، ووطّد دعائم الملك للآمر العبيدي صاحب مصر، ودبّر شؤون دولته فنقم عليه الآمر أمراً فدسّ له من قتله على مقربةٍ من داره بالقاهرة سنة ٥١٥هـ فكانت ولايته ثماني وعشرين سنةً. وأول من استوزره المستنصر جدّ الآمر. وعاش سبعاً وخمسين سنةً حيث أنه ولد سنة ٤٥٨هـ.

(٢) نزار بن معد (المستنصر) بن علي (الظاهر) العبيدي: ولد في القاهرة سنة ٤٣٧هـ، وولي العهد بالإمارة سنة ٤٨٠هـ، وأراد القيام بها بعد وفاة أبيه سنة ٤٨٧هـ فأبعده عنه الأفضل أحمد بن بدر الجمالي وزير أبيه، وجعلها لأخيه أحمد (المستعلي).
وانقسمت الإسماعيلية منذ ذلك الحين إلى (مستعلية) ومنهم البهرة في الهند، و(نزارية) ومنهم جماعة (آغاخان)، وهرب نزار إلى الإسكندرية، وبايعه أعوانه ومنهم جماعة قلعة ألموت=

نزاراً وولّى مكانه أخاه الأصغر أحمد ولقّبه المستعلي ليتحكّم بشؤون الدولة بشكلٍ أوسع.

فهرب نزار إلى الإسكندرية، وتحصّن بها، وأخذ البيعة فيها لنفسه، فسار إليه الأفضل وتمكّن من هزيمته وأسره، وسجنه بين جدارين إلى أن مات سنة ٤٩٠هـ.

ولكن أتباعه يزعمون أنه لم يقبض عليه وإنما استطاع أن يصل إلى قلعة ألموت، ويُعرف أتباعه بمجموعة الإسماعيلية الشرقية ومنها الحشّاشون جماعة الحسن بن الصباح، وهم الذين كان لهم الدور الكبير في الاغتيالات السياسية التي تعرّض لها كثير من زعماء المسلمين وهم على ثغور المسلمين في جهادهم ضد النصارى أثناء الحروب الصليبية أو وهم في أماكنهم.

كان الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي عالماً بالهندسة والحساب والنجوم، ولد في مرو سنة ٤٢٨هـ،

= (الحشاشون)، وانطلق الأفضل وراء نزار إلى الإسكندرية وانتصر عليه سنة ٤٨٨هـ وقبض عليه وسجنه بين جدارين حتى مات سنة ٤٩٠هـ، فهو رأس الفرقة النزارية، ويُلقّبونه (المصطفى)، ويزعمون أنه لم يقبض عليه في الإسكندرية بل وصل إلى قلعة ألموت بنواحي قزوين ولقي الحسن بن الصباح، ومات هناك بعد أن أوصى لابنه (علي) من بعده.

وتتلمذ لأحمد بن عطاش أحد أعيان الباطنية، ثم كان مقدم الإسماعيلية في أصبهان، ورحل منها وطاف في البلاد يُؤدّي مهمته، فدخل مصر في زيّ تاجرٍ واجتمع بالمستنصر العبيدي فأكرمه غاية الإكرام وأعطاه مالاً وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته، وقال للمستنصر: من إمامي بعدك؟ فقال: ابني نزار، وهو أكبر أولاده، وعاد الحسن بن الصباح ودعا الناس إليه سرّاً ثم أظهر الدعوة وملك القلاع.

ولما مات المستنصر ولي بعده ابنه أبو القاسم أحمد المستعلي ومولده في المحرم سنة ٤٦٧هـ، وكان المستنصر قد عهد من بعده لابنه نزار، ولكن الأفضل خلع نزاراً وبايع أحمد المستعلي، وسبب خلعه أن الأفضل ركب مرةً أيام المستنصر ودخل دهليز القصر من باب الذهب راكباً ونزار خارج والمجاز مظلم، فلم يره الأفضل فصاح به نزار: أنزل يا أرمني، يا كلب عن الفرس ما أقلّ أدبك. فحقدها عليه.

فلما مات المستنصر خلعه خوفاً منه على نفسه، وبايع المستعلي، فهرب نزار إلى الاسكندرية، وبها ناصر الدين أفتكين فبايعه أهل الاسكندرية وسمّوه «المصطفى لدين الله» فخطب الناس ولعن الأفضل وأعانه أيضاً القاضي جلال الدين بن عمار قاضي

أئمة العبيديين:

(١) المهدي ٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ.

(٢) القائم ٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ.

(٣) المنصور ٣٣٤ ـ ٣٤١هـ.

(٤) المعزّ ٣٤١ ـ ٣٦٥هـ.

(٥) العزيز ٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ.

(٦) الحاكم ٣٨٦ ـ ٤١١هـ.

(٧) الظاهر ٤١١ ـ ٤٢٧هـ.

(٨) المستنصر ٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ.

(٩) المستعلي ٤٨٧ـ٤٩٥هـ. محمد نزار

(١٠) الآمر ٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ.

(١١) الحافظ ٥٢٤ ـ ٥٤٤هـ.

(١٢) الظاهر ٥٤٤ ـ ٥٤٩هـ. يوسف.

(١٣) الفائز ٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ.

(١٤) العاضد ٥٥٥ ـ ٥٦٧هـ.

قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي، رحمه الله.

الاسكندرية، فسار إليه الأفضل وحاصره بالاسكندرية فعاد عنه مقهوراً، ثم ازداد عسكراً وسار إليه فحاصره، وأخذه، وأخذ ناصر الدين أفتكين فقتله، وتسلّم المستعلي أخاه نزاراً فبنى عليه حائطاً فمات، وقتل القاضي جلال الدين بن عمار وكل من أعانه.

خرج والي مدينة صور بساحل الشام سنة ٤٩٠هـ على المستعلي العبيدي صاحب مصر وأظهر العصيان فبعث إليه المستعلي جيشاً حاصره وضيّق عليه حتى دخل البلد فأكثر في أهلها القتل ونهب الأموال، وأخذ الوالي أسيراً وحمله إلى مصر فقُتل هناك.

لما دخل الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ ووصلت الأخبار إلى مصر أراد صاحبها العبيدي ووزيره الأفضل أن يظهروا أمام المسلمين أنهم معهم وقد أخذتهم الغيرة على المقدسات فجمع الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش الجموع وحشد وسار إلى عسقلان وأرسل إلى الصليبيين يُنكر ما فعلوا ويشجب عليهم تصرفاتهم ويتهدّدهم وهو مقيم بعسقلان، فأعاد الصليبيون الرسول بالجواب وانطلقوا إثره فطلعوا على المصريين فجأةً ولم يكن عند المصريين خبر وصولهم ولا عن حركتهم، ولم يكونوا على أهبة القتال فنادوا

إلى ركوب الخيل ولبسوا سلاحهم غير أن الصليبيين قد أعجلوهم فهزموهم، وقتلوا من قتلوا منهم، وأخذوا ما في المعسكر من مالٍ وسلاحٍ وغير ذلك وانهزم الأفضل ودخل عسقلان ولم يتعرّض الصليبيون له، ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجُمّيز وكان هناك كثيراً فأحرق الصليبيون بعض ذاك الشجر فهلك من فيه وقتلوا من خرج منه، ورجع الأفضل في خواصه إلى مصر ولم يخسر شيئاً لأن أكثر الذين خرجوا معه كانوا قد خرجوا حميةً لدينهم وحقداً على الكفار وهؤلاء بينهم وبين الأفضل وجماعته فرق كبير.

ونازل الصليبيون أهل عسقلان بعد خروج الأفضل منها وضايقوهم فبذل لهم أهلها مبلغ عشرين ألف دينارٍ، ورجع الصليبيون بعدها إلى القدس.

وتوفي المستعلي بالله العبيدي في السابع عشر من شهر صفر سنة ٤٩٥هـ فكان عمره قريباً من ثمان وعشرين سنة إذ أن مولده في العشرين من شعبان سنة ٤٦٧هـ، وكانت إمرته سبع سنواتٍ وقريباً من شهرين، وكان الأفضل بن بدر الجمالي مدبر أمور دولته، ولما توفي ولي بعده ابنه المنصور أبو علي، وكان عمره في اليوم الذي مات فيه أبوه خمس سنواتٍ وشهراً وأربعة

أيامٍ إذ أن مولده في الثالث عشر من شهر المحرم سنة ٤٩٠هـ، ولُقّب الآمر بأحكام، ولم يستطع أن يركب على الفرس وحده لصغر سنه، وقام بتدبير أمور دولته الأفضل بن بدر الجمالي، وبقي كذلك حتى قُتل الأفضل سنة ٥١٥هـ.

أرسل الأفضل قائد جيوش العبيديين ابنه شرف المعالي سنة ٤٩٧هـ إلى قتال الصليبيين بجهات مدينة الرملة ودعمه الأعراب هناك فتمكّن من أخذ الرملة، ثم اختلفت عساكر العبيديين مع الأعراب، إذ ادّعى كل طرفٍ أن الفتح كان له، إذ بجهوده وتضحياته كان دخول الرملة، وكان الصليبيون يظهرون عليهم، فرحل شرف المعالي إلى أبيه الأفضل بمصر، فأرسل ولده الآخر وهو سناء الملك حسين في جماعةٍ من الأمراء منهم: جمار الملك نائب العبيديين بعسقلان، وأرسلوا إلى طغتكين أمير دمشق يطلبون منه عسكراً فأرسل إليهم القائد (صباوو) ومعه ألف وثلاثمائة فارسٍ، وكان عسكر العبيديين خمسة آلافٍ وقصدهم بغدوين الصليبي صاحب القدس ويافا وعكا في ألف وثلاثمائة فارس وثمانية آلاف راجلٍ وتمّ اللقاء بينهما بين يافا وعسقلان وقُتل كثير من الطرفين ولم ترجح كفة أحد الفريقين فقد

قُتل ألف ومائتان من المسلمين وقُتل مثلهم من الفرنجة، وكان ممن قُتل أمير عسقلان جمال الملك، ورجع المسلمون إلى عسقلان ورجع (صباوو) إلى دمشق، وكان مع الصليبيين جماعة ممن يحملون اسم الإسلام منهم بكتاش بن تتش، كما أن طغتكين أمير دمشق قد عدل في الملك إلى ولد أخيه دقاق وهو طفل فدعاه ذلك إلى الانحراف والوقوف إلى جانب الصليبيين.

آل زيري:

بعد وفاة المعزّ بن باديس سنة ٤٥٤هـ آل أمر الدولة إلى ولده تميم، وهاجمت مراكب الإفرنج إفريقية، واستولوا على المهدية سنة ٤٨٠هـ، ثم صالحهم على مالٍ أخذوه وانصرفوا.

استنجد بعض أهل صقلية بالنورمانديين فأمدّوهم بقوةٍ تمكّنت أن تحتلّ عدداً من مدن الجزيرة، وأرسل تميم بن المعزّ لأهل صقلية أسطولاً مساعدةً لهم ضدّ النورمانديين فحدث خلاف بين المسلمين في صقلية استغلّه النورمانديون فهاجموا الجزيرة واستطاعوا السيطرة عليها تماماً سنة ٤٨٤هـ، وبذا زال نفوذ المسلمين نهائياً من جزيرة صقلية، وكانت صقلية بيد

المسلمين منذ سبعين ومائتي سنة عندما فتحها أسد بن الفرات سنة ٢١٤هـ، أيام المأمون بن هارون الرشيد.

وخلع عمرو بن المعز بن باديس في قابس طاعة أخيه تميم سنة ٤٨٩هـ فأرسل تميم قوةً إلى قابس أخرجت أخاه عمراً منها.

ودخل تميم بن المعزّ جزيرة جربة وجزر قرقنة، ومدينة تونس سنة ٤٩١هـ، وحدث غلاء شديد في إفريقية في السنة نفسها، وهلك فيه كثير من الناس.

كان «حمو» قد عاد إلى مدينة صفاقس وتغلّب عليها، وقوي أمره بوزير له كان قد قصده وهو من كتّاب المعزّ بن باديس، وكان حسن الرأي والتدبير فاستقامت به دولته وارتفع شأنه، فأرسل إليه تميم يطلبه ليستوزره ووعده وبالغ في استمالته فلم يقبل فسيّر تميم جيشاً إلى مدينة صفاقس، واتهم حمو وزيره بالتعاون مع تميم فقتله فانحل نظام دولته، ودخل تميم المدينة وخرج منها حمو والتجأ إلى بعض حكام المدن وبقي عنده حتى مات.

توفي تميم بن المعز بن باديس في شهر رجب سنة ٥٠١هـ بعد مُلكٍ دام ستاً وأربعين سنةً وعمرٍ قارب الثمانين وخلفه ابنه يحيى، وأحسن السيرة في الرعية.

وكان والياً على المهدية من قبل أبيه تميم منذ سنة ٤٩٧هـ. وأخذ يخطب للعبيديين بعد أن كانت الخطبة للخلفاء العباسيين، وبنى أسطولاً ضخماً غزا به جنوه في إيطالية، وجزيرة سردينيا، وكان أديباً يقول الشعر، ولكن تركه عندما آل إليه الملك، وتوفي يوم عيد الأضحى سنة ٥٠٩هـ، وخلفه ابنه علي، وجرت معارك بينه وبين الأعراب، واشتدّ الخلاف بينه وبين روجر الثاني حاكم صقلية فأعدّ عليّ بن يحيى عدّته ليُهاجم صقلية فعاجلته منيته فتوفي سنة ٥١٥هـ.

وأما بنو حمّاد فقد توفي باديس بن المنصور سنة ٥٠٠هـ وخلفه أخوه العزيز.

المرابطون:

توفي ملك المغرب والأندلس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ وكان رجل دينٍ وعلمٍ، فلما ملك الأندلس جمع الفقهاء وأحسن إليهم، فقالوا له: ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتكون طاعتك واجبةً على الجميع فأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله أمير المؤمنين رسولاً، ومعه هدية، وكتب معه كتاباً يذكر له فيه ما فتح له على يديه من بلاد الإفرنج وما اعتمده من نصرة الإسلام، ويطلب تقليداً بولاية البلاد

فكتب له تقليداً من ديوان الخلافة بما أراد، ولقّبه أمير المسلمين، وسيّر إليه الخلع فسُرّ بذلك سروراً كثيراً، فزاد في إكرام العلماء.

وبعد وفاة يوسف بن تاشفين تولّى بعده ابنه علي، ولم يكن أكبر إخوته، وكان أبوه قد جعله وليّاً للعهد وأخذ البيعة له في قرطبة سنة ٤٩٧هـ، وأوصاه بالإحسان إلى أهل قرطبة، وإلى قبيلة مصمودة، ومهادنة بني هود ملوك سرقسطة.

نازع علي بن يوسف ابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين صاحب فاس، فسار إليه علي ففرّ يحيى من وجهه.

فكّر علي بن يوسف بالقضاء على مقاومة النصارى الإسبان في الشمال وخاصةً الفونس السادس صاحب طليطلة الذي أصبح يُغير على أطراف بلاد المسلمين بعد وفاة يوسف بن تاشفين، فولّى علي أخاه تميماً على غرناطة، وجعله قائد جيش المرابطين في الأندلس، فاستطاع تميم أن ينتصر على الإسبان النصارى انتصاراً كبيراً في معركة «إقليش»[1] التي تعدّ من أكبر المعارك

(١) إقليش: بليدة من أعمال طليطلة.

بعد معركة الزلّاقة وذلك سنة ٥٠٢هـ، وقد قُتل في معركة إقليش ابن الملك الفونس السادس قائد جيش النصارى ومعظم من كان معه من الأمراء ونحو عشرة آلاف من جنده، وعندما وصل خبر معركة إقليش إلى علي بن يوسف في المغرب فرح فرحاً شديداً وقرّر المسير إلى الأندلس والقضاء على شأفة النصارى فيها فاجتاز بحر الزقاق سنة ٥٠٣هـ وسار إلى قرطبة ومنها توجّه للجهاد واستطاع أن يفتح ثمانيةً وعشرين حصناً من حصون النصارى من بينها حصن (مجريط) ومجريط تحمل اليوم اسم (مدريد) عاصمة إسبانية، ثم حاصر طليطلة شهراً كاملاً لكنه لم يتمكّن من دخلوها.

وخرج أمير المسلمين علي بن يوسف للجهاد أيضاً سنة ٥٠٤هـ، واستطاع أن يفتح عدة حصونٍ في غربي الأندلس من بينها إشبونة (لشبونة)، كما هزم نصارى الإسبان هزيمةً منكرةً سنة ٥٠٥هـ وأسر عدداً كبيراً منهم، وحصل على غنائم لا حصر لها، غير أن النصارى قد استطاعوا سنة ٥١٣هـ أن يستولوا على مدينة سرقسطة وأن يدخلوا قلعة أيوب في شرقي الأندلس والتي تعدّ من أقوى القلاع وأحصنها، وربما كان لسقوط هذه القلعة بيد النصارى أثر على ضعف المرابطين.

الصليبيون

إن الحقد النصراني على الإسلام والمسلمين والذي امتدّ عدة قرونٍ بسبب المدّ الإسلامي وانتشار الإسلام على حين تتراجع النصرانية أمام المدّ الإسلامي ويأوي أهلها إلى جحورهم ترتعد فرائصهم في الوقت الذي يقبل الناس من مختلف عقائدهم على الإسلام للحق الذي يدعو إليه والعدل الذي يسعى له والطريق السليم الذي ينادي به والمنهج السويّ الذي يُطبّقه، واستمرّ هذا الحقد النصراني عدة قرونٍ بسبب الانتصارات الإسلامية على النصرانية وانتزاع أجزاء واسعةً من أملاك النصرانية في بلاد الشام وشمالي إفريقية وأجزاء من الأناضول، وقد كان هذا الحقد يتأجّج مع كل انتصارٍ يُحقّقه الإسلام، ولما كانت النصرانية وأتباعها عاجزةً عن القيام بردّ فعلٍ لذا كانت تنتظر حتى تمرّ موجة الفتوة الإسلامية، وهذا ما كانت تأمله وتحلم به.

ضعف أمر المسلمين نسبياً عندما سيطرت مجموعة عسكرية على شؤون الخلافة الإسلامية في القرن الثالث الهجري وأخذت تفرض هيمنتها على رجال السلطة وعندما طغت مصالح الدنيا ورغباتها على

كثيرٍ من النفوس حتى أن ابن الخليفة المتوكل اتفق مع العسكريين على قتل أبيه الخليفة طمعاً في استلام الخلافة مكانه وقد كان ذلك ولكن لم يستطع فعل شيء إذ كان مُكبّلاً من كل ناحيةٍ، ومن سلّمه السلطة وضع ثقله عليه وأخذ سلاحه وخلع أنيابه وقلّم أظفاره فصار تابعاً مطيعاً بعد أن كان من قبله متبوعاً مطاعاً، وعندما اتجه كثير من أبناء المجتمع إلى دنياهم يغبّون من مناهلها وينهلون من ينابيعها وينعمون بظلالها ويسعون وراء شهواتهم ويُسرعون وراء مصالحهم يتزلّفون لا يبالون ويقطفون من ثمارها فكهين لا ينظرون إلى مصالح أمتهم لأنهم مشغولون عنها ولا يُفكّرون بأُخراهم، ودنياهم قد أعمتهم فهم وراء مصالحهم وشهواتهم يلهثون، وعندما سها الناس عن فكرة الجهاد فسقطت رايته فاشرأبت أعناق الأعداء وظنّوا أن المسلمين قد سهوا عن أساس عزيمتهم وسبب رفع معنوياتهم وأسّ قوتهم ألا وهو الجهاد، صحيح قد حدث هذا ولكن عند فريق فقط أما الآخرون فإن الجهاد لا يزال ركيزتهم الأولى في القتال فإذا ساروا إلى الحرب والتقوا بالخصم اشتاقوا إلى الجنة وتماثلت أمام ناظريهم فحُبّبت لهم الشهادة فانطلقوا يطلبونها وهانت عندهم الدنيا فخلّفوها وراءهم وتقدّموا إلى الأعداء

بعزيمةٍ قويةٍ وقوّةٍ شديدةٍ فلا يقف أمامهم الأعداء بل يُولّون الأدبار لأنهم يحبّون الحياة كما يحبّ المسلمون الصادقون الشهادة والموت في سبيل الله ومن يرد من الأعداء أن يُظهر الشجاعة ويُبدي البطولة ويريد أن يبرز ويُعرف بين قومه فيثبت قليلاً ويتظاهر بالجرأة فتناوشه رماح المسلمين وتُقطّعه سيوفهم، وتدوسه أقدامهم، ويمرون عليه كأنه لم يكن أو كأنه لم يكن سوى حشرةٍ صغيرةٍ وفي أحسن الأحوال لم يكن سوى قزمٍ حقيرٍ.
هذا ما كان يجري في جهاد المسلمين لأعدائهم وهذا ما عرفه أعداؤهم خلال معاركهم كلها مع المسلمين مدة قرنين من الزمن، لذا كان الأعداء يحرصون الحرص كله ألا ينفر المسلمون للجهاد ولا يرفعون رايته أبداً وكان عليهم ليتحقق ذلك ألا يسيروا إليهم بجيوشٍ جرارةٍ تستنهض همّتهم، وألا يمسّوا مقدّساتهم بسوءٍ فيثيروا عاطفتهم فترتفع راية الجهاد، وألا يخدشوا كرامتهم فتتحرك نخوتهم فيهبّ المسلمون للجهاد، ومعروف ذلك الاعتداء على امرأةٍ أثناء الغارة على ثغر «زبطرة» فصاحت تلك المرأة: وا معتصماه، ووصلت الأنباء إلى الخليفة المعتصم فلامس ذلك نخوته فصاح لبيكِ ولامس صياحه وصياحها نخوة الناس فهبّوا بقيادة خليفتهم وانطلقوا في ديار الروم فدخلوا مسافة ستمائة

كيلو متر فاتحين مجاهدين فدخلوا أنقرة وساروا منها إلى عمورية ففتحوها عنوةً وكان يوماً مشهوداً.

فبين أيامك اللاتي نُصرت بها

وبين أيام بدرٍ أقرب النسب

فكان الروم يقومون بحروبٍ جانبيةٍ لا تستنهض همة المسلمين فينطلقون مجاهدين، أو يشنّ الروم غارات على الثغور الإسلامية ثم يتراجعون، وما كان هدفهم من تلك الحروب أو الغارات سوى إثبات الوجود كي لا يستهين بهم المسلمون كلّياً ويدخلون بلادهم، إذ يعرف الروم تماماً وغيرهم من أعداء المسلمين أنهم لا يمكنهم الثبات أمام المسلمين إذا ما هبّوا مجاهدين، فالجهاد طلب للشهادة في سبيل الله فلا يقف أمامه جيش ولا يعمل به سلاح، وهذا ما ثبت للأعداء وتأكّدوا منه لذا فهم يخافونه مدى الدهر، فإذا ما ارتفعت رايته نُكِّست رايات أعدائه وهبطت معنوياتهم وحقّق المسلمون أهدافهم ونالوا مبتغاهم، لذا يعمل أعداء الإسلام بإمكاناتهم كلها لإماتة هذه الفكرة.

وانتظر الأعداء الروم ليزداد المسلمون ضعفاً وليكونوا عن الجهاد أكثر بُعداً، وفجأةً أحسَّ امبراطور الروم بالسعادة وانتقل الأمر إلى أعوانه إذ بلغتهم

الأخبار أن المتلوّنين قد سيطروا على شؤون خلافة المسلمين وأخذت معاولهم تهدم من الداخل رغم وجود شعار المسلمين على تلك المعاول، ونُطق أصحاب تلك المعاول بالشهادة وتكرارها للتعمية وفشا ذلك في مختلف ديار الإسلام وإن اختلف نُطق الشهادة وتباينت المعاول وتباينت معها المصالح وعقائد أصحابها فالبويهيون والسامانيون والقرامطة من حارةٍ واحدةٍ والعبيديون من حارةٍ أخرى بعيدةٍ ولكن الهدف واحد وهو إشغال معاول الهدم لغرضين اثنين هما: إضعاف الأمة بإحداث الفتنة وإيقاع الخلافة وإيجاد الفرقة أما الغرض الثاني فهو دسّ أفكارٍ غريبةٍ في المبدأ وادّعاء أمورٍ منكرةٍ لإحداث البلبلة وإيقاع الفتن والابتعاد عن النهج القويم وإذا حدث الابتعاد ضاعت المقومات وفُقدت الأصول ـ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ. وكان هناك الحمدانيون من حيّ قريبٍ غير أنهم يحملون البوق فينفخون فيه وراء مصالحهم ويرفعون المزمار مُدّعين الموافقة والتبعية ويضربون على الطبل يزعمون أن هناك أصحاب حقٍ وهم يدعون إليهم و.......

وفرح الأعداء من الروم النصارى بما يجري

وكانوا ينتظرون المزيد ويحلمون بضعف الأمة الإسلامية الضعف المُزيل ويحلمون بما يصنعون هم، غير أن أحلامهم قد بدأت تتبدّد وآمالهم أخذت الريح تعصف بها فتجعلها أوهاماً إذ زال الحمدانيون وذهب السامانيون، وأخذت نظرات الكراهية والبغض تغمر القرامطة لإفسادهم الواسع وكذب ادّعائهم وضلالاتهم، وكذلك فإن العبيديين قد بدأ الضعف يسري فيهم بعد أن وضح ضلالهم وظهر كذب نسبهم الذي يدّعونه، وشاع خبر أصول أرومتهم فكرههم الناس ومن استطاع التخلّص منهم والبعد عنهم لم يتوان أبداً، كما أن البويهيين قد بدأ الضعف ينخر فيهم لخلافاتهم فيما بينهم وللفتن التي تُثار وهم خلفها والتي تقع بين السنة والشيعة وقد كانوا بجانب فريق ويدّعون أنهم يؤيّدونهم والواقع أنهم كانوا يدعمون الفئة الأقل قوةً لتكون الفتنة أكبر والقتلى أكثر وهذا ما يريدون والحقيقة لا يريدون فريقاً بل يستغلّونه عاطفةً وبُعدهم عنه قريب من بُعدهم عن الفريق الثاني.

ومع كل ما حدث فقد بقي النصارى الروم على أمل أن يزداد ضعف الأمة الإسلامية بزيادة الفتن التي تقع وبزيادة الخلاف الذي لا ينقطع، وينتظرون وقوع

أحداثٍ تنشرح لها صدورهم، وقد خيّب الله آمالهم إذ زال البويهيون من المتلونين وجاء بعدهم السلاجقة.

كان السلاجقة مسلمين ومن مجموعة عسكريين ولكن لم يكونوا لينحازوا إلى فئةٍ مسلمةٍ دون أخرى، كما لم يدّعوا دعوتهم لأسرةٍ معينةٍ وفي الوقت نفسه لم يعملوا على إثارة الفتن وبثّ الخلافات إذ لم يكن همّهم الهدم بل إعزاز الأمة وبناء مجدها والدعوة إلى الإسلام، ورفع راية الجهاد لذا اجتمع الناس حولهم وعملوا على تأييدهم ودعمهم، وأعلنوا سيرهم للجهاد في بلاد الروم، وهذا ما أثار الروم ورأوا أن يعاجلوا الأمور، فجمع ملك الروم أرمانوس ما استطاع جمعه من الروم والفرنجة والصرب والروس والأرمن والبوشناق وسار بمائتي ألف مقاتلٍ إلى ديار الإسلام بعد أن قسّم ديار الإسلام إلى أقسامٍ وأقطعها إلى كبار البطارقة ومنح الأمراء الأموال الجزيلة ليعطوا جندهم منها، ووعد بالأعطيات الوفيرة لمن يُبدي شجاعة ويُقدّم براعةً.

خرج الامبراطور أرمانوس على رأس جنده من القسطنطينية سنة ٤٦٣هـ متجهاً نحو الشرق، فوصل الخبر إلى السلطان ألب أرسلان أمير السلاجقة وهو في

أذربيجان وقد عاد من حلب فهو غير مستعدٍ للقتال بل لم يكن يُفكّر به، ولا يستطيع أن يجمع الجند لقرب العدو منه ولبعده عن مقرّ حكمه، فسار بمن معه، وهم خمسة عشر ألفاً، للقاء العدو متوكلاً على الله، وقال: إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي، وجدّ بالسير، وأرسل مقدمته أمامه فالتقت عند مدينة (خلاط) بمقدمة الروس، وكان عددهم عشرة آلاف فهُزم الروس، بإذن الله، وأُسر قائدهم.

واقترب الجمعان بعضهم من بعض، وأرسل السلطان ألب أرسلان إلى ملك الروم أرمانوس يطلب منه الهدنة فقد خافه لكثرة من معه، إذ يعادل جنود ملك الروم خمسة عشر أمثال المسلمين، غير أن ملك الروم قد أخذته العزّة بالإثم، وظنّ أن الفرصة قد حانت للقضاء على هذه الجماعة فيجب استغلالها قبل أن تقوى، فقال: لا هدنة إلا في الريّ (طهران اليوم)، فتأثّر السلطان من هذا الردّ المتغطرس، فاستشار إمام جنده أبا نصر محمد بن عبد الملك البخاريّ، فأجابه: إنك تقاتل عن دينٍ وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك

هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الوقت الذي يكون فيه الخطباء على المنابر، فإنهم يدعون للمجاهدين، والدعاء مقرون بالإجابة.

جاء يوم الجمعة، وحان وقت الزوال، فصلّى أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاريّ بالناس، فبكى السلطان ألب أرسلان وبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه بعد الصلاة، وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف فما هاهنا سلطان يأمر وينهى، وإنما جهاد ورغبة في لقاء الله، ثم ألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف، ولبس البياض، وتحنّط، وقال: إن قُتلت فهذا كفني وزحف إلى الروم، وزحفوا إليه، فلما اقترب منهم ترجل، ومرّغ وجهه بالتراب، وبكى، وأكثر من الدعاء وطلب النصر من الله، ثم ركب وحمل على الروم، وحمل المسلمون حتى وصلوا إلى وسط الروم، وحجز الغبار بينهم، وما هي إلا جولة حتى انتصر المسلمون ـ بإذن الله ـ وهُزم الروم، ومنحوا المسلمين أكتافهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً حتى امتلأت الأرض بالجثث، وقُدّر عدد القتلى بمائةٍ وخمسين ألفاً، أي أن كل مسلم قد قتل عشرةً من الروم، ووقع ملك الروم أرمانوس وبطارقته جميعاً أسرى بأيدي المسلمين، وحُمل

أرمانوس إلى السلطان ألب أرسلان، فلما وقف بين يديه ضربه بيده ثلاث مقارع.

ومن الناحية الثانية في غربي ديار الإسلام في بلاد الأندلس فبعد أن نصر الله المسلمين على النصارى في تلك البلاد، وفتحوا الأندلس، وعاشوا في أمنٍ وجاءهم نعيم الدنيا غبّ بعضهم منه بنهمٍ ونهلوا منه بشغفٍ فانصرفوا إلى دنياهم ونسوا مُهمّتهم بالحياة، وانطلق بعضهم وراء أطماعهم فوقع الخلاف نتيجة تضارب المصالح وانقسمت البلاد إلى ممالك وإماراتٍ، وكان المجتمع فئات وطوائف وكان ذاك عصر ملوك الطوائف، وطمع النصارى الإسبان بشنّ حربٍ على المسلمين هناك والانتصار عليهم وطردهم من الأندلس، وأخذت إمارات وممالك نصارى الإسبان تلتقي بعضها مع بعضٍ وتشنّ غاراتٍ وحروباً على الإمارات المسلمة بل إن هذه الإمارات كثيراً ما كانت في صراعٍ فيما بينها وأحياناً يستنجد بعضها بأعدائها لقتال إخوانها وهذا ما زاد في طمع نصارى الإسبان بشنّ حربٍ كاسحةٍ على المسلمين في الأندلس.

في هذا الوقت ظهرت دولة المرابطين في المغرب وأعلنت الجهاد ضد الكفار وأخذت تدعو إلى الإسلام

في بلاد السودان الغربي، وقد حقّقت نجاحاً ظاهراً. فرأى بعض الأمراء المسلمين في الأندلس الاستعانة بالمرابطين للوقوف بوجه النصارى الإسبان وصدّ غاراتهم والحدّ من أطماعهم بل وإعلان الجهاد عليهم، وأُرسل وفد من مسلمي الأندلس إلى أمير دولة المرابطين يوسف بن تاشفين ودعاه إلى مساعدة إخوانهم والجهاد في بلاد أعدائهم، فلبّى ابن تاشفين الدعوة وعبر بحر الزقاق، وانتقل إلى الأندلس معلناً الجهاد، والتقى مع النصارى الإسبان في معركة الزلّاقة بالقرب من مدينة بطليوس سنة ٤٧٩هـ وكان المرابطون في صلاة الجمعة عندما بدأ الهجوم النصراني فما أن انتهى المرابطون من صلاتهم حتى حملوا على الإسبان النصارى وبدؤوا فيهم قتلاً حتى قيل إنهم قد أفنوهم عن آخرهم، واستولى المسلمون على كل ما كان مع النصارى، وقد آثر يوسف بن تاشفين بهذه الغنائم من انضمّ إليه من ملوك الأندلس لذا فقد أحبّوه كما أحبّه الشعب. أما ملك نصارى الإسبان الفونس السادس فقد نجا من المعركة إذ فرّ منها.

عمّ الخوف الدول النصرانية في الشرق والغرب كما ساد الذعر شعوبها عندما انتشرت أخبار معركة

ملاذكرد في الشرق بقيادة السلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٣هـ وكذلك عندما شاعت أنباء معركة الزلّاقة في الأندلس بقيادة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٩هـ، وكذلك الانتصارات الإسلامية التي تلتها إذ خافت النصرانية من عودة الروح من جديدٍ لتدبّ في المسلمين ولترتفع راية الجهاد فترتفع معنوياتهم وتتسع ديارهم وترفدهم مجموعات محاربة جديدة تدخل في الإسلام مثل: السلاجقة والمرابطين، وخاصةً بعد تدفّق السلاجقة في بلاد الأناضول، وهذا ما يجعل النصرانية تفقد أراضي جديدةً يفتحها المسلمون وشعوباً كثيرةً تعتنق الإسلام بعد أن تعرف مبادئه عن قُرب، لذا خطر في بال كبار رجال النصرانية أن يقوموا برد فعلٍ سريعٍ قبل أن تعود روح الإسلام لأبنائها من جديدٍ وترتفع راية الجهاد، وقد شجّعهم على ذلك:

١" ـ الخوف من عودة القوة إلى المسلمين بعد الانتصارات التي أحرزوها في ملاذكرد والزلّاقة، والانتصارات التي تلتها.

٢" ـ دخول عناصر متبربرةٍ محاربةٍ جديدةٍ في النصرانية، هي القبائل التي كانت تنتقل في أوربا، وهذا ما أدّى إلى ظهور روحٍ حربية جديدةٍ تدعم النصرانية،

ومن هذه المجموعات: الجرمانية والمجرية، وإن دخول المجر في النصرانية قد جعل الشعوب النصرانية على اتصالٍ بعضها مع بعضٍ من الغرب إلى الروم في آسيا الصغرى.

٣" ـ الانتصارات التي حققتها الإمارات الإيطالية إذ تغلّبت على بعض أمراء البحر المسلمين الذين كانوا يعيقون عمل السفن الإيطالية في البحر المتوسط إن لم تستجب لمطالبهم، فكانت هذه الإمارات الإيطالية ترغب في مدّ نفوذها التجاريّ في البلاد المطلة على البحر المتوسط، وبانتصارها على البّحارة المسلمين زاد في رغبتها بل في محاولة إظهار قوتها ومدّ نفوذها إذ غدت لها قوة في البحر المتوسط تستطيع أن تستفيد منها في نقل جنودها وتحرّك سفنها في هذا البحر، ومن الانتصارات التي شجّعت النصرانية أيضاً احتلال النورمانديين لجنوبي إيطالية وجزيرة صقلية وطرد المسلمين منها سنة ٤٨٤هـ.

٤" ـ الضعف الذي أصاب السلاجقة الذين يسيطرون على الخلافة وذلك بعد موت السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان سنة ٤٨٥هـ إذ وقع الخلاف بين رجالهم واقتتلوا على ملك الأقاليم، فأحبت النصرانية

أن تستغلّ هذه الفرصة قبل الوفاق والعودة إلى القوة ثانيةً، وخاصةً أن العبيديين الذين هُزموا أمام السلاجقة وتخلّوا عن بيت المقدس سنة ٤٧١هـ، ورأوا زيادة قوة السلاجقة خصومهم في العقيدة أيضاً لذا فقد استنجدوا ببعض أمراء أوربا لدعمهم ضد السلاجقة.

٥" ـ النفوذ الذي حصل عليه البابا إيربان الثاني الذي اختير بابا للكاثوليك سنة ٤٨١هـ إذ أصبح السيد المطاع بين الشعوب النصرانية بل وبين الأمراء وهذا ما يجعله بمكانةٍ يمكن أن يستغلّها لدى النصارى جميعاً ويدعوهم لحربٍ صليبيةٍ عسى أن ترتفع معنوياتهم بما يقابل الجهاد لدى المسلمين ـ حسب ظنّهم ـ فدعا إلى اجتماعٍ لرجال الدين النصارى سنة ٤٨٩هـ في «كليرمونت» بفرنسا، ودعا إلى حربٍ صليبيةٍ، ونادى الأمراء لترك الخلافات القائمة بينهم، وقدّم لهم الصليب، وادّعى أن السلاجقة يضايقون الحجاج النصارى الذين يريدون زيارة بيت المقدس، وجعل هذا الادعاء المبّرر لهذه الحرب التي يدعو لها والسبب الأساسي في مطالبة النصارى باحتلال بيت المقدس، وساهم بهذه الدعوة بطرس الناسك، وسار بجموع المتطوعين وسبق جيوش الأمراء النصارى النظامية،

ولما كان هؤلاء المتطوعون يسيرون دون نظامٍ، لذا فقد سبّبوا الفوضى والدمار بكل المناطق التي مرّوا عليها حتى النصرانية منها وحتى شكا منهم امبراطور القسطنطينية. وعندما وصلوا إلى بلاد المسلمين صبّوا جام حقدهم فأهلكوا الزرع والضرع وأحرقوا الأخضر واليابس، وعاثوا في الأرض الفساد فقتلوا ومثّلوا وتفنّنوا فيما يفعلون وانتهكوا من الحرمات ما شاء لهم أن يفعلوا ذلك وتصدّى لهم السلاجقة فالتقوا بهم في «نيقية»[1] سنة ٤٨٩هـ فأفنوهم عن بكرة أبيهم وأراحوا المسلمين بل العالم من شرّهم.

في هذه الأثناء كانت جيوش الأمراء النظامية تتحرك نحو القسطنطينية، وقد أمر البابا أن تجتمع خارج أسوار مدينة القسطنطينية، ولم تكن هذه الجيوش أقلّ حقداً من الأولى ولا أقلّ فساداً ودماراً، كما لم يكن لها قائد واحد يُنظّمها ويُصدر أوامره لها جميعاً بل كان لها عدد من القادة أغلبهم من فرنسا، ولم يكن لهؤلاء القادة خطة واحدة بل الأمر فوضى، ولم يشترك ملوك أوربا جميعاً في هذه الحملة لأن ملوك نصارى الأندلس

---

(١) نيقية: بلدة إلى الجنوب الشرقي من القسطنطينية وعلى بُعد ١٨٠ كيلاً منها.

كانوا مشغولين بقتال المسلمين هناك، ولأن ملك فرنسا فيليب الأول وملك ألمانيا هنري الرابع كانا مطرودين من رحمة الكنيسة ـ حسب اعتقادهم ـ.

بلغ عدد المشتركين النصارى في هذه الحملة التي عُرفت باسم «الحملة الصليبية الأولى» أكثر من مليون إنسانٍ، غير أن عدد المقاتلين لم يزد فيها على ثلاثمائة ألف مقاتلٍ والباقي إنما هم من المرافقين من الرجال والنساء.

وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى أبواب القسطنطينية وخاف إمبراطورها منهم فاتفق مع بعض القادة على أن يمدّهم بالمؤن والذخائر على أن لا يدخلوا المدينة وأن يردّوا إليه ما يستولون عليه من أملاكه، فاجتازوا البوسفور، ووصلوا إلى نيقية فحاصروها، ونقل أميرها قليج أرسلان مقره إلى قونية، واتفق مع الامبراطور على أن يدخل جنده (جند الإمبراطور) دون القادمين من أوربا وبهذا غضب الصليبيون الأوربيون لأن الامبراطور بهذا التصرّف لم يسمح لهم بنهب المدينة. وسار الامبراطور مع الصليبيين القادمين نحو نيقية فهو بهذا قد دعمهم بقوته كلها.

حصل خلاف بين الصليبيين القادمين من أوربا

وبين الصليبيين البيزنطيين إذ وجد الامبراطور أنه لا يستطيع التفاهم مع هؤلاء القادمين فانصرف لأخذ آسيا الصغرى من السلاجقة فاتجه إلى الغرب ودخل أزمير وأفسوس وأخذهما من أمراء السلاجقة فيهما لانقطاعهم عن دولة السلاجقة، ولم يعد يدعم الصليبيين بل حرص أن يضمّ له ما أخذوه هم، ولكن كان دعمه لهم بقتال المسلمين بجهاتٍ ثانيةٍ، ولكنه بعد مدةٍ عاد لتقديم الدعم لهم.

اختلف القادة الصليبيون بعضهم مع بعضٍ فاتجه بعضهم إلى مدينة الرها تلبيةً لدعوة أميرها فدخلها وأسس بها إمارةً نصرانيةً لاتينيةً، وكان يطمع بتأسيس دولةٍ صليبيةٍ في أرمينية وقد دعمه في الأمر الأرمن، وسار بقية القادة إلى أنطاكية فألقوا الحصار عليها ودخلوها عنوةً سنة ٤٩١هـ بعد حصار دام سبعة أشهرٍ وقتلوا من أهلها أكثر من عشرة آلاف إنسانٍ ومثّلوا بالقتلى وبالناس وارتكبوا أبشع الجرائم، وولّوا عليها أحدهم، وقد استقبل النصارى من أهلها والأرمن الصليبيين بكل ترحابٍ، ثم اتجه الصليبيون بعد ذلك نحو بيت المقدس، فسار لقتالهم كربوقا صاحب الموصل، وصاحب دمشق دقاق، وصاحب حمص

جناح الدولة غير أن الصليبيين قد انتصروا عليهم، ودخلوا معرة النعمان ووصلوا إلى بيت المقدس ودخلوها سنة ٤٩٢هـ فقتلوا من أهلها أكثر من سبعين ألفاً، وخاضت خيولهم ببحر من الدماء، وانتخب غودفري ملكاً على بيت المقدس، وأخذ لقب حامي قبر المسيح. وكان العبيديون في مصر قد استغلّوا تقدّم الصليبيين من الشمال فتقدّموا هم من الجنوب، ودخلوا القدس وطردوا السلاجقة منها (قبل وصول الصليبيين إليها) وجرت مفاوضات بين قائد الجيوش العبيدية الأفضل بن بدر الجمالي وبين الصليبيين على أن يكون شمالي بلاد الشام للصليبيين وجنوبيها للعبيديين ثم نقض الصليبيون العهد عندما شعروا بالنصر.

كان بردويل كبير الصليبيين نسيب روجر النورماندي الذي ملك صقلية، فبعد أن جمع بردويل جمعاً كثيراً من الصليبيين كتب إلى نسيبه روجر يقول له: قد جمعت جمعاً كثيراً وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية أحتلّها وأكون مجاوراً لك. فجمع روجر أصحابه واستشارهم في ذلك، فقالوا: وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم، وتصبح البلاد بلاداً نصرانيةً. فرفع رجله وحبق حبقةً عظيمةً، وقال: وحق

ديني هذا خير من كلامكم، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: إن وصلوا إليّ أحتاج إلى كلفةٍ كثيرةٍ ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من عندي أيضاً، فإن احتلّوا البلاد كانت لهم، وصارت المؤونة لهم من صقلية، وينقطع عني ما يصل من المال من ثمن الغلّات كل سنةٍ، وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وتأذّيت بهم، ويقول تميم: غدرت بي ونقضت عهدي وينقطع الاتصال والأسفار بيننا، وبلاد إفريقية باقية لنا متى وجدنا قوةً أخذناها. وأحضر رسوله، وقال له: إذا عزمتم على قتال المسلمين فأفضل ذلك الاستيلاء على بيت المقدس، تُخلّصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر، فأما إفريقية فبيني وبين أهلها عهود وأيمان، فتجهّزوا وخرجوا إلى الشام.

لما حاصر الصليبيون أنطاكية أبدى صاحبها باغيسيان شجاعةً وحزماً ورأياً سديداً لم يُعهد من غيره، وكان قد خاف من النصارى الذين فيها فأخرجهم منها بحيلةٍ، ذلك أنه لما سمع بتوجّه الصليبيين نحو مدينته أخرج المسلمين وحدهم لحفر خندقٍ حول المدينة فلما كان الغد أخرج النصارى للعمل في الخندق وليس معهم مسلم فعملوا للعصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم،

وقال لهم: أنطاكية لكم تهبوها لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الإفرنج، فقالوا: من يحفظ أبناءنا ونساءنا؟ فقال: أنا أخلفكم فيها، فأمسكوا وأقاموا في معسكر الصليبيين، فحاصروا أنطاكية سبعة أشهرٍ فهلك كثير من الصليبيين، وحفظ باغيسيان أهل نصارى أنطاكية الذين أخرجهم. فلما طال مقام الصليبيين على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين للأبراج وهو «زراد» ويُعرف بـ «روزيه» وبذلوا له مالاً وإقطاعاً، وكان يتولّى حفظ برجٍ يلي الوادي، وهو مبني على شباكٍ في الوادي، فلما تقرّر الأمر بينهم وبين هذا الزراد جاءوا إلى الشباك ففتحوه ودخلوا منه وصعد جماعة كثيرة بالحبال فلما زادت عدتهم على خمسمائةٍ ضربوا البوق وذلك عند السحر، وقد تعب الناس من كثرة السهر والحراسة فاستيقظ باغيسيان فسأل عن الحال فقيل له: إن هذا البوق من القلعة ولا شك أنها قد مُلكت، ولم يكن من القلعة وإنما من ذلك البرج فدخله الرعب وفتح باب البلد وخرج هارباً في ثلاثين غلاماً هائماً على وجهه فجاء نائبه في حفظ البلد فسأل عنه، فقيل له: إنه هرب، فخرج من بابٍ آخر هارباً وكان ذلك معونةً للصليبيين ولو ثبت ساعةً لهلكوا، ثم إن الصليبيين دخلوا البلد من الباب ونهبوه وقتلوا من فيه من المسلمين وذلك في شهر

جمادى الأولى سنة ٤٩١هـ. وأما باغيسيان فإنه لما طلع عليه النهار رجع إليه عقله وكان كالولهان فرأى نفسه وقد قطع عدة فراسخ، فقال لمن معه: أين أنا؟ فقيل له: على أربعة فراسخ من أنطاكية فندم كيف خلص سالماً ولم يقاتل حتى يزيلهم عن البلد أو يُقتل وجعل يتلهّف ويسترجع على ترك أهله وأولاده والمسلمين فلشدة ما لحقه سقط عن فرسه مغشياً عليه، فلما سقط إلى الأرض أراد أصحابه أن يركبوه فلم يكن بالإمكان إذ أشرف على الموت فتركوه وساروا عنه، ومرّ به إنسان أرمني كان يقطع الحطب وهو بآخر رمقٍ فقتله وأخذ رأسه وحمله إلى الصليبيين في أنطاكية. وكان الصليبيون قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم من قريبٍ ولا نطلب سواها مكراً منهم وخديعةً حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية[1].

لما سمع قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل بوضع الصليبيين واستيلائهم على أنطاكية جمع العسكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

الشام من عربٍ وتركٍ سوى من كان بحلب فاجتمع معه دقاق بن تتش[1] وطغتكين من دمشق، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان بن تاش صاحب سنجار وسليمان بن أرتق وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم، فلما سمع الصليبيون بذلك عظمت المصيبة

---

(١) دقاق بن تتش: صاحب دمشق، شمس الملوك، أبو نصر دقاق بن السلطان تاج الدولة تتش بن السلطان ألب أرسلان السلجوقي التركي، تملّك بعد مقتل أبيه سنة ٤٨٧هـ، كان في حلب فطلبه خادم أبيه ونائب قلعة دمشق سرّاً من أخيه رضوان صاحب حلب، فبادر دقاق وسار إلى دمشق وملكها، ثم أشار عليه زوج أمه طغتكين الأتابك [الأتابك: مؤلفة من كلمتين هما: الأتا ومعناهما الأب و بك ومعناها الأمير] بقتل خادمه «ساوتكين» فقتله، ثم أقبل رضوان أخو دقاق فحاصر دمشق ولكن لم يستطع دخولها فرحل عنها، واستقلّ دقاق، ثم أصابه مرض، وأخيراً توفي في ١٨ رمضان سنة ٤٩٧هـ، فكانت إمارته عشر سنواتٍ.

وعمد الأتابك طُغتكين، فأقام باسم الملك طفلاً لدقاق بعد أن أحضر من سجن قلعة بعلبك أخاً لدقاق اسمه أرتاش، وجعله سلطاناً، ولكن بعد ثلاثة أشهرٍ ارتاب أرتاش من الأتابك طُغتكين ففرّ إلى صاحب القدس بغدوين الصليبي، فما أعانه فتوجه إلى الرحبة على نهر الفرات فجاءه الأجل. فعمد الأتابك طغتكين إلى الطفل المذكور فنصّبه سلطاناً مدةً، ثم تملك هو وامتدت أيامه. وكان قد وزر لدقاق أبو القاسم الحسن بن علي الخوارزمي.

عليهم، وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلّة الأقوات عندهم، وسار المسلمون إليهم فنازلوهم على أنطاكية وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين، وأغضب الأمراء وترفّع عليهم ظنّاً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال فأغضبهم ذلك، وأضمروا له في أنفسهم الغدر، وعزموا على تسليمه عند الجد، وأقام الصليبيون بأنطاكية بعد أن دخلوها اثني عشر يوماً ليس عندهم ما يأكلونه، وتقوّت الأغنياء بدوابهم والضعفاء بالميتة وورق الشجر، فلما رأوا ذلك أرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم ما طلبوا، وقال: لا تخرجوا إلا بالسيف، وكان معهم من الملوك بردويل، وصنجيل، وغودفري، والقمص صاحب الرها، وبيمنت صاحب أنطاكية وهو المقدم عليهم، وكان معهم راهب مطاع فيهم، وكان داهيةً من الرجال، فقال لهم: إن المسيح، عليه السلام، كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقّق، وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيامٍ، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم، وحفروا في الأماكن جميعها فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: أبشروا

بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسةٍ وستةٍ ونحو ذلك، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن نقف على الباب فنقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن وهم متفرّقون سهل، فقال: لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يكن من معاجلتهم فائدة، فقتل قوم من المسلمين جماعةً من الخارجين فجاء إليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم، فلما تكامل خروج الصليبيين ولم يبق بانطاكية أحد منهم اجتمعوا واصطفوا للقتال وكان مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين كما عاملهم به كربوقا أولاً من الاستهانة لهم والإعراض عنهم، وثانياً من منعهم عن قتل الصليبيين، وتمّت الهزيمة عليهم ولم يضرب أحد منهم بسيفٍ ولا طعن برمحٍ ولا رمى بسهمٍ وآخر من انهزم سقمان بن أرتق وجناح الدولة لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم، فلما رأى الصليبيون ذلك ظنّوه مكيدةً إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبةً وطلباً للشهادة فقتل الصليبيون منهم ألوفاً، وغنموا ما مع العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم[1].

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

لما فعل الصليبيون ما فعلوا بالمسلمين في أنطاكية ساروا بعد ذلك إلى مدينة معرة النعمان فحاصروها وقاتلهم أهلها قتالاً شديداً، ورأى الصليبيون منهم شدةً ونكايةً ولقوا منهم الجدّ في حربهم والاجتهاد في قتالهم فعملوا عند ذلك برجاً من خشبٍ يوازي سور المدينة ووقع القتال عليه فلم يضرّ المسلمين ذلك فلما كان الليل خاف قومٍ من المسلمين وداخلهم الفشل والهلع وظنّوا أنهم إذا تحصّنوا ببعض الدور الكبيرة امتنعوا بها فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه فرآهم طائفة أخرى ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضاً من السور ولم تزل تتبع طائفة التي تليها في النزول حتى خلا السور فصعد الصليبيون إليه على السلالم فلما علوه تحيّر المسلمون، ودخلوا دورهم فوضع الصليبيون فيهم السيف ثلاثة أيامٍ فقتلوا ما يزيد على مائة ألفٍ وسبوا السبي الكثير، وملكوا البلد، وأقاموا أربعين يوماً وساروا إلى عرقة فحاصروها أربعة أشهرٍ ونقبوا في سورها عدة فتحاتٍ فلم يقدروا عليها، وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها، وساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة، وخرجوا إلى عكا فامتنعت عليهم[1].

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني[1] فلما ظفر الصليبيون بالأتراك في أنطاكية وقتلوا فيهم ضعفوا وتفرقوا فلما رأى العبيديون في مصر ضعف الأتراك ساروا إلى بيت المقدس بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي وحاصروه وبه الأمير سقمان وإيلغازي[2] ابنا أرتق وابن

---

(١) سقمان بن أرتق بن أكسب التركماني، الملك، وأخو الملك إيلغازي: وليا إمرة القدس بعد أبيهما الأمير أرتق فضايقهما أمير الجيوش العبيدي الأفضل بن بدر الجمالي، فأخذ بيت المقدس منهما قبل أخذ الصليبيين له بأشهرٍ، فذهبا واستوليا على ديار بكر، ومات سقمان قرب طرابلس سنة ٤٩٨هـ.
استنجد صاحب طرابلس فخر الملك بن عمار بسقمان ليدعمه ضد الصليبيين، وإن صاحب دمشق مرض وهمّ بتسليم دمشق إليه، فسار إليها ليملكها ثم يغزو الصليبيين، فمات ودفن بحصن كيفا (بلدة وقلعة مشرفة على نهر دجلة بين جزيرة ابن عمر وآمد من ديار بكر.

(٢) إيلغازي: الملك نجم الدين بن الأمير أرتق بن أكسب التركماني، صاحب ماردين، كان هو وأخوه الأمير سقمان من أمراء تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان صاحب الشام فأقطعهما القدس، ثم استولى إيلغازي على ماردين. وكان ذا شجاعةٍ ورأيٍ وهيبةٍ وصيتٍ، حارب الصليبيين غير مرةٍ، وأخذ حلب بعد أولاد رضوان بن تتش، واستولى على ميافارقين وغيرها قبل موته بسنةٍ، ثم سار منجداً لأهل تفليس هو وزوج ابنته ملك العرب دبيس الأسدي، وتوفي إيلغازي في شهر رمضان سنة ٥١٦هـ، وتزوج بنت صاحب دمشق طُغتكين.

عمهما سونج وابن أخيهما ياقوت، ونصب العبيديون على بيت المقدس نيفاً وأربعين منجنيقاً فهدموا مواضع من سوره وقاتلهم أهل البلد ودام القتال والحصار نيفاً وأربعين يوماً ثم دخل العبيديون بيت المقدس بالأمان في شهر شعبان سنة ٤٨٩هـ، وأحسن الأفضل الجمالي إلى سقمان وإيلغازي ومن معهما وأجزل لهم العطاء وسيّرهم فساروا إلى دمشق ثم عبروا الفرات فأقام سقمان ببلدة الرها وسار إيلغازي إلى العراق.

أناب العبيديون على بيت المقدس رجلاً يعرف بـ«افتخار الدولة» وبقي في منصبه إلى أن قصده الصليبيون بعد حصارهم عكا وامتناعها عليهم فساروا إلى بيت المقدس وألقوا الحصار عليه نيفاً وأربعين يوماً ونصبوا عليه برجين أحدهما من جهة الجنوب ولكن المسلمين أحرقوه وقتلوا كل من كان به فلما فرغوا من إحراقه أتاهم المستغيث بأن المدينة قد دُخلت من الجانب الآخر وملكوها من جهة الشمال ضحوة نهار يوم الجمعة لسبعٍ بقين من شهر شعبان سنة ٤٩٢هـ، وبقي الصليبيون في القدس أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيامٍ فبذل لهم الصليبيون الأمان فسلّموه إليهم، وخرجوا ليلاً إلى عسقلان فأقاموا بها.

قتل الصليبيون بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم عدد ليس بالقليل من علماء المسلمين، وورد المستنفرون من الشام إلى بغداد في شهر رمضان سنة ٤٩٢هـ بصحبة القاضي أبي سعيد الهروي فسجلوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا وذكروا ما دهم المسلمين ببيت المقدس من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال، ولشدّة ما أصابهم أفطروا يومهم، وأمر الخليفة باستنهاض همة المسلمين في كل مكان لجهاد الصليبيين. ومن الشعراء الذين استنهضوا همم المسلمين في هذه المناسبة أبو المظفر الأبيوردي(١) إذ قال:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم
فلم يبق منا عرضة للمراجم

وشرّ سلاح المرء دمع يُفيضه
إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

---

(١) أبو المظفر الأبيوردي: محمد بن أحمد بن محمد القرشي الأموي، شاعر عالي الطبقة، مؤرخ، عالم بالأدب، ولد في أبيورد بخراسان ببلاد تركمانستان اليوم على مقربة من حدود إيران، ومات مسموماً بأصبهان سنة ٥٠٧هـ.

فإيها بني الإسلام إن وراءكم
وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
أتهويمة في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ
وعيشٍ كنوار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها
على هفواتٍ أيقظن كل نائم
وإخوانكم بالشام يُضحي مقيلهم
ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم
تجرّون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماءٍ قد أُبيحت ومن دمى
توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا
وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة
تظلّ لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها
ليَسلم يقرع بعدها سنّ نادم
سللن بأيدي المشركين قواضبا
ستغمد منهم في الكلى والجماجم

يكاد لهن المستجير بطيبة
ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا
رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى
ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى
ويغضي عن ذلٍّ كُماة الأعاجم
فليتهمُ إذ لم يذودوا حميةً
عن الدين ضنّوا غيرةً بالمحارم
وإن زهدوا في الأجر إذا حمي الوغى
فهلّا أتوه رغبةً في الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى
فلا عطسوا إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحّةً
إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غادة عربية
تطيل عليها الروم عضّ الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه
رُمينا إلى أعدائنا بالجرائم

كان العبيديون قد استغلّوا تقدّم الصليبيين من الشمال فتقدّموا هم من الجنوب ودخلوا القدس وطردوا السلاجقة منها قبل وصول الصليبيين إليها بشهرٍ واحدٍ. وجرت مفاوضات بين العبيديين والصليبيين على أن يكون شمالي بلاد الشام للصليبيين وجنوبيها للعبيديين، غير أن الصليبيين قد رأوا الطريق أمامهم مفتوحاً فتقدّموا ودخلوا القدس وأخذوها من أيدي حلفائهم العبيديين دون أن يُراعوا عهداً أو يحترموا حلفاً، فجمع الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش العساكر وحشد ما أمكنه وسار إلى عسقلان، وأرسل إلى الصليبيين يُنكر عليهم نقضهم ما اتفقوا عليه وأراد أن يبُدي قوةً وشجاعةً، فأعادوا إليه رسوله وانطلقوا على أثره وطلعوا على العبيديين إثر وصوله. ولم يكن لدى العبيديين خبر وصول الصليبيين ولا أثر حركتهم، كما لم يكونوا على أهبة القتال فتنادوا للسلاح غير أن الصليبيين قد عاجلوهم فهزموهم وقتلوا الكثير منهم وغنموا ما في معسكرهم من مالٍ وسلاحٍ وانهزم الأفضل بن بدر الجمالي فدخل عسقلان، ثم رجع مع خواصّه إلى مصر، ونازل الصليبيون عسقلان وشدّدوا على أهلها فبذل أهل المدينة لهم اثني عشر ألف دينارٍ فأخذها الصليبيون ورجعوا إلى القدس.

لقد فقدت هذه الحملة الصليبية الأولى أكثر مقاتليها فقد جاءت بثلاثمائة ألف مقاتلٍ، ودخلت القدس بأربعين ألف مقاتل فقط، ولم يزد عدد المقاتلين الصليبيين الذين ساروا إلى الرها على أربعين ألفاً، وبذا يكون عدد من بقي من الصليبيين الذين جاءوا في الحملة الأولى ما يقرب من ثمانين ألفاً، ويكون عدد الذين قُتل منهم مائتين وعشرين ألفاً، قُتلوا في المعارك وقُتلوا على أيدي الناس الذين كانوا يثورون على تصرّف هؤلاء القادمين، يثورون على كرهٍ، ورغم خوفهم الشديد، ورغم معرفتهم بمصيرهم، يثورون لأن تصرّف الصليبيين كان على درجةٍ من السوء والقبح والوقاحة والحقارة ما يثير أية نفسٍ مهما بلغ بها الذلّ والضعف والخوف.

ومع سيطرة الصليبيين على بيت المقدس ارتفعت معنويات سكان الإمارات الإيطالية فبدأت سفنهم تجوب أطراف البحر المتوسط وتُقدّم المساعدات والدعم لإخوانهم الصليبيين فاستطاعوا أن يأخذوا حيفا وقيسارية سنة ٤٩٤هـ، وأخذوا عكا سنة ٤٩٧هـ، وذلك أن غوندفري ملك الصليبيين بالشام وهو صاحب بيت المقدس قد سار إلى مدينة عكا بساحل الشام وألقى الحصار عليها فأصابه سهم فقتله، فلما قُتل سار بغدوين

إلى بيت المقدس فبلغ ذلك الملك دقاق صاحب دمشق فنهض عليه في عسكره ومعه جناح الدولة طغتكين في جموعه فقاتله وانتصر عليه. وأخذ الصليبيون طرابلس سنة ٥٠٣هـ بعد حصارٍ دام سنتين، كما أخذوا جبلة في العام نفسه، ثم استولوا على صيدا سنة ٥٠٤هـ، وطلب المسلمون هدنةً فرفض الصليبيون ذلك ثم وافقوا مقابل مبالغ كثيرة يدفعها المسلمون لهم، وبعد أن استلم الصليبيون الأموال غدروا بالمسلمين ونقضوا ما أبرموا وذلك سنة ٥٠٤هـ. وحاصر الصليبيون مدينة صور سنة ٥٠٥هـ، وكانت بيد العبيديين الذين لم يبالوا بالأمر ولكن طغتكين صاحب دمشق أمدّ أهل صور بالمؤن والمساعدات فامتنعت صور عن الصليبيين، ولكن احتلّوا بيروت وسيطروا عليها.

وأخذ الصليبيون اللاذقية، ومنها اتجهوا نحو طرابلس حيث وصلوا إليها في أول شهر شعبان سنة ٥٠١هـ، وكانت طرابلس تتبع العبيديين في مصر وفيها نائبهم، ومن عندهم يأتي المدد. وصل الصليبيون بأسطولٍ كبيرٍ من أوربا بقيادة ريموند بن صنجيل ومراكب الأسطول مشحونة بالرجال والسلاح والمؤونة فنزل على طرابلس، وقد كان نازلاً عليها قبله ريموند

السرداني، فجرى بينهما خلاف أدّى إلى الشرّ والقتال فوصل صاحب أنطاكية طنكري معونةً للسرداني، ثم وصل الملك بغدوين صاحب القدس فأصلح بينهم ونزل الصليبيون جميعهم على طرابلس وشرعوا في قتال أهلها ومضايقتهم من أول شهر شعبان وألصقوا أبراجهم بسورها فلما رأى أهل البلد وجندها ذلك سُقط في أيديهم، وذلّت نفوسهم، وزادهم ضعفاً تأخر الأسطول العبيدي عنهم بالنجدة والمؤونة لعدم المبالاة بالموضوع أساساً من قبل العبيديين وهجم الصليبيون على طرابلس ودخلوها قهراً يوم الاثنين الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٠٣هـ، ونهبوا ما فيها وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال، وأخذوا الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة، وسلم الوالي الذي كان بها وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل دخولها فوصلوا إلى دمشق، وعاقب الصليبيون أهل طرابلس بأنواع العقوبات.

ولما انتهى الصليبيون من طرابلس سار طنكري صاحب أنطاكية إلى بانياس وحاصرها ودخلها وأمن أهلها، ونزل مدينة جبلة وفيها فخر الملك بن عمار الذي كان صاحب طرابلس، وكانت المؤونة فيها قليلةً

فقاتل أهلها إلى أن دخلها في الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٠٣هـ، وأما فخر الملك بن عمار فإنه قصد شيزر فأكرمه صاحبها الأمير سلطان بن علي بن منقذ الكناني واحترمه وسأله أن يُقيم عنده فلم يفعل بل سار إلى دمشق فأنزله صاحبها طغتكين وأجزل له العطاء وأقطعه أعمال الزبداني.

وبعد سقوط طرابلس بأيدي الصليبيين وصل الأسطول العبيدي إلى مدينة صور وفيه النجدة والمؤن، وفُرّقت الغلال التي فيه في صور وصيدا وبيروت.

وصل إلى صيدا ستون مركباً للصليبيين مشحونةً بالرجال والذخائر مع بعض ملوكهم ليحجّ ـ حسب زعمه ـ إلى بيت المقدس وليغزوا المسلمين، فاجتمع بهم الملك الصليبي بغدوين صاحب القدس، وتقررت القاعدة بينهم أن يقصدوا بلاد الإسلام فرحلوا من القدس ونزلوا مدينة صيدا في الرابع من شهر ربيع الثاني سنة ٥٠٤هـ وحاصروها براً وبحراً، وكان الأسطول العبيدي في مرسى مدينة صور لم يُنجد صيدا. عمل الصليبيون برجاً من الخشب وأحكموه وجعلوا عليه ما يمنع عنه النار والحجارة وزحفوا به فلما عاين أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يُصيبهم مثل ما

أصاب أهل بيروت قبل مدةٍ فأرسلوا قاضي صيدا وجماعةً من شيوخها إلى الصليبيين وطلبوا من ملكهم الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم والعسكر الذي عندهم ومن أراد المقام به عندهم أمنوه ومن أراد المسير عنهم لم يمنعوه وحلف لهم على ذلك فخرج الموالي وجماعة كثيرة من أعيان البلد إلى دمشق في العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٠٤هـ، وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان وكانت مدة الحصار سبعةً وأربعين يوماً، ورحل بغدوين عنها إلى القدس ثم عاد إلى صيدا بعد مدةٍ يسيرةٍ فقرّر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينارٍ فأفقرهم واستغرق أموالهم.

أما من جهة الداخل فقد جاء الصليبيون من ناحية الجنوب فالتقى بهم صاحب دمشق أمين الدولة وهزمهم ولاحق فلولهم.

هاجم الصليبيون دمشق من جهة الشمال عام ٤٩٧هـ ولكنهم هُزموا وأُسر أمير الرها الصليبي غير أن الصليبيين استطاعوا في هذه السنة أن يدخلوا حصن أفامية.

وسار الصليبيون من أنطاكية نحو حصن

الأثارب[1] وهو بالقرب من مدينة حلب بينهما ثمانية عشر كيلاً وحاصروه ومنعوا عنه المؤونة فضاق الأمر على من به من المسلمين فنقبوا في القلعة نقباً قصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة قائد الصليبيين وهوصاحب أنطاكية فيقتلوه فلما فعلوا ذلك واقتربوا من خيمته استأمن إليه صبي أرمني وأطلعه على ما يجري فاحتاط لنفسه واحترز منهم وجدّ في قتالهم حتى أخذ الحصن قهراً وعنوةً وقتل من أهله ألفي رجلٍ وسبى وأسر الباقين ثم سار إلى حصن زردنا[2] وحاصره ودخله وفعل بأهله ما فعل بحصن الأثارب، فلما سمع أهل منبج بذلك فارقوها خوفاً من الصليبيين وكذلك فعل أهل بالس[3]، وقصد الصليبيون البلدين فلم يجدوا بهما أحداً ورأوهما خاويتين فعادوا عنهما.

عظم خوف المسلمين من الصليبيين وبلغت القلوب الحناجر وأيقنوا باستيلاء الصليبيين على سائر

---

(١) الأثارب: قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية بينها وبين حلب ١٨ كيلاً، والقلعة غير قائمة الآن، وتحت جبلها قرية تسمى باسمها الأثارب.

(٢) زردنا: بليدة من نواحي حلب الغربية.

(٣) بالس: موقع بلدة مسكنة اليوم.

الشام لعدم وجود الحامي له والمانع فشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في الهدنة معهم فامتنع الصليبيون من الإجابة إلا على قطيعةٍ يأخذونها إلى مدةٍ يسيرةٍ فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينارٍ وغيرها من الخيول والثياب، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينارٍ، وصالحهم علي الكردي صاحب حماة على ألفي دينارٍ، وكانت مدة الهدنة إلى وقت إدراك الغلّة وحصادها، ثم إن مراكب أقلعت من مصر فيها التجار ومعهم الأمتعة الكثيرة فأخذتها مراكب الصليبيين فأخذوها وأخذوا ما مع التجار من أموالٍ وأسروهم.

سار جماعة من أهل حلب إلى بغداد مستنفرين على الصليبيين فلما وردوا إلى بغداد اجتمع معهم كثير من الفقهاء وغيرهم فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر فوعدهم السلطان إرسال العساكر للجهاد، فلما كان يوم الجمعة الثانية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة معهم أهل بغداد فمنعهم حاجب الباب من الدخول فغلبوه على ذلك ودخلوا الجامع وكسروا شباك المقصورة وهجموا إلى المنبر فكسروه وبطلت صلاة الجمعة أيضاً فأرسل

الخليفة إلى السلطان يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه فتقدم حينئذٍ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهّز للجهاد وسيّر ولده مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل وتقدّموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيروا إلى قتال الصليبيين.

اجتمعت العساكر التي أمرها السلطان بالمسير إلى قتال الصليبيين فكانوا الأمير مودود صاحب الموصل والأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر والأميران إيلبكي وزنكي ابنا برسق ولهما همدان وما جاورها والأمير أحمديل وله مراغة وكوتب الأمير أبو الهيجا صاحب إربيل والأمير إيلغازي صاحب ماردين وبقية الأمراء باللحاق بالملك مسعود والأمير مودود فاجتمعوا عند الأمير إيلغازي فإنه سيّر ابنه إياز وأقام هو، واجتمعوا في بلدة سنجار وساروا منها فدخلوا عدة حصونٍ للصليبيين وقتلوا من بها، وحاصروا مدينة الرها مدةً ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها، وكان سبب رحيلهم عنها أن الصليبيين اجتمعوا وساروا إلى نهر الفرات ليعبروه وليمنعوا مدينة الرها من المسلمين، فلما وصلوا إلى ضفاف نهر الفرات بلغهم كثرة المسلمين فلم يقدموا بل أقاموا عليه فلما رأى المسلمون ذلك رحلوا

عن الرها إلى حران ليطمع الصليبيون ويعبروا نهر الفرات إليهم ويقاتلوهم، فلما رحل المسلمون عنها جاء الصليبيون ومعهم المؤن والذخائر إلى الرها فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه بعد أن كانوا في قلة من المؤونة وقد أشرفوا على أن يؤخذوا وأخذوا كل من فيه عجز وضعف وفقر وعادوا إلى الفرات فعبروه إلى الجانب الشامي وطرقوا أعمال حلب فأفسدوا فيها ونهبوها وقتلوا وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً. أما العسكر السلطاني فإنهم لما سمعوا بعودة الصليبيين وعبورهم نهر الفرات ساروا إلى الرها وحاصروها فرأوا أمراً محكماً إذ ارتفعت معنويات أهلها وقويت نفوسهم بالذخائر والمؤن التي تُركت عندهم وبكثرة المقاتلين عنهم لذا لم يجد المسلمون فيها مطمعاً فرحلوا عنها وعبروا الفرات فحاصروا قلعة تل باشر[1] خمسةً وأربعين يوماً فرحلوا عنها ولم يبلغوا غرضهم، ووصلوا إلى حلب فأغلق الملك رضوان أبواب البلد ولم يجتمع بهم، ثم مرض هناك الأمير سكمان القطبي فعاد مريضاً فتوفي في بلدة بالس، فحمله أصحابه في تابوت ساروا به إلى بلاده ليدفنوه هناك.

---

(١) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمال حلب تبعد عنها خمسين كيلاً وسكانها من النصارى الأرمن.

ورحل عساكر السلطان عن حلب عندما لم يجتمع الملك رضوان بهم وأغلق أبواب حلب دونهم رحلوا إلى معرة النعمان واجتمع بهم طُغتكين صاحب دمشق ونزل عند الأمير مودود صاحب الموصل ورأى عدم وحدة الكلمة بين الأمراء، وتفرقت العساكر، وبقي طغتكين ومودود بالمعرّة فساروا منها ونزلوا على مقربة من نهر العاصي. وسمع الصليبيون بتفرق المسلمين فطمعوا بهم والتقوا بعد تباينٍ وخلافٍ وساروا إلى أفامية، وسمع بذلك سلطان بن منقذ صاحب شيزر فسار إلى طغتكين ومودود وهوّن عليهما أمر الصليبيين وحثّهما على الجهاد فرحلوا إلى شيزر ونزلوا عليها، ونزل الصليبيون بالقرب منهم، وضيّق المسلمون على الصليبيين الغلال وشاغلوهم بالقتال والصليبيون يحاولون الصبر ولا يواجهون المسلمين، فلما رأوا قوة المسلمين عاد الصليبيون إلى أفامية ورجع المسلمون إلى شيزر.

وفي شهر المحرم سنة ٥٠٦هـ سار مودود صاحب الموصل إلى الرها فنزل عليها ورعى عسكره زروعها، ثم رحل عنها إلى سروج وفعل بها كذلك ولم يُبال بالصليبيين ولم يحترز منهم فلم يشعر إلا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم ودواب العسكر منتشرة في

المرعى فأخذ الصليبيون كثيراً منها، وقتلوا كثيراً من العسكر فلما استعد المسلمون للقائه رجع إلى بلدة سروج.

وفي شهر المحرم سنة ٥٠٧هـ اجتمع المسلمون وفيهم الأمير مودود صاحب الموصل، وتميرك صاحب سنجار، وطُغتكين صاحب دمشق والأمير إياز بن إيلغازي وسبب اجتماعهم أن بغدوين ملك الصليبيين تابع الغارات على مدينة دمشق وكان يرافق الغارة النهب والسلب والإحراق والتخريب وإهلاك الزرع حتى انقطعت المواد الغذائية عن دمشق فقلّت الأقوات وغلت الأسعار فأرسل طغتكين صاحب دمشق إلى الأمير مودود صاحب الموصل يشرح له الوضع ويستنجده ويحثّه على سرعة الوصول إليه فجمع الأمير مودود عسكراً وسار فعبر نهر الفرات في آخر شهر ذي القعدة سنة ٥٠٦هـ فخافه الصليبيون وسمع طغتكين خبره فسار إليه ولقيه في سلمية وتمّ الرأي على قصد بغدوين ملك القدس الصليبي فساروا إلى الأردن فنزل المسلمون عند الأقحوانة[1] ونزل الصليبيون مع ملكهم بغدوين

(١) الأقحوانة عدة مواضع، وهي هنا موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطئ بحيرة طبرية.

وصاحب جيشهم جوسلين وغيرهما من الأمراء المقدّمين عندهم والفرسان المشهورين على مقربةٍ من المسلمين، والتقى الفريقان في معركةٍ عند طبرية في الثالث عشر من شهر المحرم سنة ٥٠٧هـ، واشتدّ القتال وصبر الفريقان ثم إن الصليبيين قد انهزموا وكثر فيهم القتل والأسر، وكان ممن أُسر ملكهم بغدوين فلم يُعرف فأُخذ سلاحه وأُطلق فنجا، وغرق كثير منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم، ووصل الصليبيون إلى مضيقٍ[1] دون طبرية فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية الصليبيون فارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم فرجعوا إلى القتال فأحاط بهم المسلمون من كل ناحيةٍ فصعد الصليبيون إلى جبل غرب طبرية فأقاموا به ستةً وعشرين يوماً والمسلمون بمواجهتهم يرمونهم بالنشّاب فيصيبون من يقترب منهم ومنعوا الغلال عن الصليبيين عسى أن يخرجوا للقتال فلم يخرج منهم أحد، فسار المسلمون إلى مدينة بيسان وخربوا البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون بين القدس وعكا وقتلوا من ظفروا به من أعدائهم، ثم رجعوا ونزل الأمير مودود

---

(١) عند مصب نهر اليرموك على نهر الأردن بالقرب من موقع الحمة.

بمرج الصُّفّر[1] وسمح للعساكر بالعودة والاستراحة ثم العودة إلى الاجتماع في فصل الربيع، وبقي هو في خواصه فدخل دمشق في الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول ليقيم عند طغتكين إلى الربيع، فدخل الجامع يوم الجمعة مع طغتكين ليؤدّيا الصلاة، فلما فرغا وخرجا إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين وثب عليه باطني فجرحه أربع جراحاتٍ، وقُتل الباطني ولم يعرفه أحد، وكان الأمير مودود صائماً فحُمل إلى دار طغتكين واجُتهد به ليفطر فلم يفعل، وقال: لا لقيت الله إلا صائماً. فمات من يومه رحمه الله.

لما بلغ السلطان محمد مقتل الأمير مودود سيّر إلى الموصل مكانه الأمير آقسنقر البرسقي وبعث معه ولده الملك مسعود في جيشٍ كثيفٍ كي لا يطمع الصليبيون بالموصل وأعمالها بعد مقتل أميرها مودود، وأمر ولده مسعوداً بقتال الصليبيين، وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته واتصلت به عساكرها وفيه عماد الدين زنكي بن آقسنقر الذي ملك هو وأولاده الموصل بعد ذلك، واتصل به تميرك صاحب سنجار، فسار آقسنقر

(١) مرج الصّفّر: المرج الذي يقع إلى الجنوب من نهر الأعوج وبين طريقي دمشق القنيطرة ودمشق درعا.

البرسقي إلى جزيرة ابن عمر فسلّمها إليه نائب مودود بها، وسار معه إلى ماردين فنازلها آقسنقر حتى أذعن له صاحبها إيلغازي، وسيّر معه عسكراً مع ولده إياز فسار عنه آقسنقر إلى مدينة الرها في خمسة عشر ألف فارس، فنازلها في شهر ذي الحجة سنة ٥٠٨هـ وقاتلها وصبر الصليبيون وأصابوا من بعض المسلمين غرةً فأخذوا منهم تسعة رجالٍ وصلبوهم على سورها فاشتدّ القتال حينئذٍ وأخذت المسلمين الحماسة فقتلوا خمسين فارساً من كبار الصليبيين وأقاموا شهرين محاصرين للرها وقلّت المؤونة عن المسلمين فرحلوا من الرها إلى سميساط بعد أن خرّبوا الرها وسروج وسميساط، وأطاع صاحب مرعش، وذلك أنه توفي كواسيل الصليبي وكان يملك مرعش وكيسوم وغيرهما فاستولت زوجته على المملكة وكانت تنفر من تصرّفات الصليبيين فأحسنت إلى الجند وحذّرت كبارهم، وتحصّنت منهم، وراسلت آقسنقر البرسقي وهو على الرها وطلبت منه إرسال بعض أصحابه لتخضع له وتطيعه فأرسل إليها سنقر دزدار صاحب الخابور فلما وصل إليها أكرمته وحملت إليه مالاً كثيراً وبينما هو عندها إذ جاء جمع من الصليبيين فقاتلوا أصحابه وهم نحو مائة فارس، واقتتلوا قتالاً شديداً انتصر فيه المسلمون على الصليبيين وقتلوا

أكثرهم، وعاد سنقر دزدار وقد حملته الهدايا للملك مسعود ولآقسنقر البرسقي وأذعنت بالطاعة، ولما عرف الصليبيون ذلك تركها كثير منهم وعادوا إلى أنطاكية.

كان آقسنقر البرسقي قد قبض على إياز بن إيلغازي إذ كان أبوه لم يسر معه بل بعث ولده إياز، فلما قبض عليه سار إيلغازي إلى حصن كيفا وصاحبه الأمير ركن الدولة داود ابن أخيه سقمان فاستنجده فسار معه في عسكره وأحضر كثيراً من التركمان وسارا إلى آقسنقر البرسقي في أواخر سنة ٥٠٨هـ، واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم البرسقي وأُنقذ إياز بن إيلغازي من الأسر فأرسل السلطان إليه يتهدده فخافه وسار إلى الشام إلى حميه طغتكين صاحب دمشق فأقام عنده أياماً، وكان طغتكين أيضاً قد استوحش من السلطان إذ نسب إليه قتل الأمير مودود. فاتفق طغتكين وإيلغازي الامتناع على السلطان والالتجاء إلى الصليبيين والاحتماء بهم، فراسلا صاحب أنطاكية وحالفاه فحضر عندهما على بحيرة حمص وجدّدوا العهود وعاد طغتكين إلى دمشق ورجع إيلغازي إلى الرستن وعاد الصليبي إلى أنطاكية.
وكان إيلغازي ينوي المسير إلى ديار بكر وجمع التركمان ونزل بالرستن ليستريح فقصده الأمير قرجان بن

قراجه صاحب حمص وقد تفرق عن إيلغازي أصحابه فظفر به قرجان وأسره ومعه جماعة من خواصه وأرسل إلى السلطان يعرفه ذلك ويسأله إرسال نجدةٍ إليه حتى لا يغلبه طغتكين فلما بلغ طغتكين الخبر سار إلى حمص وطلب من أميرها قرجان إطلاق سراح إيلغازي فامتنع قرجان وأقسم ليقتلن إيلغازي إن لم يعد طغتكين، وأرسل إيلغازي إلى طغتكين إن الملاججة تؤذيني وتسفك دمي وإن من المصلحة عودتك إلى دمشق فرجع، وانتظر قرجان وصول العساكر السلطانية فتأخرت عنه فخاف أن ينخدع أصحابه لطغتكين ويُسلّموا إليه حمص فعدل إلى الصلح مع إيلغازي على أن يطلقه ويأخذ ابنه إياز رهينةً، ويصاهره ويمنعه من طغتكين وغيره فأجابه إلى ذلك فأطلقه وتحالَفا وسلَّم إليه ابنه إياز وسار عن حمص إلى حلب وجمع التركمان وعاد إلى حمص وطالب بولده إياز وحاصر قرجان إلى أن وصلت العساكر السلطانية.

وصلت العساكر السلطانية التي أرسلها السلطان محمد إلى حمص وكان على مقدمتها الأمير برسق بن برسق صاحب همدان ومعه الأمير جيوش بك والأمير كنتغدي وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم من البداية

بقتل إيلغازي وطغتكين فإذا فرغوا منهما قصدوا الصليبيين وقاتلوهم وحاصروا البلاد التي يحتلّونها فساروا في شهر رمضان سنة ٥٠٨هـ وكانت العساكر كثيرة العدد والعدة وقد عبروا نهر الفرات في آخر السنة عند مدينة الرقة فلما اقتربوا من حلب راسلوا المتولّي لأمرها لؤلؤاً الخادم ومقدم عسكرها المعروف بشمس الخواص يأمرونهما بتسليم حلب إليهم وعرضوا عليهما كُتب السلطان بذلك فغالطا في الجواب وأرسلا إلى إيلغازي وطغتكين يستنجدانهما فسارا إليهم في ألفي فارسٍ ودخلا حلب فامتنع من بها حينئذٍ عن عسكر السلطان وأظهروا العصيان فسار الأمير برسق بن برسق إلى مدينة حماه وهي في طاعة طغتكين وبها ثقله فحاصرها ودخلها عنوةً وسلّمها إلى الأمير قرجان صاحب حمص وكان السلطان قد أمر أن يُسلّم إليه كل بلدٍ يدخلونه فلما رأى الأمراء ذلك ضعفت نياتهم في القتال بحيث تؤخذ البلاد وتُسلّم إلى قرجان، فلما سلّموا حماة إلى قرجان سلّم إليهم إياز بن إيلغازي، وكان قد سار إيلغازي وطغتكين وشمس الخواص إلى أنطاكية واستجاروا بصاحبها روجيل وسألوه أن يساعدهم على حفظ مدينة حماة، فلما بلغهم دخولها من قبل عسكر السلطان، ووصل إليهم بأنطاكية بغدوين

صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من قادة الصليبيين اتفق رأيهم على ترك اللقاء لكثرة المسلمين، وقالوا: إنهم عند هجوم الشتاء يتفرقون. واجتمعوا بقلعة أفامية وأقاموا نحو شهرين فلما انتصف شهر أيلول ورأوا عزم المسلمين على المقام تفرّقوا فعاد إيلغازي إلى ماردين، وطغتكين إلى دمشق، ورجع الصليبيون إلى بلدانهم التي خرجوا منها، وكانت أفامية وكفرطاب[1] للصليبيين فقصد المسلمون كفر طاب وحاصروها فلما اشتدّ الحصار على الصليبيين ورأوا الهلاك قتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم، ودخل المسلمون البلد عنوةً وقهروا وأسروا صاحبها وقتلوا من بقي به من الصليبيين وساروا إلى قلعة أفامية فرأوها حصينةً فعادوا عنها إلى المعرة وهي بيد الصليبيين أيضاً وفارقهم الأمير جيوش إلى وادي بزاعة[2] فملكه وسارت العساكر عن المعرة إلى حلب وتقدّمهم ثقلهم ودوابهم على جاري العادة والعساكر على أثره متلاحقة وهم آمنون لا يظنون أحداً يقدم على القرب منهم. وكان روجيل صاحب

---

(١) كفرطاب: بلدة بين المعرة وحلب.

(٢) وادي بزاعة: بزاعة بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين حلب ومنبج في منتصف المسافة تقريباً.

أنطاكية لما بلغه حصار كفرطاب سار في خمسمائة فارسٍ وألفي راجلٍ لحماية كفرطاب ومنع المسلمين عنها فوصل إلى المكان الذي ضربت فيه خيام المسلمين على غير علم بها فرآها خاليةً من الرجال المقاتلة لأنهم لم يصلوا إليها فنهب جميع ما هناك وقتل كثيراً من السوقية وغلمان العسكر، ووصلت العساكر متفرقةً فكان الصليبيون يقتلون كل من يصل إليهم، ووصل الأمير برسق في نحو مائة فارسٍ فرأى الحال فصعد تلّاً هناك ومعه أخوه زنكي فأحاط بهم السوقية والغلمان واجتمعوا بهم ومنعوا الأمير برسق من النزول، فأشار عليه أخوه ومن معه بالنزول والنجاة بنفسه، فقال: لا أفعل بل أُقتل في سبيل الله وأكون فداء المسلمين فغلبوه على رأيه فنجا هو ومن معه فتبعهم الصليبيون نحو سبعة أكيالٍ ثم عادوا وأكملوا النهب والقتل وأحرقوا كثيراً من الناس وتفرق العسكر وأخذ كل واحدٍ جهةً، ولما سمع الموكلون بالأسرى الذين أُخذوا من كفرطاب قتلوهم وكذلك الموكل بإياز بن إيلغازي قتله أيضاً وخاف أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين التي بالشام فإنهم كانوا يرجون النصر من جهة هذا العسكر فأتاهم ما لم يكن في الحساب وعادت العساكر عنهم إلى بلادها وأما برسق بن برسق وأخوه زنكي فإنهما توفيا سنة ٥١٠هـ.

كانت رفنية من أرض الشام وعلى مقربةٍ من تدمر، وهي لطغتكين صاحب دمشق، وقد أخذها الصليبيون في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٠٩هـ، وقد قوّوها بالرجال وملؤوها بالذخائر وبالغوا في تحصينها فاهتم طغتكين لذلك وقوي عزمه على قصد البلاد التي يحتلّها الصليبيون لنهبها وتخريبها وبلغه خبر خلو رفنية من عساكر يمنعون عنها وليس هناك إلا الصليبيين الذين رُتّبوا لحفظها فسيّر إليهم قوةً فلم يشعر من بها إلا وقد هوجم البلد ودُخل عليه عنوةً وقهراً وأخذ كل من فيه من الصليبيين أسيراً فقتل طغتكين بعضهم وترك بعضهم وغنم المسلمون ما امتلأت منه أيديهم وعادوا إلى بلادهم سالمين.

ملاحظات:

إن الحملة الصليبية الأولى قد انطلقت من أوربا سنة ٤٨٩هـ وكان عدد المقاتلين فيها ثلاثمائة ألف مقاتلٍ ولكن معهم من المرافقين ما يجعل العدد مليوناً. وقد فقدت الحملة أكثر مقاتليها إذ قُتل منهم ما يزيد على مائتين وعشرين ألفاً، وما بقي كان أربعون ألفاً قد ساروا إلى مدينة الرها ووصلت الحملة إلى القدس بأربعين ألف مقاتلٍ.

تشكّلت أربع إماراتٍ صليبيةٍ في بلاد الشام، وهي: إمارة في الرها، وإمارة في أنطاكية، وإمارة في طرابلس، وإمارة في القدس.

استقبل النصارى من سكان البلاد وخاصةً الأرمن بصفة أن منطقتهم منطقة تجمعٍ نصراني استقبلوا الصليبيين استقبالاً حاراً، ورحّبوا بهم ترحيباً كبيراً وقد ظهر هذا أثناء دخولهم أنطاكية ودخول بيت المقدس، كما دعموهم أيام وجودهم في البلاد، وقدّموا لهم المساعدات كلها، وقاتلوا معهم المسلمين، وكانوا عيوناً عليهم للصليبيين، فهم إخوانهم وأولياؤهم.

لقد دعم العبيديون الصليبيين في أول الأمر ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ضد خصومهم السلاجقة خاصةً والمسلمين عامةً وكان التفاهم بينهما، وتم الاتفاق على تقسيم بلاد الشام بينهما، ولكن الصليبيين عندما شعروا بشيءٍ من النصر تابعوا تقدّمهم فاصطدموا مع العبيديين ووقع الخلاف وكان بينهما القتال. يرى العبيديون حسب عقيدتهم الباطنية أن الصليبيين أقرب إليهم من أبناء البلاد المسلمين، أما الصليبيون فإنهم ينظرون إلى العبيديين ما يُظهرون إذ يُبدون الإسلام وما يُخفونه لا يعلمه إلا الله، وإن كان الصليبيون يعرفون

عداوة العبيديين للإسلام ولكن لا يعرفون مداه ويسرّ بعضهم للصليبيين حقيقتهم إلا أن الثابت في أفئدة اليهود والنصارى أن سكان هذه البلاد عدا إخوانهم الذين يعيشون بين المسلمين كلهم أعداء لهم.

لقد قاتل العبيديون الصليبيين دفاعاً عن مناطقهم وخوفاً على أنفسهم بعد أن تابع الصليبيون تقدمهم ولم يقاتل العبيديون أبداً دفاعاً عن الإسلام ولا حمايةً لأبنائهم، ولو حافظ الصليبيون على اتفاقهم وعهدهم لوجدوا فيهم خير نصيرٍ وأفضل صديقٍ على اقتسام ديار الإسلام ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[1].

لم يجد الصليبيون الأمن والاستقرار في الشام في المناطق التي سيطروا عليها وشكّلوا فيها إماراتٍ رغم انتصارهم، إذ كان السكان المسلمون ينالون منهم كلما سنحت لهم الفرصة، كما يُغير عليهم الحكام المسلمون في سبيل إخراجهم من البلاد، ودفاعاً عن عقائدهم ومقدساتهم التي كان الصليبيون ينتهكونها.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥١.

وكان تصرّف الصليبيين على درجةٍ من السوء ما يثير أي إنسانٍ ومن هذا التصرّف القتل مع التمثيل وتعرية القتيل، ووضع القتلى بعضهم فوق بعضٍ بصورةٍ يستحي الإنسان من ذكرها فكيف برؤيتها!!! والنهب والسلب والحرق وإظهار التعالي والجبروت، وإشاراتٍ قذرةٍ بالأيدي، كما أن نساءهم يعثن الفساد إذ يثرن الشهوة بأساليب مختلفةٍ لصيد الرجال، وللحصول على الأسرار، وللوصول إلى الأرباح، ولإثارة الفتن و.... وهذا ما يثير المسلمين على الصليبيين دفاعاً عن كرامتهم وحمايةً لأخلاقهم.

الباطنية

الباطنية إظهار أمرٍ بالعلن وإخفاء ضده في الباطن والإسرار به. فلما ظهر الإسلام وانتشر، وتغلّب على خصومه وانتصر، وأزال دولاً للشرك وقهر، وأطاح بالظلم وعدل، وحطّم الأوثان وظهر، وألقى بالجاهليات ودفن، وعمّ الإسلام وساد غير أن بعض الذين فقدوا السلطان أو عدموا السدانة قد صعُب عليهم الأمر عصبيةً أو هان مكانةً فشُحنت نفوسهم حقداً ومُلئت قلوبهم ضغناً، ولكن ما العمل فالشعوب التي ينتمون إليها قد قبلت الإسلام ودانت له وخضعت لسلطانه بل

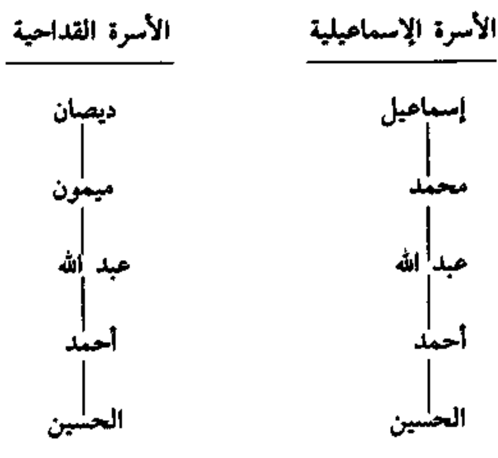
وحملته وانطلقت مع حملته تدعو له وتسعى لنشره.

وبقي الحاقدون شرذمةً قليلةً لا تستطيع إبداء ما تُسرّه ولا إظهار ما تُبطنه ولو فعلت لزالت بل لو بدا منها بعض الشيء لعاشت بين شعوبها مكروهةً وفي مجتمعها منبوذةً وفي محيطها ممقوتةً، وقد عرفت هذا تماماً وشعرت به متأكدةً لذا أظهرت الإسلام كبقية أفراد شعبها وأبطنت في داخلها الكفر. وأحسّ هؤلاء الحاقدون أن استمرار وضعهم بهذا الشكل لا يجدي شيئاً ولا يُقدّم خطوةً سوى زيادة حرقة الكبد ولوعة الفؤاد ولا بدّ من اتخاذ موقفٍ يدفع إلى الأمام ويُعطي بريقاً من أملٍ أو شعاعاً من نورٍ.

رأى الحاقدون أن يتصدّروا الدعوة التي يظهرونها ويبرزوا بإظهار ما يدّعونه ووجدوا أن هذا هو السبيل الوحيدة للوصول إلى المكانة المنشودة واستعادة المنزلة المفقودة فأخذوا يُظهرون محبة رسول الله ﷺ، والالتزام بمنهجه، ويُبدون تقديرهم لآل بيته وتعظيمهم وما هذا إلا باللسان والله أعلم بما في القلوب. وتأثّر بهذا كثير من العامة القريبون منهم محبةً خالصةً وعاطفةً صادقةً لرسول الله ﷺ، إذ آمنوا بذلك.

انتقل بعض هؤلاء الحاقدين إلى مناطق بعيدةٍ عن

مواطنهم لا يُعرفون بها وهم على ما هم من الإيمان باللسان وإخفاء ضده بالقلب ومحاولة كتمان هذا العمل الباطني كتماناً شديداً. وفي المناطق البعيدة عن الموطن ادّعى بعض هؤلاء الحاقدين النسب إلى آل البيت فمنهم من انتسب إلى إسماعيل بن جعفر فعرفوا بالإسماعيلية كالسامانيين وبعض جماعات القرامطة، ومنهم من طلب منهم دهاقنتهم أن يُسمّوا أبناء بأسماء محمد بن إسماعيل بن جعفر حتى تتشابه الأسماء فتختلط الأنساب كالعبيديين الذي طلب منهم جدهم ميمون القداح ذلك ففعلوا فاختلطت الأنساب فادعوا النسب الإسماعيلي كما تسمّوا بالفاطميين نسبةً إلى فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، لكسب عواطف العامة من المسلمين.



ومنهم من لا يدّعي النسب إلى آل البيت وإنما يُبدي المحبة الكثيرة لهم والعاطفة الجيّاشة نحوهم كي تميل القلوب إليهم وتؤيدهم وتسير الرجال وراءهم. والأصل في الخلافة الإسلامية أنها عامة بين المسلمين جميعاً، فلما أخذت الصفة الوراثية بعد العهد الراشدي أخذ أولئك الذين يُبدون المحبة لآل البيت يدعون إلى خلافة الطالبيين بصفتهم من آل البيت وحصرها بهم أي يُحاربون وراثية الخلافة بالدعوة إلى جعلها وراثيةً ولكن بفئةٍ معينةٍ يظهرون أنهم يُؤيّدونها ويدعمونها بصفة أنها من آل بيت رسول الله ﷺ، وما ذلك محبةً بآل البيت وإن كانوا يُظهرون ذلك بل لدسّ أمورٍ في الإسلام ليست منه كوراثة الحكم ولإيقاع الخلاف وإحداث الفتنة وهذا ما كان في معظم أيام العهد الأموي. والدليل على عدم صدق المحبة وعلى الرغبة في إحداث الفتنة:

١" ـ كانوا يتخلّون عن قادة الطالبيين عند اللقاء بل كانوا يسلّمونهم إلى خصومهم، رغم أنهم كانوا هم الذي يدعونهم ويشجّعونهم ويُحّرضونهم.

٢" ـ التوجّه إلى الدعوة العباسية والتخلّي عن الطالبيين عندما رأوا أن رجال الدعوة العباسية أكثر إمكانيةً على قتال الأمويين وهذا أدّى لإحداث الفرقة في الأمة.

٣" ـ العودة إلى الطالبيين عندما رأوا قوة العباسيين وذلك ليكون الخلاف وتقع الفتن ويحدث الانشقاق.

٤" ـ الانضمام إلى المغول الوثنيين في سبيل اجتثاث أرومة الأمة الإسلامية من جذورها. فكيف يدعمون الوثنيين إن كانوا يدّعون الإسلام؟.

كان هؤلاء الحاقدون يظهرون بالصورة التي تقتضي أن يظهروا بها كي يُحققوا مرحلةً من مخططهم أو يقطعوا خطوةً من مسيرتهم فكانوا بألوان متعددةٍ حتى عُرفوا بالمتلونين، ومع الزمن استطاعوا أن يشدّوا عواطف نحوهم فيكسبوا أعداداً وأخيراً تمكّنوا من السيطرة على أجزاء واسعة من ديار الإسلام فالعبيديون سيطروا على شمالي إفريقية ثم توسّعوا في الحجاز والشام، والقرامطة أخضعوا أجزاء واسعةً لهم، وحكم الحمدانيون الموصل والشام، وغلب السامانيون على مناطق في شرقي الخلافة بل وسيطر البويهيون على العراق ومقرّ الخلافة بل وعلى الخليفة نفسه، وهكذا أصبحت لهم الكلمة المسموعة والقرار النافذ وغدت أفكارهم هي المنتشرة وآراؤهم هي السائدة وتمكّنوا من دسّ بعض ضلالاتهم في أفكار العامة وكأنها لم تعد غريبةً.

وشاءت إرادة الله أن يضعف أمرهم فزال السامانيون وانتهى الحمدانيون وانكمش القرامطة وضعُف العبيديون وقُضي على سلطان البويهيين فأخذت آراؤهم التي نشروها تتلاشى وضلالاتهم تقلّ بل وأصبح الحاقدون يستترون ورؤوسهم لا تظهر.

صعب الأمر على الحاقدين بهذا الاختفاء بعد الظهور وبالخوف بعد الطغيان وبالذبول بعد أن اقترب القطوف وبالزوال بعد أن حان الجني وبُحث وقت الحصاد لذا فقد عادوا إلى التفكير الخفيّ في طريقة العمل والتخطيط ورأوا أن أنجع الوسائل هي الخلاص من الأمراء الظاهرين الذين يُعلنون الجهاد إذ هم الذين يلاحقونهم ويتتبعون أفكارهم فإذا انتهوا منهم يمكنهم الظهور وبثّ آرائهم والنشاط في المجتمع، وفي الوقت نفسه يساعد هذا على نجاح الفرنج الغزاة (الصليبيون) وتكون ضربات معاولهم إلى جانب عملهم فيكون الهدم أقوى. وإمكانية الوصول إلى الهدف أكثر قُرباً، ووجدوا أن أفضل وسائل الخلاص من المخالفين هي الاغتيال الفردي إذ يكون العمل فردياً وفي أماكن متباعدةٍ فتضيع الأسباب الحقيقية وتصعب معرفة الجاني، وإن وُصل إليها اختُلقت لها أسباب شخصية وروّجت إشاعات

وعلى كلٍ فقتل قائدٍ والخلاص من أميرٍ ليس مثل فقد أحد الرعية، وابتدأ العمل بالاغتيالات للذين يقفون في وجه المتلونين والذين يقاتلون الفرنج، وهكذا وجدت سيوف محلية للفرنج مصلتة على المحاربين لهم.

بدأ عمل الباطنية الفردي وقُتل نظام الملك في العاشر من رمضان سنة ٤٨٥هـ قتله فتًى ديلمي من الباطنية أتى إلى نظام الملك في صورة مستغيثٍ فضربه بسكينٍ كانت معه فقضى عليه وهرب فعثُر بطنب خيمةٍ فأدركوه فقتلوه، وتعددت أعمال الباطنية بالقتل وإن كانت فرديةً فقد قُتل في شهر صفر سنة ٤٩١هـ عبد الرحمن السميرمي وزير أم السلطان بركيارق، قتله باطني غيلةً وقُتل الباطني بعده، وقُتل أيضاً أرغش النظامي بمدينة الريّ، وكان مملوكاً لنظام الملك، وكان قد بلغ مكانةً رفيعةً حتى إنه تزوج ابنة ياقوتي عمّ السلطان بركيارق، وقُتل قاتله وذلك سنة ٤٩١هـ. وقُتل برسق في شهر رمضان سنة ٤٩١هـ وكان من أكابر الأمراء، ومن أصحاب السلطان طغرل بك، وقتله باطني و. . . .

لما نجح الباطنية في قتل بعض أهدافهم زادت أطماعهم وكثرت ضحاياهم فأصدر السلطان بركيارق أمراً في شعبان سنة ٤٩٤هـ بقتل الباطنية وهم

الإسماعيلية أو الذين كانوا يُسمّون قرامطة، فإن أول أمرهم أنه قد اجتمع منهم ثمانية عشر رجلاً فصلّوا صلاة العيد في بلدة ساوة[1] ففطن بهم والي البلدة فأخذهم وسجنهم، ثم سُئل فيهم فأطلقهم فهذا أول اجتماعٍ كان لهم، ثم إنهم دعوا مؤذناً من أهل ساوة كان مقيماً بأصبهان فلم يُجبهم إلى دعوتهم فخافوا أن ينم عليهم فقتلوه، فهو أول قتيلٍ لهم وأول دمٍ أراقوه فبلغ خبره إلى نظام الملك فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجارٍ اسمه طاهر فقُتل ومُثّل به وجرّوا برجله في الأسواق فهو أول قتيلٍ منهم، وكان والده واعظاً وقدم إلى بغداد مع السلطان بركيارق سنة ٤٨٦هـ، فحظي عنده بمكانةٍ ثم قصد البصرة فولي القضاء بها، ثم توجّه برسالةٍ إلى كرمان فقتله العامة في الفتنة التي جرت وذكروا أنه باطني، ثم إن الباطنية قتلوا نظام الملك، وهي أول فتكةٍ مشهورةٍ كانت لهم، وقالوا: قتل نجاراً فقتلناه به. وإن أول موضعٍ غلبوا عليه وتحصّنوا به بلد عند بلدة قاين[2] كان كبير أهله على مذهبهم فاجتمعوا عنده وتقووا به فمرت بهم قافلة

---

(١) ساوة: بلدة في منتصف الطريق بين الريّ وهمدان.

(٢) قاين: بلدة قرب طبس بين نيسابور وأصبهان.

عظيمة في طريقها من كرمان إلى قاين فخرج عليهم ومعه أصحابه والباطنية فقتل أهل القافلة جميعاً ولم ينج منهم سوى رجل تركماني فوصل إلى بلدة قاين وأخبر الناس بالواقعة فخرج أهلُ البلدة مسرعين مع القاضي الكرماني لجهاد الباطنية.

قُتل نظام الملك ومات السلطان ملكشاه فقوي أمر الباطنية، واشتدّت شوكتهم، وزادت أطماعهم. وكان سبب قوتهم بأصبهان أن السلطان بركيارق لما حاصر أصبهان وبها أخوه محمود وأمه خاتون الجلالية فلما عاد بركيارق عنهم ظهرت مقالة الباطنية بها وانتشرت، وكانوا متفرقين في المحالّ فاجتمعوا وأخذوا يعتدون على مخالفيهم فيسرقون بيوت من يقدرون عليه ويقتلونه وقد فعلوا ذلك بكثيرين وزاد الأمر حتى أن الإنسان كان إذا تأخّر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقّن أهله قتله وجلسوا للعزاء به، فحذرهم الناس فكان الواحد لا ينفرد بنفسه. وأخذ الباطنية في بعض الأيام مؤذناً أخذه جار له باطني فقام أهله بالنياحة عليه فأصعده الباطنية إلى سطح داره وأخذوا يضربونه وأهله يرون ذلك ويبكون وهو لا يقدر أن يتكلم خوفاً منهم.

لما عمّت هذه المصيبة الناس بأصبهان أذن الله تعالى في هتك أستارهم والانتقام منهم فاتفق أن رجلاً دخل دار صديقٍ له فرأى فيها ثياب وملابس وأحذية لم يعهدها فخرج من عنده وتحدّث بما كان فكشف الناس عنها فعلموا أنها من المقتولين، وثار الناس كافةً يبحثون عمن قُتل منهم ويستكشفون فظهروا على الدروب التي هم فيها وأنهم كانوا إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى دارٍ منها وقتلوه وألقوه في بئرٍ في الدار قد صُنعت لذلك، وكان على دربٍ منها رجل ضرير فإذا اجتاز به إنسان يسأله أن يقوده خطواتٍ إلى باب الدرب فيفعل ذلك فإن دخل الدرب أُخذ وقُتل، فتجرّد للانتقام منها أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندي الفقيه الشافعي وجمع الجمّ الغفير بالأسلحة وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران وجعل العامة يأتون بالباطنية أفواجاً ومنفردين فيُلقون بالنار وجعلوا إنساناً على أخاديد النيران وسمّوه مالكاً، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

استولى الباطنية على عدة حصونٍ منها قلعة أصبهان، وهذه القلعة لم تكن قديماً وإنما بناها السلطان ملكشاه، وسبب بنائها أنه كان قد أتاه رجل من مقدمي الروم فأسلم وسار معه، فاتفق أنه سار يوماً إلى

الصيد فهرب منه كلب حسن الصيد، وصعد هذا الجبل فتبعه السلطان والرومي معه فوجده موضع القلعة، فقال له الرومي: لو أن عندنا مثل هذا الجبل لجعلنا عليه حصناً ننتفع به فأمر ببناء القلعة، وحاول نظام الملك منعه من بنائها فلم يقبل قوله، فلما انتهى بناؤها جعل فيها حامياً فلما انقضت أيام السلطان ملكشاه وصارت أصبهان بيد خاتون فعزلت حاميها وجعلت غيره مكانه، وهو إنسان ديلمي اسمه زيار فمات وصار بالقلعة إنسان من خوزستان فاتصل به أحمد بن عطاش وكان الباطنية قد ألبسوه تاجاً وجمعوا له أموالاً وقدّموه عليهم مع جهله وإنما كان أبوه مقدماً فيهم فلما اتصل بحامي القلعة بقي معه ووثق به وقلّده الأمور فلما توفي حامي القلعة استولى أحمد بن عطاش عليها ونال المسلمين منه ضرر عظيم من أخذ الأموال وقتل النفوس وقطع الطريق والخوف الدائم فكانوا يقولون: إن قلعةً يدلّ عليها كلب ويشير بها كافر لا بدّ وأن يكون خاتمة أمرها الشرّ منها الموت، وهي من نواحي قزوين. وقيل: إن ملكاً من ملوك الديلم كان كثير الصيد فأرسل يوماً عقاباً وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة فوجده موضعاً حصيناً، فأمر ببناء قلعة عليه فسماها «أله موت» ومعناه بلسان الديلم: تعليم العقاب، ويقال لذلك

الموضع وما يجاوره (طالقان) وفيها قلاع حصينة أشهرها «ألموت»، وكانت هذه النواي في ضمان شرفشاه الجعفري وقد استناب فيها رجلاً يدعى الانتساب لعلي بن أبي طالب، ﷺ، فيه بله وسلامة صدر، وكان الحسن بن الصباح[1] رجلاً شهماً كافياً

---

(١) الحسن بن الصباح بن علي: ولد في مرو سنة ٤٢٨هـ، تتلمذ لأحمد بن عطاش أحد أعيان الباطنية في عصره، ثم صار الحسن بن الصباح مقدم الباطنية في أصبهان، ورحل منها وطاف البلاد، فدخل مصر وأكرمه المستنصر العبيدي وأعطاه مالاً وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته فلفّ البلاد داعياً إلى المستنصر، ثم استولى على قلعة «ألموت»، وضمّ إليها عدة قلاع، واستقرّ إلى أن توفي فيها سنة ٥١٨هـ. كان من كبار الزنادقة ومن دهاة العالم. وكان لا يدعو إليه من الناس إلا من كان غبيّاً جاهلاً لا يعرف يمينه من شماله، ثم يطعمه العسل بالجوز حتى يتغيّر مزاجه ويفسد طباعه ويكذب له من أقاويل المتلوّنين ويستمر يسقيه حتى يستجيب له، ويصير أطوع له من أمه وأبيه، ويظهر له أشياء من الخرافات والحيل التي لا تروج إلا على الجهال حتى التفّ عليه بشر كثير، وقد بعث إليه السلطان ملكشاه يتهدده وينهاه عن ذلك، وبعث إليه بفتاوى العلماء، فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول، قال لمن حوله من الشباب: إني أريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاه، فاشرأبت وجوه الحاضرين، ثم قال لشابٍ منهم: اقتل نفسك، فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتاً، وقال لآخر منهم: ألقِ نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه=

عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر وغير ذلك، وكان رئيس الريّ رجل يقال له أبو مسلم وهو صهر نظام الملك فاتهم الحسن بن الصباح بدخول جماعةٍ من دعاة العبيديين عليه فخافه ابن الصباح، وكان نظام الملك يكرمه، وقال له يوماً من طريق الفراسة: عن قريبٍ يُضلّ هذا الرجل ضعفاء العوام فلما هرب الحسن من أبي مسلم طلبه فلم يدركه، وكان الحسن من جملة تلامذة أحمد بن عطاش الطبيب الذي ملك قلعة أصبهان، ومضى الحسن بن الصباح فطاف البلاد ووصل إلى مصر ودخل على صاحبها المستنصر فأكرمه وأعطاه مالاً وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته، فقال له الحسن؛ من الإمام بعدك؟ فأشار إلى ابنه نزار، وعاد الحسن بن الصباح من مصر إلى الشام والجزيرة الفراتية وديار بكر، ورجع إلى خراسان ودخل كاشغر وما وراء النهر يطوف على قومٍ يُضلّهم، فلما دخل قلعة ألموت واختبر أهل تلك النواحي أقام عندهم وطمع في إغرائهم، ودعاهم في السرّ، وأظهر الزهد ولبس المسوح فتبعه أكثرهم، وصاحب القلعة حسن الظن فيه

= من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطّع، ثم قال لرسول السلطان: هذا الجواب. فمنها امتنع السلطان من مراسلته.

يجلس إليه يتبرك به، فلما أحكم الحسن بن الصباح أمره دخل يوماً على صاحب القلعة، وهو من المتلوّنين، فقال له ابن الصباح: اخرج من هذه القلعة، فتبسّم المتلوّن وظنّ أنه يمزح فأمر ابن الصباح بعض أصحابه بإخراج المتلوّن فأخرجوه إلى «دامغان»[1]، وأعطاه ماله وملك القلعة ولما بلغ الخبر إلى نظام الملك بعث عسكراً إلى قلعة ألموت فحاصروه فيها وأخذوا عليه الطرق فضاق ذرعاً بالحصار فأرسل من قتل نظام الملك، فلما قُتل رجع العسكر عن الحصار، ثم إن السلطان محمد بن ملكشاه جهّز نحوها العساكر فساروا إليها وحاصروها.

وزاد شرّ الباطنية وأذاهم وقد ملكوا القلاع، وكانت ولاية الأمير (جاولي سقاوو) على تلك المنطقة التي ملك الباطنية قلاعها فاتفق الأمير مع جماعةٍ من أصحابه فأظهروا الشغب عليه وفارقوه وقصدوا الباطنية وأظهروا أنهم معهم وعلى رأيهم فأقاموا عندهم حتى وثقوا بهم، ثم أظهر الأمير جاولي أن الأمراء من بني برسق يريدون قصده وأخذ بلاده وأنه عازم على مفارقتها لعجزه عنهم

---

(١) دامغان: بلد كبير بين الريّ ونيسابور، وهو قصبة قومس.

والمسير إلى همذان فلما ظهر ذلك وسار، قال الذين عند الباطنية من أصحابه الرأي أننا نخرج إلى طريقه ونأخذه وما معه من الأموال، فساروا إليه في ثلاثمائة من أعيانهم وصناديدهم فلما التقوا صار من معهم من أصحاب الأمير جاولي عليهم ووضعوا السيف فيهم فلم يفلت منهم سوى ثلاثة نفرٍ صعدوا إلى الجبل وهربوا وغنم جاولي ما معهم من دواب وسلاحٍ وغير ذلك.

لما زاد خطر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم قتلوا جماعةً من الأمراء الأكابر، وكان أكثر من قتلوا من هو في طاعة الأمير محمد بن ملكشاه وكان على خلافٍ مع أخيه السلطان بركيارق بن ملكشاه، وكان ممن قتلوا والي أصبهان «سرمز» وكذلك أرغش وكمش من رجال نظام الملك وغيرهم فنسب أعداء السلطان بركيارق ذلك إليه واتهموه بالميل إليهم. فلما ظفر السلطان بركيارق وهزم أخاه السلطان محمداً وقتل مؤيد الملك وزيره اندسّ جماعة من الباطنية في عسكر السلطان بركيارق واستغووا كثيراً منهم، وأدخلوهم في مذهبهم، وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة، وصار بالعسكر طائفة من وجوههم، وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من

يخالفهم حتى أنهم لم يتجاسر أحد منهم لا أمير ولا متقدم على الخروج من منزله حاسراً بل يلبس تحت ثيابه درعاً، وأشار على السلطان بركيارق أصحابه أن يفتك بالباطنية قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم، وأعلموه ما يتهمه الناس به من الميل إلى مذهبهم حتى أن عسكر أخيه السلطان محمد يُشنّعون بذلك، وكانوا عند القتال معهم يكبرون عليهم ويقولون: يا باطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها فأذن السلطان بركيارق في قتل الباطنية والفتك بهم وركب هو والعسكر معه وطلبوهم وأخذوا جماعةً من خيامهم ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف.

وجمع الأمير برغش وهو أكبر من مع السلطان أحمد سنجر بن ملكشاه جمع جموعاً كثيرةً وقوّاهم بالمال والسلاح وسار إلى بلد الباطنية قهستان فنهبه وخرّبه وقتل فيهم فأكثر القتل، وحاصر بلدة طبس وضيّق عليها ورماها بالمنجنيق فخرَّب كثيراً من سورها فضعف من فيها ولم يبق إلا أَخْذُها فأرسلوا إليها الرشا الكثيرة واستنزلوه عما كان يريده منهم فرحل عنهم وتركهم فعاودوا عمارة ما تهدّم من سورها وملؤوها من الذخائر ومن السلاح والأقوات وغير ذلك، وعاد الأمير برغش فجمع العساكر من خراسان وسار سنة ٤٩٧هـ إلى

طبس فخرَّبها وما حولها من القلاع والقرى وأكثر فيها القتل والنهب والسبي. ثم إن أصحاب الأمير سنجر قد أشاروا عليه بأن يؤمنوا ويشرط عليهم أن لا يبنوا حصناً وأن لا يشتروا سلاحاً ولا يدعون أحداً إلى عقائدهم فسخط كثير من الناس على هذا الأمان وهذا الصلح ونقموا على سنجر.

واجتمع عدد كبير من الإسماعيلية من منطقة بيهق وقاموا بغارةٍ على تلك النواحي وأكثروا القتل والسبي في أهلها والنهب في أملاكها وذلك سنة ٤٩٨هـ، واشتدّ أمرهم وقويت شوكتهم وذلك لاشتغال السلاطين عنهم، وقد داهم الباطنية قافلة الحجاج بجوار الريّ وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وأخذوا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئاً.

واستطاع السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥٠٠هـ أن يملك قلعة أصبهان من الباطنية وأن يقتل صاحبها الباطني أحمد بن عبد الملك بن عطاش الذي أصاب المسلمين منه شرّ عظيم حيث كان يرسل أصحابه لقطع الطرق وقتل المسلمين وأخذ الأموال ونهب الأملاك، وجعلوا على أملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفّوا عنها الأذى فتعذّر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس

بأملاكهم، واستمرّ الوضع لمصلحة الباطنية بسبب الخلاف القائم بين السلطان بركيارق وأخيه محمد، فلما توفي السلطان بركيارق سنة ٤٩٨هـ وصفا أمر السلطنة لأخيه محمد ولم يبق له منازع لم يكن عنده أمر أكثر أهميةً من محاربة الباطنية والانتهاء من ضلالاتهم وتعدّياتهم ورأى البدء بقلعة أصبهان التي بأيديهم لأن الأذى منها أكثر من غيرها ولأنها متسلّطة على سرير ملكه فخرج بنفسه فحاصر من فيها في السادس من شعبان سنة ٥٠٠هـ، وكان قد عزم على الخروج أول رجب فساء ذلك من يتعصّب لهم من العسكر فأرجفوا أن قلج أرسلان بن سليمان قد دخل بغداد وملكها وافتعلوا في ذلك مكاتبات ثم أشاعوا أن شغباً تجدّد في خراسان فتوقّف السلطان ليتحقّق من الأمر فلما ظهر بطلانه عزم عزيمةً قويةً وقصد حربهم وصعد جبلاً يقابل القلعة من الناحية الغربية ونصب له في أعلاه الفسطاط واجتمع له من أصبهان وسوادها العدد الكثير لحربهم وأحاطوا بجبل القلعة ودوره، ورتّب الأمراء لقتالهم فكان كل يومٍ يقاتلهم أمير فضاق الأمر بالباطنية واشتدّ الحصار عليهم، وتعذّرت عندهم الأقوات، واضطروا إلى الإذعان بتسليم القلعة على أن يعطوا غيرها خوفاً على دمائهم من العامة فأُجيب طلبهم، ثم إنهم وضعوا

من أصحابهم من يقتل أميراً كان يبالغ في قتالهم فوثبوا عليه وجرحوه وسلم منهم فعندئذٍ أمر السلطان بإخراب القلعة التي أخذوها وتسمى قلعة «خالنجان» وجدّد الحصار عليهم، فطلبوا أن يسمح لبعضهم بالذهاب إلى مدينة طبس، ويذهب بعضهم إلى الحسن بن الصباح في قلعة ألموت، فأُجيبوا إلى طلبهم وتسلّم السلطان القلعة وخرّبها، والذين ذهبوا إلى قلعة الناظر وإلى طبس وعلم أحمد بن عبد الملك بن عطاش بوصولهم ولكن ظهر منه الغدر فأمر السلطان بالزحف إليه فزحف الناس عامة في الثاني من شهر ذي القعدة سنة ٥٠٠هـ، وكان قد قلّ عدد المقاتلين عنده إذ كان جميع من بقي عنده ثمانين رجلاً، فزحف الناس وملكوا الموضع وقتلوا أكثر الباطنية وأما ابن عطّاش فقد أُخذ أسيراً ثم قُتل وقُتل ولده.

وسيّر السلطان وزيره نظام الملك أحمد بن نظام الملك في شهر المحرم سنة ٥٠٣هـ لقتال الحسن بن الصباح ومن معه من الباطنية في قلعة ألموت فحاصروهم وجاء الشتاء ببرده القارس فرفعوا الحصار ورحلوا عن القلعة ولم يبلغوا منها غرضاً، وفي شهر شعبان سنة ٥٠٣هـ توجّه الوزير نظام الملك أحمد إلى

الجامع فوثب به الباطنية فضربوه بالسكاكين وجرح في رقبته فبقي مريضاً مدةً ثم عوفي ـ بإذن الله ـ وأُخذ الباطني الذي جرحه وسئل عن أصحابه، وهو يهذو، فأقرّ على جماعةٍ بمسجد المأمونية فأُخذوا وقتلوا.

عاد السلطان محمد فندب الأمير أنوشتكين شيركير صاحب ساوة لقتال الحسن بن الصباح صاحب قلعة ألموت فملك منهم عدة قلاعٍ منها قلعة كلام ملكها في شهر جمادى الأولى سنة ٥٠٥هـ، وكان مقدمها يعرف بعلي بن موسى فأمّنه ومن معه وسيّرهم إلى قلعة ألموت، وملك منهم أيضاً قلعة ببرة وهي على خمسة وأربعين كيلاً من قزوين وأمّنهم وسيّرهم إلى قلعة ألموت أيضاً، وسار هو فيمن معه من العساكر إلى قلعة ألموت وأمدّهم السلطان بعددٍ من الأمراء فحاصروا قلعة ألموت فبنى أنوشتكين عليها مساكن يسكنها هو ومن معه، وعيّن لكل طائفةٍ من الأمراء أوقاتاً يقيمونها فكانوا ينيبون ويحضرون وهو ملازم الحصار، وكان السلطان يُنقل إليه التموين والذخائر والرجال فضاق الأمر على الباطنية وعُدمت عندهم الأقوات وغيرها، فلما اشتدّ عليهم الأمر نزلت نساؤهم وأبناؤهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمّنوا فلم يجابوا

إلى ذلك وأعادهم إلى القلعة قصداً ليموت جميعهم جوعاً، وكان الحسن بن الصباح يُجري لكل رجلٍ منهم في اليوم رغيفاً وثلاث جوزاتٍ فلما بلغ بهم الأمر إلى الحدّ الذي لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر إلى العسكر المحاصر لهم بعدهم بيوم وعزموا على الرحيل، فقال أنوشتكين شيركير: إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددناه من الأقوات والذخائر، والرأي أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها، وإن لم يكن المقام فلا بدّ من مقام ثلاثة أيامٍ حتى يتقدّمنا ثقلنا وما أعددناه، ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو. فلما سمعوا قوله علموا صدقه فتعاهدوا على الاتفاق والاجتماع، فلما أمسوا رحلوا من غير مشاورةٍ ولم يبق غير أنوشتكين شيركير ونزل إليه الباطنية من القلعة فدافعهم وقاتلهم وحمى من تخلّف من العسكر وأتباعه ولحق بالعسكر فلما فارق القلعة استولى الباطنية على ما تخلّف عندهم.

وفاة الخليفة المستظهر بالله:

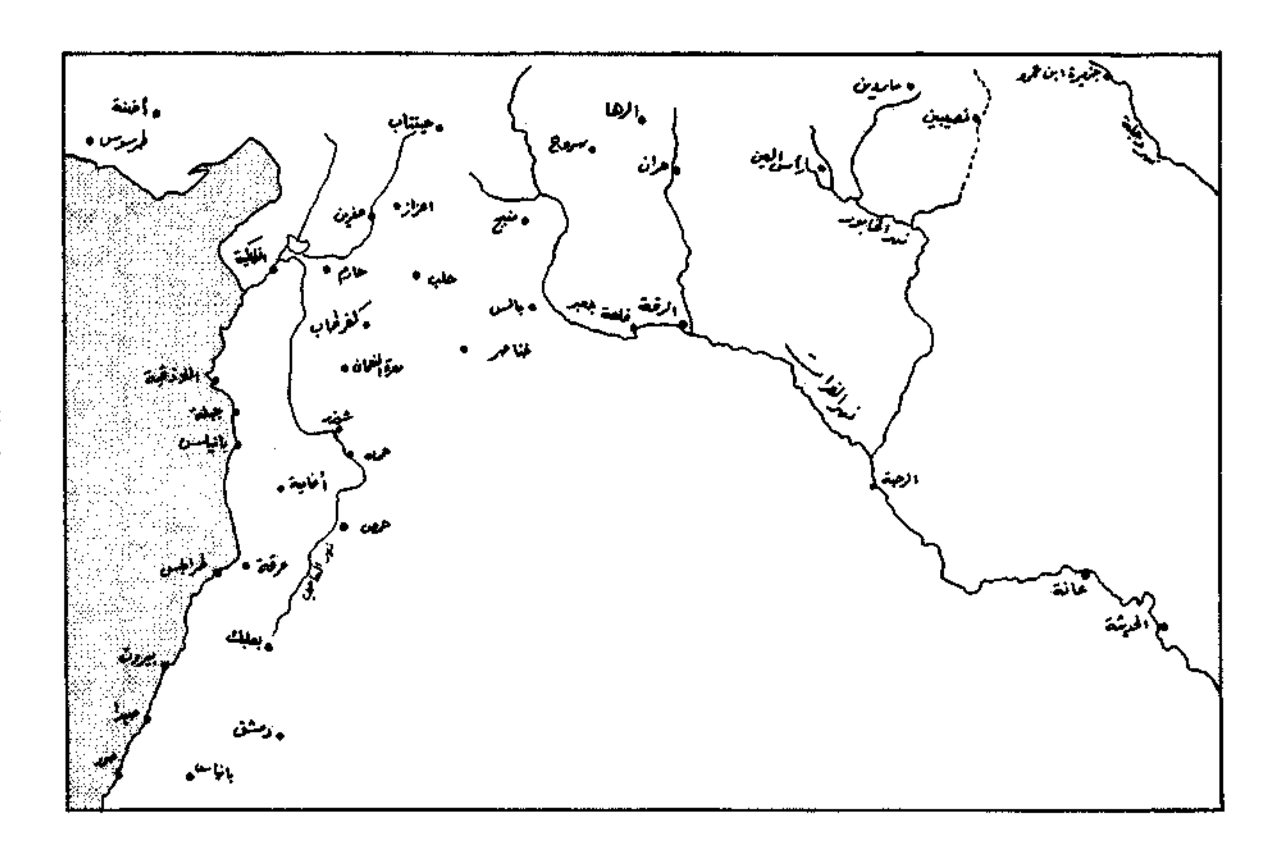
في السادس عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٥١٢هـ توفي الخليفة المستظهر بالله أبو العباس أحمد وكان عمره إحدى وأربعين سنةً وستة أشهرٍ وستة أيامٍ،

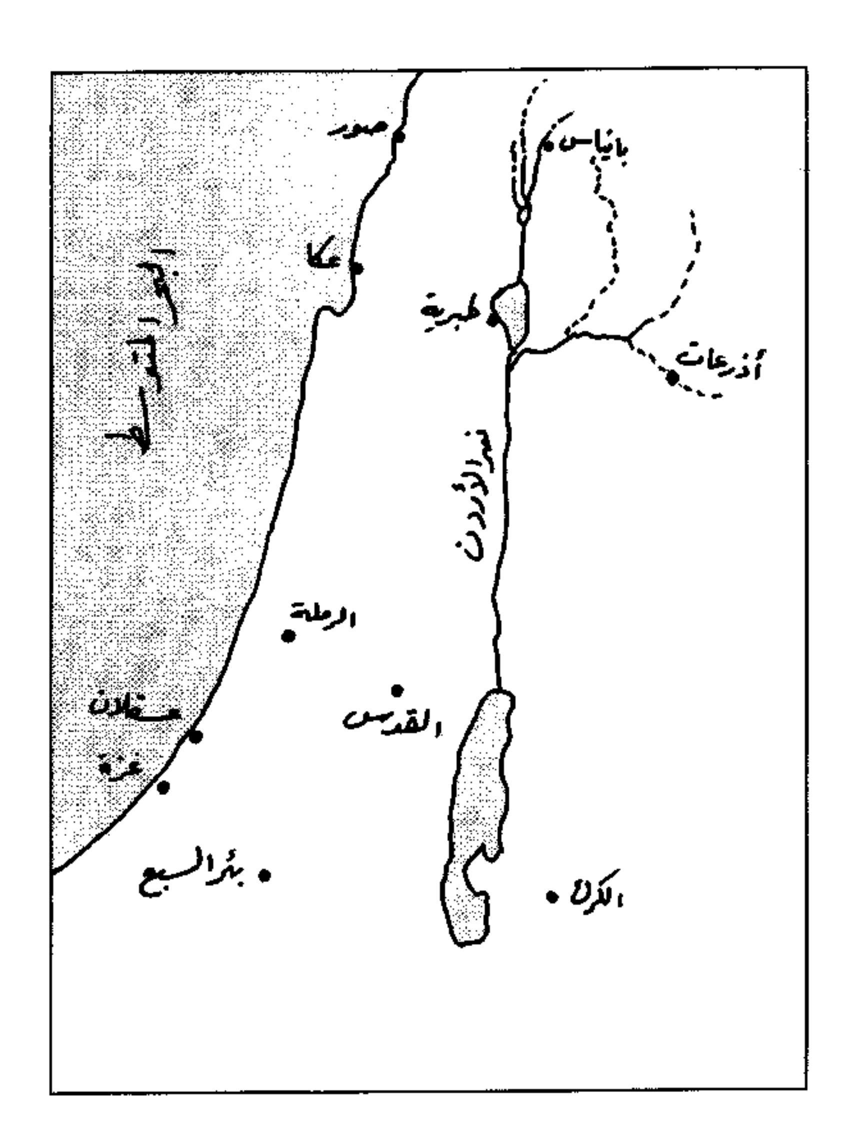
وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنةً وثلاثة أشهرٍ وأحد عشر يوماً، وتولى بعده ولده المسترشد بالله.

شخصية الخليفة المستظهر بالله:

كان لين الجانب، كريم الأخلاق، ويحب مصانعة الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات، لا يردّ مكرمةً تُطلب منه، وكان كثير الثقة بمن يوليه منصباً فلا يستمع إلى وشاية واشٍ ولا يلتفت إلى قوله، ويُعرف منه تلوّن أو ضعف عزيمةٍ بأقوال أصحاب الأغراض، وكانت الرعية في أيامه في حالة رضىً وسرور، وكان إذا بلغه تعرّض السلطان أو نائب له إلى أذى أحدٍ بالغ في إنكاره، وكان سمحاً جواداً محباً للعلماء والصلحاء.

غسّله ابن عقيل شيخ الحنابلة، وصلى عليه ابنه المسترشد بالله. وماتت بعده بقليل جدته أرجوان والدة المقتدي بأمر الله. ولا يعرف خليفة عاشت جدته بعده إلّا المستظهر بالله، رأت ابنها خليفةً، ثم ابن ابنها، ثم ابن ابن ابنها.


أذنة
طرسوس
عينتاب
أعزاز
عفرين
أنطاكية
حارم
حلب
منبج
بالس
خناصر
كفرطاب
معرة النعمان
اللاذقية
جبلة
بانياس
شيزر
حماة
أفامية
حمص
عرقة
طرابلس
بعلبك
بيروت
دمشق
الرها
سروج
حران
الرقة
قلعة جعبر
رأس العين
نصيبين
ماردين
جزيرة ابن عمر
نهر الخابور
نهر الفرات
الرحبة
عانة
الحديثة



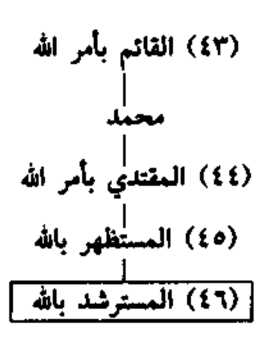
صور
بانياس
عكا
طبرية
أذرعات
نهر الأردن
الرملة
القدس
عسقلان
غزة
بئر السبع
الكرك

الفصل الرابع

٤٦ - المُسترشِد بالله

٥١٢ - ٥٢٩ هـ

المسترشد بالله هو الخليفة أبو منصور الفضل بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفّق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العبّاس، عمّ رسول الله ﷺ.



المسترشد بالله قبل الخلافة:

ولد المسترشد بالله أبو منصور الفضل في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٥هـ، وأمه أم ولد، ولم يكن له شأن قبل أن يلي الخلافة.

خلافة المسترشد بالله:

توفي والده المستظهر بالله أبو العباس أحمد في السادس عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٥١٢هـ فبويع ابنه الفضل بالخلافة وكان ولي العهد، وخُطب له ثلاثاً وعشرين سنةً، ولما تولّى الخلافة كان عمره سبعاً وعشرين سنةً، وبايعه أخواه ابنا المستظهر بالله وهما: أبو عبد الله محمد، وأبو طالب العباس، وكذا بايعه أعمامه أبناء المقتدي بأمر الله وغيرهم من الأمراء والقضاة والأئمة والأعيان، وكان المتولي لأخذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغاني، وكان نائباً عن الوزارة وأقرّه عليها المسترشد بالله.

لما اشتغل الناس ببيعة المسترشد بالله أبي منصور الفضل ركب أخوه الأمير أبو الحسن سفينةً ومعه ثلاثة نفرٍ وارتحل إلى المدائن وسار منها إلى دبيس بن صدقة بالحلّة فأكرمه دبيس وعلم منه بوفاة المستظهر بالله، ولما علم المسترشد بالله خبره أهمّه ذلك وأقلقه وأرسل

إلى دبيس يطلب منه إعادته، فأجاب: إني رهن إشارة الخليفة وواقف عند أمره، ومع هذا فقد توسّم بي ودخل منزلي فلا أكرهه على أمرٍ أبداً.

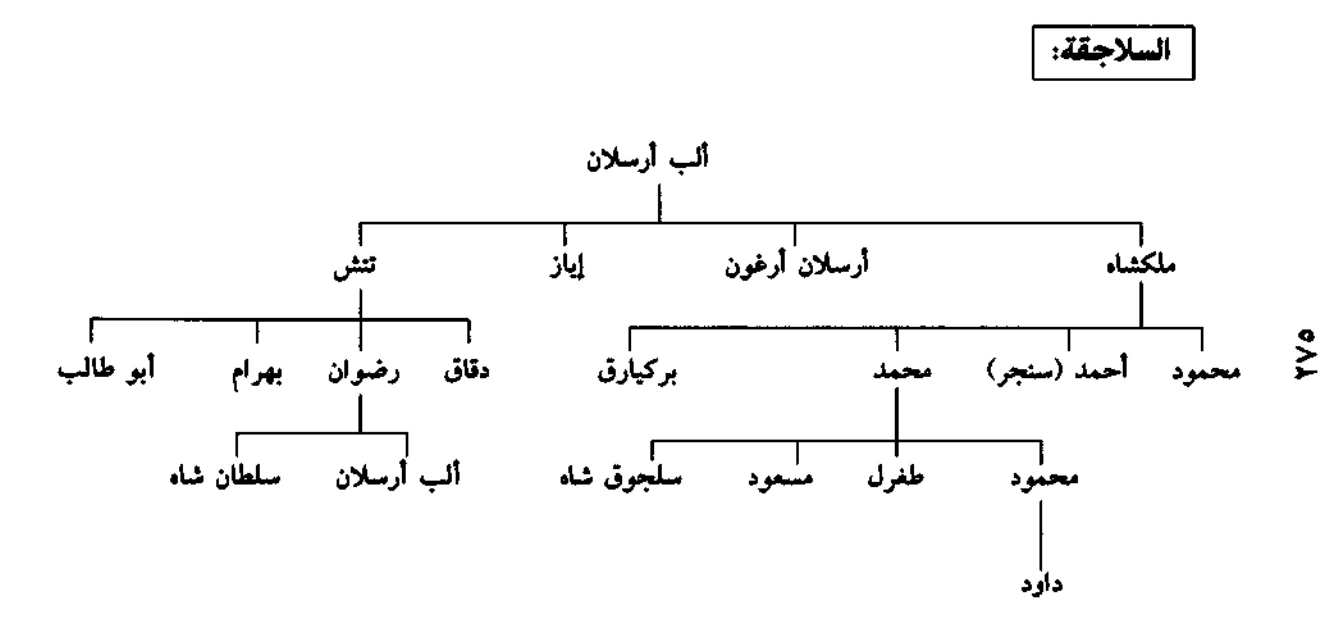
وكان رسول الخليفة هو نقيب النقباء شرف الدين علي بن طراد الزينبي فقصد الأمير أبا الحسن وتحدّث معه في عودته وضمن له عن الخليفة كل ما يريد فأجاب إلى العودة، وقال: إنني لم أُفارق أخي لشرٍّ أريده وإنما الخوف حملني على مفارقته فإذا أمنني قصدته، وتكفّل دبيس بإصلاح الحال بنفسه والمسير معه إلى بغداد، فعاد النقيب وأعلم الخليفة الحال فأجاب إلى ما طُلب منه، وتأخّر الأمر وأقام أبو الحسن عند دبيس إلى الثاني عشر من شهر صفر سنة ٥١٣هـ، ثم سار عن الحلّة إلى واسط وكثر جمعه وكثر الإرجاف بقوته، وملك مدينة واسط، وخيف جانبه فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لولي عهده ولده المنصور أبي جعفر وعمره حينئذٍ اثنتا عشرة سنةً فخُطب له في الثاني من ربيع الثاني سنة ٥١٣هـ، وكُتب إلى البلاد بالخُطبة له.

وأرسل إلى دبيس في تصرّف الأمير أبي الحسن وأنه الآن قد فارق جواره ومدّ يده إلى بلاد الخليفة وما

يتعلّق به، وأمره بقصده ومعاجلته قبل فوات الأوان فأرسل دبيس العسكر إليه ففارق أبو الحسن واسط، وقد تحيّر هو وأصحابه فضلّوا الطريق ووصلت إليهم عسكر دبيس فنهبوا أثقاله، وهرب أكثر أصحابه، وعاد الباقون إلى دبيس، وبقي الأمير أبو الحسن في عشرةٍ من أصحابه وهو عطشان وبينه وبين الماء ثلاثون كيلاً وكان الوقت قيظاً، وتبعه اثنان من البدو فأراد الهرب منهما فلم يقدر فأخذاه وقد اشتدّ به العطش فسقياه وحملاه إلى دبيس فسيّره إلى بغداد وحمله إلى الخليفة بعد أن بذل له عشرين ألف دينار فحمل إلى الدار العزيزة فكان بين خروجه عنها ورجوعه إليها أحد عشر شهراً ولما دخل على أخيه المسترشد بالله قبّل يده وقبّله المسترشد وبكيا، وأنزله داراً حسنةً كان هو يسكنها قبل أن يلي الخلافة، وحُمل إليه الهدايا الكثيرة وطيّب نفسه وأمّنه.

توفي السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥١١هـ وملك بعده ابنه محمود وقام بأمر الدولة الوزير الربيب أبو منصور، وأرسل إلى الخليفة المستظهر بالله أن يخطب له ببغداد فخطب له يوم الجمعة الثالث عشر من شهر المحرم.

السلاجقة:


ألب أرسلان
ملكشاه
أرسلان أرغون
إياز
تتش
محمود
أحمد (سنجر)
محمد
بركيارق
دقاق
رضوان
بهرام
أبو طالب
محمود
طغرل
مسعود
سلجوق شاه
ألب أرسلان
سلطان شاه
داود

وكان الأمير دبيس بن صدقة[1] عند السلطان محمد منذ قُتل والده فأحسن إليه السلطان وأقطعه إقطاعاتٍ كثيرةً، فلما توفي السلطان محمد خاطب السلطان محمود بالعودة إلى بلده الحلّة فأذن له في ذلك فعاد إليها فاجتمع عليه كثير من العرب والأكراد وغيرهم.

وكان آقسنقر البرسقي مقيماً بالرحبة وهي إقطاعه وليس بيده شيء من الولايات فاستخلف عليها ابنه عز الدين مسعود وسار إلى السلطان محمد قبل موته عازماً على مخاطبته في زيادة إقطاعه فبلغه وفاة السلطان محمد قبل وصوله إلى بغداد، وسمع مجاهد الدين بهروز بقربه من بغداد فأرسل إليه يمنعه من

---

(١) دبيس بن سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأسدي الناشري أبو الأعزّ، نور الدولة: صاحب الحلّة وأمير بادية العراق، كان من الشجعان الأشداء، موصوفاً بالحزم والهيبة، عارفاً بالأدب، يقول الشعر، ولد سنة ٤٦٣هـ، وقُتل أبوه سنة ٥٠١هـ، وأسر هو فأُرسل إلى بغداد، ثم أُطلق وعاد إلى الحلّة سنة ٥١٢هـ، فأقامه أهلها أميراً عليهم مكان أبيه، ثم نشبت حروب بينه وبين الخليفة المسترشد بالله، وانتهت بمقتل المسترشد سنة ٥٢٩هـ غيلةً، فاتهمه السلطان مسعود السلجوقي بقتله، فدسّ له مملوكاً قتله سنة ٥٢٩هـ.

دخولها فسار إلى السلطان محمود فلقيه قد وقّع بولاية بغداد له وهو بحلوان وعزل بهروز عن الولاية، وكان الأمراء عند السلطان يريدون آقسنقر البرسقي ويتعصّبون له ويكرهون مجاهد الدين بهروز ويحسدونه لقربه الذي كان من السلطان محمد ويخافون أن يزداد ذلك القرب عند السلطان محمود، فلما تولّى آقسنقر البرسقي ولاية بغداد هرب بهروز إلى تكريت وكانت له، ثم إن السلطان أعطى ولاية بغداد إلى الأمير منكوبرس وهو من أكابر الأمراء، وقد حكم في دولة السلطان محمود، فلما أُعطي الولاية سيّر إليها ربيبه الأمير حسين بن أزبك أحد الأمراء الأتراك وهو صاحب أسدأباد[1] لينوب عنه ببغداد والعراق.

ظهر آقسنقر البرسقي في عسكره أسفل الرقة وأظهر أنه يريد الحلّة وإجلاء دبيس بن صدقة عنها، وجمع دبيس جموعاً كثيرةً من العرب والأكراد ووزّع

(١) أسد أباد: مدينة بينها وبين همذان مرحلة واحدة. وأسد أباد أيضاً قرية من أعمال بيهق أنشأها أسد بن عبد الله القسري سنة ١٢٠هـ حيث كان على خراسان من قبل أخيه خالد بن عبد الله القسري أيام خلافة هشام بن عبد الملك.

الأموال والسلاح. وكان الملك مسعود بن السلطان محمد بالموصل مع أحد أمرائه وهو جيّوش بك فأشار عليهما جماعة ممن عندهما بقصد العراق فإنه لا مانع دونه فسارا في جيوشٍ كثيرةٍ ومع الملك مسعود وزيره فخر الملك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس، وقسيم الدولة زنكي بن آقسنقر وهو في غاية الشجاعة، ومعهم أيضاً صاحب سنجار، وأبو الهيجاء صاحب إربيل، وكرباوي بن خراسان التركماني صاحب البوازيج[1]، فلما علم البرسقي قربهم خافهم، وكان البرسقي قديماً قد جعله السلطان محمد مرافقاً ومشرفاً لولده مسعود وإنما كان خوفه من جيّوش بك، فلما اقتربوا من بغداد سار إليهم ليقاتلهم ويصدّهم فلما علم مسعود وجيّوش بك ذلك أرسلوا إليه الأمير كرباوي في الصلح وأعلمه أنما جاءوا نجدةً له على دبيس وتصالحوا وتعاهدوا واجتمعوا، ووصل مسعود إلى بغداد ونزل بدار المملكة وجاءهم الخبر بوصول الأمير عماد الدين منكبرس في جيشٍ كثيفٍ فسار البرسقي عن بغداد نحوه ليحاربه ويمنعه

(١) البوازيج: بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة، ويقال لها: بوازيج الملك.

عنها، فلما علم منكبرس به قصد النعمانية وعبر دجلة واجتمع هو ودبيس بن صدقة، وكان دبيس قد خاف من الملك مسعود والبرسقي فبنى أمره على المحاجزة والملاطفة فأهدى إلى مسعود هديةً حسنةً وللبرسقي وجيّوش بك كذلك، فلما وصل إليه خبر وصول منكبرس راسله واستماله واستحلفه على التعاضد والتناصر واجتمعا وكل واحدٍ منهما قوي بصاحبه، فلما اجتمعا سار الملك مسعود والبرسقي وجيّوش بك إلى المدائن للقاء دبيس ومنكبرس، فلما وصلوا إلى المدائن أتتهم الأخبار بكثرة الجموع معهما فعاد الملك مسعود والبرسقي وأفسد عسكرهما في السواد فساداً فاحشاً، فأرسل الخليفة المسترشد بالله إلى الملك مسعود والبرسقي ينكر عليهم هذه التصرفات ويأمرهم بحقن الدماء وترك الفساد ويأمر بالموادعة والمصالحة، وكان رسول الخليفة سديد الدولة ابن الأنباري[1]، وأنكر البرسقي أن يكون جرى منهما

---

(١) ابن الأنباري: محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الشيباني، أبو عبد الله، سديد الدولة ابن الأنباري: كاتب الإنشاء بديوان الخلافة ببغداد مدة خمسين سنةً، ولد سنة ٤٦٩هـ، كان ذا رأيٍ وتدبيرٍ، علّت مكانته عند الخلفاء=

شيء من ذلك وأجاب إلى العودة إلى بغداد، ووصل من أخبر البرسقي أن منكبرس ودبيساً قد جهّزوا ثلاثة آلاف فارسٍ مع منصور أخي دبيس والأمير حسين بن أزبك ربيب منكبرس وسيراه وعبر مخاضةً في نهر ديالي لخلوها من عسكرٍ يحميها ويمنع عنها، وهو في اتجاهه نحو بغداد، فعاد البرسقي إلى بغداد وعبر الجسر لئلا يخاف الناس ولم يعلموا الخبر واستخلف ابنه عز الدين مسعود على عسكره واستصحب معه عماد الدين زنكي بن آقسنقر فوصل إلى نهر ديالي ومنع عسكر منكبرس من العبور فأقام يومين فأتاه كتاب ابنه عز الدين مسعود يخبره أن الصلح قد استقرّ بين الفريقين، فعاد البرسقي إلى بغداد وسار إلى الملك مسعود، ورجع دبيس إلى الحلّة. وكان منكبرس متزوجاً أم الملك مسعود واسمها سرجهان. وأقام منكبرس ببغداد يظلم الرعية فطلبه السلطان فأخذ يراوغ، ثم اضطر إلى المغادرة خوفاً من الثورة عليه.

= والسلاطين، وناب في الوزارة، وأنفذ رسولاً إلى ملوك الشام وخراسان، وكان فاضلاً أديباً، بينه وبين الحريري (صاحب المقامات) مراسلات مدونة، وله شعر، وتوفي سنة ٥٥٨هـ.

عصيان طغرل على أخيه السلطان محمود:

كان الملك طغرل بن السلطان محمد بقلعة سرجهان لما توفي والده سنة ٥١١هـ. وكان عمره آنذاك ثماني سنوات إذ أن مولده سنة ٥٠٣هـ، وأقطعه والده سنة ٥٠٤هـ ساوة، وآوة، وزنجان، وكان الذي يتعهد أمره الأمير شيركير الذي كان يُقاتل الباطنية، وازدادت أملاك طغرل بما استولى عليه شيركير من قلاع الباطنية فأرسل إليه أخوه السلطان محمود الأمير كنتغدي ليكون المتعهد له ومدبّراً لأمره وليحمله إليه، فلما وصل إليه حسّن له مخالفة أخيه وترك الذهاب إليه وقد صار عمر طغرل عشر سنواتٍ، واتفقا على ذلك، وسمع السلطان محمود الخبر فأرسل شرف الدين أنوشروان بن خالد ومعه خلع وهدايا وتحف وثلاثون ألف دينارٍ ووعد أخاه طغرل بإقطاعٍ كثيرٍ زيادةً على ما يملك إذا قصده واجتمع به فلم تتم الموافقة على الاجتماع، وأجاب كنتغدي بأننا في طاعة السلطان وأية جهةٍ أراد قصدناها، ومعنا من العسكر ما نقاوم بها من يفكر بقصد السلطان، وبينما كان الخوض معهم في ذلك ركب السلطان محمود من باب همدان في عشرة آلاف فارسٍ في شهر جمادى الأولى سنة ٥١٣هـ وكتم وجهته وعزم أن يكبس

أخاه طغرل والأمير كنتغدي، فرأى أحد خواصه أحد الأتراك من أصحاب الملك طغرل فأعلم السلطان به فقبض عليه، فعلم أحد رفاقه ممن كان معه الحال فسار ليلته مسرعاً فقطع مسافةً قلما يقطعها صاحب حاجةٍ فوصل إلى الأمير كنتغدي وأعلمه الحال فقصد الملك طغرل وأخبره ذلك وأخذه متخفياً وقصدا قلعة سميران[1] فضلّا عن الطريق إلى قلعة سرجهان[2] وكانا قد فارقاها وجمعا العساكر، وكان ضلالهما سلامةً لهما فإن السلطان محمود جعل طريقه على قلعة سميران، وقال: إنها حصنهما الذي فيه الذخائر والأموال وإذا علما بوصوله إليها سارا إليها فربما صادفهما في الطريق فسلما منه بما ظنّاه عطباً لهما، ووصل السلطان إلى العسكر فكبسه ونهبه وأخذ من خزانة أخيه ثلاثمائة ألف دينارٍ وذلك المال الذي بعثه له، وأقام السلطان محمود بزنجان، وتوجّه منها إلى الريّ، ونزل طغرل من

(١) قلعة سميران: قلعة حصينة من أمهات القلاع على النهر الذي يصبّ في بحر قزوين عند مدينة رشت، والقلعة بين قزوين وجيلان.

(٢) سرجهان: قلعة حصينة على طرف جبال الديلم، تشرف على قزوين وزنجان. وهي من أحصن القلاع وأحكمها.

سرجهان، ولحق به أصحابه فقويت شوكته وتمكّنت الوحشة بينه وبين أخيه السلطان محمود.

القتال بين السلطان محمود وعمه أحمد سنجر:

عاد أحمد سنجر بن ملكشاه من غزنة إلى خراسان فبلغه موت أخيه السلطان محمد وجلوس ولده السلطان محمود مكانه في السلطنة وهو زوج ابنة عمه أحمد سنجر، فأصاب سنجر حزن شديد لموت أخيه وجلس للعزاء، وأغلق البلد سبعة أيامٍ وأظهر من الجزع والحزن ما لم يوصف، وتقدّم إلى الخطباء بذكر محاسن السلطان محمد من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك.

كان أحمد سنجر يُلقّب بناصر الدين فلما توفي أخوه محمد تلقّب بمعزّ الدين وهو لقب أبيه ملكشاه، وعزم على قصد بلاد الجبل والعراق وما بيد محمود ابن أخيه.

أرسل السلطان محمود إلى عمه سنجر الهدايا والتحف وبذل له النزول عن مازندران وحمل مائتي ألف دينار كل سنةٍ، وكان سنجر قد تجهّز للسير إلى الريّ فأشار عليه شرف الدين أنوشروان بترك القتال والحرب فكان جوابه في ذلك: إن ولد أخي صبي وقد

تحكّم عليه وزيره والحاجب علي بن عمر. فلما سمع السلطان محمود بمسير عمه نحوه ووصول مقدمته إلى جرجان تقدّم إلى الأمير علي بن عمر، وهو أمير حاجب السلطان محمد وبعده صار أمير حاجب السلطان محمود وأمره بالمسير وضمن له جمعاً كثيراً من العساكر والأمراء فاجتمعوا في عشرة آلاف فارس، فساروا إلى أن اقتربوا من مقدمة سنجر فراسله الأمير علي بن عمر يعرفه وصية السلطان محمد بتعظيم سنجر والرجوع إلى أمره ونهيه والقبول منه وأنه ظنّ أن سنجر يحفظ السلطنة على ولده السلطان محمود وأخذ عليه بذلك العهود فليس لنا أن نخالفه، وحيث جئتم إلى بلادنا لا نحتمل ذلك ولا نقضي عليه، وقد علمت أن معك خمسة آلاف فارس فأنا أرسل إليك أقل منهم لتعلم أنكم لاتقاوموننا ولا تقوون علينا فلما سمع قائد مقدمة سنجر عاد عن جرجان ولحقه بعض عسكر السلطان محمود فأخذوا أجزاء مما يملك من أرض، وأسروا عدداً من أصحابه، وكان السلطان محمود قد وصل إلى الريّ، وهوبها، وعاد الأمير علي بن عمر إليه فشكر له فعله وأثنى عليه وعلى عسكره الذين معه، وأُشير على السلطان محمود بملازمة الريّ والمقام بها، وقيل: إن عساكر خراسان إذا علموا بمقامك فيها لا يفارقون

حدودهم ولا يتعدّون ولايتهم، فلم يقبل ذلك، وضجر من الإقامة، وسار إلى جرجان. ووصل إلى السلطان محمود الأمير منكبرس من العراق في عشرة آلاف فارس، والأمير منصور بن صدقة أخو دبيس وأمراء آخرون، وسار السلطان محمود إلى همذان، وتوفي بها وزيره الربيب، واستوزر أبا طالب السميري، وبلغه وصول عمه سنجر إلى الريّ فسار نحوه قاصداً قتاله فالتقيا بالقرب من ساوة في الثاني من شهر جمادى الأولى سنة ٥١٣، وكان عسكر السلطان محمود قد عرفوا المفازة التي فيها عسكر سنجر فسبقوهم إلى الماء وملكوه عليهم. وكان العسكر الخراساني في عشرين ألفاً ومعهم ثمانية عشر فيلاً، وكان عسكر السلطان محمود ثلاثين ألفاً، واستهان عسكر محمود بعسكر عمه سنجر بكثرتهم وشجاعتهم وكثرة خيلهم فلما التقوا ضعفت معنويات عسكر سنجر لما رأوا من كثرة الطرف الآخر وقوتهم فانهزمت ميمنة سنجر وميسرته واختلط أصحابه واضطرب أمرهم وولّوا منهزمين لا يلوون على شيءٍ، ونُهب من أثقالهم شيء كثير، وقُتل عدد ليس بالقليل منهم، ووقف سنجر بين الفيلة في جمعٍ من أصحابه ومقابله ابن أخيه السلطان محمود، وألجأت الضرورة سنجر عند تعاظم الخطب عليه أن يقدم الفيلة

للحرب، وكان من بقي معه قد أشاروا عليه بالهزيمة، فقال: إما النصر وإما القتل، وأما الهزيمة فلا. فلما تقدمت الفيلة ورأتها خيل محمود تراجعت بأصحابها على أعقابها فأشفق سنجر على السلطان محمود ابن أخيه في تلك الحال، وقال لأصحابه: لا تُفزعوا الصبيّ بحملات الفيلة فكفّوها عنهم، وانهزم السلطان محمود ومن معه في القلب، وأُسر المتعهد له «غزغلي» فكان يكاتب سنجر ويعده أن يحمل إليه ابن أخيه فعاتبه على ذلك فاعتذر بالعجز فقتله، وكان ظالماً. وتمّ النصر والظفر ـ بإذن الله ـ للسلطان سنجر، فأرسل من أعاد المنهزمين من أصحابه، ووصل الخبر إلى بغداد في عشرة أيامٍ فأرسل دبيس بن صدقة إلى الخليفة المسترشد بالله بالخطبة للسلطان سنجر فخطب له في السادس والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٥١٣هـ، وقطعت الخطبة للسلطان محمود. وسار السلطان محمود إلى أصبهان ومعه وزيره أبو طالب السميري والأمير علي بن عمر، وأما السلطان سنجر فإنه سار إلى همذان فرأى قلّة عسكره واجتماع العساكر على ابن أخيه فراسله بالصلح، وكانت والدته تشير عليه بذلك وتقول له: قد استوليت على غزنة وأعمالها وعلى ما وراء النهر، وملكت ما لا حدّ عليه وأقررت الجميع

على أصحابه فاجعل ولد أخيك كأحدهم، وكانت والدة سنجر هي جدّة السلطان محمود، فأجاب إلى قولها. ثم كثرت العساكر عند سنجر. وراسل السلطان محمود فعاد الرسول وأبلغه أن الأمراء الذين مع السلطان محمود، قالوا: إنهم لا يصالحونه حتى يعود إلى خراسان، فلم يُجب على ذلك وسار من همذان إلى الكرج، وأعاد مراسلة السلطان محمود بالصلح، ووعده أن يجعله ولي عهده فأجابه إلى ذلك، واستقرّ الأمر بينهما، وتحالفا عليه، وسار السلطان محمود إلى عمه سنجر في شهر شعبان سنة ٥١٣هـ، ونزل على جدته والدة سنجر، وأكرمه عمه وبالغ في ذلك، وحمل له السلطان محمود هديةً عظيمةً فقبلها ظاهراً وردّها باطناً، ولم تُقبل منه سوى خمسة أفراسٍ عربيةٍ، وكتب السلطان سنجر إلى سائر الأعمال التي بيده كخراسان، وغزنة، وما وراء النهر وغيرها من الأقاليم بأن يُخطب للسلطان محمود بعده، وكتب إلى بغداد مثل ذلك، وأعاد عليه جميع ما أخذ منه من البلاد سوى الريّ وقصد بأخذها أن تكون له في هذه الديار لئلا يُحدّث السلطان محمود نفسه بالخروج.

مقتل الأمير منكوبرس:

كان الأمير منكوبرس متولي أمر بغداد، وكان مع

السلطان محمود عند هزيمته أمام عمه السلطان سنجر، وعاد إلى بغداد، وفي طريق عودته نهب عدة مواضع على طريق خراسان، وعندما أراد دخول بغداد وقف من منعه إذ أرسل دبيس بن صدقة قوةً حالت دون دخوله بغداد فرجع، واستقرّ الصلح بين السلطان سنجر وابن أخيه السلطان محمود. فقصد منكوبرس السلطان سنجر فدخل عليه ومعه سيف وكفن، فقال: أنا لا أؤاخذ أحداً، فأخذه وسلّمه إلى السلطان محمود، وقال: هذا مملوكك فاصنع به ما تريد فأخذه وكان في نفسه منه غيظ شديد لأسبابٍ منها: أنه لما توفي السلطان محمد أخذ سريته والدة الملك مسعود قهراً قبل انقضاء عدتها، ومنها جرأته عليه، واستبداده بالأمور دونه، ومسيره إلى عُهدة بغداد والسلطان كاره لذلك لكنه لم يقدر على منعه، ومنها ما قام به من ظلم بالعراق، فقتله صبراً.

مقتل الأمير علي بن عمر:

كان الأمير علي بن عمر حاجب السلطان محمد بن ملكشاه، ثم صار أكبر أميرٍ مع السلطان محمود بن السلطان محمد وانقادت له العساكر فحسده الأمراء وأفسدوا حاله مع السلطان محمود وحسّنوا له قتله، فعلم بذلك فهرب إلى قلعة «برجين» وكان بها أهله

وماله، وسار منها في مائتي فارس إلى الأهواز فأرسل إلى صاحبها وأخذ عهده بأمانه وحمايته، فلما سار إليهم أرسلوا عسكراً منعوه من قصدهم فلقوه على خمسةٍ وثلاثين كيلاً من مدينة تستر فاقتتلوا فانهزم هو وأصحابه فوقف به فرسه فانتقل إلى غيره فتعثر فأدركوه وأخذوه أسيراً وكاتبوا السلطان محمود في أمره فأمرهم بقتله فقُتل.

عصيان الملك مسعود على أخيه السلطان محمود:

كان الملك مسعود بن محمد بن ملكشاه يملك الموصل وأذربيجان وكان الأمير دبيس بن صدقة صاحب الحلّة يكاتب جيّوش بك متولّي شؤون مسعود ليحثّه على طلب السلطنة ويعده المساعدة وهدفه أن يختلف الأخوان محمود ومسعود فينال من الجاه وعلو المنزلة ما ناله أبوه باختلاف الأخوين بركيارق ومحمد ابني ملكشاه. وكان قسيم الدولة البرسقي المتولّي الثاني لشؤون الملك مسعود قد ترك عهدة بغداد، وقد أقطعه مسعود مراغة مضافةً إلى الرحبة، وكان بين قسيم الدولة البرسقي وبين دبيس بن صدقة عداوة محكمة فكاتب دبيس جيّوش بك يشير عليه بالقبض على البرسقي وينسب إليه الميل إلى السلطان محمود، وبذل له مالاً

كثيراً في سبيل القبض على البرسقي، ووصلت أخبار ما يجري إلى البرسقي ففارقهم وسار إلى السلطان محمود فأكرمه وأعلى محله وزاد في تقديمه.

وكان دبيس يكاتب الأمراء وأصحاب المكانة بمخالفة السلطان محمود، وقد نجحت سياسة دبيس بعض النجاح ولاقت تجاوباً عند بعض الأمراء فخطبوا للملك مسعود بالسلطنة، كما تفرّقت العساكر عن السلطان محمود وهذا ما زاد من أطماع الآخرين فيه فأسرعوا إليه ليلقوه وهو قليل العسكر فاجتمع إليه خمسة عشر ألفاً فسار هو أيضاً إليهم فالتقوا عند عقبة أسدأباد في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٥١٤هـ واقتتلوا من الصباح إلى آخر النهار، وكان قسيم الدولة البرسقي في مقدمة السلطان محمود وأبلى يومئذٍ بلاء حسناً وانهزم عسكر الملك مسعود آخر النهار، وأُسر منهم جماعة كثيرة من أعيانهم ومقدميهم، وأما الملك مسعود فإنه لما انهزم أصحابه وتفرّقوا قصد جبلاً فاختفى فيه وأرسل أحد أصحابه ويدعى عثمان إلى أخيه السلطان محمود يطلب له الأمان فسار إليه وأعلمه حال أخيه مسعود فرقّ له، وبذل له الأمان، وأمر آقسنقر البرسقي بالمسير إليه، وتطييب قلبه وإعلامه بعفوه وإحضاره، فكان مسعود بعد

أن أرسل يطلب الأمان قد وصل إليه بعض الأمراء وحسّن له اللحاق بالموصل وكانت له من أذربيجان وأشار عليه بمكاتبة دبيس بن صدقة ليجتمع به ويكثر جمعه ويعاود طلب السلطنة، فسار معه من مكانه ووصل البرسقي فلم يجتمع به، وأُخبر بمسيره فسار في أثره وعزم على طلبه ولو إلى الموصل وجدّ بالسير فأدركه بعد أن سار مائةً وستين كيلاً، وعرّفه عفو أخيه عنه وضمن له ما أراد وأعاده إلى العسكر فأمر السلطان محمود العساكر باستقباله وتعظيمه ففعلوا ذلك، وأمر السلطان أن ينزل عند والدته وجلس له وأحضره واعتنقا وبكيا، وعطف عليه محمود ووفّى له ما بذله وشاركه في أعماله كلها، وكانت الخطبة بالسلطنة لمسعود بأذربيجان والموصل والجزيرة الفراتية، وأما متعهد شؤونه جيّوش بك فقد سار إلى عقبة أسدأباد وانتظر الملك مسعود هناك فلم يره وانتظره في مكانٍ آخر فلم يصل إليه فلما آيس من اللقاء به هناك سار إلى الموصل ونزل بظاهرها وجمع الغلات من سوادها، واجتمع إليه عسكره فلما سمع بما فعله السلطان مع أخيه علم أنه لا مقام له على هذه الحال فسار كأنه يريد الصيد فوصل إلى الزاب، وقال لمن معه: إنني قد عزمت على قصد السلطان محمود وأخاطر بنفسي فسار إليه وهو بهمذان ودخل إليه فطيّب قلبه وأمّنه وأحسن إليه.

كان دبيس بالعراق فلما بلغه انهزام الملك مسعود نهب البلاد وخرّب فيها ما استطاع فعله فأرسل إليه الخليفة المسترشد بالله يُنكر عليه فعله ويأمره بالكفّ فلم يفعل فأرسل إليه السلطان وطيّب خاطره، وأمره بمنع أصحابه عن الفساد فلم يقبل وسار بنفسه إلى بغداد وضرب فسطاطه مقابل دار الخلافة وأظهر الضغائن التي في نفسه وهدّد الخليفة، وقال: إنك أرسلت تستدعي السلطان فإن أعدتموه وإلا صنعت وفعلت، فأُجيب إن عودة السلطان غير ممكنٍ وقد سار عن همذان، ولكننا نصلح حالك معه، فكفّ على أن تسير الرسل بينه وبين السلطان. وخرج من بغداد في شهر رجب سنة ٥١٤هـ، ووصل السلطان إلى بغداد بعد أيامٍ فأرسل دبيس أموالاً كثيرةً وهدايا نفيسةً وسأل الصفح عنه فأُجيب إلى ذلك، ولكنه استمرّ في النهب، فسار السلطان عن بغداد في شهر شوال سنة ٥١٤هـ وقصده الحلّة مقرّ دبيس، فلما علم دبيس بمسير السلطان أرسل يطلب الأمان فأمّنه، وكان قصد دبيس أن يُغالط السلطان حتى يتجهّز فأرسل نساءه إلى البطيحة، وأخذ أمواله وسار عن الحلّة بعد أن نهبها والتجأ إلى إيلغازي. ووصل السلطان إلى الحلّة فلم ير أحداً فبات بها ليلةً واحدةً وعاد.

أقام دبيس عند إيلغازي في حلب، ثم أرسل أخاه منصوراً في جيشٍ من قلعة جعبر إلى العراق فنزل الحلّة والكوفة والبصرة، وحاول أن يصلح أمره مع السلطان فلم يتمّ أمره فأرسل إلى أخيه دبيس يعرفه ذلك ويدعوه إلى العراق، فسار من قلعة جعبر إلى الحلّة سنة ٥١٥هـ فدخلها وملكها، وأرسل إلى الخليفة والسلطان يعتذر ويعد بالطاعة فلم يُجب إلى ذلك، وسُيّرت إليه العساكر فلما اقتربت فارق الحلّة، ووصل العسكر إلى الحلّة وقد أُجلي أكثر أهلها عنها، فترك مقدم عسكر السلطان سعد الدولة برتقش الزكوي خمسمائة فارس بالحلّة وبالكوفة جماعة أخرى، وعبر عسكر السلطان إلى دبيس، وكانت مراسلة بين برتقش ودبيس واتفقا على أن يرسل دبيس أخاه منصوراً رهينةً ويلزم الطاعة ففعل وعاد العسكر إلى بغداد سنة ٥١٦هـ.

خروج الكرج:

كان الكرج وهم أهل جورجيا يغيرون أحياناً على ديار الإسلام رغم أن قاعدتهم مدينة تفليس بيد المسلمين منذ مدةٍ، وتوقّف الكرج عن إغارتهم أيام السلطان ملكشاه إلى آخر أيام السلطان محمد بن ملكشاه سنة ٥١١هـ، فلما توفي هذا السلطان أخذوا

بالاستعداد واجتمعوا مع الأمم الكافرة المجاورة لهم وخرجوا سنة ٥١٤هـ على ديار الإسلام فتراسل الأمراء المسلمون المجاورون لبلادهم واجتمعوا ومنهم الأمير إيلغازي وكان عنده دبيس بن صدقة والملك طغرل بن محمد فاجتمعوا وساروا إلى الكرج وكانوا في ثلاثين ألفاً فلما اقتربوا من تفليس التقوا معهم واصطف الفريقان للقتال فخرج من القفجاق مائتا رجلٍ فظنّ المسلمون أنهم خرجوا مستأمنين لذا لم يأخذوا حذرهم منهم ودخلوا بينهم ورموا بالنشّاب فاضطرب صفّ المسلمين، وظنّ الذين على بُعدٍ أنها الهزيمة فانهزموا وتبع بعضهم بعضاً منهزمين ولشدة الزحام صدم بعضهم بعضاً فقُتل من المسلمين عدد كبير وتبعهم الكفار مسافة خمسين كيلاً يقتلون ويأسرون فقُتل كثير وأُسر أربعة آلاف رجلٍ ونجا الملك طغرل بن محمد وإيلغازي ودبيس وعاد الكرج فنهبوا بلاد المسلمين وحاصروا مدينة تفليس واشتدّ قتالهم لمن فيها وعظم الأمر وتفاقم الخطب على أهلها واستمرّ الحصار إلى سنة ٥١٥هـ ثم ملكوها عنوةً، وكان أهلها لما أشرفوا على الهلاك أرسلوا قاضي البلد وخطيبها إلى الكرج في طلب الأمان، فلم تصغ الكرج إليهما ودخلوا البلد قهراً وغلبةً واستباحوه ونهبوه ووصل المستنفرون منهم إلى بغداد

مستصرخين ومستنصرين سنة ٥١٦هـ فبلغهم أن السلطان محمود بهمدان فقصدوه واستنصروه فسار إلى أذربيجان وأقام بمدينة تبريز وبعث بالعساكر إلى بلاد الكرج.

غزوات إيلغازي:

أرسل الخليفة المسترشد بالله سنة ٥١٤هـ خلعاً وهدايا مع سديد الدولة بن الأنباري إلى نجم الدين إيلغازي مع شكره له على ما يفعله من غزو الصليبيين وقتالهم، ويأمره بإبعاد دبيس بن صدقة عنه، وسار أبو علي بن عمار الذي كان صاحب طرابلس مع ابن الأنباري إلى نجم الدين إيلغازي ليقيم عنده ويرصد أعماله بما ينقم عليه، فاعتذر إيلغازي عن إبعاد دبيس ووعد به مستقبلاً. وسار إيلغازي إلى الصليبيين وكان قد جمع لهم جمعاً فالتقوا بموضعٍ اسمه «ذات البقل» من أعمال حلب، فاقتتلوا أشدّ القتال وكان الظفر لنجم الدين إيلغازي، ثم اجتمع إيلغازي وطغتكين صاحب دمشق وحاصروا الصليبيين في معرة قنسرين يوماً وليلةً ثم أشار طغتكين بالإفراج عنهم كيلا يحملهم الخوف على أن يستقتلوا ويخرجوا إلى المسلمين بتلك الحماسة فربما ظفروا، وكان أكثر خوفه من إدبار خيل التركمان وجودة خيل الصليبيين، فأفرج لهم إيلغازي فساروا عن

مكانهم وتخلّصوا، وتسلّم المسلمون معرة قنسرين.

وعصا سليمان بن إيلغازي بن أرتق بحلب على أبيه وذلك سنة ٥١٥هـ، وكان سليمان قد بلغ من العمر عشرين سنةً حمله على ذلك جماعة من المقرّبين إليهم، فلما سمع الوالد إيلغازي بالخبر سار مجدّاً مباشرةً فلم يشعر به سليمان حتى هجم عليه فخرج إليه معتذراً فأمسك عنه وقبض على من كان أشار عليه بذلك، منهم: أمير يُدعىٰ ناصر كان قد التقطه أرتق والد إيلغازي وربّاه، فقلع عينيه وقطع لسانه، ومنهم رجل من أهل حماة من بيت قرناص كان قد قدمه إيلغازي على أهل حلب وجعل إليه الرئاسة فجازاه بذلك فقطع إيلغازي يديه ورجليه وسمل عينيه فمات. وأحضر إيلغازي ولده سليمان وأراد قتله فمنعته عاطفة الأبوة فاستبقاه فهرب إلى دمشق، فأرسل طغتكين يشفع فيه فلم يجبه إلى ذلك. واستناب بحلب سليمان ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق ولقّبه بدر الدولة، وعاد إلى ماردين.

وأقطع السلطان محمود مدينة ميافارقين للأمير إيلغازي وسبب ذلك أنه أرسل ولده حسام الدين تمرتاش وعمره سبع عشرة سنةً إلى السلطان ليشفع في

دبيس بن صدقة ويبذل عنه الطاعة وحمل معه الأموال والخيل وغيرها، وأن يضمن الحلّة كل يومٍ بألف دينار وفرس، ولم يُقض بأمر، ولما أراد حسام الدين تمرتاش العودة أقطع السلطان أباه مدينة ميافارقين، وكانت مع الأمير سكمان صاحب مدينة خلاط وبقيت في يده ويد أولاده إلى أن ملكها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٠هـ.

طاعة الملك طغرل لأخيه السلطان محمود:

كان الملك طغرل قد خرج عن طاعة أخيه السلطان محمود في سنة ٥١٥هـ وقصد أذربيجان ليستولي عليها، وكان مدير شؤونه كنتغدي يحسّن له ذلك ويُقوّيه عليه فاتفق أنه مرض وتوفي في شهر شوال سنة ٥١٥هـ. وكان الأمير آقسنقر الأحمديلي صاحب المراغة عند السلطان محمود ببغداد فاستأذنه بالمضي إلى إقطاعه المراغة فأذن له، فلما سار عنه السلطان محمود، وقال له: إذا وصلت إلى المراغة صار إليك عشرة آلاف فارسٍ وراجلٍ، فسار معه فلما وصلوا إلى أردبيل أغلقت أبوابها دونهم فساروا عنها إلى قرب تبريز فأتاهم الخبر أن السلطان محمود سيّر إليهم الأمير جيّوش بك إلى أذربيجان وأقطعه البلاد، وأنه نزل المراغة في عسكرٍ كثيفٍ من عند السلطان، فلما تيقّنوا

ذلك عدلوا إلى خونج[1] وانتقض عليهم ما كانوا فيه، وراسلوا الأمير شيركير الذي كان مدير شؤون طغرل أيام أبيه السلطان محمد يدعونه إلى إنجادهم، وكان كنتغدي قد قبض عليه بعد وفاة السلطان محمد، ثم أطلقه السلطان سنجر فعاد إلى إقطاعه في أبهر وزنجان، وكاتبوه فأجابهم وسار معهم إلى أبهر فلم يتمّ لهم ما أرادوا، فراسلوا السلطان محمود بالطاعة فأجابهم إلى ذلك، وتمّ الأمر في شهر المحرم من سنة ٥١٦هـ.

دبيس بن صدقة:

لم يرض الخليفة المسترشد بالله عن الصلح الذي تمّ بين السلطان ودبيس بن صدقة، فراسل الخليفة السلطان محمود وطلب منه إبعاد دبيس عن العراق إلى بعض النواحي، وتردّد في الخطاب وعزم السلطان على المسير إلى همذان فأعاد الخليفة الشكوى من دبيس، وطالب السلطان أن يحضر آقسنقر البرسقي من الموصل ويوليه شؤون بغداد والعراق ويجعله في وجه دبيس، ففعل السلطان ذلك وأحضر البرسقي وجعله المسؤول

(١) خونج: بلد من أعمال أذربيجان بين المراغة وزنجان في طريق الريّ، وهو آخر إقليم أذربيجان.

عن شؤون بغداد وأمره بقتال دبيس إن تعرّض لشؤون البلاد، وسار السلطان عن بغداد في شهر صفر سنة ٥١٦هـ، فلما فارق بغداد والعراق تظاهر دبيس بأمورٍ تأثّر بها الخليفة المسترشد بالله فأمر البرسقي بالمسير إليه وإزاحته عن الحلّة، فأرسل البرسقي إلى الموصل وأحضر عساكره وسار إلى الحلّة وأقبل دبيس نحوه فالتقوا شرق نهر الفرات واقتتلوا فانهزم عسكر البرسقي بعد أن رأوا خيمته قد سقطت فظنّوا أنها الهزيمة وتبعهم الناس والبرسقي، ودخل بغداد في الثاني من شهر ربيع الثاني سنة ٥١٦هـ.

أرسل دبيس بن صدقة إلى الخليفة المسترشد بالله أنه على الطاعة ولولا ذلك لأخذ البرسقي وجميع من معه، وسأله أن يخرج الناظر إلى القرى التي هي خاصّة بالخليفة لقبض دخلها فشكر الخليفة له فعله. ولما سمع السلطان خبر الوقعة بين البرسقي ودبيس قبض على منصور بن صدقة أخي دبيس وولده اللذين كانا رهينةً في بغداد ورفعهما إلى قلعة برجين قرب بلاد الكرج.

أمر دبيس جماعةٍ من أصحابه بالمسير إلى إقطاعاتهم بواسط فساروا إليهم فمنعهم أتراك واسط، فجهّز دبيس لهم عسكراً وجعل مقدمهم مهلهل بن أبي

العسكر وأرسل إلى المظفّر بن أبي الجبر بالبطيحة ليتفق مع مهلهل على قتال الواسطيين، فاتفقا على أن تكون الوقعة في التاسع من رجب، وأرسل الواسطيون إلى البرسقي يطلبون منه المدد فأمدّهم بجيشٍ من عنده، وعجل مهلهل في عسكر دبيس ولم ينتظر المظفّر ظنّاً منه أنه بمفرده ينال منهم ما أراد وينفرد بالفتح فالتقى هو والواسطيون في الثامن رجب سنة ٥١٦هـ فانهزم مهلهل وعسكره، وظفر الواسطيون وأُخذ مهلهل أسيراً وجماعة من أعيان العسكر، وقُتل ما يزيد على ألف قتيلٍ، ولم يُقتل من الواسطيين سوى رجلٍ واحدٍ، وأما المظفّر بن أبي الجبر فإنه خرج من البطيحة وأفسدت عساكره في طريقها فلما اقترب من واسط سمع بهزيمة مهلهل فعاد إلى البطيحة. وكان من جملة ما أخذ العسكر الواسطي من مهلهل رقعةً بخط دبيس يأمره فيها بالقبض على المظفّر بن أبي الجبر ومطالبته بأموالٍ كثيرةٍ أخذها من البطيحة فأرسل الواسطيون الرقعة إلى المظفّر، وقالوا: هذا خط الذي تختاره، وقد أسخطت الله تعالى والخلق كلهم لأجله فمال إليهم وصار معهم.

وبلغ دبيس أن السلطان كحّل أخاه منصوراً فزاده حقداً على حقدٍ فأخذ في نهب البلاد ومنها أملاك

الخليفة، وأجلى الناس إلى بغداد، وسار عسكر واسط إلى النعمانية فأجلوا عنها عسكر دبيس واستولوا عليها بعد معركةٍ انتصر فيها الواسطيون، وتقدّم الخليفة إلى البرسقي بحرب دبيس فخرج إليه في رمضان.

مقتل السميرمي:

كان السلطان محمود يريد المسير إلى همدان وخرج وزيره أبو طالب السميرمي ليسير معه فخرج أحد الباطنية وضربه بسكينٍ فأصابت الضربة البغلة وهرب الجاني باتجاه دجلة وتبعه رجال الوزير فخلا الموضع فخرج باطني آخر فضرب الوزير في خاصرته وجذبه عن البغلة إلى الأرض وضربه عدة ضرباتٍ، وعاد أصحاب الوزير فحمل عليهما رجلان من الباطنية فانهزموا منهما ثم عادوا وقد ذُبح الوزير ذبح الشاة فحُمل قتيلاً وبه نيف وثلاثون جراحةً وقُتل قاتلوه. وكانت وزارته ثلاث سنواتٍ وعشرة أشهرٍ. واستوزر السلطان بعده شمس الملك بن نظام الملك.

مقتل جيُوش بك:

كان جيّوش بك قد خرج على السلطان محمود ثم رجع إلى طاعته وخدمته، فلما رضي عنه السلطان أقطعه

أذربيجان وجعله مقدّم عسكره، فجرى بينه وبين جماعةٍ من الأمراء منافرة ومنازعات فأغروا به السلطان فقتله في شهر رمضان سنة ٥١٦هـ على باب تبريز. وكان تركياً من مماليك السلطان محمد.

وفاة إيلغازي:

توفي صاحب حلب إيلغازي بن أرتق بمدينة ميافارقين في شهر رمضان سنة ٥١٦هـ، وملك ابنه حسام الدين تمرتاش قلعة ماردين، وملك ابنه سليمان مدينة ميافارقين، وكان بحلب ابن أخيه بدر الدين سليمان بن عبد الجبار بن أرتق فبقي بها.

وأقطع السلطان محمود الأمير آقسنقر البرسقي واسط وأعمالها إضافةً إلى ولاية الموصل وغيرها مما بيده من عهدة شؤون العراق. فعهد البرسقي إلى عماد الدين زنكي بن آقسنقر الذي كان أبوه صاحب حلب، فسار إليها عماد الدين زنكي في شهر شعبان سنة ٥١٦هـ وتولّى أمرها.

مسير الخليفة لحرب دبيس:

كان عفيف خادم الخليفة المسترشد بالله أسيراً عند دبيس بن صدقة فأطلقه وحمّله رسالةً إلى الخليفة فيها

تهديد بإرسال البرسقي ودعمه بالمال لقتال الخليفة بعد أن كحّل السلطان أخا دبيس منصوراً وبالغ بالوعد وحلف لينهبنّ بغداد ويخربها فاغتاظ الخليفة لهذه الرسالة وغضب وتقدّم إلى البرسقي لحرب دبيس، فبرز في رمضان سنة ٥١٦هـ، وتجهّز الخليفة وخرج من بغداد واستدعى العساكر فأتاه سليمان بن مهارش صاحب الحديثة في عقيل وأتاه قرواش بن مسلم، واستنفر الخليفة الناس فجاءته جموع كثيرة، ولما علم دبيس بالأخبار كتب إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرضا عنه فلم يجبه إلى ذلك، وخرج الخليفة من بغداد في الرابع عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥١٦هـ، وجاء البرسقي ومن معه من العساكر إلى الخليفة ليكونوا معه وليخدموه.

ونزل الخليفة بالحديثة في مستهل شهر المحرم سنة ٥١٧هـ واستدعى البرسقي والأعيان والأمراء واستحلفهم على المناصحة في الحرب. وعبّأ البرسقي أصحابه ووقف الخليفة في خاصته بالمؤخّرة، وجعل دبيس أصحابه صفاً واحداً ميمنةً وميسرةً وقلباً، وجعل الرجالة بين يدي الخيالة، وكان قد وعد أصحابه بنهب بغداد وسبي النساء.

ولما تراءت الفئتان بادر أصحاب دبيس وبين أيديهم الإماء يضربن بالدفوف، ولم ير في عسكر الخليفة غير قارئٍ ومسبّحٍ وداعٍ، وقامت الحرب بين الطرفين فحمل عنترة بن أبي العسكر في طائفةٍ من عسكر دبيس على ميمنة البرسقي فتراجعت على أعقابها، وعاد عنترة وحمل حملةً ثانيةً على هذه الميمنة فتراجعت أيضاً كما تراجعت في المرة الأولى، فلما رأى عسكر واسط ذلك ومقدمهم عماد الدين زنكي بن آقسنقر حمل وهم معه على أصحاب عنترة وأتوهم من ظهورهم فوقع عنترة ومن معه في الأسر ولم يفلت منهم أحد، وكان البرسقي واقفاً على مرتفعٍ من الأرض، وكان الأمير آق بوري في كمينٍ في خمسمائة فارسٍ فلما اختلط الناس خرج الكمين على عسكر دبيس فانهزموا جميعاً وألقى بعضهم نفسه بالماء فغرق كثير منهم وقُتل كثير.

ولما رأى الخليفة اشتداد الحرب جرّد سيفه وكبّر وتقدّم إلى الحرب. فلما انهزم عسكر دبيس وحُملت الأسرى إلى بين يديه أمر الخليفة أن تضرب أعناقهم صبراً، وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارسٍ واثني عشر ألف راجل، وعسكر البرسقي ثمانية آلاف فارسٍ

وخمسة آلاف راجلٍ، ولم يقتل من أصحاب الخليفة غير عشرين فارساً، وأخذت نساء عسكر دبيس وجواريه أسرى سوى بنت إيلغازي وبنت عميد الدولة بن جهير فإنهما تركتا في المشهد، وعاد الخليفة إلى بغداد فدخلها يوم عاشوراء سنة ٥١٧هـ. وأما دبيس بن صدقة فإنه لما انهزم عسكره نجا بفرسه وسلاحه فتبعته الخيل ولكن فاتها وعبر الفرات واختفى خبره، وأُشيع أنه قُتل، ثم ظهر أمره أنه قصد غُزيّة من عرب نجد فطلب منهم أن يحالفوه فامتنعوا عليه، وقالوا: إنا نسخط الخليفة والسلطان، فرحل إلى المنتفق واتفق معهم على قصد البصرة وأخذها فساروا إليها ودخلوها ونهبوها، وأجلوا أهلها عنها. فأرسل الخليفة إلى البرسقي يعاتبه على إهماله أمر دبيس حتى تمّ له من أمر البصرة ما أخربها، فتجهّز البرسقي للسير إليه فسمع دبيس ذلك ففارق البصرة وسار إلى قلعة جعبر والتحق بالصليبيين وحضر معهم حصار حلب وأطمعهم في أخذها فلم يظفروا بها فعادوا عنها، ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل بن السلطان محمد فأقام معه وحسّن له قصد العراق.

استيلاء بُلك بن بهرام على حلب:

سار بُلك بن بهرام بن أخي إيلغازي إلى مدينة

حران وحاصرها ودخلها في شهر ربيع الأول سنة ٥١٧هـ، ثم سار منها إلى مدينة حلب وذلك أنه قد بلغه أن صاحبها ابن عمه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق قد سلّم حصن الأثارب إلى الصليبيين فعظم عليه ذلك، وعلم عجزه عن حفظ بلاده فقوي طمعه في الاستيلاء عليها فسار إليها ونازلها وضيّق على أهلها ومنع عنها الغلال وأحرق زروعها فسلّم إليه ابن عمه البلد والقلعة بالأمان في غرة شهر جمادى الأولى سنة ٥١٧هـ.

انتصار السلطان محمود على الكرج:

اشتدت نكاية الكرج في بلاد الإسلام وعظم الأمر على المسلمين وخاصةً أهل دربند[١] شروان[٢] فسار منهم جماعة من أعيانهم إلى السلطان محمود وشكوا إليه ما يلقونه من الكرج، وأعلموه بما هم عليه من الضعف والعجز عن حفظ بلادهم، وأن الكرج قد

---

(١) دربند: وهي كلمة فارسية، وتعني بالعربية باب الأبواب، وهي ميناء داغستاني على بحر قزوين.

(٢) شروان: المناطق الداخلية من بلاد داغستان اليوم، وبنى قاعدتها أنوشروان فسميت باسمه.

وصلوا إلى شماخي[1] فسار إليهم السلطان ونزل في بستانٍ هناك، وتقدّم الكرج إليه فخافهم العسكر خوفاً شديداً، وأشار الوزير عثمان بن نظام الملك على السلطان بالعودة من هناك، فلما سمع أهل شروان بذلك قصدوا السلطان وقالوا له: نحن نقاتل مهما أقمت عندنا، وإن رحلت عنا ضعفت نفوس المسلمين وهلكوا، فقبل قولهم وأقام بمكانه وبات العسكر بروحٍ معنويةٍ عاليةٍ وهم على نيّة القتال، وأتاهم من الله الفرج إذ اختلف الكرج والقفجاق ووقعت العداوة بينهما فاقتتلوا تلك الليلة ورحلوا شبه منهزمين، وكفى الله المؤمنين القتال، وأقام السلطان بشروان مدةً ثم عاد إلى همذان ودخلها في شهر جمادى الآخرة سنة ٥١٧هـ.

مقتل بُلك بن بهرام:

قبض بُلك بن بهرام صاحب حلب على الأمير حسان البعلبكي صاحب منبج في شهر صفر سنة ٥١٨هـ، ثم سار إلى منبج فحاصرها ودخلها، وحاصر القلعة فامتنعت عليه فسار الصليبيون إليه ليبعدوه عنها خوفاً من أن يقوى فيصبح خطراً عليهم فلما اقتربوا منه

---

(١) شماخي: قصبة بلاد شروان.

ترك على القلعة من يحاصرها وسار في بقية عسكره إلى الصليبيين فالتقى معهم وقاتلهم فهزمهم، وقتل منهم عدداً كبيراً، وعاد إلى منبج فحاصرها، وبينما هو في حصاره أصابه سهم فقتله ولا يدري أحد من أطلقه فاضطرب أمر عسكره وتفرّقوا وخرج حسان البعلبكي من سجنه، وكان حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق مع ابن عمه بُلك بن بهرام فحمله مقتولاً إلى ظاهر حلب، وتسلّم هو حلب في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥١٨هـ، وانتهى الحصار عن قلعة منبج وعاد إليها صاحبها حسان، واستقر حسام الدين تمرتاش في حلب واستولى عليها، ثم ولّى أمرها نائباً عنه يثق به، وعاد إلى ماردين.

ولاية العراق:

كان البرسقي متولّياً شؤون بغداد والعراق وقد نفر منه الخليفة المسترشد بالله فأرسل إلى السلطان محمود يلتمس منه أن يعزل البرسقي عن العراق وأن يعيده إلى الموصل فأجابه السلطان وأرسل إلى البرسقي يأمره بالعودة إلى الموصل والاشتغال بجهاد الصليبيين، وتولّى بغداد والعراق مكانه سعد الدولة يرنقش الزكوي.

لما سار البرسقي إلى الموصل كان عماد الدين

زنكي بن آقسنقر بالبصرة وقد سيّره البرسقي إليها ليحميها وقد سُرّ الناس كثيراً من إمارته وعجبوا من أفعاله المحمودة. ووصل عماد الدين زنكي إلى الموصل فسلّمها البرسقي له، وسار هو إلى السلطان بأصبهان فاستقبله وأكرمه وأقطعه البصرة وأعاده إليها.

ولاية البرسقي على حلب:

بعد أن سيطر الصليبيون على مدينة صور على ساحل الشام ظهرت أطماعهم وقويت نفوسهم وتوقّعوا إمكانية الاستيلاء على بلاد الشام كلها فاستعدّوا وحشدوا ما أمكنهم حشده، ثم وصل إليهم دبيس بن صدقة رجل المصالح والأطماع فأغراهم بالسير إلى حلب، وأغراهم بمساعدته، وأن أهل حلب معه يفتحون له الأبواب مجرد رؤيته، وسأكون نائباً عنكم ومطيعاً لكم، فساروا معه إليها وحاصروها وقاتلوا أهلها قتالاً شديداً ووطّنوا نفوسهم على الإقامة الطويلة عليها وأنهم لن يفارقوها حتى يملكوها وقد بنوا البيوت لذلك، فلما رأى أهلها ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا الهلاك بأيدي الصليبيين، وظهر لهم من صاحب المدينة حسام الدين تمرتاش الوهن والعجز، وقلّت لديهم الأقوات، وفكّروا بطريق الخلاص والنجاة فرأوا أنه ليس لهم سوى

صاحب الموصل البرسقي فأرسلوا إليه يستنجدونه ويسألونه القدوم إليهم ليسلّموه البلد، فجمع عساكره وقصدهم وأرسل إلى أهلها وهو في الطريق يقول: إنني لا أستطيع الوصول إليكم والصليبيون يقاتلونكم إلا إذا سلّمتم القلعة إلى نوابي وصار أصحابي فيها لأنني لا أدري ما يُقدّره الله تعالى إذا أنا لقيت الصليبيين فإن انهزمنا منهم وليس حلب بيد أصحابي حتى احتمي أنا وعسكري بها لم يبق منا أحد وحينئذٍ تؤخذ حلب وغيرها، فأجابوه إلى ذلك وسلّموا القلعة إلى نوابه فلما استقرّوا فيها واستولوا عليها سار في العساكر التي معه فلما أشرف عليها رحل الصليبيون عنها، وهو يراهم، فأراد الذين في مقدمة عسكره أن يحملوا عليهم فمنعهم هو بنفسه، وقال: قد كُفينا شرّهم وحفظنا بلدنا منهم، والمصلحة تركهم حتى يتقرّر أمر حلب ونُصلح حالها ونُكثر ذخائرها ثم حينئذٍ نقصدهم ونقاتلهم. فلما رحل الصليبيون خرج أهل حلب واستقبلوه وفرحوا به وأقام عندهم حتى أصلح الأمور.

الملك طغرل بن محمد:

بعد أن رحل دبيس بن صدقة عن حلب مع رحيل الصليبيين عنها قصد الملك طغرل بن محمد أخا

السلطان محمود فاستقبله وأكرمه وأحسن إليه وجعله من أعيان خواصه وأمرائه فحسّن إليه دبيس قصد العراق وهوّن عليه أمره وضمن له أن يملكه وأغراه بالخليفة فسار معه إلى العراق، فوصلوا إلى دقوقا[1] في عساكر كثيرةٍ، فكتب مجاهد الدين بهروز من تكريت يخبر الخليفة خبرهما فتجهّز للمسير ومنعهما وأمر يرنقش الزكوي متولّي أمر العراق أن يكون مستعداً للحرب، وجمع الأمراء والعساكر فبلغ عدد العساكر اثني عشر ألف فارسٍ إضافةً إلى الرجالة وأهل بغداد ووزّع السلاح وخرج في الخامس من شهر صفر سنة ٥١٩هـ من باب النصر ـ أُطلق عليه هذا الاسم يومذاك ـ وبين يديه رجال الدولة. فلما سمع الملك طغرل بخروج الخليفة عدل إلى طريق خراسان وتفرّق أصحابه ينهبون ونزل هو بـ (جلولاء)[2]، وتوجّه طغرل ودبيس إلى الهارونية، واستقرّ بينهما أن يعبرا نهر ديالي ويقطعا جسر النهروان، ويقيم دبيس ليحفظ المعابر ويتقدّم طغرل إلى بغداد فيملكها وينهبها. وهطلت أمطار غزيرة

---

(١) دقوقا: مدينة بين بغداد وإربيل.

(٢) جلولاء: مدينة شمال شرقي بغداد وعلى بعد ١٢٥ كيلاً منها، تقع على نهر ديالي.

وجرت السيول، وأُصيب طغرل بحمّى شديدةٍ.

وسار طغرل ودبيس أخيراً إلى السلطان سنجر فمرا على همذان وفرضا على أهلها مالاً كثيراً وأخذوه وغابوا، فبلغ خبرهم السلطان محمود فجدّ السير إليهم فانهزموا منه وتبعتهم العساكر فدخلوا خراسان إلى السلطان سنجر وشكيا إليه من الخليفة ويرنقش الزكوي متولّي شؤون بغداد.

مقتل آقسنقر البرسقي:

بينما كان آقسنقر صاحب الموصل يصلي صلاة الجمعة بمدينة الموصل في الثامن من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ إذا وثب عليه عدد من الباطنية وضربوه بالسكاكين فقتلوه وقد جرح ثلاثةً منهم بيده. ولما قتل كان ابنه عز الدين مسعود بحلب يحميها من الصليبيين، فأرسل إليه أصحاب أبيه بالخبر فسار إلى الموصل ودخلها في غرة شهر ذي الحجة وأحسن إلى أصحاب أبيه بها، وأقرّ وزيره المؤيد أبا غالب بن عبد الخالق بن عبد الرزاق، وأطاعه الأمراء والأجناد وسار إلى السلطان محمود يُعلن له الطاعة فأحسن إليه وأعاده، ولم يختلف عليه أحد من البلاد التي كانت تتبع إلى أبيه.

الخلاف بين الخليفة والسلطان:

جرت نفرة بين متولّي شؤون بغداد يرنقش الزكوي وبين نواب الخليفة المسترشد بالله فهدّده الخليفة فخافه على نفسه فسار عن بغداد إلى السلطان محمود وذلك في شهر رجب سنة ٥٢٠هـ، وشكا إليه وحذّره جانب الخليفة وأعلمه أنه قد قاد العسكر وقويت نفسه وإن لم تعاجله بقصد العراق ودخول بغداد ازداد قوةً وجمعاً ومنعك عنه وحينئذٍ يتعذّر عليك ما هو الآن بيدك فتوجّه السلطان نحو بغداد فأرسل إليه الخليفة يُعّرفه وضع البلاد وما عليه أهلها من الضعف والوهن بسبب دبيس وإفساد عسكره فيها، وأن الغلاء قد اشتدّ بالناس لعدم وجود الغلات والأقوات لهرب الأكثرية عن بلادهم، ويطلب منه أن يتأخّرهذه المرة إلى أن يصلح حال البلاد ثم يعود إليها فلا مانع له عنها ويذل له على ذلك مالاً كثيراً، فلما سمع السلطان هذه الرسالة قوي عنده ما قرره الزكوي وأبى أن يجيب إلى التأخّر وصمّم العزم على قصدها وسار إليها مجدّاً، فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهله وحرمه ومن عنده من أولاد الخلفاء إلى الجانب الغربي في شهر ذي القعدة مظهراً للغضب والنزوح من بغداد إن قصدها السلطان فلما خرج من

داره بكى الناس جميعهم بكاءً كثيراً لم يُشاهد مثله، فلما علم السلطان ذلك اشتدّ عليه وبلغ منه كل مبلغ فأرسل يستعطف الخليفة ويسأله العودة إلى داره فأعاد الجواب أنه لا بُدّ من عودتك هذه المرة فإن الناس هلكى بشدّة الغلاء وخراب البلاد وأنه لا يرى في دينه أن يزداد ما بهم وهو يشاهدهم فإن عاد السلطان وإلا رحل هو عن العراق لئلا يشاهد ما يلقى الناس بقدوم العساكر فغضب السلطان ورحل نحو بغداد وأقام الخليفة بالجانب الغربي، فلما حضر عيد الأضحى خطب الناس وصلّى بهم فبكى الناس لخطبته، وأرسل عفيفاً الخادم وهو من خواصه في عسكرٍ إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان فأرسل السلطان إليه عماد الدين زنكي بن آقسنقر وكان له حنيئذٍ البصرة، وقد فارق البرسقي واتصل بالسلطان فأقطعه البصرة فلما وصل عفيف إلى واسط سار إليه عماد الدين فنزل بالجانب الشرقي وكان عفيف بالجانب الغربي فأرسل إليه عماد الدين يُحذّره القتال ويأمره بالنزوح عنها فأبى ولم يفعل فعبر إليه عماد الدين واقتتلوا وانهزم عسكر عفيف وقتل منهم مقتلة عظيمة وأُسر مثلهم وتغافل عن عفيف حتى نجا لمودةً كانت بينهما، ثم إن الخليفة جمع السفن جميعها إليه وسدّ أبواب دار الخلافة سوى

باب النوبي، وأمر حاجب الباب ابن الصاحب بالمقام به لحفظ الدار ولم يبق من حاشية الخليفة بالجانب الشرقي سواه، ووصل السلطان إلى بغداد في العشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٢٠هـ ونزل بباب الشماسية ودخل بعض عسكره إلى بغداد ونزلوا في دور الناس فشكا الناس ذلك إلى السلطان فأمر بإخراجهم وبقي فيها من له دار، وبقي السلطان يراسل الخليفة بالعودة ويطلب الصلح وهو يمتنع، وكان يجري بين العسكرين مناوشة، والعامة من الجانب الغربي يسبّون السلطان أفحش السبّ، ثم إن جماعةً من عسكر السلطان دخلوا دار الخلافة ونهبوا التاج وحجر الخليفة في أول شهر المحرم سنة ٥٢١هـ وضجّ أهل بغداد من ذلك فاجتمعوا ونادوا الغزاة فأقبلوا من كل ناحيةٍ، ولما رآهم الخليفة خرج والوزير بين يديه وأمر بضرب الأبواق ونادى بأعلى صوته يالهاشم، وأمر بتقديم السفن ونصب الجسر وعبر الناس دفعةً واحدةً، وكان له في الدار ألف رجلٍ فخرجوا، وعسكر السلطان مشغولون بالنهب فأسر منهم جماعةٍ من الأمراء، ونهب العامة دار وزير السلطان ودور جماعةٍ من الأمراء، وقُتل عدد كثير منهم في الدروب، ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتلٍ من أهل بغداد والسواد، وأمر بحفر

الخنادق فحفرت بالليل، وحفظوا بغداد من عسكر السلطان، ووقع الغلاء عند العسكر واشتدّ الأمر عليهم، وكان القتال كل يومٍ عليهم عند أبواب البلد وعلى شاطئ نهر دجلة، وعزم عسكر الخليفة على أن يكبسوا عسكر السلطان فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء صاحب إربيل، وخرج كأنه يريد القتال فالتحق هو وعسكره بالسلطان، وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين بواسط يأمره أن يحضر هو بنفسه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الدواب في البر فجمع كل سفينةٍ في البصرة إلى بغداد وشحنها بالرجال المقاتلة وأكثر من السلاح واتجه نحو بغداد فلما قاربها أمر كل من معه في السفن وفي البر بلبس السلاح وإظهار ما عندهم من الجلد فسارت السفن في الماء والعسكر في البر على شاطئ دجلة قد انتشروا وملؤوا الأرض براً وبحراً فرأى الناس منظراً عجيباً كبر في أعينهم وملأ صدورهم، وركب السلطان والعسكر إلى لقائهم فنظروا إلى ما لم يروا مثله، وكبر عماد الدين في أعينهم وعزم السلطان على القتال حينئذٍ واتخذ الجدّ في ذلك في البر والماء، ولما رأى الخليفة المسترشد بالله الأمر على هذه الصورة وخروج الأمير أبي الهيجاء من عنده أجاب إلى الصلح وتردّدت الرسل بينهما فتصالحا واعتذر السلطان مما

جرى، وكان حليماً يسمع سبّه بأذنه فلا يُعاقب عليه، وعفا عن أهل بغداد جميعهم، وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان بإحراق بغداد فلم يفعل، وقال: لا تساوي الدنيا فعل مثل هذا، وأقام ببغداد إلى الرابع من شهر ربيع الثاني سنة ٥٢١هـ، وحمل الخليفة من المال إليه كل ما استقرت القاعدة عليه، وأهدى له سلاحاً وخيلاً وغير ذلك، ومرض السلطان ببغداد فأشار عليه الأطباء بمفارقتها فرحل إلى همدان فلما وصل إليها عوفي[1].

زنكي يتعهد شؤون العراق:

لما عزم السلطان محمود على المسير عن بغداد نظر فيمن يصلح أن يلي شؤون العراق يأمن معه من الخليفة فنظر في أعيان وأمراء دولته فلم ير فيهم من يقوم في هذا الأمر مقام عماد الدين زنكي فاستشار في ذلك فكل أشار به وقالوا: لا تقدر على رفع هذا الخرق وإعادة ناموس هذه الولاية، ولا تقوى نفس أحدٍ على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي فوافق ما عنده فأسند إليه الولاية وفوّضها إليه مضافةً إلى ماله من

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

الإقطاع، وسار عن بغداد وقد اطمأن قلبه من جهة العراق فكان كما ظنّ.

رحل السلطان محمود عن بغداد في العاشر من شهر ربيع الثاني سنة ٥٢١هـ، وذلك بعد تقرير القواعد بها، ولما عزم على المسير حمل إليه الخليفة المسترشد بالله الخلع والدواب الكثيرة فقبل ذلك جميعه وسار، ولما ابتعد عن بغداد قبض على وزيره أبي القاسم علي بن القاسم الأنسابادي وذلك في شهر رجب سنة ٥٢١هـ لأنه اتهمه بممالأة الخليفة المسترشد بالله لقيامه في أمره وإتمام الصلح مقاماً ظهر أثره فسعى به أعداؤه فلما قبض عليه أرسل السلطان إلى بغداد فأحضر شرف الدين أنوشروان بن خالد وكان مقيماً بها فلما علم بذلك جاءته الهدايا من كل واحدٍ حتى من الخليفة وسار عن بغداد في الخامس من شعبان سنة ٥٢١هـ فوصل إلى السلطان وهو بأصبهان فخلع عليه خلع الوزارة وبقي فيها نحو عشرة أشهرٍ ثم استعفى منها وعزل نفسه وعاد إلى بغداد في شهر شعبان سنة ٥٢٢هـ، وأما الوزير أبو القاسم فإنه بقي مقبوضاً عليه في السجن حتى خرج السلطان سنجر إلى الريّ فأخرجه من السجن في شهر ذي الحجة سنة ٥٢٢هـ وأعاده إلى وزارة السلطان محمود وهي الوزارة الثانية.

ولاية عماد الدين زنكي على الموصل:

توفي عز الدين مسعود بن البرسقي وهو صاحب الموصل وكان موته بمدينة الرحبة سنة ٥٢٢هـ وسبب مسيره إليها أنه لما استقامت أموره في ولايته راسل السلطان محمود وطلب منه ولاية ما كان أبوه يتولّاه من الموصل وغيرها فأجابه السلطان إلى ما طلب، فرتّب الأمور فكثر جنده، وكان شجاعاً شهماً فطمع بالتغلّب على بلاد الشام فجمع عساكره وسار إلى الشام يريد قصد دمشق فابتدأ بالرحبة ووصل إليها ونازلها وألقى الحصار عليها فأخذه مرض حادّ وهو محاصر لها فتسلّم القلعة ومات بعد ساعةٍ فندم من بها على تسليمها إليه، ولما مات بقي مطروحاً على بساطٍ لم يُدفن وتفرّق عنه عساكره ونهب بعضهم بعضاً فشُغلوا عنه ثم دُفن بعد ذلك وقام بعده أخ له صغير، واستولى على البلاد مملوك للبرسقي يعرف بـ (الجاولي) ودبّر أمر الصبيّ، وأرسل إلى السلطان يطلب منه أن يوافق على ولاية ولد البرسقي على البلاد التي كان يتولّى أمرها أبوه وبذل الأموال الكثيرة على ذلك وكان الرسول في هذا الأمر القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد أمير حاجب البرسقي،

وكانا يخافان (جاولي) ولا يرضيان بطاعته والتصرّف بما يحكم به فاجتمع صلاح الدين ونصير الدين جقر الذي صار نائباً عن عماد الدين زنكي بالموصل وكان بينهما مصاهرة، وذكر صلاح الدين له وأفش إليه شرّه فخوّفه نصير الدين من جاولي وقبّح عنده طاعته ووضع في نفسه أنه إنما أبقاه وأمثاله لحاجته إليهم ومتى أُجيب إلى مطلوبه لا يُبقي على أحدٍ منهم وتحدّث معه في المخاطبة في ولاية عماد الدين زنكي وضمن له الولايات والإقطاعات الكثيرة وكذلك للقاضي بهاء الدين الشهرزوري فوافق على ذلك وأحضره معه عند القاضي بهاء الدين وخاطباه في هذا الأمر وضمنا له كل ما أراده فوافقهما على ما طلبا وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير وهو حينئذٍ شرف الدين أنوشروان بن خالد، وقالا له: قد علمت أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكّن الصليبيون منها وقويت شوكتهم بها فاستولوا على أكثرها وقد أصبحت سيطرتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر عدا البلاد الباقية بيد المسلمين، وقد كان البرسقي مع شجاعته وتجاربه وانقياد العساكر إليه يكفّ بعض عاديتهم وشرّهم فمنذ أن مات ازداد طمعهم وهذا ولده طفل صغير ولا بدّ للبلاد من رجلٍ شهمٍ شجاعٍ ذي رأيٍ وتجربةٍ يدافع

عنها ويحفظها ويحمي حوزتها وقد أنهينا الحال لئلا يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين فيختص اللوم بنا ويقال لِمَ لا أنهيتم جلية الحال إلينا، فرفع الوزير قولهما إلى السلطان فاستحسنه وشكر لهما عليه وأخضرهما واستشارهما فيمن يصلح للولاية فذكرا جماعةً منهم عماد الدين زنكي، فأجاب السلطان إلى توليته لما يعلمه من كفايته لما يليه فأحضره وولّاه البلاد كلها وكتب قراره بها.

سار عماد الدين زنكي فبدأ بالبوازيج ليملكها ويتقوّى بها ويجعلها ظهره لأنه خاف من جاولي أنه ربما صدّه عن البلاد، فلما دخل البوازيج سار عنها إلى الموصل فلما سمع جاولي بقربه من البلد خرج إلى لقائه ومعه جميع العسكر، فلما رآه جاولي نزل عن فرسه ورحّب به وعاد في خدمته إلى الموصل فدخلها في شهر رمضان سنة ٥٢١هـ، وأقطع جاولي الرحبة وسيّره إليها، وأقام بالموصل يصلح أمورها ويقرّر قواعدها، فولّى نصير الدين عهدة القلعة بالموصل وجعل إليه عهدة سائر القلاع، وجعل صلاح الدين محمداً أميراً حاجباً، وبهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وزاده أملاكاً وأقطاعاً واحتراماً، وكان لا يصدر إلا عن رأيه، فلما

انتهى من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمر، وبها مماليك البرسقي فامتنعوا عليه فحاصرهم وراسلهم وبذل لهم البذول الكثيرة إن سلّموا فلم يجيبوه إلى ذلك فجدّ في قتالهم وبينه وبين البلد دجلة فأمر الناس اجتياز الماء بأية وسيلةٍ ليعبروه إلى البلد ففعلوا وعبر بعضهم سباحةً وبعضهم في السفن وتكاثروا على أهل الجزيرة، وكانوا قد خرجوا من البلد إلى أرضٍ بين الجزيرة ودجلة تعرف بالزلاقة ليمنعوا من يريد عبور دجلة فلما عبر العسكر إليهم قاتلوهم ومانعوهم فتكاثر عسكر عماد الدين عليهم فانهزم أهل البلد ودخلوه وتحصّنوا بأسواره واستولى عماد الدين على الزلاقة، فلما رأى الذين بالبلد ذلك ضعفوا ووهنوا وأيقنوا أن البلد سيُملك عنوةً أو سلماً فأرسلوا يطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وكان هو أيضاً مع عسكره بالزلاقة فسلّموا البلد إليه فدخله هو وعسكره، ثم إن نهر دجلة قد زاد تلك الليلة زيادةً عظيمةً لحقت سور البلد وصارت الزلاقة مغمورةً بالماء فلو أقام ذلك اليوم لغرق هو وعسكره ولم ينجُ منهم أحد، فلما رأى الناس ذلك أيقنوا بسعادته، وأيقنوا أن أمراً هذا بدايته لعظيم. ثم سار عن الجزيرة إلى مدينة نصيبين وكانت لحسام الدين تمرتاش صاحب ماردين فلما نازل عماد الدين نصيبين

سار حسام الدين إلى ابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان بن أرتق وهو صاحب حصن كيفا وغيره فاستنجده على عماد الدين زنكي فوعده النجدة بنفسه وجمع عسكره، ورجع حسام الدين تمرتاش إلى ماردين وأرسل إلى نصيبين يُعرّف من بها من العسكر أنه وابن عمه سائران في العسكر الكثير إليهم وإزاحة عماد الدين زنكي عنهم، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيامٍ، فبينما عماد الدين في خيمته إذ سقط طائر على خيمةٍ تقابله فأمر به فمُسك فرأى فيه رقعة فقرأها وعرف ما فيها ـ حيث أرسل حسام الدين تمرتاش ما يريده إلى أهل نصيبين رقاعاً على أجنحة الطيور ـ فأمر عماد الدين أن يكتب غيرها فيها فيقول: إنني قصدت ابن عمي ركن الدولة وقد وعدني النصرة وجمع العساكر وما يتأخّر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً ويأمرهم بحفظ البلدة هذه المدة إلى أن يصلوا وجعلها في الطائر وأرسله فدخل نصيبين فلما وقف من بها على الرقعة سقط في أيديهم، وعلموا أنهم لا يقدرون أن يحفظوا البلد هذه المدة فأرسلوا إلى عماد الدين وصالحوه وسلّموا البلدة إليه، فبطل على تمرتاش وداود ما كانا عزما عليه. فلما ملك نصيبين سار عنها إلى سنجار فامتنع من بها عليه، ثم صالحوه وسلّموا البلد إليه، وسيّر العسكر من سنجار

إلى الخابور فملكه جميعاً، ثم سار إلى حران وهي للمسلمين وكانت الرها وسروج والبيرة وتلك النواحي جميعها للصليبيين، وأهل حران معهم في ضُرٍّ عظيمٍ وضيقٍ شديدٍ لخلو البلاد من حامٍ يذبّ عنها، وسلطانٍ يمنعها، فلما قارب عماد الدين حرّان خرج أهل البلد وسلّموه إليه وأطاعوه، فلما ملكها أرسل إلى الصليبي جوسلين المتحكّم بالرها وتلك البلاد وراسله وهادنه مدةً يسيرةً، وكان غرضه أن يتفرّغ لإصلاح البلد ويعرف أمورها وأحوالها، وجنّد الأجناد وكان أهم الأمور إليه أن يعبر الفرات إلى الشام ويملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية. فاستقرّ الصلح، وأمن الناس.

دخول عماد الدين زنكي حلب:

كان البرسقي قد استولى على حلب سنة ٥١٨هـ، وسار عنها وقد استخلف عليها ابنه مسعوداً، فلما قُتل البرسقي غادر مسعود حلب متجهاً إلى الموصل وقد استطاع من فرض سيطرته عليها، وقد أناب عنه في حلب أميراً اسمه قومان ثم بعث له أميراً مكانه يدعى قتلغ وطلب منه تسليم حلب، فقال قومان: بيني وبين عز الدين مسعود علامة لم أرها، ولا أسلم إلا بها،

وكانت العلامة بينهما صورة غزال، وكان عز الدين مسعود بن البرسقي حسن التصوير، فعاد قتلغ إلى مسعود وهو يحاصر الرحبة فوجده قد مات فعاد إلى حلب مسرعاً وعرف الناس موته فسلّم أهل البلد قتلغ بلدهم وأطاعه المقدمون واستنزلوا قومان من القلعة بعد أن صحّ عنده موت صاحبه مسعود وأعطوه ألف دينارٍ فتسلّم قتلغ القلعة في الرابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢١هـ فظهر منه بعد أيامٍ جور شديد وظلم ظاهر، ومدّ يده إلى أموال الناس ولا سيما التركات فإنه أخذها وتقرّب إليه الأشرار فنفرت قلوب الناس منه، وكان بالمدينة بدر الدين سليمان بن عبد الجبار بن أرتق الذي كان قديماً صاحب البلد فأطاعه أهلها وقاموا ليلة الثلاثاء الثاني من شهر شوال فقبضوا على كل من كان بالبلد من أصحاب قتلغ، وزحفوا إلى القلعة فتحصّن بها قتلغ وبمن معه فحاصروه ووصل إلى حلب حسان صاحب منبج وحسن صاحب بزاعة لإصلاح الأمر فلم يُصلح، وسمع الصليبيون بذلك فتقدّم جوسلين بعسكره من الرها إلى حلب فصونع بمالٍ فعاد عنها، ثم وصل بعده صاحب أنطاكية في جمعٍ من الصليبيين فخندق أهل حلب حول القلعة فمنع الداخل والخارج إليها من ظاهر البلد وأشرف الناس على خطرٍ عظيمٍ إلى منتصف

شهر ذي الحجة سنة ٥٢٢هـ. وكان عماد الدين زنكي قد ملك الموصل والجزيرة الفراتية فسيّر إلى حلب الأمير سنقر دراز والأمير حسن قراقوش وهما من أكابر أمراء البرسقي وقد صاروا معه، بعثهما في عسكرٍ قويٍ ومعه التوقيع من السلطان بولاية الموصل والجزيرة والشام، فاستقر الأمر أن يسير بدر الدولة بن عبد الجبار وقتلغ إلى عماد الدين بالموصل، فسارا إليه، وأقام حسن قراقوش بحلب والياً عليها ولايةً موقتةً، فلما وصل بدر الدولة وقتلغ إلى عماد الدين أصلح بينهما ولم يردّ واحداً منهما إلى حلب بل سيّر حاجبه صلاح الدين محمداً الباغيسياني إليها في عسكر فصعد إلى القلعة ورتّب الأمور وجعل فيها والياً وسار عماد الدين زنكي إلى الشام في جيوشه وعساكره فاستولى في طريقه على منبج وبزاعة وخرج إليه أهل حلب فاستقبلوه واستبشروا بقدومه ودخل البلد واستولى عليه ورتّب أموره وأقطع أعماله الأجناد والأمراء فلما فرغ من الذي أراده قبض على قتلغ وسلّمه إلى فضائل بن بديع فكحّله بداره بحلب فمات قتلغ، واستوحش ابن بديع فهرب إلى قلعة جعبر واستجار بصاحبها فأجاره، وجعل عماد الدين زنكي في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق.

كان الصليبيون يعملون للسيطرة على الشام، وليس فيها من رجلٍ قويٍ، فكانوا يجمعون جموعهم ويقصدون بلداً فإذا علم ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق بذلك جمع عساكره وقصد بلادهم وحاصرها وأغار عليها فيضطر الصليبيون إلى الرحيل عن البلد الذي قصدوه لدفع ظهير الدين طغتكين عن بلادهم. وقدّر الله تعالى وفاة طغتكين هذه السنة (سنة ٥٢٢هـ) فخلت بلاد الشام من رجلٍ يقوم بنصرة أهله، فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين.

الملك سنجر وابن أخيه السلطان محمود:

كان دبيس بن صدقة والملك طغرل قد وصلا إلى الملك أحمد سنجر بن ملكشاه في خراسان، وأخذا يطمعاه في العراق ويسهّلا عليه قصده ويلقيا في نفسه أن الخليفة المسترشد بالله والسلطان محموداً متفقان على الامتناع منه ولم يزالا به حتى أجابهما إلى المسير إلى العراق فلما ساروا ووصلوا إلى الريّ كان السلطان محمود بهمذان فأرسل إليه الملك سنجر يستدعيه لينظر هل هو على طاعته أم قد تغيّر على ما زعم دبيس، فلما جاءه الرسول بادر إلى المسير إلى عمه فلما وصل إليه أمر العسكر جميعاً بلقائه وأجلسه معه على السرير وبالغ

في إكرامه، وأقام عنده إلى منتصف شهر ذي الحجة، ثم عاد السلطان سنجر إلى خراسان، وسلّم دبيساً إلى السلطان محمود ووصّاه بإكرامه، وإعادته إلى بلده، ورجع السلطان محمود إلى همذان ودبيس معه، ثم سارا إلى العراق، فلما قاربا بغداد خرج الوزير إلى لقائه، وكان قدومه في التاسع من شهر المحرم سنة ٥٢٣هـ، وكان الوزير أبو القاسم الأنسابادي قد قبض عليه السلطان محمود، فلما اجتمع بالسلطان سنجر أمر بإطلاقه فأطلقه. وزوّج سنجر ابنته من ابن أخيه السلطان محمود. فلما وصل أبو القاسم إلى بغداد مع السلطان محمود أعاده إلى وزارته في الرابع والعشرين من شهر المحرم سنة ٥٢٣هـ.

أعمال دبيس بالعراق:

قدم السلطان محمود إلى العراق في شهر المحرم سنة ٥٢٣هـ ومعه دبيس بن صدقة ليصلح حاله مع الخليفة المسترشدبالله فتأخّر دبيس عن السلطان قليلاً ثم دخل بغداد ونزل بدار السلطان، واسترضى السلطان عنه الخليفة فامتنع الخليفة عن الإجابة إلى أن تولّى دبيس شيئاً من البلاد وبذل مائة ألف دينار لذلك، وعلم عماد الدين زنكي أن السلطان يريد أن يولّي دبيس

الموصل فبذل مائة ألف دينار وحضر بنفسه إلى خدمة السلطان، فلم يشعر السلطان به إلا وهو عند الستر وحمل معه الهدايا الجليلة وأقام عند السلطان ثلاثة أيام فخلع عليه وأعاده إلى الموصل. وأقام السلطان في بغداد إلى الرابع من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢٣هـ وسار عنها إلى همذان، وجعل بهروز على ولاية بغداد وسلّمت إليه الحلّة أيضاً.

ولما رحل السلطان محمود إلى همذان ماتت زوجته وهي ابنة عمه السلطان سنجر، وهي التي كانت تُعنى بأمر دبيس وتُدافع عنه فلما ماتت انحل أمر دبيس، ثم إن السلطان مرض مرضاً شديداً فأخذ دبيس ابناً له صغيراً وقصد العراق فلما سمع الخليفة المسترشد بالله بذلك جنّد الأجناد وحشد الحشود، وكان بهروز بالحلّة فهرب منها فدخلها دبيس في شهر رمضان سنة ٥٢٣هـ فلما سمع السلطان الخبر عن دبيس أحضر الأميرين (قزل) و(الأحمديلي) وقال: أنتما ضمنتما دبيساً لي وأريده منكما فسار الأحمديلي للعراق إلى دبيس ليكفّ شرّه عن البلاد ويحضره إلى السلطان، فلما سمع دبيس الخبر أرسل إلى الخليفة يستعطفه، ويقول: إن رضيت عني فأنا أردّ أضعاف ما أخذت وأكون لك العبد

المملوك فتردّدت الرسل ودبيس يجمع الأموال والرجال فاجتمع معه عشرة آلاف فارسٍ، وكان قد وصل إلى بغداد بثلاثمائة فارسٍ، ووصل الأحمديلي إلى بغداد في شهر شوال سنة ٥٢٣هـ وسار في أثر دبيس، ثم إن السلطان محمود سار إلى العراق فلما سمع دبيس بذلك أرسل إليه هدايا جليلة المقدار وبذل ثلاثمائة حصان ومائتي ألف دينار ليرضى عنه السلطان والخليفة فلم يجبه إلى ذلك ووصل السلطان إلى بغداد في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٣هـ فلقيه الوزير الزينبي وأرباب المناصب فلما تيقّن دبيس وصوله رحل إلى البرية وقصد البصرة وأخذ منها أموالاً كثيرةً وما للخليفة والسلطان هناك من الدخل فسيّر السلطان في أثره عشرة آلاف فارسٍ ففارق البصرة ودخل البرية.

قتل الإسماعيلية بدمشق:

قُتل إبراهيم الأسد أباذي ببغداد سنة ٥٢٠هـ وهرب ابن أخته بهرام إلى الشام وصار هناك داعي الإسماعيلية وأقام مدةً بحلب، وأشار إيلغازي بن أرتق صاحب حلب على طغتكين صاحب دمشق أن يجعل بهرام عنده فقبل رأيه وأخذه إليه فاستفحل أمره هناك ولكنه رأى غلظةً من أهل دمشق فخاف منهم فطلب من

طغتكين حصناً يأوي إليه فأشار الوزير بتسليم قلعة بانياس إليه فسلّمت إليه فاجتمع إليه أصحابه من كل مكانٍ فعظُم حينئذٍ خطبه.

ولما رحل عن دمشق أقام له بها نائباً عنه يدعو الناس إلى مذهبه فكثروا وانتشروا، وملك هو عدة حصونٍ من الجبال منها القدموس[1] وغيره، وكان بوادي التيم[2] من أعمال بعلبك أصحاب مذاهب مختلفة من النصيرية والدرزية والمجوسية وغيرهم وأميرهم اسمه الضحاك فسار إليهم بهرام سنة ٥٢٢هـ، وحاصرهم وقاتلهم فخرج إليه الضحّاك في ألف رجلٍ وكبس عسكر بهرام فوضع السيف فيهم فقتل منهم مقتلةً عظيمةً وقُتل بهرام، وانهزم من سلم وعادوا إلى بانياس على أقبح صورةٍ.

وكان بهرام قد استخلف في بانياس رجلاً من أعيان أصحابه اسمه إسماعيل فقام مقامه وجمع شمل من عاد إليه منهم وبثّ دعاته في البلاد وعاضده المزدقاني أيضاً وقوّى نفسه على ما عنده من الامتعاض

---

(١) القدموس: حصن وبلدة في مرتفعات النصيرية بين مصياف وبانياس.
(٢) وادي التيم: الوادي الأعلى لنهر الحاصباني في جنوبي لبنان.

بهذه الحادثة والهمّ بسببها ثم إن المزدقاني أقام بدمشق عوض بهرام رجلاً اسمه أبو الوفا فقوي أمره وعلا شأنه وكثر أتباعه وقام بدمشق فصار المتولّي على من بها من المسلمين وحكمه أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك بوري بن طغتكين.

راسل المزدقاني الصليبيين ليُسلّم إليهم مدينة دمشق ويُسلّموا إليه مدينة صور واستقرّ الأمر بينهم على ذلك وتقرّر بينهم الميعاد يوم جمعةٍ ذكروه وقت الصلاة إذ يكون المسلمون في عبادتهم، وقرّر المزدقاني مع الإسماعيلية أن يحتاطوا ذلك اليوم بأبواب الجامع فلا يُمكّنون أحداً يخرج منه حتى يجيء الصليبيون ويملكوا البلاد فبلغ الخبر تاج الملوك بوري صاحب دمشق فاستدعى المزدقاني فحضر وخلا معه فقتله تاج الملوك وعلّق رأسه على باب القلعة ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف نفسٍ وذلك في منتصف شهر رمضان سنة ٥٢٣هـ.

ولما وقعت هذه الحادثة بدمشق على الباطنية خاف إسماعيل كبيرهم في بانياس أن يثور به وبمن معه الناس فيهلكوا فراسل الصليبيين وبذل لهم تسليم بانياس إليهم فأجابوه إلى ما طلب، فسلّم القلعة إليهم وانتقل

هو ومن معه من أصحابه إلى بلادهم، ولقوا شدّةً وذِلّةً وهواناً، وهلك إسماعيل في أوائل سنة ٥٢٤هـ.

دخول عماد الدين زنكي مدينة حماة:

عبر عماد الدين زنكي صاحب الموصل نهر الفرات، وأظهر أنه يريد جهاد الصليبيين وأرسل إلى تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق يستنجده ويطلب منه المعونة على جهادهم فأجاب إلى المراد وأرسل من أخذ له العهود والمواثيق فلما وصلت المواثيق جرّد عسكراً من دمشق مع جماعةٍ من الأمراء وأرسل إلى ابنه سونج وهو بمدينة حماة يأمره بالنزول إلى العسكر والمسير معهم إلى عماد الدين زنكي ففعل ذلك فساروا جميعهم فوصلوا إليه فأكرمهم وأحسن لقاءهم وتركهم أياماً ثم إنه غدر بهم فقبض على سونج ولد تاج الملوك بوري وعلى جماعة الأمراء المقدمين ونهب خيامهم وما فيها واعتقلهم بحلب وهرب من سواهم وسار من يومه إلى حماة فوصل إليها وهي خالية من الجند الحماة لها فملكها واستولى عليها، ورحل عنها إلى حمص وكان صاحبها قرجان بن قراجة معه في عسكره وهو الذي أشار عليه بالغدر بولد تاج الملوك فقبض عليه ونزل على حمص وحاصرها، وطلب من

قرجان صاحبها أن يأمر نوابه وولده الذين فيها بتسليمها فأرسل إليهم بالتسليم فلم يقبلوا منه ولا التفتوا إلى قوله فأقام عليها محاصراً لها ومقاتلاً لمن فيها مدةً طويلةً فلم يستطع ملكها فرحل عنها عائداً إلى الموصل واستصحب معه سونج بن تاج الملوك ومن معه من الأمراء الدمشقيين وتردّدت الرسل في إطلاقهم بينه وبين تاج الملوك واستقر الأمر على خمسين ألف دينارٍ فأجاب تاج الملوك إلى ذلك، ولم ينتظم بينهم أمر.

دخول سنجر بن ملكشاه مدينة سمرقند:

كان قد ملك سمرقند أرسلان خان محمد بن سليمان بن بغراخان داود، ثم أصابه فالج فاستناب ولده نصرخان مكانه فاتفق رئيس البلد مع أحد المدرسين على قتل نصرخان فقتلاه، فاستدعى أرسلان خان ولده الثاني من تركستان ليملك البلد غير أنه خشي عليه من خصومه الذين قتلوا أخاه فأرسل إلى السلطان سنجر يستدعيه لنجدته فسار سنجر يريد سمرقند غير أن ابن أرسلان خان قد دبّر أموره فندم أرسلان خان على استدعاء السلطان سنجر فأرسل إليه أن الأمر قد استقام وأنه وابنه على الطاعة ويرجوانه العودة إلى خراسان فغضب سنجر من ذلك وأقام أياماً فبينما هو في الصيد

إذ رأى اثني عشر رجلاً في السلاح التام فقبض عليهم وعاقبهم فأقروا أن أرسلان خان أرسلهم ليقتلوه فقتلهم ثم سار إلى سمرقند فملكها عنوةً، وتحصّن أرسلان خان ببعض حصونها فاستنزله السلطان سنجر بأمانٍ بعد مدةٍ فلما نزل أكرمه وأرسله إلى ابنته وزوجة السلطان سنجر وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٢٤هـ. وبقي أرسلان خان عند ابنته حتى توفي. وأقام سنجر مدةً بسمرقند حتى أخذ المال والسلاح والخزائن وسلّم البلد إلى الأمير حسن تكين وعاد إلى خراسان، ولم يلبث حسن تكين أن مات فولّى سنجر بعده عليها محمود بن أرسلان خان.

دخول عماد الدين زنكي حصن أثارب:

بعد أن انتهى عماد الدين زنكي من تنظيم أمور حلب وأعمالها عاد إلى الموصل والجزيرة ليستريح عسكره فلما تمّ ذلك أمرهم بالتجهّز والاستعداد للجهاد فتجهّزوا وأعدّوا أمرهم وعاد إلى الشام وقصد حلب وقوي عزمه على قصد حصن الأثارب وحصاره لشدّة أذاه على المسلمين، وهذا الحصن بين حلب وأنطاكية وبينه وبين حلب عشرون كيلاً، وكان الصليبيون الذين في هذا الحصن يقاسمون حلب على جميع مناطقها

الغربية حتى على رحًى لأهل حلب بظاهر باب الجنان بينها وبين البلد عرض الطريق، وكان أهل البلد معهم في ضُرٍّ شديدٍ وضيقٍ كل يومٍ قد أغاروا عليهم ونهبوا أموالهم، فلما رأى عماد الدين زنكي هذه الحال صمّم العزم على أخذ هذا الحصن فسار إليه، فلما علم الصليبيون ذلك جمعوا فرسانهم ورجالهم وعلموا أن هذه وقعة لها ما بعدها فحشدوا وجمعوا، ولم يتركوا من طاقتهم شيئاً إلا واستنفذوه فلما فرغوا من أمرهم ساروا نحوه فاستشار أصحابه فيما يفعل، وكان أشار بالعودة عن الحصن فإن لقاء الصليبيين في البلاد التي يسيطرون عليها خطر لا يدرى على أيّ شيءٍ تكون العاقبة، فقال لهم: إن الصليبيين متى رأونا قد عدنا من أيديهم طمعوا وساروا في أثرنا وخرّبوا بلادنا ولا بد من لقائهم على كل حال [والله ينصر من يشاء] ثم ترك الحصن وتقدم إليهم فالتقوا واصطفوا للقتال وصبر كل فريقٍ لخصمه واشتدّ الأمر بينهم ثم إن الله تعالى أنزل نصره على عباده المؤمنين فظفروا وانهزم الصليبيون أقبح هزيمةٍ ووقع كثير من فرسانهم في الأسر وقُتل منهم عدد كبير، وتقدم عماد الدين إلى عسكره بالإنجاز، وقال: هذا أول لقاءٍ عملناه معهم فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم ففعلوا ما أمرهم، فلما فرغ المسلمون

من ظفرهم عادوا إلى الحصن فتسلّموه عنوةً وقتلوا وأسروا كل من فيه، وأخربه عماد الدين وجعله دكّاً، ثم سار منه إلى قلعة حارم وحاصرها وهي بيد الصليبيين أيضاً فبذل له أهلها نصف دخل بلدهم وهادنوه فأجابهم إلى ذلك وعاد عنهم.

دخول عماد الدين زنكي سرجه[1] ودارا[2]:

لما فرغ عماد الدين زنكي من أمر حصن الأثارب وتلك النواحي عاد إلى ديار الجزيرة وكان قد بلغه أن حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين وابن عمه ركن الدولة داود بن سقمان صاحب حصن كيفا[3] فعاد إليهم وحاصر مدينة سرجه فاجتمع حسام الدين وركن الدولة وصاحب آمد وغيرهم وجمعوا خلقاً كثيراً بلغت عدتهم عشرين ألفاً وساروا إليه فالتقوا فهزمهم

(١) سرجه: حصن بين نصيبين ودارا من بناء الروم القديم. وهناك مواقع أخرى تحمل الاسم نفسه، منها ما هو قريب من هذا الحصن، وهي قرب سميساط على نهر الفرات.

(٢) دارا: بلدة خلف الجبل الذي تقف عليه ماردين في وادي دجلة وهي ذات مياه جارية وبساتين.

(٣) كيفا: بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على نهر دجلة بين آمد (ديار بكر ـ اليوم) وجزيرة ابن عمر، وعندها على نهر دجلة قنطرة عظيمة.

عماد الدين ودخل مدينة سرجه. فقصد ركن الدولة داود جزيرة ابن عمر ونهبها فبلغ الخبر عماد الدين فسار نحو الجزيرة، وقصد دارا فدخلها وهي من القلاع الحصينة في تلك النواحي.

السلطان محمود وأخوه مسعود:

توفيت زوجة السلطان محمود وهي ابنة عمه أحمد سنجر، وخرج في شهر ذي الحجة سنة ٥٢٤هـ الملك مسعود بن محمد من خراسان، وكان عند عمه السلطان أحمد سنجر، ووصل إلى مدينة ساوة، ووقع الإرجاف أنه عازم على مخالفة أخيه السلطان محمود وأن عمه سنجر أمره بذلك فأحسّ السلطان محمود وسار عن بغداد إلى همذان، فلما صار إلى كرمنشاه وصل إليه أخوه الملك مسعود وخدمه ولم يظهر لما أُرجف أثر فأقطعه السلطان مدينة كنجة[١] وأعمالها وسيّره إليها.

وقوع دبيس بن صدقة بالأسر:

في شهر شعبان سنة ٥٢٥هـ وقع دبيس بن صدقة

---

(١) كنجة: مدينة كبيرة، وهي قصبة بلاد أران، ومن نواحي لورستان بين أصبهان والأهواز.

صاحب الحلّة في أسر تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق وسلّمه إلى عماد الدين زنكي بن آقسنقر.
إذ أن دبيس بعد أن فارق البصرة ودخل البرية سنة ٥٢٣هـ جاءه قاصد من الشام من قلعة صرخد (صلخد) يستدعيه إليها لأن صاحبها كان خصياً فتوفي سنة ٥٢٥هـ وخلّف جاريةً سريةً له فاستولت على القلعة وما فيها وعلمت أنه لا يتمّ لها ذلك إلا إذا إتصلت برجلٍ له قوة ونجدة فوُصِف لها دبيس بن صدقة وكثرة عشيرته وذُكر لها حاله وما هو عليه بالعراق فأرسلت تدعوه إلى صلخد لتتزوج به وتسلّم القلعة وما فيها من مالٍ وغيره إليه فأخذ الأدلّاء معه وسار من العراق إلى الشام فضلّ الأدلّاء بنواحي دمشق فنزل بناسٍ من بني كلب كانوا شرقي الغوطة فأخذوه وحملوه إلى تاج الملوك صاحب دمشق فحبسه عنده وسمع عماد الدين زنكي الخبر وكان دبيس يقع فيه وينال منه فأرسل إلى تاج الملوك يطلب منه دبيساً ليسلّمه إليه وطلق ولده ومن معه من الأمراء المأسورين، وإن امتنع من تسليمه سار إلى دمشق وحصرها وخرّبها ونهب بلدها فأجاب تاج الملوك إلى ذلك، وأرسل عماد الدين زنكي إلى دمشق سونج بن تاج الملك والأمراء الذين معه وأرسل تاج الملوك دبيساً فأيقن دبيس بالهلاك ففعل عماد الدين زنكي معه خلاف

ما ظنّ وأحسن إليه وحمل له الأقوات والسلاح والدواب وسائر أمتعة الخزائن وقدّمه حتى على نفسه، وفعل معه ما يفعل مع أكابر الملوك.

ولما سمع الخليفة المسترشد بالله بالقبض على دبيس بدمشق أرسل سديد الدولة بن الأنباري وأبا بكر بن بشر الجزري من جزيرة ابن عمر إلى تاج الملوك يطلب منه أن يُسلّم دبيساً إليه لما كان متحققاً به من عداوة الخليفة فسمع سديد الدولة بن الأنباري بتسليمه إلى عماد الدين زنكي وهو في الطريق فسار إلى دمشق ولم يرجع وذمّ عماد الدين زنكي بدمشق واستخفّ به وبلغ الخبر عماد الدين فأرسل إلى طريقه من يأخذه إذا عاد فلما رجع من دمشق قبضوا عليه وعلى ابن بشر وحملوهما إليه فأما ابن بشر فأهانه وجرى في حقه مكروه وأما ابن الأنباري فسجنه، ثم إن الخليفة المسترشد بالله شفع فيه فأُطلق، ولم يزل دبيس مع عماد الدين زنكي حتى سار معه إلى العراق.

وفاة السلطان محمود واستخلاف ابنه داود مكانه:

قبل أن يصيب المرض السلطان محمود[1] خاف

---

(١) السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان=

وزيره أبو القاسم الأنسابادي من جماعة الأمراء وأعيان الدولة ومنهم عزيز الدين أبو نصر أحمد بن حامد المستوفي[1] والأمير أنوشتكين المعروف بشيركير وولده

= السلجوقي، أبو القاسم، الملقب بمغيث الدنيا والدين، يمين أمير المؤمنين، من سلاطين السلاجقة: ولد سنة ٤٩٨هـ، وخلف أباه في السلطنة بالري سنة ٥١١هـ، وهو في سنّ الحلم، وكانت أواخر أيام المستظهر بالله العباسي، وتولّى المسترشد بالله سنة ٥١٢هـ فجدّد له التقليد بالسلطنة واستغلّ وزراؤه فرصة صغر سنه فتصرفوا في الأمور وأساءوا السياسة وأتوا بمفاسد، وأوقعوا بينه وبين عمه السلطان أحمد سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان، وبينه وبين أخويه مسعود وطغرل وكان يقيم بين همدان وبغداد، وعاجلته المنية وهو شاب، مات بهمدان وعمره سبع وعشرون سنة وذلك سنة ٥٢٥هـ. قال عماد الدين الأصفهاني: كان قوي المعرفة بالعربية، حافظاً للشعر والأمثال، عارفاً بالتاريخ والسير، وكان أمرد، ومدحه الشاعر حيص بيص (سعد بن محمد)، وكان السلطان حليماً كريماً عاقلاً قليل الطمع في أموال الرعية عفيفاً عنها.

(١) أحمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله الأصبهاني، الملقب عزيز الدين المستوفي، عم العماد الكاتب الأصبهاني. كان رئيساً كبير القدر، ولي المناصب العليا في الدولة السلجوقية، ولم يزل مقدماً فيها، قصده أصحاب الحاجات، ومدحه الشعراء، وأحسن جوائزهم، وكان في آخر أمره يتولى الخزانة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه.

ماتت زوجة السلطان محمود وهي ابنة عمه سنجر بن ملكشاه، =

عمر، وهو أمير حاجب السلطان وغيرهم، فأما عزيز الدين فقد أرسله مقبوضاً عليه إلى مجاهد الدين بهروز بتكريت ثم قُتل بها، وأما شيركير وولده فقتلا في جماد الآخرة سنة ٥٢٥هـ، ثم إن السلطان مرض وتوفي في شهر شوال سنة ٥٢٥هـ وأجلس ولده الملك داود في السلطنة باتفاقٍ من الوزير أبي القاسم ومتعهده آقسنقر الأحمديلي وخُطب له في بلاد الجبل جميعها وفي أذربيجان، ووقعت الفتنة بهمذان وسائر بلاد الجبل ثم سكنت فلما اطمأن الناس وسكنوا سار الوزير بأمواله إلى الريّ فأمن فيها حيث هي للسلطان سنجر، وكان عمر السلطان محمود لما توفي سبعاً وعشرين سنة،

= وذلك سنة ٥٢٤هـ فطالب أبوها سنجر السلطان محمود ابن أخيه بما خرج معها في جهازها من أنواع التحف والغرائب التي لا توجد إلا في خزائن الملوك، فجحدها السلطان محمود، وخاف من عزيز الدين أن يشهد بما وصل معها لأنه كان مطلعاً عليه من جهة الخزانة، فقبض عليه وسيّره إلى قلعة تكريت، وكانت القلعة له إذ ذاك، فحبسه بها ثم قتله بعد ذلك في أوائل سنة ٥٢٥هـ.

كان مولده في أصبهان سنة ٤٧٢هـ، وقُتل ٥٢٦هـ، وكان بالقلعة يوم قُتل نجم الدين أيوب أبو السلطان صلاح الدين الأيوبي وأخوه أسد الدين شيركوه متوليي أمورها، وأنهما دافعا عنه فما أجدى الدفاع.

وكانت ولايته للسلطنة اثني عشرة سنةً وتسعة أشهرٍ وعشرين يوماً.

الصراع على السلطنة:

بعد وفاة السلطان محمود سنة ٥٢٥هـ خُطب لولده داود. وسار السلطان داود من همذان في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٥هـ إلى مدينة زنجان فأتاه الخبر أن عمه مسعود قد سار من جرجان ووصل إلى تبريز واستولى عليها فسار إليه السلطان داود وحاصره بها، وجرى بينهما قتال إلى نهاية شهر المحرم سنة ٥٢٦هـ، ثم تصالحا، وتأخّر داود، وأرسل يطلب الخطبة ببغداد، وكانت رسله قد تقدّمت في طلب الخطبة فأجاب الخليفة المسترشد بالله أن الحكم في الخطبة إلى السلطان سنجر وأنه لا يأذن لأحدٍ في الخطبة فإن الخطبة ينبغي أن تكون له وحده فوقع ذلك منه موقعاً حسناً، ثم إن السلطان مسعوداً كاتب عماد الدين زنكي صاحب الموصل وغيرها يستنجده ويطلب مساعدته، فوعده الدعم فقويت بذلك نفس مسعود على طلب السلطنة، ثم إن الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد سار به المتعهد لشؤونه قراجه الساقي صاحب فارس وخوزستان في عسكرٍ كثيرٍ إلى بغداد فوصل إليها قبل

وصول السلطان مسعود ونزل في دار السلطان وأكرمه الخليفة واستحلفه لنفسه، ثم وصل رسول السلطان مسعود إلى بغداد يطلب الخطبة ويتهدّد إن مُنعت عنه فلم يُجب إلى ما طلبه فسار حتى نزل عباسية الخالص، وبرز عسكر الخليفة وعسكر سلجوق شاه وقراجه الساقي نحو مسعود إلى أن ينتهي من حرب عماد الدين زنكي وسار يوماً وليلةً ونازل عماد الدين زنكي فهزمه وأسر كثيراً من أصحابه، وسار زنكي منهزماً إلى تكريت فعبر نهر دجلة وكان المشرف عليها حينئذٍ نجم الدين أيوب فأقام له المعابر فلما عبر أمن الطلب وسار إلى بلاده لإصلاح حاله وحال رجاله. وكان هذا الفعل من نجم الدين أيوب سبباً لاتصاله به والمسير معه حتى آل بهم الأمر إلى ملك مصر والشام وغيرهما.

وأما السلطان مسعود فإنه سار من العباسية والتقت طلائعه مع طلائع أخيه سلجوق شاه واستمرت المناوشة بينهما يومين، وأرسل سلجوق شاه إلى قراجة يستحثّه على المبادرة فعاد سريعاً وعبر دجلة إلى الجانب الشرقي، فلما علم السلطان مسعود بهزيمة عماد الدين زنكي رجع إلى الوراء وأرسل إلى الخليفة يعلمه وصول السلطان سنجر إلى الريّ وأنه عازم على قصد الخليفة

وإن رأيتم أن نتفق على قتاله ودفعه عن العراق، ويكون العراق لوكيل الخليفة فأنا موافق على ذلك فأعاد الخليفة الجواب يستوقفه وتردّدت الرسل بالصلح، وتصالحوا أن يكون العراق لوكيل الخليفة وتكون السلطنة لمسعود، ويكون سلجوق شاه ولي عهده وتحالفوا على ذلك، وعاد السلطان مسعود إلى بغداد فنزل بدار السلطان ونزل سلجوق شاه في دار المتعهد، وكان اجتماعهم في شهر جمادى الأولى سنة ٥٢٦هـ.

القتال بين السلطان مسعود وعمه السلطان سنجر:

لما مات السلطان محمود في شهر شوال سنة ٥٢٥هـ سار عمه السلطان أحمد سنجر إلى بلاد الجبال ومعه الملك طغرل ابن أخيه، أخو السلطان محمود، وكان قد لازمه فوصلا إلى الريّ، ثم سارا منها إلى همذان فوصل الخبر إلى الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود فاستقرّت القاعدة على قتاله فسار مسعود وأخوه سلجوق شاه وقواجه الساقي نحو السلطان سنجر وتأخّر الخليفة المسترشد بالله عن المسير معهم، ثم انطلق حتى بلغ خانقين وقطعت الخطبة للسلطان سنجر من العراق كله.

وصلت الأخبار إلى الخليفة ومن معه بوصول

عماد الدين زنكي ودبيس بن صدقة إلى قرب بغداد. أما عماد الدين فإنه ذكر أن السلطان سنجر قد أعطاه ولاية بغداد، وأما دبيس فإنه ذكر أن السلطان سنجر قد أقطعه الحلّة، وأرسل إلى الخليفة المسترشد بالله يتضرّع ويسأل الرضا عنه فامتنع من إجابته إلى ذلك، فعاد الخليفة المسترشد بالله إلى بغداد وأمر أهلها بالاستعداد للمدافعة عنها، وجنّد أجناداً جعلهم معهم، وواصل السلطان مسعود التقدّم فالتقى بطلائع عمه سنجر فتأخّر السلطان مسعود إلى كرمنشاه، ونزل السلطان سنجر في أسدأباذ في مائة ألف فارسٍ، وسار مسعود وأخوه سلجوق شاه إلى جبلين فنزلا بينهما، واقترب منهما السلطان سنجر فلما سمع بانحرافهما في الطريق أسرع في طلبهم فرجعوا إلى الوراء مسيرة أربعة أيامٍ في يومٍ وليلةٍ فالتقى العسكران عند الدينور، وكان مسعود يسعى في تأخير اللقاء لقدوم الخليفة المسترشد بالله، فلما نازله السلطان سنجر لم يجد بُدّاً من اللقاء، وجعل سنجر على ميمنته طغرل ابن أخيه محمد أخا مسعود، وعلى ميسرته خوارزمشاه أتسر بن محمد. وجعل مسعود على ميمنته قراجة الساقي والأمير قزل وعلى ميسرته برنقش بازدار ويوسف جاووش، وكان الأمير قزل قد واطأ السلطان سنجر على الانهزام ويدأ القتال، وحمل

قراجة في الوسط فقاتل بحماسةٍ إلى أن جُرح عدة جراحاتٍ، وقتل كثير من أصحابه، وأُخذ هو أسيراً وبه جراحات كثيرة فلما رأى السلطان مسعود ذلك انهزم وسلم من المعركة وقتل يوسف جاووش وحسين أزبك وهما من أكابر الأمراء وكانت الوقعة في الثامن من شهر رجب سنة ٥٢٦هـ فلما تمَّت الهزيمة على مسعود وانتصر سنجر فنزل وأحضر قراجة أسيراً فسبّه وقال له: يا مفسد أي شيءٍ كنت ترجو بقتالي، قال: كنت أرجو أن أقتلك وأُقيم سلطاناً أحكم عليه، فقتله صبراً، وأرسل إلى السلطان مسعود يستدعيه فحضر عنده، وكان قد وصل إلى خونج[1]، فلما رآه قبّله وأكرمه وعاتبه على العصيان عليه، فهو ابن أخيه محمد وأعاده إلى كنجه فهي من أقطاعه، وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد، فهو أخو مسعود، في السلطنة، وخُطب له في البلدان جميعها، وجعل في وزارته أبا القاسم الأنسابادي وزير السلطان محمود، وعاد هو إلى خراسان فوصل إلى نيسابور في العشرين من شهر رمضان سنة ٥٢٦هـ.

---

(١) خونج: بلد من أعمال أذربيجان بين المراغة وزنجان في طريق الريّ، وهو آخر ولاية أذربيجان.

مسير عماد الدين زنكي إلى بغداد وهزيمته:

كان الخليفة المسترشد بالله قد خرج من بغداد فلما بلغه هزيمة السطان مسعود ومن معه أمام السلطان سنجر عزم الخليفة المسترشد بالله على العودة إلى بغداد فأتاه خبر وصول عماد الدين زنكي إلى بغداد ومعه دبيس بن صدقة، وكان السلطان سنجر قد كاتبهما وأمرهما بقصد العراق والاستيلاء عليه فلما علم الخليفة بذلك أسرع بالعودة عليها وعبر إلى الجانب الغربي وسار فنزل بالعباسية ونزل عماد الدين بالمنارية والتقيا بحصن البرامكة في السابع عشر من شهر رجب سنة ٥٢٦هـ فابتدأ عماد الدين زنكي القتال فحمل على ميمنة الخليفة وبها جمال الدين إقبال فانهزموا منه، وحمل نظر الخادم من ميسرة الخليفة على ميمنة عماد الدين وحمل الخليفة بنفسه واشتدّ القتال فانهزم دبيس، وأراد عماد الدين الصبر فرأى الناس قد تفرّقوا عنه فانهزم أيضاً وقتل من العسكر جماعة وأُسرت جماعة وبات الخليفة هناك ليلته وعاد من الغد إلى بغداد.

أما دبيس بن صدقة فقد لاذ ببلاد الحلّة بعد الهزيمة التي حلّت بهم وجمع جمعاً، وكانت ولاية الحلّة بيد إقبال المسترشدي وقد أُمدّ بعسكرٍ من بغداد

ولقي دبيساً فانهزم دبيس واختفى في أجمةٍ هناك وبقي ثلاثة أيامٍ لم يُطعم فيها شيئاً، ثم أخرجه أحد أصحابه على ظهره، فعاد يجمع الناس فحشد حوله عسكراً وقصد مدينة واسط وانضمّ إليه عسكرها فدخلها، ثم جاءه عسكر من بغداد ومن الحلّة والتقى الفريقان فاقتتلوا فهُزم دبيس والواسطيون وأسر عدد من أمرائه.

وفاة تاج الملوك صاحب دمشق:

كان بوري تاج الملوك بن طغتكين صاحب دمشق قد ثارت عليه الباطنية سنة ٥٢٥هـ، وأصيب بجرحين فبرأ أحدهما وبقي الآخر يُؤلمه وبعد سنةٍ اشتدّ ألمه حتى وهنت قوته وسقط في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ٥٢٦هـ، ووصى بالملك من بعده إلى ولده إسماعيل شمس الملوك، وبمدينة بعلبك وأعمالها لولده محمد شمس الدولة.

وفي آخر شهر ذي القعدة من سنة ٥٢٦هـ استولى شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق على حصن اللبوة وحصن رأس العين وهما يتبعان مُلك أخيه شمس الدولة محمد، وسبب ذلك أن هذين الحصنين كانا لأبيه تاج الملوك بوري وفي كل واحدٍ منهما مستحفظ يحفظه فلما ملك شمس الملوك بعد وفاة أبيه بلغه أن أخاه شمس

الدولة محمداً صاحب بعلبك قد راسلهما واستمالهما إليه فسلّما الحصنين إليه وجعل فيهما من الجند ما يكفيهما فلم يظهر بذلك أثر بل راسل أخاه بلطفٍ، وينكر وضع الحصنين بهذه الحالة، ويطلب أن يعيدهما إليه فلم يفعل فأغضى على ذلك، وتجهّز من غير أن يُعلم أحداً وسار هو وعسكره في آخر شهر ذي القعدة سنة ٥٢٦هـ باتجاه الشمال ثم عاد نحو الغرب فلم يشعر الذين بحصن اللبوة إلا وقد نزل عليهم، وزحف نحو حصن رأس العين مباشرةً فلم يتمكّنوا من نصب منجنيق أو غيره فطلبوا الأمان فبذله لهم وتسلّم الحصن من يومه، ثم جعل في الحصنين من يحفظهما ثم رحل إلى بعلبك وحاصرها وفيها أخوه شمس الدولة محمد وقد استعدّ وجمع في القلعة ما يحتاج إليه من رجالٍ وذخائر فحاصرهم شمس الملوك وقاتله أهل البلد وهم على السور، ثم زحف عدة مراتٍ فملك البلد بعد قتالٍ شديدٍ وضحايا كثيرةٍ، وبقيت القلعة فزحف عليها وفيها أخوه ونصب المجانيق ولازم القتال، فلما رأى أخوه شمس الدولة شدة الأمر أرسل يبذل الطاعة، ويسأل أن يقرّ على ما بيده وجعله أبوه باسمه فأجابه إلى ما طلب فأقرّه على بعلبك وأعمالها وتحالفوا وعاد شمس الملوك إلى دمشق وقد استقامت الأمور.

القتال بين السلطان طغرل وابن أخيه داود بن محمود:

بعد أن انتصر السلطان سنجر على أخويه مسعود وسلجوق شاه أجلس أخاه طغرل في السلطنة وعاد إلى خراسان على حين أن ابن أخيه داود بن محمود يعدّ نفسه هو السلطان إذ ورث المنصب عن أبيه وبعهدٍ منه لذا فإن داود قد عصى على عمه طغرل وخالفه وجمع العساكر بأذربيجان وسار إلى همذان ونزل قريباً منها في مستهل شهر رمضان سنة ٥٢٦هـ، وخاصةً أنه يعلم أن سنجر عمّ أبيه قد عاد مسرعاً إلى خراسان لأنه بلغه أن صاحب ما وراء النهر أحمد خان قد عصى عليه فبادر إلى العودة لتلافي ذلك الخرق.

خرج طغرل إلى داود ابن أخيه وعبأ كل واحدٍ منهما أصحابه فكان على ميمنة السلطان طغرل الأمير طغرل بن برسق وعلى ميسرته الأمير قزل وعلى مقدمته قره سنقر، وكان على مقدمة داود برنقش الزكوي ولم يقاتل فلما رأى التركمان ذلك نهبوا خيامه ووقع الخلاف في عسكر داود، فلما رأى عهدته آقسنقر الأحمديلي ذلك ولّى هارباً وتبعه الناس مهزومين وقبض طغرل على برنقش الزكوي وعلى جماعةٍ من الأمراء، وأما الملك داود فإنه لما انهزم أصحابه بقي حائراً إلى

أوائل شهر ذي القعدة، ثم قدم بغداد ومعه عهدته آقسنقر الأحمديلي فأكرمه الخليفة وأنزله بدار السلطان، وكان الملك مسعود بأذربيجان.

وزارة الخليفة:

قبض الخليفة المسترشد بالله على وزيره شرف الدين علي بن طراد الزينبي واستوزر أنوشروان بن خالد بعد أن تمنّع وسأل الإقالة.

عودة السلطان مسعود إلى السلطنة:

بعد أن انتصر السلطان سنجر على مسعود ابن أخيه أعطى السلطنة إلى طغرل ابن أخيه أخي مسعود، ثم وقع القتال بين السلطان طغرل وبين ابن أخيه داود بن محمود الذي لحقت به الهزيمة واتجه إلى بغداد، فلما سمع مسعود ما جرى اتجه إلى بغداد أيضاً فلما اقترب منها خرج إليه داود ولقيه وترجّل له واستقبله وخدمه ودخلا بغداد معاً ودخل مسعود دار السلطنة وذلك في شهر صفر سنة ٥٢٧هـ وطلب الخطبة له فأُجيب إلى ما طلب، فخُطب له ولداود من بعده وخلع عليهما ودخلا إلى الخليفة المسترشد بالله فأكرمهما، وتمّ الاتفاق على مسير مسعود وداود إلى أذربيجان، وأن يرسل الخليفة

معهما عسكراً، فلما وصلا إلى المراغة حمل إليهما آقسنقر الأحمديلي مالاً كثيراً، وسيطر مسعود على سائر بلاد أذربيجان وانهزم من بها من الأمراء مثل قره سنقر وغيره وتحصّنوا منه بمدينة أردبيل وحاصرهم بها، وقتل منهم مقتلةً عظيمةً وانهزم الباقون، ثم سار بعد ذلك إلى همذان لمحاربة أخيه الملك طغرل، فلما سمع طغرل باقترابه برز إلى لقائه فاقتتلوا من الصباح إلى الظهر ثم انهزم طغرل وقصد الريّ واستولى السلطان مسعود على همذان في شهر شعبان سنة ٥٢٧هـ، وقتلت الباطنية آقسنقر الأحمديلي، وتابع طغرل مسيره إلى قُم، ومنها اتجه إلى أصبهان ودخلها وأراد التحصّن بها فسار إليه أخوه مسعود ليحاصره بها، فرأى طغرل أن أهل أصبهان لا يطاوعونه على الحصار فرحل عنهم إلى بلاد فارس واستولى مسعود على أصبهان وفرح أهلها به، وسار من أصبهان إلى فارس يقتصّ أثر أخيه فوصل إلى موضعٍ بقرب البيضاء فاستأمن إليه أمير من أمراء أخيه معه أربعمائة فارسٍ فأمّنه فخاف طغرل من عسكره أن ينحازوا إلى أخيه فانهزم من بين يديه وقصد الريّ في شهر رمضان سنة ٥٢٧هـ، وسار السلطان مسعود يتبعه فلحقه واشتبكا بقتالٍ فانتصر مسعود ودخل عسكر طغرل في أرض وحلٍ فأُسر منهم جماعة من الأمراء فأطلقهم

السلطان مسعود، ولم يُقتل في المعركة بينهما إلا نفر يسير، ورجع السلطان مسعود إلى همذان.

حصار الخليفة الموصل:

التحق بعض أمراء السلاجقة بالخليفة المسترشد بالله فقوي بهم إضافةً إلى الخلاف الواقع بين سلاطين السلاجقة، فأرسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الإسفراييني الواعظ إلى عماد الدين زنكي برسالةٍ فيها خشونة وزادها الإسفراييني زيادة ثقةٍ بقوة الخليفة ومكانة الخلافة فقبض عليه عماد الدين زنكي وأهانه وأسمعه بما يكره، فأرسل الخليفة المسترشد بالله إلى السلطان مسعود يعلمه بما جرى من عماد الدين زنكي ويخبره أنه قصد المسير إلى الموصل وحصارها. وسار الخليفة في منتصف شهر شعبان سنة ٥٢٧هـ إلى الموصل في ثلاثين ألف مقاتلٍ فلما اقترب منها رحل عنها عماد الدين زنكي في بعض عساكره وترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين والحاكم في دولته وأمرهما بحفظها، ونازلها الخليفة وقاتلها وضيّق على أهلها. وأما عماد الدين زنكي فقد سار إلى سنجار. وبقي الخليفة محاصراً مدينة الموصل ثلاثة أشهرٍ ولم يظفر منها بشيءٍ ولا بلغه وهن في أهلها ولا قلّة في الأقوات فرحل عنها راجعاً إلى

بغداد فوصل إليها في يوم عرفة التاسع في شهر ذي الحجة سنة ٥٢٧هـ. وقيل: إن رحيله كان بسبب الخبر الذي وصل إليه بأن السلطان مسعود قد عزم على المسير إلى بغداد.

استيلاء صاحب دمشق على حماة:

كانت مدينة حماة لعماد الدين زنكي أخذها من تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق، فلما استولى شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك على قلعة بانياس وعاد إلى دمشق وأقام فيها إلى شهر رمضان سنة ٥٢٧هـ، فلما بلغه خبر رغبة الخليفة المسترشد بالله بالمسير إلى الموصل وحصارها طمع هو بالمسير إلى حماة ما دام عماد الدين زنكي مشغولاً بخلافه مع الخليفة فسار إلى حماة بأواخر شهر رمضان سنة ٥٢٧هـ. ولما سمع والي حماة بعزم سير صاحب دمشق شمس الملوك إليه تحصّن وجمع الرجال والذخائر.

وصلت أخبار استعداد والي حماة وعزيمته على مقاومة صاحب دمشق لذا فقد نصح أصحاب شمس الملوك وأشاروا على صاحبهم بترك مسيره إلى حماة لقوة صاحبها فلم يسمع منهم وسار إليها وحاصرها وقاتل أهلها يوم عيد الفطر فقاتلوه فعاد عنهم ذلك اليوم

فلما كان الغد بكر إليهم والشمس في خدر أمها وزحف إلى البلد من جوانبه كلها فملكه قهراً وعنوةً وطلب أهله الأمان فأمّنهم، وحاصر القلعة فعجز واليها عن حفظها فسلّمها إليه فاستولى عليها وعلى سلاحها وذخائرها، وسار منها إلى قلعة شيزر وصاحبها من بني منقذٍ فحاصرها ونهب بلدها فراسله صاحبها وصانعه بمالٍ حمله إليه فعاد عنه إلى دمشق فوصل إليها في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٧هـ.

وكان قد وثب على شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق في التاسع من شهر ربيع الثاني سنة ٥٢٧هـ بعض مماليك جده طغتكين وضربه بالسيف فكانت ضربةً خائبةً فتكاثر عليه مماليك شمس الملوك فأخذوه، وسأله إسماعيل: ما الذي حملك على ما فعلت؟ فقال: أردت إراحة المسلمين من شرك وظلمك. ولم يزل الجاني يُضرب حتى أقرّ على جماعةٍ وضعوه على ذلك فقتلهم شمس الملوك دون تحقيقٍ وقتل معهم أخاه سونج فعظم ذلك على الناس ونفروا عنه.

استيلاء شمس الملوك على جبال جنوبي لبنان:

كانت جبال جنوبي لبنان تعرف باسم «شقيف

تيرون» ولا تزال القلعة القائمة في جنوبي هذه الجبال تسمى «قلعة الشقيف» إلى هذا اليوم. وكانت هذه الجبال بيد الضحاك بن جندل رئيس وادي التيم الذي هو الوادي الأعلى لنهر الحاصباني الذي يجري إلى الشرق من هذه الجبال ويتجه من الشمال إلى الجنوب ويكون أحد الأنهار التي تُشكّل نهر الشريعة أو ما يعرف اليوم باسم نهر الأردن. وقد تغلّب الضحاك على هذه المنطقة وامتنع بهذه الجبال حتى تحاماه المسلمون والصليبيون فيحتمي من كل فريقٍ بالآخرين.

سار شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق في شهر المحرم سنة ٥٢٨هـ إلى هذه الجبال واحتلّها فصعب ذلك على الصليبيين لأن الضحّاك لم يتعرّض إلى شيءٍ من المناطق التي يسيطرون عليها المجاورة له وخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم وساروا إلى منطقة حوران فخرّبوا أمهات البلدان ونهبوا ما أمكنهم نهبه.

وفي الوقت الذي رأى فيه شمس الملوك الصليبيين يجمعون جموعهم أخذ هو من جانبه يحشد عساكره واجتمع عنده كثير من التركمان وغيره فنزل مقابل الصليبيين وجرت بينهم مناوشات عدة أيامٍ ثم إن

شمس الملوك نهض ببعض عسكره وجعل الباقي مقابل الصليبيين وهم لا يشعرون وقصد بعض المدن التي يسيطرون عليها مثل عكا والناصرة وطبرية وما يُجاورها فنهب وخرّب وأحرق أملاكهم وامتلأت أيدي عساكره بالغنائم ووصلت الأخبار إلى الصليبيين فرحلوا مباشرةً لا يلوي أحد على أحدٍ ورجعوا إلى البلدان التي يسيطرون عليها. وأما شمس الملوك فإنه عاد إلى عسكره على غير الطريق التي سلكها الصليبيون ووصل سالماً، ورأى الصليبيون مناطقهم خراباً ففتّ ذلك في عضدهم وتفرّقوا وراسلوا في تجديد الهدنة فهادنهم شمس الملوك في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٨هـ.

عودة الصراع بين الأخوين طغرل ومسعود:

بعد أن انتصر مسعود بن محمد بن ملكشاه على أخيه طغرل وملك بلاد الجبل كلها بلغه عصيان داود بن أخيه السلطان محمود بأذربيجان فسار إليه وحاصره واشتغل بحصاره فجمع في هذه الأثناء الملك طغرل العسكر حوله واستمال إليه بعض قادة أخيه مسعود، وأخذ يدخل البلدان فكثرت عساكره وعندها قصد أخاه مسعوداً فلما اقترب من قزوين سار مسعود نحوه فلما تراءى الجمعان فارق مسعوداً من أمرائه من كان قد

استماله أخوه طغرل فبقي في قلّةٍ من العسكر فولّى منهزماً في أواخر شهر رمضان سنة ٥٢٨هـ وأرسل إلى الخليفة المسترشد بالله يستأذنه بالقدوم إلى بغداد فأذن له. وكان نائبه بأصبهان البقش السلاحي ومعه الملك سلجوق شاه أخو مسعود أيضاً الذي بلغه خبر هزيمة مسعود فسار إلى بغداد أيضاً ونزل بدار السلطان فأكرمه الخليفة وبعث إليه عشرة آلاف دينارٍ، ثم قدم مسعود إلى بغداد ونزل بالدار السلطانية ببغداد في منتصف شهر شوال سنة ٥٢٨هـ. وأقام طغرل بهمذان.

حصار عماد الدين زنكي آمد:

اتفق عماد الدين زنكي مع حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وقصدا مدينة آمد (ديار بكر) وألقيا الحصار عليها، فأرسل صاحبها إلى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده فأجابه وجمع عساكره وسار نحو آمد ليبعدهما عنها فالتقوا على بابها في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢٨هـ واقتتلوا فانهزم داود بن سقمان وعاد خائباً بعد أن فقد عدداً من عساكره قتلى وأقام عماد الدين وحسام الدين محاصرين لها فقطعوا الأشجار حولها وخرّبوا، ثم رحلوا عنها دون بلوغ هدفٍ. وقصد عماد الدين زنكي قلعة «الصور» في

مرتفعات ديار بكر، وألقى الحصار عليها، وضيّق على أهلها، واستطاع أن يدخلها في شهر رجب سنة ٥٢٨هـ، واتصل به ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتوثي فاستوزره عماد الدين زنكي وكان صاحب كفايةٍ محباً للخير.

سيطرة عماد الدين زنكي على قلاع الأكراد الحميدية:

لما ملك عماد الدين زنكي الموصل أقرّ عيسى الحميدي على ولاية القلاع في تلك النواحي وعلى أعمالها ولم يعترضه على شيء، فلما جاء الخليفة المسترشد بالله سنة ٥٢٧هـ إلى الموصل وألقى الحصار عليها حضر عيسى الحميدي والأكراد عنده فلما رجع الخليفة عن الموصل أمر عماد الدين زنكي أن يُستولى على قلاعهم فسارت العساكر إليها وأُلقي الحصار عليها وقوتل أهلها قتالاً شديداً وتمكّن المحاصرون من دخولها وامتلاكها سنة ٥٢٨هـ، وارتاح أهل ضواحيها لهؤلاء القادمين فإنهم كانوا في ضائقةٍ شديدةٍ من سابقيهم ينهبون أموالهم ويخربون بلادهم.

ولما استولى عماد الدين زنكي على القلاع الحميدية وأجلى أهلها عنها خاف أبو الهيجاء بن عبد الله صاحب قلاع «أشب» و«نوشي» و«الجزيرة» على قلاعه فأرسل إلى عماد الدين زنكي من استحلفه له وحمل إليه

مالاً، ثم سار هو إليه بالموصل من قلعة «أشب» وقبل أن يغادر هذه القلعة أخرج منها ولده أحمد بن أبي الهيجاء[1] خوفاً من أن يتغلّب عليها، وأعطاه قلعة «نوشي»، واستناب على أشب رجلاً يعرف بـ«باو الأرجي» فلما مات أبو الهيجاء سار ولده أحمد من «نوشي» إلى «أشب» يريد أن يحتلّها فمنعه نائبها «باو الأرجي» وأراد حفظها لولدٍ صغيرٍ لأبي الهيجاء اسمه علي، فسار عماد الدين زنكي بعسكره واحتلّها، وكان أهلها قد نزلوا كلهم للقتال فتركهم عماد الدين زنكي حتى اقتربوا منه وانسحب أمامهم واستجرهم حتى ابتعدوا عن القلعة ثم انقلب عليهم فانهزموا فوضع السيف فيهم فأكثر القتل والأسر، واستولى عماد الدين

---

(١) أحمد بن أبي الهيجاء الهكاريّ: والد علي بن أحمد، أبو الحسن، سيف الدين المعروف بالمشطوب، سُمِّيَ المشطوب لشطبةٍ في وجهه من أثر طعنةٍ في إحدى غزواته، أمير له مواقف في الحروب الصليبية، حضر مع أسد الدين شيركوه فتح مصر، ولازم صلاح الدين الأيوبي إلى آخر عمره، وأسره الصليبيون ففدى نفسه بخمسين ألف دينارٍ، وأقطعه صلاح الدين الأيوبي مدينة نابلس، ولم يكن في أمراء دولة صلاح الدين الأيوبي من يضاهيه شأناً ومرتبةً وكان يلقب بالأمير الكبير، توفي في نابلس سنة ٥٨٨هـ أي قبل وفاة صلاح الدين الأيوبي بسنة واحدة.

على القلعة مباشرةً، وأحضر جماعة من المقدمين بينهم النائب «باو الأرجي» وقتلهم، وعاد عنها إلى الموصل، ثم سار إلى الموصل وأثناء غيبته أرسل نصير الدين نائب عماد الدين زنكي العساكر واحتلّ باقي قلاع المنطقة.

وفاة الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه:

انتصر طغرل بن محمد على أخيه مسعود الذي فرّ منهزماً إلى بغداد فأكرمه الخليفة وحمل له ما يحتاج إليه وأمره بالمسير إلى همذان وجمع العساكر ومنازعة أخيه طغرل في السلطنة والبلاد، ومسعود يعدّ ويدافع الأيام والخليفة يحثّه على ذلك ووعده أن يسير معه بنفسه. واتصل بعض الأمراء بالخليفة وطلبوا خدمته فأجابهم وصاروا معه، واتفق أن رجلاً قد أُخذ فوجد معه رسائل من الملك طغرل إلى هؤلاء الأمراء ويعدهم بالأقطاع، فلما رأى الخليفة ذلك قبض على أميرٍ منهم اسمه «غلبك» ونهب ماله فاستشعر غيره من الأمراء الذين مع الخليفة فهربوا إلى عسكر السلطان مسعود، فأرسل الخليفة إليه في إعادتهم إليه فلم يفعل واحتجّ بأشياء فصعُب ذلك على الخليفة وحدثت بينهما نفرة ووحشة أوجبت تأخّره عن المسير معه وأرسل إليه يُلزمه بالمسير

معه أمراً جزماً فبينما الأمر على هذا إذ جاءه الخبر بوفاة أخيه طغرل[1] وذلك في شهر المحرم سنة ٥٢٩هـ، فسار مسعود من ساعته نحو همذان وأقبلت العساكر جميعها إليه، واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد، واستولى مسعود على همذان وأطاعته بلاد الجبل كلها.

مقتل شمس الملوك إسماعيل[2]:

أساء شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق معاملة رعيته إذ ساد الظلم، وأخذ الأموال، ودناءة النفس حتى كرهه أهله

---

(١) طغرل بن محمد بن ملكشاه: ولد سنة ٥٠٣هـ في شهر المحرم، كان خيّراً عاقلاً قريباً من الرعية محسناً إليهم، ولما سار يريد قتال أخيه مسعود دعا له الناس، فقال: ادعوا بخيرنا للمسلمين، وتوفي في شهر المحرم ٥٢٩هـ، أي عاش ستاً وعشرين سنة.

(٢) شمس الملوك إسماعيل بن بوري بن طغتكين التركي: ملك دمشق بعد أبيه في شهر رجب سنة ٥٢٦هـ، وكان بطلاً شجاعاً، ولكن ظالماً جباراً. استنقذ بانياس من الصليبيين في يومين، وكانت الباطنية قد باعوها لهم قبل سبع سنوات. وقاتل الباطنية وأذلّهم، ثم سار فحاصر أخاه ببعلبك، ونازل حماه وأخذها وكانت لعماد الدين زنكي، وظلم وعتا، وخافته أمه زمرّد فهيأت من قتله لأنه تهدّدها بالقتل لما نصحته. وتزوجت أمه من صاحب حلب عماد الدين زنكي.

وأصحابه ورعيته وتمنّوا الخلاص منه، ويبدو أنه راسل عماد الدين زنكي وطلب منه القدوم إليه ليسلّمه دمشق وحثّه على سرعة الوصول، ونقل الأموال والذخائر منها، وتتابعت الرسل تحثّ عماد الدين زنكي على الوصول إليه، وتقول له: إن أهملت المجيء سلّم البلد إلى الصليبيين، فاتجه عماد الدين زنكي نحو دمشق وشاع الخبر فامتعض أصحاب أبيه وجده وأقلقهم ذلك وذكروا ذلك لوالدته فساءتها الحال وأشفقت عليه ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر، ثم إنها ارتقبت فرصة خلوته بعيداً عن غلمانه فلما رأته على ذلك أمرت غلمانها بقتله فقُتل، وأمرت بإلقائه على موضع في الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه فلما رأوه قتيلاً سُرّوا لمصرعه وللخلاص منه ومن شرّه، وكان مقتله في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٥٢٩هـ.

ولما قُتل شمس الملوك إسماعيل تولّى أمر دمشق أخوه شهاب الدين محمود[1] بن تاج الملوك بوري.

---

(١) شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغتكين التركي: تولّى أمر دمشق بعد مقتل أخيه شمس الملوك وذلك بإعانة أمه زمرد، كانت الأمور تجري في أيامه على استقامة إلى أن وثب عليه جماعة من خدمه فقتلوه في شوال سنة ٥٣٣هـ=

وصل عماد الدين زنكي إلى دمشق ونازلها في أول جمادى الأولى سنة ٥٢٩هـ، وكان قد بلغه وهو في طريقه إلى دمشق خبر مقتل شمس الملوك إسماعيل وقيام أخيه شهاب الدين محمود مكانه وأن الكلمة متفقة على طاعته ولكنه لم يحفل بالخبر بل تابع المسير وأكرم مخبريه وأحسن إليهم وأعادهم بأحسن هيئةٍ. وبلغ دمشق ونازلها فوجد قوةً ظاهرةً وشجاعةً واتفاقاً تاماً على محاربته، وبينما هو يحاصرها إذ وصل رسول الخليفة المسترشد بالله وهو أبو بكر بن بشر الجزري من جزيرة ابن عمر بخلع عماد الدين زنكي، فرحل عماد الدين عن دمشق لليلتين مضتا من شهر جمادى الأولى سنة ٥٢٩هـ.

القتال بين الخليفة والسلطان:

كان السلطان مسعود قد غادر بغداد وسار إلى همذان بعد موت أخيه طغرل واستولى عليها وأقام بها ففارقه بعض كبار الأمراء خائفين منه ومعهم عدد كبير

= وجاء أخوه من بعلبك فتسلّم دمشق دون نزاعٍ. قتله البقش الأرمني، ويوسف الخادم الذي وثق به في نومه، والفرّاش، فكان ثلاثتهم يبيتون حول فراشه فقتلوه وهو نائم، وخرجوا خفيةً، ثم طُلبوا، فهرب البقش، وصُلب الآخران.

وكان ممن معهم دبيس بن صدقة، وأرسلوا إلى الخليفة يطلبون منه الأمان ليحضروا في خدمته، فقيل له: إنها مكيدة لأن دبيساً معهم، فساروا إلى خوزستان واتفقوا مع برسق بن برسق، فأرسل الخليفة إليهم سديد الدولة ابن الأنباري يُطيّب نفوسهم بالأمر بحضورهم، وكان هؤلاء الأمراء قد عزموا القبض على دبيس إرضاءً للخليفة وتقرّباً له بحمله إليه فبلغ الأمر إلى دبيس فهرب منهم إلى السلطان مسعود وسار الأمراء إلى بغداد في شهر رجب ٥٢٩هـ فأكرمهم الخليفة وحمل إليهم الخلع، وقطعت خطب السلطان مسعود من بغداد، وعزم الخليفة على السير إلى السلطان مسعود وقتاله فعصى صاحب البصرة وهرب إليها فراسله الخليفة وبذل له الأمان فلم يعد إليه، وتريث الخليفة عن المسير لقتال السلطان مسعود وهؤلاء الأمراء يحسّنون له المسير ويسهّلون عليه الأمر ويقلّلون له شأن السلطان مسعود، فسيّر الخليفة مقدمته إلى حلوان فنهبوا وأفسدوا ولم ينكر عليهم شيئاً، ثم سار الخليفة في الثامن من شهر شعبان سنة ٥٢٩هـ، ولحق به في الطريق الأمير برسق بن برسق فبلغت عدتهم سبعة آلاف فارسٍ، وتخلّف بالعراق مع إقبال خادم الخليفة ثلاثة آلاف فارسٍ، وكان السلطان مسعود بهمذان في نحو ألف وخمسمائة فارسٍ، وكان

أكثر أصحاب الضواحي يكاتبون الخليفة ويبذلون له الطاعة فتمهّل في طريقه فراسل السلطان مسعود أكثرهم وطيّب نفوسهم وبذل لهم الوعود فعادوا إليه فصار في نحو خمسة عشر ألف فارسٍ، وتسلّل جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقي في خمسة آلاف فارسٍ.

أرسل عماد الدين زنكي نجدةً فلم تصل إلا متأخرةً، وبعث الملك داود بن السلطان محمود وهو بأذربيجان إلى الخليفة يشير عليه بالانعطاف نحو الدينور ليحضر بنفسه مع عسكره فلم يفعل الخليفة، وسار حتى بلغ «دايمرج» وعبّأ أصحابه فجعل في الميمنة برنقش بازدار ونور الدين سنقر وقزل وبرسق بن برسق، وجعل في الميسرة أمراء آخرين، ولما سمع السلطان مسعود خبرهم سار إليهم مسرعاً فوافقهم بـ(دايمرج) في العاشر من شهر رمضان سنة ٥٢٩هـ، وانحازت ميسرة الخليفة إلى السلطان فصارت معه، واشتبكت ميمنة الخليفة وميسرة السلطان بقتالٍ خفيفٍ ودارت عساكر السلطان حول عساكر الخليفة، وهو ثابت لم يتحرّك من مكانه، وانهزمت عساكره، وأُخذ هو أسيراً ومعه جمع كثير من أصحابه منهم الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي، وقاضي القضاة، وصاحب المخزن ابن طلحة، وابن

الأنباري والفقهاء والخطباء وغيرهم، وأُنزل الخليفة في خيمةٍ، وغنموا ما في معسكره، وكان كثيراً، وحُمل الوزير وقاضي القضاة وابن الأنباري وصاحب المخزن ابن طلحة وغيرهم من الأكابر إلى قلعة «سرجهان»[1]، وفدى الباقون نفوسهم بالمبالغ الكبيرة، ولم يقتل في هذه المعركة أحد.

عاد السلطان مسعود إلى همذان وأمر فنودي من تبعنا من أهل بغداد إلى همذان قتلناه فرجع الناس على أسوإ حالٍ ليس لهم ما يحملهم ولا يعرفون طريقاً يسلكونها. وسيّر السلطان مسعود إلى ولاية بغداد الأمير «أبه المحمودي» فوصل إليها في نهاية شهر رمضان سنة ٥٢٩هـ، ومعه عبيد وضعوا أيديهم على أملاك الخليفة جميعها وأخذوا غلّاتها. وثارت جماعة من العامة في بغداد فكسروا المنبر ومنعوا الخطبة، وخرجوا في الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم ويبكون ويصيحون، وخرجت النساء في الأسواق يلطمن وجوههن. واقتتل أصحاب الوالي والعامة في بغداد فقُتل من العامة ما يزيد على مائةٍ وخمسين قتيلاً وهرب

(١) قلعة سرجهان: قلعة حصينة على طرف جبال الديلم تشرف على قزوين وزنجان وأبهر، وتعدّ من أحصن القلاع.

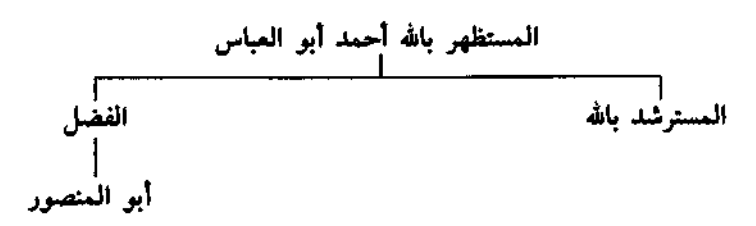
الوالي وحاجب الباب، وهذا يدلّ على الارتباط بين الخليفة والرعية.

وسار السلطان مسعود في شهر شوال سنة ٥٢٩هـ من همذان إلى المراغة لقتال الملك داود ابن أخيه محمود، وكان قد عصى عليه فنزل على مسافة اثني عشر كيلاً من المراغة والخليفة المسترشد بالله معه في خيمته، فترددت الرسل بين الخليفة والسلطان للصلح بينهما.

مقتل الخليفة المسترشد بالله:

لما قبض على الخليفة في المعركة التي دارت بينه وبين السلطان جعل السلطان مسعود الخليفة المسترشد بالله في خيمةٍ، ووكّل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته، وتردّدت الرسل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مالٍ يُؤدّيه الخليفة، وأن لا يعود يجمع العساكر وأن لا يخرج من داره فأجاب السلطان إلى ذلك، وتمّ الأمر وأُركب الخليفة ليعود إلى بغداد وإذ يصل الخبر أن الأمير قزان خوان قد ورد رسولاً من السلطان سنجر فتأخّر مسير الخليفة لذلك، وخرج الناس مع السلطان مسعود للقاء مبعوث السلطان سنجر، وفارق الخليفة بعض من كان موكلاً به، وكانت خيمته منفردةً عن

العسكر فقصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحةً، ومثّلوا به فجدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عرياناً وقُتل معه نفر من أصحابه، وكان قتله يوم الأحد السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ على باب «مراغة» وبقي حتى دفنه أهل مراغة. وأما الباطنية فقُتل منهم عشرة، وقيل بل قتلوا جميعاً ـ والله أعلم ـ ولما قُتل الخليفة المسترشد بالله بويع ابنه أبو جعفر المنصور، ولُقّب الراشد بالله.



مسير السلطان أحمد سنجر بن ملكشاه إلى غزنة:

كان السلطان سنجر بن ملكشاه قد ضمّ إليه مدينة غزنة وأعمالها سنة ٥٠٩هـ، وأنه أناب عليها بهرام شاه، وبلغه الآن أن هذا النائب قد ظلم الرعية فسار إليه في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ ليكفّ يده عنها فيستبدل به أفضل منه أو ليصلحه وبعد أن قطع شوطاً ليس بالقليل من الطريق وأصبح بين الجبال اشتدّ برد الشتاء وكثر

تساقط الثلوج وتعذّر الحصول على الأقوات والأعلاف وصعب الأمر على العسكر فشكوا إلى سلطانهم وذكروا له ما هم فيه من الضيق وفقدان ما يحتاجون إليه فلم يجبهم إلا بالتقدّم أمامهم وإبداء الصبر وقوة الاحتمال، ولما اقترب الركب من غزنة أرسل بهرام شاه إلى السلطان سنجر رسلاً يُظهر الطاعة ويسأل الصفح عن الجرم والعفو عن الذنب. فأرسل إليه سنجر أحد المقربين إليه وهو جوهر الخادم أكبر أمرائه وصاحب الريّ بجواب رسالته بالعفو عنه إن حضر عنده بنفسه وأظهر الطاعة والانقياد لما يحكم به السلطان سنجر شيئاً كثيراً، وعاد جوهر الخادم ومعه بهرام شاه، وحين رأى بهرام موكب سنجر نكص على عقبيه عائداً فأمسك جوهر عنانه وقبّح عمله وخوّفه عاقبة ذلك فلم يرجع وولّى هارباً ولم يصدق النجاة ظنّاً منه أن السلطان سنجر يأخذه ويملك بلده، وأخذ جماعةً من أصحابه وخواصّه ولم يعرج على غزنة، وسار سنجر إليها فدخلها وجبى أموالها، وكتب إلى بهرام شاه يلومه على فعله، ويحلف له أنه ما أراد به شرّاً، وليس له في بلده مطمع، وإنما سار إليه لإصلاحه فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصّل ويقول إن الخوف منعه من الحضور، ولا لوم على من خاف من السلطان، ورجا

عودته إلى الإحسان فأجابه سنجر: إنه يُعيد عليه بلده، وفارق غزنة عائداً إلى بلاده خراسان فوصل إلى بلْخ في شهر شوال سنة ٥٣٠هـ، واستقرّ ملك غزنة لبهرام شاه.

مقتل دبيس بن صدقة:

أمر السلطان مسعود غلاماً أرمنياً بقتل دبيس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خوى، فوقف على رأسه وهو ينكت الأرض بأصبعه فضرب رقبته. وكان ابنه صدقة بن دبيس بالحلّة فاجتمع إليه عسكر أبيه ومماليكه وكثر جمعه، وأمر السلطان مسعود الأمير أبه أن يأخذ الحلّة، وسار بعض عساكره إلى المدائن وأقاموا مدةً ينتظرون لحاق الأمير أبه فلم يسر إليهم خوفاً من قصد الحلّة لكثرة عساكرها، وبقي صدقة بن دبيس بالحلّة حتى سنة ٥٣١هـ، حيث سار السلطان مسعود إلى بغداد ومنها قصد صدقة بن دبيس بالحلّة وأصلح حاله معه ولزم باب السلطان.

شخصية المسترشد بالله:

ولد في شهر شعبان سنة ٤٨٦هـ. وسمع في سنة ٤٩٤هـ من أبي الحسن بن العلّاف، وسمع من أبي القاسم بن بيان، ومن مؤدّبه أبي البركات بن السيبي.

روى عنه وزيره علي بن طراد الزينبي، وحمزة بن علي الرازي، وإسماعيل بن الملقب.

له خطّ بديع، ونثر صنيع، ونظم جيد، مع دينٍ ورأيٍ، وشجاعةٍ وشهامةٍ، وكان خليقاً للإمامة، قليل النظر.

قال ابن النجار: ذكر قثم بن طلحة الزينبي ـ ومن خطه نقلت ـ أن المسترشد كان يتنسّك في أول زمنه، ويلبس الصوف، ويتعبّد، وختم القرآن وتفقّه، ولم يكن في الخلفاء من كتب أحسن منه، وكان يستدرك على كُتّابه، ويُصلح أغاليط في كتبهم، وكان ابن الأنباري يقول: أنا ورّاق الإنشاء ومالك الأمر يتولّى ذلك بنفسه الشريفة.

وقال ابن النجار: كان ذا شهامةٍ وهيبةٍ، وشجاعةٍ وإقدامٍ، ولم تزل أيامه مكدّرة بتشويش المخالفين، وكان يخرج بنفسه لدفع ذلك ومباشرته إلى أن خرج فكُسر وأُسر، ثم استشهد على يد الملاحدة، وكان قد سمع الحديث. قال: وله نظم، ونثر مليح، ونُبل رأيٍ.

وقال ابن النجار: أنشدنا هبة الله بن الحسن بن السبط حفظاً للمسترشد بالله:

قالوا تُقيم وقد أحا
ط بك العدوّ ولا تفرُّ

فأجبتهم المرء ما لم
يتعظ بالوعظ غِرُّ
لا نلتُ خيراً ما حييت
ولا عَداني الدهر شرُّ
إن كنت أعلم أن غيـ
ـر الله ينفعُ أو يضرُّ

وله أيضاً:

أنا الأشقر الموعود بي في الملاحم
ومن يملكُ الدنيا بغير مزاحم
ستبلغ أرض الروم خيلي وتنتضي
بأقصى بلاد الصين بيض صوارمي

وقال لما أسر:

ولا عجباً للأسد إن ظفرتْ بها
كلاب الأعادي من فصيحٍ وأعجم
فحربة وحشيٍّ سقت حمزةَ الردى
وموت عليٍّ من حسام ابن ملجم[1]

قال ابن الجوزي:

(١) سير أعلام النبلاء: الذهبي.

وزلزلت بغداد مراراً كثيرةً، ودامت كل يومٍ خمس مراتٍ أو ستاً، والناس يستغيثون فأرسل السلطان سنجر إلى ابن أخيه السلطان مسعود يقول: ساعة وقوف الولد غياث الدنيا والدين على هذا المكتوب يدخل على أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين يديه، ويسأله العفو والصفح، ويتنصّل غاية التنصّل، فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها، فضلاً عن المشاهدة: من العواصف، والبروق، والزلازل، ودام ذلك عشرين يوماً، وتشويش العساكر، وانقلاب البلدان، ولقد خفت على نفسي من جانب الله، وظهور آياته، وامتناع الناس من الصلاة في الجوامع، ومنع الخطباء ما لا طاقة لي بحمله، فالله الله لتلافي أمرك، وتعيد أمير المؤمنين إلى مقرّ عزّه، وتحمل الغاشية بين يديه كما جرت عادتنا وعادة آبائنا، ففعل مسعود جميع ما أمره به وقبّل الأرض بين يدي الخليفة، ووقف يسأل العفو[1].

قال الذهبي: وقد خطب بالناس يوم عيد أضحى، فقال: الله أكبر ما سبّحت الأنواء، وأشرق الضياء،

(١) تاريخ الخلفاء: السيوطي.

وطلعت ذُكاء، وعلت على الأرض السماء، الله أكبر ما همى سحاب، ولمع سراب، وأنجح طلاب، وسرّ قادماً إياب ـ وذكر خطبةً بليغةً ـ ثم جلس، ثم قام فخطب، وقال: اللهم أصلحني في ذريتي، وأعنّي على ما ولّيتني، وأوزعني شكر نعمتك، ووفقني وانصرني، فلما أنهاها وتهيّأ للنزول بَدَره أبو المظفّر الهاشميّ، فأنشده:

عليك سلام الله يا خير من علا
على منبرٍ قد حفّ أعلامَه النصرُ
وأفضل من أمّ الأنام وعمّهم
بسيرته الحسنى وكان له الأمر
وأفضل أهل الأرض شرقاً ومغرباً
ومن جَدُّهُ من أجله نزل القطر[1]
لقد شنّفتْ أسماعَنا منك خطبة
وموعظة فصل يلين لها الصخر
ملأتَ بها كل القلوب مهابةً
فقد رجفت من خوف تخويفها مصر
وزدتَ بها عدنان مجداً مؤثلاً
فأضحى بها بين الأنام لك الفخر

(١) جدّه: العباس بن عبد المطلب ﷺ استسقى به عمر بن الخطاب ﷺ في قصةٍ مشهورةٍ.

وسُدْتَ بني العباس حتى لقد غدا
يباهي بك السَّجَّاد والعالم البحر
فلله عصر أنت فيه إمامنا
ولله دين أنت فيه لنا الصدر
بقيت على الأيام والملك كلما
تقادم عصر أنت فيه أتى عصر
وأصبحت بالعيد السعيد مهنّأً
تشرفنا فيه صلاتك والنحر

وقال وزيره جلال الدين الحسن بن علي بن صدقة يمدحه:

وجدت الورى كالماء طعماً ورِقّةً
وأن أمير المؤمنين زلاله
وصوّرت معنى العقل شخصاً مصوراً
وأن أمير المؤمنين مثاله
ولولا مكان الدين والشرع والتقى
لقلت من الإعظام جلّ جلاله[1]

قال ابن الأثير: كان شهماً شجاعاً، كثير الإقدام، بعيد الهمة، فصيحاً، بليغاً، حسن الحظ، ولقد رأيت

---

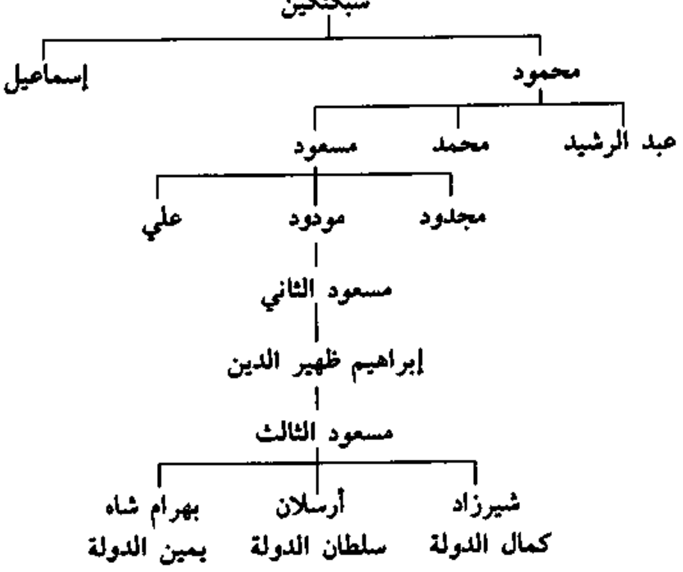
(١) تاريخ الخلفاء: السيوطي.

خطه في غاية الجودة، ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه[1].

ولد في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٥هـ وقُتل يوم الأحد السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ، فكان عمره لما قُتل أربعاً وأربعين سنةً وثمانية أشهرٍ، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهرٍ ويوماً واحداً.



(٢) الغزنويون



(١) الكامل في التاريخ.

توفي شيرزاد كمال الدولة سنة ٥٠٩هـ، وخلفه أخوه أرسلان سلطان الدولة حتى توفي سنة ٥١٢هـ، وخلفه بهرام شاه يمين الدولة، واستمر في حكمه حتى سنة ٥٤٧هـ.

بلغ السلطان أحمد سنجر بن ملكشاه سنة ٥٢٩هـ أن بهرام شاه يمين الدولة صاحب غزنة قد خلع الطاعة فسار إليه، فلما اقترب سنجر من غزنة أرسل إليه بهرام شاه يسأله الصفح والعفو فأمره بالحضور إليه فامتثل وجاء فلما رأى الموكب وقع الرعب في نفسه وهرب فدخل سنجر غزنة وسيطر عليها وكتب إلى بهرام شاه يعلمه أنه ما أراد به إلا خيراً، فرجع بهرام إلى الاعتذار ويعلّل هربه بخوفه، فأعاد سنجر له بلده، وخرج هو منها عائداً إلى بلخ في شهر شوال سنة ٥٣٠هـ، ورجع بهرام إلى قاعدته.

(٣) خوارزم

أنوشتكين ٤٧٠ ـ ٤٩٠هـ.

|

محمد قطب الدين شاه ٤٩٠ ـ ٥٢١هـ.

|

اتسز ٥٢١ ـ ٥٥١هـ.

|

إيل أرسلان ٥٥١ ـ ٥٦٨هـ.

تسلّم أمر خوارزم محمد قطب الدين شاه سنة ٤٩٠هـ، وقد أطاع السلاجقة وتحبّب إلى السلطان أحمد سنجر بن ملكشاه الذي ملك خراسان سنة ٥١٢هـ، فأقرّه على ولايته وتوفي محمد قطب الدين شاه سنة ٥٢١هـ، وخلفه ابنه اتسز، وسار سيرة أبيه لكنه طمع بالاستقلال وقام بحركةٍ على أحمد سنجر فعزل عن ولايته غير أنه عاد إلى الطاعة، وتسلّم ما كان تحت يده من قبل، وبقي حتى سنة ٥٥١هـ.

(٤) اليمن

رجع جيّاش بن نجاح من الهند سنة ٤٨٣هـ إلى زبيد وملكها واستمرّ في حكمها حتى سنة ٤٩٨هـ، حيث خلفه ابنه فاتك بن جيّاش حتى سنة ٥٠٣هـ، وتولّى أمر زبيد بعده ولده منصور بن فاتك بن جيّاش حتى سنة ٥٢١هـ حيث توفي وخلفه ابنه فاتك بن منصور، واستمرّ في حكمه حتى سنة ٥٤٠هـ.

أما الصليحيون فكان أميرهم سبأ بن أحمد بن المظفرّ الصليحي الذي تزوج أروى بنت أحمد الصليحي، وتوفي سبأ سنة ٤٩٢هـ فبقيت زوجته أروى سيدة الموقف، وقد خرج عن طاعتها ابن بخيت واليها على إقليم جَنَد فوجّهت إليه جيشاً قوامه عشرون ألفاً،

وجاء به للسيدة أروى نادماً طائعاً، وكانت السيدة أروى تخضع للعبيديين وترى رأيهم وتأخذ بعقيدتهم، وكان الملك العبيدي يطلب ابن بخيت فرفضت تسليمه، ثم إن أعداءه قد عظّموا للسيدة أروى خلافها للعبيديين فأرسلته إليه وبعثت في الوقت نفسه تستعطفه وترجوه الإحسان إليه، وتوفيت أروى سنة ٥٣٢هـ في مدينة ذي جبلة.

وكان يحكم عدن بنو زريع، وكان الحاكم في هذه الآونة أبو السعود بن زريع وقد توفي سنة ٤٩٤هـ، وخلفه ابنه سبأ بن أبي السعود، ومن جهةٍ ثانيةٍ كان محمد بن أبي الغارات المسعود قد توفي سنة ٤٨٨هـ، فخلفه ابنه علي فحاربه ابن عمه سبأ بن أبي السعود قرابة عامين، وانتصر سبأ على خصمه، وحكم المنطقة كاملةً، وقلّده العبيدي صاحب مصر الدعوة لذا فقد لُقّب بالداعي، وتمكّن أن يقتل أبناء عمه أولاد محمد بن أبي الغارات جميعاً، واستمرّ سبأ في حكمه لعدن حتى سنة ٥٣٢هـ.

وتغلّب على صنعاء وما جاورها حاتم بن عليّ المغلّسي الهمداني، وأطاعته قبائل همدان، وبقيت المنطقة في أيدي بني حاتم حتى استولى عليها الإمام المتوكل أحمد بن سليمان عام ٥٣٢هـ، وقد تعاقب

عليها السلاطين الآتية أسماؤهم:

١ ـ حاتم بن علي المغلّسي الهمداني ٤٩٢ ـ ٥٠٢ هـ.

٢ ـ عبد الله بن حاتم ٥٠٢ ـ ٥٠٥هـ.

٣ ـ معن بن حاتم ٥٠٥ ـ ٥١٠هـ.

ثم جمع أحمد بن عمران بن المفضّل اليامي قبائل همدان، وخلع معن بن حاتم، وجعل الإمارة في بني قتيب، فتسلّم:

٤ ـ هشام بن القتيب ٥١٠ ـ ٥١٨هـ.

٥ ـ حماس بن القتيب ٥١٨ ـ ٥٢٧هـ.

ثم أقام أهل همدان بعد موت حماس بست سنواتٍ حاتم بن أحمد بن عمر اليامي، وبدأ الصراع بينه وبين الإمام أحمد بن سليمان.

(٥) العبيديون

تولّى أمر العبيديين سنة ٤٩٥هـ الآمر أبو علي المنصور، وقد تخلّص من الأفضل بن بدر الجمالي الذي كان على ما يبدو مختلفاً من العبيديين في بعض الأمور الجانبية إذ ألغى الاحتفالات التي كانت تقوم بمصر بمناسبة المولد النبوي، ومولد فاطمة، ومولد علي رضي الله عنهما، بدعوى الانتماء إليهما، ومولد الملك العبيدي القائم بالأمر (٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ)، وقد قُتل

الأفضل سنة ٥١٥هـ في الثالث والعشرين من شهر رمضان وهو صاحب الحكم الفعلي بمصر، وكان ركب إلى خزانة السلام ليُفرّق المال على الأجناد على ما جرت عليه العادة في الأعياد فسار معه رجال كثيرون من الرجالة والخيالة فتأذّى بالغبار فأمر بالبعد عنه، وسار منفرداً معه رجلان فصادفه رجلان فضرباه بالسكاكين فجرحاه وجاء ثالث من ورائه فضربه بسكينٍ في خاصرته فسقط عن دابته، ورجع أصحابه فقتلوا الثلاثة، وحملوه إلى داره فدخل عليه العبيدي صاحب مصر الآمر بأحكام الله، وتوجّع له وسأله عن الأموال، فقال: أما الظاهر منها فأبو الحسن بن أسامة الكاتب يعرفه ـ وكان من أهل حلب وتولّى أبوه قضاء القاهرة ـ وأما الباطن فابن البطائحي يعرفه، فقالا: صدق. فلما توفي الأفضل نقل من أمواله ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وبقي الآمر صاحب مصر في داره نحو أربعين يوماً والكتاب بين يديه والدواب تحمل وتنقل ليلاً ونهاراً، ووجد له من الأعلاق النفيسة والأشياء النادرة ما لا يوجد مثله لغيره، واعتقل أولاده. وكان عمره سبعاً وخمسين سنةً، وكانت ولايته بعد أبيه ثمانيةً وعشرين سنةً منها آخر أيام المستنصر العبيدي وجميع أيام المستعلي إلى هذه السنة من أيام الآمر، وكان الباطنية يكرهونه لأسبابٍ منها:

١ ـ تضييعه على إمامهم نزار بن المستعلي.

٢ ـ تركه ما يجب عندهم سلوكه معهم.

٣ ـ ترك معارضة أهل السنة في اعتقادهم والنهي عن معارضتهم.

٤ ـ إذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها فكثر الغرباء ببلاد مصر.

وكان الأمر قد فسد بين صاحب مصر العبيدي الآمر بأحكام الله وبين الأفضل بن بدر الجمالي فأراد الآمر أن يضع عليه من يقتله إذا دخل عليه قصره للسلام أو في أيام الأعياد فمنعه من ذلك ابن عمه أبو الميمون عبد المجيد وهو الذي ولي الأمر بعده بمصر (الحافظ)، وقال له: في هذا الفعل شناعة وسوء سمعة لأنه قد خدم دولتنا هو وأبوه خمسين سنةً، ولم يعلم الناس منهم إلا النصح لنا والمحبة لدولتنا وقد سار ذلك في أقطار البلاد فلا يجوز أنه يظهر منا هذه المكافأة الشنيعة ومع هذا فلا بدّ وأن نقيم غيره مكانه ونعتمد عليه في منصبه متمكّن مثله أو يقاربه فيخاف أن نفعل به مثل فعلنا بهذا فيحذر من الدخول إلينا خوفاً على نفسه، وإن دخل علينا كان خائفاً مستعداً للامتناع، وفي هذا العمل منهم ما يسقط المنزلة. والرأي أن تراسل أبا عبد الله بن

البطائحي فإنه الغالب على أمر الأفضل والمطلع على سرّه، وتعده أن تولّيه منصبه، وتطلب منه أن يدبر الأمر في قتله لمن يقاتله إذا ركب فإذا ظفرنا بمن قتله قتلناه وأظهرنا الطلب بدمه والحزن عليه فنبلغ غرضنا ويزول عنه قبح الأحدوثة، ففعلوا ذلك.

ولما قُتل الأفضل ولي بعده أبو عبد الله بن البطائحي الأمر ولُقّب المأمون، وتحكّم في الدولة فبقي كذلك حاكماً في البلاد إلى سنة ٥١٩هـ وتمكّن أن يهزم الذين دخلوا مصر من بلاد المغرب سنة ٥١٧هـ وقد قتل منهم عدداً كبيراً وأسر مثلهم ورجعوا إلى بلادهم بعد أن قرر عليهم خرجاً معلوماً يؤدّونه سنوياً.

وفي شهر رمضان سنة ٥١٩هـ قبض العبيدي صاحب مصر الآمر بأحكام الله على وزيره أبي عبد الله البطائحي. وكان ابتداء أمره أن أباه كان من جواسيس الأفضل بن بدر الجمالي بالعراق فمات ولم يخلف شيئاً فتزوجت أمه وتركته فقيراً فاتصل برجلٍ يتعلم البناء، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير فدخل مع الحمّالين إلى دار الأفضل مرةً بعد أخرى فرآه الأفضل خفيفاً رشيقاً حسن الحركة حلو الكلام فأعجبه فسأل عنه، فقيل: هو ابن فلان فاستخدمه مع الفراشين ثم تقدّم

عنده وكثرت منزلته وعلت حالته حتى صار وزيراً، وكان كريماً واسع الصدر، قتّالاً، سفّاكاً للدماء، وكان شديد التحرّز كثير التطلّع إلى أحوال الناس من الخاصة والعامة من البلاد من مصر والشام والعراق، وكثر الغمازون في أيامه. وأما سبب قتله فإنه كان قد أرسل الأمير جعفراً أخا صاحب مصر الآمر بأحكام الله ليقتل الآمر ويجعله حاكم مصر مكانه، فسمع بذلك أبو الحسن بن أبي أسامة وكان من خاصّة الآمر وقريباً منه وقد ناله من الوزير أذىً كثيراً فحضر عند الآمر وأعلمه الحال فقبض عليه وصلبه.

وفي الثاني من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٤هـ قُتل صاحب مصر الآمر بأحكام الله أبو علي بن المستعلي العبيدي، وكان قد خرج إلى منتزهٍ له فلما رجع وثب عليه أفراد من الباطنية وقتلوه لأنه كان سيئ السيرة مع أدعياء التبعية لعمّه نزار بن المستنصر. وكانت ولايته تسعاً وعشرين سنةً وخمسة أشهرٍ (٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ)، وكان عمره أربعاً وثلاثين سنةً، وهو العاشر من ولد عبيد الله المهدي، وهو العاشر من ملوك العبيديين الذين يعودون بأصولهم إلى ميمون القداح ويدّعون الانتساب إلى محمد بن

إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب لذا يطلقون على أنفسهم الفاطميين نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، والدة الحسين بن علي ﷺ.

لما قُتل الآمر بأحكام الله لم يكن له ولد بعده فولي بعده ابن عمه الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله، ولم يُبايع وإنما بويع له لينظر في الأمر نيابةً حتى يكشف عن حمل إن كان للآمر فتكون الخلافة فيه ويكون هو نائباً عنه.

ولما ولي الميمون عبد المجيد لُقّب بـ(الحافظ) واستوزر أبا علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي، واستبدّ بالأمر وتغلّب على الحافظ، وحجر عليه وأودعه في خزانةٍ ولا يدخل عليه إلا من يريده، وبقي الحافظ له اسم لا معنى تحته، ونقل أبو علي كل ما في القصر إلى داره من الأموال وغيرها، ولم يزل الأمر كذلك حتى قُتل أبو علي سنة ٥٢٦هـ فاستقامت أمور الحافظ وحكم في دولته وتمكّن من ولايته وبلاده.

قُتل أبو علي أحمد الأفضل بن الأفضل بن بدر

الجمالي وزير الحافظ لدين الله صاحب مصر في شهر المحرم سنة ٥٢٦هـ إذ أنه حجر على الحافظ صاحب مصر وأسقط من الدعاء ذكر إسماعيل الذي يدعي العبيديون الانتساب إليه، وهو إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وإسماعيل هذا هو الذي تدّعي الإسماعيلية الانتساب له والعمل لدعوته، ومن أبيه جعفر الصادق تتشعب فرقة الشيعة فلابنه إسماعيل وهو الأكبر ترجع الإسماعيلية، ولابنه موسى الكاظم وهو الأصغر تتابع الإمامية إلى الحادي عشر وهو الحسن العسكري أما الذي يزعمونه الثاني عشر ويسمونه محمداً، ويعدّونه قد غاب فهو لا أساس له من الصحة إذ أن والده الحسن العسكري كان عقيماً، وإنما هذه فرية أطلقها (محمد بن نصير). كما أسقط هذا الوزير الأفضل بن الأفضل من الآذان عندهم عبارة (حيّ على خير العمل)، ولم يخطب للحافظ لدين الله، وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقابٍ كتبها لهم وهي: السيد الأفضل الرجل سيد مماليك أرباب الدول والمحامي عن حوزة الدين وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين ناصر إمام الحق في حالتي غيبته وحضوره والقائم بنصرته بماضي سيفه

وصائب رأيه وتدبيره أمين الله على عباده وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ومرشد دعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده مولى النعم ورافع الجور عن الأمم ومالك فضيلتي السيف والقلم أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش.

وكان قتل الأفضل أبي علي بن الأفضل بن بدر الجمالي أنه خرج في العشرين من شهر المحرم سنة ٥٢٦هـ إلى الميدان يلعب بالكرة مع أصحابه فكمن له جماعة منهم مملوك إفرنجي كان للحافظ صاحب مصر فخرجوا عليه فحمل عليه الإفرنجي فطعنه فقتله، وحزّوا رأسه، وخرج الحافظ العبيدي من الخزانة التي كان فيها، ونهب الناس دار أبي علي، وأُخذ منها ما لا يحصى، وركب الناس والحافظ إلى داره فأخذ ما بقي فيها، وحمله إلى القصر، وبويع الحافظ يومئذٍ، وكان قد بويع له بولاية العهد وأن يكون كافلاً لحمل إن كان للآمر، فلما بويع استوزر أبا الفتح يأنس الحافظي في اليوم نفسه ولُقّب أمير الجيوش، وكان عظيم الهيبة، بعيد الغور، كثير الشرّ فخافه الحافظ على نفسه، وتخوّف منه يأنس فاحتاط ولم يأكل عنده ولا شرب

فاحتال عليه الحافظ بعض الحيل والأساليب فأُصيب بمرض ثم تماثل للشفاء، فركب إليه الحافظ كأنه يعوده فقام له ومشى بين يديه وجلس الحافظ عنده ثم خرج، وتوفي أبو الفتح من ليلته، وكان موته في السادس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٢٦هـ، ولما مات أبو الفتح يأنس استوزر الحافظ ابنه حسناً وخطب له بولاية العهد.

كان الحافظ صاحب مصر يحقد على الذين ساعدوا أبا علي الأفضل بن الأفضل بن بدر الجمالي ويريد الانتقام منهم فلما استوزر ولده حسن بن الحافظ وكان جريئاً على سفك الدماء أعانه على تنفيذ ما في نفسه وهو قد أمره بذلك، فقتله الحسن من الأمراء المصريين ومن أعيان البلاد جمعاً حتى قيل: إنه قتل في ليلةٍ واحدةٍ أربعين أميراً، وأصبح هو السيد المطاع والرجل الذي يُخشى جانبه، وغدا صاحب الأمر والنهي وأصبح أبوه دونه، فأخرج الأب لولده خادماً من خدم القصر الأكابر فجمع وحشد وتقدّم إلى القاهرة لقتال حسن بن الحافظ وإخراجه من القاهرة. فأرسل له حسن جماعةً من خواصه وأصحابه فقاتلوهم وانهزم الخادم وقُتل الرجال الذين معه، ومن بقي منهم

عبر إلى الجيزة، فاستكان الحافظ وصبر على مضض.

اجتمع ما بقي من أمراء واتفقوا على قتل حسن وأرسلوا إلى أبيه صاحب مصر، وقالوا له: إما أن تسلّمنا ابنك لنقتله وإما نقتلكما معاً، فاستدعى ولده إليه واحتاط عليه، وأرسل إلى الأمراء بذلك، فقالوا: لا نرضى إلا بقتله. فرأى الحافظ أنه إن سلّمه إليهم طمعوا فيه وليس إلى إبقائه سبيل فأحضر طبيبين كانا له أحدهما مسلم والثاني يهودي، فقال لليهودي: نريد سُمّاً نسقيه لهذا الولد ليموت ونخلص من هذه الحادثة، فقال: أنا لا أعرف غير النقوع وماء الشعير وما شاكل هذا من الأدوية، فقال: أنا أريد ما أخلص به من هذه المصيبة، فقال: لا أعرف شيئاً. فأحضر المسلم وأمره بذلك فصنع له شيئاً فسقاه الولد فمات لوقته فأرسل الحافظ إلى الجند يقول لهم: إنه قد مات، فقالوا: نريد أن ننظر إليه، فأحضر بعضهم عنده فرأوه فظنّوه قد عمل حيلةً، فجرحوا أسفل رجليه فلم يجر منها دم فعلموا موته، ودُفن حسن. وأحضر الحافظ الطبيب المسلم، وقال له: اخرج من عندنا من القصر وجميع مالك من الإنعام باقٍ عليك، وأحضر

اليهودي، وقال: اعلم ما طلبته منك ولكنك عاقل فأقم في القصر عندنا.

كان الوزير حسن بن صاحب مصر الحافظ سيئ السيرة، ظالماً جريئاً على سفك الدماء وأخذ الأموال، فهجاه الشعراء، ومنهم المعتمد بن الأنصاري الذي قال في هجائه.

لم تأت يا حسن بين الورى حسناً
ولم تر الحق في دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرمٍ ولا سبب
والجور في أخذ أموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا أدب
تيه الملوك وأخلاق المجانين

وقيل: إن الحافظ لما رأى ابنه تغلّب على الملك وضع عليه من سقاه السمّ، فمات ـ والله أعلم ـ ولما مات حسن استوزر أبوه الحافظ الأمير تاج الدولة بهرام، وكان نصرانياً، فتحكّم واستعمل الأرمن على الناس فاستذلّوا المسلمين[1].

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

العبيديون:

(١) المهدي ٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ.

(٢) القائم ٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ.

(٣) المنصور ٣٣٤ ـ ٣٤١هـ.

(٤) المعزّ ٣٤١ ـ ٣٦٥هـ.

(٥) العزيز ٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ.

(٦) الحاكم ٣٨٦ ـ ٤١١هـ.

(٧) الظاهر ٤١١ ـ ٤٢٧هـ.

(٨) المستنصر ٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ.

نزار — (٩) المستعلي ٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ — محمد

(١٠) الآمر ٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ. (ابن المستعلي)

(١١) الحافظ ٥٢٤ ـ ٥٤٤هـ. (ابن محمد)

(١٢) الظاهر ٥٤٤ ـ ٥٤٩هـ — يوسف

(١٣) الفائز ٥٤٩ ـ ٥٥٥هـ. (ابن الظاهر)

(١٤) العاضد ٥٥٥ ـ ٥٦٧هـ (ابن يوسف)

قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي

آل زيري

توفي يحيى بن تميم بن المعزّ يوم عيد الأضحى سنة ٥٠٩هـ وخلفه ابنه عليّ فعمل على تجهيز أسطولٍ في البحر إلى مدينة قابس وحصارها وسبب ذلك أن صاحبها رافع بن مكن الدهماني أنشأ مركباً بساحلها ليحمل التجار في البحر وكان ذلك آخر أيام الأمير يحيى فلم ينكر يحيى ذلك جرياً على عادته في المداراة، فلما ولي عليّ الأمر بعد أبيه أنف من ذلك، وقال: لا يكون لأحدٍ من أهل إفريقية أن يعمل في إجراء المراكب في البحر بالتجار، فلما خاف رافع أن يمنعه عليّ التجأ إلى روجر الثاني ملك صقلية واعتضد به فوعده روجر الثاني أن ينصره ويعينه على إجراء مركبه في البحر وأنفذ في الحال أسطولاً إلى مدينة قابس فاجتازوا بالمهدية فحينئذٍ تحقّق عليّ باتفاقهما وكان يكذبه، فلما جاز أسطول روجر بالمهدية أخرج عليّ أسطوله في أثره فتوافى الجميع في قابس، فلما رأى صاحبها أسطول المسلمين وأسطول الإفرنج لم يخرج مركبه فرجع أسطول الفرنج وبقي أسطول المسلمين يحاصر رافعاً بمدينة قابس ومضيّقاً على أهلها. ثم عاد أسطول المسلمين إلى المهدية.

وتمادى رافع في مخالفة الأمير علي بن يحيى، وجمع قبائل العرب وسار بهم حتى نزل على المهدية محاصراً لها، وخادع الأمير علي، وقال له: إنني جئت للدخول في الطاعة، وطلب من يسعى في الصلح وأفعاله تكذب أقواله، فلم يجبه على ذلك بحرفٍ، وأخرج العساكر وحملوا على رافعٍ ومن معه حملةً صادقةً فألحقوهم بالبيوت في مخيماتهم، ووصل العسكر إلى البيوت فلما رأت ذلك النساء صحن وولولن، فغارت العرب وعاودت القتال واشتدّ حينئذٍ إلى المساء ثم افترقوا وقد قُتل من عسكر رافع بشر كثير ولم يقتل من جند عليّ غير رجلٍ واحدٍ من الرجالة، ثم خرج عسكر عليّ مرةً أخرى فاقتتلوا أشدّ من القتال الأول كان الظهور فيه لعسكر عليّ فلما رأى رافع أنه لا طاقة له بهم رحل عن المهدية ليلاً إلى القيروان فمنعه أهلها من دخولها فقاتلهم أياماً قلائل ثم دخلها فأرسل علي إليه عسكراً من المهدية فحاصروه فيها إلى أن خرج عنها وعاد إلى مدينة قابس، ثم إن جماعةً من أعيان إفريقية من العرب وغيرهم سألوا علياً في الصلح فامتنع ثم أجاب إلى ذلك وتعاهد عليه.

كان روجر الثاني ملك صقلية بينه وبين الأمير علي بن يحيى الصنهاجي صاحب إفريقية مودة أكيدة إلى

أن ساعد رافع الدهماني صاحب مدينة قابس فاستوحش بعدها كل من صاحبه، ثم بعد ذلك خاطبه روجر الثاني بما لم تجرِ عادتهم به فتأكّدت الوحشة فأرسل روجر الثاني رسالةً فيها خشونة فاحترز عليّ منه وأمر بتجديد الأسطول وإعداد الأهبة للقاء العدو وكاتب زعيم المرابطين أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين بالاجتماع معه على الدخول إلى صقلية، فكفَّ روجر الثاني عما كان يعتمده. ومات علي بن يحيى الصنهاجي سنة ٥١٥هـ، وخلفه ابنه الحسن الذي بقي في الحكم حتى سنة ٥٥٤هـ حيث انتهى سلطان آل زيري.

سيّر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أسطولاً استطاع أن يفتح بعض مدن سواحل الفرنجة فلم يشكّ صاحب صقلية روجر الثاني أن صاحب إفريقية كان سبب ذلك فجدّ في بناء الشواني والمراكب وحشد فأكثر ومنع من السفر إلى إفريقية وغيرها من بلاد المغرب، فاجتمع له من ذلك ما لم يعهد مثله من قبله إذ أصبح عدد قطع الأسطول ثلاثمائة قطعةٍ. فلما انقطعت الطريق عن إفريقية توقّع الأمير حسن بن عليّ خروج العدو إلى المهدية فأمر باتخاذ العدة، وتجديد الأسوار وجمع المقاتلة فأتاه من أهل البلاد ومن العرب جمع كثير فلما كان في شهر جمادى الآخرة سنة ٥١٧هـ

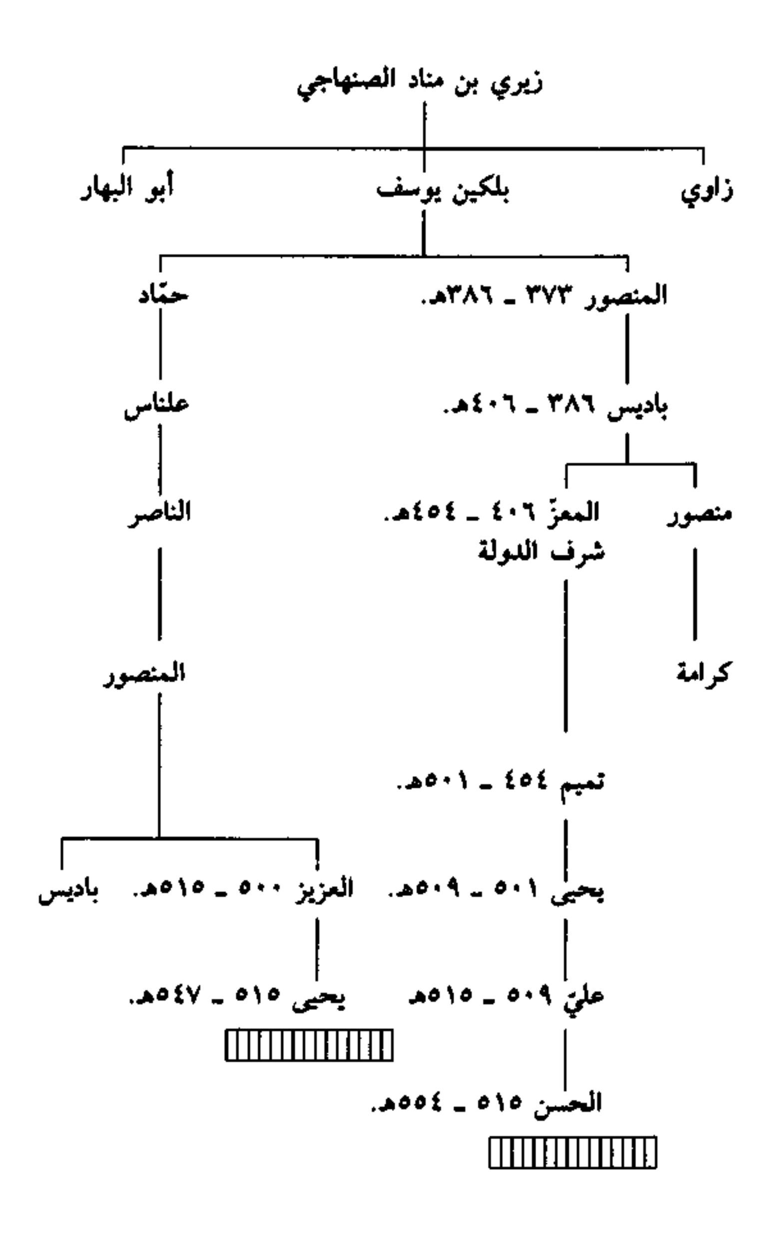
سار الأسطول الصقلي في ثلاثمائة قطعةٍ فيها ألف فارسٍ وفرس واحد إلا أنهم لما ساروا من المرسى فرّقتهم الريح وغرق منهم مراكب كثيرة، ونازل من سلم منهم جزيرة قوصرة فدخلوها وقتلوا وسبوا ونهبوا، وساروا عنها فوصلوا إلى إفريقية ونازلوا الحصن المعروف بـ(الديماس) فقاتلهم جماعة من العرب كانوا هناك، والديماس حصن منيع في وسطه حصن آخر وهو مشرف على البحر، وسيّر الأمير حسن بن علي من عنده من الجموع إلى الإفرنج، وأقام هو بمدينة المهدية بجمعٍ آخر يحفظها، وأخذ الإفرنج حصن الديماس وجنود المسلمين محيطة بهم، واشتدّ القتال بعد ليالٍ على الحصن الداخلي، فلما كان الليل صاح المسلمون صيحةً عظيمةً ارتجت لها الأرض وكبّروا فوقع الرعب في قلوب الإفرنج فلم يشكّوا أن المسلمين سيهجمون عليهم مجاهدين فبادروا إلى سفنهم وقتلوا كثيراً مما بأيديهم من الخيول، وغنم المسلمون منها أربعمائة فرس، ولم يسلم معهم سوى فرسٍ واحدٍ، وغنم المسلمون جميع ما تخلّف عن الإفرنج، وقتلوا كل من عجز عن الصعود إلى المراكب.

لما صعد الإفرنج إلى مراكبهم أقاموا بها ثمانية أيامٍ ينتظرون بقية أصحابهم فلا الراكبون يستطيعون

النزول إلى الأرض، ولا الذين في الحصن يمكنهم الخروج منه فلما أيس الذين في السفن من خلاص أصحابهم الذين في الحصن انطلقوا في سفنهم والمسلمون يكبرون ويصيحون بهم، وأقام عساكر المسلمين على حصن الديماس بأعدادٍ كثيرةٍ فحاصروه ولم يتمكنوا من دخوله لحصانته وقوته، فلما فُقد الماء على من به من الإفرنج وصعُبت عليهم مواصلة القتال ليلاً ونهاراً فتحوا باب الحصن وخرجوا فقُتلوا جميعاً وذلك يوم الأربعاء آخر شهر جمادى الآخرة سنة ٥١٧هـ، وكانت مدة إقامتهم في الحصن ستة عشرة يوماً، ولما رجع الإفرنج مقهورين أرسل الأمير حسن البشري إلى سائر البلاد، وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا.

استمرّ الصراع بين الأمير الحسن والنورمانديين مدةً من الزمن، ثم جرى بينهما عهد، وبقي الأمير حسن بن علي في السلطة حتى زوال سلطان آل زيري بن مناد الصنهاجيين سنة ٥٥٤هـ.

أما إمارة بني حمّاد فقد توفي باديس بن المنصور سنة ٥٠٠هـ، وخلفه أخوه العزيز بن المنصور الذي بقي في الإمارة حتى توفي سنة ٥١٥هـ، ثم خلفه ابنه يحيى واستمرّ في السلطة حتى قضي على إمارة بني حماد سنة ٥٤٧هـ.


زيري بن مناد الصنهاجي
زاوي
بلكين يوسف
أبو البهار
المنصور ٣٧٣ ـ ٣٨٦هـ.
حمّاد
باديس ٣٨٦ ـ ٤٠٦هـ.
علناس
منصور
المعزّ ٤٠٦ ـ ٤٥٤هـ.
شرف الدولة
الناصر
كرامة
المنصور
تميم ٤٥٤ ـ ٥٠١هـ.
يحيى ٥٠١ ـ ٥٠٩هـ.
العزيز ٥٠٠ ـ ٥١٥هـ.
باديس
عليّ ٥٠٩ ـ ٥١٥هـ
يحيى ٥١٥ ـ ٥٤٧هـ.
الحسن ٥١٥ ـ ٥٥٤هـ.

٧ ـ المرابطون

وقعت فتنة بين عسكر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وبين أهل قرطبة سنة ٥١٣هـ، وسببها أن أمير المسلمين كان قد استعمل على قرطبة أبا بكر يحيى بن رواد فلما كان يوم عيد الأضحى خرج الناس متفرجين فمدّ عبد من عبيد أبي بكر يده إلى امرأةٍ فأمسكها فاستغاثت بالمسلمين فأغاثوها فوقع بين العبيد وأهل البلد فتنة عظيمة دامت النهار كله والقتال بينهم قائم على أشدّه فأدركهم الليل فتفرّقوا، فوصل الخبر إلى الأمير أبي بكر فاجتمع إليه الفقهاء والأعيان فقالوا: المصلحة أن تقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة فأنكر ذلك وغضب منه، وأصبح من الغد وأظهر السلاح والعدة يريد قتال أهل البلد فركب الفقهاء والأعيان والشبان من أهل البلد وقاتلوه فهزموه وتحصّن بالقصر فحاصروه، وتسلّقوا إليه فهرب منهم بعد مشقةٍ وتعبٍ، فنهبوا القصر وأحرقوا دور المرابطين جميعها ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من البلد على أقبح صورةٍ، ووصل الخبر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فكره ذلك واستعظمه، وجمع العساكر من صنهاجة وزناتة والبربر وغيرهم فاجتمع له منهم عدد

كبير فعبر إلى الأندلس سنة ٥١٥هـ وحاصر مدينة قرطبة فقاتله أهلها قتال من يريد أن يحمي دمه وماله وحريمه فلما رأى أمير المسلمين شدة قتالهم دخل السفراء بينهم وسعوا بالصلح فأجابهم إلى ذلك على أن يغرم أهل قرطبة المرابطين ما نهبوه من أموالهم واستقرّت القاعدة على ذلك وعاد عن قتالهم[١].

٨ ـ الموحّدون

الموحّدون هم الذين ورثوا المرابطين في المغرب والأندلس، وقد بدأت دعوتهم سنة ٥١٤هـ على يد محمد بن عبد الله بن تومرت الذي ينتمي إلى قبيلة «هرغة» أحد بطون قبيلة مصمودة التي تنتشر في أغلب أراضي المغرب الأقصى وخاصةً جبل السوس، ويقول بالانتساب إلى رسول الله ﷺ ومنهم من أيّد هذا الانتساب ومنهم من أنكره[٢].

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

(٢) اكتفى ابن قاضي شهبة بنسبه بقوله: محمد بن عبد الله بن تومرت، أبو عبد الله، الملقّب نفسه بالمهدي، المصمودي البربري، وكان يدّعي أنه حسني علوي. وفي الأنيس المطرب: محمد بن عبد الله المعروف بتومرت بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن=

ولد في موطن قبيلته سنة ٤٧٥هـ، ونشأ بين أفراد القبيلة، ورحل سنة ٥٠٠هـ إلى المشرق طلباً للعلم فانتهى إلى العراق، وسكن المدرسة النظامية ببغداد، واشتغل بالعلم فحصّل منه جانباً جيداً من الفروع والأصول على الإمام أبي حامد الغزالي وغيره، وكان يُظهر التعبّد والزهد والورع، وربما كان ينكر على الغزالي حسن ملابسه ولا سيما حين لبس خلع التدريس بالمدرسة النظامية.

حجّ أبو عبد الله بن تومرت، وأقام بمكة زمناً واشتهر بالورع والشدّة في النهي عما يخالف الشرع فتعصّب عليه جماعة بمكة فخرج منها إلى مصر فطردته حكومتها فعاد إلى المغرب عن طريق مصر، وعندما ركب البحر من الإسكندرية إلى المهدية غيّر المنكر في المركب وألزم من به بإقامة الصلاة وقراءة القرآن حتى انتهى إلى المهدية وسلطانها حينئذٍ يحيى بن تميم من آل زيري سنة ٥٠٥هـ فنزل بمسجدٍ وليس له سوى ركوةٍ وعصا، وتسامع به أهل البلد فقصدوه يسمعون منه وكان

= صفوان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وكذا ذكر صاحب وفيات الأعيان.

إذا مرّ منكر غيّره وأزاله فلما كثر ذلك منه أحضره الأمير يحيى مع جماعةٍ من الفقهاء، فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه واحترمه وسأله الدعاء، ورحل عن المدينة وأقام بـ(المنستير)[1] مع جماعةٍ من الصالحين مدةً، ثم سار إلى بجاية ففعل فيها مثل ذلك فأُخرج منها إلى قريةٍ بالقرب منها على ساحل البحر اسمها ملالة فلقي بها عبد المؤمن بن عليّ الكومي[2] فرأى فيه من النجابة والهمّة ما تفرّس به التقدّم والقيام بالأمر فسأله عن اسمه وقبيلته، واستبشر به وسُرّ بلقائه، وسار عبد المؤمن معه إلى مدينة مراكش، ولم يزل ابن تومرت ملازماً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريقه، ووصل إلى مراكش مقر سلطان أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين فرأى في مراكش من المنكرات أكثر مما عاينه في طريقه فزاد في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فكثر أتباعه وحسنت ظنون

---

(١) المنستير: مدينة بين المهدية وسوسة على الساحل البحر، تقع شمال المهدية على خمسين كيلاً منها.

(٢) عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان، أبو محمد الكومي (كومية قبيلة من البربر): ولد سنة ٤٨٧هـ في مدينة تانكرت قرب تلمسان بالمغرب، ونشأ فيها طالب علم، وأبوه صانع فخار، وحجّ والتقى بابن تومرت.

الناس به، فبينما هو في بعض الأيام في طريقه إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها مع عددٍ من الجواري الحسان سافراتٍ عن وجوههن على عادة الملثمين إذ تسفر النساء عن وجوههن ويتلثّم الرجال، فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهنّ وأمرهنّ بستر وجوههن، وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها فرفع أمره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فأحضره وأحضر الفقهاء ليناظروه فأخذ يعظه ويخوفه فبكى أمير المسلمين وأمر الفقهاء أن يناظروه فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلّته في الذي فعله.

وكان عند أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أحد وزرائه ويقال له مالك بن وهيب، فقال: يا أمير المسلمين إن هذا والله لا يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يريد إثارة فتنة والغلبة على بعض النواحي فاقتله وقلّدني دمه، فلم يفعل ذلك، فقال: إذا لم تقتله فاحبسه وخلده في السجن وإلا أثار شرّاً لا يمكن تلافيه، فأراد حبسه فمنعه رجل من أكابر الملثمين يسمى بيان بن عثمان فأمر بإخراجه من مراكش إلى أغمات وهي مدينة على مقربةٍ من مراكش بينهما عشرون

كيلاً، وهي لقبيلة مصمودة قبيلة ابن تومرت، والتحق ابن تومرت بالجبل ثم بالسوس الذي فيه قبيلة هرغة وغيرها من المصامدة وذلك سنة ٥١٤هـ فأتوه واجتمعوا حوله، وتسامع به أهل تلك النواحي فوفدوا عليه وحضر أعيانهم بين يديه وجعل يعظهم ويذكّرهم بأيام الله، ويذكر لهم شرائع الإسلام وما غُيّر منها، وما حدث من الظلم والفساد وأنه لا يجب طاعة دولةٍ من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم عما هم فيه، فأقام على ذلك نحو سنةٍ، وتابعته قبيلته هرغة، وسمّى أتباعه الموحّدين، وأعلمهم أن النبيّ ﷺ بشّر بالمهديّ الذي يملأ الأرض عدلاً. وأن مكانه الذي يخرج منه المغرب الأقصى. فقام إليه عشرة رجال أحدهم عبد المؤمن بن عليّ، فقالوا: لا يوجد هذا إلا فيك فأنت المهدي فبايعوه على ذلك، فانتهى خبره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين فجهّز جيشاً من أصحابه وأرسله إليه فلما اقتربوا من الجبل الذي فيه ابن تومرت قال ابن تومرت لأصحابه: إن هؤلاء يريدونني وأخاف عليكم منهم فالرأي أن أخرج أنا بنفسي إلى غير هذه البلاد لتسلموا أنتم، فقال له ابن توفيان من مشايخ هرغة: هل تخاف شيئاً من السماء؟ فقال: لا، بل من السماء تنصرون، فقال ابن توفيان:

فليأتنا كل من في الأرض ووافقه جميع قبيلته، فقال ابن تومرت: ابشروا بالنصر والظفر بهذه الشرذمة وبعد قليلٍ تستأصلون دولتهم وترثون أرضهم فنزلوا من الجبل والتقوا مع جيش أمير المسلمين فهزموه وأخذوا أسلاب أفراده، وقوي ظنّهم في صدق ابن تومرت المهديّ حيث ظفروا كما ذكر لهم، وأقبلت إليه أفواج القبائل من المناطق التي حوله وبايعوه وأطاعوه فأقبل عليهم واطمأن إليهم، وأتاه رسل أهل تينملل بطاعتهم وطلبوه إليهم فتوجّه إلى جبل تينملل واستوطنه، وكتب لهم كتاباً في التوحيد وكتاباً في العقيدة، ونهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعضٍ، والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن، وهو يُحّرضهم على قتال عدوّهم وإخراج الأشرار من بين أظهرهم، وأقام في تينملل وبنى له مسجداً خارج المدينة فكان يصلي فيه الصلوات هو وجمع ممن معه عنده ويدخل البلد بعد العشاء الآخرة.

رأى ابن تومرت كثرة أهل الجبل وحصانة المدينة فخاف أن يرجعوا عنه فأمروا أن يحضروا دون سلاحٍ ففعلوا ذلك عدّة أيامٍ ثم إنه أمر أصحابه أن يقتلوهم فخرجوا عليهم فقتلوهم في ذلك المسجد، ثم دخل المدينة فقتل فيها وأكثر وسبى الذراري ونهب الأموال

فكان عدد القتلى خمسة عشر ألفاً وقسّم المساكن والأرض بين أصحابه وبنى على المدينة سوراً وقلعةً على رأس جبلٍ عالٍ، وأصبح سيّد البلد وصاحبها، ثم إن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أرسل إليهم جيشاً قوياً فحاصرهم في الجبل وضيّقوا عليهم، ومنعوا عنهم الأقوات والغلال، فقلّت الأقوات عند أصحاب ابن تومرت حتى فُقد الخبز.

اجتمع أعيان أهل تينملل وأرادوا إصلاح الحال مع أمير المسلمين فبلغ الخبر بذلك إلى ابن تومرت المهدي فوعظهم وجهّز جيشاً وسيّره إلى جبال أغمات وبها جمع من المرابطين فقاتلوهم فانهزم أصحاب ابن تومرت وكان أميرهم أبو عبد الله الونشريشي وقُتل منهم عدد كبير، وجُرح عمر الهنتاني وهو من أكبر أصحابه، ولما عادوا منهزمين إلى ابن تومرت وعظهم وشكر لهم على صبرهم ثم لم يزل بعدها يرسل السرايا إلى أطراف بلاد المسلمين فإذا رأوا عسكراً تحصّنوا بالجبل.

جهّز ابن تومرت سنة ٥٢٤هـ جيشاً كثيفاً يبلغ تعداده أربعين ألفاً أكثرهم رجالة وجعل عليهم أبا عبد الله الونشريشي وسيّر معهم عبد المؤمن وساروا إلى مراكش فحاصروها وضيّقوا عليها وبها أمير المسلمين

علي بن يوسف بن تاشفين فبقي الحصار عليها عشرين يوماً فأرسل أمير المسلمين إلى متولّي سجلماسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش فجمع جيشاً كثيفاً وسار فلما قارب عسكر المهدي ابن تومرت خرج أهل مراكش من غير الجهة التي أقبل منها فاقتتلوا واشتد القتال وكثر القتل في أصحاب المهدي ابن تومرت فقُتل أبو عبد الله الونشريشي أميرهم فاجتمعوا إلى عبد المؤمن وجعلوه أميراً عليهم، ولم يزل القتال بينهم عامة النهار، فلما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستانٍ كبيرٍ هناك، والبستان يُسمّى عندهم البحيرة، فلهذا قيل: وقعة البحيرة، وعام البحيرة، وصاروا يقاتلون من جهةٍ واحدةٍ حتى أدركهم الليل،وقد قتل أكثر المصامدة، وحين قتل الونشريشي دفنه عبد المؤمن. ولما جنّ الليل سار عبد المؤمن ومن سلم من القتل إلى الجبل.

وفاة المهدي ابن تومرت وولاية عبد المؤمن:

مرض المهدي ابن تومرت مرضاً شديداً بعد أن سيّر الجيش إلى مراكش واشتدّ مرضه بعد أن بلغه خبر هزيمة الجيش، وسأل عن عبد المؤمن بن علي، فقيل له: هو سالم، فقال: ما مات أحد لأمر قائم، وهو

الذي يفتح البلاد، ووصّى أصحابه باتباعه وتقديمه وتسليم الأمر إليه والانقياد له، ولقّبه أمير المؤمنين.
كان ابن تومرت يرى التأويل، ويُنكر على أهل المغرب عدولهم عن التأويل.

مات المهدي ابن تومرت وعمره خمسون سنةً وكانت مدة ولايته عشرين سنة، ورجع عبد المؤمن بن عليّ إلى تينملل وأقام بها يتألف القلوب ويحسن إلى الناس، وكان جواداً مقداماً في الحروب ثابتاً عند الهزّات، وفي سنة ٥٢٨هـ تجهّز وسار في جيشٍ كثيفٍ، وسلك طريقاً مع سفوح الجبال إلى أن وصل إلى مدينة تادلة شمال شرقي مدينة مراكش وعلى بعد مائة وتسعين كيلاً منها على نهر أم الربيع فمانعه أهلها وقاتلوه فقهرهم ودخل مدينتهم، كما دخل سائر البلاد التي تليها، ومشى في البلاد يدخل ما امتنع عليه، وأطاعته صنهاجة في الجبل.

كان أمير المسلمين سلطان المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين قد جعل ابنه سميراً ولي عهده فمات فأحضر أمير المسلمين ابنه تاشفين من الأندلس وكان أميراً عليها، فلما حضر عنده جعله ولي عهده سنة ٥٣١هـ، وجعل معه جيشاً وأخذ يمشي مقابل مسير عبد المؤمن بن علي بجيشه، وفي سنة ٥٣٢هـ حدث بين

الفريقين مطاردة وتراشق دون أن يكون لقاء. وسيّر عبد المؤمن سنة ٥٣٣هـ جيشاً إلى وجدة من أعمال تلمسان، فخرج متولّي تلمسان في جيشٍ من الملثمين والتقى الفريقان وانتصر عبد المؤمن وقُتل كثير من جيش الملثمين. وفي سنة ٥٣٥هـ توفي أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وتولى ابنه تاشفين الملك بعده.

(٩) الأندلس

أخذت قوة المرابطين تضعف في الأندلس بسبب ظهور الموحّدين في المغرب ووقوفهم في وجه المرابطين وانتصارهم عليهم، وهذا ما جعل الخلاف بين ملوك الطوائف يعود من جديدٍ ويزداد تفكّك المسلمين هناك.

الصليبيون

لم يصف العيش للصليبيين في ديار الإسلام فهم غرباء قبل كل شيءٍ وأعداء حاقدين ورأى المجتمع جرائمهم فزادت كراهيته لهم وحقده عليهم إضافةً إلى قدومهم ظالمين وحملتهم الصليبية معتدين لذا كانوا يتعرضون للغارات عليهم باستمرارٍ ولهجوم المسلمين على مراكزهم بشكلٍ دائمٍ.

كان الصليبيون يتوقّعون دعماً أكبر من إخوانهم النصارى واليهود، غير أن إخوانهم هؤلاء كانوا موزّعين في مختلف الأقاليم والأمصار فلا يستطيعون رفع رأسٍ إذ لا يلبث أن يطير بسيفٍ من المسلمين، والواقع أن عواطفهم معهم وقلوبهم إلى جانبهم وهم جزء منهم وأولياؤهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[1] وقد وقفوا حقيقةً إلى جانبهم، وكانوا سلاحاً بأيديهم وقدّموا لهم إمكاناتهم كاملةً وأعطوا مساعداتهم كافةً، وقد وقفوا بطاقاتهم مستقبلين ومسلّحين ومقاتلين معهم إن كانوا على مقربةٍ منهم ولكن توزعهم جعلهم دون ما كان الصليبيون يأملون منهم.

وتوقّع الصليبيون مساندةً أكبر ودعماً أعظم من الباطنية إذ يحمل هؤلاء معاول للهدم من الداخل ويملكون وسائل تغطيةٍ بما يظهرونه من إسلامٍ بألسنتهم، ويمكنهم دفع حركةٍ في المجتمع بما يدّعونه من تأييد أصحاب مكانةٍ أو من أنسابٍ غير صحيحةٍ

(١) سورة المائدة: الآية ٥١.

ولكن هؤلاء أيضاً قد قُلّمت أظافرهم بزوال سلطان البويهيين وكسرت شوكتهم بضياع السامانيين والقرامطة و. . . كما أن العبيديين قد اضطروا أن يقفوا موقفاً مخالفاً لعقيدتهم بعد أن نقض الصليبيون ما كان بينهم وبين العبيديين من اتفاقٍ في أن يحتلّ الصليبيون شمالي بلاد الشام ويأخذ العبيديون جنوبيها غير أن الصليبيين قد تجاوزوا ودخلوا بيت المقدس غير مبالين بالعبيديين بعد أن شعروا بالنصر وساروا نحو هدفهم وهو بيت المقدس غير مهتمين بالنتائج وما تؤول إليه. وعندما تصرّف الصليبيون هذا التصرف قد أخطؤوا سياسياً إذ أن العبيديين جماعة قليلة متحكمة أما المجتمع الذي تحكمه فهو مسلم وإن تعوّد على المسايرة والخنوع لمن يفرضه سلطانه عليه، وفي الوقت نفسه لم يُقدّر الصليبيون الظروف العسكرية إذ أصبح الهجوم يأتيهم من قبل العبيديين من الجنوب ومن قبل السلاجقة من الشمال، حيث لم يستطع العبيديون أن يقفوا أمام مجتمعهم موقف الخيانة المكشوف موقف التعاون والتناصر مع غزاةٍ مجرمين قادمين لمحو عقيدة المجتمع الذي يحكمه العبيديون إضافةً إلى نقض الصليبيين للاتفاق الذي كان بينهم وبين العبيديين، ذلك أن الصليبيين كانوا يبنون سياستهم على ما يعرفونه من

حقيقة عقيدة العبيديين وتوجّههم وأهدافهم التي يسعون لها، ولم ينظر الصليبيون إلى الظروف والواقع الذي يعيشه العبيديون وخاصةً بعد غياب البويهيين وضعف القرامطة وتوجّه الأنظار إلى ما كانت عليه سيطرة الفرق الضالة التي تدّعي الإسلام وتتظاهر به ولكنها كانت تبثّ الضلال بأساليب مخفيةٍ وتثير الفتن والخلافات لإضعاف الأمة المسلمة في سبيل السير في طريقِ الهدف المخطط له في اقتلاع جذور الأمة الإسلامية وإحياء المجوسية والعودة لها.

بعد أن دخل الصليبيون بيت المقدس سنة ٤٩٢هـ اضطر العبيديون أن يُغطّوا الموقف العقيدي الذي يمارسونه والموقف السياسي الذي يسلكوه باتفاقهم مع الصليبيين اضطروا أن يُغطّوا ذلك أمام مجتمعهم بموقفٍ عسكريٍ، والتغطية أسلوب يُجيدونه فقد درجوا عليه وأتقنوه إذ ادّعوا أفضل الأنساب وجعلوا لهم فرعاً منه، وأظهروا الأمر الذي عليه مجتمعهم وأبطنوا ما يُخالفه ويُحاربه.

وجّه الوزير العبيدي الأفضل بن بدر الجمالي حملةً كبيرةً بقيادة سعد الدولة الذي كان حاكم بيروت، وقد تجمع أفراد هذه الحملة في عسقلان، واتجه

الجيش سنة ٤٩٤هـ إلى الرملة لتهديد بيت المقدس ويافا ـ حسب الظاهر ـ غير أن هذه الحملة قد فشلت ولم تؤدّ الغرض الذي خرجت من أجله ـ ظاهراً ـ.

وعاد الأفضل فوجّه حملةً ثانيةً سنة ٤٩٥هـ وجعل قيادتها لابنه شرف المعالي، واتجهت إلى اللد والرملة كسابقتها ولتهديد بيت المقدس ويافا فخرج للقائها ملك بيت المقدس الصليبي (بلدوين) فانهزم وفرّ إلى الرملة ولاحقه المسلمون ففرّ متنكّراً واستعاد المسلمون الرملة، وحاصر المسلمون يافا فجاءتها نجدات من البحر فاستغلّ (بلدوين) هذه النجدات وهاجم بها المسلمين وانتصر عليهم.

وأرسل الأفضل حملتين إحداهما برية والأخرى بحرية، واستنجد (بلدوين) بأمير الرها وأمير أنطاكية فأنجداه واستطاع بعدها إحراز النصر.

وجهّز الأفضل جيشاً كبيراً بقيادة ابنه سناء الملك ودعمه بأسطولٍ بحريٍ، وطلب دعم السلاجقة أيضاً فأجابوه، وجرت أول معركةٍ سنة ٤٩٨هـ وظهر فيها التعاون بين السلاجقة والعبيديين ومع ذلك لم تكن نتائجها واضحةً.

وبدأت بعد ذلك غارات العبيديين على البلدان

التي سيطر عليها الصليبيون فقد أغاروا سنة ٤٩٩هـ على يافا وفي السنة التالية وفي العام الذي بعده وصلوا إلى أسوار بيت المقدس، وكذلك عادوا للإغارة على بيت المقدس سنة ٥١٨هـ وحاصروا مدينة يافا.

أما من جهة الشمال فقد قضى السلاجقة على حملةٍ صليبيةٍ جاءت من غربي أوربا لدعم الوجود الصليبي في بيت المقدس، ولم يصل منها إلى هدفه إلا من فرّ هارباً ونجا من القتل وسار منفرداً متخفياً وذلك سنة ٤٩٤هـ.

ونصب الأمير غازي كمشتكين كميناً لأمير أنطاكية الصليبي وأخذه أسيراً سنة ٤٩٤هـ، واستطاع في العام التالي أن يستعيد مدينة ملاطية من الصليبيين وأن يأخذ أميرها أسيراً.

وفي سنة ٤٩٧هـ سار متعهد الموصل جكرمش والأمير سقمان بن أرتق صاحب ماردين لقتال الصليبيين في الرها وتمكّنا من إبادة الجيش الصليبي في معركة جرت بين الطرفين ووقع بلدوين وجوسلين في الأسر.

وفي سنة ٤٩٩هـ أغار أمير دمشق طغتكين على بلاد الجليل شمالي فلسطين.

وأغار أمير الموصل مودود سنة ٥٠٥هـ على

الصليبيين، وفي العام التالي (٥٠٦هـ) سار إلى جهات طبرية، وأغار على مدينة طبرية.

ووجّه السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي حملةً كبيرةً بإمرة برسق فهاجمت أفامية سنة ٥٠٩هـ.

وفي سنة ٥١٣هـ سار إيلغازي بن أرتق بمن معه من التركمان لقتال الصليبيين في أنطاكية، والتقى معهم في معركة قرب حلب فدُمّر الجيش الصليبي، وقتل قائده (روجر) في المعركة.

وسار غوندفري ملك الصليبيين بالشام وهو صاحب البيت المقدس إلى مدينة عكا بساحل الشام فحاصرها فأصابه سهم فقتله، وكان قد سلّم مدينة يافا إلى راهب من الصليبيين يدعى طنكري. ولما قُتل غوندفري سنة ٤٩٤هـ وهو يحاصر عكا سار أخوه بغدوين إلى بيت المقدس في خمسمائة فارس، وراجل، فبلغ الملك دقاق صاحب دمشق خبره فنهض إليه في عسكر ومعه الأمير جناح الدولة في جموعه فانتصروا على الصليبيين.

ودخل الصليبيون سنة ٤٩٤هـ مدينة سروج من بلاد الجزيرة الفراتية، وذلك أن الصليبيين كانوا قد دخلوا مدينة الرها بمكاتبة من أهلها فأكثر أهلها كانوا من

النصارى الأرمن، وليس بها من المسلمين إلا القليل، فلما رأى سقمان صاحب سروج ذلك جمع كثيراً من التركمان وزحف إليهم فالتقوا معه فهزموه في شهر ربيع الأول سنة ٤٩٤هـ، فلما تمت هزيمة المسلمين سار الصليبيون إلى مدينة سروج فحاصروها ودخلوها وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا نساءهم ونهبوا أموالهم، ولم يسلم إلا من مضى منهزماً.

واستولى الصليبيون في سنة ٤٩٤هـ على حيفا عنوةً، ودخلوا أرسوف[١] بالأمان، وأخرجوا أهلها منها، وفي شهر رجب من السنة نفسها احتلوا قيسارية[٢] بالسيف وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها.

وفي شهر صفر سنة ٤٩٧هـ أغار الصليبيون من مدينة الرها على مرج الرقة وقلعه جعبر، وكانوا لما خرجوا من الرها انقسموا فرقتين وتواعدوا أن تكون الغارة على البلدين بعد يومٍ واحدٍ ففعلوا ما استقروا عليه وأغاروا واستاقوا المواشي وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين.

---

(١) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا.

(٢) قيسارية: مدينة ساحلية بين حيفا ويافا.

وصلت سنة ٤٩٧هـ إلى مدينة اللاذقية مراكب من بلاد الأفرنج فاستعان بهم صنجيل الصليبي على حصار طرابلس فحاصروها براً وبحراً وضايقوا أهلها وقاتلوهم أياماً فلم ينفعهم ذلك شيئاً فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل فحاصروها وقاتلوا أهلها فلما رأى أهلها عجزهم أمام الصليبيين أخذوا الأمان وسلّموا إليهم البلد، ولكن لم يفِ الصليبيون لهم بالأمان إذ أخذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب، فلما فرغوا من جبيل ساروا إلى مدينة عكا إذ استنجدهم الملك بغدوين صاحب القدس على حصارها فنزلوا عليها وحاصروها براً وبحراً، وبعد قتالٍ شديدٍ أكثر من مرةٍ وجد أميرها نفسه عاجزاً عن حفظ البلد فخرج منها واستولى عليها الصليبيون قهراً وفعلوا بأهلها أقذر الأفعال، وسار أميرها إلى دمشق فأقام بها ثم عاد إلى مصر.

شعر الصليبيون بخلاف أمراء المسلمين في منطقة الجزيرة الفراتية لذا ساروا إلى حران وألقوا الحصار عليها فلما سمع معين الدولة سقمان وشمس الدولة جكرمش ذلك وكان بينهما حرب، وسقمان يطالبه بقتل ابن أخيه وكل منهما يستعدّ للقاء صاحبه فلما سمعا بمحاصرة الصليبيين لحران أرسل كل منهما إلى صاحبه

يدعوه إلى الاجتماع معه لتلافي أمر حران، ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه، فكل واحدٍ منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه فسارا واجتمعا على الخابور وتحالفا وسارا إلى لقاء الصليبيين وكان مع سقمان سبعة آلاف فارسٍ من التركمان ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارسٍ من الترك والعرب والأكراد فالتقوا على نهر البليخ مع الصليبيين واقتتلوا وأظهر المسلمون الهزيمة فتبعهم الصليبيون نحو خمسة عشر كيلاً فعاد عليهم المسلمون فأعملوا فيهم سيوفهم كما يشاءون وأخذوا الغنائم الكثيرة، وكان بيمند الصليبي صاحب أنطاكية وطنكري صاحب الساحل قد انفردا وراء جبلٍ ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم إذا اشتدت الحرب فلما خرجا رأيا الصليبيين منهزمين فأقاما إلى الليل وهربا فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيراً وأسروا كذلك وأفلتا في ستة فرسانٍ، وكان الراهب بردويل صاحب الرها قد انهزم مع جماعةٍ من رهبانهم وخاضوا نهر البليخ فغاصت خيولهم في الوحل فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم وحمل بردويل إلى مخيم صاحبه وقد سار فيمن معه لملاحقة بيمند صاحب أنطاكية. رأى أصحاب جكرمش أن أصحاب سقمان قد استولوا على مال الصليبيين، ويرجعون هم من الغنيمة

بغير طائلٍ، فقالوا لجكرمش: أي منزلةٍ تكون لنا عند الناس وعنده التركمان إذا انصرفوا بالغنائم دوننا، وحسّنوا له أخذ الراهب من مخيم سقمان، فبعث من أخذه، فلما رجع سقمان إلى معسكره وعلم ما تمّ شقّ عليه الأمر، وركب أصحابه للقتال فردّهم، وقال لهم: لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاة بغمّهم باختلافنا، ولا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين، ورحل لوقته وأخذ سلاح الصليبيين وراياتهم وألبس أصحابه لبسهم وأركبهم خيلهم، وجعل يأتي حصون شيحان[1] وبها الصليبيون فيخرجون ظنّاً منهم أن أصحابهم انتصروا فيقتلهم ويأخذ الحصن منهم، فعل ذلك بعدة حصونٍ، وأما جكرمش فإنه سار إلى حرّان فتسلّمها، واستخلف بها، وسار إلى الرها فحاصرها خمسة عشر يوماً وعاد إلى الموصل ومعه الراهب الذي أخذه من مخيم سقمان ففاداه بخمسة وثلاثين ديناراً ومائة وستين أسيراً من المسلمين، وكان عدد القتلى من الصليبيين ما يقرب من اثني عشر ألف قتيل.

وفي شهر شعبان سنة ٤٩٨هـ كان قتال بين الملك

---

(١) شيحان: جبل مشرف على الجبال التي حول القدس، وهو الجبل الذي أشرف منه موسى ﷺ على بيت المقدس.

رضوان صاحب حلب وبين طنكري والصليبي صاحب أنطاكية وذلك أن الصليبي سار إلى حصن (ارتاح) وألقى الحصار عليه وبه نائب الملك رضوان، وضيّق الصليبيون على المسلمين فأرسل النائب إلى الملك رضوان يُعلمه الأخبار ويطلب منه النجدة فسار رضوان في عسكرٍ كثيفٍ من الفرسان وسبعة آلاف من الرجالة منهم ثلاثة آلاف من المتطوعة فساروا حتى وصلوا إلى قنسرين وبقيت مسافة قصيرة بين الفريقين فلما رأى طنكري كثرة المسلمين أرسل إلى رضوان يطلب الصلح فأراد أن يجيب فمنعه بعض قادته واصطفوا للقتال فانهزم الصليبيون من غير قتالٍ، وقالوا: نعود ونحمل عليهم حملةً واحدةً فإن كانت لنا وإلا انهزمنا فحملوا على المسلمين فلم يثبتوا وانهزموا وقُتل منهم وأسر كثير و أما الرجالة فإنهم كانوا قد دخلوا معسكر الصليبيين لما انهزموا فاشتغلوا بالنهب فقتلهم الصليبيون ولم ينج إلا الشريد فأُخذ أسيراً وهرب من في حصن ارتاح إلى حلب واستولى الصليبيون على الحصن.

وفي سنة ٤٩٩هـ في شهر صفر جرى قتال بين طغتكين صاحب دمشق وبين راهب من كبار رهبان الصليبية وذلك أنه تكررت الغارات والحروب بين عسكر دمشق وبين بغدوين الصليبي صاحب بيت المقدس

فكانت تارةً لهذا الفريق وأخرى لذاك، وأخيراً بنى بغدوين حصناً بينه وبين دمشق فخاف طغتكين صاحب دمشق عاقبة ذلك فجمع عسكره وخرج إلى مقاتلتهم فسار بغدوين ملك القدس وعكا إلى ذلك الراهب ليعاضده ويساعده على قتال المسلمين فأعلمه أنه بغنًى عنه وأنه قادر وحده على مقارعة المسلمين إن قاتلوه فعاد بغدوين إلى عكا، وتقدّم طغتكين إلى الصليبيين واقتتلوا واشتدّ القتال فانهزم أميران من عسكر دمشق فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم الصليبيون إلى حصنهم واحتموا به، فقال طغتكين لعسكره: من أحسن قتالهم وطلب مني عملاً فعلته، ومن أتاني بحجرٍ من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير، فبذل الرجالة نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفّى لهم بما وعدهم، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي، وأسروا من بالحصن، فأمر بهم فقتلوا كلهم، واستبقى الفرسان أسرى، وكانوا مائتي فارسٍ، ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل، وعاد طغتكين إلى دمشق منصوراً فزين البلد أربعة أيامٍ، ثم خرج طغتكين إلى رفنية[1] وهي من حصون الشام تغلب عليها

(١) رفنية: بلدة على ساحل الشام على مقربة من طرابلس.

الصليبيون وصاحبها ابن أخت صنجيل المقيم على حصار طرابلس، فحاصر طغتكين حصن رفنية واستولى عليه وقتل به خمسمائة رجلٍ من الصليبيين.

استولى الصليبيون سنة ٤٩٩هـ على بلدة سرمين من أعمال حلب كما استطاعوا السيطرة على حصن أفامية وهو من الحصون المنيعة.

سار طغتكين صاحب دمشق إلى طبرية كما وصل إليها أيضاً ابن أخت بغدوين ملك القدس الصليبي ووقع القتال بين الفريقين، وكان طغتكين في ألفي فارسٍ وكثيرٍ من الرجالة وكان ابن أخت الملك بغدوين الصليبي في أربعمائة فارسٍ وألفي راجلٍ، فلما اشتدّ القتال انهزم المسلمون فترجّل طغتكين ونادى بالمسلمين وشجّعهم فعادوا إلى القتال وكسروا الصليبيين وأسروا قائدهم وحُمل إلى طغتكين فعرض عليه الإسلام فامتنع منه وبذل في فداء نفسه ثلاثين ألف دينارٍ وإطلاق خمسمائة أسيرٍ فلم يرض طغتكين منه بغير الإسلام فلما لم يُجب قتله بيده وأرسل إلى الخليفة والسلطان الأسرى ثم جرت بين طغتكين وبغدوين هدنة مدة أربع سنواتٍ.

وكان حصن عرقة وهو من أعمال طرابلس وكان

بيد غلام للقاضي فخر الملك أبي علي بن عمار صاحب طرابلس وهو من الحصون المنيعة وقد عصى صاحبه على مولاه فضاق به القوت وانقطعت عنه الغلال لطول مكث الصليبيين في نواحيه فأرسل إلى طغتكين صاحب دمشق، وقال له: أرسل من يتسلّم هذا الحصن مني قد عجزت عن حفظه ولأن يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخرة من أن يأخذه الصليبيون فبعث إليه طغتكين صاحباً له في ثلاثمائة رجلٍ فتسلّم الحصن فلما نزل غلام ابن عمار منه رماه صاحب طغتكين بسهمٍ فقتله وكان قصده بذلك أن لا يطلع طغتكين على ما خلّفه بالقلعة من المال، وأراد طغتكين قصد الحصن للاطلاع عليه وتقويته بالعساكر والأقوات وأدوات القتال غير أن كثرة الأمطار والثلوج مدة شهرين متواصلين حالت دون تحقيق قصده، فلما زال ذلك سار في أربعة آلاف فارسٍ فاستولى في طريقه على عدة حصونٍ للصليبيين منها حصن الأكمة، فلما سمع السرداني الصليبي بمجيء طغتكين وهو على حصار طرابلس توجّه في ثلاثمائة فارسٍ، فلما أشرف أوائل أصحابه على عسكر طغتكين انهزموا وخلّوا ثقلهم ورحالهم، ودوابهم للصليبيين فغنموا ذلك وتقووا به، ووصل المسلمون إلى حمص على أقبح حالٍ من التقطع ولم يُقتل منهم أحد لأنه لم

يقع قتال، وقصد السرداني عرقة فلما نازلها طلب من كان بها الأمان، فأمنهم على نفوسهم وتسلّم الحصن، فلما خرج من فيه قبض على صاحب طغتكين، وقال: لا أطلقه إلا بإطلاق فلان وهو أسير كان بدمشق من الصليبيين منذ سبع سنين ففودي به وأطلقا معاً. ولما وصل طغتكين إلى دمشق بعد الهزيمة أرسل إليه ملك القدس الصليبي يقول له: لا تظنّ أنني أنقض الهدنة للذي تمّ عليك من الهزيمة فالملوك ينالهم أكثر مما نالك فتعود أمورهم إلى الانتظام والاستقامة، وكان طغتكين خائفاً أن يُقصد بعد هذه الهزيمة فينال من بلده كل ما أراد.

كانت طرابلس تتبع العبيديين في مصر ونائبهم فيها والمدد يأتي إليها منهم، وقد وصل إليها أسطول صليبي كبير ومقدمه راهب كبير اسمه ريموند بن صنجيل ومراكبه مشحونة بالرجال والسلاح والأقوات وقد نزل على طرابلس في أول شهر شعبان سنة ٥٠٣، وكان يُحاصرها من قبل السرداني ابن أخت صنجيل وليس بابن أخت هذا الراهب، بل ريموند هذا راهب آخر فجرت بينهما فتنة أدّت إلى شرٍّ وقتالٍ فوصل طنكري صاحب أنطاكية إليها لمعونة السرداني ووصل الملك

بغدوين صاحب القدس في عسكره فأصلح بينهم ونزل الصليبيون جميعهم على طرابلس وشرعوا في قتالها ومضايقة أهلها من أول شعبان سنة ٥٠٣هـ وألصقوا أبراجهم بسورها فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك سُقط في أيديهم وذلّت نفوسهم، وزادهم ضعفاً تأخّر الأسطول العبيدي عنهم بالنجدة والأقوات إذ تعذّر وصوله بسبب الريح والخلاف. وهجم الصليبيون على البلد واستولوا عليه قهراً يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلةً خلت من شهر ذي الحجة سنة ٥٠٣هـ، ونهبوا ما فيها، وأسروا الرجال، وسبوا النساء والأطفال وأخذوا من أهلها الأموال والأمتعة والكتب، وسلم الوالي الذي كان بها وجماعة من جندها كانوا التمسوا الأمان قبل دخولها فوصلوا إلى دمشق، وعاقب الصليبيون أهلها بأنواع العقوبات.

ولما فرغ الصليبيون من طرابلس سار طنكري صاحب أنطاكية الصليبي إلى بانياس وحاصرها ودخلها وأمن أهلها، وانطلق إلى مدينة جبيل وفيها فخر الملك بن عمار الذي كان صاحب طرابلس وكان القوت فيها قليلاً فقاتل أهلها إلى أن دخلها في الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٠٣هـ بالأمان،

وخرج فخر الملك بن عمار سالماً ووصل إلى شيزر وأكرمه صاحبها سلطان بن علي بن منقذ الكناني واحترمه وسأله أن يُقيم عنده فلم يفعل، وسار إلى دمشق فأنزله صاحبها طغتكين وأجزل له بالعطاء، وأقطعه أعمال الزبداني.

ووصل الأسطول العبيدي بُعيد سقوط طرابلس بيد الصليبيين، فوصل إلى صور بعد سقوطها بثمانية أيام ففرّقت الغلال التي فيه في جهات صور وصيدا وبيروت.

وصل إلى ساحل الشام ستون مركباً للصليبيين مشحونة بالرجال والذخائر بقيادة أحد ملوك أوربا بقصد غزو بلاد المسلمين وقد التقى بهم بغدوين ملك الصليبيين في القدس إذ وصلوا إليها ونزلوا بها، ثم رحلوا منها ونزلوا في مدينة صيدا في الثالث من شهر ربيع الثاني سنة ٥٠٤هـ وأحاطوا بها براً وبحراً، وعمل الصليبيون برجاً من الخشب وأحكموا صنعه وجعلوا عليه ما يمنع النار والحجارة وزحفوا به، فلما رأى أهل صيدا ذلك ضعفت نفوسهم وخافوا أن يُصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت فأرسلوا القاضي ومعه جماعة من العلماء إلى الصليبيين وطلبوا من ملكهم الأمان فأمنهم

على أنفسهم وأموالهم والعسكر الذين عندهم ومن أراد المقام به عندهم أمنوه ومن أراد المسير عنهم لم يمنعوه وحلف لهم على ذلك فخرج الموالي وجماعة كثيرة من أعيان البلد في العشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٥٠٤هـ إلى دمشق وأقام بالبلد خلق كثير تحت الأمان. وكانت مدة الحصار سبعةً وأربعين يوماً، ورحل بغدوين عنها إلى القدس ثم عاد إلى صيدا بعد مدةٍ يسيرةٍ فقرر على المسلمين الذين أقاموا بها عشرين ألف دينارٍ فأفقرهم واستغرق أموالهم. وأثناء الحصار كان الأسطول العبيدي مقيماً على صور، وزعم قادته أنهم لم يقدروا على إنجاد صيدا.

جمع صاحب أنطاكية الصليبي عساكره من الصليبيين وحشد ما أمكنه حشده سنة ٥٠٤هـ وسار نحو حصن الأثارب على مقربةٍ من مدينة حلب وألقى الحصار عليه وضيّق على أهله حتى ضاقوا ذرعاً بحياتهم فنقبوا من القلعة نقباً وقصدوا أن يخرجوا منه إلى خيمة صاحب أنطاكية فيقتلوه فلما فعلوا ذلك واقتربوا من خيمته استأمن إليه صبي من نصارى الأرمن فعرّفه الحال فاحتاط واحترز منهم وجدّ في قتالهم حتى دخل الحصن قهراً وعنوةً وقتل من أهله ألفي رجلٍ

وسبى وأسر الباقين، ثم سار إلى حصن «زردنا»[1] وحاصره وتمكّن من دخوله وفعل بأهله كما فعل بأهل حصن الأثارب، فلما سمع أهل منبج بذلك خرجوا من بلدهم خوفاً من الصليبيين وكذلك أهل بالس[2]، وقصد الصليبيون البلدين فلم يجدوا بهما أحداً فعادوا عنها، وعظم خوف المسلمين من الصليبيين، وتوقّعوا استيلاءهم على سائر الشام لعدم وجود الحامي لها والمدافع عنها، فشرع أصحاب البلاد الإسلامية بالشام في الهدنة معهم فامتنع الصليبيون من الإجابة إلا على قطيعةٍ يأخذونها إلى مدةٍ يسيرةٍ فصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينارٍ وغيرها من الخيول والثياب، وصالحهم صاحب صور على سبعة آلاف دينارٍ، وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينارٍ، وصالحهم علي الكردي صاحب حماة على ألفي دينارٍ، وكانت مدة الهدنة إلى وقت حصاد الغلة.

وأقلعت مراكب من مصر التي كانت تحت حكم العبيديين وفي هذه المراكب التجار ومعهم الأمتعة

---

(١) زردنا: بليدة من نواحي حلب الغربية.

(٢) بالس: بلدة بين حلب والرقة، وهي مسكنة اليوم.

الكثيرة فأخذتها مراكب الصليبيين إذ كانت لها بالمرصاد وكأنها على موعدٍ واتفاقٍ فأخذ الصليبيون الأمتعة وأسروا التجار، فسارت جماعة من أهل حلب إلى بغداد مستنفرين على الصليبيين فلما وصلوا إلى بغداد اجتمع معهم كثير من الفقهاء وغيرهم فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا فوعدهم السلطان بإنفاذ العساكر للجهاد، وفي الجمعة التالية قصدوا جامع القصر بدار الخلافة ومعهم كثير من أهل بغداد فحاول حاجب الباب منعهم فغلبوه على ذلك ودخلوا الجامع فأرسل الخليفة إلى السلطان يأمره بالاهتمام بهذا الفتق الذي حدث والعمل على رتقه فتقدّم حينئذٍ إلى من معه من الأمراء بالمسير إلى بلادهم والتجهّز للجهاد، وسيّر ولده الملك مسعوداً مع الأمير مودود صاحب الموصل وتقدّموا إلى الموصل ليلحق بهم الأمراء ويسيرون جميعاً للجهاد وقتال الصليبيين.

اجتمعت العساكر التي أمر بها السلطان لقتال الصليبيين فكانوا: الأمير مودود صاحب الموصل، والأمير سقمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر، والأمير إيلبكي والأمير زنكي ابنا برسق ولهما همذان وما جاورها، والأمير أحمديل وله مراغة، وكوتب

الأمير أبو الهيجاء صاحب إربيل، والأمير إيلغازي صاحب ماردين فاجتمعوا عدا الأمير إيلغازي فإنه سيّر ولده إياز وأقام هو، فلما اجتمعوا ساروا إلى بلدسنجار فدخلوا عدة حصونٍ قهراً كانت بأيدي الصليبيين وقتلوا من كان بها منهم، وحاصروا مدينة الرها مدةً ثم رحلوا عنها من غير أن يملكوها، وكان سبب رحيلهم عنها أن الصليبين اجتمعوا جميعاً فارسهم وراجلهم وساروا إلى نهر الفرات ليعبروه من أجل أن يمنعوا الرها من المسلمين فلما وصلوا إلى ضفاف نهر الفرات بلغهم كثرة المسلمين فأُلقي الرعب في قلوبهم فلم يتابعوا السير بل أقاموا على نهر الفرات فلما رأى المسلمون ذلك رحلوا عن الرها إلى حران ليطمع الصليبيون ويعبروا الفرات إليهم ويقاتلوهم، فلما رحلوا عنها جاء الصليبيون ومعهم الذخائر والأقوات إلى الرها فجعلوا فيها كل ما يحتاجون إليه بعد أن كانوا قليلي التموين وقد أشرفوا على أن يؤخذوا، وأخذوا من الرها كل من فيه عجز أو ضعف أو فقر ورجعوا فعبروا نهر الفرات إلى الجانب الشامي وطرقوا أعمال حلب فأفسدوا ما فيها ونهبوها وقتلوا وأسروا وسبوا أعداداً كثيرةً، وكان الملك رضوان صاحب حلب قد خرج إلى ما استولى عليه الصليبيون من أعمال حلب فاستعاد بعضه عندما

عبروا إلى الجزيرة ونهب وقتل فلما عادوا انتقموا منه بالإفساد فيما يتبعه من بلدان.

وأما العسكر السلطاني فإنهم لما سمعوا بعودة الصليبيين وعبورهم نهر الفرات إلى جهات حلب ساروا إلى الرها وألقوا الحصار عليها غير أنهم قد رأوا أمراً محكماً قد قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تُركت عندهم وبكثرة المقاتلين عنهم، ولم يجدوا فيها مطمعاً فرحلوا عنها، وعبروا نهر الفرات فحاصروا قلعة تل باشر[1] خمسة وأربعين يوماً، ورحلوا عنها ولم يبلغوا منها غرضاً، ووصلوا إلى حلب فأغلق الملك رضوان أبواب البلد ولم يجتمع بهم. ومرض هناك الأمير سقمان القطبي فعاد مريضاً وتوفي في بلدة بالس فحمله أصحابه ليدفنوه في بلده فتبعهم الأمير إيلغازي ليأخذ ما معهم فقاتلوه فانهزم وربحوا ما معه، وعادوا إلى بلادهم.

ولما أغلق الملك رضوان أبواب حلب دون العسكر السلطاني رحلوا إلى معرة النعمان واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق ونزل على الأمير مودود فاطلع

---

(١) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمال حلب، بينها وبين حلب يومان (خمسين كيلومتر)، وأهلها نصارى أرمن.

من الأمراء على نياتٍ فاسدةٍ فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الصليبيين فلم يتمّ ذلك، وتفرّقت كلمة العسكر فالأمير برسق بن برسق وهو أكبر الأمراء كان به مرض النقرس فكان يحمل، والأمير سقمان قد مات، والأمير أحمديل صاحب مراغة أراد العودة ليطلب من السلطان أن يقطعه ما كان للأمير سقمان، وطغتكين صاحب دمشق خاف من الأمراء على نفسه فلم ينصحهم إلا أنه حصل بينه وبين الأمير مودود صاحب الموصل مودة وصداقة فتفرقوا لهذه الأسباب وبقي مودود وطغتكين بالمعرة فساروا منها ونزلوا على ضفة نهر العاصي، ولما سمع الصليبيون بتفرّق عساكر المسلمين طمعوا وكانوا قد اجتمعوا كلهم بعد الاختلاف والتباين وساروا إلى أفامية فسمع بهم سلطان بن منقذ صاحب شيزر فسار إلى مودود وطغتكين وهوّن عليهما أمر الصليبيين وحرّضهما على الجهاد فرحلوا إلى مقره بشيزر ونزلوا عليها ونزل الصليبيون بالقرب منهم فضيّق عليهم عسكر المسلمين التموين والاستعداد للقتال فلما رأى الصليبيون قوة المسلمين عادوا إلى أفامية وتبعهم المسلمون فتخطّفوا من أدركوه في مؤخرتهم وعادوا إلى شيزر في شهر ربيع الأول سنة ٥٠٥هـ.

لما تفرّقت العسكر اجتمع الصليبيون على قصد مدينة صور وحصارها فساروا إليها مع الملك بغدوين صاحب القدس الصليبي وجمعوا جموعهم ونازلوا المدينة وحاصروها في الخامس والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٥٠٥هـ، وعملوا عليها ثلاثة أبراجٍ خشباً علو البرج سبعون ذراعاً، وفي كل برجٍ ألف رجلٍ، ونصبوا عليها المجانيق، وألصقوا أحدها إلى سور المدينة وأخلوه من الرجال، وكانت مدينة صور تتبع العبيديين في مصر ونائبهم فيها عز الملك الأعز فأحضر أهل البلد واستشارهم في حيلةٍ يدفعون بها شرّ هذه الأبراج عنهم فقام شيخ من أهل طرابلس وضمن على نفسه إحراقها وأخذ معه ألف رجلٍ بالسلاح التام، ومع كل رجلٍ منهم حزمة حطب فقاتلوا الصليبيين إلى أن وصلوا إلى البرج الملتصق بسور المدينة فألقى الحطب من جهاته وأضرم فيها النار ثم خاف أن يشتغل الصليبيون الذين في البرج بإطفاء النار ويتخلّصوا منها فرماهم بجرابٍ مملوءةٍ بالقاذورات ـ غير أن هذا البرج خالٍ من الرجال ـ وأحرق الأبراج بالحطب الذي سقاه بالنفط والزفت والكتان والكبريت. وأخذ المسلمون من البرج الملاصق لسور المدينة سبعين سلةً كبيرةً من العنب وذلك قبل أن يحترق، ثم إن أهل مدينة صور قد

حفروا سراديب تحت الأرض ليسقط فيها الصليبيون إذا زحفوا إليهم، ولينخسف بأي برجٍ إن عملوه وسيّروه إليهم، ولكن استأمن بعض من يعيش في مدينة صور مع المسلمين وأعلموهم بما عمله المسلمون فحذروا منها، ولم يزحفوا نحو المدينة.

وأرسل أهل صور إلى طغتكين صاحب دمشق يستنجدونه ويطلبونه ليسلّموا إليه البلد فسار في عساكره إلى نواحي بانياس عند منابع نهر الشريعة وسيّر إليهم نجدةً مائتي فارسٍ فدخلوا البلد فامتنع من بها بهذه النجدة واشتدّ قتال الصليبيين خوفاً من وصول نجداتٍ تاليةٍ ففني نشّاب الأتراك فقاتلوا بالخشب وانتهى النفط فظفروا بسربٍ تحت الأرض فيه نفط لا يُعلم من خزنه. ثم إن عزّ الملك صاحب صور أرسل الأموال إلى طغتكين ليكثر من إرسال الرجال ليملك البلد. فأرسل الرجال غير أن أمرهم قد عُرف وطريقهم قد كُشف للصليبيين فأخذوهم أسرى وقتلوهم وزاد طمعهم في أهل صور.

كان طغتكين صاحب دمشق يقوم بالغارات على ما استولى عليه الصليبيون، وقد قصد حصن الحبيس[1]

(١) الحبيس: من أعمال دمشق، وموقعه اليوم على طريق دمشق. =

وهو للصليبيين فحاصره وملكه بالسيف وقتل كل من فيه، وعاد إلى الصليبيين الذين على مدينة صور فقطع عنهم التموين براً فأحضروها عن طريق البحر، وخندقوا عليهم ولم يخرجوا إليه فسار إلى صيدا وأغار على ضواحيها فقتل جماعةً من البحرية وأحرق نحو عشرين مركباً على الساحل، وهو مع ذلك يواصل أهل صور بالرسائل يدعوهم إلى الصبر، والصليبيون يواصلون قتالهم. وقاتل أهل صور قتال المستميت واستمرّ القتال إلى أوائل أشهر الصيف حيث يحين نضج الثمار ويأتي وقت حصاد الغلال فخاف الصليبيون أن يستولي طغتكين على نتاج البلدان التي يسيطرون عليها فرحلوا عن مدينة صور في العاشر من شهر شوال سنة ٥٠٥هـ إلى عكا وعاد عسكر طغتكين الذين كانوا يدعمون أهل صور عادوا إليه وأعطاهم أهل صور الأموال وغيرها. وأصلح أهل البلد سور بلدهم وخندقها وكان الصليبيون قد طمروه وثلّموا السور.

وسار الأمير مودود صاحب الموصل في شهر المحرم سنة ٥٠٦هـ إلى مدينة الرها ورعى عسكره

= القنيطرة على مقربة من بلدة خان أرنبة، ولعله موقع بلدة (جبا).

زروعها، ورحل عنها إلى بلدة سروج وفعل بأرضها مثل ذلك ولم يُبال بالصليبيين ولم يحترز منهم فلم يشعر إلا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم وكانت دواب العسكر منتشرةً في المرعى فأخذ الصليبيون كثيراً منها وقتلوا عدداً من العسكر فلما تأهّب المسلمون واستعدوا للقائه عاد عنهم إلى سروج.

وتوفي بسيل الأرمني صاحب الدروب فسار طنكري الصليبي صاحب أنطاكية إلى بلاده في أول شهر جمادى الآخرة سنة ٥٠٦هـ طمعاً في أن يستولي عليها فمرض في طريقه فعاد إلى أنطاكية فمات في الثامن من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٠٦هـ، وملك أنطاكية بعده ابن أخته سرخاله واستقام الأمر فيها بعد أن جرى خلاف بين الصليبيين بسببه فأصلح بينهم القساوسة والرهبان.

تابع الملك الصليبي بغدوين صاحب القدس الغارات على مدينة دمشق ونهب وإفساد أعمالها في أواخر سنة ٥٠٦هـ فاجتمع بعض أمراء المسلمين، ومنهم: مودود صاحب الموصل، وتميرك صاحب سنجار، والأمير أياز بن إيلغازي، وطغتكين صاحب دمشق، وكانت الأسعار قد ارتفعت في دمشق وقلّت

الأقوات فأرسل طغتكين إلى الأمير مودود يشرح له ويستنجده ويحثّه على سرعة الوصول إليه فجمع مودود عسكراً وسار فعبر نهر الفرات في أواخر شهر ذي القعدة سنة ٥٠٦هـ فخافه الصليبيون، وسمع طغتكين خبره فسار إليه ولقيه بمدينة سلمية واتفق رأيهم على قصد بغدوين ملك القدس الصليبي فساروا إلى الأردن فنزل المسلمون عند الأقحوانة على شاطئ بحيرة طبرية، ونزل الصليبيون مع ملكهم بغدوين وصاحب جيشهم جوسلين وغيرهما من المقدمين والفرسان المشهورين ودخل المسلمون مع مودود الأجزاء التي يسيطر عليها الصليبيون، وجمع الصليبيون قواتهم والتقى الطرفان عند طبرية في الثالث عشر من شهر المحرم سنة ٥٠٧هـ واشتدّ القتال وصبر الفريقان، ثم انهزم الصليبيون وكثر القتل والأسر فيهم، وممن أُسر ملكهم بغدوين فلم يُعرف فأُخذ سلاحه وأُطلق فنجا، وغرق عدد غير قليلٍ في بحيرة طبرية ونهر الأردن وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم. ووصل الصليبيون إلى مضيق دون طبرية عند مصب نهر اليرموك على نهر الأردن وعلى مقربةٍ من منطقة الحمة فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية فقويت نفوسهم بهم وعادوا إلى القتال فأحاط المسلمون بهم من كل ناحيةٍ، وصعد الصليبيون إلى جبلٍ غرب طبرية

فأقاموا به ستةً وعشرين يوماً والمسلمون مقابلهم يرمونهم بالنشّاب فيصيبون من يقرب منهم، ومنعوا الأرزاق عنهم لعلهم يتضايقون فيخرجون إلى قتالهم فلم يخرج منهم أحد.

سار المسلمون إلى بيسان وأخذوا من أملاك الصليبيين غصباً ما بين القدس وعكا وخرّبوها وقتلوا من ظُفر به من النصارى ولكن انقطعت عنهم المادة لبُعدهم عن بلادهم فعادوا ونزل الأمير مودود بمرج الصفّر جنوب دمشق وبعد نهر الأعوج جنوباً، وأذن للعساكر بالعودة والاستراحة ثم الاجتماع في فصل الربيع للعودة إلى الغزو والجهاد، وبقي في خواصه ودخل دمشق في الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٠٧هـ ليقيم عند طغتكين صاحب دمشق إلى فصل الربيع فدخل الجامع يوم الجمعة في شهر ربيع الأول ليصلي فيه وطغتكين، فلما فرغوا من الصلاة وخرج إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جراحاتٍ وقُتل القاتل، وأُخذ مودود إلى دار طغتكين، وكان صائماً، واجتهد به ليفطر فلم يقبل، وقال: لا لقيت الله إلا صائماً، فمات من يومه رحمه الله.

وسارت قافلة عظيمة من دمشق إلى مصر ووصل الخبر إلى بغدوين الصليبي ملك القدس فسار إلى القافلة واعترض سبيلها فأخذها جميعها وأسر أفرادها حيث لم ينج منهم إلا القليل وذلك سنة ٥٠٧هـ، وذُكر عن الخبر وقد وصل إلى الصليبيين عن طريق بعض العبيديين.

وفي سنة ٥٠٨هـ ولّى السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل الأمير آقسنقر البرسقي وذلك لما بلغه مقتل واليها السابق مودود بدمشق، وسيّر مع البرسقي ولده مسعود بن محمد في جيشٍ كثيفٍ وأمره بقتال الصليبيين وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته، فوصل إلى الموصل واتصلت به عساكرها وفيهم عماد الدين زنكي بن أقسنقر الذي ملك هو وأولاده الموصل بعد ذلك وكان معروفاً بشجاعته، واتصل به أيضاً الأمير تميرك صاحب سنجار وغيرهما، فسار آقسنقر البرسقي إلى جزيرة ابن عمر فسلّمها إليه نائب الأمير مودود بها وسار معه إلى ماردين فنازلها البرسقي حتى أذعن له أميرها إيلغازي وسيّر معه عسكراً مع ولده أياز فسار عنه البرسقي إلى الرها في خمسة عشر ألف فارسٍ فنازلها في شهر ذي الحجة سنة ٥٠٨هـ وقاتلها وصبر له الصليبيون، وأصابوا من بعض المسلمين غرَّةً فأخذوا

منهم تسعة رجالٍ وصلبوهم على سورها فاشتدّ القتال حينئذٍ وحمي المسلمون وقاتلوا فقتلوا من الصليبيين خمسين فارساً من أعيانهم، وأقام المسلمون على الرها شهرين وأياماً وقلّت الأقوات على المسلمين فرحلوا عن الرها إلى سميساط بعد أن خرّبوا بلد الرها وبلد سروج وبلد سميساط، وأطاع صاحب مرعش، وعاد آقسنقر البرسقي إلى جهات ماردين فقبض على إياز بن إيلغازي حيث لم يحضر أبوه ونهب سواد ماردين.

ومات صاحب مرعش الصليبي ويعرف بـ(كواسيل) فاستولت زوجته من بعده على المملكة، وتحصّنت من الصليبيين وراسلت آقسنقر البرسقي وهو على مدينة الرها محاصر لها واستدعت منه بعض أصحابه لتطيعه فسيّر إليها الأمير سنقر دزدار صاحب الخابور، فلما وصل إليها أكرمته وحملت إليه مالاً كثيراً، وبينما هو عندها إذ جاء جمع من الصليبيين والتقوا مع أصحابه وهم نحو مائة فارسٍ واقتتلوا قتالاً شديداً فانتصر المسلمون وقتلوا أكثر الصليبيين، وعاد سنقر دزدار وقد أصحبته الهدايا للملك مسعود وللأمير آقسنقر البرسقي، وأذعنت بالطاعة، ولما علم الصليبيون ذلك خرج كثير من مدينة مرعش، وتخلوا عن طاعة ملكتهم، وساروا إلى أنطاكية.

لما قبض آقسنقر البرسقي على إياز بن إيلغازي سار أبوه إيلغازي بن سقمان إلى حصن كيفا وصاحبه الأمير ركن الدولة داود بن سقمان فاستنجده فسار معه في عسكره وأحضر كثيراً من التركمان، وسار البرسقي إليه أيضاً فالتقيا في أواخر سنة ٥٠٨هـ فاقتتلوا أشدّ قتالٍ وصبر فيه الفريقان ثم انهزم البرسقي وعسكره وخلص إياز بن إيلغازي من الأسر فأرسل إليه السلطان يتهدّده فخافه وسار إلى دمشق إلى حميه طغتكين فأقام عنده أياماً، وكان طغتكين أيضاً قد استوحش من السلطان بعد مقتل مودود، فاتفق إيلغازي وطغتكين على الامتناع والالتجاء إلى الصليبيين والاحتماء بهم فراسلا صاحب أنطاكية وحالفاه فحضر إليهما على بحيرة حمص وجدّدوا العهود، وعاد صاحب أنطاكية الصليبي إليها ورجع طغتكين إلى دمشق أما إيلغازي فقد سار إلى الرستن بنيّة المسير إلى ديار بكر وجمع التركمان ثم العودة، فنزل بالرستن ليستريح فقصده الأمير قرجان بن قراجة صاحب حمص وقد تفرّق عن إيلغازي أصحابه فظفر به قرجان وأسره ومعه جماعة من خواصه، وأرسل إلى السلطان يعرفه ذلك ويسأله السرعة في إنقاذ العساكر لئلا يغلبه طغتكين على إيلغازي. ولما بلغ طغتكين الخبر عاد إلى حمص وأرسل في إطلاقه فامتنع قرجان

وحلف إن لم يعد طغتكين لنقتلن إيلغازي، فأرسل إيلغازي إلى طغتكين أن الملاججة تؤذيني وتسفك دمي والمصلحة عودتك إلى دمشق فعاد طغتكين، وانتظر قرجان وصول العساكر السلطانية فتأخّرت فخاف أن ينخدع أصحابه لطغتكين ويسلّموا إليه حمص فعدل إلى الصلح مع إيلغازي على أن يطلقه ويأخذ ابنه إياز رهينةً ويصاهره ويمنعه من طغتكين وغيره فأجابه إلى ذلك فأطلقه وتحالفا وسلّم إليه ابنه إياز وسار عن حمص إلى حلب وجمع التركمان وعاد إلى حمص وطالب بولده إياز وحاصر قرجان إلى أن وصلت العساكر السلطانية.

كان السلطان محمد بن ملكشاه قد جهّز عسكراً كثيراً وجعل مقدمهم الأمير برسق بن برسق صاحب همذان ومعه الأمير جيّوش بك والأمير كنتغدي وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم بالبدء بقتال إيلغازي وطغتكين فإذا فرغوا منهما قصدوا الصليبيين وقاتلوهم وحصروا بلادهم. فسارت عساكر السلطان في شهر رمضان سنة ٥٠٨هـ، وكانت كثيرة العدد والعُدّة وعبروا نهرالفرات في آخر سنة ٥٠٨هـ عند مدينة الرقة، فلما اقتربوا من حلب راسلوا المتولي لأمرها لؤلؤ الخادم ومقدم عسكرها المعروف بشمس الخواص يأمرونهما

بتسليم حلب وعرضوا عليهما كتب السلطان بذلك
فغالطا في الجواب وأرسلا إلى إيلغازي وطغتكين
يستنجدا منهما فسارا إليهم في ألفي فارسٍ ودخلا حلب
فامتنع من بها عن عسكر السلطان وأظهروا العصيان
فسار الأمير برسق بن برسق إلى مدينة حماة وهي في
طاعة طغتكين وبها ثقله فحاصرها الأمير برسق ودخلها
عنوةً وبقيت العساكر تنهب فيها ثلاثة أيامٍ، ثم سلّمها
إلى الأمير قرجان بن قراجة صاحب حمص، وكان
السلطان قد أمر أن يُسلّم إليه كل بلدٍ يفتحونه، فلما
رأى الأمراء ذلك فشلوا وضعفت نياتهم في القتال حيث
تُؤخذ البلاد وتُسلّم إليه كل بلدٍ يفتحونه، فلما رأى
الأمراء ذلك فشلوا وضعفت نياتهم في القتال حيث
تُؤخذ البلاد وتُسلّم إلى قرجان، فلما سلّموا حماة إلى
قرجان سلّم إليهم إياز بن إيلغازي، وكان قد سار
إيلغازي وطغتكين وشمس الخواص إلى أنطاكية
واستنجدوا بصاحبها روجيل وسألوه أن يُساعدهم على
حفظ مدينة حماة فلما بلغهم فتح حماة ووصل إليهم
بأنطاكية بغدوين الصليبي صاحب القدس وصاحب
طرابلس وغيرهما من قادة الصليبيين اتفق رأيهم على
ترك اللقاء لكثرة المسلمين وقالوا إنهم عند هجوم الشتاء
يتفرّقون واجتمعوا بقلعة أفامية وأقاموا نحو شهرين،

فلما انتصف شهر أيلول ورأوا عزم المسلمين على المقام تفرّقوا فعاد إيلغازي إلى ماردين، وطغتكين إلى دمشق والصليبيون إلى مراكزهم، وكانت أفامية وكفرطاب[1] للصليبيين فقصد المسلمون كفرطاب وحاصروها فلما اشتدّ الحصار على الصليبيين ورأوا الهلاك قتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم ودخل المسلمون البلد عنوةً وقهروا وأسروا صاحبها وقتلوا من بقي فيها من الصليبيين وساروا إلى قلعة أفامية فرأوها حصينةً فعادوا عنها إلى المعرة وهي للصليبيين أيضاً وفارقهم الأمير جيّوش بك إلى وادي بزاعة[2] فملكه، وسارت العساكر عن المعرة إلى حلب وتقدّمهم ثقلهم ودوابهم حسب العادة والعساكر في أثره متلاحقة، وهم آمنون لا يظنون أحداً يقدم على القرب منهم، وكان روجيل صاحب أنطاكية لما بلغه حصار كفرطاب سار في خمسمائة فارسٍ وألفي راجلٍ للمنع فوصل إلى المكان الذي ضُربت فيه خيام المسلمين على غير علمٍ بها فرآها خاليةً من الرجال المقاتلة لأنهم لم يصلوا

---

(١) كفرطاب: بلدة بين حلب والمعرة.

(٢) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين حلب ومنبج وهي في منتصف الطريق بينهما.

إليها فنهب جميع ما هناك وقتل كثيراً من غلمان العسكر ووصلت العساكر متفرّقةً فكان الصليبيون يقتلون كل من وصل إليهم، ووصل الأمير برسق في نحو مائة فارس، فرأى الحال فصعد تلًا هناك ومعه أخوه زنكي وأحاط بهم الغلمان والسوقية واحتموا بهم ومنعوا الأمير برسق من النزول فأشار عليه أخوه ومن معه بالنزول والنجاة بنفسه فقال: لا أفعل بل أُقتل في سبيل الله، وأكون فداء المسلمين فغلبوه على رأيه فنجا هو ومن معه فتبعهم الصليبيون نحو سبعة كيلومترات، ثم عادوا وأكملوا الغنيمة والقتل وأحرقوا كثيراً من الناس، وتفرّق العسكر وأخذ كل واحدٍ منهم جهةً ولما سمع الموكلون بالأسرى الذين أُخذوا من كفرطاب قتلوهم وكذا فعل الموكل بإياز بن إيلغازي قتله أيضاً، وخاف أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين التي بالشام فإنهم كانوا يرجون النصر من جهة هذا العسكر فأتاهم ما لم يكن في الحساب، وعادت العساكر عنهم إلى بلادها. وتوفي برسق وأخوه زنكي سنة ٥١٠هـ.

أقطع السلطان محمد بن ملكشاه الموصل وما كان بيد آقسنقر البرسقي للأمير جيّوش بك وسيّر ولده الملك مسعود إليه، وأقام آقسنقر البرسقي بالرحبة وهي من أقطاعاته إلى أن توفي السلطان محمد.

واستولى الصليبيون على بلدة رفنية[1] في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٠٩هـ وهي تتبع طغتكين صاحب دمشق، وقد حشدوا فيها الرجال وجمعوا الذخائر وبالغوا في تحصينها فاهتمّ طغتكين لذلك وقوى عزمه على تخريب البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون، وأتاه الخبر عن خلو رفنية من عسكر يمنعون عنها وليس فيها إلا الذين رُتّبوا لحفظها فسار إليها ولم يشعر من بها إلا وقد هجم عليهم ودخل البلد عنوةً وقهراً وأخذ كل من فيها من الصليبيين أسرى فقتل بعضهم وترك بعضهم وغنم المسلمون من ضواحيها ومنها الكثير من الذخائر والأمتعة والغلال كما أخذوا السبايا ورجعوا إلى بلادهم سالمين.

توفي بغدوين الصليبي ملك القدس في شهر ذي الحجة سنة ٥١١هـ، وكان قد سار إلى مصر مُظهراً قصده في السيطرة عليها ووصل إلى قرب دمياط وسبح في النيل فانتقض جرح كان به فعاد إلى القدس ومات، ووصى بما يسيطر عليه للراهب صاحب الرها واتفق أن

---

(١) رفنية: كورة ومدينة من أعمال حمص، ويقال لها رفنية تدمر. كما توجد بلدة تحمل الاسم نفسه عند طرابلس من سواحل الشام.

هذا الراهب كان قد سار إلى القدس ليزور إحدى البيع فلما أوصى إليه بالملك قبله، واجتمع له القدس والرها.

كان طغتكين صاحب دمشق قد خرج من قاعدته يريد قتال الصليبيين واتجه نحو الجنوب ونزل باليرموك قرب دير أيوب فخفيت عنه وفاة بغدوين حتى سمع الخبر بعد ثمانية عشر يوماً فأتته رسل ملك الصليبيين بطلب المهادنة ولم يتمّ التفاهم فسار طغتكين إلى طبرية ونهبها ومنها سار إلى عسقلان وكان بها عسكر العبيديين وكانوا قد ساروا إليها لما رجع ملك القدس بغدوين عن مصر، وكان عددهم سبعة آلاف فارس، واجتمع بهم طغتكين وأخبره مقدمهم أن الأوامر معه تقضي بالوقوف عند رأي طغتكين والتصرّف على ما يحكم به فأقاموا بعسقلان نحو شهرين فلم يعرفوا للصليبيين أثراً فعاد طغتكين إلى دمشق فأتاه الصريخ بأن مائةً وثلاثين فارساً من الصليبيين قد أخذوا حصن الحبيس من أعماله سلّمه إليهم المتولّي أمره وأنهم قد قصدوا أيضاً أذرعات (درعا) فنهبوها فأرسل إليهم ولده تاج الملوك بوري بن طغتكين فانحازوا عنه إلى جبل، هناك فأتاه أبوه فنهاه عنهم فلم يفعل وطمع فيهم فلما أيس الصليبيون قاتلوا

قتال مستقلٍ فنزلوا من الجبل وحملوا على المسلمين حملةً صادقةً هزموهم بها وقتلوا وأسروا كثيراً ورجعت فلول الجيش إلى دمشق على أسوأ حالٍ.

سار طغتكين صاحب دمشق إلى حلب وفيها إيلغازي فاستنجده وطلب منه التعاضد على الصليبيين فوعده المسير معه فبينما هو بحلب أتاه الخبر بأن الصليبيين قصدوا حوران فنهبوا وقتلوا وسبوا وعادوا فاتفق رأي طغتكين وإيلغازي على عودة طغتكين إلى دمشق وحماية بلاده وعودة إيلغازي إلى ماردين وجمع العساكر والاجتماع على حرب الصليبيين.

ووصل مركبان كبيران فيهما قوة ونجدة إلى الصليبيين بالشام، وكان الناس قد خافوا ممن فيهما، وكفى الله المؤمنين القتال، وأمنهم من أعدائهم فغرق المركبان.

اتجه إيلغازي صاحب حلب وماردين إلى بغداد يستنفر المسلمين على الصليبيين ويذكر ما أصابهم من أذىً، فإنهم قد احتلّوا قلعةً عند مدينة الرها فقتلوا أميرها من عطبر فسيّرت الكتب بذلك إلى السلطان محمود.

سار الصليبيون إلى حلب سنة ٥١٣هـ فاستولوا في

طريقهم على بزاعة وغيرها ونازلوا أهل حلب وخرّبوا ما استطاعوا خرابه، ولم يكن بحلب من الذخائر ما يكفيها شهراً واحداً، وخاف أهلها خوفاً شديداً، ولو قاتلوا لم يبق منهم أحد ـ والله أعلم ـ ولكنهم منعوا من ذلك، وصانع الصليبيون أهل حلب على أن يقاسموهم أملاكهم التي بباب حلب، فأرسل أهل البلد إلى بغداد يطلبون النجدة فلم يُنجدوا. وكان إيلغازي صاحب حلب بمدينة ماردين يجمع العساكر والمتطوعة للجهاد فاجتمع عليه نحو عشرين ألفاً وكان معه أسامة بن المبارك بن شبل الكلابي والأمير طغان أرسلان صاحب بدليس[1] وأرزن[2] وسار بهم إلى الشام عازماً على قتال الصليبيين فلما علم الصليبيون قوة عزمهم على لقائهم وكانوا ثلاثة آلاف فارسٍ وتسعة آلاف راجلٍ ساروا فنزلوا قريباً من الأثارب بموضع يقال له: تل عفرين بين جبال ليس له طريق إلا من ثلاث جهاتٍ. وظنّ الصليبيون أنه لا يمكن لأحدٍ أن يسلك إليهم هذه

(١) بدليس: بلدة في شرقي تركيا اليوم، كانت تعد في أرمينية، وهي قرب خلاط، فتحها عياض بن غنم رضي الله عنه.

(٢) أرزن: مدينة مشهورة ولها قلعة حصينة، وهي قرب مدينة خلاط أيضاً.

الطريق لضيقها فأخلدوا إلى المطاولة. استشار الأمير إيلغازي فيما يفعل فأشاروا بالركوب من وقته والسير إلى الصليبيين ففعل ذلك وسار إليهم ودخل الناس من الطرق الثلاثة فلم يشعر الصليبيون إلا وأوائل المسلمين قد غشوهم فحمل الصليبيون حملةً منكرةً فولّوا منهزمين فلقوا باقي العسكر قادمين فعادوا معهم وجرى بينهم قتال شديد وأحاط المسلمون بالصليبيين من الجهات جميعاً وأخذوهم بالسيف من سائر نواحيهم فلم يفلت منهم غير نفرٍ يسيرٍ وقُتل الباقي وأُسروا وكان من جملة الأسرى نيف وسبعون فارساً من مقدميهم وحملوا إلى حلب فبذلوا في نفوسهم بثلاثمائة ألف دينارٍ فلم يُقبل منهم، وغنم المسلمون منهم الغنائم الكثيرة. وأما سيرجال صاحب أنطاكية فإنه قُتل، وكانت الوقعة في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٥١٣هـ. ثم تجمّع من نجا من المعركة مع غيرهم فلقيهم إيلغازي أيضاً فهزمهم وفتح حصن الأثارب وحصن زردنا وعاد إلى حلب فأصلح حالها ثم عبر نهر الفرات إلى ماردين.

وسار جوسلين الصليبي صاحب تل باشر في جمعٍ من الصليبيين نحو مائتي فارسٍ من طبرية فكبس جماعةً من قبيلة طيّ يُعرفون ببني خالد فأخذهم وأخذ

ما معهم وسألهم عن بقية قومهم من بني ربيعة فأخبروه أنهم بوادي السلالة بين دمشق وطبرية، فقدّم جوسلين مائةً وخمسين فارساً من أصحابه وسار هو في خمسين فارساً على طريقٍ آخر وواعدهم الصبح ليُباغتوا بني ربيعة فوصل إليهم الخبر فأرادوا الرحيل فمنعهم أميرهم من بني ربيعة وكانوا في مائةٍ وخمسين فارساً فوصل إليهم المائة وخمسون من الصليبيين معتقدين أن جوسلين قد سبقهم أو سيدركهم غير أنه كان قد ضلّ الطريق وتساوى عدد الطرفين فاقتتلوا وترجّل أكثر العرب وظهر من أميرهم شجاعة وحسن تدبيرٍ وجودة رأيٍ فقُتل من الصليبيين سبعون وأُسر اثنا عشر من مقدميهم بذل كل واحدٍ منهم في فداء نفسه مالاً جزيلاً وعدداً من الأسرى. وأما جوسلين فقد بلغه خبر الوقعة فسار إلى طرابلس فجمع بها جمعاً وسار إلى عسقلان فأغار عليها فهزمه المسلمون هناك فعاد مغلولاً.

كان الكرج (أهل جورجيا) يُغيرون على بلاد المسلمين وامتنعوا عن هذه الغارات أيام السلطان ملكشاه إلى آخر أيام السلطان محمد ثم ضعفت السلطنة فعادوا إلى ما كانوا عليه فقد خرجوا سنة ٥١٤هـ ومعهم القفجاق وغيرهم من الأمم المجاورة لهم ولم يكونوا قد

أسلموا بعد فتراسل الأمراء المسلمون المجاورون لبلادهم واجتمعوا ومنهم الأمير إيلغازي ودبيس بن صدقة وكان عنده والملك طغرل بن محمد بن ملكشاه فاجتمعوا وساروا إلى الكرج فلما اقتربوا من تفليس قاعدة المنطقة ـ وكان المسلمون في عددٍ كثيرٍ يبلغون ثلاثين ألفاً ـ فالتقوا واصطف الفريقان للقتال فخرج من القفجاق مائتا رجلٍ فظنّ المسلمون أنهم مستأمنون فلم يحترزوا منهم ودخلوا بينهم ورموا بالنشّاب فاضطرب صفّ المسلمين فظُنّ من بعيدٍ أنها هزيمة فانهزموا وتبع الناس بعضهم بعضاً منهزمين ولشدّة الزحام صدم بعضهم بعضاً فقُتل منهم عدد كبير وتبعهم الصليبيون سبعين كيلاً يقتلون ويأسرون فقُتل أكثرهم وأسروا أربعة آلاف رجلٍ، ونجا الملك طغرل وإيلغازي ودبيس وعاد الكرج فنهبوا ببلاد المسلمين وحاصروا تفليس واشتدّ قتالهم لأهلها ودام الحصار ما يقرب من سنةٍ وعظُم الأمر على أهلها وتفاقم الخطب على أهلها ثم دخلوها عنوةً، وكان أهلها قد شعروا بالهلاك فأرسلوا القاضي والخطيب إلى الكرج في طلب الأمان فلم يلتفت الكرج إليهما، ولما دخلوا البلد نهبوه واستباحوه، ووصل المستنفرون منهم إلى بغداد مستصرخين ومستنصرين سنة ٥١٦هـ فبلغهم أن السلطان محمود بهمدان فقصدوه

واستنجدوا به فسار إلى أذربيجان وأقام بمدينة تبريز شهر رمضان، ثم سيّر العسكر إلى الكرج.

أرسل الخليفة المسترشد بالله سنة ٥١٤هـ الخلع والهدايا مع سديد الدولة بن الأنباري إلى نجم الدين إيلغازي ويشكر له ما يقوم به من غزو الصليبيين ويأمره بإبعاد دبيس بن صدقة عنه، وسار أبو علي بن عمار الذي كان صاحب طرابلس مع ابن الأنباري إلى إيلغازي ليقيم عنده، فاعتذر بإبعاد دبيس ووعد به، ثم سار إلى الصليبيين وكان قد جمع لهم جمعاً فالتقوا بموضعٍ يقال له: ذات البقل من أعمال حلب فاقتتلوا واشتدّ القتال وقد أحرز النصر عليهم.

اجتمع إيلغازي مع طغتكين صاحب دمشق وحاصروا الصليبيين في معرّة قنسرين يوماً وليلةً ثم أشار طغتكين بالإفراج لهم حتى لا يحملهم الخوف على أن يستقتلوا ويخرجوا على المسلمين فربما ظفروا وكان أكثر خوفه من إدبار خيل التركمان وجودة خيل الصليبيين فأفرج لهم إيلغازي فساروا عن مكانهم وتخلّصوا، وكان إيلغازي لا يطيل المقام على بلاد الصليبيين خوفاً من تفرّق التركمان الذين كان يجمعهم الطمع فإذا طالت الإقامة على مكانٍ واستبعدوا الوصول إلى الغنائم تسلّلوا سرّاً وتوزّعوا.

تسلّم الصليبيون حصن الأثارب من صاحب حلب في شهر صفر سنة ٥١٧هـ، وذلك أن الصليبيين قد أكثروا من الإغارة على حلب وأعمالها وكانوا يفسدون فيها نهباً وإحراقاً وتخريباً وكان صاحب حلب يومئذٍ بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق ولم يكن له بالصليبيين قوة وخافهم فهادنهم على أن يسلّمهم حصن الأثارب ويكفّوا عن بلاده فأجابوه إلى ذلك وتسلّموا الحصن وتمت الهدنة بينهم واستقام أمر الرعية بأعمال حلب، ولم يزل حصن الأثارب بيد الصليبيين إلى أن أخذه منهم عماد الدين زنكي بن أقسنقر.

واستولى الصليبيون في شهر ربيع الأول سنة ٥١٧هـ على قلعة خرتبرت من ديار بكر وكانت لبُلُك بن بهرام بن أرتق وقد حاصر قلعة كركر بالقرب منها وسمع الصليبيون بالشام بالخبر فسار ملك الصليبيين بغدوين في جموعه إليه ليرحّله عنها خوفاً من أن يقوى بامتلاكها فلما سمع بُلُك بن بهرام باقترابه منه سار إليه والتقيا في شهر صفر واقتتلا وهُزم الصليبيون وأُسر ملكهم ومعه جماعة من أعيان فرسانهم وسُجنوا في قلعة خرتبرت، وسار الأمير بُلُك بن بهرام إلى حران في شهر ربيع الأول سنة ٥١٧هـ وملكها، وكان بقلعة خرتبرت أيضاً

جوسلين صاحب الرها وغيره من مقدمي الصليبيين الذين كانوا قد أُسروا سنة ٥١٥هـ، فأعمل الصليبيون الأسرى الحيلة واستمالوا بعض الجند فظهروا وملكوا القلعة، فأما الملك بغدوين فقد تسلّل بالليل ومضى إلى القدس. ووصل الخبر إلى الأمير بُلُك بن بهرام صاحب قلعة خرتبرت فعاد في عساكره إليها وحاصرها وضيّق على من بالقلعة واستعادها من الصليبيين وجعل فيها من الجند من يحفظها وعاد عنها.

زاد إفساد الكرج في بلاد المسلمين سنة ٥١٧هـ وعظم الأمر على الناس وخاصةً أهل شروان (المنطقة الجبلية من بلاد داغستان) فسار جماعة منهم إلى السلطان وشكوا إليه ما يلقونه منهم وأعلموه بما هم عليه من الضعف والعجز عن حماية بلادهم فسار السلطان محمود إليهم والكرج قد وصلوا إلى شماخي فنزل السلطان محمود في بستانٍ هناك وتقدم الكرج إليه فخافهم العسكر خوفاً شديداً وأشار الوزير شمس الملك عثمان بن نظام الملك على السلطان بالعودة من هناك فلما سمع أهل شروان بذلك قصدوا السلطان وقالوا له: نحن نقاتل مهما يكن ما دمت أنت عندنا وإن تأخّرت عنا ضعفت نفوس المسلمين وهلكوا فقبل قولهم وأقام

بمكانه وبات العسكر على قلب رجلٍ واحدٍ وهم على نيّة الاصطفاف للقاء فأتاهم الله بفرج من عنده إذا ألقى بين الكرج والقفجاق اختلافاً وعداوةً فاقتتلوا تلك الليلة فرحلوا شبه منهزمين وكفى الله المؤمنين القتال، وأقام السلطان بشروان مدةً ثم عاد إلى همذان فوصل إليها في شهر جمادى الآخرة سنة ٥١٧هـ.

قبض بُلُك بن بهرام بن أرتق صاحب حلب على الأمير حسان البعلبكي صاحب منبج وسار إليها فحاصرها فملك المدينة وحاصر القلعة فامتنعت عليه فسار الصليبيون إليه ليُجلوه عنها لئلا يقوى بأخذها فلما اقتربوا منه ترك القلعة وأبقى عليها من يُحاصرها وسار في باقي عسكره إلى الصليبيين فلقيهم وقاتلهم فهزمهم وقتل منهم عدداً كبيراً، وعاد إلى منبج فحاصرها وبينما هو يقاتل أصابه سهم فقتله، لا يدري من رماه، فاضطرب عسكره وتفرّقوا وخلص حسان من السجن وكان حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق مع ابن عمه بُلُك فحمله قتيلاً إلى ظاهر حلب وتسلّمها في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥١٨هـ وزال الحصار عن قلعة منبج وعاد إليها صاحبها حسان البعلبكي، واستقر تمرتاش بحلب واستولى عليها ثم إنه جعل فيها

نائباً له يثق به ورتّب عنده ما يحتاج إليه من جند وسلاحٍ وذخيرةٍ ورجع هو إلى ماردين.

كانت مدينة صور على الساحل الشامي جنوب مدينة صيدا تتبع العبيديين أصحاب مصر وكان بها والٍ من جهة الأفضل أمير الجيوش العبيدية ووزير الآمر بأحكام الله، وكان هذا الوالي يلقّب بعزّ الملك، وكان الصليبيون قد حاصروها وضيّقوا عليها ونهبوها أكثر من مرةٍ فلما كان سنة ٥٠٦هـ تجهّز ملك الصليبيين وجمع عساكره ليسير إلى صور فخاف أهل صور فأرسلوا إلى طغتكين صاحب دمشق يطلبون منه أن يرسل إليهم أميراً من عنده يتولّاهم ويحميهم وتكون البلد له، وقالوا له: إن أرسلت والياً وعسكراً كانت البلدة لك وإلا سلّمنا البلد إلى الصليبيين، فسيّر إليهم عسكراً وجعل عندهم والياً اسمه مسعود وكان شجاعاً شهماً عارفاً بالحرب ومكايدها وأمده بعسكرٍ وسيّر إليهم أقواتاً ومالاً فرّقه فيهم فطابت نفوس أهل البلد، ولم تغيّر الخطبة لصاحب مصر العبيدي والآمر بأحكام الله، ولا السكة، وكتب إلى الأفضل بمصر يعرّفه صورة الحال ويقول له: متى وصل إليها من مصر يتولّاها ويُدافع عنها وسلّمتها إليه، ويطلب منه ألا ينقطع الأسطول المصري عنها

بالرجال والقوة فشكر الأفضل له، وأثنى عليه، وصوّب رأيه فيما فعله وجهّز أسطولاً وسيّره إلى صور فاستقامت أحوال أهلها حتى سنة ٥١٦هـ بعد قتل الأفضل، فسيّر أليها أسطولاً كالعادة وأمر المقدم على الأسطول أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود والي صور من قبل طغتكين صاحب دمشق، ويقبض عليه ويتسلّم البلد منه، وكان السبب في ذلك أن أهل صور أكثروا الشكوى منه إلى صاحب مصر العبيدي الآمر بأحكام الله بما يعتمده من مخالفتهم والإضرار بهم فانطلق الأسطول وأرسى عند مدينة صور فخرج الأمير مسعود إليه للسلام على القادم عليه فلما صعد مسعود إلى المركب اعتقله ونزل إلى البلد واستولى عليها وعاد الأسطول إلى مصر وفيه الأمير مسعود فأُكرم وأُحسن إليه وأُعيد إلى دمشق، وأما الوالي الجديد من قبل العبيديين فإنه طيّب قلوب الناس وراسل طغتكين يخدمه بالدعاء والاعتضاد ويدّعي أن ما فعله إنما هو بسبب شكوى أهل صور من الأمير مسعود فأحسن طغتكين الجواب وبذل من نفسه المساعدة.

لما سمع الصليبيون بانصراف مسعود عن صور قوي طمعهم بها وحدّثوا نفسهم بالاستيلاء عليها فشرعوا بالاستعداد للنزول عليها وحصارها، وسمع

الوالي العبيدي بها بالخبر فعلم أنه لا قوة له ولا طاقة على دفع الصليبيين عنها لقلّة جندها والأقوات التي بها فأرسل إلى الآمر بأحكام الله صاحب مصر العبيدي فرأى أن يردّ ولاية صور إلى طغتكين صاحب دمشق فأرسل إليه بذلك فملك صور ورتّب فيها من الجند وغيرهم ما ظنّ فيه الكفاية. وسار الصليبيون إليهم ونازلوهم من شهر ربيع الأول سنة ٥١٨هـ وضيّقوا عليهم ولازموا القتال فقلّت الأقوات عند السكان وسئموا القتال وضعفت نفوسهم، وسار طغتكين إلى مدينة بانياس على نهر الأردن ليقترب منهم وليدافع عن البلد ولعلّ الصليبيين إذا رأوا قربه منهم رحلوا، فلم يتحرّكوا ولزموا الحصار فأرسل طغتكين إلى العبيديين يستنجدهم فلم يُنجدوه، وانطوت الأيام وأشرف أهل صور على الهلاك فتقرر تسليم المدينة إلى المحاصرين لها من الصليبيين على أن يمكّنوا من بها من الجند والرعية من الخروج منها بما يقدرون عليه من أموالهم ورحالهم وغيرها، وفتحت أبواب المدينة للمهاجمين الصليبيين فاستولوا عليها وغادرها أهلها وتفرّقوا في البلاد وحملوا ما استطاعوا وتركوا ما عجزوا عنه ولم يتعرّض الصليبيون إلى أحدٍ منهم، ولم يبق إلا من عجز عن الحركة، وملك الصليبيون مدينة صور في الثالث

والعشرين من شهر جمادى الأولى من سنة ٥١٨هـ.

جمع آقسنقر عساكره سنة ٥١٩هـ وسار إلى الشام فقصد كفرطاب وألقى الحصار عليها واستطاع أن يدخلها وينتزعها من الصليبيين، وسار إلى قلعة إعزاز وهي من أعمال حلب من جهة الشمال وصاحبها جوسلين فحاصرها فاجتمع الصليبيون وقصدوه ليجبروه على مغادرتها فلقيهم وجرت بينهم معركة حامية وصبر الطرفان على القتال ثم انهزم المسلمون وقُتل منهم وأُسر كثير، وكان عدد القتلى أكثر من ألف قتيل من المسلمين وعاد منهزماً إلى حلب فأناب بها ابنه مسعوداً وسار هو فعبر نهر الفرات وتابع إلى الموصل ليجمع العساكر ويعاود القتال.

اجتمع الصليبيون ملوكهم ورهبانهم وساروا إلى نواحي دمشق فنزلوا بمرج الصُّفَّر عند قَريةٍ يقال له شقحب على مقربةٍ من دمشق فعظم الأمر على المسلمين واشتدّ خوفهم وكاتب طغتكين صاحب دمشق أمراء التركمان في ديار بكر وغيرهم وجمعهم، وكان هو قد سار عن دمشق إلى جهة اجتماع الصليبيين واستخلف بها ابنه تاج الملوك بوري فكان كلما جاءت جماعة أحسن ضيافتهم وسيّرهم إلى أبيه فلما اجتمعوا سار بهم

طغتكين إلى الصليبيين فالتقوا في أواخر شهر ذي الحجة سنة ٥٢٠هـ واقتتلوا واشتدّ القتال فسقط طغتكين عن فرسه فظنّ أصحابه أنه قُتل فانهزموا، وركب طغتكين فرسه ولحقهم وتبعهم الصليبيون، وبقي التركمان لم يستطيعوا اللحاق بالمسلمين في الهزيمة ورأوا فرسان الصليبيين قد تبعوا المنهزمين وأن معسكرهم وراجلهم ليس له مانع ولا حامٍ فحملوا على الرجالة فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد ونهبوا معسكر الصليبيين وخيامهم وأموالهم وجميع ما معهم وعادوا إلى دمشق سالمين لم يُفقد منهم أحد، ولما رجع الصليبيون من ملاحقة المنهزمين ورأوا رجالهم قتلى وأموالهم منهوبةً تابعوا سيرهم منهزمين نحو مناطقهم لا يلوي الأخ على أخيه.

قوي أمر أحد الباطنية بدمشق وهو المعروف باسم المزدقاني ولكن لم يكن أحدهم ليُظهر عقيدته أو يُبدي هدفه، وقد راسل المزدقاني الصليبيين ليسلّم إليهم مدينة دمشق ويسلّموا إليه مدينة صور واستقر الأمر بينهم على ذلك وتقرّر الميعاد يوم جمعةٍ حدّدوه، وقرّر المزدقاني مع الإسماعيلية أن يحتاطوا ذلك اليوم بأبواب الجامع فلا يُمكّنون أحداً يخرج من بابٍ، فيكون المسلمون

بالجامع شبه مسجونين ويأتي الصليبيون ويملكون البلد فبلغ الخبر صاحب دمشق تاج الملوك بوري بن طغتكين فاستدعى المزدقاني إليه فحضر وخلا معه فقتله تاج الملوك وعلّق رأسه على باب القلعة ونادى في البلد بقتل الباطنية فقُتل منهم ستة آلاف نفسٍ وكان ذلك في منتصف شهر رمضان سنة ٥٢٣هـ، وكفى الله المسلمين شرّهم وردّ على الكافرين كيدهم خاف إسماعيل صاحب بانياس الجنوب وهو من الباطنية أن يثور الناس به وبمن معه فيهلكوا فراسل الصليبيين وبذل لهم تسليمهم بانياس والانتقال إلى بلادهم فأجابوه فسلّم القلعة إليهم وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى حمى الصليبيين فلقوا شدّةً وذلةً وهواناً وتوفي إسماعيل في أوائل سنة ٥٢٤هـ.

لما بلغ الصليبيين خبر مقتل المزدقاني والباطنية بدمشق وهم من أوليائهم عظُم عليهم ذلك وتأسّفوا على دمشق حيث لم يتمّ لهم تملّكها وعمّتهم المصيبة فاجتمعوا كلهم: صاحب القدس وصاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم من الصليبيين ورهبانهم ومن وصل إليهم في البحر للزيارة والتجارة فالتقوا في جمعٍ عظيمٍ في نحو ألفي فارسٍ أما الرجالة فلا يحصون وساروا إلى دمشق ليحاصروها ولما سمع صاحبها تاج

الملوك بوري بن طغتكين جمع العرب والتركمان فاجتمع ثمانية آلاف فارسٍ، ووصل الصليبيون في شهر ذي الحجة سنة ٥٢٣هـ فنازلوا البلد وأرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع الغلال والإغارة على البلاد فلما سمع تاج الملوك أن جمعاً كثيراً قد سار إلى حوران لنهبها وإحضار الغلال سيّر أميراً من أمرائه يُعرف بشمس الخواص في جمعٍ من المسلمين إليهم وكان خروجهم في ليلةٍ شاتيةٍ كثيرة المطر فالتقوا بالصليبيين من الغد واقتتلوا وصبر بعضهم لبعضٍ فظفر بهم المسلمون وقتلوهم ولم يفلت منهم غير مقدمهم ومعه أربعون رجلاً، وأخذوا ما معهم وهي عشرة آلاف دابّةٍ وثلاثمائة أسير وعادوا إلى دمشق لم يمسسهم قرح فلما علم ذلك من عليها من الصليبيين المحاصرين لها ألقى الله في قلوبهم الرعب فرحلوا عنها شبه المنهزمين وأحرقوا ما تعذّر عليهم حمله من سلاحٍ وغلالٍ وغير ذلك وتبعهم المسلمون والمطر غزير والبرد شديد يقتلون كل من تخلّف وكل من أدركوه فكثر القتلى منهم، وكان نزولهم ورحيلهم في شهر ذي الحجة ٥٢٣هـ.

لما فرغ عماد الدين زنكي من تنظيم أمور واستراحة عسكره استعدّ للجهاد وقصد حصن الأثارب

الذي استولى عليه الصليبيون، وهذا الحصن بين حلب وأنطاكية ويبعد عن حلب حوالي خسمةٍ وعشرين كيلومتراً وإن سيطرة الصليبيين على هذا الحصن لها ضرر كبير على المسلمين حيث كان الصليبيون يقاسمون أهل حلب على جميع أعمالها الغربية حتى على رحىً لأهل حلب بظاهر باب الجنان بينها وبين البلد عرض الطريق، وكان أهل البلد معهم في ضُرٍّ شديدٍ وضيقٍ في كل يومٍ إذ يُغيرون عليهم وينهبون أموالهم فلما رأى عماد الدين زنكي هذه الحال عزم على حصار هذا الحصن فسار إليه ونازل من فيه فلما خبر الصليبيون بذلك جمعوا جموعهم وعلموا أن هذه الوقعة لها ما بعدها فحشدوا وجمعوا ولم يتركوا من طاقتهم شيئاً إلا واستنفذوه فلما فرغوا من أمرهم ساروا نحوه فاستشار عماد الدين أصحابه فيما يفعل فكل أشار بالعودة عن الحصن فإن لقاء الصليبيين في البلاد التي يستولون عليها خطر لا يدري على أي شيء تكون العاقبة، فقال لهم: إن الصليبيين متى رأونا قد عُدنا من أيديهم طمعوا وساروا في أثرنا وخرّبوا بلادنا ولا بدّ من لقائهم على كل حالٍ، ثم ترك الحصن وتقدّم إليهم فالتقوا واصطفوا للقتال وصبر كل فريقٍ لخصمه واشتدّ الأمر بينهم ثم انهزم الصليبيون أقبح هزيمةٍ، ووقع كثير من

فرسانهم بالأسر وقُتل منهم عدد كبير وتقدّم عماد الدين إلى عسكره بالإنجاز، وقال: هذا أول مصافٍّ عملناه معهم فلنذقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم، ولما أحرز المسلمون النصر على أعدائهم وفرغوا من تنظيم الأمور عادوا إلى الحصن فأخذوه عنوةً وقتلوا وأسروا كل من فيه وخرّبه عماد الدين وجعله دكّاً، ثم سار إلى قلعة حارم وهي تحت سلطان الصليبيين فحاصرها فبذل له أهلها نصف دخل مدينة حارم وهادنوه فأجابهم إلى ذلك، وعاد عنهم، وضعفت قوى الصليبيين وصار قصارى جهدهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا بالاستيلاء على الجميع.

استضعف الصليبيون صاحب دمشق شمس الملوك إسماعيل وطمعوا فيه وعزموا على نقض الهدنة التي بينهم فتعرّضوا إلى أموال جماعةٍ من تجار دمشق في مدينة بيروت وأخذوها فشكى التجار إلى شمس الملوك فراسل في إعادة ما أخذوه وكرّر القول فيه فلم يردّوا شيئاً فحملته الأنفة من هذه الحال والغيظ على أن جمع عسكره وتأهّب ولا يعلم أحد أين يريد، وسار في أواخر شهر المحرم من سنة ٥٢٧هـ ونزل على مدينة بانياس الجنوب في أول شهر صفر وأنشب القتال

مباشرةً وزحف زحفاً متتابعاً ولم يكن الصليبيون متأهّبين للقتال وليس في بانياس من المقاتلة من يقوم به واقترب من سور المدينة فترجّل وتبعه الناس فرساناً ورجالةً ووصلوا إلى السور ونقبوه ودخلوا البلد عنوةً والتجأ من كان من جند الصليبيين إلى الحصن وتحصّنوا به، فقتل كثيراً من أهل البلد ومن الصليبيين وأسر كثيراً، ونُهبت الأموال، وقاتل الذين في القلعة قتالاً شديداً ليلاً ونهاراً فدخلها في الرابع من شهر صفر سنة ٥٢٧هـ بالأمان وعاد إلى دمشق فوصل إليها في السادس من شهر صفر أي بعد يومين من الرحيل عن حصن بانياس.

ولما سمع الصليبيون بنزول شمس الملوك على بانياس شرعوا يجمعون العسكر ليسيروا إليه فلما بلغهم دخوله إليها وفتحها بطل ما كانوا فيه.

سار ملك الصليبيين صاحب بيت المقدس في شهر صفر سنة ٥٢٧هـ بفرسانه ورجالته إلى أطراف أعمال حلب فتوجّه إليه الأمير أسوار النائب بحلب فيمن عنده من العسكر وانضمّ إليهم كثير من التركمان فاشتبكوا بعضهم مع بعض عند قنسرين وقُتل من الطرفين عدد كبير وهُزم المسلمون إلى حلب وتجوّل ملك الصليبيين في أعمال حلب فعاد الأمير أسوار

وخرج إليه فيمن معه من العسكر فوقع على جماعةٍ منهم وأكثر القتل فيهم والأسر فرجع منهزماً من سلم منهم إلى المناطق التي خرجوا منها.

وقصد جماعة من الصليبيين من الرها أعمال حلب للإغارة عليها ونهبها فسمع بهم الأمير أسوار فخرج إليهم هو والأمير حسان البعلبكي فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم وأسروا من نجا ورجعوا إلى حلب سالمين.

عبر نهر الفرات جموع كثيرة من التركمان اجتمعوا من بلاد الجزيرة الفراتية وانتقلوا إلى الشام وقصدوا طرابلس وأغاروا على ضواحيها فقتلوا كثيراً من الصليبيين وغنموا كثيراً فخرج إليهم صاحب طرابلس الصليبي في جموعه فتراجع التركمان أمامه فتبعهم فالتفتوا إليه وقاتلوه وهزموه وأكثروا القتل في عسكره ومضى هو ومن سلم معه إلى قلعة بعرين[1] فتحصّنوا فيها وامتنعوا عن التركمان فحاصرهم التركمان بها فلما طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارساً من كبار أصحابه فنجوا وساروا إلى طرابلس

---

(١) بعرين: بليدة بين حمص وطرابلس.

وتركوا الباقين في قلعة بعرين يحفظونها، فلما وصل صاحب طرابلس الصليبي إلى مقره في طرابلس كاتب الصليبيين فاجتمع عنده عدد كثير منهم فتوجّه بهم نحو التركمان ليُبعدهم عن بعرين، فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوا بهم، وقتل بينهم عدد كبير من الفريقين، وأشرف الصليبيون على الهزيمة فانسحبوا واتجهوا إلى رفنية فتعذر على التركمان اللحاق بهم لغربتهم فعادوا عنهم راجعين.

أغار الأمير سوار مقدم عسكر عماد الدين زنكي بحلب على سواد تل باشر فغنم الكثير فخرج إليه الصليبيون في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٢٧هـ وكانت جموعهم كثيرة فقاتلوه فانتصر عليهم ـ بإذن الله ـ وأكثر فيهم القتل وكان عدد القتلى منهم نحو ألف قتيل وعاد هو إلى حلب سالماً.

سار شمس الملوك إسماعيل صاحب دمشق في شهر المحرم سنة ٥٢٨هـ إلى جبل الشقيف المشرف على صيدا وكان بيد الضحّاك بن جندل رئيس وادي التيم والفرق الباطنية هناك، واستطاع شمس الملوك التغلّب عليه والسيطرة على ذاك الجبل وقد أزعج ذلك الصليبيين إذ أن الضحاك بن جندل كان أقرب إليهم ولا

يعترض على شيء تحت سيطرتهم أما الآن فإنهم خافوا شمس الملوك لذا فقد جمعوا عسكرهم وساروا إلى حوران وأخذوا يُخرّبون البلدان وينهبون الأماكن، ولما رأى شمس الملوك أعداءه الصليبيين يجمعون العساكر بدأ هو يجمع عسكره ويستعدّ وانضمّ كثير من التركمان إليه فنزل مقابل الصليبيين وجرت بينهم مناوشة عدة أيامٍ، ثم إن شمس الملوك قد نهض ببعض عسكره وترك الباقي مقابل الصليبيين وهم لا يشعرون وقصد طبرية والناصرة وعكا وما يجاورها من البلدان التي تخضع لسيطرة الصليبيين وأخذ يخرّب ويحرق وينهب ويسبي، ووصل الخبر إلى الصليبيين فارتحلوا مباشرةً إلى مناطقهم، ورجع شمس الملوك إلى عسكره على غير الطريق التي سلكها الصليبيون فوصل إلى عسكره سالماً ورأى الصليبيون البلدان التي يسيطرون عليها خراباً ففتّ ذلك في عضدهم وراسلوا شمس الملوك في تجديد الهدنة بينهم فهادنهم في شهر ذي القعدة سنة ٥٢٨هـ.

الباطنية

الباطنية هي ما يُبطن أتباعها أمراً ويظهرون غيره، وينضوي تحت هذا الاسم عدة مجموعاتٍ تختلف فيما

بينها ببعض الجوانب ويتباين بعضها عن بعض بالمرامي البعيدة التي تسعى إليها ولكنها تتفق في التهديم والعمل على إضعاف الأمة المسلمة ليمكن القضاء عليها وعندها يمكن تأمين إصابة المرمى والوصول إلى الهدف وكان أسلوب العمل لإضعاف الأمة المسلمة هو إثارة الفتن بين المسلمين والوقوف إلى جانب الفريق الأضعف ليتعادل الفريقان وتكون الضحايا أكثر، واستمرار الفتنة أطول، والأحقاد أشدّ أثراً وأبقى زمناً، ولتعليل الوقوف إلى جانب الفريق الذي يقفون معه يدّعون أنهم مثلهم دعاةً إلى أسرةٍ من آل بيت رسول الله ﷺ، وهم بهذا الادعاء يكسبون أيضاً عواطف المسلمين محبةً لنبيّهم الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، أو يدّعون أنهم ينتسبون إلى ذلك، وهم بهذا الادعاء يملكون القيادة وفي الوقت نفسه يمكنهم دسّ تعاليم بعيدةٍ عن الإسلام بل وخارجةٍ عنه للتهديم في العقيدة.

لقد نشطت الباطنية في المرحلة التاريخية السابقة أيام سيطرة بني بويه على الخلافة العباسية حيث كانت الإمارات ذات النفوذ في أكثر الأمصار الإسلامية من الباطنية، فالسامانيون يدعون العمل لأبناء محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، والعبيديون يسمّون أنفسهم

الفاطميين نسبةً إلى فاطمة الزهراء رضي الله عنها، بنت رسول الله ﷺ، والقرامطة يدّعون العمل بالنهوض بالفقراء وطُلّاب الشهوة، والبويهيون أصحاب السلطة الرئيسة وأهل النفوذ في الخلافة الإسلامية يدّعون العمل للطالبيين، ويُظهر هؤلاء جميعاً الإسلام والالتزام به وما هم إلا من الذين أسلموا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ـ والله أعلم بما في القلوب ـ وأولهم أعلاهم مكانةً وأوسعهم نفوذاً وهم البويهيون الذين ما أن تسلّموا السلطنة حتى تسمّوا بالأسماء الجاهلية الفارسية إشارةً لرفضهم الأسماء الإسلامية ودلالتها، وكانوا وراء الفتن التي تُثار بأيامٍ محدّدةٍ ومصدر الدسائس التي تُحاك، أما الحمدانيون فكانوا أصحاب عاطفةٍ لكن لم يلبثوا أن تقبّلوا الدسائس التي وضعت وغدوا كغيرهم، ويعملون لتحقيق أهداف غيرهم دون أن يكون لهم أهداف خاصة بالهدم كضرب الإسلام وبثّ السموم.

ومع زوال هذه الإمارات تفرّقت قوى الباطنية وابتعد أصحاب العواطف عن أصحاب الأهداف، وقد يتحرك صاحب هدفٍ حاقدٍ فيقوم بجريمة قتلٍ لقائدٍ مجاهدٍ دوّخ الصليبيين أو أميرٍ عمل لوحدة الأمة فكان هؤلاء ضحاياهم وهذه هي أهدافهم فعواطفهم إلى

الصليبيين أقرب وقلوبهم إلى جانبهم أكثر ميلاً إذ يجمعهم هدف ضرب الإسلام. وقد تلتقي جماعة منهم للقيام بضربةٍ أكبر أو للعمل على السيطرة على حصنٍ منيعٍ أو قلعةٍ حصينةٍ في سبيل تشكيل نواةٍ لإمارةٍ يحلمون بها، ولكن كانوا يفشلون بهذا كله بل تأتيهم ضربة أو تحلّ بهم نكبة حيث عرف الناس سوء تصرّفاتهم وإفسادهم وأهدافهم وصلتهم بأعداء الأمة من صليبيين وغيرهم. وبقي هذا ديدن الباطنية حتى ظهر المغول المجوس في مشرق ديار الإسلام فوقفت الباطنية إلى جانبهم وكذا المتلوّنون فكانوا عيوناً لهم ثم سيوفاً بأيديهم حتى سقطت بغداد قاعدة الخلافة الإسلامية بيد المغول الوثنيين فعمّت البهجة الباطنية والمتلوّنين وحلّت الفاجعة بالمسلمين فيجب أن ننتبه إلى الأسباب ونعرف الأبعاد وندرك الأهداف الحقيقية وراء هذه المواقف التي جعلت الأدعياء يقفون مع الأعداء والذين يُظهرون الإسلام يُساعدون الكفار.

ومن بعض من قتلت الباطنية في هذه المرحلة:

وزير السلطان محمود وهو الكمال أبو طالب السميري وقد خرج يريد السفر مع السلطان محمود إلى همذان في نهاية شهر صفر سنة ٥١٦هـ فوثب عليه أحد

أفراد الباطنية وضربه بسكينٍ فوقعت في البغلة وهرب فتبعه غلمان الوزير فخلا الموضع فظهر رجل آخر فضربه بسكينٍ في خاصرته وجذبه عن البغلة إلى الأرض وضربه عدة ضرباتٍ، وعاد أصحاب الوزير فحمل عليهم رجلان من الباطنية فانهزموا منهما.

صاحب الموصل قسيم الدولة آقسنقر البرسقي كان يصلي الجمعة يوم الثامن من شهر ذي القعدة سنة ٥١٩هـ، وكان في الصف الأول فوثب عليه بضعة عشر باطنياً وقتلوه، وقُتل المجرمون.

وزير السلطان سنجر وهو معين الملك أبو نصر أحمد بن الفضل قتلته الباطنية سنة ٥٢١هـ إذ وقف في وجههم وقاتلهم.

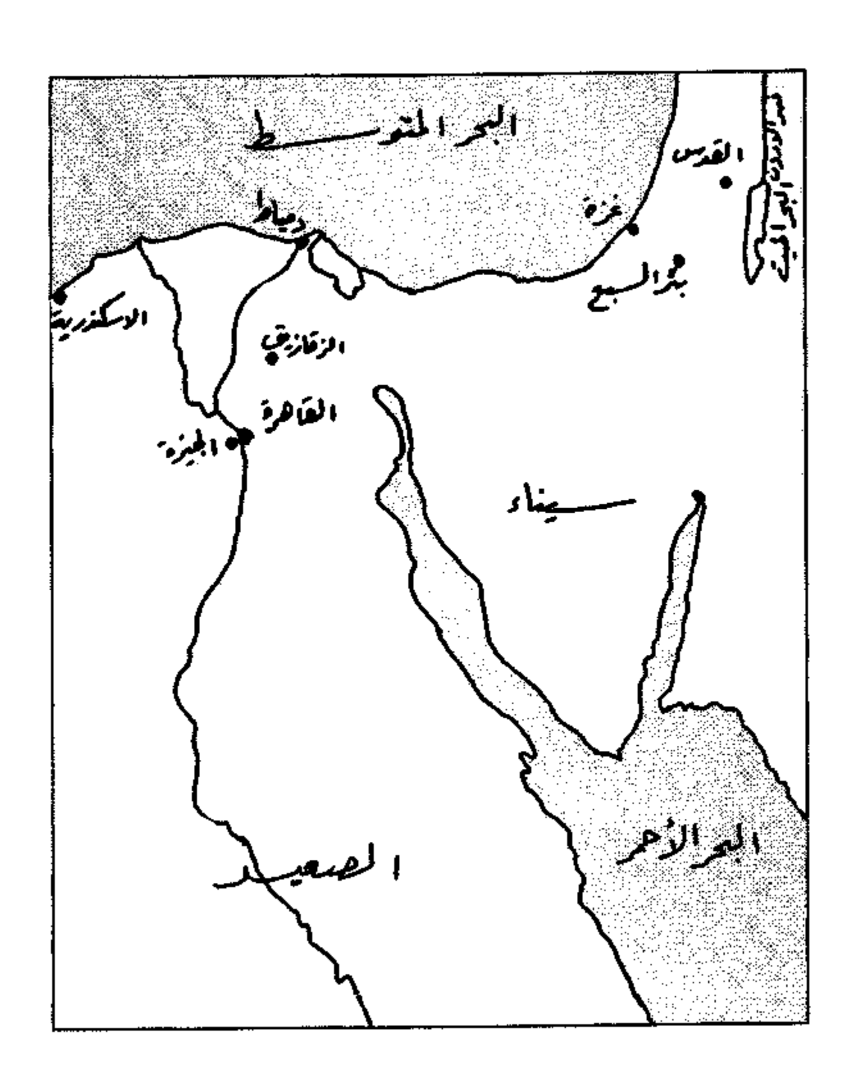
رئيس الشافعية بأصبهان عبد اللطيف بن الخجندي قتلته الباطنية سنة ٥٢٣هـ.

راسل المزدقاني أحد كبار الباطنية بدمشق الصليبيين ليُسلّمهم مدينة دمشق فقتله صاحب دمشق تاج الملوك بوري بن طغتكين.

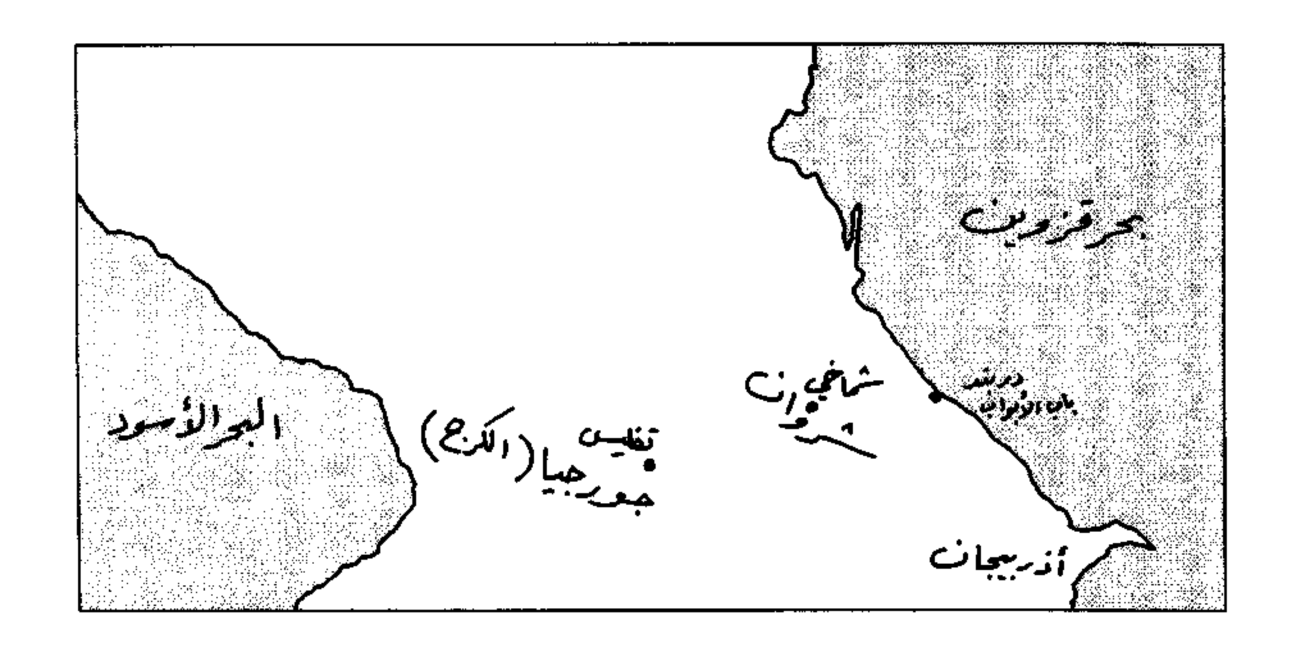
ثارت الباطنية سنة ٥٢٥هـ بتاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق فجرحوه جرحين فبرأ جرح وبقي الآخر وكان سبب موته في ٢١ رجب سنة ٥٢٦هـ ـ والله أعلم ـ.

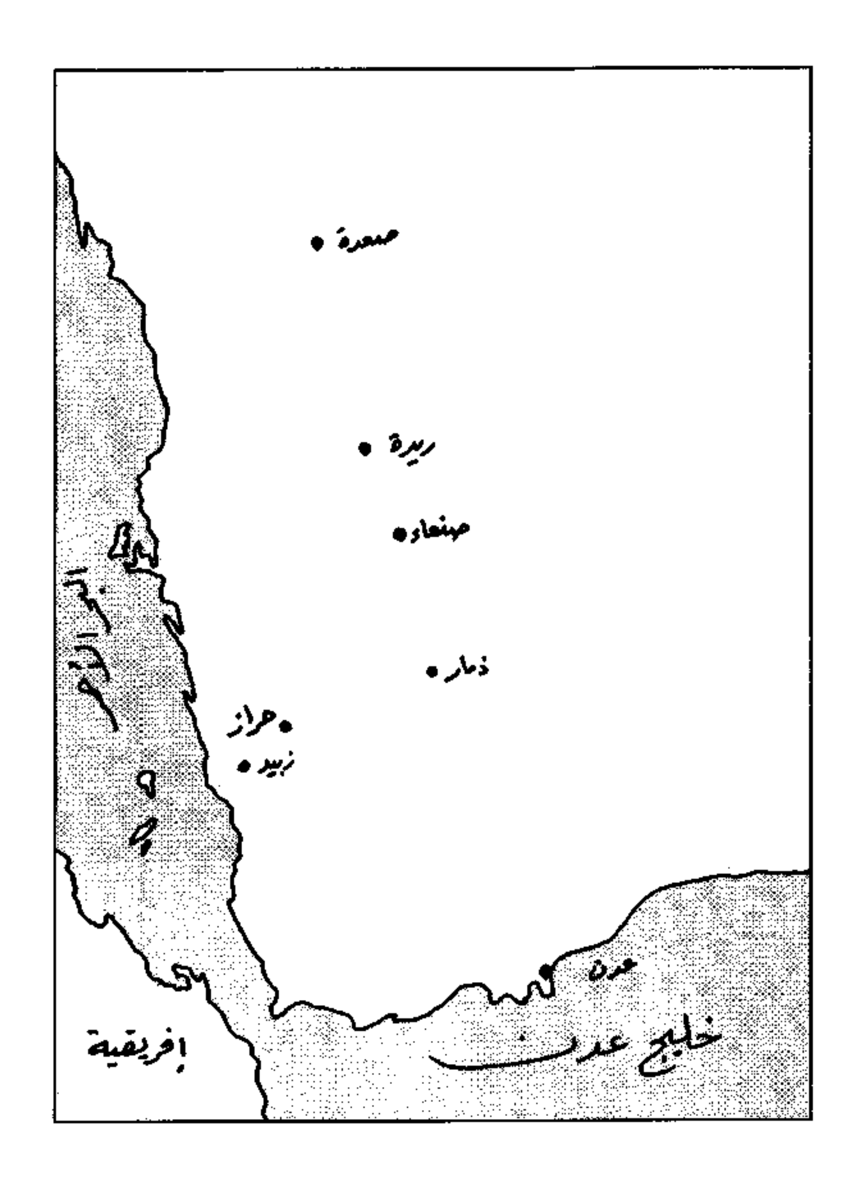
حمل عشرة من الباطنية على الخليفة المسترشد بالله وهو في خيمته فقتلوه وقطّعوه قطعاً وذلك يوم الأحد السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ.

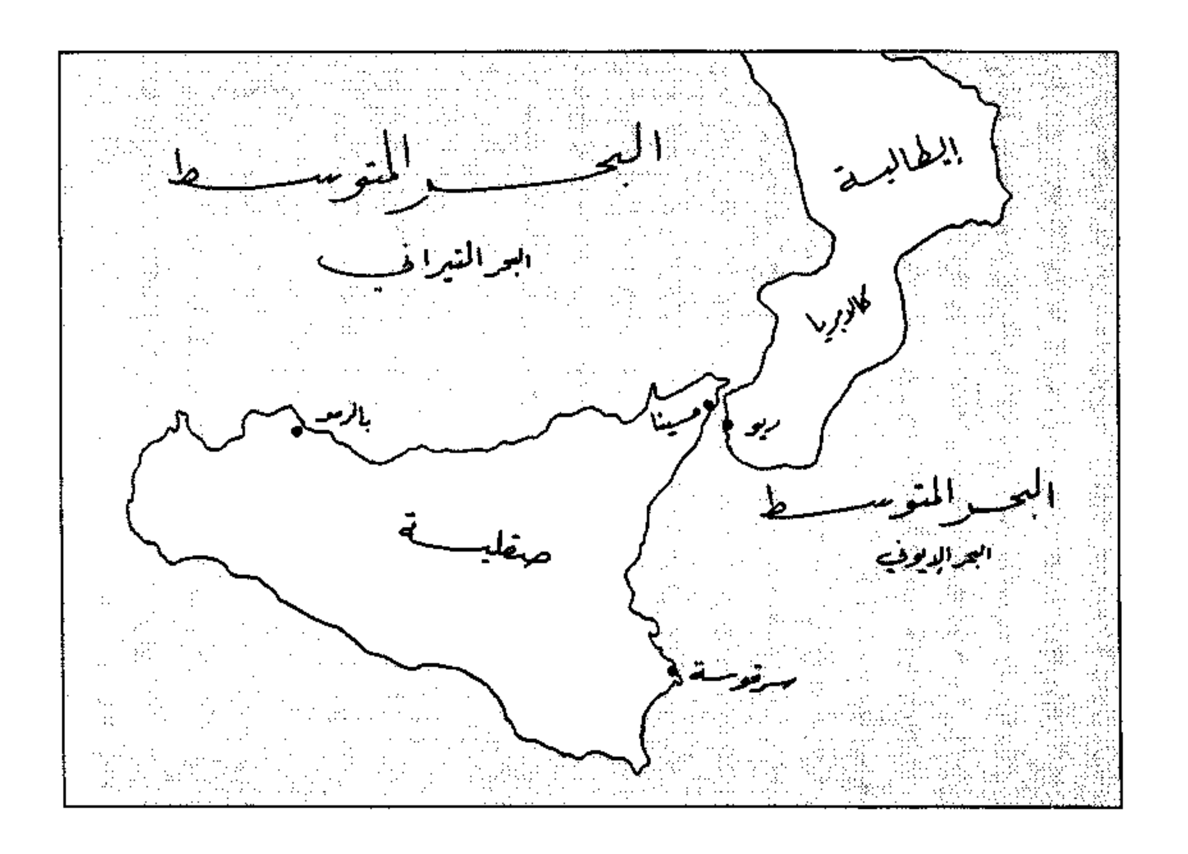
وثبت جماعة من الباطنية من خراسان على الخليفة الراشد بالله وقتلوه، وكانوا في خدمته، وذلك في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٣٢هـ، وهو يريد القيلولة، وكان في أعقاب مرضٍ قد برئ منه، وقُتلوا جميعاً.



البحر المتوسط
دمياط
القدس
غزة
بئر السبع
الإسكندرية
الزقازيق
القاهرة
الجيزة
سيناء
البحر الأحمر
الصعيد


بحر قزوين
دربند
باب الأبواب
شماخي
شروان
أذربيجان
تفليس
جورجيا (الكرج)
البحر الأسود


صعدة
ريدة
صنعاء
ذمار
حراز
زبيد
عدن
خليج عدن
إفريقية


البحر المتوسط
البحر التيراني
إيطاليا
كالابريا
بالرمو
مسينا
ريو
صقلية
البحر المتوسط
البحر الإيوني
سرقوسة

الفصل الخامس

٤٧ - الراشد بالله

٥٢٩ - ٥٣٠ هـ

الراشد بالله هو الخليفة أبو جعفر منصور بن الفضل المسترشد بالله بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفّق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عمّ رسول الله ﷺ.

(٤٣) القائم بأمر الله
|
محمد
|
(٤٤) المقتدي بأمر الله.
|
(٤٥) المستظهر بالله.
|
(٤٦) المسترشد بالله.
|
(٤٧) الراشد بالله.

الراشد بالله قبل الخلافة:

ولد سنة اثنتين وخمسمائة للهجرة، وأمه أم ولد، ويقال: إنه ولد مسدوداً دون مخرج، فأحضروا الأطباء، فأشاروا أن يُفتح له مخرج بآلةٍ من ذهبٍ، ففُتق له ذلك، فنفع ـ بإذن الله ـ ولم يكن له دور قبل الخلافة.

خُطب له بولاية العهد سنة ثلاث عشرة وخمسمائةٍ للهجرة، وكان عمره يومذاك إحدى عشرة سنةً.

خلافة الراشد بالله:

بويع للخليفة الراشد بالله بعد مقتل أبيه يوم الأحد السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ على باب مراغة في أذربيجان، وأرسل السلطان مسعود إلى متولّي بغداد أن يبايع له، وحضر الناس البيعة وحضر بيعته واحد وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب[1] ووعظه وبالغ في الموعظة.

---

(١) أبو النجيب، عبد القاهر بن عبد الله بن محمد بن عمويه، واسم عَمُّويه عبد الله بن سعد بن الحسن بن القاسم بن علقمة بن النضر بن معاذ ابن الفقيه عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق: ولد في سهرورد سنة ٤٩٠هـ، وقدم بغداد سنة ٥١٠هـ، تفقّه في المدرسة النظامية، وتأدّب=

القتال بين عسكر الخليفة وعسكر السلطان:

أرسل السلطان مسعود إلى الخليفة برنقش الزكوي يُطالبه بما استقرّ على الخليفة السابق المسترشد بالله من المال وهو أربعمائة ألف دينارٍ فأجابه الخليفة الراشد: إنه لا شيء عنده وأن المال جميعه كان مع الخليفة المسترشد بالله فنُهب.

بلغ الخليفة الراشد بالله أن برنقش الزكوي يريد الهجوم على دار الخلافة وتفتيشها ليأخذ المال، فجمع الخليفة العساكر وجعل عليهم أميراً، وأعاد عمارة سور دار الخلافة، فلما علم برنقش بذلك اتفق هو ومتولي بغداد وهو من أمراء السلطان على أن يهجموا على دار الخلافة يوم الجمعة فوصل الخبر إلى الخليفة الراشد بالله فاستعدّ لمنعهم، وركب برنقش الزكوي ومعه عسكر السلطان وعدد من الأمراء في نحو خمسة آلاف فارس، ولقيهم عسكر الخليفة فأخرجوا عسكر السلطان من دار السلطان فساروا إلى طريق خراسان ثم سار بهم قائدهم إلى واسط، ونهبت العامة دار السلطان.

= على الفصحى، ويعدّ من فقهاء الشافعية، ومن أعلام الصوفية، ودرّس في النظامية سنة ٥٤٥هـ، ومات ببغداد سنة ٥٦٣هـ.

اجتمع كثير من الأمراء على حرب مسعود والخروج عن طاعته. فسار الملك داود بن السلطان محمود، وداود ابن أخي السلطان مسعود، سار في عسكر أذربيجان إلى بغداد فوصل إليها في الرابع من شهر صفر سنة ٥٣٠هـ، ووصل عماد الدين زنكي صاحب الموصل بدعوةٍ من الخليفة، كما وصل إلى بغداد برنقش بازدار صاحب قزوين، وصاحب أصفهان، وصدقة بن دبيس صاحب الحلّة ومعه عنتر بن أبي العسكر، وابن برسق، وابن الأحمديلي كما خرج إليهم عسكر بغداد، وجعل الملك داود في متولية بغداد برنقش بازدار، وقبض الخليفة على بعض أعيان دولته، وقطعت خطبة السلطان مسعود وخُطب للملك داود، وأرسل الخليفة إلى عماد الدين زنكي مائتي ألف دينارٍ لينفقها، وحثّ عماد الدين زنكي على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود، ووصلت الأخبار بمسير السلطان مسعود إلى بغداد، وخرج عماد الدين زنكي من بغداد ثم رجع، وغادرها الملك داود، وأظهر أنه يريد المضي إلى مراغة إذا فارق السلطان مسعود همذان.

برز الخليفة الراشد بالله إلى ظاهر بغداد في الأول من شهر رمضان سنة ٥٣٠هـ وسار إلى طريق خراسان

ثم عاد بعد ثلاثة أيامٍ ونزل عند جامع السلطان ثم دخل بغداد في الخامس من شهر رمضان سنة ٥٣٠هـ، وأرسل إلى الملك داود وسائر الأمراء يأمرهم بالعودة إلى بغداد فعادوا ونزلوا في الخيام وعزموا على قتال السلطان مسعود من داخل سور بغداد، ووصلت رسل السلطان مسعود يبذل من نفسه الطاعة والموافقة للخليفة والتهديد لمن اجتمع عنده، فعرض الخليفة الرسالة عليهم فكلهم رأى قتاله، فقال لهم الخليفة: وأنا أيضاً معكم على ذلك.

لما بلغ السلطان مسعود ما تمّ في بغداد جمع العساكر وسار إلى بغداد فنزل بالملكية، فسار بعض العسكر من بغداد حتى شارفوا عسكره وطاردوهم، وكان في الجماعة أحد أمراء عماد زنكي وهو زين الدين علي، وبعد المطاردة رجع عساكر بغداد، ووصل السلطان مسعود فنزل على بغداد وحاصرها والعساكر جميعهم فيها، واستمرّ حصاره نيفاً وخمسين يوماً فلم يظفر بهم فعاد إلى النهروان عازماً العودة إلى همدان فوصل إليه نائب واسط ومعه سفن كثيرة فعاد إليها وعبر فيها إلى غربي دجلة، وحاول عسكر بغداد منعه فسبقهم وعبر.

اختلفت كلمة عساكر بغداد فعاد الملك داود إلى أذربيجان في شهر ذي القعدة وتفرّق الأمراء، وكان عماد الدين زنكي بالجانب الغربي فانتقل إليه الخليفة الراشد بالله وسار معه إلى الموصل في نفرٍ يسيرٍ من أصحابه، فلما بلغ السلطان مسعود خبر مغادرة الخليفة وعماد الدين زنكي بغداد سار إليها واستقر بها ومنع أصحابه من الأذى والنهب، وكان دخوله إليها في منتصف شهر ذي القعدة سنة ٥٣٠هـ، فسكن الناس واطمأنوا بعد الخوف من وقوع الحرب في بلدهم.

جمع السلطان مسعود القضاة والعلماء والأعيان وطلب منهم خلع الخليفة الراشد بالله وما كان باستطاعتهم أن يقولوا سوى الإجابة، فتقدّم السلطان مسعود بخلعه، وقطع الخطبة له في بغداد وسائر البلدان وذلك في شهر ذي القعدة سنة ٥٣٠هـ، فكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً. واستشار السلطان جماعةً من أعيان بغداد فيمن يصلح للخلافة، فقال الوزير علي بن طراد: أحد عمومة الراشد وهو رجل صالح، قال: من هو؟ قال: من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يُقتل. ثم ذكر الوزير للسلطان أنه أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله.

الأحداث أيام الراشد بالله:

كانت مدينة حمص بيد أولاد الأمير خيرخان بن قراجا، ولم تكن لهم تلك القوة القتالية فكان عسكر عماد الدين زنكي صاحب حماة وحلب يتعرّضون لسكان حمص وأعمالها ويسيئون بالنهب والقتل فراسل أصحاب حمص شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري[١] صاحب دمشق على أن يسلّموه حمص ويعطيهم عوضاً عنها تدمر فأجابهم إلى ذلك وسار إليها وتسلّمها منهم في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٣٠هـ وسلّم إليهم تدمر، وأقطع حمص مملوك جده معين الدين أُنُر[٢]، وجعل فيها نائباً عنه ممن يثق به من

---

(١) شهاب الدين محمود بن تاج الدين الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق، تسلّم ولاية دمشق بعد مقتل أخيه إسماعيل بمعاونة أمه زُمرّد. وكانت أمور الولاية تجري في أيامه على استقامةٍ إلى أن وثب عليه جماعة من خدمه فقتلوه في شوال سنة ٥٣٣هـ، وجاء أخوه من بعلبك فتسلّم دمشق دون منازعة.

(٢) معين الدين أُنُر الطغتكيني: ملك الأمراء بدمشق، أمير سائس، شجاع، مهيب، سديد الرأي دبّر دولة أولاد سيّده طغتكين، كان يحب العلماء والصالحين، ويبذل المال، كان الصليبيون يخافونه، توفي سنة ٥٤٤هـ. وابنته عصمة الدين الخاتون، واقفة المدرسة الخاتونية تزوج بها الملك محمود نور الدين بن عماد الدين زنكي، وكان مملوكاً للملك طغتكين، وطغتكين=

أعيان أصحابه وعاد عنها إلى دمشق.

لما رأى عسكر عماد الدين زنكي بحماة وحلب خروج حمص عن أيديهم تابعوا الغارات على مدينة حمص والنهب منها فجرى بينهم عدة وقائع، فأرسل شهاب الدين محمود إلى عماد الدين زنكي بسوء ما يجري فاستقرّ الصلح بينهم وكفّ كل منهم عن صاحبه.

اجتمعت عسكر عماد الدين زنكي صاحب حماة وحلب مع نائبه على حلب سوار وساروا إلى الصليبيين على حين غفلةٍ منهم وقصدوا أعمال اللاذقية ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز فقتل عسكر عماد الدين زنكي وأسروا ونهبوا الكثير فكان عدد الأسرى سبعة آلافٍ ما بين رجلٍ وامرأةٍ وصبيٍّ، وكان من الغنائم ما يزيد على مائة ألف رأسٍ من الدواب ما بين فرسٍ وحمارٍ وبغلٍ وبقرٍ وغنمٍ إضافةً إلى الأقمشة والأمتعة والحلي التي لا تُحدّ، كما أنهم خرّبوا بلد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها إلا القليل، وخرجوا إلى شيزر بما معهم من الغنائم سالمين وذلك في منتصف شهر رجب سنة ٥٣٠هـ،

= من غلمان تتش بن ألب أرسلان السلجوقي.

وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً، ولم يستطع الصليبيون على شيءٍ يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزاً منهم ووهناً وضعفاً.

مقتل الخليفة الراشد بالله:

لما بلغ الخليفة الراشد، وهو بالموصل، أن الخطبة له قد قُطعت في بغداد والبلدان جميعها تألّم كثيراً وخرج من الموصل إلى أذربيجان واتجه نحو مراغة ومعه جماعة عاثت في طريقها الفساد، ثم مضى إلى همذان وفيها الملك داود، ثم سار مع الملك داود إلى خوزستان (الأهواز) ومعهما خوارزمشاه، فخرج السلطان مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود مع أصحابه إلى أذربيجان، ورجع خوارزمشاه مع رجاله إلى بلاده، وبقي الخليفة الراشد بالله وحده مع بعض أعوانه فسار إلى أصفهان، وقد أصابه المرض هناك فلما كان الخامس والعشرون من شهر رمضان سنة ٥٣٢هـ وثب عليه جماعة من الباطنية من خراسان كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة، وهو في أعقاب مرضٍ قد برئ منه، ودُفن بظاهر أصبهان، فركب من معه فقتلوا الباطنية. ولما وصل الخبر إلى بغداد جلسوا للعزاء به يوماً واحداً.

شخصية الراشد بالله:

كان أبيض مليحاً، تام الشكل، وكان فصيحاً، أديباً، شاعراً، شجاعاً، سمحاً، جواداً، حسن السيرة، يؤثر العدل، ويكره الشرّ.

كان شديد البأس قويّ الأيدي، يقال: إنه كان بدار الخلافة ثور عظيم اعترضه في البستان، فأحجم الخدم، فهجم الراشد على الثور، وأمسك قرنيه ورماه، وطلب منشاراً فقطع قرنيه.

قال العماد الكاتب: كان للراشد الحُسْنُ اليوسفي، والكرم الحاتمي.

قال أبو الحسن البيهقي في «وشاح دمية القصر» الراشد بالله أعطاه الله مع الخلافة صورةً يوسفيةً، وسيرةً عمريّةً.

أنشدني رسوله له:

زمان قد اسْتَنَّتْ فِصال صُروفه
وذلَّلَ آسادَ الكرام لذي القرعى
أَكولَتُه تشكو صروف زمانه
وليس لها مأوى وليس لها مرعى
فيا قلب لا تأسف عليه فربّما
ترى القوم في أكناف أفنائه صرعى

وله قصيدة طويلة منها:

أقسم بالله وهل خليفة
يحنث إن أقسم في اليمين
لأتَّزِرَنَّ في الحروب صادقاً
لأكشف العار الذي يعلوني
مَشَمِّراً عن ساق عزمي طالباً
ثأر الإمامِ الوالد الأمين
عُمْري عُمْري والذي قُدِّرَ لي
ما ينمحي المكتوب عن جبيني

قال أبو طالب بن عبد السميع: من كلام الراشد: إنّا نكره الفتن إشفاقاً على الرعيّة، ونؤثر العدل والأمن في البريّة، ويأبى المقدور إلا تصعُّب الأمور، واختلاط الجمهور، فنسأل الله على لمّ شعث الناس بإطفاء نائرة البأس.

لم تؤخذ البردة والقضيب من الخليفة الراشد بالله حتى قُتل، فأحضر بعد قتله إلى عمّه المقتفي لأمر الله الخليفة الذي بويع بعده.

عاش الخليفة الراشد بالله ثلاثين سنةً، ولد سنة ٥٠٢هـ، وقُتل سنة ٥٣٢هـ.

الفصل السادس

٤٨ - المقتفي لأمر الله

٥٣٠ - ٥٥٥ هـ

المقتفي لأمر الله هو الخليفة أبو عبد الله محمد بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عمّ رسول الله ﷺ.

(٤٣) القائم بأمر الله.
|
محمد
|
(٤٤) المقتدي بأمر الله.
|
(٤٥) المستظهر بالله.

(٤٦) المسترشد بالله. ― (٤٨) المقتفي لأمر الله.
|
(٤٧) الراشد بالله.

المقتفي لأمر الله قبل الخلافة:

ولد في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٤٨٩هـ، وأمه حبشية، وقد تزوج ابنة الوزير في أيام خلافة أبيه.

لم يكن للمقتفي لأمر الخلافة أي دورٍ بارزٍ.

وسار الخليفة الراشد إلى الموصل وقدم السلطان مسعود السلجوقي بغداد، واجتمع القضاة والأعيان وخلعوا الراشد.

قال السديد بن الأنباري: نفّذ السلطان مسعود إلى عمّه سنجر: من نستخلف؟ فكتب إليه: لا تولّ إلا من يضمنه الوزير، وصاحب المخزن، وابن الأنباري. قال: فاجتمع بنا مسعود، فقال الوزير: نولّي الدَّيِّنَ الزاهدَ محمد بن المستظهر. قال: تضمنه؟ قال: نعم، وكان صهراً للوزير على بنته تزوّج بها في دولة أبيه.

خلافة المقتفي:

لما قُطعت خطبة الراشد بالله استشار السلطان جماعةً من أعيان بغداد منهم الوزير علي بن طراد[1]

---

(١) علي بن طراد بن محمد بن علي الزينبي الهاشمي، أبو القاسم شرف الدين: ولد عام ٤٦٢هـ، وزير من العقلاء العارفين=

وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلي الخلافة، فقال الوزير: أحد عمومة الراشد، وهو رجل صالح، قال: من هو؟ قال: من لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يُقتل.

تقدّم السلطان إليهم بعمل محضرٍ في خلع الخليفة الراشد بالله فعملوا محضراً ذكروا فيه بعض ما ارتكبه، ثم كتبوا فتوى بقول العلماء، ولم يكن قاضي القضاة حاضراً إذ كان عند عماد الدين زنكي بالموصل.

حضر السلطان مسعود دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزيبي، وصاحب المخزن البقشلاني وغيرهما وأمر بإحضار الأمير أبي عبد الله محمد بن أحمد المستظهر بالله من المكان الذي يسكن فيه فأحضر وأجلس في الميمنة ودخل السلطان إليه والوزير وتحالفا

= بسياسة الملك وتدبيره، ولّاه الخليفة العباسي المستظهر بالله نقابة النقباء ولُقّب بـ(الرضى ذي الفخرين) أي النقابة والفضل. ثم استوزره الخليفة المسترشد بالله وخلع عليه سنة ٥٢٣هـ. قال ابن الأثير: ولم يوزر للخلفاء من بني العباس هاشمي غيره. ولما صارت الخلافة إلى المقتفي لأمر الله، والخليفة زوج ابنته، حدثت بينهما وحشة كان سببها اعتراضه الخليفة في شؤون أمر بها، فاستقال سنة ٥٣٤هـ، ولزم بيته ببغداد إلى أن توفي سنة ٥٣٨هـ.

وقرر الوزير القواعد بينهما، وخرج السلطان من عنده وحضر الأمراء والقضاة والفقهاء وأصحاب المناصب والأعيان وبايعوا في الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٣٠هـ، ولُقّب المقتفي لأمر الله، قيل سبب اللقب: إنه رأى النبيّ ﷺ، في المنام قبل أن يلي الخلافة بستة أيامٍ وهو يقول له: إن هذا الأمر يصير إليك فاقتف بي، فلُقّب بذلك. ولما استخلف سيّرت الكتب بخلافته إلى سائر الأمصار.

استوزر شرف الدين أبا القاسم علي بن طراد الزينبي فأرسله إلى الموصل وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم علي بن الحسين الزينبي ابن عم الوزير، وأعاده إلى منصبه، وأقرّ كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن، وجرت الأمور على أحسن نظامٍ، وقيل: إن السلطان مسعود أرسل إلى الخليفة المقتفي لأمر الله في تقرير إقطاعٍ يكون لخاصته فكان جوابه: إن في الدار ثمانين بغلاً تنقل الماء من دجلة فلينظر السلطان ما يحتاج إليه من يشرب هذا الماء ويقوم به، وتقرر على أن يجعل ما كان للمستظهر بالله فأجاب إلى ذلك، وقال السلطان لما بلغه قوله: لقد جعلنا في الخلافة رجلاً عظيماً.

وأخذ السلطان مسعود كل حواصل دار الخلافة حتى لم يدع في إصطبل الخلافة سوى أربعة أفراسٍ وثمانية بغالٍ. فقيل: بايعوا المقتفي على أن لا يكون عنده خيل ولا عدة سفرٍ. ثم صادر السلطان مسعود أهل بغداد، فخرج إليه ابن الكوّاز الزاهد، ووعظه، فترك ولم يدع للخليفة سوى العقار، ثم تزوج الخليفة بأخت مسعود فاطمة بنت محمد بن ملكشاه.

ووقع قتال بين قوات السلطان مسعود وبين عساكر أذربيجان ومعهم الخليفة المخلوع، وكتب الخليفة المقتفي لأمر الله لعماد الدين زنكي صاحب الموصل بعشرة بلادٍ، وأن لا يُعين الراشد، فخُطب بالموصل للمقتفي لأمر الله، فبعث الراشد يقول لعماد الدين زنكي: غدرت، قال: ما لنا طاقة بمسعود. وفارق الراشد وزيره ابن صدقة، وفلّ جمعه، وسار إلى مراغة، وبكى عند قبر أبيه، وحثا التراب على رأسه، فثار معه أهل مراغة وبذلوا له الأموال، وقوي بالملك داود، وجرى القتال مع مسعود، وانتصر داود.

وأعيدت إلى المقتفي ضياعه ومعاملاته وتمكّن. وتزوّج السلطان مسعود بسفرى بنت دبيس الأسدي، وأُغلقت بغداد للعرس أسبوعاً سنة ٥٣٢هـ.

وظهر أمر الخليفة المخلوع الراشد من جديدٍ، ولكن قتلته الباطنية، وصفا الجو للمقتفي لأمر الله.

وعزل السلطان مسعود وزيره شرف الدين أنو شروان بن خالد[١]، فعاد إلى بغداد، وقام بداره معزولاً، واستوزر من بعده كمال الدين أبو البركات بن سلمة الزركزيني وهو من خراسان.

سار قره سنقر في عساكر كثيرة في طلب الملك داود بن السلطان محمود، وأقام السلطان مسعود ببغداد، ولم يزل قره سنقر يطلب داود حتى أدركه عند مراغة فالتقيا واقتتل العسكران قتالاً شديداً فانهزم داود، وأقام قره سنقر بأذربيجان، وأما داود فإنه قصد خوزستان فاجتمع عليه هناك عساكر كثيرة من التركمان وغيرهم فبلغ عددهم نحو عشرة آلاف فارسٍ فقصد مدينة تُسْتَر وحاصرها، وكان عمه الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد بواسط فأرسل إلى أخيه السلطان مسعود يستنجده فأمدّه بالعساكر فسار إلى داود وهو يحاصر تُسْتَر فاقتتلا فانهزم سلجوق شاه.

---

(١) أنو شروان بن خالد، أبو نصر القاشاني: وزر للخليفة المسترشد بالله، ووزر للسلطان محمود بن محمد، كان عاقلاً سائساً رزيناً، حسن السيرة، محباً للعلماء، روى عنه الحافظ ابن عساكر، لزم المنزل، وتوفي سنة ٥٣٢هـ.

الإمارات

١" ـ السلاجقة:

في شهر المحرم من سنة ٥٣١هـ أذن السلطان مسعود للعساكر التي عنده ببغداد بالعودة إلى بلدانهم وذلك بعد أن بلغه أن الخليفة المخلوع الراشد قد فارق عماد الدين زنكي من الموصل إذ كان يتمسّك بالعساكر خوفاً من مسير الراشد وعماد الدين زنكي إلى بغداد فلما افترقا زال خوفه، وعندما أراد أن يأذن للأمير صدقة بن دبيس صاحب الحلّة زوّجه ابنته تمسّكاً به.

وقدم على السلطان مسعود جماعة من الأمراء الذين حاربوه مع الملك داود ومنهم: برسق بن برسق صاحب تستر، وسنقر الخمارتكين متولي همدان، والبقش السلاحي، فرضي عنهم وأمنهم وولى البقش السلاحي ولاية بغداد فظلم الناس، وبقي عند السلطان مسعود ألف فارس.

وسار عماد الدين زنكي صاحب حماة وحلب إلى حمص وقدّم إليها حاجبه صلاح الدين محمد الباغيسياني وهو أكبر أمير معه وكان ذا مكرٍ وحيل، أرسله ليتوصل مع من فيها ليسلّموها إليه، فوصل إليها وحاكمها وواليها معين الدين أنر وهو أيضاً أكبر أمير

بدمشق وحمص وهي أقطاعه، فلم يفد فيه مكر الباغيسياني فجاء إليها حينئذٍ عماد الدين زنكي فحاصرها فلم يفده الحصار، وعاود مراسلة معين الدين أنر في التسليم غير مرةٍ تارةً بالوعد وتارةً بالوعيد، واحتجّ بأنها ملك صاحبه محمود شهاب الدين بن بوري بن طغتكين، وأنها بيده أمانة ولا يُسلّمها إلا عن غلبة فأقام عليها عماد الدين زنكي محاصراً لها إلى العشرين من شوال سنة ٥٣١هـ ثم رحل عنها دون بلوغ غرضٍ، غير أن الفكرة بقيت عنده قائمةً.

وصل عماد الدين زنكي إلى مدينة حماة في شهر المحرم سنة ٥٣٢هـ، ومنها سار إلى بعلبك في أرض البقاع فاستولى على حصن المجدل وكان لصاحب دمشق، وراسله متولي بانياس الجنوب وأطاعه وكان يتبع صاحب دمشق. ثم سار عماد الدين زنكي إلى حمص وألقى الحصار عليها، فلما سار ملك الروم إلى حلب اضطر عماد الدين إلى الرحيل عن حمص واتجه إلى سلمية فعندما رحل الروم عن حلب عاد عماد الدين لمنازلة حمص وأرسل إلى شهاب الدين محمد بن بوري صاحب دمشق يخطب إليه أمه زُمرّد خاتون ابنة جاولي، وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك إسماعيل فتزوجها

وتسلّم حمص مع قلعتها، وحُملت الخاتون إليه في شهر رمضان سنة ٥٣٢هـ، وإنما حمله على الزواج بها ما رأى من تحكّمها بدمشق فظنّ أنه يملك البلد بالاتصال إليها، فلما تزوجّها خاب أمله ولم يحصل على شيءٍ فأعرض عنها.

لما فارق الخليفة المخلوع الراشد بالله الموصل وصاحبها عماد الدين زنكي سار نحو أذربيجان فوصل إلى مراغة وفيها الملك داود بن السلطان محمود وعدد من كبار الأمراء وكانوا خائفين من السلطان مسعود فتجمعوا ووافقوا الراشد على الاجتماع ليكونوا يداً واحدةً ويعيدوه إلى الخلافة فأجابهم إلى ذلك ولكن لم يجتمع معهم، ووصل الخبر إلى السلطان مسعود وهو ببغداد فسار إليهم في شهر شعبان سنة ٥٣٢هـ فالتقوا بأرض مراغة فاقتتلوا فانتصر السلطان مسعود عليهم، وتفرّق عسكر السلطان مسعود سعياً وراء النهب وملاحقةً للمنهزمين، وكان بعض الأمراء من الطرف الآخر على مرتفعٍ من الأرض ورأوا السلطان مسعود وقد تفرّق عسكره فحملوا عليه وهو في قلّةٍ فلم يثبت لهم وانهزم فقبض أمير خوزستان على جماعةٍ من الأمراء منهم صدقة بن دبيس صاحب الحلّة فقتلهم،

ووصل الخليفة المخلوع الراشد بعد الوقعة.

اختلفت آراء الجماعة بالعمل فقد رأى بعضهم المسير إلى بغداد ودخولها وبسط النفوذ من مكانتها كقاعدة للخلافة، ورأى بعضهم الآخر ملاحقة السلطان للقضاء عليه وإن ما بعده يهون عليهم، فسار أمير خوزستان إلى فارس واستولى عليها وصارت له مع خوزستان، وسار سلجوق شاه بن السلطان محمد إلى بغداد ليأخذها فتصدّى له واليها وهزمه، وسار الملك داود إلى خوزستان ومعه خوارزمشاه وسار السلطان ليمنعها فعاد الملك داود إلى بلاد فارس ورجع خوارزمشاه إلى بلاده وبقي الخليفة المخلوع الراشد وحده فسار إلى أصفهان فقتله الباطنية في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٣٢هـ ـ كما مرّ ـ.

أقرّ السلطان مسعود على الحلّة محمد بن دبيس بعد مقتل أخيه صدقة بن دبيس وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا عنتر الذي قُتل أيضاً.

في شهر المحرم سنة ٥٣٣هـ سار السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان إلى خُوارزم محارباً لخوارزمشاه اتسز بن محمد وسبب ذلك أن السلطان سنجر بلغه أن اتسز بن محمد يحدث نفسه بالامتناع

عليه وترك الخدمة له وظهر هذا الأمر على كثيرٍ من تصرّفات أمرائه وأصحابه فرأى السلطان أنه لا بد من المسير إليه وأخذ خوارزم منه، فجمع عسكره واتجه نحوه فلما اقترب السلطان سنجر من خوارزم خرج إليه أميرها اتسز بن محمد فاقتتلوا فلم يكن للخوارزمية قوة بالسلطان فلم يثبتوا أمامه وولّوا منهزمين وقتل منهم عدد كبير، وكان من جملة القتلى ولد خوارزمشاه فحزن عليه أبوه حزناً عظيماً وملك سنجر خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ولد أخيه ورتّب له وزيراً وحاجباً ومتولياً ونظّم له الأمور وعاد إلى مرو قاعدة خراسان، فلما غادر سنجر خوارزم انتهز الفرصة خوارزمشاه فعاد إليها، وكان أهلها يكرهون العسكر السنجري ويؤثرون عودة خوارزمشاه، فلما عاد أعانوه على ملك البلد ففارقها غياث الدين ملكشاه، واختلفا بعد الاتفاق.

وفي شهر شوال سنة ٥٣٣هـ قُتل صاحب دمشق شهاب الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن طغتكين وكان مقتله على فراشه بيد ثلاثةٍ من غلمانه كانوا أقرب الناس إليه وخرجوا من القلعة وهربوا فنجا أحدهما وقُبض على الآخرين فصُلبا.

وكتب قائد جيوشه معين الدين أُنُر إلى أخيه جمال

الدين بن تاج الملوك بوري صاحب بعلبك فأعلمه بما جرى وطلب منه أن يأتي بأسرع وقتٍ ليملك بعد أخيه، فحضر وجلس للعزاء بأخيه وحلف له الجند والأعيان وسكن الناس، وفوّض أمر دولته إلى معين الدين أُنَر مملوك جده طغتكين، وزاد في علو مرتبته، وأقطعه بعلبك وزوّجه بأمه، وكان أُنُر عاقلاً فسارت الأمور على أحسن نظام.

في شهر ذي القعدة سنة ٥٣٣هـ سار عماد الدين زنكي بن آقسنقر إلى بعلبك وحاصرها ثم ملكها ذلك أن صاحب دمشق شهاب الدين محمود لما قُتل كانت والدته زمرد خاتون عند عماد الدين زنكي بحلب قد تزوجها فوجدت لقتل ولدها وجداً شديداً وحزنت عليه، وأرسلت إلى زوجها عماد الدين زنكي وهو بديار الجزيرة الفراتية تعلمه بما جرى وتطلب منه أن يقصد دمشق ويطلب بثأر ولدها، فلما وقف على هذه الرسالة بادر في الحال من غير توقّفٍ ولا تريّثٍ وسار مجدّاً ليجعل ذلك طريقاً إلى ملك البلد، وعبر الفرات عازماً على قصد دمشق، فأخذ أهلها الاحتياط واستعدّوا وأكثروا من الذخائر ولم يتركوا شيئاً مما يحتاجون إليه إلا وبذلوا الجهد في تحصيله وأقاموا ينتظرون وصوله

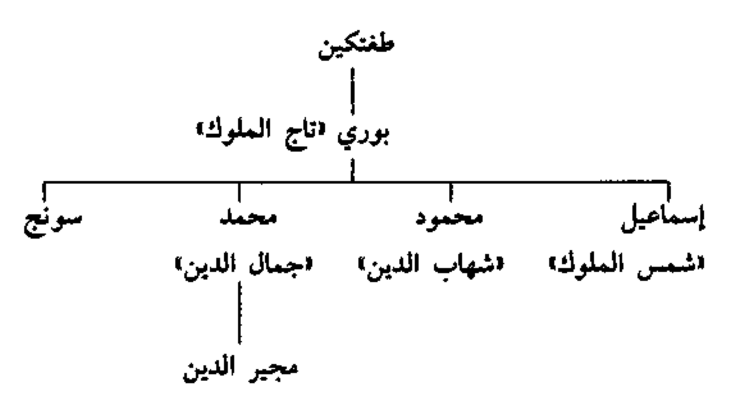
إليهم فتركهم وسار إلى بعلبك فوصل إليها في العشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٣٣هـ فنازلها في عساكره وضيّق على أهلها وجدّ في محاربتهم، ونصب على البلدة أربعة عشر من المنجنيقات ترمي ليلاً ونهاراً فأشرف أهلها على الهلاك، وطلبوا الأمان، وسلّموا إليه المدينة، وبقيت القلعة وفيها جماعة من شجعان الأتراك فقاتلهم فلما أيسوا من الدعم والنجدة طلبوا الأمان فأمنهم فسلّموا إليه القلعة، فلما نزلوا منها ملكها وغدر بهم فقضى عليهم ولم ينج منهم إلا القليل فاستقبح الناس فعله وخافه غيرهم وحذروه ولا سيما أهل دمشق فازدادوا منه نفوراً وجدّوا في محاربته. ولما ملك عماد الدين زنكي بعلبك أخذ الجارية التي كانت لمعين الدين أُنُر بها فتزوجها بحلب ولم تزل عنده إلى أن قُتل سنة ٥٤١هـ، فسيّرها ابنه نور الدين محمود إلى معين الدين أُنُر فكانت بينهما مودة. واستناب عماد الدين على بعلبك نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي.

جمع قره سنقر صاحب أذربيجان عساكر كثيرة وسار إلى بلاد فارس طالباً بثأر أبيه الذي قتله الأمير بوازيه الذي كان قد استولى على بلاد فارس بعد مقتل صاحبها الأمير منكبرس الذي يُعد سيّده إذ كان بوازيه

نائبه على خوزستان، فلما اقترب قره سنقر من بلاد فارس تحصّن بوازيه في القلعة البيضاء خوفاً منه، ووطئ قره سنقر البلاد وتصرّف فيها كما يشاء وليس له دافع ولا مانع إلا أنه لم يطب له المقام وملك المدن التي في فارس وسلّم البلاد إلى الملك سلجوق شاه بن السلطان محمود، وقال له: هذه البلاد لك فاملك الباقي وعاد إلى أذربيجان، فنزل حينئذٍ الأمير بوازيه من القلعة سنة ٥٣٤هـ وهزم سلجوق شاه وملك البلاد، وأُسر سلجوق شاه وسجن في قلعةٍ بفارس.

بعد أن دخل عماد الدين زنكي بعلبك وأصلح أمورها رحل عنها قاصداً دمشق فنزل البقاع في شهر ربيع الأول سنة ٥٣٤هـ، وأرسل إلى صاحب دمشق جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين يبذل إليه بلداً يقترحه ليسلّم إليه دمشق فلم يُجبه فسار وقصد دمشق فنزل على داريا في الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٣٤هـ فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان النصر لعسكر عماد الدين زنكي، وعاد الدمشقيون منهزمين وقد قُتل كثير منهم، ثم تقدّم عماد الدين زنكي إلى المِزّة فنزل هناك ولقيه جمع كثير من جند دمشق ورجالات الغوطة فقاتلوه فانهزم الدمشقيون أيضاً وأخذهم السيف، فقُتل وأُسر الكثير،

ومن سلم عاد جريحاً، وأشرف البلد في ذلك اليوم على التسليم، ولكن عاد عماد الدين زنكي وأمسك عنه عشرة أيام وتابع الرسل إلى صاحب دمشق، وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلدان فمال إلى أن يُسلّم وامتنع غيره من أصحابه من ذلك وخوّفوه عاقبة فعله، وأنه يفعل ويغدر كما فعل بأهل بعلبك فلما لم يسلّموا إليه عاد إلى القتال والزحف. ثم إن جمال الدين محمداً صاحب دمشق مرض ومات في الثامن من شهر شعبان سنة ٥٣٤هـ، وطمع عماد الدين زنكي حينئذٍ في البلد وزحف إليه ظناً منه أنه ربما يقع خلاف بين الأعيان وأمراء الجيش فيبلغ به الغرض، وكان ما أمله بعيداً، فلما مات جمال الدين ولي بعده ولده مجير الدين أبق، وتولّى تدبير دولته معين الدين أُنُر، ولم يظهر لموت جمال الدين أثر مع أن عدوهم على باب المدينة.



لما رأى معين الدين أُنُر أن عماد الدين زنكي لا يفارقهم ولا يزول عن حصارهم راسل الصليبيين ودعاهم إلى نصرته وأن يتفقوا معاً على دفع عماد الدين زنكي عن دمشق وبذل لهم بذولاً ومنها أن يحضر إلى بانياس الجنوب ويأخذها ويسلّمها لهم، وخوّفهم من عماد الدين زنكي إن ملك دمشق فعلموا صحة قوله وأدركوا أنه إن ملكها لا يبقى لهم معه بالشام مقام، فاجتمع الصليبيون وعزموا على المسير إلى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال عماد الدين زنكي، فحين علم عماد الدين بذلك سار إلى حوران في الخامس من شهر رمضان عازماً على قتال الصليبيين قبل أن يجتمعوا بالدمشقيين، فلما سمع الصليبيون خبره لم يفارقوا مواقعهم فلما رآهم كذلك عاد إلى حصار دمشق ونزل بـ«مرج عذراء» شمال شرقي دمشق وعلى بعد عشرين كيلاً منها وذلك في السادس من شهر شوال سنة ٥٣٤هـ فأحرق عدة قرى من المرج والغوطة ورحل عائداً إلى حمص.

وصل الصليبيون إلى دمشق واجتمعوا بصاحبها وقد رحل عماد الدين زنكي عنها، فسار معين الدين أَنُر إلى بانياس في عسكر دمشق، وبانياس في طاعة عماد

الدين زنكي ليحاصرها ويملكها ويُسلّمها إلى الصليبيين، وكان واليها قد غادرها قبل ذلك بأسبوعٍ فصادفه صاحب أنطاكية وهو قاصد دمشق نجدةً لصاحبها ضد عماد الدين زنكي، فاقتتل صاحب أنطاكية والمسلمون هناك فانهزم المسلمون وقتل كثير منهم ومن نجا منهم سار إلى بانياس وجمعوا معهم كثيراً من تلك البقاع وحفظوا القلعة فنازلها معين الدين أُنُر فقاتلهم وضيّق عليهم ومعه طائفة من الصليبيين وتمكّن أخيراً من دخول قلعة بانياس فسلّمها والبلدة إلى الصليبيين.

لما سمع عماد الدين زنكي بما نزل ببانياس سار إلى بعلبك ليُدافع عنها ويحميها فأقام هناك، فلما عاد عسكر دمشق إلى مدينتهم راجعين من بانياس بعد أن سلّموها إلى الصليبيين وزّع عماد الدين زنكي جيشه فقسم سار للإغارة على حوران وأعمال دمشق، وقسم سار معه وفيه خواصه فنازلوا دمشق وقت السحر ولم يعلم به أحد من أهلها فلما أصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتجّ البلد واجتمع العسكر والعامة على السور وفتحت الأبواب وخرج الجند والرجالة فقاتلوه فلم يمكّن عماد الدين زنكي عسكره من الإقدام في القتال.

سيّر عماد الدين زنكي عسكراً إلى شهرزور[١] وأعمالها وما يجاورها من الحصون وذلك سنة ٥٣٤هـ، وكانت بيد قبجاق بن أرسلان تاش التركماني وكان حكمه نافذاً على قاصي التركمان ودانيهم وكلمته لا تُخالف ويرون طاعته فرضاً لذا تحامى الملوك قصده بالغزو ولم يتعرّضوا لولايته لأنها منيعة كثيرة المضائق صعبة المسالك فعظُم شأنه وازدادت مكانته وأتاه التركمان من كل فجٍّ عميقٍ، فلما سار إليه عماد الدين زنكي جمع هو عسكره وخرج إليهم فالتقوا واقتتلوا فانهزم قبجاق واستبيح عسكره، وسار جيش عماد الدين في أعقابهم فحاصروا الحصون والقلاع وملكوها جميعاً، وبذل عماد الدين الأمان لقبجاق فصار إليهم وانخرط في سلك العساكر، ولم يزل هو وبنوه في خدمة البيت الزنكي إلى ما بعد سنة ٦٠٠هـ على أحسن وضعٍ ثم فارقوهم بعد سنة ٦٠٠هـ بقليلٍ.

جرى بين الخليفة المقتفي لأمر الله وبين الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي منافرة وسببها أن الوزير كان يعترض الخليفة في كل ما يأمر به فنفر

---

(١) شهرزور: بين إربيل وهمذان في منطقة جبلية.

الخليفة من ذلك، فغضب الوزير ثم خاف فقصد دار السلطان وقت الظهيرة ودخل إليها واحتمى بها فأرسل إليه الخليفة بالعودة إلى منصبه فامتنع وكانت الكتب تصدر باسمه واستنيب قاضي القضاة الزينبي، وهو ابن عمّ الوزير، وأرسل الخليفة إلى دار السلطان رسلاً في معنى الوزير فأرخص له السلطان في عزله فحينئذٍ أُسقط اسمه من الكتب وأقام بدار السلطان، ثم عزل الزينبي من النيابة وناب عنه سديد الدولة بن الأنباري.

وتوفي والي أذربيجان قره سنقر سنة ٥٣٥هـ وتولّى مكانه الأمير جاولي الطغرلي.

وقع قتال بين عماد الدين زنكي وبين داود سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وانهزم داود وملك عماد الدين زنكي مكانه، ثم رجع زنكي إلى الموصل عندما أقبل فصل الشتاء.

بعد أن عاد خُوارزمشاه اتسز بن محمد إلى خُوارزم إثر مغادرة السلطان سنجر لها أخذ يعمل للثأر لابنه الذي قُتل في الحرب التي وقعت بين خوارزمشاه وبين السلطان سنجر، فبعث خوارزمشاه إلى الترك في بلاد الخطا وهم من غير المسلمين يطمعهم في خراسان وبلاد المسلمين ويروّج عليهم أمرها ويحثّهم على قصد

مملكة السلطان سنجر فساروا في عددٍ كثيرٍ وسار إليهم سنجر في عساكره فالتقوا بما وراء النهر واقتتلوا أشد قتال وانهزم سنجر وعساكره وقُتل منهم خلق كثير منهم اثنا عشر ألف رجلٍ وأربعة آلاف امرأةٍ، وأُسرت زوجة السلطان سنجر، وانهزم سنجر إلى ترمذ وسار منها إلى بلْخ.

لما سار السلطان سنجر إلى بلخ منهزماً قصد خوارزمشاه مدينة مرو قاعدة خراسان وتمكّن من دخولها وقتل عدداً كبيراً من أهلها وقبض على جماعة من الفقهاء وأعيان البلد.

أرسل السلطان سنجر إلى ابن أخيه مسعود بن محمد وأذن له بالتصرّف في الريّ وتوابعها على قاعدة أبيه السلطان محمد، وأمره أن يكون مقيماً فيها بعساكره حتى إذا دعت الحاجة استدعاه لنجدته. وصل صاحب الريّ عباس إلى بغداد بعساكره وخدم السلطان مسعوداً خدمةً عظيمةً، وسار السلطان مسعود إلى الريّ امتثالاً لأمر عمه سنجر.

قطع خوارزمشاه خطبة السلطان سنجر في مرو في أول شهر ذي القعدة سنة ٥٣٦هـ وجعل الخطبة له، فلما ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر وذكر خوارزمشاه صاح

الناس وثاروا وكادت الفتنة تثور والشرّ يعود من جديدٍ، ولكن منع الناس ذوو الرأي والعقل نظراً في عاقبة الأمر، وأعيدت الخطبة للسلطان سنجر في شهر المحرم سنة ٥٣٧هـ.

وسيّر خوارزمشاه جيشاً إلى أعمال بيهق فأقاموا بها خمسة أيامٍ يقاتلون أهلها ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد وعملوا بخراسان أعمالاً غير طيبةٍ، ومنع السلطان سنجر من مقاتلة خوارزمشاه خوفاً من قوة أتراك بلاد الخطا ومجاورتهم. وملك خوارزمشاه هذه البلاد وغيرها من خراسان.

استولى عماد الدين زنكي على مدينة الحديثة سنة ٥٣٦هـ ونظّم أصحابه فيها، وخُطب له في مدينة آمد (ديار بكر)، وأعلن صاحبها طاعته لعماد الدين رغم أنه كان من قبل يعمل على قتاله، ولكنه لما رأى قوة عماد الدين زنكي صار معه، وأخذت قوة زنكي تزداد وسلطانه يتسع.

بعث عماد الدين زنكي سنة ٥٣٧هـ جيشاً إلى قلعة أشب وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها وبها أموالهم وأهليهم فحاصروها وضيّقوا على سكانها فاستولوا عليها وملكوها فأمر عماد الدين بإخرابها وبناء

القلعة المعروفة بالعمادِية[1]، وكان نائبه على الموصل نصير الدين جقر قد فتح أكثر القلاع الجبلية.

وصل السلطان مسعود إلى بغداد سنة ٥٣٨هـ على عادته في كل سنةٍ وجمع العساكر وتجهّز لقصد عماد الدين زنكي إذ كان يحقد عليه حقداً شديداً لقوته وزيادة نفوذه حتى صار السلطان مسعود يظنّ أن كل من يعاديه إنما برأي عماد الدين وتوجيهه.

أرسل عماد الدين زنكي إلى السلطان مسعود يستعطفه ويستميله فأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباري لتقرير قواعد الصلح بينهما فاستقرت القاعدة على أن يحمل عماد الدين مائة ألف دينارٍ للسلطان ليعود عنه، فحمل عشرين ألف دينارٍ أكثرها عروض، ثم تغيّرت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مداراة عماد الدين فترك له الباقي استمالةً له وحفظاً لقلبه، وكان ما أقدم عليه السلطان هو حصانة بلاد عماد الدين وكثرة عساكره وأمواله. كما أن عماد الدين كان عليه المجاراة والتودد فإن ولده الأكبر غازي سيف الدين كان عند السلطان حضراً وسفراً بأمر والده، فأرسله إليه ثانيةً

(١) العمادية: شمال الموصل نسبت إلى لقبه عماد الدين.

وأرسل إليه نائبه بالموصل نصير الدين جقر فيقول له ليمنعه عن الدخول إلى الموصل والوصول إليه، وهرب غازي وبلغ الخبر والده فأرسل إليه يأمره بالعودة إلى السلطان، ولم يجتمع به، وأرسل معه رسولاً إلى السلطان، يقول له: إن ولدي هرب خوفاً من السلطان لما رأى تغيّره عليّ، وقد أعدته إلى الخدمة ولم أجتمع به فإنه مملوكك والبلاد لك، فحلّ ذلك من السلطان محلاًّ عظيماً[1].

وسار عماد الدين زنكي سنة ٥٣٨هـ إلى ديار بكر فاستولى على عدة بلدانٍ وعدة حصونٍ كما أخذ أيضاً من بلد ماردين ما هو بيد الصليبيين، وحاصر مدينة آمد (ديار بكر)، وأقام في تلك الجهات ينظم أمور ما دخله ويحاصر ما لم يدخله.

وعاد السلطان سنجر سنة ٥٣٨هـ إلى خوارزمشاه، ولكن خوارزمشاه أتسز بن محمد جمع عساكره وتحصّن بالمدينة ولم يخرج منها لقتاله لعلمه أنه لا يقوى لسنجر، وكان القتال يجري بين الفريقين من وراء السور، وفي بعض الأيام هاجم الأمير سنقر أحد أمراء

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

سنجر المدينة من الجانب الغربي وكاد يقتحمها ويستولي عليها قهراً، وهاجم أمير آخر من الجانب الشرقي غير أنه هُزم، وبقي سنجر وحده فقوي عليه خوارزمشاه أتسز، ولما رأى السلطان سنجر قوة البلد وامتناعه عزم على الرحيل والعودة إلى مرو، غير أنه رأى أنه لا بد من التفاهم على الموضوع مع خوارزمشاه قبل الرحيل عن بلده، فاتفق أيضاً أن خوارزمشاه أرسل رسلاً يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود إلى ما كان عليه من الانقياد فأجابه إلى ذلك وتصالحا وعاد سنجر إلى مرو وأقام خوارزمشاه في خوارزم.

وبعث عماد الدين زنكي جيشاً إلى مدينة عانة على نهر الفرات واستولى عليها وذلك سنة ٥٣٨هـ.

سار عماد الدين زنكي إلى الجزيرة الفراتية مجاهداً يريد قتال الصليبيين وقد استطاع في السادس من شهر جمادى الأخرة سنة ٥٣٩هـ أن يدخل مدينة الرها وينقذها من أيدي الصليبيين كما استنقذ غيرها من حصونهم في الجزيرة أيضاً، وكان ضررهم قد عمّ بلاد الجزيرة وشرّهم قد استطار فيها ووصلت غاراتهم وتعدّياتهم إلى أقصاها وأدناها وبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة وغير ذلك. وكانت مملكة الصليبيين

هذه من قرب ماردين إلى الفرات مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين وكان صاحب رأي الصليبيين والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر، وكان عماد الدين زنكي يعلم أنه متى قصد مدينة الرها وحاصرها اجتمع فيها من الصليبيين من يمنعها فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة فاشتغل بديار بكر ليوهم الصليبيين أنه غير متفرغٍ إلى قصد مستعمراتهم، فلما رأوه أنه غير قادرٍ على ترك الأرتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر إذ أنه محارب لهم اطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى البلدان التي في غربه، وجاءت عيون عماد الدين زنكي إليه وأخبروه الخبر فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يتخلّف عن الرها أحد من غد يومه، وجمع الأمراء عنده، وسار والعسكر معه ووصل إلى الرها، وكان عماد الدين أول من حمل على الصليبيين وقاتلهم ثمانيةً وعشرين يوماً وزحف على الرها عدة دفعاتٍ، وقدّم النقّابين فنقبوا سور البلد وجدّ في القتال خوفاً من اجتماع الصليبيين والمسير إليه واستنقاذ البلد منه، وتمكّن من دخول البلد عنوةً وقهراً، وحاصر القلعة فاستطاع دخولها وأخذ بعض العسكر في النهب والقتل، فأمر عماد الدين زنكي فنودي في العساكر برد ما أخذوه

من النهب والسبي والغنائم فردّ الجميع ما أخذوه، وتسلّم سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الصليبيين شرق نهر الفرات عدا البيرة فإنها كانت حصينةً منيعةً وعلى شاطئ الفرات فسار إليها وحاصرها ولكن لم يستطع دخولها فرحل عنها.

وفي شهر ذي القعدة سنة ٥٣٩هـ قُتِل نصير الدين جقر نائب عماد الدين زنكي بالموصل وأُخذت أملاكه التي شرق نهر الفرات جميعها، إذ كان الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود عند عماد الدين زنكي، وكان نصير الدين يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحابه بالأطراف أن هذه البلاد هي لهذا الملك وأنا نائبه فيها، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليخطب له بالسلطنة ويملك البلاد باسمه، ولما كان هذا الملك في هذه السنة بالموصل ونصير الدين يقصده كل يوم ليقوم بخدمةٍ إن عرضت له فحسّن بعض المفسدين للملك قتله، وقال له: إن قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها من البلدان ولا يبقى مع عماد الدين زنكي فارس واحد فوقع هذا منه موقعاً حسناً وظنّه صدقاً فلما دخل نصير الدين إليه وثب عليه رجال وقتلوه وألقوا برأسه إلى أصحابه ظنّاً منهم أن أصحابه

يتفرّقون عنه، ويخرج الملك ويملك البلد، وكان الأمر خلاف ما ظنّوه فإن أصحابه وأصحاب عماد الدين زنكي الذين في خدمته لما رأوا رأس نصير الدين قاتلوا من بالدار مع الملك فجاء القاضي تاج الدين يحيى الشهرزوري ولم يزل به يخدعه، وقال للملك: ما الذي يُجلسك في هذه الدار قم لتصعد إلى القلعة وتأخذ المال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند وليس دون الموصل مانع، فقام معه وصعدا إلى القلعة وتجهّز جندها للقتال، فتقدّم إليهم القاضي تاج الدين، وقال لهم: افتحوا الباب وتسلّموه وافعلوا به ما أردتم، ثم فُتح الباب ودخل الملك والقاضي إليها ومعهما من أعان على قتل نصير الدين فسُجنوا ونزل القاضي، ووصل الخبر إلى عماد الدين زنكي وهو يحاصر قلعة البيرة[1] وقد أشرف على الاستيلاء عليها فخاف أن تختلف البلدان الشرقية بعد مقتل نصير الدين فرحل عن البيرة وأرسل إلى زين الدين علي كوجك بن بكتكين إلى قلعة الموصل والياً على ما كان نصير الدين يتولّاه.

وخاف الصليبيون في البيرة أن يعود إليهم عماد

(١) البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع.

الدين زنكي إذ كانوا يخشونه خشيةً عظيمةً فأرسلوا إلى نجم الدين صاحب ماردين وسلّموها له فملكها المسلمون.

سار بوازيه صاحب فارس وخوزستان مع عساكره إلى قاشان[1] ومعه الملك محمد بن السلطان محمود ووصل إليهما أيضاً الملك سليمان شاه بن السلطان محمد، واجتمع بوازيه والأمير عباس صاحب الريّ واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود وملكا كثيراً من بلاده، ووصل الخبر إليه وهو ببغداد ومعه الأمير عبد الرحمٰن طغايرك وهو أمير حاجب حاكم في الدولة، وكان ميله إليهما، فسار السلطان مسعود من بغداد في شهر رمضان سنة ٥٤٠هـ ومعه عبد الرحمٰن وتقارب العسكران ولحق سليمان شاه بأخيه السلطان مسعود، ثم كان الصلح بين الجانبين.

استولى علي بن دبيس بن صدقة على الحلّة، وذلك أن السلطان عندما أراد الرحيل عن بغداد أُشير عليه أن يسجن علي بن دبيس فوصل إليه الخبر فهرب في جماعةٍ يسيرةٍ لا تزيد على خمسة عشر رجلاً ومرّ

(١) قاشان: مدينة في إيران اليوم بين قم وأصبهان تبعد عن قم تسعين كيلاً وعن أصبهان مائةً وخمسين كيلاً.

على مراكز لبني أسد فجمع منهم ومن غيرهم وسار إلى الحلّة وبها أخوه محمد فقاتله فانهزم محمد وسيطر عليّ على الحلة، واستهان السلطان بأمره ثم كثر جمعه واستفحل أمره، فسار إليه الأمير مهلهل من بغداد والتقى معه فانتصر عليّ ورجع مهلهل مع عسكره منهزمين إلى بغداد، وتوتر الأمر بين بغداد والحلّة ثم تمّ الصلح وسكن الناس وذلك أن علياً بعد مراسلة السلطان له أجاب أنه عبد مطيع.

كان عماد الدين زنكي لا يريد أن يكون وسط بلاده ما هو ملك غيره جزماً واحتياطاً لذا فقد سار إلى قلعة جعبر على الفرات وكانت بيد سالم بن مالك العقيلي سلّمها السلطان ملكشاه إلى أبيه عندما أخذ منه مدينة حلب، وكذلك سيّر جيشاً إلى قلعة فنك وهي تجاور جزيرة ابن عمر بينهما خمسة عشر كيلاً وصاحبها حسام الدين الكردي البشتوي. وحاصر عماد الدين زنكي قلعة جعبر وقاتل من بها فلما طال عليه أرسل إلى صاحبها مع حسان المنجبي لمودةٍ كانت بينهما في معنى تسليمها، وقال له: تضمن عني الأقطاع الكثير والمال الجزيل، فإن أجاب إلى التسليم فبه ونعم وإلا فقُل له: والله لأقيمن عليك إلى أن أملكها عنوةً ثم لا أبقي عليك، ومن الذي يمنعك مني، فصعد حسّان إليه،

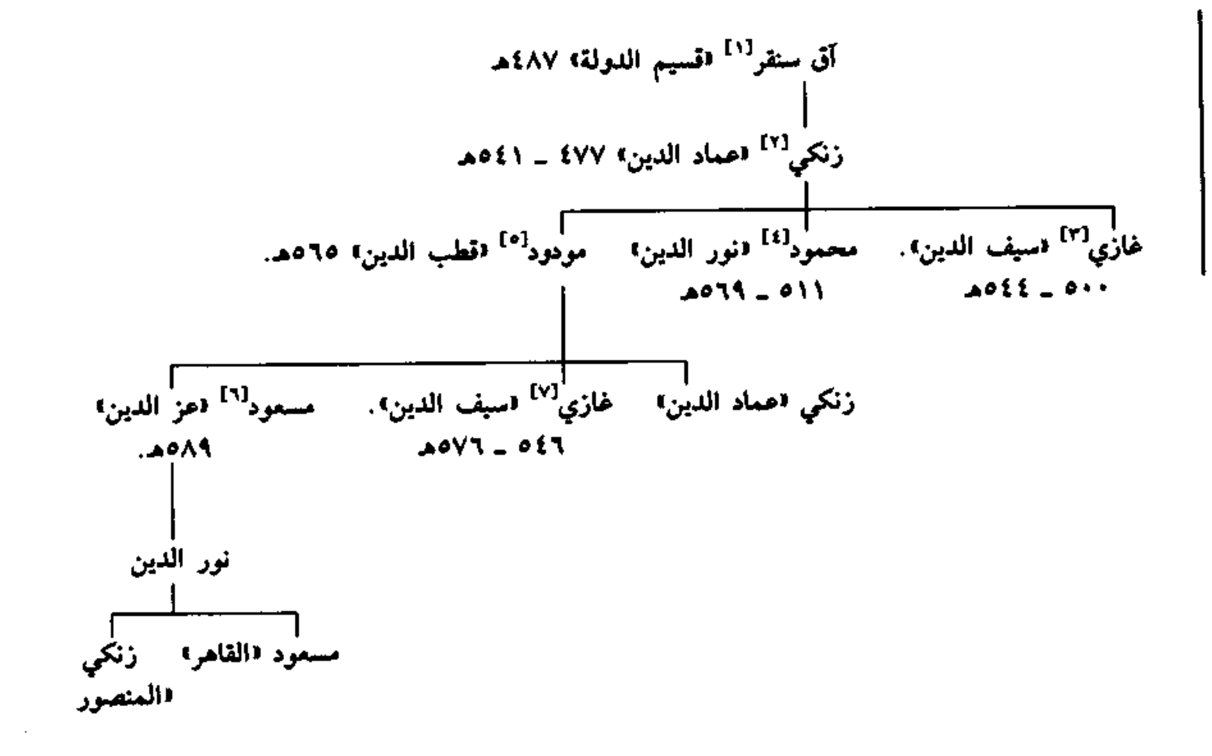
وأدّى إليه الرسالة ووعده وبذل له ما قيل له فامتنع من التسليم، فقال له حسان: فهو يقول لك: من يمنعك من قتالي ومن يمنعك مني؟ فقال: يمنعني منه الذي منعك من الأمير بُلُك[1] فرجع حسان وأخبر عماد الدين زنكي بامتناعه، ولم يذكر له هذا، فقُتل عماد الدين بعد أيامٍ.

في الخامس من شهر ربيع الثاني سنة ٥٤١هـ وعماد الدين زنكي قائم على حصار قلعة جعبر اغتاله جماعة من مماليكه ليلاً وهربوا إلى قلعة جعبر فصاحوا على من بها من أهلها من العسكر يعلمونهم بقتله وأظهروا الفرح، فدخل أصحابه إليه فوجدوه على الرمق الأخير ولم يستطع أن يخبرهم من المجرم وفارقته الروح، ودفن بالرقة.

لما قُتل عماد الدين زنكي أخذ ابنه محمود نور الدين خاتمه من يده وكان حاضراً معه وسار إلى حلب وملكها.

---

(١) كانت قصة حسّان مع بُلُك بن إيلغازي بن أرتق أن حسان كان صاحب منبج فحاصره بُلُك وضيّق عليه حتى أوشك على التسليم وشعر أنه إن لم يفعل دخل بُلُك منبج عنوةً وقتله فبينما هو كذلك في بعض الأيام يقاتله إذ أصاب سهم بُلُك لا يعرف من رماه فقتله، وخلص حسان من الحصار.



(١) [١] آق سنقر بن عبد الله، أبو سعيد، قسيم الدولة، المعروف=

= بالحاجب، جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل، كان مملوكاً تركياً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي. ولما ملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقي مدينة حلب سنة ٤٧٨هـ استناب فيها آق سنقر واعتمد عليه لأنه مملوك أخيه فعصى عليه فقصده تاج الدولة وهو صاحب دمشق يومئذٍ فخرج لقتاله فالتقيا وجرى بينهما قتال انجلى عن قتل آق سنقر في شهر جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ، ودفن بحلب.

[٢] زنكي بن آق سنقر، عماد الدين، ولد سنة ٤٧٧هـ، فوّض إليه السلطان محمود بن ملكشاه ولاية بغداد سنة ٥١١هـ، قاد ميمنة جيش دبيس بن صدقة ضدّ الخليفة المسترشد بالله، وأُقطع البصرة فحماها من الأعراب، ثم ولّاه السلطان محمود بن ملكشاه الموصل سنة ٥٢١هـ، ثم سلّمه ابنه ليربيه، ولهذا قيل له أتابك حيث تعني هذه الكلمة الأمير المعلم وذلك سنة ٥٢٢هـ، ثم قلّده ولاية حلب فدخلها ورتّب أمورها وقُتل سنة ٥٤١هـ وهو يحاصر قلعة جعبر، وليس له أخ.

[٣] غازي بن زنكي، سيف الدين: ولد سنة ٥٠٠هـ، وتولى أمر الموصل بعد مقتل أبيه، وكانت ولايته ثلاث سنوات وشهوراً، وتوفي سنة ٥٤٤هـ.

[٤] محمود بن زنكي، نور الدين، أبو القاسم: ولد سنة ٥١١هـ، تولى أمر حلب بعد مقتل أبيه سنة ٥٤١هـ، حاصر دمشق وملكها وبقي فيها عشرين سنةً، بنى كثيراً من المدارس والمشافي، كان متواضعاً شجاعاً حليماً، توفي في قلعة دمشق في شهر شوال سنة ٥٦٩هـ، وانتزع من الصليبيين نيفاً وخمسين=

وكان يتولّى ديوان عماد الدين زنكي ويحكم دولته جمال الدين محمد بن علي ومعه أمير حاجب وهو صلاح الدين محمد الباغيسياني فاتفقا على حفظ الدولة

= مدينةً وحصناً، وعزم على فتح بيت المقدس، وقضى صلاح الدين الأيوبي في أيامه سنة ٥٦٧هـ على الدولة العبيدية بمصر. وما للشعراء عنده تزلّف ونفاق. يقول أسامة:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا   له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة   من المعاصي وفيها الجوع والعطش

[٥] مودود بن زنكي، قطب الدين، ويقال له الأعرج: تولّى أمر الموصل بعد أخيه غازي سيف الدين، وتوفي بالموصل سنة ٥٦٥هـ، وكان حسن السيرة.

[٦] مسعود بن مودود بن زنكي، عز الدين، أبو الفتح، وأبو المظفر: نشأ بالموصل وعُيّن مقدماً للجيوش بها في حياة صاحبها أخيه غازي سيف الدين، وآل أمرها إليه بعد وفاة أخيه، وأوصى له صاحب حلب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين فتسلّمها بعد وفاته سنة ٥٧٧هـ فأخذ حلب وتزوج أم الملك الصالح، ثم قايض بحلب على سنجار فأخذها سنة ٥٧٨هـ. ونُمي لصلاح الدين الأيوبي أن عز الدين قد اتصل بالصليبيين وحرّضهم على قتاله، فجاء من دمشق فاستولى على حلب وسنجار ثم جرى الصلح بينهما، ومات عز الدين بالموصل ودفن فيها سنة ٥٨٩هـ.

[٧] غازي بن مودود بن زنكي، سيف الدين: صاحب الموصل والجزيرة تقلّدها بعد وفاة أبيه سنة ٥٦٥هـ، وأقرّه نور الدين، وتوفي بمرض السل سنة ٥٧٦هـ.

وكان مع عماد الدين زنكي الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود السلجوقي.

وأما سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي فقد تسلّم الموصل، وبقي أخوه محمود نور الدين في حلب.

لما قُتل عماد الدين زنكي تحرّك الصليبي جوسلين في تل باشر وما يجاورها، وكان من قبل يملك مدينة الرها قبل أن يأخذها منه عماد الدين، راسل جوسلين الصليبي النصارى في الرها وهم من الأرمن وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد إليه فأجابوه إلى ذلك وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، وسار في عساكره إلى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم فبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وهو بحلب فسار مجدّاً إليها في عسكره فلما اقترب من الرها خرج جوسلين هارباً إلى تل باشر، ودخل نور الدين المدينة وسبى أهلها فهم غير مسلمين، وخلت من أهلها ولم يبق فيها إلا القليل. وبلغ خبر عصيان أهل الرها إلى سيف الدين غازي أخي نور الدين فسيّر العساكر إليها فسبقه أخوه إلى البلد ودخولها وبلغهم ذلك وهم في الطريق فعادوا.

وسجن السلطان مسعود أخاه سليمان شاه في قلعة تكريت سنة ٥٤١هـ.

وقتل السلطان مسعود سنة ٥٤٢هـ صاحب الريّ عباس ولما وصل الخبر إلى بوازيه صاحب فارس وخوزستان جمع عساكره وسيّرها في عدة اتجاهاتٍ ومنها اتجاه أصفهان وكان هو على رأس هذا العسكر وألقى الحصار على مدينة أصفهان، ثم ارتحل عنها يطلب السلطان مسعوداً فراسله السلطان في الصلح فلم يجب وسار مجداً فالتقيا بمرج قرة تكين فاقتتل العسكران فانهزم منه السلطان مسعود وميسرته واقتتل القلبان قتالاً شديداً صبر فيه الفريقان، وسقط بوازيه عن فرسه بسهمٍ أصابه وحُمل إلى السلطان فقُتل بين يديه، وانهزم أصحابه لما أُخذ هو أسيراً، وبلغت هزيمة العسكر السلطاني إلى همذان وخراسان، وقُتل من الفريقين عدد كبير.

طمع الصليبيون في أملاك عماد الدين زنكي ولكن خاب أملهم إذ كان ابنه نور الدين محمود كأبيه بل أقوى شكيمةً منه وأكثر صبراً وجهاداً وقد استطاع أن يأخذ عدة مواقع من الصليبيين سنة ٥٤٢هـ.

لم يُحسن علي بن دبيس الإدارة بالحلَّة وما

جاورها وكثرت تعدّيات أصحابه فأقطع السلطان مسعود الحلّة إلى سلاركرد فسار إليها من همذان بعسكره والتحق بهم جماعة من عسكر بغداد وقصدوا الحلّة، وجمع علي بن دبيس عسكره وحشد والتقى العسكران فهُزم عليّ وملك سلاركرد الحلّة، وفرّ عليٌّ واستنجد ببعض الأمراء وقصدوا الحلّة واستنقذوها من سلاركرد الذي رجع إلى بغداد.

تطاول صاحب ماردين وهو حسام الدين تمرتاش بعد مقتل عماد الدين زنكي فخرج سيف الدين غازي بن زنكي من الموصل فاستولى على قلعة دارا وسار بعدها إلى ماردين وحاصرها وأفسد عسكره فيها فحلّ الضيق بأهلها فاضطر صاحبها إلى مصالحته وأصهره إذ زوّجه ابنته ورحل سيف الدين غازي عن ماردين ورجع إلى الموصل، وجُهّزت ابنة حسام الدين وسُيّرت إليه فوصلت إلى الموصل وهو مريض فلم يدخل بها، وبقيت عنده إلى أن توفي وملك مكانه أخوه قطب الدين مودود فتزوّجها.

وفارق السلطان مسعود عدد من الأمراء إذ خافوه وساروا نحو بغداد فلما بلغوا حلوان خاف الناس ببغداد ووصلوا إليها في شهر ربيع الثاني سنة ٥٤٣هـ ومعهم

الملك محمد بن السلطان محمود ونزلوا بالجانب الشرقي من بغداد، فجنّد الخليفة أجناداً يحتمي بهم ووقع القتال بين الأمراء وعسكرهم وبين عامة الناس ببغداد ومعهم العسكر الذين فيها ووقع القتال، وفي بعض الأيام أظهر الأمراء هزيمتهم وتبعهم العامة فلما ابتعدوا عادوا إليهم وصار بعض العسكر من ورائهم ووضعوا السيف فيهم فقتل من العامة خلق كثير، فأصيب أهل بغداد بما لم يُصابوا بمثله، ونُهب الجانب الغربي، ثم إن الأمراء اجتمعوا واعتذروا وترددت الرسل بينهم وبين الخليفة وعادوا إلى خيامهم ورحلوا إلى النهروان وأفسدوا فيها وأخيراً رحلوا عن العراق وتفرّقوا، هذا كله والسلطان مسعود مقيم ببلاد الجبل والرسل بينه وبين عمه السلطان سنجر متتابعة، وكان السلطان سنجر قد أرسل إليه يلومه في تصرفاته، ويحرص على توجيهه ويهدده بأنه إن لم يفعل ما يأمره ليسير إليه ويُزيله عن السلطنة، وهو يُغالط ولا يفعل فسار السلطان سنجر إلى الريّ فلما علم السلطان مسعود بوصوله سار إليه وترضاه فسكن وكان لقاؤهما سنة ٥٤٤هـ.

توفي سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي في

أواخر شهر جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ، وكانت ولايته ثلاث سنوات وشهراً وعشرين يوماً، وخلّف ولداً ذكراً واحداً فربّاه عمه نور الدين محمود وزوّجه ابنة أخيه قطب الدين مودود، فلم تطل أيامه وتوفي في عنفوان شبابه وانتهى عقب سيف الدين غازي. ولما توفي سيف الدين غازي خلفه أخوه مودود قطب الدين على الموصل والجزيرة الفراتية، ولما ملك تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التي كان قد تزوّجها أخوه سيف الدين وتوفي قبل الدخول بها، وهي أم أولاد قطب الدين مودود وهما: سيف الدين وعز الدين وعماد الدين.

لما توفي سيف الدين غازي وخلفه أخوه قطب الدين مودود على الموصل، وكان أخوهما نور الدين محمود يملك حلب وحماة فكاتبه جماعة من الأمراء وطلبوه ومنهم صاحب سنجار الذي راسله ليتسلّم سنجار فسار في سبعين فارساً من أمراء دولته فدخلها وتسلّمها، فسار إليه أخوه قطب الدين مودود من الموصل ووصل إلى تل يعفر[1] وتردّدت الرسل بينهما وأُشير عليهما

---

(١) تل يعفر: بليدة قرب حصن مسلمة بن عبد الملك بين حصن مسلمة والرقة من نواحي الجزيرة.

بالصلح، وتمّ ذلك وسلّم أخاه قطب الدين سنجار والرحبة وحمص، وعاد نور الدين إلى حلب.

وقع الخلاف بين السلطان مسعود وبين ولدي أخيه محمود وهما: محمد وملكشاه فسارا بعسكرهما إلى بغداد وحاصراها سنة ٥٤٣هـ، وما رفعا الحصار عنها حتى دفع لهما الخليفة ثلاثين ألف دينارٍ.

انطلق محمود نور الدين مجاهداً في شهر رجب سنة ٥٤٤هـ واتجه إلى الصليبيين في ناحية أنطاكية فقصد حصن حارم فحاصره فخرب ربضه ونهب سواده ثم سار إلى حصن إنب[١] فاجتمع الصليبيون مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم وتلك الجهات وساروا إلى نور الدين ليبعدوه عن حصن إنب فلقيهم واقتتلوا قتالاً شديداً وباشر محمود نور الدين القتال وانهزم الصليبيون هزيمةً يُسرّ لها المؤمنون فقُتل منهم جمع كثير وأسر مثلهم كذلك، وكان ممن قُتل البرنس صاحب أنطاكية وكان من طغاة الصليبيين وكبيراً من كبارهم، ولما قُتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت أمه ببرنس آخر ليدبّر أمر البلد إلى أن يكبر ابنها وأقام معها بأنطاكية،

---

(١) حصن إنب: حصن من أعمال أعزاز من نواحي حلب.

ثم إن نور الدين محمود خرج مجاهداً فغزاهم غزوةً أخرى فاجتمعوا والتقوا به فهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان ممن أسر البرنس الثاني زوج أم بيمند فتمكّن حينئذٍ بيمند بأنطاكية.

وخرج نور الدين محمود للجهاد سنة ٥٤٥هـ وسار إلى حصن أفاميا ويجاور شيزر من ناحية الغرب على تلٍ مرتفعٍ وحاصره وبه الصليبيون فقاتلهم وضيّق عليهم، فاجتمع من بالشام من الصليبيين وساروا نحوه ليبعدوه عنه فلم يصلوا إليه إلا وقد دخله وتمكّن منه وجهّز فيه ما يحتاج إليه، فلما بلغه أمر مسير الصليبيين إليه رحل عنه وقد فرغ من أمره وسار إليهم يطلبهم فحين رأوا أن الحصن قد صار بيد نور الدين محمود، وقوة عزم نور الدين على لقائهم عدلوا عن القتال ودخلوا مواقعهم وراسلوه في المهادنة.

وحشد نور الدين محمود عسكره وخرج للجهاد سنة ٥٤٦هـ وقصد المناطق التي يسيطر عليها الصليبي جوسلين وهي شمال حلب ومنها: إعزاز وعينتاب وتل باشر[١] وغيرها وعزم على حصارها وفتحها، وكان

---

(١) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة شمال حلب وتبعد عنها خمسين كيلاً وسكانها من الأرمن النصارى.

جوسلين من شجعان الصليبيين، فلما وصل إليه الخبر جمع الصليبيين وسار إلى نور الدين محمود فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون وقُتل منهم وأُسر جمع كثير وكان في جملة من أُسر قائد سلاح نور الدين محمود فأخذه جوسلين وسيّره إلى صاحب قونية مسعود بن قلج أرسلان، وقال له: هذا قائد سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده من هو أعظم منه ـ في سبيل دب الخوف والرهبة في نفوس أمراء المسلمين ـ. فما وصل الخبر إلى نور الدين محمود عظُم عليه ذلك وعمل الحيلة على جوسلين لينال منه ويأخذ بثأره فأحضر جماعةً من أمراء التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلّموه إليه إما قتيلاً أو أسيراً لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه، فجعل التركمان عليه العيون فخرج للصيد فلحقت به طائفة منهم وظفروا به فصانعهم على مالٍ يؤدّيه إليهم فأجابوه إلى إطلاقه إذا حضر المال فأرسل في إحضاره فمضى بعضهم إلى أبي بكر بن الداية نائب نور الدين محمود بحلب فأعلمه الحال فسيّر عسكراً معه فكبسوا أولئك التركمان وجوسلين معهم فأخذوه أسيراً وأحضروه عنده، وكان أسره فتحاً لأنه كان شيطاناً عاتياً على المسلمين، وأُصيب الصليبيون كافةً بأسره.

ولما أُسر جوسلين سار نور الدين محمود إلى قلاعه فملكها، وهي: تل باشر، وعينتاب، وإعزاز، وتل خالد[1]، وقورس[2]، والراوندان[3]، وبرج الرصاص[4]، وحصن البارة[5]، وكفرسوت[6]، وكفرلاثا[7]، ودلوك، ومرعش، ونهر الجوز[8] وغير ذلك، وقد فتحها في مدةٍ يسيرةٍ، وكان نور الدين محمود كلما فتح منها حصناً نقل إليه كل ما تحتاج إليه الحصون خوفاً من نكثة تلحق المسلمين من الصليبيين فتكون بلادهم غير محتاجةٍ إلى ما يمنعها من العدو.

---

(١) تل خالد: قلعة من نواحي حلب.

(٢) قورس: مدينة أثرية قديمة من نواحي حلب، وهي خراب الآن.

(٣) الراوندان: قلعة حصينة وكورة من نواحي حلب.

(٤) برج الرصاص: قلعة من أعمال حلب على مقربةٍ من أعمال أنطاكية.

(٥) حصن البارة: البارة بليدة وكورة من أعمال حلب، وبها حصن، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة.

(٦) كفرسوت: من أعمال حلب، وهي الآن قرب بَهَسْنا.

(٧) كفرلاثا: بلدة في سفح جبل عاملة من نواحي حلب بينهما يوم واحد، وهي منتزه ذو بساتين ومياه جارية.

(٨) نهر الجوز: ناحية ذات قرى وبساتين بين حلب والبيرة التي على نهر الفرات، وهي من أعمال البيرة.

توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان في أول شهر رجب سنة ٥٤٧هـ، وكانت وفاته بمدينة همذان نتيجة مرض حمى شديدة أصابته مدة أسبوعٍ، وعمره خمس وأربعون سنةً، وكان مولده في شهر ذي القعدة سنة ٥٠٢هـ، وبموت السلطان مسعود ضعف أمر آل سلجوق وقلّ نفوذهم، وعهد من بعده إلى ملكشاه ابن أخيه محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان.

قبض الوزير خاصّ بك بن بلنكري على السلطان ملكشاه بن محمود، وراسل أخاه الملك محمد بن محمود بخوزستان سنة ٥٤٨هـ يستدعيه ويبدو أن قصده كان القبض عليه والخطبة لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد إليه فلما وصل إليه أجلسه على سرير السلطنة في أوائل شهر صفر سنة ٥٤٨هـ، وخطب له بالسلطنة وخدمه وبالغ في خدمته وحمل له هدايا عظيمةً ثم إنه دخل إلى الملك محمد ثاني يوم وصوله فقتله الملك محمد وقتل معه زنكي الجاندار، واستقر محمد بالسلطنة حتى توفي سنة ٥٥٤هـ، وعمل بعض الخلفاء بعدئذٍ على استرداد سلطتهم، وقام بعد السلطان محمد ابن عمه أرسلان بن طغرل.

أرسل الخليفة المقتفي لأمر الله سنة ٥٤٩هـ رسولاً إلى والي تكريت يلومه على تجمّع بعض الرجال عنده أمثال ابن الوزير وغيره فقبضوا على رسول الخليفة فبعث لهم الخليفة عسكراً فخرج أهل تكريت وقاتلوا عسكر الخليفة ومنعوهم من الدخول إلى البلد فسار الخليفة بنفسه في مستهل شهر صفر سنة ٥٤٩هـ على رأس قوةٍ ونزل على البلد فهرب أهله ودخل العسكر وأفسد بعضهم، ونصبوا على القلعة ثلاثة عشر منجنيقاً فسقط برج من أسوارها وبقي الحصار إلى الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة نفسها، وأمر الخليفة بالقتال والزحف فاشتدّ القتال وكثر القتلى ولم يبلغ الخليفة منها غرضاً فرجع إلى بغداد فدخلها في آخر شهر ربيع الأول، ثم أمر الوزير عون الدين بن هبيرة بالعودة إلى حصار تكريت والاستعداد لذلك وحمل جميع أدوات الحصار فسار إليها في السابع من شهر ربيع الثاني سنة ٥٤٩هـ، ونازلها وضيّق عليها فوصل الخبر بأن مسعود بلال وصل إلى شهرابان[1] ومعه عسكر كثير ونهبوا البلاد فعاد الوزير إلى بغداد. وكان

(١) شهرابان: قرية كبيرة ذات نخلٍ وبساتين من نواحي الخالص في شرقي بغداد.

سبب وصول هذا العسكر أنهم شجّعوا الملك محمد بن السلطان محمود على قصد العراق فلم يتهيّأ له ذلك فسيّر هذا العسكر والتحق بهم عدد كبير من التركمان فخرج الخليفة إليهم فأرسل مسعود بلال إلى تكريت فأخرج منها الملك أرسلان بن السلطان طغرل بن محمد وكان سجيناً هناك، وقال: إن هذا سلطان نقاتل بين يديه بإزاء الخليفة والتقى العسكران عند (بكمزة) بالقرب من بعقوبة[1] ودام اللقاء ثمانية عشر يوماً ثم إنهم التقوا في آخر شهر رجب سنة ٥٤٩هـ فاقتتلوا فانهزمت ميمنة عسكر الخليفة وبعض القلب حتى بلغ المنهزمون بغداد ونهبت وقُتل خازن الخليفة فحمل الخليفة بنفسه هو وولي العهد ابنه يوسف وصاح يا آل هاشم كذب الشيطان، وقرأ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾[2] وحمل باقي العسكر معه فانهزم مسعود بلال وجميع من معه وتمّت الهزيمة وظفر الخليفة بهم وغنم عسكره ما مع التركمان كله، وأخذ البقش كون خر الملك أرسلان بن طغرل وانهزما. ورجع الخليفة إلى

---

(١) بعقوبة: مدينة على نهر ديالي شمال شرقي بغداد على بُعد خمسين كيلاً منها، وبكمزة بين بعقوبة وبعيقبة.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

بغداد فدخلها في أوائل شهر شعبان سنة ٥٤٩هـ، ووصل الخبر أن مسعود بلال قصد مدينة واسط فنهب وخرّب فسيّر الخليفة الوزير عون الدين بن هبيرة في عسكرٍ خاصٍّ في العاشر من شهر شعبان سنة ٥٤٩هـ فانتصر عسكر الخليفة ولاحقوا عسكر مسعود وأخذ منهم الكثير، ثم رجع إلى بغداد. وأما الملك ألب أرسلان بن طغرل فإن الأمير البقش قد أخذه معه، وأرسل الملك محمد بن السلطان محمود إليه يقول له: ليحضر عنده ومعه أرسلان، فمات البقش كون خر في شهر رمضان سنة ٥٤٩هـ، ولُقِّب الوزير سلطان العراق وملك الجيوش. وبقي أرسلان مع ابن البقش، وكان طغرل بن أرسلان آخر السلاجقة.

طمع الصليبيون بمدينة دمشق بعد أن احتلّوا عسقلان ولم يكن بينهم وبين نور الدين محمود سوى دمشق لذا أخذ الصليبيون يتصلون بنصارى ليكونوا عيوناً لهم وعوناً، كما كان للصليبيين أتاوةً على أهل دمشق يأخذونها منهم سنوياً فكانت رسلهم تدخل البلد، فلما رأى نور الدين محمود ذلك خاف أن يملك الصليبيون دمشق فإن استطاعوا ذلك لم يبق للمسلمين بالشام مقام لذا أعمل الحيلة في أخذها إذ علم أنها لا تُملك قوةً

لأن صاحبها متى رأى غلبة من يقصده راسل الصليبيين واستعان بهم لئلا يملكها من يقوى بها على قتالهم.
راسل نور الدين محمود قائد جيوشها مجير الدين أنر ممثلاً لصاحبها جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن طغتكين، واستماله وواصله بالهدايا، وأظهر له المودة حتى وثق إليه فكان نور الدين محمود يقول له في بعض الأوقات: إن فلاناً كاتبني في تسليم دمشق يعني بعض أمراء مجير فكان يُبعد الذي قيل عنه ويأخذ أقطاعه فلما لم يبق عنده من الأمراء أحد قدَّم أميراً يقال له عطاء بن حفاظ السلمي الخادم وكان شهماً شجاعاً، وفوّض إليه أمر دولته، فكان نور الدين محمود لا يتمكّن معه من أخذ دمشق، ووقعت جفوة بين مجير الدين وبين عطاء فقبض مجير الدين على عطاء وقتله.
سار نور الدين محمود إلى دمشق وكان قد كاتب بعض رجالها واستمالهم فوعدوه بالتسليم إليه. فلما حضر نور الدين محمود البلد أرسل مجير الدين إلى الصليبيين يبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه ويبعدوا نور الدين محمود عنه فأخذوا في جمع رجالهم وما أن حشدوا واستعدّوا حتى كان نور الدين قد ملك دمشق فخاب أملهم وتوقّفوا عن الاستعداد للمسير.
وأما نور الدين محمود فإنه كان قد حاصر دمشق وتحرّك

فيها الذين سبق له أن راسلهم فسلّموا إليه البلد من الباب الشرقي وملكه وحاصر مجير الدين أنر في القلعة وراسله في تسليمها وعرض له أقطاعاً من جملته مدينة حمص فسلّمها إليه وسار إلى حمص، فأعطاه نور الدين محمود عوضاً عنها بالس[1] فلم يرضها وسار إلى العراق وأقام ببغداد وابتنى بها داراً وبقي بها إلى أن توفي.

لما علم الصليبيون أن نور الدين محمود قد ملك دمشق دبّ الخوف في قلوبهم منه إذ علموا أنه قد أصبح أقوى منهم ولا يستطيعون الوقوف في وجهه لما كانوا يرون منه قبل أن يملكها لذا راسله بعض الصليبيين الذين في قلعة تل باشر شمال حلب وهي قلعة حصينة وبذلوا له تسليمها فسيّر إليهم الأمير حسّان المنبجي وهو من أكابر أمرائه، وكان أقطاعه في ذلك الوقت مدينة منبج، وهي قريبة من قلعة تل باشر، وأمره أن يسير عليها ويتسلّمها فسار إليها وتسلّمها منهم وحصّنها، وشحنها بالذخائر ما يكفيها سنوات.

سار الخليفة المقتفي لأمر الله سنة ٥٥٠هـ إلى

(١) بالس: سبق تعريفها. وهي موقع مدينة مسكنة اليوم قرب نهر الفرات.

مدينة دقوقاء[1] على رأس قوةٍ عسكريةٍ فحاصرها وقاتل من بها ثم غادرها قبل يُحقّق غرضه وذلك لأنه قد بلغه أن عسكر الموصل قد استعدّوا للسير لمنعه عنها.

كانت خوزستان إلى الملك ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه فسار إليها شملة التركماني ليستولي عليها، فسيّر الخليفة إليه عسكراً فلقيهم شملة التركماني في شهر رجب سنة ٥٥٠هـ وقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة وأُسر عدد من أمرائهم ولكن شملة أحسن إليهم وأطلقهم، وأرسل يعتذر فقُبل عذره، وتابع سيره إلى خوزستان فاستولى عليها وغادرها صاحبها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد.

وسارت قبائل الغزّ سنة ٥٥٠هـ إلى نيسابور وملكتها بالسيف وقتلت محمد بن يحيى الفقيه الشافعي ونحو ثلاثين ألفاً من السكان، وكان للسلطان سنجر بن ملكشاه[2] اسم السلطنة وهو معتقل لا يُلتفت إليه.

---

(١) دقوقاء: مدينة بين بغداد وأربيل.

(٢) سنجر: أبو الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق: سلطان خراسان وغزنة وما وراء النهر، وخُطب له في سائر الأمصار، وضربت السكة باسمه في عامة الأقطار وتلقّب بالسلطان الأعظم معز الدين. كان من أعظم الملوك همةً وأكثرهم عطاءً. وقصدته قبائل الغزّ التركية=

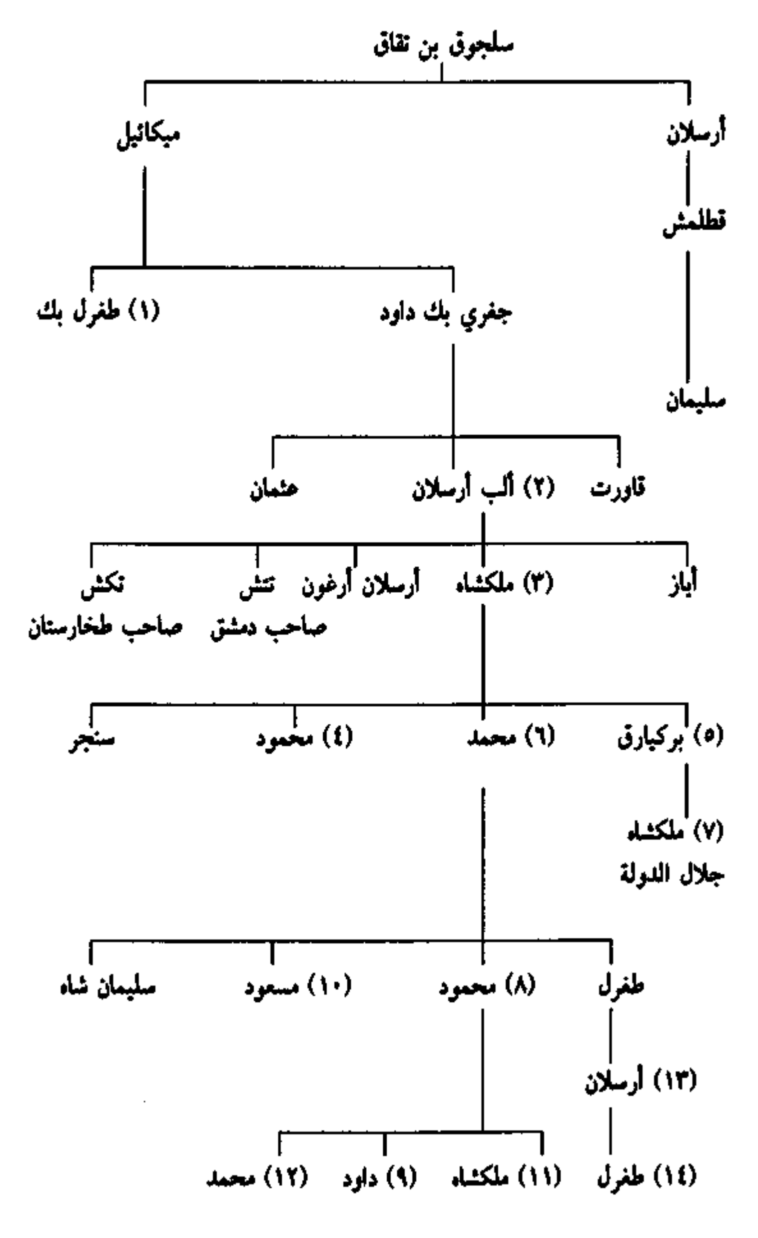
قبض زين الدين علي كوجك نائب قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسنقر صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، وكان سليمان شاه عند عمه السلطان سنجر قديماً وقد جعله ولي عهده وخُطب له على منابر خراسان، فلما أسرت قبائل الغز الملك سنجر مضى إلى خوارزمشاه فزوّجه ابنة أخيه أتسز ثم بلغه عنه ما كرهه فأبعده فجاء إلى أصفهان فمُنع من دخولها فمضى إلى قاشان فسيّر إليه محمد شاه بن أخيه محمود بن محمد عسكراً أبعدوه عنها فسار إلى

= وهزمته، وأخذته أسيراً سنة ٥٤٨هـ فانحل نظام ملكه، وبقي في أسرهم خمس سنوات، وتغلّب خوارزمشاه على مرو فتفرّقت مملكة خراسان. أفلت سنجر من الأسر وعاد إلى خراسان، وحاول إعادة بناء ملكه غير أن أجله أدركه.

ولد سنجر يوم الجمعة لخمس بقين من شهر رجب سنة ٤٧٩هـ بظاهر مدينة سنجار، ولذلك سمي سنجر، وتولّى المملكة سنة ٤٩٠هـ نيابةً عن أخيه بركيارق، ثم استقلّ بالسلطنة سنة ٥١٢هـ، وتوفي يوم الاثنين الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢هـ بمدينة مرو ودفن بها، واستولى على أكثر مملكته خوارزمشاه أتز بن محمد بن أنوشتكين، وهو جد السلطان محمد بن تكش خوارزمشاه، وقطعت الخطبة للسلاجقة ببغداد عند وصول خبر وفاة سنجر.

خوزستان فمنعه ملكشاه عنها فقصد طرف النهروان ونزل (البندرنيجين) وأرسل رسولاً إلى الخليفة المقتفي لأمر الله يعلمه بوصوله وتردّدت الرسل بينهما إلى أن استقرّ الأمر على أن يرسل أهله رهينةً، وقال: قد أرسلت هؤلاء رهائن فإن أذن أمير المؤمنين من دخول بغداد فعلت وإلا رجعت. فأكرم الخليفة الرهائن وأذن له في القدوم إليه فقدم ومعه ثلاثمائة رجلٍ فخرج ولد الوزير ابن هبيرة لتلقّيه ومعه قاضي القضاة والتقيبان ولم يترجّل له ابن الوزير، وخلع عليه الخليفة وأقام سليمان شاه بن محمد ببغداد إلى أن دخل شهر المحرم سنة ٥٥١هـ فأحضر فيه سليمان شاه إلى دار الخليفة وأحضر قاضي القضاة والشهود وأعيان العباسيين وحلف سليمان شاه للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وأن لا يتعرّض للعراق بحالٍ، فلما حلف خُطب له ببغداد ولقب ألقاب أبيه غياث الدنيا والدين وباقي ألقابه وخلع عليه السلطنة، وسيّر معه من عسكر بغداد ثلاثة آلاف فارسٍ، وجعل الأمير قويدان صاحب الحلّة أمير حاجب معه وسار نحو بلاد الجبل في شهر ربيع الأول سنة ٥٥١هـ وسار الخليفة إلى حلوان وأرسل إلى ملكشاه بن السلطان محمود أخي السلطان محمد صاحب همذان وغيرها يدعوه إلى موافقته فتقدّم في

ألفي فارسٍ فحلف كل منهما لصاحبه وجعل ملكشاه بن محمود ولي عهد عمه سليمان شاه وقواهما الخليفة بالمال والأسلحة وغيرها فساروا في جمعٍ كبيرٍ فلما سمع السلطان محمد بن السلطان محمود خبرهم أرسل إلى قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل ونائبه زين الدين يطلب منهما المساعدة ويبذل لهما البذل الكثير إن ظفر فأجاباه إلى ذلك ووافقا وقويت نفسه وسار إلى لقاء عمّه سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ووقعت الحرب بينهم في شهر جمادى الأولى واشتدّ القتال بين الفريقين فانهزم سليمان شاه ومن معه وتشتّت العسكر ووصل من عسكر الخليفة وكانوا ثلاثة آلاف رجلٍ نحو من خمسين رجلاً ولم يقتل منهم أحد وإنما أخذت خيولهم وأموالهم وتشتّتوا وجاءوا متفرقين، وسار سليمان شاه نحو بغداد على شهرزور فخرج إليه زين الدين عليّ في جماعةٍ من عسكر الموصل فوقف على طريق سليمان شاه وأخذه أسيراً وحمله زين الدين إلى قلعة الموصل وحبسه بها مكرماً محترماً، وأرسل زين الدين عليّ إلى السلطان محمود يعرفه ذلك ووعده المعاضدة على كل ما يريده منه والمساعدة له وذلك سنة ٥٥١هـ.



سلجوق بن تقاق
أرسلان
ميكائيل
قطلمش
جغري بك داود
(١) طغرل بك
سليمان
قاورت
(٢) ألب أرسلان
عثمان
أياز
(٣) ملكشاه
أرسلان أرغون
تتش
صاحب دمشق
تكش
صاحب طخارستان
(٥) بركيارق
(٦) محمد
(٤) محمود
سنجر
(٧) ملكشاه
جلال الدولة
طغرل
(٨) محمود
(١٠) مسعود
سليمان شاه
(١٣) أرسلان
(١٤) طغرل
(١١) ملكشاه
(٩) داود
(١٢) محمد

سار نور الدين محمود إلى قلعة حارم وهي لبيمند صاحب أنطاكية الصليبي وحاصرها وضيّق على أهلها وهي قلعة منيعة في نحور المسلمين، فاجتمع الصليبيون على مقربةٍ منها ثم ساروا نحوه ليبعدوه عنها، وكان بالقلعة أحد كبارهم ويرجعون إلى رأيه فأرسل إليهم يقول: إننا نستطيع العمل على حفظ القلعة وليس بنا ضعف فلا تخاطروا أنتم باللقاء فإنه إن هزمكم أخذها وغيرها والرأي مطاولته، فأرسلوا إليه وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم وتصالحوا على ذلك ورحل عنهم.

وفي شهر رمضان سنة ٥٥١هـ هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغزّ ومعه جماعة من الأمراء وسار إلى قلعة ترمذ، واستظهر بها على الغزّ، وكان خوارزمشاه اتسز بن محمود بن أنوشتكين والخاقان محمود بن محمد يقصدان قبائل الغزّ التركية فيقاتلانهم فيمن معهما فكانت الحرب بينهم سجالاً، واستولى كل من الغزّ والخراسانيين على ناحيةٍ من خراسان فهو يأخذ دخلها ولا رأس لهم يجمعهم، وسار السلطان سنجر من ترمذ يريد عبور نهر جيحون والسير إلى مرو، واتفق أن توفي عليّ بك مقدم الأتراك وكان شديد الوطأة على

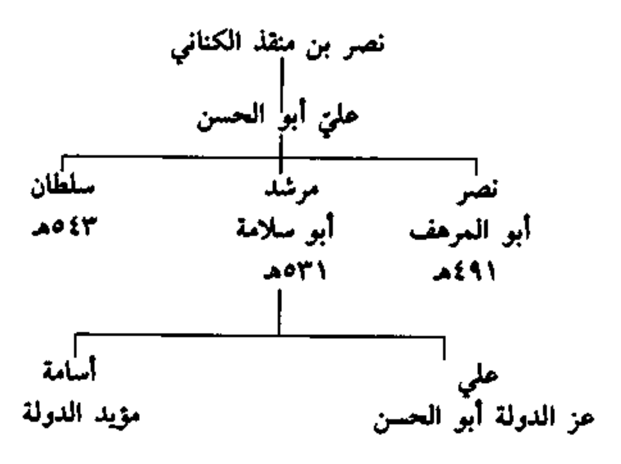
سنجر وعلى غيره، فلما توفي صفا الجو بين الأتراك وبين سنجر فرجع إلى دار ملكه بمدينة مرو فكانت مدة أسره مع الغزّ من السادس من شهر جمادى الأولى سنة ٥٤٨هـ إلى شهر رمضان سنة ٥٥١هـ.

كان السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه قد أرسل إلى الخليفة المقتفي لأمر الله يطلب منه أن يُخطب له ببغداد والعراق فامتنع الخليفة من إجابته إلى ذلك فسار من همذان في عساكر كثيرةٍ نحو العراق ووعده قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل ونائبه زين الدين علي بإرسال العساكر إليه نجدةً له على حصار بغداد فقدم العراق في شهر ذي الحجة سنة ٥٥١هـ فاضطرب الناس ببغداد وأرسل الخليفة يجمع العساكر فأقبلت عساكر واسط، وسار مهلهل إلى الحلّة فأخذها، وهوّن الخليفة والوزير عون الدين بن هبيرة بأمر الحصار وجمع السفن جميعها وقطع الجسر ونودي في منتصف شهر المحرم سنة ٥٥٢هـ ألا يقيم أحد بالجانب الغربي وبدأ القتال في العشرين من شهر المحرم، وتوانى عسكر الموصل بالقتال لأن نور الدين محمود صاحب حلب أرسل يلوم أخاه قطب الدين مودود ونائبه زين الدين عليّ لقتال

الخليفة، وفي الوقت الذي كان القتال يدور فيه إذ تصل الأخبار إلى السلطان محمد بن السلطان محمود أن أخاه ملكشاه وابن عمه أرسلان بن طغرل بن محمد وصاحب بلاد أران قد دخلوا همذان واستولوا عليها وأخذوا أهل الأمراء الذين مع السلطان محمد فلما بلغه ذلك جدّ في القتال لعله يبلغ مُناه فلم يستطع شيئاً ورحل عن بغداد نحو همدان في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢هـ وعاد زين الدين إلى الموصل، وتفرّق ذلك الجمع على عزم العودة إذا فرغ السلطان محمد من إصلاح بلاده، ومع كثرة القتال لم يقتل منهم إلا نفر يسير، غير أن الجراح كانت كثيرةً.

كانت قلعة شيزر لآل منقذ يتوارثونها منذ أيام صالح بن مرداس صاحب حلب والمتوفى سنة ٤٢٠هـ، وقد آل أمرها إلى أبي المرهف نصر بن علي بن نصر بن منقذ القضاعي الكناني بعد وفاة أبيه علي أبي الحسن، وبقي أبو المرهف في شيزر حتى توفي سنة ٤٩١هـ بعد أن أوصى من بعده لأخيه مرشد أبي سلامة وكان عالماً زاهداً، فقال: والله لا وليته ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها فولّاها أخاه الأصغر سلطان بن علي، وكان لمرشد عدد من الأولاد منهم: مؤيد الدولة أسامة بن

منقذ، وعزّ الدولة علي أبو الحسن بن منقذ، ولم يولد لسلطان أولاد ذكور حتى كبر، ووقع حسد وغيرة بين الأخوين وزاد أوارها المغرضون، وتوفي مرشد سنة ٥٣١هـ وتغيّر سلطان بن علي على أولاد أخيه مرشد حتى أخرجهم من شيزر فقصد أكثرهم نور الدين محمود بن زنكي وشكوا إليه ما لقوا من عمهم فغاظه ولم يمكنه السير إليه وإعادتهم إلى شيزر لاشتغاله بجهاد الصليبيين ولخوفه من أن يُسلّم سلطان بن علي شيزر إلى الصليبيين، وتوفي سلطان بن علي سنة ٥٤٣هـ، وولّى أولاده من بعده على شيزر فبلغ نور الدين محمود عنهم مراسلة الصليبيين فاشتدّ حنقه عليهم وزاد غضبه ولكن لم يستطع فعل شيءٍ خوفاً من ارتمائهم بأحضان الأعداء الصليبيين وانتظر فرصةً تمكّنه، وشاءت إرادة الله أن حدث زلزال سنة ٥٥٢هـ فذهب معظم آل منقذ إذ كانوا في حفلٍ لهم بمناسبة ختان ولد كبيرهم صاحب القلعة على حين كان أولاد مرشد بعيدين عنها ومنهم أسامة بن منقذ. وكان أحد أمراء نور الدين محمود بالقرب من القلعة بعد الزلزلة فأخذ القلعة وتسلّمها نور الدين محمود فجدّد عمران أسوارها.



كانت جزيرة ابن عمر وهي بلدة على نهر دجلة عند التقاء الحدود السورية ـ العراقية ـ التركية الآن كانت هذه البلدة لعماد الدين زنكي فلما قُتل سنة ٥٤١هـ أقطعها ابنه سيف الدين غازي للأمير أبي بكر الدبيسي وكان من أكابر أمراء والده وتمكّن منها وبقيت بيده حتى توفي في شهر ذي الحجة سنة ٥٥٢هـ، ولم يخلف ولداً فاستولى عليها أحد مماليكه وأطاعه جندها فحاصرها قطب الدين مودود ثلاثة أشهرٍ ثم تسلّمها من المملوك في شهر صفر سنة ٥٥٣هـ وعوّضه عنها.

وتوفي السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٢هـ، وكان مولده ببلدة سنجار سنة ٤٧٩هـ، وسكن خراسان واستوطن

مدينة مرو، ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد، واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله فعهد إلى محمد بالسلطنة وجعل سنجراً ولي عهده فلما مات محمد خطب لسنجر بالسلطان واستقام أمره وأطاعه السلاطين، وأسره الغز، ثم تخلّص من الأسر بعد مدةٍ، وجمع إليه أطرافه وكاد يعود إليه ملكه فأدركه أجله. ولما شعر بدنو أجله استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخته وبقي خائفاً من الغزّ فراسلوه وسألوه أن يحضر ليملكوه فلم يثق بهم فأرسل إليهم ابنه فأطاعوه فعاد فلحق به.

واستولى نور الدين محمود على بعلبك سنة ٥٥٢هـ، وكانت بيد الضحّاك البقاعي وقد ولّاه أمرها صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين محمود دمشق سنة ٥٤٩هـ امتنع الضحّاك في بعلبك ولم يكن بإمكان نور الدين محمود حصاره لقربه من الصليبيين فوادعه وتلطّف معه حتى هذا الوقت فاستولى عليها وملكها.

وتوفي الملك محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٥٤هـ بباب همذان وكان مولده في شهر

ربيع الثاني سنة ٥٢٢هـ فلما مات اختلفت الأمراء فجماعة طلبوا أخاه ملكشاه بن محمود، وجماعة طلبوا سليمان شاه بن محمد، وهو عمه، وهم الأكثرية وجماعة طلبوا أرسلان بن طغرل.

مرض نور الدين محمود مرضاً شديداً في قلعة حلب، وشعر بدنو أجله وكان معه أخوه الأصغر أميران فجمع الناس وحاصر القلعة، وكان أسد الدين شيركوه بحمص وهو أكبر أمرائه فبلغه خبر موته فسار إلى دمشق ليملكها وبها أخوه نجم الدين أيوب، فأنكر عليه أيوب ذلك، وقال له: أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب فإن كان نور الدين حياً خدمته في هذا الوقت وإن كان قد مات فأنا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها فعاد إلى حلب مجداً وصعد إلى القلعة، وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس كلهم فلما رأوه حياً تفرّقوا عن أخيه أميران فسار إلى حران فملكها، فلما عوفي نور الدين محمود قصد حرّان ليخلصها من أخيه، فهرب أخوه منه وترك أولاده بحران في القلعة فملكها نور الدين محمود وسلّمها إلى زين الدين عليّ نائب أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل، ثم سار نور الدين محمود بعد أن أخذ حران إلى الرقة

فأخذها وكان فيها أولاد أحد الأمراء توفي والدهم وبقيت معهم.

لما توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل يطلبون منه إرسال الملك سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه إليهم ليولّوه السلطنة إذا استقرّ الأمر بينهم أن يكون سليمان شاه سلطاناً، وقطب الدين مودود مدبّر أمور السلطنة، وجمال الدين وزير قطب الدين وزيراً للسلطان سليمان شاه وتحالفوا على هذا، فتجهّز سليمان شاه بما يصلح للسلاطين وسار ومعه زين الدين عليّ وعسكر الموصل إلى همدان فلما قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر إليهم أرسالاً كل يومٍ تلقّاه جماعة وأمير فاجتمع مع سليمان شاه عسكر كثير فخافهم زين الدين عليّ على نفسه لأنه رأى من تسلّطهم على السلطان وتركهم للأدب معه ما أوجب الخوف فعاد زين الدين عليّ إلى الموصل، فحين عاد عنه لم ينتظم أمره ولم يتمّ له ما أراده وقبض العسكر عليه بباب همذان في شهر شوال سنة ٥٥٦هـ وخطبوا لأرسلان شاه بن الملك طغرل، والملك طغرل هو أخو سليمان شاه.

وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله:

مرض الخليفة سنة ٥٥٤هـ واشتدّ مرضه ثم عافاه الله وعمّت البشائر بغداد، ووزّع الخليفة الصدقات وكذا رجال الدولة وغلق البلد أسبوعاً بمناسبة الشفاء.

ثم توفي الخليفة في الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ بعلّة التراقي، وهي العلّة نفسها التي مات بها أبوه المستظهر بالله، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنةً وثلاثة أشهرٍ وستة عشر يوماً.

شخصية المقتفي لأمر الله:

كان حليماً كريماً، عادلاً حسن السيرة، من الرجال ذوي الرأي والعقل الكثير، وهو أول من حكم العراق منفرداً عن سلطان يكون معه من بداية عهد بني بويه، وأول خليفةٍ تمكّن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكّم الترك على الخلفاء من عهد المستنصر بن المتوكل إلى الآن إلا أن يكون المعتضد بالله بن طلحة الموفق بن المتوكل. وكان شجاعاً مقداماً مباشراً للحروب بنفسه. وكان يبذل الأموال الوفيرة لمن يأتيه بالأخبار حتى لا يفوته منها شيء.

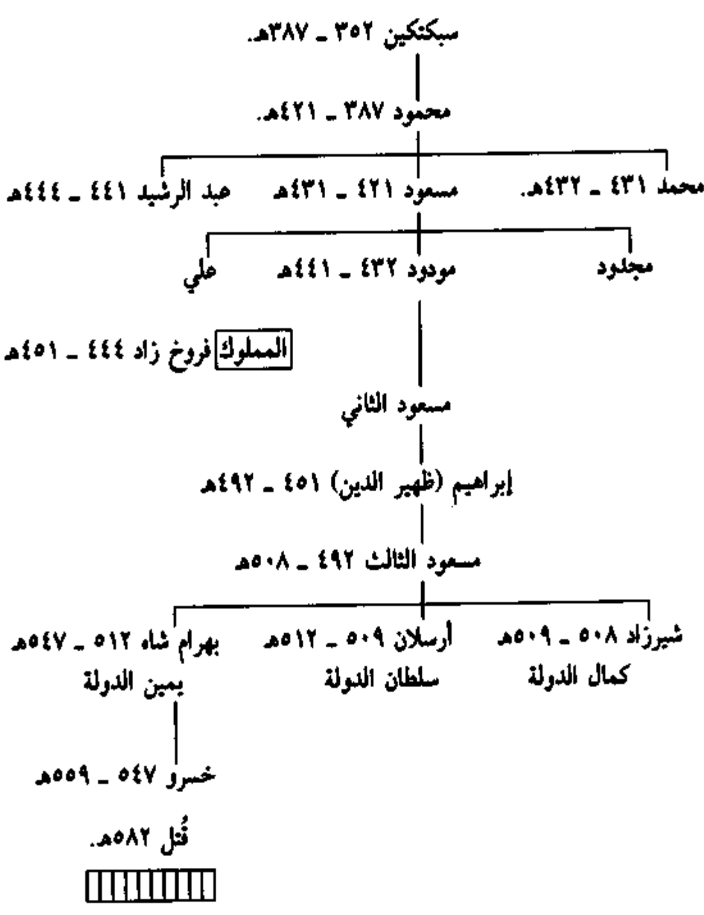
قال الذهبي: كان المقتفي من سروات الخلفاء، عالماً، أديباً، شجاعاً، حليماً، دمث الأخلاق، كامل السؤدد، خليقاً بالإمارة، قليل المثل في الأئمة، لا يجري في دولته أمر - وإن صغر - إلا بتوقيعه.

٢" - الغزنويون:

كان بهرام شاه بن مسعود الثالث يحكم غزنة منذ سنة ٥١٢هـ، ويتبع السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي، وقد ارتاب سنجر سنة ٥٢٩هـ من ولاء بهرام شاه، فسار في شهر ذي القعدة من خراسان إلى غزنة - وكان سنجر هو الذي استولى على غزنة سنة ٥٠٩هـ، فلما اقترب سنجر من غزنة أرسل بهرام شاه إلى سنجر رسلاً يُظهر الخنوع ويسأل الصفح عن جرمه والعفو عن ذنبه فأرسل إليه سنجر أكبر أمير عنده وهو جوهر الخادم في جواب رسالته يُجيبه عن العفو عنه إن حضر عنده وعاد إلى طاعته، فلما وصل جوهر الخادم إلى بهرام شاه أجابه إلى ما طلب منه من الطاعة وحمل المال والحضور عنده بنفسه وأظهر من الطاعة والانقياد لما يحكم به السلطان سنجر شيئاً كثيراً، وعاد جوهر الخادم ومعه بهرام شاه إلى سنجر

فلما اقترب منه سبق جوهر إلى السلطان سنجر وأعلمه بوصول بهرام شاه وأن صباح غدٍ يكون عنده، وعاد جوهر إلى بهرام ليجيء بين يديه، وركب سنجر من الغد في موكبه للقائه، وتقدّم بهرام شاه ومعه جوهر فلما عاين بهرام شاه موكب السلطان سنجر نكص على عقبيه عائداً فأمسك جوهر عنان فرسه وقبّح فعله وخوّفه عاقبة ذلك فلم يرجع وولّى هارباً ولم يُصدق بنجاته ظنّاً منه أن سنجراً يأخذه ويملك بلده وتبعه جماعة من أصحابه وخواصه ولم يعرج على غزنة.

وسار سنجر إلى غزنة فدخلها وملكها وأخذ جميع ما فيها وجبى أموالها وكتب إلى بهرام شاه يلومه على ما فعله ويحلف له أنه ما أراد به شرّاً ولا له في بلده مطمع، ولا هو ممن تعقُب حسنته معه سيئة وإنما قصده لإصلاحه فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصّل ويقول: إن الخوف منعه من الحضور، ولا لوم على من خاف من السلطان، ورجا في عودته إلى الإحسان فأجابه سنجر إلى أن يُعيد عليه بلده، فارق غزنة عائداً إلى خراسان فوصل إلى بلْخ في شهر شوال سنة ٥٣٠هـ، واستقرّ ملك غزنة لبهرام شاه ورجع إليها.



وفي سنة ٥٤٣هـ قصد سوزي بن الحسين ملك الغوريين مدينة غزنة فملكها، وذلك أن ملك الغوريين السابق قطب الدين محمد بن الحسين، وهو أخو سوزي كان قد صاهر بهرام شاه صاحب غزنة فعظم شأنه بالمصاهرة وعلت همّته فجمع جموعاً كثيرةً وسار إلى

غزنة ليملكها، وقيل: إنما سار إليها مظهراً الخدمة والزيارة، وهو يريد المكر والغدر، فعلم به بهرام شاه فأخذه وسجنه ثم قتله، فعظم قتله على الغورية ولم يمكنهم من الأخذ بالثأر، وبعد قتله ملك بعد أخوه سام بن الحسين فمات بالجدري، وملك بعده أخوه علاء الدين سوزي بن الحسين، وقوي أمره وتمكّن في ملكه فجمع عسكره وسار إلى غزنة طالباً بثأر أخيه المقتول وقاصداً ملك غزنة فلما وصل إليها ملكها في شهر جمادى الأولى سنة ٥٤٣هـ، فولّى علاء الدين أخاه سيف الدين على غزنة ورجع وفارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند وجمع جموعاً كثيرةً وعاد إلى غزنة، ولما التقى بهرام شاه وسوزي رجع عسكر غزنة إلى بهرام شاه وصاروا معه وسلّموا إليه سيف الدين فقتله. وتوفي بهرام شاه سنة ٥٤٧هـ وخلفه ابنه خسرو، وجاء علاء الدين الغوري إلى غزنة فهرب منها خسرو بن بهرام، وانتهى أمر الغزنويين من غزنة إلا أن سلطتهم بقيت في لاهور حتى عام ٥٥٩هـ حيث سار إليه شهاب الدين الغوري فحاصره في لاهور، وقبض عليه وأرسله إلى أخيه غياث الدين الغوري فقتله سنة ٥٨٢هـ، وانتهى أمر الغزنويين.

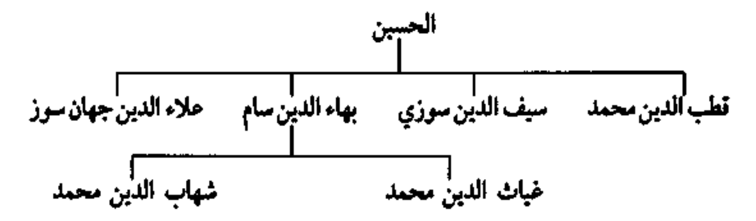
٣ ـ الغوريون:

الغوريون قوم جبليون يقيمون بين غزنة وهراة، وبلادهم جبلية موحشة فيها قلعة فيروزكوه المشهورة، وبرز من الغوريين قطب الدين محمد الغوري الذي تزوج بنت مسعود الثالث بن إبراهيم ظهير الدين الغزنوي أخت بهرام شاه وفي سنة ٥٤٢هـ دبّر بهرام شاه مؤامرةً لقتل صهره قطب الدين محمد الغوري، وقد أثار هذا إخوة قطب الدين محمد فسار سيف الدين سوزي وأخوه علاء الدين إلى غزنة ففرّ منها بهرام شاه إلى الهند، وتولّى أمر غزنة سيف الدين سوزي بن الحسين نيابةً عن أخيه علاء الدين حسين جهان سوز.

وعندما داهمهم فصل الشتاء ببرده القارس وكثرة ثلوجه التي يصعب معها الانتقال قبض السكان على سيف الدين ودُعي بهرام شاه للعودة إلى غزنة فرجع وقتل سيف الدين، فما كان من علاء الدين إلا أن رجع إلى غزنة سنة ٥٤٤هـ وخرّبها وفرّ بهرام شاه، وتوفي سنة ٥٤٧هـ، وعاد علاء الدين فهدّم مدينة غزنة ثانيةً سنة ٥٥٠هـ.

قوي أمر علاء الدين واتسعت مملكته، وكان أخوه بهاء الدين سام الذي توفي سنة ٥٤٤هـ حاكم قلعة

فيروزكوه، وقد عيّن علاء الدين ولدي أخيه بهاء الدين وهما: غياث الدين محمد، وشهاب الدين محمد، وقد سارا بالبلاد التي يشرفان عليها سيرةً حسنةً وأحبّهما الناس غير أن الوشاة قد أوقعوا بينهما وبين عمهما علاء الدين، وأخبروه أنهما يريدان قتله والاستيلاء على ملكه فدعاهما فلم يحضرا إليه فأرسل إليهما جيشاً فلم يصل معهما إلى نتيجةٍ بل هُزم أمامهما، فما كان من علاء الدين إلا أن سار إليهما بنفسه غير أنه هُزم أيضاً وأُخذ أسيراً، غير أنهما أحسنا معاملته، فأجلساه على مجلس الملك ووقفا في خدمته، وعرف أن الواشين والمغرضين هم الذين أوقعوا بينهم، لذا فقد أوصى لغياث الدين من بعده وزوّجه بابنته، وتوفي علاء الدين سنة ٥٥٦هـ.



٤" ـ خوارزم:

كان يحكم بلاد خوارزم أتسز بن قطب الدين محمد منذ سنة ٥٢١هـ وقد قصد السلطان سنجر خوارزم وأخذها من خوارزم شاه أتسز، وشاه تعني (ملك)

وذلك سنة ٥٣٦هـ، وقد قُتل ولد خوارزمشاه أتسز أثناء القتال الذي دار بين الطرفين، غير أن خوارزمشاه أتسز قد بقي حاقداً على سنجر لفقد ولده ويريد الثأر فراسل سلطان بلاد الخطا وأطمعهم في ملك سنجر فساروا إليه فلما التقى الجمعان انهزم سنجر فسار خوارزمشاه أتسز إلى خراسان فقصد مدينة سرخس في شهر ربيع الأول سنة ٥٣٦هـ، ومنها رحل إلى مدينة مرو قاعدة خراسان فنزل بظاهر البلد ولم يحدث منه أي اعتداءٍ على السكان، واستدعى الفقيه أبا الفضل الكرماني وأعيان البلد فثار عامة أهل مرو وقتلوا بعض أهل خوارزمشاه وأخرجوا أصحابه من البلد، وأغلقوا أبواب المدينة واستعدوا للامتناع فقاتلهم خوارزمشاه ودخل مدينة مرو عنوةً في السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٣٦هـ وقتل كثيراً من أهلها، ثم عاد عنها خوارزمشاه واستصحب معه كثيراً من علمائها، ثم سار في شهر شوال من السنة نفسها إلى نيسابور فخرج إليه جماعة من علمائها وأعيانها وسألوه أن لا يفعل شيئاً بأهل نيسابور كما فعل بأهل مرو فأجابهم إلى ذلك ولكنه تتبع أموال أصحاب السلطان فأخذها وقطع خطبة السلطان سنجر في أول شهر ذي القعدة سنة ٥٣٦هـ وجعل الخطبة له فلما ترك الخطيب ذكر سنجر وذكر خوارزمشاه صاح

الناس وثاروا وكادت الفتنة تعمّ وإنما منع الناس ذوو الأحلام، وبقيت خطبة سنجر مقطوعةً حتى الأول من شهر المحرم سنة ٥٣٧هـ حيث أُعيدت بعد ذلك.

وأرسل خوارزمشاه جيشاً إلى جهات بيهق فقام العسكر يقاتلون أهلها مدة خمسة أيامٍ، ثم سار عنها ذلك الجيش وأخذ أفراده ينهبون البلاد، ومنع السلطان سنجر من مقاتلة خوارزمشاه أتسز خوفاً من قوة عسكر بلاد الخطا بما وراء النهر ومجاورتهم مُلك خوارزمشاه وخراسان.

سار السلطان سنجر سنة ٥٣٨هـ إلى خوارزمشاه أتسز فجمع أتسز عساكره وتحصّن بالمدينة ولم يخرج منها لقتاله لعلمه أنه لا يقوى لسنجر، وكان القتال يجري بين الفريقين من وراء السور، فاتفق في يومٍ من الأيام أن هجم أمير من أمراء سنجر اسمه سنقر على البلد من الجانب الغربي فلم يبق غير ملكه قهراً وعنوةً، وهجم أمير آخر من أمراء سنجر اسمه مثقال الناجي من الجانب الشرقي ولكنه هُزم وخرج من البلد، وبقي الأمير سنقر وحده في البلد فقوي عليه خوارزمشاه أتسز فأخرجه من البلد وبقي السلطان سنجر وحده فلما رأى قوة البلد وامتناعه عزم على العودة إلى مرو، فاتفق أن

أرسل خوارزمشاه أتسز رسلاً يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود إلى ما كان عليه من الانقياد فأجابه إلى ذلك وتصالحا، وعاد السلطان سنجر إلى مرو وأقام أتسز ملكاً بخوارزم.

أنوشتكين ٤٧٠ ـ ٤٩٠هـ
|
قطب الدين محمد ٤٩٠ ـ ٥٢١هـ
|
أتسز ٥٢١ ـ ٥٥١هـ
|
ايل أرسلان ٥٥١ ـ ٥٦٨هـ

٥" ـ آل زنكي:

كانت هذه الأسرة تتبع السلطان الذي هو أحد أفراد آل سلجوق لذا وردت أكثر أحداث هذه الأسرة ووقائعها ضمن الحديث عن السلاجقة، ولكن لما كان دورها سيكون مستقلاً وله أهميته رغبت أن يُعرّف بها من البداية.

زنكي هو لقب عماد الدين بن قسيم الدولة آقسنقر، وكان آقسنقر والياً على حلب وقُتل سنة ٤٨٧هـ، وكان عمر ابنه عماد الدين يومذاك عشر سنوات، وقتله الملك تتش بن ألب أرسلان السلجوقي صاحب دمشق في صراعه مع ابن أخيه بركيارق بن ملكشاه بن ألب

أرسلان من أجل السلطنة، وكان قد قتله صبراً حيث وقع أسيراً وحُمل إليه، فقال له تتش: لو ظفرت بي ما كنت صنعت، قال: كنت أقتلك، فقال له: أنا أحكم عليك بما تحكم عليّ وقتله صبراً.

استولى الأمير كربوقا على مدينة الموصل سنة ٤٨٩هـ فأخذ عماد الدين زنكي لعنده واعتنى به وأكرمه إكراماً لأبيه قسيم الدولة آقسنقر، وتوفي كربوقا سنة ٤٩٥هـ فخلفه على الموصل الأمير شمس الدولة جكرمش فقرّب عماد الدين زنكي إليه وأولاه حبّه، وظلّ على ذلك حتى توفي جكرمش سنة ٥٠٠هـ، فخلفه على الموصل (جاولي سقاو) فبقيت علاقته مع عماد الدين زنكي، غير أن جاولي سقاو قد أعلن عصيانه للسلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان وانتقل إلى بلاد الشام سنة ٥٠٢هـ فانفصل عنه عماد الدين زنكي.

عُيّن والٍ جديد على الموصل سنة ٥٠٢هـ هو مودود بن التونتكي فانضمّ إليه عماد الدين زنكي، وبقي بجانبه حتى قُتل سنة ٥٠٧ في دمشق بيد أحد أفراد الفرقة الباطنية، ورجع عماد الدين زنكي إلى الموصل لينضمّ إلى الوالي الجديد جيّوش بك، ثم سار عماد الدين لقتال الصليبيين مع الأمير آقسنقر البرسقي وأبدى

عماد الدين شجاعةً فائقةً في قتاله، وعندما انتهت تلك الحملات طلب السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه من والي الموصل تقديم عماد الدين واستشارته في المهمّات.

وقاتل عماد الدين زنكي مع جيّوش بك والملك مسعود ضد السلطان محمود أخي الملك مسعود في سبيل وصول الملك مسعود إلى السلطنة غير أنهم فشلوا في مهمّتهم واستقرّ الأمر للسلطان محمود الذي خلف أباه محمداً بن ملكشاه بن ألب أرسلان.

حاول جيّوش بك سنة ٥١٤هـ أن يُجدّد المحاولة لاستلام مسعود السلطنة غير أن عماد الدين زنكي لم يُوافقه، ولما فشلت المحاولة الثانية عُزل جيّوش بك عن الموصل، وعرف السلطان محمود موقف عماد الدين فقدّره وأوصى والي الموصل الجديد آقسنقر البرسقي بتقديم زنكي وإكرامه.

عُيّن آقسنقر البرسقي عام ٥١٦هـ والياً على العراق ورافقه عماد الدين زنكي، واشترك معه في قتال دبيس بن صدقة غير أنهما قد هُزما، وولّى آقسنقر البرسقي عماد الدين زنكي على واسط، وكلّفه بقتال دبيس فانتصر عليه وهذا ما جعل البرسقي يُضيف إلى عماد الدين البصرة

مع واسط. واشترك الخليفة والبرسقي وزنكي بقتال دبيس، واتبع زنكي خطةً كان لها دور في التغلّب على دبيس.

ترك عماد الدين زنكي البصرة فكلّف البرسقي أميراً لحمايتها فتمكّن دبيس من العودة إلى البصرة وقتل أميرها، فرجع زنكي إلى البصرة ففرّ منها دبيس والتحق ببلاد الشام سنة ٥١٧هـ.

أُعيد آقسنقر البرسقي والياً على الموصل ليعمل على قتال الصليبيين فطلب من عماد الدين زنكي أن يسير معه ولكن زنكي اختار غير ذلك فقد ترك البصرة وسار إلى أصبهان ليلتحق بحاشية السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه آل سلجوق. وفي سنة ٥١٨هـ كلّف السلطان محمود عماد الدين زنكي بأن يسير إلى البصرة إذ غدت مسرحاً للحوادث بعده وأقطعه إياها وفي الوقت نفسه كلّفه بالإشراف على واسط وأن يصدّ عنها جيوش الخليفة إذا ما اتجهت نحوها، وفعلاً صدّ عنها جيوش الخليفة سنة ٥١٩هـ.

وقع الخلاف بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان محمود فسار السلطان نحو بغداد وطلب من عماد الدين زنكي دعمه ضد الخليفة فلبّى الدعوة وسار

بمقاتليه نحو بغداد، واضطر الخليفة إلى الصلح، ورشّح عماد الدين زنكي لتولّي أمر العراق وذلك سنة ٥٢٠هـ، وصدر الأمر بتوليته، وغادر السلطان محمود بغداد بعد أن أمن العراق ما دامت بيد عماد الدين زنكي.

وفي سنة ٥٢١هـ توفي عز الدين مسعود بن آقسنقر البرسقي بعد أبيه، وتولّى مكانه أخوه الصغير، واستبدّ بالأمر جاولي الوصي على الأمير الصغير غير أن السلطان عيّن عماد الدين زنكي على الموصل فسار إليها ولم يتولّ أمر العراق سوى أربعة أشهرٍ، وقد أُعطي عماد الدين زنكي ولاية الموصل لقتال الصليبيين الذين استأسدوا بعد وفاة والي الموصل آقسنقر البرسقي سنة ٥٢٠هـ وقيام ابنه عز الدين مسعود مكانه.

تقدّم عماد الدين زنكي إلى حلب ودخلها سنة ٥٢٢هـ.

سار دبيس بن صدقة إلى الملك سنجر سلطان السلاجقة في خراسان، وهو عمّ السلطان محمود، وقد تقرّب دبيس من سنجر، وفي الوقت نفسه وصل السلطان محمود إلى عمه سنجر لتصفية الخلاف بينهما، وقد تمّ ذلك، وعندما أراد السلطان محمود العودة طلب منه عمه سنجر أن يعزل عماد الدين زنكي عن الموصل

وأن يولّي دبيس بن صدقة مكانه، فوافق، وأخذه معه.

طلب السلطان محمود من الخليفة تناسي الخلافات والسماح لدبيس بدخول بغداد، ووصل الخبر إلى عماد الدين زنكي فترك الموصل واتجه إلى بغداد، واستغرب كيف يُولّي الموصل من ساعد الصليبيين وحاصر معهم حلب، وإمارة الموصل من مهمتها قتال الصليبيين! ووافقه الخليفة بسبب كراهيته وكراهية أهل بغداد لدبيس بن صدقة، ووافق السلطان محمود الذي كان من مصلحته أن يكون عماد الدين زنكي أمير الموصل ولا يكون دبيس الذي قد يكون عيناً عليه، وربما لا يكون هناك تفاهم معه.

توفي السلطان محمود سنة ٥٢٥هـ، وتولّى مكانه ابنه داود واختلف السلاجقة بعضهم مع بعض، ووقف عماد الدين زنكي بجانب سنجر عمّ السلطان محمود، وقاتل الخليفة وانهزم وعاد إلى الموصل، وحقّق السلطان مسعود النصر على أقربائه وتسلّم مركز السلطنة.

اختلف الخليفة المسترشد بالله مع عماد الدين زنكي، وسار الخليفة إلى الموصل وفرض عليها الحصار ثم اضطر أن يفكّ عنها الحصار وأن يرحل إلى

بغداد وذلك عندما سار السلطان مسعود إلى بغداد، وتصالح الخليفة وعماد الدين زنكي سنة ٥٢٨هـ، وربما كان الصلح للخلاف مع السلطان مسعود بل اشترك زنكي مع الخليفة في صراعه مع السلطان مسعود سنة ٥٢٩هـ.

استمرت العلاقات غير طيبةٍ بين السلطان مسعود وبين عماد الدين زنكي غير أن المهادنة قد سادت وذلك لاهتمام عماد الدين بقتال الصليبيين ومطالبة رجالات مسعود بإبقاء إمارة الموصل حاجزاً بينهم وبين أطماع الصليبيين.

في الوقت الذي كان عماد الدين فيه يدخل في الصراعات الدائرة في العراق وبين الأسرة السلجوقية بعضهم مع بعض، لم يكن ليولي وجهه نحو المشرق فقط بل كان أكثر الأيام متجهاً نحو الغرب يعمل على قتال الصليبيين أولاً ومن هذا الجهد كان يعمل على وحدة البلدان وجمعها تحت إمارةٍ واحدةٍ ليمكن مقاومة الصليبيين وطردهم من البلاد إذ كانت بلاد الشام يومذاك مجزأةً بين أمراء المدن، وكان أشهر هؤلاء الأمراء حكام دمشق أكبر مدن الشام ومقرها الرئيسي، وكانت بيد أسرة طغتكين أحد قادة الجيش السلجوقي، وكان

بالأصل مملوكاً لتتش بن ألب أرسلان الذي كان والياً على دمشق عند وفاة أخيه ملكشاه وطمع أن يمدّ نفوذه إلى حلب والجزيرة وأذربيجان، وقد قُتل سنة ٤٨٨هـ عند صراعه مع ابن أخيه بركيارق بن ملكشاه، وبعد مقتله خلفه ابنه دُقاق الذي أناب عنه طغتكين في حكم دمشق، واستمرّ ذلك حتى سنة ٤٩٧هـ حيث خلفه في حكم دمشق ابنه تاج الملوك بوري حتى سنة ٥٢٢هـ، ثم شمس الملوك إسماعيل بن بوري حتى سنة ٥٢٩هـ فشهاب الدين محمود حتى سنة ٥٣٣هـ، فجمال الدين محمد حتى ٥٣٤هـ فولده مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد حتى استولى عليها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سنة ٥٤٩هـ.

بعد أن تولّى عماد الدين زنكي إمارة الموصل ضمّ إليه جزيرة ابن عمرو سنة ٥٢١هـ، وحلب سنة ٥٢٢هـ، وسنجار والخابور وحران سنة ٥٢٣هـ، وأربيل سنة ٥٢٦هـ، والرقة ٥٢٩هـ، وعانة والحديثة سنة ٥٣٨هـ، وقد أسدى حاكم تكريت نجم الدين أيوب، ومعه أخوه أسد الدين شيركوه معروفاً لعماد الدين زنكي، فلما أُبعدا عن تكريت انتقلوا إليه فأكرمهما، وسلّم نجم الدين أيوب مع أخيه بعلبك حين استولى عليها سنة

٥٣٤هـ، وفي الوقت نفسه ضمّ إلى سلطانه ديار بكر وماردين ونصيبين وكذلك منطقة الأكراد.

ضمّ عماد الدين زنكي إليه مدينة حماة سنة ٥٢٤هـ غير أن شمس الملوك إسماعيل بن بوري حاكم دمشق قد استردّها سنة ٥٢٧هـ، ثم دخلها عماد الدين زنكي ثانيةً سنة ٥٢٩هـ، وألقى الحصار على دمشق في تلك السنة، وفكّر كثيراً في حكم دمشق وخاصةً أن حاكمها مجير الدين أبق يتسلّط عليه أنز ويتعاون مع الصليبيين ضد عماد الدين زنكي بل قد سلّمهم مدينة بانياس الجنوب عندما كان نائبها يعطى الطاعة لعماد الدين زنكي، وقد فشل عماد الدين زنكي في كل محاولاته في تلك المدة لدخول دمشق.

هادن عماد الدين زنكي في أول أمره أمير مدينة الرها الصليبي جوسلين وذلك من أجل توسعة منطقة نفوذه وتقوية سلطانه، ثم اتجه إلى حصن الأثارب جنوب غربي مدينة حلب حيث كان الصليبيون فيه يقاسمون سكان مدينة حلب خيرات وعائدات ضواحي المدينة الغربية، ويقومون بغاراتٍ دائمةٍ عليهم، ولمّا علم الصليبيون في بلاد الشام نيّة عماد الدين زنكي اتجهوا بقواتٍ كبيرةٍ نحوه، فترك حصار الحصن والتقى

بهم بعيداً عنه وجرت بين الجانبين معركة عظيمة انتصر فيها المسلمون وقتلوا كثيراً من الصليبيين، وأسروا الكثير، ثم اتجه عماد الدين إلى الحصن ودخله عنوةً، ثم تقدّم إلى حارم وحاصرها فهادنه أهلها ودفعوا له نصف دخل بلدهم.

دخل عماد الدين زنكي سنة ٥٢٩هـ معرة النعمان وكفرطاب، وسار إلى حمص وحاصرها سنة ٥٣١هـ فحشد له الصليبيون حشداً كبيراً ضمّ جموعهم في بيت المقدس بقيادة ملكهم فولك وجموعهم في طرابلس بقيادة أميرهم ريموند أمير طرابلس الصليبي فترك عماد الدين زنكي حصار حمص والتقى بهم بعيداً عنها في معركةٍ قاسيةٍ انتصر فيها عليهم، وأسر عدداً كبيراً منهم كان من بينهم ريموند أمير طرابلس، أما فولك ملك بيت المقدس فقد هرب إلى حصن بعرين[1]، ثم استطاع عماد الدين أن يتسلّم حصن بعرين وأن يستمر في قتاله للصليبيين حتى ملك إمارة الرها سنة ٥٣٩هـ، واستمر في صراعه مع الأعداء حتى قتل سنة ٥٤١هـ وهو يحاصر قلعة جعبر[2] على نهر الفرات.

---

(١) بعرين: بليدة بين حمص والساحل.

(٢) قلعة جعبر: بين الرقة ومسكنة قرب صفّين.

خلف عماد الدين زنكي أولاده: سيف الدين غازي الذي تولّى أمر الموصل، ونور الدين محمود الذي تولّى أمر حلب، وقطب الدين مودود الذي خلف أخاه سيف الدين غازي على الموصل، عمل نور الدين محمود على قتال الصليبيين وفق سياسة أبيه بتوحيد بلاد الشام، وحاول الصليبيون استرداد الرها منه لكنه لم يُمكّنهم من ذلك، وقد كانت ذات أهميةٍ كبيرةٍ بنظر الصليبيين حتى قامت أوربا بإرسال الحملة الصليبية الثانية لاسترداد الرها غير أن هذه الحملة قد تركت هدفها الرئيسي واتجهت إلى دمشق ذات الموقع القوي ضد نور الدين محمود، وهذا ما جعل نور الدين يركّز قوته على دمشق واستطاع أن يدخلها سنة ٥٤٩هـ لإنقاذها من أن تقع بيد الصليبيين، وبناءً على رغبةٍ من أهلها الذين كانوا يُخالفونه من قبل ويخشون الصليبيين أعداء المسلمين عامةً. كما استولى نور الدين محمود على إعزاز سنة ٥٤٥هـ، وأسر جوسلين الصليبي صاحب الرها سابقاً وكذلك أسر ابن جوسلين في تلك المعركة التي جرت بينهما والتي أعقبها الاستيلاء على مدينة إعزاز، واستمرّ نور الدين في سياسته التي تهدف قتال الصليبيين حتى توفي سنة ٥٦٩هـ.

وأما الموصل فقد حكمها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي حتى توفي سنة ٥٤٤هـ، وتولّى أمرها بعده أخوه قطب الدين مودود، وبقي حتى عام ٥٦٥هـ.

٦" ـ العبيديون:

حكم الدولة العبيدية في هذه المرحلة من التاريخ أحفاد المستنصر، وقد ضعف العبيديون ضعفاً بيّناً وذلك لـ:

١" ـ ظهر للناس كذب ادعاء العبيديين بانتمائهم إلى فاطمة الزهراء ﵂، بنت رسول الله ﷺ، فهم ليسوا أحفاد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء ﵂.

فعبيد الله أولهم ومؤسس دولتهم ليس هو: عبيد الله بن الحسين (عبد الله الرضي) بن أحمد (محمد التقي) بن عبد الله (أحمد الوفي) بن محمد (المكتوم) بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

وإنما هو: عبيد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان اليهودي، وذلك لأن ميمون القداح طلب من ولده تسمية بنيه وأحفاده

بأسماء ولد محمد بن إسماعيل وأحفاده. فهم ليسوا فاطميين كما يسمّون أنفسهم ويدّعون بل هم دخلاء على الإسلام أدعياء بالنسب. وهذا ما جعل النفوس الأبيّة تكرههم والأحرار من الرجال يمقتونهم.

٢" ـ لم تجد دعوتهم قبولاً لدى الناس لأنها مرفوضة عقلاً بعيدة عن المنهج الإسلامي شرعاً، إضافةً إلى أن الذين يدعون لها لا يتمثّلونها بل يقولونها بألسنتهم، يدعون لها ويفعلون ما يغاير ما يدعون له وهذا ما يؤيد كذبهم، ويُكذّب دعواهم.

لم ينتبه العبيديون إلى وضعهم في بداية الأمر إذ غرّهم طبيعة سكان البلد التي ركّزوا جهدهم فيها، وركّزوا حكمهم على أرضها إذ أن طبيعة أهلها أن يخضعوا لكل حاكمٍ، ويخنعوا لكل قويٍ، ويُبدوا تصديقهم لأقواله وقبولهم لما يدعو له وقناعتهم لأفكاره وإيمانهم بمبادئه. فلما ظهر للسكان كذب الحاكم فتر تأييدهم، وضعف تجاوبهم، وقلّ تزلّفهم، وزاد انزواؤهم، وظهر شيء من جفائهم، وبدا منهم ما لم يكن بالحسبان، فشعر السلطان بقلّة الناصر، وإهمال المدافع، فضعف الأمر، واهتزّ الكيان، وبدأ البحث عن البديل.

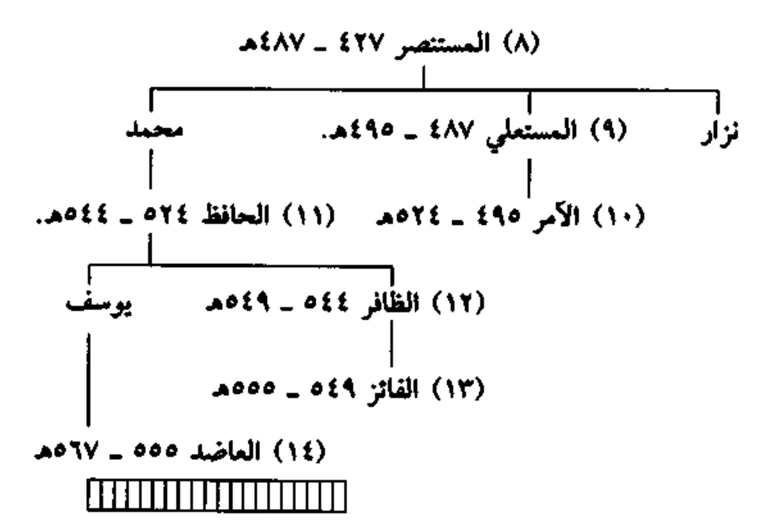
٣" ـ أخذ العبيديون يعطون اليهود والنصارى من سكان البلد المراكز ويولّونهم المناصب فزادت الجفوة وظهرت النقمة فظهر الصراع بين الوزراء وبدا الخلاف بين الجنود.

٤" ـ صادف أن تولّى أمر الدولة العبيدية حكام صغار تعاقبوا على السلطة فلم يكن بيدهم شيء من الأمر بل كان بأيدي الوزراء وقادة الجيوش والمتنفّذين، وهذا ما زاد الدولة ضعفاً فأصحاب الحلّ والعقد من مللٍ متباينةٍ ومشاربَ مختلفةٍ، ومصالحَ متضاربةٍ.

وإضافة إلى الخلاف مع السكان والاختلاف بين الرؤوس كان الخلاف مع الجوار فلا اتفاق مع السلاجقة، ولا وفاق مع أمراء الشام، ولا انسجام مع أهل الحجاز، ولا ارتباط مع حكام المغرب، وإذا كان أقرب الجوار إليهم فكراً ومبدأً وهدفاً هم الفرنج الغزاة القادمين مع الحملات غير أن هؤلاء الصليبيين كان همّهم قتل المسلمين وطعن الإسلام، ونهب البلاد، وتخريب البلدان، وهذا ما لا يستطيع إظهاره العبيديون وإن كانوا لا يبتعدون عن ذلك كثيراً بل ربما كان ذلك من أهدافهم المخفيّة وأفكارهم المطويّة وآرائهم الملويّة ولكن ذلك ضمن الكتمان الشديد. والصليبيون لا

يُهمّهم سوى مصالحهم وتأمين أهدافهم التي يعملون لها صراحةً وجهاراً فإذا تأمّن ذلك بالاتفاق مع العبيديين فهم إلى جانبهم وإلا فهم عليهم، وإذا تحقّق ذلك فلمرحلةٍ معينةٍ فإذا تأمّن لهم كل ما يريدون ولم يبق أمامهم سوى سكان مصر المسلمين فلا بدّ من القتل أو الردّة. وهذا لا يمكن أن يعمل له العبيديون ما داموا حكام مصر. وعندما جاء الصليبيون دعمهم العبيديون في أول الأمر ووجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ضد خصومهم السلاجقة، واتفقوا معهم وجرت معاهدة بينهما على أن يحكم الصليبيون شمالي بلاد الشام ويحكم العبيديون جنوبيها، وبناءً على ذلك دخل العبيديون بيت المقدس غير أن الصليبيين عندما أحسّوا بشيءٍ من النصر نقضوا ما عاهدوا عليه وتابعوا تقدّمهم واصطدموا بالعبيديين وبدأت الخلافات بينهما فالعبيديون قد قاتلوا الصليبيين دفاعاً عن مناطقهم وخوفاً على أنفسهم ولم يقاتلوهم دفاعاً عن الإسلام وحمايةً لأبنائه وذوداً عن أرضه، ولو استمرّ الصليبيون في اتفاقهم مع العبيديين لكان من الممكن أن يتقاسموا وإياهم ديار الإسلام.

لقد حكم الدولة العبيدية في هذه المرحلة أحفاد الملك العبيدي المستنصر.



كان الحافظ العبيدي بن محمد بن المستنصر هو صاحب مصر ويحكم الدولة العبيدية منذ سنة ٥٢٤هـ، وفي سنة ٥٢٦هـ استوزر ابنه حسناً وخطب له بولاية العهد غير أنه لم يلبث أن مات مسموماً سنة ٥٢٩هـ، وسبب ذلك أنه كان جريئاً على سفك الدماء، وكان في نفس الحافظ على الأمراء الذين أعانوا أبا علي بن الأفضل حقد ويريد الانتقام منهم من غير أن يباشر ذلك بنفسه فاستوزر ابنه وأمره بذلك فتغلّب على الأمر كله، واستبدّ به ولم يبق لأبيه معه حكم، وقتل من أمراء المصريين ومن أعيان البلاد جمعاً حتى قيل: إنه قتل في ليلةٍ واحدةٍ أربعين أميراً، فلما رأى أبوه تغلّبه عليه أخرج له خادماً من خدم القصر الأكابر فجمع الجموع

وحشد من الرجال حشداً كبيراً وتقدّم إلى القاهرة ليقاتل حسناً ويخرجه منها، فأرسل له الحسن جماعةً من خواصه وأصحابه فقاتلوهم فانهزم الخادم وقُتل الرجال الذين معه وعبر الباقون إلى الجيزة فراراً، واستكان الحافظ تحت الحجز ثم إن الباقين من الأمراء المصريين اجتمعوا واتفقوا على قتل حسن بن الحافظ، وأرسلوا إلى أبيه الحافظ وقالوا له: إما أنك تُسلّم ابنك إلينا فنقتله وإما نقتلكما جميعاً فاستدعى ولده إليه واحتاط عليه وأرسل إلى الأمراء بذلك فقالوا: لا نرضى إلا بقتله فرأى أنه إن سلّمه إليهم طمعوا فيه وليس إلى إبقائه سبيل، فأحضر طبيبين كانا له، أحدهما مسلم والآخر يهودي، فقال لليهودي: نريد سماً نسقيه لهذا الولد ليموت ونخلص من هذه الحادثة، فقال: أنا لا أعرف غير النقوع وماء الشعير وما شاكل هذه الأدوية، فقال: أنا أريد ما أخلص به من هذه المصيبة، فقال له: لا أعرف شيئاً. فأحضر المسلم وأمره بذلك فصنع له شيئاً فسقاه الولد فمات لوقته، فأرسل الحافظ إلى الجند يقول لهم: إنه قد مات، فقالوا: نريد نظر إليه، فأحضر بعضهم عنده فرأوه، وظنّوه قد عمل حيلةً فجرحوا أسافل رجليه فلم يجر منها دم فعلموا موته، ودُفن حسن بن الملك الحافظ العبيدي، فأحضر الحافظ

الطبيب المسلم، وقال له: اخرج من عندنا من القصر، وجميع مالك من الإنعام باقٍ عليك، وأحضر اليهودي، وقال: أعلم أنك تعرف ما طلبته منك، ولكنك عاقل فتُقيم في القصر عندنا.

ولما مات الوزير حسن استوزر أبوه الحافظ أحد أمرائه النصارى وهو تاج الدولة بهرام فتحكّم بالدولة واستعمل الأرمن على الناس فاستذلّوا المسلمين وطمعوا فيهم ولم يكن من أهل مصر أنفة إلا رضوان بن الريحيني فإنه لما ساءه ذلك وأقلقه جمع جمعاً كثيراً وقصد القاهرة فسمع به الوزير النصراني بهرام فهرب إلى الصعيد من غير حربٍ ولا قتال وقصد مدينة أسوان فمنعه واليها من الدخول إليها وقاتله فقتل السودانيون من الأرمن كثيراً، فلما لم يقدر على الدخول إلى أسوان أرسل إلى الحافظ العبيدي يطلب الأمان فأمنه فعاد إلى القاهرة فسجن بالقصر فبقي مدةً ثم ترهّب وخرج من السجن. وأما رضوان فإنه وزر للحافظ ولُقّب بالملك الأفضل، وهو أول وزير للمصريين لُقِّب بالملك، ثم فسد بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ على إخراجه فثار الناس عليه في منتصف شوال سنة ٥٣٣هـ، وهرب من داره وتركها بما فيها فنهبها الناس، وركب الحافظ فسكن الناس، ونقل ما بقي في دار رضوان إلى قصره،

وأما رضوان فسار يريد الشام يستنجد بالأتراك ويستنصرهم، وقصد صرخد فوصل إليها في شهر ذي القعدة سنة ٥٣٣هـ، ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فأكرمه وعظمه وأقام عنده، ثم سار إلى مصر سنة ٥٣٤هـ ومعه عسكر فقاتل المصريين عند باب النصر وهزمهم وقتل منهم جماعةً كثيرةً، وأقام ثلاثة أيامٍ فتفرّق عنه كثير ممن معه فعزم على العودة إلى الشام فأرسل إليه الحافظ ابن مصال فردّه وسجنه عنده في القصر وجمع بينه وبين عياله وأهله فأقام في القصر إلى سنة ٥٤٣هـ فنقب السجن وخرج منه وقد أُعدّت له خيل فهرب عليها وعبر النيل إلى الجيزة فحشد وجمع المغاربة وغيرهم وعاد إلى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القصر وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الأقمر فأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالاً ليفرّقه على عادتهم فإنهم كانوا إذا استوزروا وزيراً أرسلوا إليه عشرين ألف دينارٍ ليفرّقها فأرسل الحافظ عشرين ألف دينارٍ فقسّمها وكثر عليها الناس، وطلب زيادةً فأرسل إليه عشرين ألف دينارٍ أخرى ففرّقها فتفرّق الناس وخفّوا عنه فإذا الصوت قد وقع وخرج إليه جمع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانه فقاتلوهم فقام يركب فقدّم إليه

بعض أصحابه فرساً ليركبه فلما أراد ركوبه ضرب رجل رأسه بالسيف فقتله وحمل رأسه إلى الحافظ فأرسله إلى زوجته فوضع في حجرها فألقت به وقالت: هكذا يكون الرجال. ولم يستوزر الحافظ أحداً وباشر الأمور بنفسه إلى أن مات سنة ٥٤٤هـ.

توفي صاحب مصر العبيدي الحافظ لدين الله عبد المجيد في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ بعد مقتل الوزير رضوان بيومين، وكانت مدة حكمه عشرين سنةً إلا خمسة أشهرٍ، وعمره نحو من سبعٍ وسبعين سنةً، وولي الحكم بعده بمصر ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل وكان صغيراً لا يزيد عمره على السادسة عشرة، فاستوزر نجم الدين بن مصال ولم يكن مرغوباً من الرعية فوقع الخلاف بين الجند، وبقي الوزير ابن مصال يُدبّر أمور الحكم أربعين يوماً فقصده العادل بن سلار من ثغر الإسكندرية ونازعه في الوزارة، وكان نجم الدين بن مصال قد خرج من القاهرة في طلب بعض المفسدين السودانيين فخالفه العادل بالقاهرة وتسلّم الوزارة وسيّر عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس الصنهاجي في عسكره، وهو ربيب العادل، وسيّره إلى ابن مصال فظفر به وقتله وعاد

إلى القاهرة، واستقرّ العادل وتمكّن، ولم يكن للظافر العبيدي معه سلطان، وأما سبب وصول عباس بن أبي الفتوح الصنهاجي إلى مصر فإن جده يحيى أخرج ابنه أبا الفتوح والد عباس من المهدية، فلما توفي يحيى وولي بعده ابنه علي بن يحيى أخرج أخاه أبا الفتوح من إفريقية سنة ٥٠٩هـ فسار إلى الديار المصرية ومعه زوجته (بلارة) ابنة القاسم بن تميم بن المعز بن باديس أي ابنة عمه، ومعه أيضاً ولده عباس هذا، وهو صغير يرضع، ونزل أبو الفتوح بالإسكندرية فأُكرم، فأقام بها مدةً يسيرةً وتوفي، وتزوجت بعده امرأته بالعادل بن السلار، وشبّ عباس، وتقدّم عند الظافر حتى ولي الوزارة بعد العادل الذي قُتل في شهر المحرم سنة ٥٤٨هـ، قيل: وضع ربيبه عباس من قتله[١]. فلما قُتل ولي الوزارة بعده وتمكّن منها، وكان جلداً حازماً، وفي عهده أخذ الصليبيون عسقلان، وأخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق. وعمل نصر بن عباس وهو الذي قتل العادل، لقتل الظافر العبيدي أيضاً ـ لما أشيع بصلته به ـ وتمكّن من قتله، ودخل أبوه عباس قصر الظافر وقتل أخوين للظافر وهما يوسف وجبرائيل، وأجلس الفائز

(١) كان عباس قد وضع ابنه نصراً لقتل العادل (زوج أمه).

بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر مكان أبيه ملكاً وذلك في اليوم الثاني لقتل الظافر، إذ حمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك، وبايع الناس له، وعمر الفائز لا يزيد على خمس سنواتٍ، وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاف النفيسة ما أراد ولم يترك إلا ما لا خير فيه.

ظنّ عباس بعد أن قتل الظافر وأقام الفائز أن الأمر يتمّ له على ما يراه فكان الحال خلاف ما اعتقده فإن الكلمة اختلفت عليه وثار به الجند وجفاه السودان، وصار إذا أمر بالأمر لا يُلتفت إليه، ولا يُسمع قوله، فأرسل من بالقصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رزيك يستنجدون به وأرسلوا شعورهم على الكتب، وكان في منطقة المنيا (منية بني خصيب) والياً عليها، وليست من الأعمال الكبيرة وإنما كانت أقرب الأعمال إليهم، وكان فيه شهامة فجمع ليقصد عباساً وسار إليه فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام، ومعه ابنه نصر وكل ما كان أخذه من القصر، فلاحقته جماعة من الصليبيين أرسلتهم أخت الملك الظافر فقُتل عباس وأُخذ كل ما كان معه، وأُسر ابنه نصر، فأرسل الملك الصالح إلى الصليبيين وبذل لهم

مالاً وأخذه منهم، فسار من الشام مع أصحاب الملك الصالح فلم يُكلم أحداً منهم كلمةً واحدةً إلى أن رأى القاهرة فأنشد:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر

وأُدخل القصر فكان آخر العهد به فإنه قُتل وصُلب على باب زويلة. واستقصى الملك الصالح البيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية فأمسك أهلها وأبعدهم عن ديارهم، وأخذ أموالهم، فمنهم من هلك ومنهم من تفرّق بالبلاد والحجاز واليمن وغيرها، فعل ذلك خوفاً من أن يثور عليه وينازعوه في الوزارة[١]. وفي هذه المرحلة احتلّ الصليبيون مدينة عسقلان من العبيديين، ولكن لم يتمكّنوا أن يسيروا إلى أبعد من ذلك بسبب قيام نور الدين محمود بن زنكي بفتح دمشق سنة ٥٤٩هـ فقويت دولته، وامتدّ نفوذه واشتدّ عوده، وكان يقف في وجه الصليبيين فإذا سار الصليبيون نحو مصر اتجه نور الدين محمود نحو بيت المقدس.

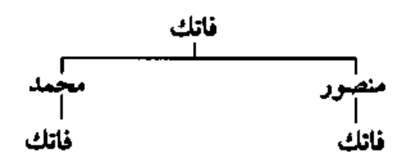
توفي الملك العبيدي الفائز بنصر الله سنة ٥٥٥هـ،

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

وكانت مدة ملكه ست سنوات ٍ ونحو شهرين، وكان عمره لما ولي خمس سنوات، وكان عمره يوم وفاته إحدى عشرة سنةً فاختار الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيك لملك العبيديين ابن عم الفائز وهو عبد الله بن يوسف بن الحافظ، وكنيته أبو محمد، ولقّبه العاضد لدين الله، وكان في ذلك الوقت مراهقاً قد قارب البلوغ فبايع له وزوّجه ابنته (ابنة طلائع بن رزيك) ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله، وعاشت بعد موت العاضد وخروج الأمر من العبيديين إلى صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ، وتزوّجت.

٧" ـ اليمن:

كان بنو نجاح يحكمون تهامة، وكان أميرهم فاتك بن منصور بن فاتك الذي تولّى أمرهم سنة ٥٢١هـ، واستمرّ حكمه حتى سنة ٥٤٠هـ، وفي أيامه ظهر المهديون، فهاجموا بإمرة علي بن مهدي بلاد بني نجاح سنة ٥٣٨هـ غير أنهم هُزموا، وانسحب علي بن مهدي إلى الجبال.



وخلف فاتك بن منصور ابن عمه فاتك بن محمد، وبقي حتى سنة ٥٥٥هـ، وهو آخر ملوك بني نجاح، وفي عهده أغار علي بن مهدي على زبيد فاستنجد أهلها ببني الرسّ وكان إمامهم المتوكل أحمد بن سليمان فأنجدهم ودفع عنهم غارات علي بن مهدي الذي استطاع أخيراً دخول مدينة زبيد سنة ٥٥٣هـ.

وفي عدن كان السلطان لبني زريع وكان حاكمهم الداعي سبأ بن أبي السعود منذ سنة ٤٨٩هـ حتى سنة ٥٣٣هـ حيث توفي وخلفه ابنه محمد بن سبأ حتى سنة ٥٥٠هـ فخلفه ابنه عمران بن محمد ولُقّب بالمكرم، واستمرّ حكمه حتى سنة ٥٦٠هـ.

وفي صنعاء كان الحاكم هو حاتم بن عليّ المغلسي الهمداني وأطاعته قبائل همدان، واستمرّ حكمه من ٤٩٢ ـ ٥٠٢هـ، وخلفه ابنه عبد الله من ٥٠٢ ـ ٥٠٥هـ، ثم ابنه الآخر معن بن حاتم من ٥٠٥ ـ ٥١٠هـ.

ثم جمع قبائل همدان أحمد بن عمران بن المفضّل اليامي وخلع معن بن حاتم عن السلطة، وجعلها في بني قتيب، فحكم هشام بن القتيب من ٥١٠ ـ ٥١٨هـ، وخلفه حمّاس بن القتيب من ٥١٨ ـ ٥٢٧هـ، وبعد وفاة حمّاس بست سنواتٍ اختارت قبائل همدان حاتم بن

أحمد بن عمر اليامي فحكم من سنة ٥٣٣ ـ ٥٥٠هـ، وبدأ الصراع بينه وبين الإمام أحمد بن سليمان إمام بني الرسّ في صعدة. وقد استطاع حاتم بن أحمد أن يهزم أحمد بن سليمان في صعدة سنة ٥٤٦هـ، غير أن أحمد بن سليمان قد عاد واحتلّ صنعاء سنة ٥٥٠هـ، وذهب حاتم إلى حصنٍ جنوب صنعاء وبقي فيه حتى توفي سنة ٥٥٦هـ، أما أحمد بن سليمان فإنه برز في صعدة وبقي حتى سنة ٥٦٦هـ. ولم يكن وضعه مستقراً.

٨" ـ آل زيري:

آل حكم آل زيري سنة ٥١٥هـ إلى الحسن بن علي بن يحيى الصنهاجي بعد وفاة أبيه، وكان عمره اثنتي عشرة سنةً، وكان الوزراء يقومون بتدبير أمور الدولة وقد جاء النورمانديون إلى قتال المسلمين وحاصروا جزيرة قوصرة[1]، واستمر الصراع بين الأمير حسن والنورمانديين مدةً من الزمن ثم جرى بينهما عهد.

وسارت مراكب النصارى من صقلية إلى طرابلس الغرب فحاصروها وسبب ذلك أن أهلها أيام الأمير الحسن بن علي الصنهاجي صاحب إفريقية لم يدخلوا

---

(١) قوصرة: جزيرة بين المهدية وجزيرة صقلية.

أبداً في طاعته أبداً ولم يزالوا مخالفين مشاقّين له قد قدّموا عليهم من بني مطروح مشايخ يدبّرون أمرهم فلما رآهم ملك صقلية كذلك جهّز إليهم جيشاً في البحر فوصل إليهم في التاسع من شهر ذي الحجة سنة ٥٣٧هـ فنازل أهل البلد وقاتلوه، واستطاع أهل صقلية نقب سور طرابلس، فلما كان الغد وصل جماعة من العرب نجدةً لأهل طرابلس فقووا بهم فخرجوا إلى الأسطول فحملوا حملةً قويةً فانهزم أهل صقلية وقُتل منهم عدد كثير ولحق الباقون بالأسطول وتركوا الأسلحة والأثقال والآلات فأخذها العرب وأهل طرابلس ورجع نصارى صقلية إلى جزيرتهم فجهّزوا أسلحتهم وتجهّزوا إلى المغرب (بلاد الجزائر اليوم) فوصل إلى موضع جيجل[1] على البحر فلما رآهم أهل البلد هربوا إلى البراري والجبال، فدخل أهل صقلية النصارى البلد فسبوا من أدركوا فيها وهدّموها وأحرقوها، وخرّبوا القصر الذي بناه يحيى بن عبد العزيز بن حمّاد للنزهة، ثم رجعوا إلى جزيرتهم.

---

(١) جيجل: مدينة على ساحل البحر المتوسط إلى الشرق من مدينة بجاية في نهاية الخليج الذي تقع عليه بجاية، بينهما ٨٠ كيلو متراً.

وفي سنة ٥٤٠هـ خرج أسطول للنصارى من صقلية واستولى على جزر قرقنة المقابلة للساحل التونسي فقتلوا رجالها وسبوا حريمهم فأرسل إليهم الحسن بن علي صاحب إفريقية من يذكرهم بالعهود التي بينهم وبينه فاعتذر النصارى بأن أهل هذه الجزر غير مطيعين له.

جهّز روجر ملك صقلية أسطولاً كبيراً وسيّره إلى طرابلس الغرب فأحاطوا بها براً وبحراً في الثالث من شهر المحرم سنة ٥٤١هـ فخرج إليهم أهلها وأخذوا بقتالهم فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيامٍ، فلما كان اليوم الثالث سمع نصارى صقلية بالمدينة ضجةً عظيمةً وخلت الأسوار من المقاتلة، وسبب ذلك أن أهل طرابلس كانوا قبل وصول الأعداء بأيامٍ يسيرةٍ قد اختلفوا فيما بينهم فأخرجت طائفة منهم بني مطروح وقدّموا عليهم رجلاً من الملثّمين قدم يريد الحج ومعه جماعة فولوه أمرهم، فلما جاء جيش روجر من صقلية أعادت الطائفة الأخرى بني مطروح فوقع القتال بين الجماعتين وخلت الأسوار من المقاتلين فانتهز الأعداء الفرصة ونصبوا السلالم وارتقوا الأسوار واشتدّ القتال واستولى الأعداء على المدينة عنوةً وقهراً بالسيف فسفكوا دماء أهلها وسبوا النساء وأخذوا الأموال وهرب من استطاع الهرب

والتجأ إلى العرب والبربر فنودي بالأمان في الناس كافةً فرجع كل من فرّ وأقام جند صقلية ستة أشهرٍ حتى حصّنوا سورها وحفروا خنادقها، ولما رجعوا أخذوا رهائن من أهلها ومعهم بنو مطروح والملثم الذي تولّى أمرهم مدةً، ثم أعادوا الرهائن، وولّوا على طرابلس رجلاً من بني مطروح، وأخذوا رهائن منه وحده واستقامت أمور البلد، وألزم بالسماح لأهل صقلية والروم بالسفر إليها فعاد العمران إلى البلد سريعاً.

كان أمير مدينة قابس رجلاً يُدعى رشيد توفي سنة ٥٤٠هـ وخلّف أولاداً، وكان له مولىً يُدعى يوسف فعمد إلى محمد بن رشيد وولّاه أمر المدينة، ومحمد هو أصغر أولاد رشيد، أما معمر بن رشيد، وهو الكبير فقد أخرجه من البلد، واستولى يوسف على البلد، وتحكّم في أمر محمد لصغر سنّه وأساء في البلد وأفسد فضجّ منه الناس فسار معمر بن رشيد وبنو قرة إلى الحسن بن علي صاحب إفريقية من بني زيزي وشكوا إليه ما يفعل يوسف، فكاتبه الحسن في ذلك فلم يُجبه، وقال: لئن لم يكفّ الحسن عني لسلّمت قابس إلى روجر صاحب صقلية، فجهّز الحسن العسكر إليه، فلما سمع يوسف بذلك أرسل إلى روجر صاحب صقلية

وبذل له الطاعة، وقال: أريد منك خلعةً وعهداً بولاية قابس لأكون نائباً عنك كما فعلت مع بني مطروح أصحاب طرابلس فسيّر إليه روجر الخلعة والعهد، فلبس الخلعة، وقُرئ العهد بمجمع الناس فجدّ حينئذٍ الحسن في تجهيز العسكر إلى قابس فساروا إليها وحاصروها وأعلن يوسف خلعه طاعة الحسن وآل زيري فثار أهل البلد بيوسف لطاعته لروجر صاحب صقلية، وسلّموا البلد إلى الحسن آل زيري، وتحصّن يوسف بالقصر فقاتلوه ودخلوا القصر عنوةً وأُخذ يوسف أسيراً فتولّى عذابه معمر بن رشيد وآل قرة، وولي أمر قابس معمر بن رشيد مكان أخيه، وهرب ولد يوسف، عيسى وأخو يوسف وقصدا روجر صاحب صقلية النصراني، واستنجدا به، وشكيا إليه ما لقيا من الحسن بن علي آل زيري. وكان بين الحسن بن علي وبين روجر صاحب صقلية صلح وعهد لمدة سنتين، وكانت بلاد المغرب تعيش من سنة ٥٣٧هـ سنوات قحطٍ شديدٍ فاغتنم روجر هذه السنوات العجاف فجهّز أسطولاً زادت قطعه على مائتين وخمسين سفينةً مملوءةً رجالاً وسلاحاً وقوتاً وانطلق الأسطول من صقلية ووصل إلى جزيرة قوصرة وهي ما بين المهدية وصقلية فصادفوا مركباً قد وصل من المهدية فأُخذ أهله وأُحضروا بين يدي جورج مقدم

الأسطول الصقلّي فسألهم عن حال إفريقية، ووجد في المركب قفص حمام فسألهم هل أرسلوا منها فحلفوا بالله أنهم لم يرسلوا شيئاً، فأمر الرجل الذي كان الحمام بصحبته أن يكتب بخطه: إننا لما وصلنا إلى جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الأسطول المخذول، فذكروا أنه أقلع إلى جزائر القسطنطنية، وأطلق الحمام فوصل إلى المهدية فسر الأمير حسن بن علي آل زيري والناس، وأراد جورج بذلك أن يصل بغتةً إلى المدنية، ثم سار وقدّر وصولهم وقت السحر إلى المهدية ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها، فلو تمّ له ذلك لم يسلم منهم أحد، فقضى الله أن يرسل عليهم ريحاً هائلاً لم يستطيعوا أن يسيروا إلا بالمجاذيف فطلع النهار في اليوم الثاني من صفر سنة ٥٤٣هـ قبل وصولهم فرآهم الناس، فلما علم جورج ذلك وأن الخديعة فاتته أرسل إلى الأمير حسن يقول له: إنما جئت بهذا الأسطول طالباً بثأر محمد بن رشيد صاحب قابس وردّه إليها أما أنت فبيننا وبينك عهود وميثاق إلى مدة ونريد منك عسكراً يكون معنا، فجمع الأمير حسن الناس من الفقهاء والأعيان وشاورهم، فقالوا: نقاتل عدونا فإن بلدنا حصين، فقال: إني أخاف أن ينزل إلى البر ويحصرنا براً وبحراً ويحول بيننا

وبين المؤن وليس عندنا ما يقوتنا شهراً فنؤخذ قهراً وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل خيراً من الملك، وقد طلب مني عسكراً إلى قابس فإن فعلت فما يحلّ لي معونة الكفار على المسلمين وإن امتنعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وما يريد إلا أن يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة والرأي أن نخرج بالأهل والولد وننزل عن البلد فمن أراد أن يفعل كفعلنا فليبادر معنا وأمر في الحال بالرحيل وأخذ معه ما حضره وما خفّ حمله وخرج الناس على وجوههم بأهليهم وأولادهم وما خفّ من أموالهم وأثاثهم، ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس، وبقي الأسطول في البحر تمنعه الريح من الوصول إلى المهدية إلى ثلثي النهار فلم يبق في البلد ممن عزم على الخروج أحد، فوصل جند صقلية النصارى فدخلوا البلد بغير مانعٍ ولا دافعٍ ودخل جورج القصر فوجده على حاله لم يأخذ الأمير حسن منه إلا ما خفّ من ذخائر الملوك وفيه جماعة من الخدم ورأى الخزائن مملوءةً من الذخائر النفيسة وكل شيءٍ غريبٍ يقلّ وجود مثله فختم عليه وأخذ من في القصر من الخدم. وكان عدد من ملك من هذه الأسرة من زيري بن مناد الصنهاجي إلى حسن بن علي تسعة ملوكٍ وكانت مدة ولايتهم مائة

وثمانين سنةً من إحدى وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة. وكان الأمير حسن بن علي أرسل بعض القادة إلى الملك روجر برسالةٍ فأخذ لنفسه وأهله أماناً فلم يخرج معهم، ولما ملك جورج المدينة نهبت بمقدار ساعتين ونودي بالأمان فخرج من كان مستخفياً وأصبح جورج من الغد فأرسل إلى من كان قريباً من العرب فدخلوا إليه فأحسن إليهم وأعطاهم أموالاً جزيلةً، وأرسل من جند المهدية الذين تخلّفوا بها جماعة ومعهم أمان لأهل المهدية الذين خرجوا منها ودواب يحملون عليها الأطفال والنساء وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع ولهم بالمهدية خبايا وودائع فلما وصل إليهم الأمان رجعوا فلم يمض أسبوع حتى رجع أكثر أهل البلد. وأما الأمير حسن فقد سار بأهله وأولاده وكانوا اثني عشر ولداً ذكراً غير الإناث وخواص خدمه قاصداً إلى محرز بن زياد، فلقيه في طريقه أمير من العرب يسمى حسن بن ثعلب فطلب أمير المهدية من الأمير ابن ثعلب مالاً انكسر له في ديوانه فلم يمكن الأمير حسن إخراج مالٍ لئلا يؤخذ فسلّم إليه ولده يحيى رهينةً، وسار فوصل في اليوم التالي إلى محرز بن زياد وكان الأمير حسن قد فضّله على رجال القبائل هناك جميعهم وأحسن إليه ووصله بكثير من

المال فلقيه محرز لقاءً جميلاً وتوجّع لما حلّ به فأقام عنده شهوراً والأمير حسن كاره للإقامة، فأراد المسير إلى ديار مصر إلى الملك العبيدي الحافظ بن محمد، واشترى مركباً لسفره فسمع جورج مقدم أسطول صقلية بذلك فجهّز المراكب ليأخذه فعدل الأمير حسن عن ذلك وعزم على المسير إلى عبد المؤمن بن علي بالمغرب فأرسل كبار أولاده يحيى وتميماً وعلياً إلى يحيى بن عبد العزيز وهو من بني حماد وهما أولاد عمّ يستأذنه في الوصول إليه وتجديد العهد به والمسير من عنده إلى عبد المؤمن فأذن له يحيى فسار إليه فلما وصل إليه لم يجتمع به يحيى وسيّره إلى جزيرة بني مزغنان[1] هو وأولاده، ووكّل به من يمنعهم من التصرّف فبقوا كذلك إلى أن ملك عبد المؤمن مدينة بجاية سنة ٥٤٧هـ فحضر عنده.

ولما استقرّ جورج مقدم أسطول صقلية بالمهدية سيّر أسطولاً بعد أسبوعٍ إلى مدينة صفاقس، وسيّر أسطولاً آخر إلى مدينة سوسة. وأما سوسة فإن أهلها لما سمعوا خبر مدينة المهدية، وكان واليها علي بن

(١) جزيرة بني مزغنان: بنيت مدينة الجزائر عليها وعلى البر المقابل لها.

الحسن الأمير فخرج إلى أبيه وخرج الناس لخروجه فدخلها نصارى صقلية من غير قتالٍ في الثاني عشر من شهر صفر سنة ٥٤٣هـ، وأما صفاقس فإن أهلها قد أتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم جند صقلية النصارى فخرج إليهم أهل البلد، فأظهر جند صقلية الهزيمة وتبعهم الناس حتى بعدوا عن البلد ثم انعطف الصقليون عليهم فانهزم أهل صفاقس فدخل قوم منهم إلى بلدهم وسار قوم إلى البرية، وقُتل قوم، ودخل الصقليون النصارى البلد بعد قتالٍ شديدٍ وقتلى كثيرة، وأُسر عدد، وسُبيت نساء وذلك في الثالث والعشرين من شهر صفر سنة ٥٤٣هـ، ثم نودي بالأمان فعاد أهلها إليها وافتدوا من سبي من نسائهم وأولادهم، وبعدئذٍ وصلت من روجر حاكم صقلية كتب بالأمان لأهل إفريقية جميعاً.

ولما استقرّت أحوال البلاد سار جورج مقدّم الأسطول الصقلي إلى قلعة إقليبية[1] وهي قلعة حصينة، فلما وصل إليها سمعت العرب بذلك فاجتمعت إليها ونزل إليهم الصقليون النصارى فاقتتلوا فانهزم الصقليّون

---

(١) قلعة إقليبية: قلعة حصينة على ساحل البحر المتوسط قرب قرطاجنة على مقربةٍ من موقع مدينة تونس اليوم.

وقُتل منهم عدد كبير، ورجعوا إلى المهدية خائبين خاسرين.

وفي سنة ٥٤٤هـ وقع خلاف بين إمبراطور بيزنطة وبين روجر حاكم صقلية وجرت بينهما حروب دامت عدة سنوات فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين فتوقّف أذاهم وسلمت ديار المسلمين من إفسادهم في مرحلة الخلاف بين هذين الخصمين.

سار عبد المؤمن بن علي أمير الموحّدين إلى مدينة بجاية وملكها وملك ممالك بني حمّاد جميعها، ولما أراد قصدها سار من مراكش إلى سبتة سنة ٥٤٦هـ فأقام بها مدةً يعمل بالأسطول ويجمع العساكر القريبة منه وكتب إلى البلدان التي هي على طريقه إلى بجاية ليتجهّزوا وليكونوا على استعدادٍ للحركة في أي وقتٍ يطلبهم فيه وكان الناس يظنّون أنه يريد العبور إلى الأندلس. سار من سبتة في شهر صفر سنة ٥٤٧هـ، وجدّ بالسير، والعساكر تتلقّاه في طريقه فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو في أعمالها، وكان أميرها يحيى بن عبد العزيز آل ملوك بني حماد وكان ميمون بن حمدون هو المتحكم بشؤون الإمارة وصاحبها يحيى بن عبد العزيز مولعاً بالصيد، فلما وصل خبر عبد المؤمن

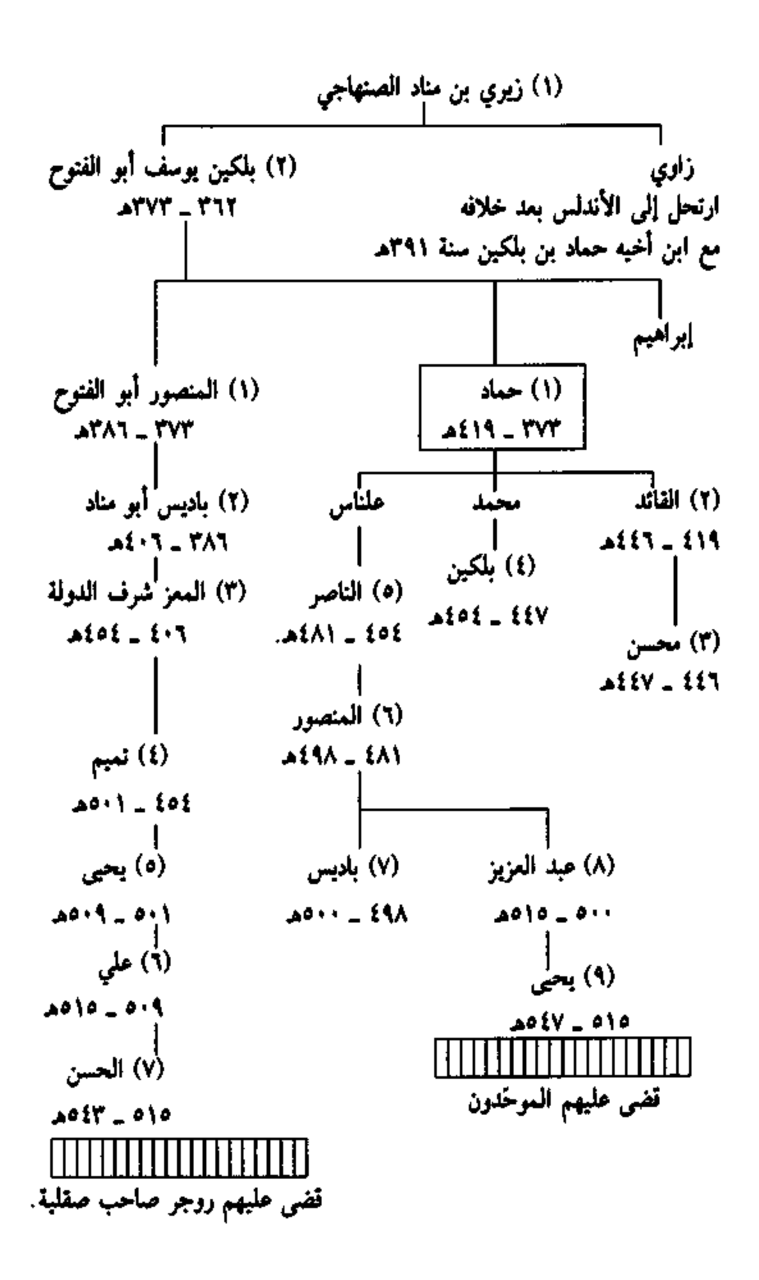
إلى ميمون جمع العسكر وخرج من بجاية متجهاً نحو عبد المؤمن فلقيهم مقدمته وهي تزيد على عشرين ألف فارسٍ فانهزم أهل بجاية من غير قتالٍ ودخلت مقدمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومين وتفرّق جميع عسكر يحيى بن عبد العزيز وهربوا برّاً وبحراً وتحصّن يحيى بقلعة قسنطينة وهرب أخواه الحارث وعبد الله إلى صقلية، ودخل عبد المؤمن بجاية وملك بلدان يحيى جميعها دون قتالٍ، ثم إن يحيى نزل إلى عبد المؤمن بالأمان فأمنه.

كان يحيى بن عبد العزيز قد فرح لما أخذت بلاد إفريقية من الحسن بن علي آل المعز بن باديس وهو من بني عمومته فرحاً ظهر عليه فكان يذمه ويتكلم عليه فلم تطل المدة حتى أُخذت بلاده، ووصل الحسن بن علي إلى عبد المؤمن في جزائر بني مزغنان واجتمعا عنده فأرسل عبد المؤمن يحيى بن عبد العزيز إلى المغرب وأقام بها وأجرى عليه عبد المؤمن شيئاً كثيراً، وأما الحسن بن علي فقد أكرمه وألزمه صحبته وأعلى مرتبته فلزمه إلى أن دخل عبد المؤمن مدينة المهدية فجعله فيها وأمر واليها أن يأخذ برأيه ويرجع إلى قوله. ولما دخل عبد المؤمن بجاية لم يتعرّض إلى مال أهلها ولا

غيره وسبب ذلك أن بني حمدون استأمنوه فوفّى لهم بأمانه.

لما ملك عبد المؤمن بن علي مدينة بجاية اجتمعت قبيلة صنهاجة بمختلف بطونها، وتقدّمهم رجل اسمه أبو قصبة وانضمّ إليهم جموع من كتامة ولواته وآخرون وقصدوا حرب عبد المؤمن فأرسل إليهم جيشاً ضخماً يتقدّمهم رجل يُعرف بـ(أبي سعيد) والتقوا في سفح الجبل إلى الشرق من مدينة بجاية فانهزم أبو قصبة وقُتل أكثر من معه، ولما فرغ أبو سعيد من صنهاجة سار بجيشه إلى قلعة بني حماد، وهي قلعة منيعة فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا إلى رؤوس الجبال ودخل أبو سعيد القلعة وأخذ جميع ما فيها وحمله إلى عبد المؤمن فقسّمه بين أصحابه.

وهكذا انتهت دولة آل زيري بفرعيها فرع المنصور أبي الفتح وفرع أخيه حماد وهما ولدا بلكين يوسف أبي الفتوح. قضى روجر حاكم صقلية على فرع المنصور سنة ٥٤٣هـ، وقضى الموحّدون على فرع بني حماد سنة ٥٤٧هـ.

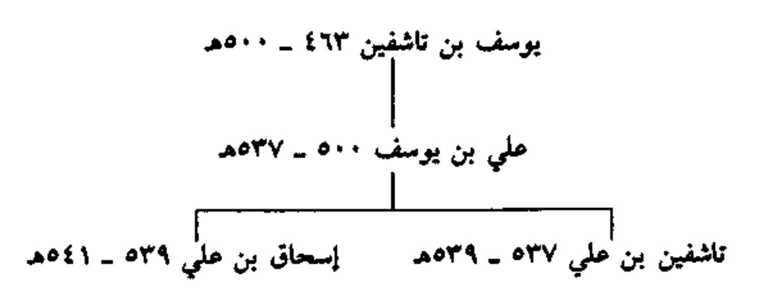


(١) زيري بن مناد الصنهاجي
زاوي
ارتحل إلى الأندلس بعد خلافه
مع ابن أخيه حماد بن بلكين سنة ٣٩١هـ
(٢) بلكين يوسف أبو الفتوح
٣٦٢ ـ ٣٧٣هـ
إبراهيم
(١) حماد
٣٧٣ ـ ٤١٩هـ
(١) المنصور أبو الفتوح
٣٧٣ ـ ٣٨٦هـ
(٢) القائد
٤١٩ ـ ٤٤٦هـ
محمد
علناس
(٢) باديس أبو مناد
٣٨٦ ـ ٤٠٦هـ
(٤) بلكين
٤٤٧ ـ ٤٥٤هـ
(٥) الناصر
٤٥٤ ـ ٤٨١هـ
(٣) المعز شرف الدولة
٤٠٦ ـ ٤٥٤هـ
(٣) محسن
٤٤٦ ـ ٤٤٧هـ
(٦) المنصور
٤٨١ ـ ٤٩٨هـ
(٤) تميم
٤٥٤ ـ ٥٠١هـ
(٨) عبد العزيز
٥٠٠ ـ ٥١٥هـ
(٧) باديس
٤٩٨ ـ ٥٠٠هـ
(٥) يحيى
٥٠١ ـ ٥٠٩هـ
(٦) علي
٥٠٩ ـ ٥١٥هـ
(٩) يحيى
٥١٥ ـ ٥٤٧هـ
قضى عليهم الموحّدون
(٧) الحسن
٥١٥ ـ ٥٤٣هـ
قضى عليهم روجر صاحب صقلية.

٩" ـ المرابطون:

توفي يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ، وخلفه ولده علي بن يوسف بن تاشفين، واستمرّ في حكمه حتى سنة ٥٣٧هـ، وكانت حركة الموحّدين قد قويت، واشتدّ الصراع بين المرابطين والموحّدين، ولما توفي علي بن يوسف تسلّم أمر المرابطين ولده تاشفين بن علي، فولى ابنه إبراهيم مراكش، وأخذ بنفسه متابعة أمير الموحدين عبد المؤمن بن عليّ، وسار تاشفين إلى مدينة تلمسان ودخلها، والتقى الطرفان في معركةٍ لم تكن حاسمةً، وانتقل تاشفين إثرها إلى مدينة وهران ليتخذها قاعدةً له فسار وراءه عبد المؤمن وحاصره فيها، وحاول تاشفين النجاة فهوى عن صخرةٍ بجواده فقتل سنة ٥٣٩هـ.

تولّى أمر المرابطين بعد تاشفين أخوه إسحاق بن علي فسار إليه عبد المؤمن بن علي، وتمكّن من دخول مراكش والقضاء على دولة المرابطين سنة ٥٤١هـ.



١٠" ـ الموحّدون:

بدأت دعوة الموحّدين سنة ٥١٤هـ على يد ابن تومرت الذي توفي سنة ٥٢٤هـ، وخلفه عبد المؤمن بن علي في قيادة الموحدين، واستولى على مدينة مراكش سنة ٥٤١هـ، وقضى على دولة المرابطين، ولما كان يحاصر مدينة مراكش جاءه وفد من أعيان الأندلس ومعهم كتاب يتضمن بيعة أهل البلاد التي هم منها لعبد المؤمن بن علي، ودخولهم في جماعة الموحّدين، وإقامتهم لأمره فقبل ذلك منهم وشكر لهم وطيّب قلوبهم وطلب منهم النصرة فطلبوا منه النصرة على نصارى الأندلس، وكان ممن حضر في هذا الوفد إلى عبد المؤمن بن علي وهو يُحاصر مراكش القاضي ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الأندلسي الإشبيلي(١).

جهّز عبد المؤمن بن علي جيشاً كثيفاً وسيّره

---

(١) القاضي ابن العربي، أبو بكر: ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨هـ، ورحل إلى المشرق، وبرع بالأدب، ووصل إلى رتبة الاجتهاد بالدين، ولي قضاء إشبيلية، ومات سنة ٥٤٣هـ قرب فاس ودفن فيها، ويُعدّ آخر علماء الأندلس، وله تصانيف كثيرة منها: العواصم من القواصم، الإنصاف في مسائل الخلاف وهو عشرون مجلداً، الناسخ والمنسوخ و....

معهم، وبنى أسطولاً وسيّره في البحر، فسار الأسطول إلى الأندلس، وقصدوا مدينة إشبيلية وصعدوا في نهرها وبها جيش من المرابطين فحاصروها وملكوها عنوةً، وقتل فيها جماعة، وأمن الناس فسكنوا، واستولت العساكر على البلاد.

بعد أن قضى عبد المؤمن على دولة المرابطين سار إلى بني حمّاد فملك مدينة بجاية سنة ٥٤٧هـ، واستسلم يحيى بن عبد العزيز آخر ملوك بني حمّاد، ثم حارب صنهاجة وانتصر عليها وسار بعدها إلى قلعة بني حماد جنوب غربي مدينة صطيف، وتمكّن من احتلالها.

تحالفت بعض القبائل العربية من بني هلال وبني زغب من سُليم وغيرها سنة ٥٤٨هـ لمحاربة عبد المؤمن علي فانتصر عليهم، وكان روجر حاكم صقلية النصراني قد عرض على هذه القبائل مساعدته ودعمه لها فرفضت وأبت أن تستعين بكافرٍ على مسلم.

واستطاع عبد المؤمن بن علي أن يفتح مدينة المهدية سنة ٥٥٤هـ، وكانت بيد النورمانديين حكام صقلية منذ سنة ٥٤٣هـ، وبذا دانت المغرب كلها للموحدين أيام عبد المؤمن بن علي الذي استمرّ حكمه حتى سنة ٥٥٨هـ.

أمر عبد المؤمن بن علي سنة ٥٥١هـ لولده محمد بولاية العهد فبويع وكتب إلى جميع بلاده بذلك وخطب له فيها جميعها. ثم استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد، فاستعمل أبا محمد عبد الله على بجاية وأعمالها، واستعمل ابنه الحسن علياً على فاس وأعمالها، وولّى ابنه أبا سعيد على مدينة سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة.

سيّر عبد المؤمن بن علي جيشاً كثيفاً قوامه نحو عشرين ألف فارس إلى الأندلس مع أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني وذلك سنة ٥٤٦هـ، فلما اجتازوا بحر الزقاق ساروا إلى مدينة غرناطة وبها جمع من المرابطين فحاصرها عمر وضيّق على أهلها ودعمه بعض رجالات الأندلس وحرّضوه على التوجّه إلى ابن مردنيش ملك بلاد شرقي الأندلس فلما وصل الخبر إلى ابن مردنيش أرسل إلى ملك برشلونة النصراني يستنجد به فجاءه بعشرة آلاف فارسٍ، فلما اقترب عمر من مرسية مقرّ ابن مردنيش وسمع بوصول نصارى الشمال رجع وحاصر مدينة المرية وهي بيد نصارى الشمال واستمرّ الحصار عدة أشهرٍ فقلّت الأقوات لدى العسكر فرحلوا عن المرية وعادوا إلى إشبيلية.

لما استعمل عبد المؤمن بن علي ولده أبا سعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر أبو سعيد بحر الزقاق إلى مالقة واتخذها مقراً له، وكاتبه ميمون بن بدر اللمتوني صاحب غرناطة على أن يكون من جماعة الموحدين ويسلّم إليه غرناطة فقبل أبو سعيد ذلك منه وتسلّم غرناطة فسار ميمون إلى مالقة بأهله وولده فتلقّاه أبو سعيد وأكرمه ووجّهه إلى مراكش فأقبل عليه عبد المؤمن، ولم يبق للمرابطين سوى جزيرة ميورقة مع حمود بن غانية.

عندما تسلّم أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار إلى المرية وهي بأيدي النصارى الإسبان وكانوا قد أخذوها من المسلمين سنة ٥٤٢هـ فلما نازلها وافاه الأسطول من سبتة وفيه عدد كبير من الجند المسلمين فحاصروا المرية براً وبحراً والتجأ النصارى إلى حصنها فحاصرهم فيه ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبنى أبو سعيد سوراً على الجبل المذكور إلى البحر وعمل عليه خندقاً فصارت المدينة والحصن الذي فيه النصارى محصوراً بهذا السور والخندق ولا يمكن لمن ينجدهما أن يصل إليهما، فجمع الأذفونش ملك النصارى الإسبان وسار باثني عشر ألف فارس من

النصارى ومعه محمد بن سعيد بن مردنيش في ستة آلاف فارسٍ من المسلمين وراموا الوصول إلى المدينة ودفع المسلمين عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع النصارى وابن مردنيش عنها خائبين، ومات ملك النصارى قبل أن يصل إلى طليطلة، واستمرّ الحصار على المرية ثلاثة أشهرٍ فقلّت الأقوات على النصارى الإسبان فطلبوا الأمان ليسلّموا الحصن فأجابهم أبو سعيد إليه وأمنهم وتسلّم الحصن ورحل النصارى عائدين إلى مواقعهم فكان ملكهم لمدينة المرية مدة عشر سنواتٍ.

١١" ـ الأندلس:

كانت أوضاع المسلمين في الأندلس تسير نحو التردّي لـ:

١ ـ زيادة الفرقة بين رجالات البلاد وحكام المدن.

٢ ـ دعم أوربا للنصارى الإسبان.

٣ ـ ضعف دولة المرابطين في الأندلس بعد هزيمة دولتهم في المغرب على أيدي الموحّدين، ثم زوالها في بلاد المغرب وأعقب ذلك زوالها في الأندلس.

٤ ـ ارتفاع معنويات نصارى الإسبان وزيادة

أطماعهم بالأندلس بعد رؤيتهم ما يجري.

استطاع نصارى الإسبان أن يملكوا شنترين، وباجة، ومـاردة، ولشبونة سنة ٥٤٠هـ إذ ضعف أمر المرابطين. ثم ملكوا المرية سنة ٥٤٢هـ، ثم ملكوا سنة ٥٤٤هـ كلاً من طرطوشة، ولاردة، وفي سنة ٥٤٥هـ حاصر ملك طليطلة النصراني وهو الأذفونش الملقّب بالسليطين مدينة قرطبة فبعث له أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي جيشاً أجبره على الرحيل عنها.

تحسّن وضع الموحّدين بعد الانتهاء من حروبهم في إفريقية والقضاء على دولة المرابطين وبني حماد وامتلاك بلاد المغرب كلها فانصرفوا إلى الأندلس وتمكّن عبد المؤمن بن علي أن يستعيد مدينة المرية من النصارى سنة ٥٥٢هـ بعد أن حكموها عشر سنواتٍ، ولم يبق للمرابطين في الأندلس سوى جزيرة ميورقة مع حمود بن غانية.

الصليبيون

لقد قلّ عدد الصليبيين في بلاد الشام لكثرة ما قُتل منهم، وتوزَّعوا على شريطٍ طويلٍ من الأرض يمتدّ من الرها إلى أنطاكية فطرابلس الشام فبيت المقدس، وحلّت بهم هزائم كثيرة فطلبوا معونة أوربا والكنيسة،

ولكن كان البابا أربان الثاني قد توفي ولم يعُد تأثير الكنيسة ذا أثرٍ إذ قام نزاع بين رجال الكنيسة على كرسي البابوية، وزادت ثروة أوربا وزادت قوة الملكية في بعض الدول مثل فرنسا وألمانيا وصقلية، ولهذا لم تستطع الكنيسة في أوربا تلبية نداء الصليبيين كما حدث في جمع المقاتلين في الحملة الصليبية الأولى.

لقد نشأت قوة جديدة للمسلمين تزعمها عماد الدين زنكي، وكان عماد هذه القوة فكرة الجهاد التي ظهرت من جديدٍ، وبدأ عماد الدين زنكي يسعى لتوحيد كلمة المسلمين ولتوسعة رقعة البلاد التي يسيطر عليها في سبيل الوقوف في وجه الصليبيين ومحاولة طردهم من بلاد المسلمين، غير أن وجود هذه القوة الجديدة قد دفع نصارى أوربا للمناداة بالدفاع عن البلاد التي احتلوها من بلاد الشام والتي كلَّفتهم كثيراً، وبقيت فكرة الجهاد تحول دون اجتماع نصارى الغرب للسير إلى الشام، وقد استطاع أحدهم أن يجمع أعداداً كبيرةً من النصارى الحاقدين على المسلمين تحت شعار الدفاع عن المكتسبات التي حصلوا عليها، وذلك بعد أن عمل على إشاعة عدم رفع المسلمين راية الجهاد وهذا ما شجّع النصارى في أوربا على الالتحاق بالحملة الصليبية

الثانية. ولما كانت الملكية قد قويت في ألمانيا وفرنسا وأخذت تنافس الكنيسة لذا فقد انضمّ إلى هذه الجموع كل من ملك ألمانيا كونراد الثالث، ولويس السابع ملك فرنسا وسارت حملة صليبية كبيرة متجهة نحو الشرق.

أما روجر ملك صقلية وجنوبي إيطاليا فقد اتجه نحو شمالي إفريقية ودخل طرابلس الغرب سنة ٥٤١هـ والمهدية سنة ٥٤٣هـ غير أن اختلافاً قام بينه وبين امبراطور القسطنطينية سنة ٥٤٤هـ، ثم مات وزيره جورج سنة ٥٤٦هـ وهو الذي قام بحملاته الصليبية في شمالي إفريقية فاستراح منه الناس، كما مات روجر ملك صقلية سنة ٥٤٨هـ بعد أن هاجم مدينة بونة[1] ودخلها.

أما الحملة الصليبية الأوروبية الثانية فقد شجّعها على الانطلاق ما أُشيع من عدم رفع المسلمين راية الجهاد فإن أكثر ما يخيف أعداء الإسلام الذين جرّبوا القتال مع المسلمين إنما هو إعلان المسلمين للجهاد ورفع رايته والدعوة له، ثم كان مما شجّعهم احتلال عماد الدين زنكي إمارة الرها الصليبية سنة ٥٣٩هـ، إذ بدت الحماسة فيهم.

---

(١) بونة: مدينة على ساحل البحر المتوسط بين سكيكدة وعنابة اليوم. واسم بونة اليوم غير موجود.

انطلقت الحملة الصليبية الثانية سنة ٥٤٢هـ، وكان عماد الدين زنكي قد توفي سنة ٥٤١هـ، اتجهت الحملة الصليبية الثانية إلى بلاد الشام عن طريق البحر للخلاف الذي كان قائماً بين إمبراطور القسطنطينية وبين الصليبيين القادمين من أوربا والمستنفرين لقتال المسلمين اتجه الفرنسيون نحو أنطاكية على حين سار الألمان نحو عكا.

رغب قادة هذه الحملة الصليبية أن يحتلّوا دمشق حاضرة بلاد الشام ولقطع الصلة بين المسلمين شمال بيت المقدس وجنوبه فارتكبوا بذلك خطأً عسكرياً بالنسبة لهم وهو أن أمير دمشق يومذاك وهو مجير الدين كان يخشى من سيطرة آل زنكي على مدينته ويعتمد على الدعم الصليبي فيما إذا اتجه آل زنكي نحوه، فلما اتجه الصليبيون نحو مدينته دمشق وجد أنه لا بُدّ له من أن يستنجد بنور الدين محمود آل زنكي ضدهم وكان نور الدين محمود قد حمل مهمة والده عماد الدين زنكي في قتال الصليبيين، وقد استطاع أن ينقذ عدة حصونٍ على الساحل الشامي سنة ٥٤٢هـ من أيدي الصليبيين وأن يعيدها لأهلها المسلمين.

حاصر الصليبيون مدينة دمشق سنة ٥٤٣هـ بجيشٍ

قوامه مائة ألفٍ يقوده كونراد الثالث ملك ألمانيا فاستنجد أميرها مجير الدين بنور الدين محمود صاحب حلب، وبأخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل، وجاء نور الدين محمود وانتصر على الصليبيين في بصرى، ولما سمع الصليبيون بقدوم ولدي زنكي إلى دمشق رحلوا عنها وهذا ما هيّأ لنور الدين محمود بدخول دمشق سنة ٥٤٩هـ، واضطر ملك ألمانيا كونراد الثالث بعدها العودة إلى بلاده، كما تبعه ملك فرنسا لويس السابع بعد مدةٍ وجيزةٍ، وهكذا فشلت هذه الحملة الصليبية الثانية.

دخل نور الدين محمود سنة ٥٤٤هـ حصن أفاميا، وسار نحو أنطاكية، وحاصر في طريقه مدينة حارم وصالحه أهلها على نصف الواردات، غير أنه هُزم سنة ٥٤٦هـ عندما سار لقتال جوسلين أمير الرها الصليبي، ثم تمكن من أسر جوسلين، واستطاع أن يأخذ إعزاز، وعينتاب، ومرعش.

بعد أن دخل نور الدين محمود دمشق سنة ٥٤٩هـ سار إلى بعلبك ودخلها سنة ٥٥٠هـ، كما أخذ شيزر سنة ٥٥٢هـ.

وأخفقت الحملة الصليبية الثانية وظهر ضعف

الصليبيين في بلاد الشام، وقوي شأن المسلمين إذ أصبحت أكثر بلاد الشام تحت إمرة نور الدين محمود، وحُصر الصليبيون في المناطق الساحلية وبيت المقدس، وقلّ أملهم في الحصول على مساعدة بعض الأمراء المسلمين ضدّ بعضٍ، وقلّ عدد النصارى الذين كانوا يأتون لزيارة بيت المقدس، ولم تعد أوربا تُفكّر بإرسال حملةٍ جديدةٍ إلى بلاد الشام لدعم الصليبيين هناك.

أما النصارى من سكان البلاد والذين يعيشون في ذمة المسلمين فقد كانت عواطفهم مع الصليبيين الغزاة وقلوبهم معهم ولكن لا يستطيعون إظهار ذلك لأنهم موزّعون بين المسلمين وفي البلاد متفرّقون، ولكنهم كانوا يؤدّون لهم دور التجسّس، ويضعون أنفسهم تحت تصرّفهم إن كانوا في بلدٍ تمكّن الصليبيون من دخولها، أو وصلوا إلى حصارها، وعلى هذا فإن دورهم كان ذا أثرٍ ضئيلٍ عسكرياً ولكنه كان خطيراً سياسياً فهم منهم وإن لم تساعدهم ظروفهم على أن يكونوا معهم في الميدان بأجسامهم وسيوفهم ولكنهم بقلوبهم وعواطفهم معهم، وإن كانوا ينكرون هذا ويُبدون خلافه، ويظهرون أنهم مع من يسكنون معهم على أرضٍ واحدةٍ.

الباطنية

بعد أن انتهى ربيع الباطنية بزوال رعاتهم من البويهيين وأتباعهم من القرامطة والسامانيين وأعوانهم الحمدانيين وضعف دعامتهم من العبيديين تقوقعوا في مواقعهم وانزووا في جحورهم إذا رفعوا رؤوسهم حلّت بهم النكبة وإذا ظهروا جاءتهم الضربة لا يستطيعون تأدية دورٍ لهم أو القيام بمهمّةٍ من مهماتهم التي يعدّونها أساسيةً في حياتهم أو واجباً من واجباتهم ومنها بثّ السموم في الأفكار، ودسّ المفتريات في الأخبار، وإيقاع الخلاف بين المؤمنين وإثارة الفتن بين المسلمين، ومع ذلك كانت العزّة بالإثم تُثير بعضهم فإذا برز عالم بعلمه قتلوه، أو قائد جاهد الأعداء تخلّصوا منه، أو عمل مجاهد لوحدة المسلمين أزالوه وكل ذلك بمكرٍ وتخطيطٍ وخبثٍ وتنظيمٍ وسريةٍ ودهاءٍ لا همّ لهم سوى الهدم ولا شأن لهم سوى الطعن من الخلف.

ومن أساليبهم أنهم إذا غضبوا على كبيرٍ لصلاحه وحسن سيرته أو لقيادته وحسن جهاده أو لإصلاحه وعمله على جمع الكلمة أظهر بعضهم الطاعة له وتقرّبوا منه وعملوا على خدمته حتى يصبحوا من خاصته ولا يشكّ أحد في إخلاصهم له فإذا سنحت لهم الفرصة

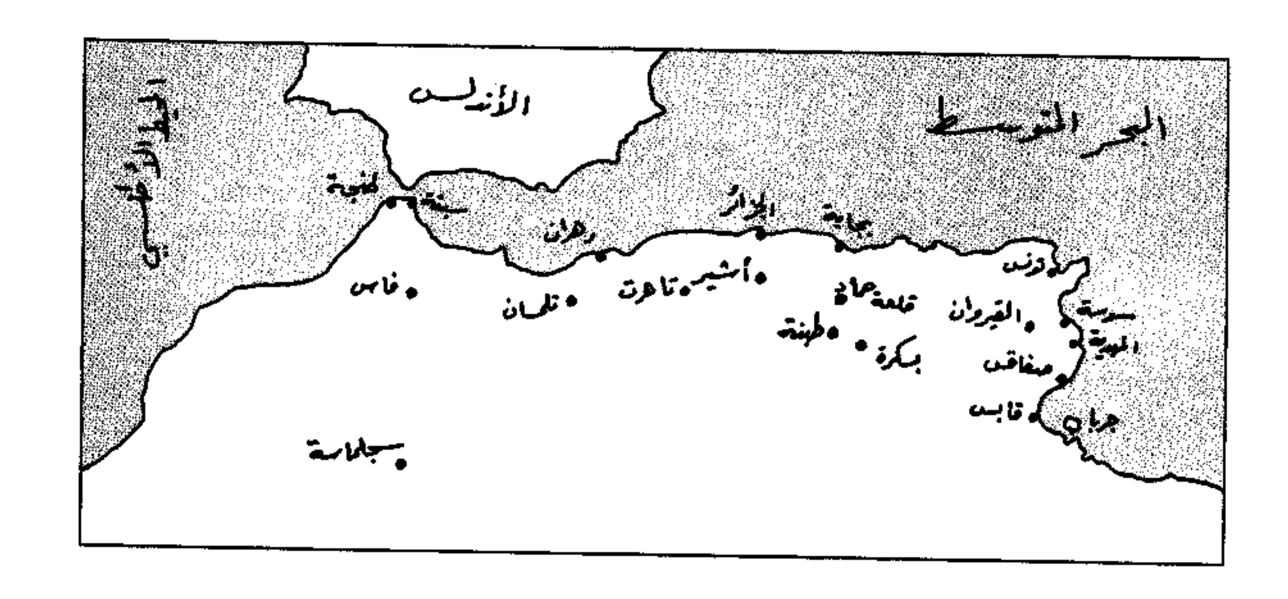
فانفردوا به وظنّوا النجاة من فعلهم بطشوا به وولّوا هاربين. والباطني لا يُعرف حتى يُتجنّب لأنه يُظهر غير ما يُبطن ويقول غير ما يُخفي.

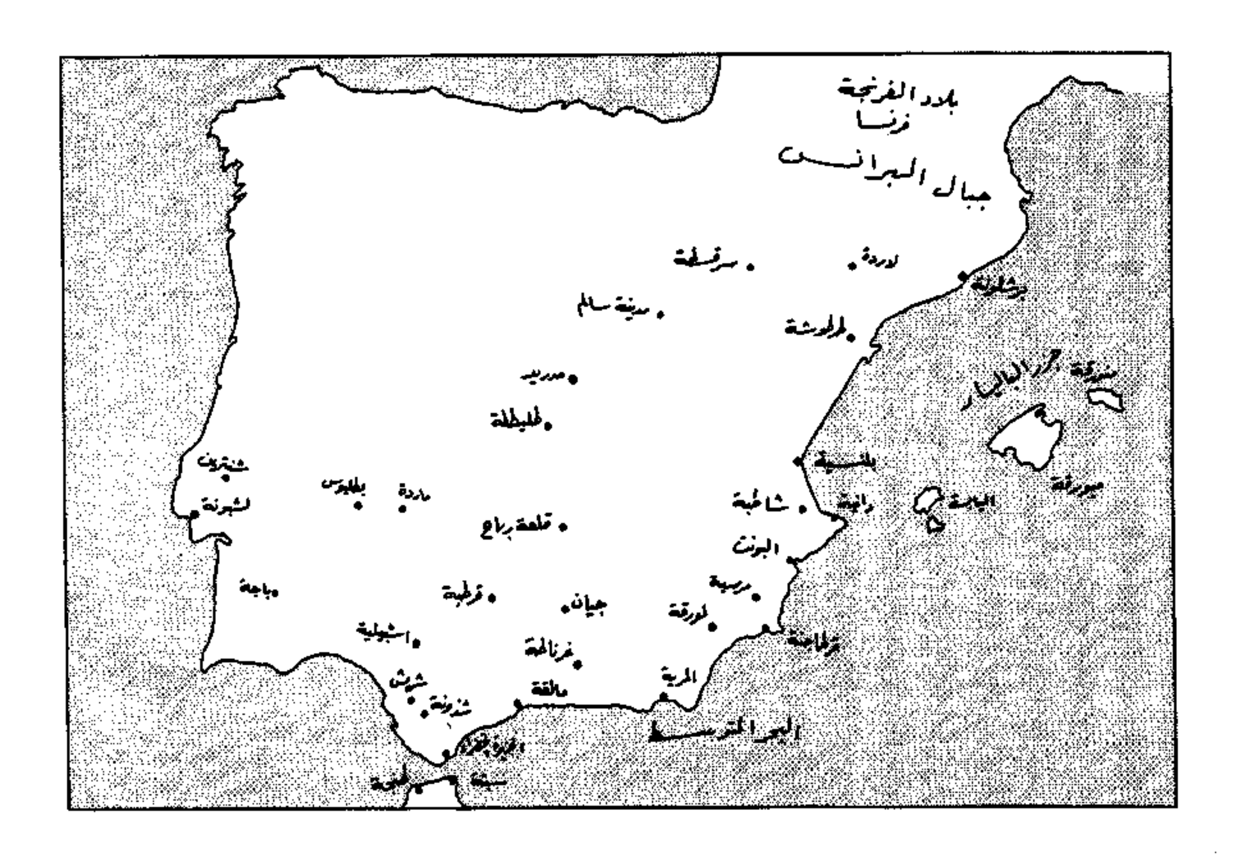
بقي الخليفة الراشد وحده لا عسكر معه فسار إلى أصفهان فلما كان الخامس والعشرون من شهر رمضان سنة ٥٣٢هـ وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة، وكان في أعقاب مرضٍ برئ منه، فركب من معه فقتلوا الباطنية.

وفي شهر شوال سنة ٥٣٣هـ قُتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغتكين صاحب دمشق على فراشه غيلةً قتله ثلاثة من أتباعه، هم خواصه وأقرب الناس إليه، كانوا ينامون عنده في القلعة فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا فنجا أحدهم وأُخذ الآخران فصُلبا.

وفي الخامس من ربيع الثاني سنة ٥٤١هـ قُتل عماد الدين زنكي صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلةً وهربوا إلى قلعة جعبر فصاحوا على من بها يعلمونهم بقتله وقد أظهروا الفرح.

وهذه أمثلة من كثير، لعن الله الكافرين والمنافقين.


المحيط الأطلسي
الأندلس
البحر المتوسط
طنجة
سبتة
وهران
الجزائر
بجاية
تونس
سوسة
المهدية
صفاقس
قابس
جربة
القيروان
قلعة حماد
طبنة
بسكرة
أشير
تاهرت
تلمسان
فاس
سجلماسة

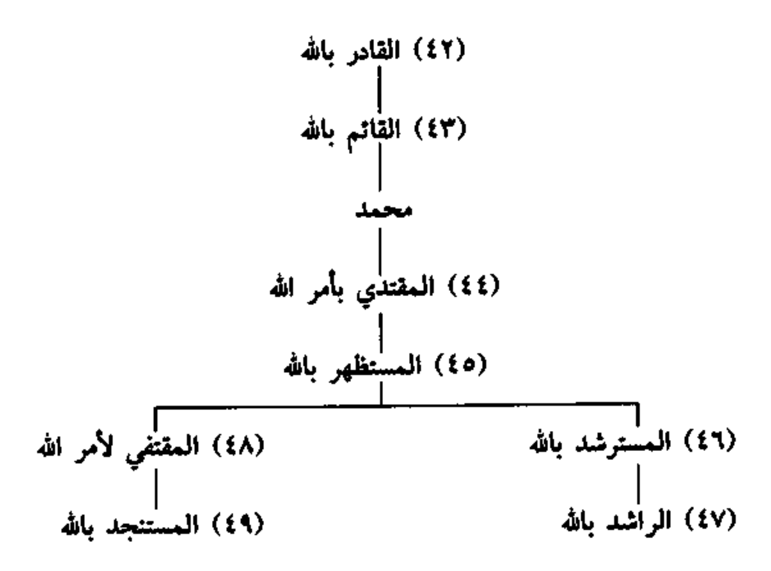

بلاد الفرنجة
فرنسا
جبال البرانس
لاردة
سرقسطة
برشلونة
مدينة سالم
طرطوشة
منورقة
جزر البليار
مدريد
طليطلة
بلنسية
ميورقة
دانية
اليابسة
شاطبة
البونت
مرسية
لورقة
قرطاجنة
المرية
البحر المتوسط
مالقة
غرناطة
جيان
قرطبة
قلعة رباح
ماردة
بطليوس
شنترين
الأشبونة
باجة
اشبيلية
شريش
شذونة
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة

الفصل السابع

٤٩- المستنجد بالله

٥٥٥-٥٦٦هـ

المستنجد بالله هو الخليفة أبو المظفر يوسف بن محمد المقتفي لأمر الله بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عمّ رسول الله ﷺ.



المستنجد بالله قبل الخلافة:

ولد في مستهل ربيع الثاني سنة ٥١٨هـ، وأمه أم ولد كرجية اسمها طاووس وقيل: رومية تدعى نرجس، وعقد له أبوه بولاية العهد سنة ٥٤٧هـ وعمره تسع وعشرون سنة.

ولما احتضر الخليفة المقتفي لأمر الله رام طائفة عزل المستنجد بالله من ولاية العهد، وبعثت حظيّة المقتفي لأمر الله أم عليّ إلى الأمراء تعدهم وتُمنّيهم ليُبايعوا ابنها علي بن المقتفي، قالوا: كيف هذا مع وجود ولي العهد يوسف؟ قالت: أنا أكفيكموه، وهيّأت جواري بسكاكين ليثبن عليه، فرأى خويدم ليوسف الحركة ورأى بيد عليّ

وأمه سيفين فبادر مذعوراً إلى سيّده، وبعثت هي إلى يوسف: أن احضر موت أمير المؤمنين. فطلب أستاذ الدار، ولبس درعاً، وشهر سيفه، وأخذ معه جماعة من الخدم والفرّاشين، فلما مرّ بالجواري ضرب جاريةً بالسيف فجرحها وتهارب الجواري، وأخذ أخاه علياً وأمّ عليّ فحبسهما، وأنهى الجواري قتلاً وتغريقاً، وتمكّن.

ولم يكن للمستنجد بالله أي دورٍ في الخلافة قبل تسلّمها.

وتوفي الخليفة المقتفي لأمر الله والد المستنجد بالله في الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ وبويع المستنجد بالله، وكان أول من بايعه عمّه أبو طالب، ثم أخوه أبو جعفر، ثم الوزير ابن هبيرة[١]، وقاضي القضاة الدامغاني.

---

(١) ابن هبيرة: يحيى بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيباني، أبو المظفر، عون الدين: ولد سنة ٤٩٩هـ في قريةٍ بالعراق، ودخل بغداد في صباه، فتعلّم صناعة الإنشاء، وقرأ التاريخ والأدب وعلوم الدين، واتصل بالخليفة المقتفي لأمر الله، فولّاه بعض الأعمال، وظهرت كفاءته فارتفعت مكانته، ثم استوزره سنة ٥٤٤هـ، وكان لقبه جلال الدين فلقّبه عون الدين، وكان يقول: ما وزر لبني العباس مثله، ونعته بالوزير العالم العادل، وقام ابن هبيرة بشؤون الوزارة حكماً وسياسةً وإدارةً=

خلافة المستنجد بالله:

لما ولي المستنجد الخلافة أقرّ يحيى بن هبيرة على الوزارة وأصحاب الولايات على ولاياتهم، وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضي ابن المرخم وكان بئس الحاكم وأخذ منه مالاً كثيراً، وأُخذت كتبه فأُحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة وكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب إخوان الصفا وما يشابهها وقدّم عضد الدولة بن رئيس الرؤساء، وكان أستاذ الدار، ومكّنه، وتقدّم إلى الوزير أن يقوم له، وعزل قاضي القضاة أبا الحسن علي بن أحمد الدامغاني ووضع مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي، وخلع عليه.

وله شعر جيد، ومنه:

= أفضل قيام، وتوفّرت له أسباب السعادة، ولما توفي المقتفي لأمر الله وبويع المستنجد بالله أقره بالوزارة وعرف قدره فاستمرّ في نعمةٍ وحسن تصرّفٍ بالأمور إلى أن توفي ببغداد سنة ٥٦٠هـ. وكان مكرماً لأهل العلم، يحضر مجالس الفضلاء على اختلاف فنونهم، ويُعدّ عالماً بالفقه والأدب، وله نظم جيد، وصنّف كتباً منها: الإيضاح والتبيين في اختلاف الأئمة المجتهدين، والإشراف على مذاهب الأشراف، والإفصاح عن معاني الصحاح، والمقتصد «في النحو»، وعشرات الكتب الأخرى. ومن شعره:

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه ... وأراه أسهل ما عليك يضيع

عيّرتني بالشيب وهو وقار
ليتها عيّرت بما هو عار
إن تكن شابت الذوائب مني
فالليالي تزينها الأقمار

وله في بخيل:

وباخل أشعل في بيته
تكرمةً منه لنا شمعه
فما جرت من عينها دمعة
حتى جرت من عينه دمعه

وله في وزيره ابن هبيرة وقد رأى منه ما يعجبه من تدبير مصالح المسلمين:

صفت نعمتان خصّتاك وعمّتا
بذكرهما حتى القيامة تذكر
وجودك والدنيا إليك فقيرة
وجودك والمعروف في الناس منكر
فلو رام يا يحيى مكانك جعفر
ويحيى لكفّا عنه يحيى وجعفر
ولم أر من ينوي لك السوء يا أبا الـ
ـمظفّر إلا كنت أنت المظفر

كان المستنجد شديداً على المفسدين، سجن رجلاً كان يسعى بالناس مدةً، فحضره رجل وبذل فيه عشرة آلاف دينارٍ، فقال له المستنجد: أنا أُعطيك عشرة آلاف دينارٍ ودلّني على آخر مثله لأحبسه وأكفّ شرّه عن الناس.

قال ابن الجوزي: كان المستنجد موصوفاً بالفهم الثاقب، والرأي الصائب، والذكاء الغالب، والفضل الباهر، له نظم بديع، ونثر بليغ، ومعرفة بعمل آلات الفلك والأسطرلاب وغير ذلك.

وكان المستنجد أسمر طويل اللحية، من خيار الخلفاء وأعدلهم وأرفقهم بالرعية.

وفي أيامه اتسعت رقعة ميدان القتال بين المسلمين والصليبيين، وكانت الساحة بلاد الشام ومصر، ويقود القتال في كلا الساحتين نور الدين محمود حيث ضعفت الدولة العبيدية لدرجةٍ كبيرةٍ وهذا ما جعل نور الدين محمود يتولّى أمر الدفاع عن مصر.

وتوفي الخليفة المستنجد بالله في الثامن من شهر ربيع الثاني سنة ٥٦٦هـ وبذا تكون خلافته قد زادت على إحدى عشرة سنةً.

الإمارات

١" ـ السلاجقة:

ضعف أمر السلاجقة كثيراً، وقوي أمر الخلفاء نسبياً لضعف السلاطين، وإن كانت السلطة الحقيقية إنما هي بيد أمراء الولايات أو الذين عُرفوا باسم الأتابكة حيث تعني كلمة أتابك الوالد الأمير.

سار سليمان شاه بن محمد السلجوقي سنة ٥٥٥هـ من الموصل إلى همذان ليتولّى أمر السلطنة، وذلك أن ابن أخيه الملك محمد بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لما مات أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكي صاحب الموصل يطلبون منه إرسال الملك سليمان شاه إليهم ليولّوه السلطنة واتفقوا أن يكون سليمان شاه سلطاناً، ويكون قطب الدين الأمير متعهد الشؤون (أتابك)، وجمال الدين وزير قطب الدين وزيراً لسليمان شاه وتحالفوا على هذا، وجهّز سليمان شاه نفسه بما يصلح للسلاطين وسار ومعه زين الدين علي وعسكر الموصل إلى همذان، فلما اقتربوا من بلاد الجبل أقبلت العساكر إليهم أرسالاً كل يومٍ يلقاه طائفة وأمير فاجتمع مع سليمان شاه عسكر فخافهم زين الدين علي إذ رأى من

تسلّطهم على السلطان وتركهم للأدب معه ما أوجب الخوف فعاد إلى الموصل فلما رجع لم ينتظم أمر سليمان شاه، ولم يتمّ له ما أراده وقبض العسكر عليه بباب همذان في شهر شوال سنة ٥٥٦هـ وخطبوا لأرسلان شاه بن الملك طغرل بن سنجر بن ملكشاه.

توفي ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصفهان مسموماً سنة ٥٥٥هـ، وذلك أنه لما كثر جمعه بأصفهان أرسل إلى بغداد وطلب أن يقطعوا الخطبة لعمه سليمان شاه ويخطبوا له وإلا قصدهم فأرسل الوزير عون الدين بن هبيرة خصيّاً كان خاصاً به يقال له: أغلبك الكزهرابيني فمضى إلى بلاد العجم واشترى جاريةً من قاضي همذان بألف دينارٍ وباعها من ملكشاه، وكان قد وضعها لسمّه ووعدها أموراً عظيمةً على ذلك وسمّته في لحمٍ مشوي فأصبح ميتاً، وجاء الطبيب فقال: إنه مسموم، فعرفوا أن ذلك من الجارية، فأُخذت وضُربت وأقرّت، وهرب أغلبك ووصل إلى بغداد، ووفّى له الوزير بكل ما وعده، ولما مات ملكشاه بن السلطان محمود أخرج أهل أصفهان أصحابه من عندهم، وخطبوا لسليمان شاه، واستقرّ ملكه بتلك البلاد.

وفي شهر ربيع الثاني سنة ٥٥٦هـ قُتل السلطان سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه، وذلك أنه كان يرتكب بعض المخالفات الشرعية، فقبض عليه الخادم شرف الدين كردبازو في شهر شوال سنة ٥٥٥هـ أثناء دعوةٍ عظيمةٍ قام بها كردبازو حضرها السلطان والأمراء، فلما صار السلطان سليمان شاه في داره قبض عليه كردبازو وعلى وزيره أبي القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدي وعلى أصحابه فقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه في قلعةٍ ثم أرسل إليه من خنقه، وقيل: بل حبسه في دار رئيس همذان مجد الدين وفيها قُتل، وقيل: بل سُقي سُمّاً فمات ـ والله أعلم ـ وكردبازو أحد مشايخ الخدم السلجوقية.

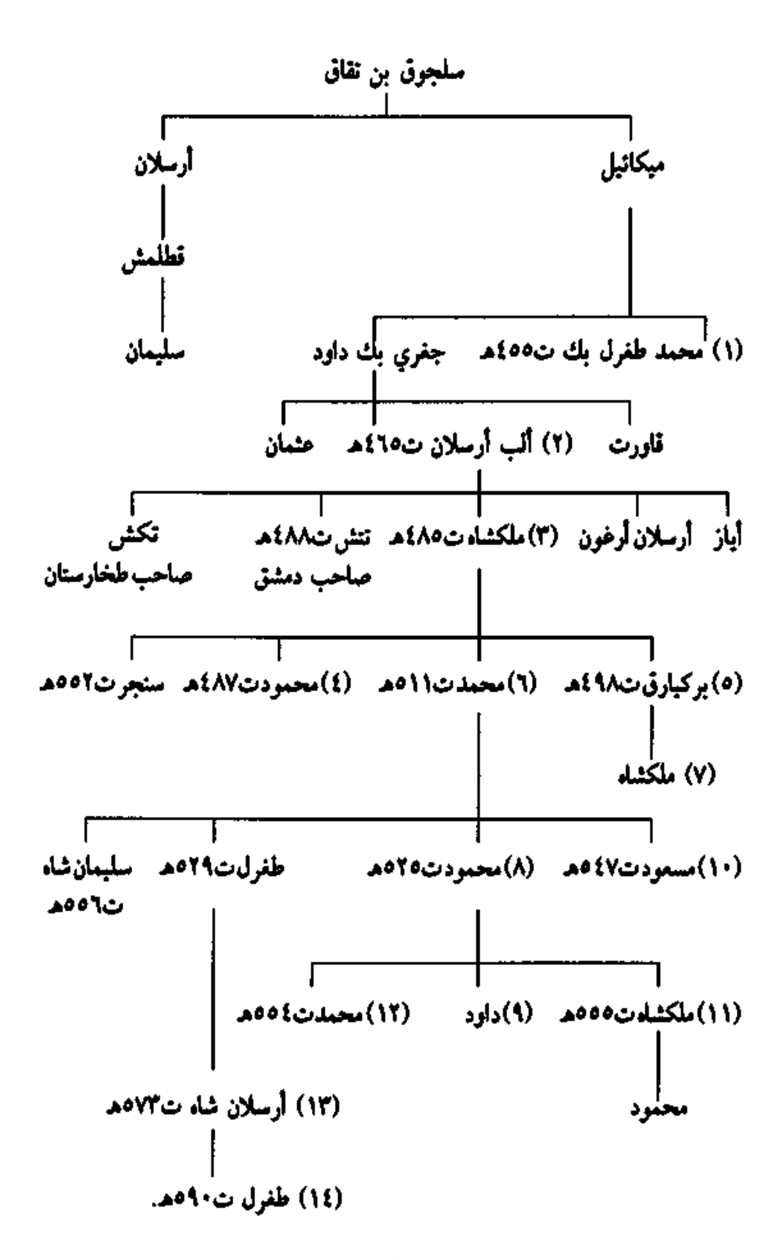
أرسل كردبازو إلى ايلدكز صاحب أذربيجان يستدعيه إليه ليخطب إلى الملك أرسلان شاه بن طغرل الذي كان عنده وهو ابن أخي سليمان شاه، وسار إيلدكز في عساكره جميعها ويزيد عددها على عشرين ألف فارسٍ ومعه أرسلان شاه بن طغرل فوصل إلى همذان فلقيهم كردبازو فأنزله في دار المملكة وخطب لأرسلان شاه بالسلطنة بتلك البلاد، وكان إيلدكز مدير شؤونه (أتابكه)، وهو أحد مماليك السلطان مسعود

وأمرائه في أول أمره، فلما ملك مسعود أقطعه أران[1] وبعض أذربيجان، وتزوج بأم الملك أرسلان شاه بن طغرل فولدت له أولاداً: منهم البهلوان محمد، وقزل أرسلان عثمان، ولما خُطب لأرسلان شاه بهمذان أرسل ايلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه فأُعيد رسوله على أقبح حالةٍ وأهين.

لما مات السلطان ملكشاه بن السلطان محمود سنة ٥٥٥هـ أخذ طائفة من أصحابه ابنه محموداً وانصرفوا به نحو بلاد فارس فخرج عليهم صاحبها زنكي بن دكلا فأخذه منهم وتركه في قلعة اصطخر، وراسل وزير الخليفة يحيى بن هبيرة عدداً من الأطراف يدعوهم أن يخطبوا لمحمود بن ملكشاه بن محمود، فلم تتفق الكلمة وهكذا تفرّق شمل السلاجقة وضعف أمرهم، واتجه بعضهم إثر بعض نحو فراش الاحتضار يسمع الأحداث وليس له دور ولا يستطع فعل شيءٍ.

---

(١) أران: الجزء الغربي من أذربيجان.



سلجوق بن تقاق
أرسلان
ميكائيل
قطلمش
سليمان
جغري بك داود
(١) محمد طغرل بك ت٤٥٥هـ
عثمان
(٢) ألب أرسلان ت٤٦٥هـ
قاورت
تكش
صاحب طخارستان
تتش ت٤٨٨هـ
صاحب دمشق
(٣) ملكشاه ت٤٨٥هـ
أرسلان أرغون
أياز
سنجر ت٥٥٢هـ
(٤) محمود ت٤٨٧هـ
(٦) محمد ت٥١١هـ
(٥) بركيارق ت٤٩٨هـ
(٧) ملكشاه
سليمان شاه
ت٥٥٦هـ
طغرل ت٥٢٩هـ
(٨) محمود ت٥٢٥هـ
(١٠) مسعود ت٥٤٧هـ
(١٢) محمد ت٥٥٤هـ
(٩) داود
(١١) ملكشاه ت٥٥٥هـ
(١٣) أرسلان شاه ت٥٧٣هـ
محمود
(١٤) طغرل ت٥٩٠هـ.

٢" ـ الغوريون:

توفي علاء الدين حسين سنة ٥٥٦هـ وخلفه ابنه سيف الدين محمد رغم أن والده كان قد أوصى لابن أخيه غياث الدين محمد. طرد سيف الدين محمد من بلاده كل رجلٍ عُرف عنه أنه من الإسماعيلية وسار إلى محاربة الغز الأتراك في بلْخ، فالتقى بهم، واتفق أن خرج سيف الدين محمد ملك الغوريين من معسكره في جماعةٍ من خاصته فسمع به أمراء الغزّ فساروا يطلبونه مجدّين قبل أن يعود إلى معسكره فأوقعوا به فقاتلهم أشدّ قتالٍ فقُتل ومعه نفر ممن كان معه، وأُسرت جماعة، وهربت جماعة وذلك في شهر رجب سنة ٥٥٨هـ، وكان عمر سيف الدين لما قُتل نحو عشرين سنةً، وكان عادلاً حسن السيرة.

تولّى بعد سيف الدين محمد ابن عمه غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام، فأرسل جيشاً كبيراً بإمرة أخيه شهاب الدين فأنقذ غزنة من الأتراك الغز وقد حكموها خمس عشرة سنةً، كما سار إلى بلاد السند، غير أن الترك الغز قد عادوا إلى غزنة وحكموها، وسار شهاب الدين محمد سنة ٥٥٩هـ في جيشٍ قويٍ فاستولى على مدينة لاهور بعد حصارٍ لها، وقضى على الدولة

الغزنوية إذ أسر في لاهور خسروشاه وأرسله إلى أخيه غياث الدين فقتله.

اتسعت دولة غياث الدين محمد وقوي أمره وامتدت أيامه.

٣" ـ خوارزم:

كان أيل أرسلان بن أتسز هو شاه خوارزم منذ سنة ٥٥١هـ، وكانت الأمور مستقرةً له، والبلاد التي تخضع لسلطانه واسعة الأرجاء، وبقي في حكمه حتى توفي سنة ٥٦٨هـ.

٤" ـ آل زنكي:

كانت إمارة آل زنكي كبقية الإمارات في المشرق الإسلامي ترتبط بالسلطان الذي هو من آل سلجوق فلما ضعفت السلطنة أصبح لكل إمارةٍ كيانها الخاص بها واستقلالها عن غيرها وإن كانت تتبع الخلافة العباسية وتعدّ جزءاً منها.

وتختلف إمارة آل زنكي عن كثيرٍ من الإمارات الأخرى التي تسعى لتوسعة مناطق نفوذها فتعمل لاحتلال أراضي إماراتٍ ثانيةٍ والسيطرة على بلدانها أو الاعتداء على غيرها للحصول على المكاسب وأخذ

الخيرات. أما آل زنكي فعملوا جاهدين لقتال الصليبيين الحاقدين على الإسلام والغازين لديار الإسلام في سبيل ضرب الإسلام والانتقام من أهله. وإذا قاتل آل زنكي إماراتٍ إسلاميةً أخرى إما لصلةٍ بين هذه الإمارات وبين الصليبيين وإن كان لسببٍ حيوي - حسب زعمهم - وإما للعمل على جمع المسلمين لقتال الصليبيين بقوةٍ واتحادٍ كما يأمر الإسلام بذلك.

بذل عماد الدين زنكي جهده لجمع المسلمين وقتال الصليبيين حتى قُتل سنة ٥٤١هـ وهو يحاصر قلعة جعبر على نهر الفرات. وخلفه أولاده: سيف الدين غازي الذي تولّى أمر الموصل وتوفي سنة ٥٤٤هـ، وقطب الدين مودود الذي خلف سيد الدين غازي على الموصل، ونور الدين محمود الذي تولّى أمر حلب.

تابع نور الدين محمود مهمته في قتال الصليبيين، وحاول الصليبيون استرداد إمارة الرها منه غير أنهم فشلوا وقامت الحملة الصليبية الثانية لاستردادها، واتجهت هذه الحملة نحو دمشق ذات الموقع الحيوي للعمل ضد نور الدين محمود، فركّز هو قوته على دمشق واستطاع أن يدخلها سنة ٥٤٩هـ. واستمرّ نور الدين محمود في سياسته هذه حتى توفي سنة ٥٦٩هـ، كما

كان قد توفي أخوه قطب الدين مودود صاحب الموصل سنة ٥٦٥هـ.

سار نور الدين محمود نحو مدينة حارم وكانت بيد الصليبيين وذلك سنة ٥٥٧هـ فحاصرها وجدّ في قتالها فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة من بها من فرسان الصليبيين ورجالهم، فلما علم الصليبيون في بقية المناطق جمعوا قواتهم وحشدوا عسكرهم وساروا نحوه ليرحّلوه عن مدينة حارم فلما اقتربوا منه راسلوه وتلطّفوا معه، وفي الوقت نفسه رأى هو أنه لا يمكنه دخول قلعة حارم فرجع إلى حلب. وممن كان معه في هذه الغزوة أسامة بن مرشد بن منقذ الكناني وكان شجاعاً، ولما رجع دخل مسجد بلده شيزر، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج فلما دخله الآن كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي كم لك مِنَّة
علىّ وفضل لا يحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت الله والركن والحجر

فأدّيت مفروضي وأسقطت ثقل ما

تحمّلت من وزر الشبيبة عن ظهري[1]

كان القتال بين نور الدين محمود والصليبيين سجالاً في المرحلة الأولى ثم عمل على حصرهم بين جبهتين عندما ضعف العبيديون فنال منهم كثيراً.

لقد هُزم نور الدين محمود أمام الصليبيين سنة ٥٥٨هـ عند حصن الأكراد (قلعة الحصن) وهي الوقعة المعروفة بـ(البقيعة)، وقد سار إلى ذلك الحصن وألقى الحصار عليه وعزم على قصد طرابلس الشام ومحاصرتها وإنقاذها من أيدي الصليبيين، فبينما الناس يوماً في خيامهم وسط النهار لم يرعهم إلا ظهور الصلبان بأيدي عساكر الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد، وذلك أن الصليبيين اجتمعوا واتفق رأيهم على كبس المسلمين نهاراً فإنهم يكونون آمنين، فركبوا من وقتهم ولم يتوقّفوا حتى يجمعوا عساكرهم وساروا مجدّين فلم يشعر بذلك المسلمون إلا وقد اقتربوا منهم فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك فأرسلوا إلى نور الدين محمود يعرفونه الحال فأرهقهم الصليبيون

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

بالحملة عليهم فلم يثبت المسلمون وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والصليبيون في ظهورهم فوصلوا معاً إلى معسكر نور الدين محمود فلم يتمكّن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطوهم فأكثروا القتل والأسر، وكان أشدّهم على المسلمين الدوقس الرومي فإنه كان قد خرج من بلاده إلى الساحل في جمعٍ كثيرٍ من الروم فقاتلوا بحماسةٍ فلم يُبقوا على أحدٍ وقصدوا خيمة نور الدين محمود وقد ركب فرسه ونجا بنفسه ولسرعته ركب الفرس والقيد لا يزال في رجل الفرس مشدوداً إلى الوتد فنزل رجل كردي وقطع حبل القيد ونجا نور الدين محمود وقُتل الكردي فأحسن نور الدين إلى خلفه وأوقف عليهم الوقوف. ونزل نور الدين محمود على بحيرة قَدَس (قطينة) بالقرب من حمص وبينه وبين المعركة ثلاثون كيلاً وتلاحق به من سلم من العسكر، وقال له بعضهم: ليس من الرأي أن نُقيم هاهنا فإن الصليبيين ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا فنؤخذ ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارسٍ لقيتهم ولا أبالي بهم، ووالله لا أستظلّ بسقفٍ حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام، ثم أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل، فأعطى الناس عوض ما أُخذ

منهم جميعه بقولهم، فعاد العسكر كأن لم تُصبهم هزيمة، وكل من قتل أعطى أقطاعه لأولاده، وأما الصليبيون فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد هزيمة المسلمين لأنها أقرب البلدان إليهم فلما بلغهم نزول نور الدين محمود بينها وبينهم قالوا: لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها. ثم إن الصليبيين راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يُجبهم، فتركوا عند حصن الأكراد من يحميه ورجعوا إلى مواقعهم.

رأى نور الدين محمود أن يعمل على جعل الصليبين بين جبهتين أولاهما من جهة الشمال من بلاد الشام، ووضع نصب عينيه على مصر لتكون جبهة الجنوب ويكون في الوقت نفسه قد انتهى من فكر العبيديين الباطني الذي يحمل أفكاراً سريةً خطيرةً والصليبيون أنفسهم لا يجدون في العبيديين خطراً عليهم وإن كانوا يريدون ضرب الشعب المصري ما دام مسلماً، فالحاكم عندهم شيء والرعية شيء آخر.

سيّر نور الدين محمود في شهر جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ عسكراً كثيراً إلى مصر وجعل عليهم الأمير أسد الدين شيركوه بن شادي وهو مقدم عسكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم. وكان سبب إرسال هذا الجيش

إضافةً إلى ما ذكرنا أن شاور وزير الملك العبيدي العاضد صاحب مصر نازعه في الوزارة ضرغام وغلب عليه فهرب شاور منه إلى الشام ملتجئاً إلى نور الدين ومستنجداً به فأكرم مثواه وأحسن إليه وأنعم عليه، وكان وصوله إلى الشام في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٩هـ وطلب من نور الدين محمود إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين محمود ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً بعساكره في مصر، ويتصرّف هو بأمر نور الدين، وأخذ نور الدين محمود يتردّد في تلبية طلب شاور فتارةً يحمله رعاية قصد شاور بابه وطلب الزيادة في الملك والتقوّي على الصليبيين وتارةً يمنعه خطر الطريق ووجود الصليبيين فيه، كما يتخوّف أن لا يفي شاور بما وعد، ثم قوي عزمه على إرسال الجيوش فتقدّم بتجهيزها وإزاحة عللها وكان هوى أسد الدين في ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي بمخافةٍ فتجهّز وساروا جميعاً وسار شاور في صحبتهم في شهر جمادى الأولى سنة ٥٩٩هـ، وتقدّم نور الدين محمود إلى شيركوه أن يُعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه، وسار نور الدين محمود إلى طرف البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون مما يلي دمشق بعساكره

ليمنع الصليبيين من التعرّض لأسد الدين شيركوه ومن معه، وكان قصارى جهد الصليبيين حفظ مناطقهم من نور الدين محمود، ووصل أسد الدين شيركوه والعساكر معه إلى مدينة بلبيس[1]، فخرج إليهم ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم وعاد إلى القاهرة، ووصل أسد الدين شيركوه فنزل على القاهرة في أواخر شهر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة في آخر الشهر فقُتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقي يومين ملقىً في العراء ثم حُمل ودُفن في القرافة، وقاتل فارس أخو ضرغام المسلمين، وخُلع على شاور في بداية شهر رجب سنة ٥٩٩هـ، وأُعيد إلى الوزارة وتمكّن منها، وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، فغدر به شاور، وعاد عمّا كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً، وأرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام فأعاد الجواب بالامتناع، وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى أسد الدين شيركوه ذلك أرسل إلى نوابه فتسلّموا مدينة بلبيس وحكم البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الصليبيين

---

(١) بلبيس: مدينة شمال شرقي القاهرة وعلى بعد ثمانين كيلاً منها، وهي إلى جنوب مدينة الزقازيق بعشرين كيلاً.

يستمدّهم ويخوّفهم من نور الدين إن ملك مصر، وكان الصليبيون قد أيقنوا بالهلاك إن تمّ ملكه لمصر فلما أرسل شاور يطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين شيركوه من مصر جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا في الديار المصرية، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه وتجهّزوا وساروا فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعسكره إلى أطراف مناطقهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشدّ فتركوا في مناطقهم من يحفظها وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنجة في البحر بحجة زيارة بيت المقدس فاستعان بهم الصليبيون في الساحل فأعانوهم فسار بعضهم معهم وأقام بعضهم في مناطقهم لحفظها، فلما اقترب الصليبيون من القاهرة فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فأقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهراً يتحصّن به فاجتمعت العساكر المصرية والصليبيون ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس وحاصروه بها ثلاثة أشهرٍ وهو ممتنع بها مع أن سورها غير مرتفع وليس لها خندق ولا فاصل يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا

منه شيئاً فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة إخوانهم الصليبيين على حارم واستيلاء نور الدين محمود عليها ومسيره إلى بانياس الجنوب، فحينئذٍ سقط في أيديهم وأرادوا العودة إلى مناطقهم في بيت المقدس ليحفظوها فراسلوا أسد الدين بالصلح والعودة الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم ما فعل نور الدين محمود في الشام بالصليبيين ولأن الأقوات والذخائر قلّت عليه وخرج من بلبيس في شهر ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ، وعندما انسحب طلب من أصحابه أن يخرجوا قبله فخرجوا بين يديه وبقي هو في آخرهم وبيده قضيب من حديدٍ يحمي ساقهم والمسلمون والصليبيون ينظرون إليه، قيل: فأتاه أحد الفرنجة الغرباء الذين خرجوا من البحر، فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والصليبيون وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية، فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت والله أضع السيف فلا يُقتل منا رجل حتى يُقتل منهم رجال، وحينئذٍ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني شجعانهم فنملك مناطقهم ونُهلك من بقي، والله لو أطاعني هؤلاء لخرجت إليكم من أول يومٍ ولكنهم امتنعوا. فصلّب الفرنجي على وجهه، وقال:

كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم، ثم رجع عنه.

سار شيركوه إلى الشام فوصل سالماً، وكان الصليبيون قد وضعوا له على مضيق في الطريق رصداً ليأخذوه أو ينالوا منه ظفراً فعَلِمَ بهم فعدل عن ذلك الطريق.

وانطلق نور الدين محمود في شهر رمضان سنة ٥٥٩هـ نحو حارم، وذلك أنه لما عاد منهزماً من البقيعة تحت حصن الأكراد (قلعة الحصن) أخذ بالاستعداد للجهاد، وقد بلغه مسير بعض الصليبيين مع ملكهم إلى مصر فأراد أن يقصد مناطقهم ليرجعوا عن مصر فأرسل إلى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وديار الجزيرة وإلى فخر الدين قره أرسلان صاحب حصن كيفا وإلى نجم الدين إلبي صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف يستنجدهم، فأما أخوه قطب الدين فإنه جمع عسكره وسار مجدّاً وفي مقدمته زين الدين علي أمير جيشه، وأما فخر الدين صاحب الحصن فقد قال له أصحابه: على أيّ شيءٍ عزمت؟ فقال: على القعود فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصلاة والصوم وهو يلقي نفسه في المهالك، فكلهم وافقه على

هذا الرأي، فلما كان الغد أمر بالتجهّز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا؟ فارقناك أمس على حالةٍ ونراك اليوم على ضدها، فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أُنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي فإنه قد كاتب زهّادها وعبّادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم ما لقي المسلمون من الصليبيين وما نالهم من القتل والأسر ويستمدّ منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثّوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحدٍ من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويدعون عليّ فلا بدّ من المسير إليه، ثم تجهّز وسار بنفسه، وأما نجم الدين فإنه سيّر عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو مدينة حارم فحاصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف إليها، فاجتمع من بقي بالساحل من الصليبيين فجاءوا في حدّهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم ورجالتهم وقساوستهم ورهبانهم وأقبلوا إليه من كل حدبٍ ينسلون، وكان المقدم عليهم الأمير بيمند صاحب أنطاكية، وقومص صاحب طرابلس الشام وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الصليبيين، والدوق وهو مقدم كبير من الروم، وجمعوا الفارس والراجل، فلما اقتربوا منه رحل عن حارم إلى أرتاح وهو حصن قريب

طمعاً في أن يتبعوه فيتمكّن منهم بابتعادهم عن مناطقهم إذا التقوا معه، فساروا فنزلوا على غمر، ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا إلى حارم فلما عادوا تبعهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبئة الحرب فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، فبدأ الصليبيون بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وفخر الدين قره أرسلان صاحب حصن كيفا فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الصليبيون، وقيل: كانت تلك الهزيمة من الميمنة حسب خطةٍ باتفاقٍ ورأي دبّروه وهو أن يتبعهم الصليبيون فيبتعدوا عن رجالتهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف فإذا عاد فرسانهم لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه ولا وزيراً يعتمدون عليه، ويعود المنهزمون في أثرهم فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فكان الأمر على ما دبروه فإن الصليبيين لما تبعوا المنهزمين عطف عليهم زين الدين علي في عسكر الموصل على رجالة الصليبيين فأنهاهم قتلاً وأسراً وعاد خيالتهم ولم يمعنوا في الطلب خوفاً على رجالتهم فعاد المنهزمون في أثرهم فلما وصل الصليبيون رأوا رجالتهم قتلى وأسرى فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد هلكوا وبقوا في الوسط قد أحدق بهم المسلمون من كل جانبٍ فاشتدّت الحرب وكثر

القتل في الصليبيين وتمّت عليهم الهزيمة وأسر المسلمون عدداً كبيراً من الصليبيين وكان من جملة الأسرى بيمند صاحب أنطاكية والقومص صاحب طرابلس، وكان شيطان الصليبيين وأشدّهم على المسلمين، والدوق مقدم الروم، وابن جوسلين، وكان عدد القتلى يزيد على عشرة آلاف قتيل، وأشار المسلمون على نور الدين محمود بالمسير إلى أنطاكية والاستيلاء عليها لخلوها من حامٍ يحميها ومقاتلٍ يذبّ عنها فلم يفعل، وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة فمنيعة وربما سلّموها إلى ملك الروم لأن صاحبها ابن أخيه، ومجاورة بيمند أحبّ إليّ من مجاورة صاحب القسطنطينية. وبثّ نور الدين السرايا في تلك النواحي فقتلوا وأسروا، ثم إنه فادى الأمير بيمند صاحب أنطاكية واشترى أعداداً من أسرى المسلمين وأطلقهم.

واستولى نور الدين محمود في شهر ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ على قلعة بانياس الجنوب وكانت بيد الصليبيين منذ سنة ٥٤٣هـ ولما فتح حارم كان قد أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعودة إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية فكانت همّة من بقي من الصليبيين

المحافظة عليها وتقويتها فسار نور الدين محمود إلى بانياس الجنوب لعلمه بقلّة من فيها من الحماة فألقى الحصار عليها وقاتل المدافعين عنها وكان من جملة عسكره أخوه نصرة الدين فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعدّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى، وجدّ نور الدين محمود في حصار بانياس حتى فتحها ـ بإذن الله ـ وملك القلعة وملأها رجالاً وذخائر. ووصل خبر دخول نور الدين محمود حارم وحصار بانياس إلى الصليبيين بمصر فصالحوا أسد الدين شيركوه وعادوا ليدركوا بانياس فلم يصلوا إلا وقد ملكها. ولما فتح حصن بانياس كان مع ولد معين الدين أنز الذي سلّم بانياس إلى الصليبيين، فقال له: للمسلمين بعد الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، فقال: وكيف ذلك؟ قال: لأن اليوم يردّ الله جلد والدك من نار جهنم.

وأخذ نور الدين محمود حصن المنيطرة[1] من

---

(١) المنيطرة: حصن قريب من طرابلس الشام، إلى الجنوب الشرقي منها وعلى بُعد ثلاثين كيلاً منها، في سفح الجبل الذي ترتفع قمته إلى ٢٩١١م، وتعرف بقمة المنيطرة، وتعد ثاني قمة ارتفاعاً في لبنان بعد القرنة السوداء التي ترتفع ٣٠٨٨م.

الصليبيين وذلك سنة ٥٦١هـ ولم يحشد له ولا جمع عساكره بل سيّر إليه فرقةً على غرةٍ منهم، وعلم أنه لو جمع العساكر خبروا فحذروا، فانتهز الفرصة وحاصره وجدّ في قتاله فأخذه عنوةً وقهراً وقتل وسبى وغنم غنائم كثيرةً فإن الذين كانوا به آمنين فأخذتهم خيل الله بغتةً وهم لا يشعرون، ولم يجتمع الصليبيون لدفعه إلا وقد ملكه ولو علموا أنه فرقة في قلّة من العسكر لأسرعوا إليه وإنما ظنّوه جمع كثير فلما فتحه تفرّقوا ويئسوا من ردّه.

رجع أسد الدين شيركوه من مصر إلى الشام وأقام في خدمة نور الدين محمود ولكن كانت عنده رغبة بالعودة إلى مصر للقيام ببعض الأعمال التي تخدم الإسلام ومنها إزالة الفكر الباطني من هناك ومن يعمل في خدمة رجاله وراء أهدافٍ خطيرةٍ حتى كانت سنة ٥٦٢هـ فسار في شهر ربيع الثاني بجيشٍ قويٍ وسيّر معه نور الدين محمود جماعةً من الأمراء وزاد عدد جيشه على ألفي فارسٍ.

سار أسد الدين إلى مصر عن طريق البر حيث ترك مناطق الصليبيين عن يمينه (عن طريق الأردن إلى جنوب البحر الميت ثم اتجه غرباً إلى بئر السبع فشمال سيناء

ثم دخل مصر) وعبر نهر النيل عند أطفيح (موقع قريب من حلوان على الضفة الشرقية للنيل) إلى الجهة الغربية ونزل بالجيزة وتصرّف بالبلاد العربية وحكمها وأقام نيفاً وخمسين يوماً، ولما بلغ شاور خبر قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر أرسل إلى الصليبيين يستنجدهم فأتوه مجدّين طمعاً في السيطرة عليها وخوفاً من سيطرة أسد الدين شيركوه عليها فلا يبقى لهم مقام في أرض الإسلام معه ومع نور الدين محمود فالطمع يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد فبلغوا مكاناً يعرف بـ(البابين) وسارت العساكر المصرية والصليبية وراءه فأدركوه بها في الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٦٢هـ، وكان قد أرسل إلى المصريين والصليبيين عيوناً يأتونه بأخبارهم فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عدد عسكرهم وعُددهم وجدّهم في طلبه فعزم على قتالهم إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المكان الخطر الذي عطبهم فيه أقرب من سلامتهم لقلّة عددهم، وبُعدهم عن بلدانهم، وخطر الطريق فاستشارهم فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعودة إلى الشام، وقالوا: إن نحن انهزمنا ـ

وهو الذي يغلب على الظنّ - فإلى أين نلتجئ؟ وبمن نحتمي؟ وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوّ لنا، فقام أمير من مماليك نور الدين محمود يُقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف، وكان شجاعاً، وقال: من يخاف القتال والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته والله لئن عُدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذنّ مالنا من أقطاعٍ وليعودنّ علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا، ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرّون من عدوّهم وتسلّمون مثل مصر إلى الكفّار، والحقّ بيده، فقال أسد الدين شيركوه: هذا الرأي وبه أعمل، وقال ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي مثله، وكثر الموافقون لهم، واجتمعت الكلمة على القتال فأقام أسد الدين شيركوه بمكانه حتى أدركه المصريون والصليبيون وهو على تعبئة وجعل الأثقال في القلب يتكثّر بها ولأنه لا يمكنه أن يتركها بمكانٍ آخر فينهبها أهل البلاد. وجعل ابن أخيه صلاح الدين في القلب، وقال له: إن المصريين والصليبيين يجعلون حملتهم على القلب ظنّاً منهم أني فيه فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا أنفسهم واندفعوا أمامهم بين أيديهم فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار هو من

شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب ووقف بهم في الميمنة فلما التقى الفريقان وتقاتلا فعل الصليبيون ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالاً يسيراً وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين فحمل حينئذٍ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا على المسلمين فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر، فلما رجع الصليبيون من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوماً والأرض منهم قفر فانهزموا أيضاً.

بعد أن انتصر أسد الدين شيركوه بالصعيد على المصريين والصليبيين سار باتجاه الإسكندرية وجبى ما في القرى على طريقه من الأموال ووصل إلى الإسكندرية فتسلّمها بمساعدةٍ من أهلها، فأناب عليها صلاح الدين الأيوبي ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فملكه وجبى أمواله وأقام به حتى صام شهر رمضان وأما المصريون والصليبيون فإنهم عادوا واجتمعوا بالقاهرة وأصلحوا حال عساكرهم وحشدوا وساروا إلى الإسكندرية فحاصروا صلاح الدين بها، واشتدّ الحصار وقلّ الطعام على من بها فصبر أهلها على ذلك، وسار أسد الدين من الصعيد إليهم.

وصلت رسل المصريين والصليبيين إلى أسد الدين شيركوه يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينارٍ سوى ما أخذه من البلاد فأجاب إلى ذلك واشترط على الصليبيين أن لا يقيموا بمصر ولا يتملّكوا منها قريةً واحدةً فأجابوا إلى ذلك وتصالحوا وعادوا إلى الشام، وتسلّم المصريون الإسكندرية في منتصف شهر شوال سنة ٥٦٢هـ. ووصل أسد الدين شيركوه إلى دمشق في الثامن عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٦٢هـ. وأما الصليبيون فإنهم اتفقوا مع المصريين أن يكون لهم عمدة بالقاهرة وأن تكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين محمود من إرسال عسكر إليهم، ويكون لهم من دخل مصر في كل سنةٍ مائة ألف دينارٍ، هذا الاتفاق كان مع شاور أما الملك العبيدي العاضد فلم يكن له رأي لأن شاور قد حجر عليه وحجبه عن الأمور كلها، ولو كان الرأي له لم يكن بأحسن من شاور إن لم يكن أكثر سوءاً فإن ما ينطوي عليه يجعل الصليبيين وكل من يُعادي المسلمين أقرب إليه بكثيرٍ من أيّ مسلمٍ.

وعاد الصليبيون إلى مناطقهم بالساحل الشامي وتركوا بمصر جماعةً من مشاهير فرسانهم. وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين محمود

مع بعض الأمراء يظهر محبته وولاءه ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه أن يفعل هذا، وبذل مالاً يحمله كل سنةٍ فأجابه نور الدين إلى ذلك، فحمل شجاع بن شاور إليه مالاً جزيلاً.

حشد نور الدين محمود العساكر سنة ٥٦٢هـ وسار إليه أخوه قطب الدين مودود من الموصل، والتقت العساكر بحمص فاتجه بها نور الدين محمود نحو الغرب فأخذ حصن الأكراد، وقصد عِرقة وحاصرها، وحاصر حلبا وأخذها، ودخل صافيتا وجالت عساكر المسلمين في المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون في تلك الجهات، وعاد نور الدين محمود بالعسكر إلى حمص فصاموا بها شهر رمضان فلما انقضى شهر الصوم ومضى العيد سار نور الدين محمود بجنده إلى بانياس الساحل، وقصدوا حصن هونين، وهو بيد الصليبيين ويُعدّ من أمنع حصونهم ومعاقلهم فانهزم الصليبيون عنه وأحرقوه، ووصل نور الدين محمود إليه من الغد فهدم سوره وأراد المسير إلى بيروت، ولكن حدث خلاف في العسكر مما أوجب تفرّقهم فعاد قطب الدين مودود إلى الموصل وأعطاه نور الدين محمود مدينة الرقة وكانت له فأخذها في طريقه ورجع إلى الموصل.

عصى غازي بن حسان المنبجي سنة ٥٦٢هـ على نور الدين محمود صاحب الشام، وكان نور الدين قد أقطعه مدينة منبج فامتنع عليه فيها فسيّر إليه عسكراً فحاصروه فيها وأخذوها منه وأقطعها نور الدين أخاه قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وكان عادلاً خيراً حسن السيرة مع الرعية فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ.

وتوفي سنة ٥٦٢هـ فخر الدين أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وأكثر ديار بكر. وكان لما اشتدّ مرضه أرسل إلى نور الدين محمود يقول له: بيننا صحبة في جهاد الكفار أريد أن ترعى بها ولدي، ولما توفي ملك بعده ولده محمد فقام نور الدين محمود بنصرته والذبّ عنه بحيث إن أخاه قطب الدين مودود صاحب الموصل أراد قصد بلاده فأرسل إليه أخوه نور الدين يمنعه ويقول له: إن قصدته أو تعرّضت إلى بلاده منعتك قهراً فامتنع عن قصده.

فارق زين الدين علي بن بكتكين النائب عن قطب الدين مودود صاحب الموصل خدمة صاحبه وسار إلى إربيل وذلك سنة ٥٦٣هـ، وكان هو الحاكم في إمارة الموصل، وكان بيته وأولاده وخزائنه في إربيل.

استولى نور الدين محمود على قلعة جعبر أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه السلجوقي المتوفّى سنة ٤٨٥هـ، وهي قلعة حصينة، وأعطاه عوضاً عنها سروج، والملاحة التي بين حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينارٍ مقدمة.

نقض المصريون والصليبيون ما اتفقوا عليه مع أسد الدين شيركوه إذ أبقوا صليبيين في الديار المصرية خلاف ما وعدوا به حيث جعلوا لهم عمدةً في القاهرة وتسلّموا أبوابها بل وأشاعوا الشائعات على المسلمين وحمّلوهم سبب ما أصاب البلاد من أذىً فلما رأى نور الدين محمود ذلك وأنه ليس في مصر من يردعهم بل أرسل الصليبيون الذين في مصر وجماعة شاور إلى ملك الصليبيين بالشام، وهو مري، ولم يكن للصليبيين من ظهرٍ بالشام مثله شجاعةً ومكراً ودهاءً يستدعونه ليملك مصراً وأعلموه خلوها من موانع وهوّنوا أمرها عليه فلم يجبهم، فاجتمع إليه فرسان الصليبيين وذو الرأي منهم وأشاروا عليه بقصدها والاستيلاء عليها، فقال لهم: الرأي عندي أننا لا نقصدها وليس لنا فيها مطمعاً فأموالها تُساق إلينا نتقوى بها على نور الدين وإن نحن

قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلّمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، ولئن صار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك لنا وإجلاء لنا من أرض الشام، فلم يقبلوا قوله، وقالوا له: إنه لا مانع فيها ولا حامي وإلى أن يتجهّز عسكر نور الدين ويسير إليها نكون قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذٍ يتمنّى نور الدين منا السلامة. فسار معهم على كرهٍ وشرعوا يتجهّزون ويظهرون أنهم يريدون قصد مدينة حمص، فلما سمع نور الدين محمود بذلك شرع أيضاً يجمع عساكره وأمرهم بالقدوم إليه في دمشق. وجدّ الصليبيون بالسير إلى مصر فقدموها ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً في مستهل شهر صفر سنة ٥٦٤هـ، ونهبوها وقتلوا وأسروا.

وكان جماعة من أعيان مصر قد كاتبوا الصليبيين ووعدوهم النصرة عداوةً منهم لشاور بن الخياط وابن فرجلة فقويت معنويات الصليبيين وساروا من بلبيس إلى القاهرة فنزلوا عليها في العاشر من شهر صفر سنة ٥٦٤هـ وحاصروها فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بلبيس فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا بلدهم وقاتلوا دونها وبذلوا جهدهم في

حفظها، وأمر شاور بإحراق المدينة وانتقال أهلها منها، وأن يُنهب البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وذلك في التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥٦٤هـ فافتقر أهلها وذهبت أموالهم وأملاكهم، وأرسل الملك العبيدي إلى نور الدين محمود يستغيث به ويُعلمه ضعف المسلمين عن دفع الصليبيين فشرع نور الدين في تسيير الجيوش، واشتدّ الصليبيون في حصار القاهرة وضيّقوا على أهلها، وشاور هو المتولّي للعسكر والقتال وصاحب الرأي فضاق به الأمر وضعف عن ردّهم فأخذ إلى إعمال الحيلة فأرسل إلى ملك الصليبيين يذكره بالمودة والمحبة القديمة وأن هواه معه لخوفه من نور الدين محمود والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلّم البلاد نور الدين محمود فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينارٍ مصريةٍ يُعجّل بعضها ويمهل ببعضها فتمّ الاتفاق، ورأى ملك الصليبيين أن البلاد قد امتنعت عليه وربما سُلّمت إلى نور الدين فأجاب كارهاً وقال: إن المال نتقوّى به ونعاود البلاد بقوةٍ لا نبالي معها بنور الدين ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾[1]

(١) سورة آل عمران: الآية ٥٤.

فعجّل لهم شاور مائة ألف دينارٍ وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً، وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر فلم يستطع جمع أكثر من خمسة آلاف دينارٍ وسببه أن الذين كانت دورهم قد احترقت وما فيها، وما سلم منها قد نُهب فهم لا يقدرون على تأمين الأقوات فضلاً عن الأقساط وأما أهل القاهرة فالأغلب على أهلها الجند فلهذا تعذّرت عليهم الأموال وهم في الوقت نفسه يراسلون نور الدين محمود بما الناس فيه ويذلوا له ثلث دخل البلاد وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عندهم في عسكرٍ ولهم أعطياتهم من البلاد المصرية خارجاً عن الثلث المتفق عليه.

وكان نور الدين محمود في مدينة حلب عندما وصل إليه كتاب الملك العبيدي العاضد فأرسل إلى أسد الدين يستدعيه إليه فخرج إليه المبعوث فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكان سبب قدومه وصول كتب المصريين إليه في المعنى نفسه الذي وصل إلى نور الدين محمود. وتفاءل نور الدين بوصول أسد الدين بهذه السرعة وسرّه ذلك وأمره بالتجهّز إلى مصر وأعطاه مائتي ألف دينارٍ سوى الثياب والدواب والأسلحة،

وحكّمه بالعسكر والخزائن، واختار من العسكر ألفي فارسٍ، وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارسٍ وسار هو ونور الدين إلى باب دمشق فوصل إليها في نهاية شهر صفر سنة ٥٦٤هـ، وأعطى نور الدين كل فارسٍ مع أسد الدين عشرين ديناراً معونةً غير محسوبةٍ من أعطياته وأضاف إلى أسد الدين جماعةً أخرى من الأمراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي وصلاح الدين يوسف بن أيوب (أيوب هو نجم الدين أيوب أخو أسد الدين شيركوه).

سار أسد الدين شيركوه مجدّاً في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ فلما اقترب من مصر رحل عنها الصليبيون خائبين، وسمع نور الدين بعودتهم فسرّه ذلك وأمر بضرب البشائر في البلاد، وبثّ رسله في الآفاق مبشّرين بذلك فإنه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لبلاد الشام وغيرها.

وصل أسد الدين إلى القاهرة في السابع من شهر جمادى الأخرة ودخل إليها واجتمع بالملك العبيدي العاضد لدين الله وخلع عليه، وعاد إلى خيامه، وفرح به أهل مصر وأُجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة

والإقامات الوافرة ولم يكن شاور بن الخياط ليستطيع منع ذلك لأنه رأى عساكر أسد الدين شيركوه كثيرة وهوى السكان معهم فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه ولكنه شرع يماطل أسد الدين ما كان بذل لنور الدين من المال وإقطاع الجند، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويُمنّيه، وعزم في نفسه على أن يعمل دعوةً يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الصليبيين، فنهاه ابنه الكامل، وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرّفنّ شيركوه، فقال له أبوه: والله لئن لم نفعل هذا لنُقتل جميعاً، فقال: صدقت ولأن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الصليبيون، فإنه ليس بينك وبين عودة الصليبيين إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذٍ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ويملكون البلاد فترك شاور ما كان عزم عليه. ولما رأى العسكر النوري مطل شاور بدفع المال خافوا شرّه فاتفق صلاح الدين الأيوبي مع بعض أمراء العسكر معه على قتل شاور فنهاهم أسد الدين فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله فاتفق أن شاور قصد عسكر أسد الدين على عادته فلم يجده في الخيام فلقيه

صلاح الدين الأيوبي وبعض الأمراء في جمعٍ من العسكر وخدموه وأعلموه أن أسد الدين غائب والآن هو في المنطقة التي فيها قبر الشافعي، فقال: نمضي إليه فساروا جميعاً فسايره صلاح الدين والأمراء وألقوه على الأرض عن فرسه فهرب أصحابه عنه فأخذوه أسيراً ولم يمكنهم قتله بغير أمرٍ من أسد الدين فتوكّلوا بحفظه وبعثوا من أعلم أسد الدين فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه فلو أُطلق لأخذ بحبك الدسائس والمؤامرات.

وسمع الملك العبيدي العاضد صاحب مصر بما حدث فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتتابعت الرسل بذلك فقُتل وأرسل رأسه إلى الملك العاضد في السابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٥٦٤هـ، ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم: إن الملك العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرّق الناس عنه إليها فنهبوها، وقصد هو قصر الملك العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولُقّب الملك المنصور أمير الجيوش وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهي التي كان فيها شاور فلم يجد ما يجلس عليه واستقر في وضعه وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع، واستعمل على الأعمال من يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره. وأما الكامل بن شاور فإنه لما

قُتل أبوه دخل القصر هو وإخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم، وكان شيركوه يتأسّف عليه كيف قُتل لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شيركوه، وكان يقول: وددت أنه بقي لأحسن إليه جزاء الصنيعة.

ثبتت قدم أسد الدين شيركوه(١) وظنّ أنه لم يبق

---

(١) كان أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب ابنا شادي من بلدوين من أذربيجان وأصلهما من الأكراد الزوادية وهذا القبيل هم أعلى الأكراد، فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز معتمد بغداد فرأى من نجم الدين عقلاً وافراً وحسن سيرة، وكان أكبر من أخيه أسد الدين شيركوه فجعله مستحفظاً لقلعة تكريت وهي له، فسار إليها ومعه أخوه شيركوه، فلما هُزم عماد الدين زنكي سنة ٥٢٦هـ من قراجا الساقي وصل هارباً إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب، وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين صحبتهم. ثم إن شيركوه قتل إنساناً في تكريت لملاحاةٍ جرت بينهما فأخرجهما مجاهد الدين بهروز من القلعة فسارا إلى عماد الدين زنكي فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما وأقطعهما إقطاعاً حسناً فلما ملك قلعة بعلبك جعل نجم الدين أيوب مستحفظاً بها، فلما استشهد عماد الدين زنكي سار عسكر دمشق إلى بعلبك وحاصروها ونجم الدين أيوب بها فضاق عليه الأمر وكان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي مشغولاً عنه بإصلاح البلاد فاضطر إلى تسليمها إليهم فسلّمها على إقطاعٍ ذكره فأجيب إلى ذلك وصار من أكبر الأمراء بدمشق، واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بنور الدين محمود بعد مقتل عماد الدين زنكي وكان=

له منازع ولكن جاءه الأجل فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام.

لما توفي أسد الدين شيركوه في مصر سنة ٥٦٤هـ كان معه صلاح الدين الأيوبي وهو ابن أخيه فتسلّم السلطة مكانه، وكان قد ذهب إلى مصر على كرهٍ، إذ وردت كتب الملك العبيدي العاضد إلى نور الدين يستنجد به على الصليبيين ويطلب منه إرسال العساكر فأحضر نور الدين إليه صلاح الدين وأعلمه بالوضع وقال له: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي ليحضر وتحثّه أنت على الإسراع فالأمر لا يحتمل التأخير، ففعل ولكن ما خرج من حلب مسافة

= يخدمه في أيام والده فقربه وقدّمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وجعله مقدم عسكره، فلما أراد نور الدين محمود فتح دمشق أمّره فراسل أخاه نجم الدين أيوب وهو بها وطلب منه المساعدة على فتحها فأجاب إلى ذلك على ما يراد منه على إقطاع ذكره له ولأخيه وقرى يتملّكانها فأعطاهما ما طلبا، ودخل نور الدين دمشق سنة ٥٤٩هـ ووفّى لهما، وصارا أعظم أمراء دولته، فلما أراد أن يرسل العساكر إلى مصر لم ير لهذا الأمر العظيم غير أسد الدين شيركوه ففعل.

ميل، حتى لقيه قادماً في الهدف نفسه فأمره نور الدين بالمسير، فالتفت أسد الدين شيركوه إلى صلاح الدين وقال له: تجهّز يا يوسف، فأجابه: والله لو أُعطيت ملك مصر ما سرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً، فقال شيركوه لنور الدين: لا بدّ من مسيره معي فأمره بذلك، فأمره نور الدين وهو يستقيل. وتجهّز أسد الدين ولم يبق غير المسير فقال نور الدين لصلاح الدين: لا بدّ من مسيرك مع عمك، فشكا له الضائقة فأعطاه ما تجهّز به فكان كأنه يُساق إلى الموت، وسار معه، وملك الأمر أسد الدين شيركوه ثم كان الأجل المحتوم، فملك صلاح الدين بعده، فكان يقول: فملّكني الله تعالى ما لم أكن أطمع ببعضه.

كان جماعة من أمراء نور الدين محمود الذين كانوا بمصر قد طلبوا التقدّم على العساكر وولاية الوزارة للملك العبيدي العاضد بعد أسد الدين شيركوه ومنهم: عين الدولة الباروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي (وهو خال صلاح الدين)، وكل واحدٍ من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليُغالب عليها فأرسل الملك العاضد إلى صلاح الدين فأحضره عنده، وخلع

عليه، وولّاه الوزارة بعد عمه، وكان الذي حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف والرأي أن يُولّى فإنه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من نستميلهم إلينا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نُخرجه، فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه أحد من أولئك الأمراء الذين كانوا يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع سيف الدين المشوب الهكاري حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة الباروقي وشهاب الدين محمود الحارمي وغيرهما ثم قصد الحارمي، وقال له: هذا صلاح الدين ابن أختك وعزّه وملكه لك، وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك فمال إليه أيضاً، ثم فعل مثل هذا بالباقين وكلهم أطاع غير عين الدولة الباروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء، وثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين، وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الأسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتابٍ خاص بل يكتب الأمير الأسفهسلار

صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا.

استمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال فمالوا إليه وأحبوه وضعف أمر الملك العاضد. ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاها أهله والأمراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حباً وطاعةً[1].

وفي أوائل شهر ذي القعدة سنة ٥٦٤هـ قُتل مؤتمن الخلافة وهو خصيّ كان في قصر الملك العاضد العبيدي وإليه الحكم فيه والتقدم على جميع من فيه فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الصليبيين واستدعائهم إلى البلاد والتقوي بهم على صلاح الدين ومن معه وبعثوا الكتب مع إنسانٍ يثقون به، وأقاموا ينتظرون جوابه، وسار ذلك الرجل إلى البئر البيضاء فلقيه رجل تركماني فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه، وقال في نفسه: لو كانا مما يلبسه هذا الرجل

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

لكانا خلقين (باليين) فإنه رثّ الهيئة، وارتاب به وبهما فأتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه، وكان قصد مؤتمن الخلافة أن يتحرّك الصليبيون إلى الديار المصرية فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في العسكر إلى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره ويكون الصليبيون أمامه فيقع بين فكّي كماشةٍ فلا تبقى لهم باقية، فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل يهودي فأُحضر فأمر بضربه وإقراره فأظهر الإسلام لحماية نفسه وأخبره الخبر وأخفى صلاح الدين الحال، واستشعر مؤتمن الخلافة فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً وإذا خرج لم يبعد عن صلاح الدين، وصلاح الدين لا يُظهر له شيئاً من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الأمر خرج إلى قريةٍ له للتنزّه فلما علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعةً فأخذوه وقتلوه وأتوا برأسه، وعزل صلاح الدين جميع الخدم الذين يتولّون أمر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش، وكان لا يجري في القصر أمر صغير ولا كبير إلا بأمره.

غضب السودان غضب عصبيةٍ لقتل مؤتمن الخلافة حيث كان يتعصّب لهم فحشدوا وجمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألفاً وقصدوا قتال عسكر صلاح الدين الذين اجتمعوا أيضاً عندما سمعوا بالخبر والتقى الفريقان واقتتلوا بين القصرين وكثر القتل في الفريقين فأرسل صلاح الدين إلى محلتهم في جهات المنصورة وأمر بإشعال النار في بعض أطرافها فلما أتاهم الخبر ولّوا منهزمين فعملت فيهم السيوف وأخذت عليهم أفواه السكك فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل فأُجيبوا إلى ذلك فأخرجوا من مصر إلى الجيزة فعبر إليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الأكبر في جماعةٍ من العسكر فأبادهم بالسيف ولم يبق منهم إلا القليل الشريد.

لما ملك أسد الدين شيركوه مصر سنة ٥٦٤هـ خاف الصليبيون بالشام وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا إخوانهم في صقيلية وإيطاليا والأندلس وبعض جهات أوربا يستمّدونهم ويُعرّفونهم تملّك أسد الدين شيركوه مصر وأنهم خائفون على بيت المقدس منهم فأرسلوا جماعة من القساوسة والرهبان يُحرّضونهم على الحركة فأمدّوهم بالأموال والرجال والسلاح وتواعدوا بالنزول على

دمياط ظنّاً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها قاعدةً وظهراً يملكون به الديار المصرية، فما وصلوا حتى كان أسد الدين شيركوه قد مات وملك صلاح الدين فاجتمع الصليبيون على دمياط وحاصروها وضيّقوا على أهلها وذلك في شهر صفر سنة ٥٦٥هـ فأرسل صلاح الدين إليها العسكر عن طريق نهر النيل وحشد فيها كل من عنده وأمرهم بالأموال والسلاح والذخائر، وأرسل إلى نور الدين محمود يشكو ما هم عليه من الخوف ويقول: إني إن تأخرت عن دمياط ملكها الصليبيون وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشرّ وخرجوا عن طاعتي وساروا في أثري والصليبيون أمامي فلا يبقى لنا باقية فسيّر نور الدين العساكر إليه أرسالاً يتلو بعضها بعضاً، ثم سار هو بنفسه إلى المناطق التي يسيطر عليها الصليبيون في الشام فأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات إلى المناطق التي لم تبلغها من قبل لخلو البلاد من مانع. فلما رأى الصليبيون تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى مناطقهم واستباحتها رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء ووجدوا مناطقهم خراباً وأهلها قتلى وأسرى. وكانت مدة إقامة الصليبيين على دمياط خمسين يوماً.

وسار نور الدين محمود إلى مناطق الصليبيين في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٦٥هـ فاتجه إلى الكرك من منطقة الأردن اليوم شرق البحر الميت وألقى الحصار عليها وهي من أمنع المعاقل على طرف البادية، وكان سبب ذلك أن صلاح الدين الأيوبي أرسل إلى نور الدين يطلب منه أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب فجهّزه نور الدين وسيّر معه عسكراً واجتمع معه كثير من التجار ومن أصدقاء صلاح الدين فخاف عليهم نور الدين من الصليبيين فسار في عساكره إلى الكرك وحاصره وضيّق عليه ونصب عليه المنجنيقات فأتاه الخبر أن الصليبيين قد جمعوا له وساروا إليه وقد جعلوا في مقدمتهم إليه ابن هنفري وقريب بن الرقيق وهما فارسا الصليبيين في وقتهما، فترك نور الدين الكرك واتجه نحوهما ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الصليبيين فلما اقترب منهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقي الصليبيين وسلك نور الدين طريقه وسط مناطقهم يستبيحها حتى وصل إلى مأمنه في ديار الإسلام فنزل بحوران ينظر حركة الصليبيين ليلقاهم فلم يبرحوا، وأقام هو أيضاً حتى أتاه خبر وقوع زلازل بالشام في الثاني عشر من شهر شوال سنة ٥٦٥هـ فرحل. وأما نجم الدين أيوب فقد وصل إلى مصر سالماً هو ومن معه وخرج الملك

العبيدي العاضد إلى لقائه إكراماً له.

كان شهاب الدين إلياس بن إيلغازي بن أرتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره وهو في مائتي فارسٍ إلى نور الدين وهو بحوران فلما وصل إلى قرية اللبوة وهي من أعمال بعلبك ركب متصيّداً فصادف ثلاثمائة فارسٍ من الصليبيين وقد ساروا للإغارة في ديار الإسلام في السابع عشر من شهر شوال سنة ٥٦٥هـ فوقع بعضهم على بعضٍ واقتتلوا واشتدّ القتال وصبر الفريقان وكثر القتلى من الطرفين وانهزم الصليبيون وعمّهم القتل والأسر فلم يفلت منهم إلا القليل وسار شهاب الدين الياس برؤوس القتلى والأسرى إلى نور الدين محمود، فركب نور الدين والعسكر فالتقوا بهم فرأى نور الدين بين رؤوس القتلى رأس مقدم الاسبنار صاحب حصن الأكراد (قلعة الحصن) وكان ذا شجاعةٍ وشجىً في حلوق المسلمين.

وفي شهر ذي الحجة سنة ٥٦٥هـ توفي قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل، وكان مرضه حمى حادّة ولما اشتدّ مرضه أوصى لابنه الأكبر عماد الدين زنكي ثم عدل عنه لابنه الآخر سيف الدين غازي وإنما صرف الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين بن مودود لأن القيم بأمور دولته والمقدم فيها كان خادماً له

يقال له: فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لأنه كان طوع عمه نور الدين لمكانته عنده ولأنه زوج ابنته، وكان نور الدين محمود يكره عبد المسيح، فاتفق فخر الدين عبد المسيح وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي وهي والدة سيف الدين على صرف الملك من عماد الدين إلى سيف الدين فدخل عماد الدين على عمه نور الدين مستنصراً به ليساعده على أخذ الملك لنفسه وتوفي قطب الدين وعمره نحو أربعين سنةً وكان ملكه إحدى وعشرين سنةً وخمسة أشهرٍ ونصف الشهر، وكان فخر الدين هو المدبر للأمور والحاكم في الدولة وكان قطب الدين من أحسن الملوك سيرةً وأعفّهم عن أموال رعيته محسناً إليهم كثير العطاء لهم محبوباً إلى كبيرهم وصغيرهم عطوفاً على شريفهم ووضيعهم كريم الأخلاق حسن الصحبة لهم.

لما بلغ نور الدين محموداً وفاة أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وملك ولده سيف الدين غازي الموصل والبلاد التي كانت لأبيه بعد وفاته وقيام فخر الدين عبد المسيح بالأمر وتحكّمه عليه وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشونة سياسته، فقال: أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم وسار عند انتهاء العزاء في قلةٍ من العسكر من حلب وعبر الفرات

عند قلعة جعبر في مستهل شهر المحرم سنة ٥٦٦هـ وقصد الرقة فحاصرها وأخذها، ثم سار إلى منطقة الخابور فأخذها وملك نصيبين وأقام بها فجمع العساكر فأتاه بها نور الدين محمد بن قرة أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا فكثر جمعه وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام لحفظ الثغور، فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحاصرها ونصب المنجنيقات عليها وملكها وسلّمها إلى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين، وكانت قد جاءته كتب الأمراء الذين بالموصل سرّاً يبذلون له الطاعة ويحثّونه على الوصول إليهم فسار إلى الموصل فنزل شرقي الموصل إلى حصن نينوى، وأرسل سيف الدين غازي أخاه عز الدين مسعود إلى شمس الدين إيلدكز صاحب همذان وبلاد الجبل والريّ وأصفهان وأذربيجان يستنجده على عمه نور الدين محمود فأرسل إيلدكز رسولاً إلى نور الدين محمود ينهاه عن التعرّض إلى الموصل ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها فلم يلتفت إليه وقال للرسول: قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخي منك فلا تُدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد

بليت أنا ولي مثل ربع بلادك بالصليبيين وهم من بلادٍ واسعةٍ وجاءوا حاقدين ولهم أطماع مما جعل لهم قوة فأخذت معظم ما سيطروا عليه وأسرت ملوكهم ولا يحلّ لي السكوت عنك فإنه يجب علينا القيام بما أهملت وإزالة الظلم عن المسلمين، فأقام نور الدين محمود على الموصل فعزم من بها من الأمراء على مجاهرة فخر الدين عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد إلى نور الدين، فعلم ذلك فأرسل إلى نور الدين في تسليم البلد إليه على أن يقره بيد سيف الدين ويطلب لنفسه الأمان ولماله، وشرط أن يأخذ معه فخر الدين إلى الشام ويعطيه عنده إقطاعاً يرضيه فتسلّم البلد في الثالث عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٥٦٦هـ ودخل القلعة من باب السرّ لأنه لما بلغه عصيان عبد المسيح عليه حلف أن لا يدخلها إلا من أكثر المواضع حصانةً فيها ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من أبواب المظالم وكذلك فعل بنصيبين وسنجار والخابور وهكذا كان جميع ما يملك من الشام ومصر. ووصل إليه وهو على الموصل يحاصرها خلعة من الخليفة المستضيء بأمر الله فلبسها ولما ملك الموصل خلعها على سيف الدين غازي ابن أخيه. وعاد نور الدين إلى الشام واستناب في قلعة الموصل مملوكاً كان اسمه

«كستكين» ولقبه سعد الدين وأمر ابن أخيه سيف الدين غازي أن لا ينفرد عنه بقليلٍ من الأمور ولا بكثيرٍ من حكمه وأقطع مدينة سنجار لابن أخيه عماد الدين زنكي أخي سيف الدين غازي، وكانت إقامة نور الدين بالموصل أربعةً وعشرين يوماً، واستصحب معه إلى الشام فخر الدين عبد المسيح وغيّر اسمه فسمّاه عبد الله وأقطعه إقطاعاً كبيراً.

٥" ـ العبيديون:

توفي الملك العبيدي الفائز[1] بنصر الله أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر سنة ٥٥٥هـ، وكان ملكه ست سنوات وحوالي الشهرين، وكان عمره لما ملك خمس سنواتٍ. ولما مات دخل الصالح بن رزيك القصر واستدعى خادماً كبيراً، وقال له: من هاهنا يصلح للملك؟ فقال: هاهنا جماعة وذكر أسماءهم، وذكر له منهم إنساناً كبير السن فأمر بإحضاره، فقال له بعض أصحابه سرّاً: لا يكون عباس أحزم منك حين اختار الصغير وترك الكبار واستبدّ بالأمر، فأعاد الصالح بن

(١) الفائز: عيسى بن إسماعيل ولد سنة ٥٤٤هـ وتوفي سنة ٥٥٥هـ أي توفي وعمره ١١ سنة فأي دورٍ يقوم به!

رزيك الرجل إلى موضعه وأمر حينئذٍ بإحضار العاضد لدين الله[1] أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفةً، وكان العاضد في ذلك الوقت مراهقاً قارب البلوغ فبايع له بالملك وزوّجه الصالح بن رزيك ابنته ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله وعاشت بعد موت العاضد وخروج الأمر من يد العبيديين وتزوجت.

قُتل الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني وزير العاضد في شهر رمضان سنة ٥٥٦هـ، وذلك أنه استبدّ بالأمر لصغر العاضد ولأنه هو الذي ولّاه ثم زوّجه ابنته وقد ظلم كثيراً حتى ضاقت الرعية ذرعاً به وليس هناك من رادعٍ فأرسلت عمّة العاضد الأموال إلى الأمراء المصريين ودعتهم إلى قتله وكان أشدّهم عليه في ذلك أمير يدعى ابن الداعي فوقفوا له في ممرٍ بالقصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على غفلةٍ فجرحوه جراحاتٍ مهلكةً إلا أنه حُمل إلى داره وفيه حياة فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع أثره في الدولة فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به،

---

(١) العاضد: عبد الله بن يوسف ولد سنة ٥٤٤هـ وتوفي سنة ٥٦٧هـ أي توفي وعمره ٢٣ سنة.

فقال: إن كنت بريئاً فسلّم عمتك إليّ حتى أنتقم منها فأمر بأخذها فأرسلَ إليها فأخذها قهراً وأحضرت عنده فقتلها وأوصى بالوزارة لابنه رزيك، ولُقّب بالعادل، فانتقل الأمر إليه بعد وفاة والده.

كان شاور يخدم الصالح أبا الغارات طلائع بن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح وولّاه الصعيد ويُعدّ هذا المنصب أكبر الأعمال بعد الوزارة، فلما ولي الوزارة ظهرت منه كفاية وتقدم واستمال الرعية إليه وقد بذل جهداً ليظهر وأبدى استقامةً ليصل وصعُب أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فأبقاه في عمله حتى لا يخرج عن طاعته، فلما جُرح الصالح كان من جملة وصيته لولده أن لا يُغيّر على شاور فإنني أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكني عزله فلا تُغيّروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون، فلما توفي الصالح من جراحاته وولّى ابنه العادل الوزارة حسّن له أهله عزل شاور واستعمال بعضهم مكانه وخوّفوه منه إن أقرّه على عمله فأرسل إليه بالعزل فجمع جموعاً وسار إلى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح بن رزيك فقُبض عليه وقُتل فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنوات وشهراً وأياماً، وصار شاور وزيراً وتلقّب بأمير الجيوش

وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم وذخائرهم، ثم إن الضرغام جمع جموعاً كثيرةً ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان سنة ٥٥٨هـ، وظهر أمره وانهزم شاور إلى الشام، وصار ضرغام وزيراً، فكان في هذه السنة ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور، وضرغام، ولما تمكّن ضرغام من الوزارة قتل كثيراً من الأمراء المصريين لتخلو البلاد من منازعٍ له فضعفت الدولة بهذا السبب.

سار أسد الدين شيركوه إلى مصر في شهر جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ على رأس قوةٍ كبيرةٍ ومعه شاور الذي كان قد انهزم إلى الشام من ضرغام، وتقدّم نور الدين محمود إلى شيركوه أن يُعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن نازعه، ووصل أسد الدين إلى بلبيس فخرج إليه ناصر الدين أخو ضرغام بعسكر المصريين فانهزم ورجع إلى القاهرة، ووصل أسد الدين ونزل على القاهرة في أواخر شهر جمادى الآخرة فخرج ضرغام منها في نهاية الشهر فقُتل وقُتل أخوه الآخر، وأُعيد شاور إلى الوزارة وخلع عليه، وتمكّن بالدولة، وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة وغدر به شاور إذ أرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام فأجابه بالامتناع وطلب منه تنفيذ

ما اتفقوا عليه بالشام فلم يُجبه شاور إلى ذلك فلما رأى أسد الدين ذلك أرسل إلى نوابه فتسلّموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فأرسل شاور إلى الصليبيين يستنجدهم ويخوّفهم من نور الدين إذا ملك مصر، فأسرعوا لنجدته فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعسكره إلى أطراف مناطقهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك إذ سار ملك القدس إلى مصر بعد أن ترك من الصليبيين في مناطقهم من يحفظها، وجاءت أفواج من أوربا من الصليبيين فدعموا إخوانهم واشتركوا معهم في المسير إلى مصر، فلما اقتربوا من القاهرة غادرها أسد الدين شيركوه إلى بلبيس، فسار إليه الصليبيون وحاصروه في بلبيس مدة ثلاثة أشهرٍ وهو ممتنع بها ثم وصل إليهم خبر هزيمة إخوانهم في الشام فخافوا فصالحوا أسد الدين على أن يعود إلى الشام فأجابهم إلى ذلك وسلّم ما بيده إلى المصريين وخرج من بلبيس في شهر ذي الحجة سنة ٥٥٩هـ، ووصل إلى الشام سالماً، وكان في خدمة نور الدين محمود.

رجع أسد الدين شيركوه إلى مصر سنة ٥٦٢هـ ونزل بالجيزة وحكم المناطق الغربية من مصر وأقام نيفاً وخمسين يوماً وأرسل شاور إلى الصليبيين يستنجدهم

ضد أسد الدين فأسرعوا منجدين والطمع يدفعهم فلما وصلوا إلى القاهرة انطلق أسد الدين مع عساكره إلى الصعيد فسار وراءه العسكر المصرية والصليبية فأدركوه في الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٦٢هـ والتقى الجمعان وانتصرت الفئة القليلة بإذن الله وهي ألفا فارسٍ من المسلمين على عساكر الصليبية وأعوانهم من عسكر شاور من المصريين وهي تزيد على عشرات الألوف.

سار أسد الدين شيركوه بعد انتصاره إلى الإسكندرية فملكها بمساعدة أهلها فأناب عليها صلاح الدين الأيوبي ابن أخيه وعاد هو إلى الصعيد فملكه حتى صام رمضان هناك. ورجع الصليبيون وأعوانهم إلى القاهرة وحشدوا عسكرهم وساروا إلى الإسكندرية فحاصروها وبها صلاح الدين، وانطلق أسد الدين من الصعيد لدعم صلاح الدين، وجاءت رسل الصليبيين وبين شاور وأعوانه من مصر، على حين أعلن الكامل بن شاور الطاعة لنور الدين محمود.

بقي بعض الصليبيين في القاهرة وخاصةً على أبوابها ومداخلها حسب اتفاقهم مع شاور وأذاقوا المسلمين مرّ العذاب وأنواع الظلم والذلّ ولما رأوا أنه ليس في البلاد من يردعهم أرسلوا إلى ملك الصليبيين

بالشام وهو مري يستدعونه ليملكها فسار على كرهٍ، ونزلوا على مدينة بلبيس وملكوها في مستهل شهر صفر سنة ٥٦٤هـ، ثم ساروا إلى القاهرة فنزلوا عليها في العاشر من شهر صفر بناءً على مراسلة بعض أعيانها لهم عداوةً منهم لشاور وحاصروها وخاف الناس أن يفعل الصليبيون الفساد لذا امتنعوا في مدينتهم ودافعوا عنها.

استنجد الملك العبيدي العاضد وأعيان مصر بنور الدين محمود فبعث أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبي ابن أخيه فانطلق في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ وجدّ بالسير فلما اقترب من مصر رحل عنها الصليبيون، ووصل أسد الدين إلى القاهرة في السابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ واجتمع بالملك العبيدي فخلع عليه، وأظهر شاور غير ما يُبطن وأراد قتل أسد الدين فكان القتل له، وتسلّم أسد الدين الوزارة ولُقِّب الملك المنصور أمير الجيوش.

توفي الوزير أسد الدين شيركوه يوم السبت الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ فكانت ولايته شهرين وخمسة أيامٍ.

تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة في مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه.

نزل الصليبيون بالثغر المصري دمياط في شهر صفر سنة ٥٦٥هـ فأرسل لهم صلاح الدين العساكر كما وصلت نجدات نور الدين من الشام إلى المسلمين فلما رأى الصليبيون ذلك رجعوا خائبين بعد إقامتهم على دمياط خمسين يوماً.

"٦ ـ الموحّدون:

توفي عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين في العشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ وكان قد سار من مدينة مراكش إلى مدينة سلا وهي ملاصقة لمدينة الرباط اليوم من جهة الشمال وكان يستعدّ للإبحار إلى الأندلس للجهاد فيها، وخلفه ابنه الأكبر محمد غير أن أمره قد اضطرب فاتفق الموحّدون برأي أخويه يوسف وعمر على خلعه وتولية يوسف بن عبد المؤمن غير أن إخوته الآخرين لم يقبلوا بهذا الرأي ومنهم أبو عبد الله صاحب قرطبة وأبو محمد صاحب بجاية، وبقيا على خلافهما سنةً ثم أعلنا الخضوع والطاعة. وقيل: بل إن عبد المؤمن بن علي عندما حضره الموت في (سلا) جمع شيوخ الموحّدين من صحبه وقال لهم: قد جربت ابني محمداً فلم أره يصلح لهذا الأمر وإنما يصلح له ابني يوسف وهو أولى بها

فقدّموه ووصّاهم به وبايعوه ودُعي بأمير المؤمنين، وكتموا موت عبد المؤمن وحُمل من سلا على أنه مريض إلى أن وصل إلى مدينة مراكش، وكان ابنه أبو حفص في تلك المدة حاجباً لأبيه فبقي مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج فيقول للناس: أمير المؤمنين أمر بكذا ويوسف يقعد مقعد أبيه إلى أن كملت المبايعة له في البلاد جميعها واستقرت قواعد الأمور له ثم أظهر موت أبيه عبد المؤمن فكانت ولايته ثلاثةً وثلاثين سنة وشهوراً.

لما تحقّق الناس موت عبد المؤمن بن عليّ سنة تسعٍ وخمسين ثارت قبائل غمارة مع مفتاح بن عمرو وكان مقدماً كبيراً وتبعوه بأجمعهم وامتنعوا بجبالهم وهي معاقل منيعة فتجهّز إليهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ومعه أخواه عمرو وعثمان في جيشٍ كبيرٍ من الموحدين وتقدّموا إليهم فاقتتلوا سنة ٥٦١هـ فانهزمت قبيلة غمارة وقتل منها الكثير وكان فيمن قُتل مفتاح بن عمرو مقدمهم وجماعة من أعيانهم وملكوا بلادهم عنوةً، وكانت قبائل كثيرة تريد الفتنة فانتظروا ما يكون من غمارة فلما قُتلوا ذلّت تلك القبائل وانقادوا للطاعة ولم يبق متحرك لفتنةٍ ومعصيةٍ فسكنت الدهماء في بلاد المغرب.

ومنذ أن بويع يوسف أبو يعقوب سار على سياسة أبيه في الجهاد ونازعه مَرْزدغ الصنهاجي فقضى على ثورته سنة ٥٥٩هـ.

٧" ـ الأندلس:

أرسل أبو يعقوب يوسف أخاه أبا حفص للجهاد في الأندلس فسار على رأس عشرين ألفاً عام ٥٦٥هـ فغزا طليطلة وأحرز النصر، وحصل على غنائم كثيرةٍ وسبيٍ.

وحدث قتال بين يوسف أبي يعقوب وبين محمد بن سعيد بن مردنيش الذي كان يحكم شرقي الأندلس وقد امتنع على عبد المؤمن بن علي من قبل وعلى ابنه يوسف من بعد واتفق ابن مردنيش مع نصارى الأندلس واستفحل أمره وخاصةً بعد وفاة عبد المؤمن فجهّز يوسف أبو يعقوب سنة ٥٦٥هـ عسكراً فجاسوا خلال بلاده وخرّبوها وأخذوا مدينتين من مناطق نفوذه وأخافوا عسكره وجنوده وأقاموا ببلاده مدةً يتنقلون فيها ويجبون أموالها.

وكانت مدينة غرناطة تتبع عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين فأرسل أهلها سنة ٥٥٧هـ إلى الأمير إبراهيم بن همشك وهو صهر ابن مردنيش يدعونه إليهم

ليسلّموه مدينتهم وهو قد أصبح من أصحاب عبد المؤمن بن علي وفي طاعته وممن يحرّضه على قصد ابن مردنيش فلما وصل إليه رسل أهل غرناطة سار معهم إليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذي كان عنده وتوجّه إلى غرناطة لنصرة من فيها من أصحابهم فعلم بذلك إبراهيم بن همشك فاستنجد بابن مردنيش ملك شرقي الأندلس فأرسل إليه ألفي فارسٍ من أنجاد أصحابه ومن نصارى الإسبان الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحي غرناطة فالتقوا هم ومن في غرناطة من جنود عبد المؤمن قبل وصول أبي سعيد إليهم فاشتدّ القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم أبو سعيد واقتتلوا أيضاً فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الأعيان والفرسان المشهورين حتى قُتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذٍ أبو سعيد ولحق بمالقة، وسمع عبد المؤمن الخبر، وكان قد سار إلى مدينة سلا فسيّر في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتلٍ فيهم جماعة من شيوخ الموحدين فجدّوا المسير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه إلى غرناطة ليُعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير، فنزل ابن

مردنيش بظاهر الوادي ونزل العسكر الذي أمر به ابن همشك أولاً وهم ألفا فارسٍ بظاهر القلعة الحمراء، ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبد المؤمن إلى جبلٍ قريبٍ من غرناطة فأقاموا في سفحه أياماً ثم سيّروا سريةً تضمّ أربعة آلاف فارسٍ فبيّتوا العسكر الذين بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من كل جهةٍ فما لحقوا أن يركبوا حتى قتلوهم عن آخرهم وأقبل عسكر عبد المؤمن بجملته فنزلوا بضواحي غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك أنهم لا طاقة لهم بهم ففروا في الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم، واستولى الموحدون على غرناطة باقي سنة ٥٥٧هـ، وعاد عبد المؤمن من مدينة سلا إلى مدينة مراكش.

وهكذا كانت أوضاع الأندلس إمارات تتصارع منها من يتعاون مع أمراء نصارى الإسبان، ومنها من يستنجد بالموحدين، ومنها من يتعاون مع بعضها ضد بعضٍ، في كل ناحيةٍ إمارةٍ، وتتصارع في سبيل المصالح وتتنافس من أجل السلطان، لا يُميّز أكثرها بين المسلمين والنصارى، همّها الدنيا وشغلها الملك لذا عمّ الضعف، وساد الخلاف، وقوي أمر النصارى وأخذوا يتوسّعون تدريجياً ويضمّون مدناً إثر مدنٍ إلى سلطانهم، ويهدّدون المسلمين.

٨" ـ اليمن:

كانت عدة أسرٍ تحكم اليمن إذ كان بنو زريع في عدن، وبنو حاتم في صنعاء، وبنو مهدي في زبيد، وبنو الرسّ يسيطرون أحياناً على صعدة، وبرز منهم يومذاك المتوكل أحمد بن سليمان.

٩" ـ أُسر جديدة:

ظهرت أسر في جهاتٍ مختلفة من الجزيرة العربية فقد حكمت الحجاز أسرة بني موسى التي تنتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ سنة ٣٥٩هـ بعد زوال القرامطة وبقيت حتى سنة ٤٥٣هـ وتعدّ هذه الأسرة من عمال العبيديين، وقامت بعدها أسرة بني فليتة (بنو هاشم) وتدّعي الانتساب أيضاً إلى علي بن أبي طالب ﷺ وبقيت حتى سنة ٥٩٨هـ، وقد سارت في الناس في بداية أمرها سيرةً حسنةً ثم أساءت المعاملة، ونهبت قوافل الحجاج، وخاصةً في عهد آخر أمراء هذه الأسرة وهو مكثر.

وفي اليمامة زال حكم الأخيضريين عمال القرامطة سنة ٤٦٧هـ وتجزأت المنطقة إلى عددٍ من الإمارات.

وفي البحرين حكم العيونيون بعد زوال القرامطة

سنة ٤٦٧هـ، وكان عبد الله بن علي العيوني أول أمرائهم، وينتسب إلى بلدة العيون، وهو من قبيلة بني عبد القيس المعروفة.

الصليبيون

ضعف أمر الصليبيين بعد الانتصارات الواسعة التي أحرزها عليهم نور الدين محمود وخاصةً بعد سيطرته على مصر، وبقيت قواتهم محصورةً بين قوات نور الدين من ثلاث جهاتٍ، وبقيت المناطق التي يسيطرون عليها عبارةً عن شريطٍ يمتدّ على الساحل الشامي من بدايته عند إسكندرون في الشمال إلى عسقلان في الجنوب وإن كانت هناك بعض الجيوب التي تمتدّ نحو الداخل عند بيت المقدس، وكانوا يتوقّعون الهجوم الإسلامي عليهم في كل وقتٍ، وطردهم، وإلقائهم في البحر وخاصةً بعد أن عادت فكرة الجهاد على الساحة وهذا أكثر ما يُرهب أعداء المسلمين ويُحطّم معنوياتهم إضافةً إلى أفول نجم العبديين الباطنيين الذين كانوا يتوقّعون منهم ما داموا يبطنون الشر للمسلمين ويعدّون أنفسهم طائفةً خاصةً وما جرى من قتال بينهما إنما كان الهدف ضرب الشعب المسلم وليس طائفة العبيديين وسلطانهم. كما أن

نصارى البلاد لا يمكن للصليبيين أن يعتمدوا عليهم لتوزّعهم ولخوفهم من المسلمين فيما إذا رحل الصليبيون، وما كان يقدّمه أهل الذمة لإخوانهم الصليبيين المعتدين فهو أن عواطفهم كانت معهم وقلوبهم إلى جانبهم، ويعملون جواسيس لهم وإذا سنحت لهم الفرصة انضمّوا إليهم في بعض المعارك بتخفٍّ وتستجرٍ لذا لم يكن الصليبيون يعوّلون عليهم كثيراً بعد خوض كثيرٍ من المعارك على حين كانوا يحلمون تقديم أكثر من هذا بكثيرٍ وهم في أوربا وعند سير الحملات، وعند دعايات الرهبان ورجال الكنيسة.

كانت أنظار الصليبيين تتجه دائماً نحو أوربا يطلبون منها الدعم محافظةً على أوضاعهم وعلى المكاسب التي حصلوا عليها خلال هذه الصراعات مع المسلمين والتي طالت أيامها حتى زادت على السبعين سنةً والتي ضحّوا فيها بالكثير من القتلى.

الباطنية

منذ أن زالت قواعد الباطنية سنة ٤٤٧هـ وانتهى دور فروعها بذهاب إماراتها لجأ رجالها إلى جحورهم إذا سمعوا برجلٍ مصلحٍ انقضّوا عليه ففتكوا به، وإذا علموا بقائدٍ مسلمٍ عدوٍّ للكفار عملوا على قتله، وإذا

وصل إليهم نبأ ارتفاع رايةٍ للجهاد سعوا جاهدين لتفريق الجماعة وخططوا لضرب رؤوسهم، وقد انتشرت رائحة بغيهم، وعُرف ضلالهم وانحراف ما يعتقدون فتوجّهت إليهم الأنظار، وحذرهم الناس وشُرعت نحوهم الرماح من قبل المسؤولين بل ومن العامة، وأنزلوا بهم ضرباتٍ فزاد اختفاؤهم إذ عمّقوا جحورهم وستروها وأوغلوا إلى أواخرها، وادّعى بعضهم مخالفةً للباطنية وأظهروا معاداتهم لها وفي كل هذا كاذبون بل ما عرفوا الصدق أبداً، وإذا سنحت لهم فرصة للإفساد لم يتركوها وكانوا مجرمين ولمحاربة المخلصين مشجّعين، فلعنة الله على الكافرين.

ظنّ الباطنية في خراسان أن لهم قوةً فرفعوا رؤوسهم قليلاً سنة ٥٥٩هـ فأغار عليهم الأمير محمد بن أنز على بلدهم وهم غافلون فقتل وأسر وسبى وغنم كثيراً مما يدّخرون.

الكرج:

بين أذربيجان وداغستان شرقاً وأرمينياً وتركيا جنوباً، والبحر الأسود غرباً، وبلاد الشراكسة شمالاً يعيش الكرج في منطقةٍ وعرةٍ في السفوح الجنوبية لجبال القوقاز، قاعدتهم مدينة تفليس. عاشوا زمناً كانوا فيه

أقرب إلى الهدوء ما داموا يعرفون إمكاناتهم ويقدرون قوة جيرانهم، ولكن إذا ظهر الضعف خرج الوحش من الوكر.

عندما سمع الكرج صوت الهدّامين في ديار الخلافة أيام البويهيين وانتشار الباطنية من قرامطةٍ وعبيديين ومن يتقرّب منهم من سامانيين وحمدانيين أخذ الكرج ينتظرون نصر الهدّامين غير أن الظنّ قد خاب وأصبحت الأحلام سراباً إذ وُئدت الأفكار الجاهلية التي أراد الهدّامون إحياءها وزالت إمارات الهدّامين أنفسهم عندها تحرّك الكرج غير أنهم رأوا أن المسلمين قد أخذوا يستعيدون شيئاً من قوتهم، وظهرت فكرة الجهاد فعاد الكرج للانتظار.

شُغل المسلمون بقتال الصليبيين وبمحاولة إزالة ما بقي من جحور الهدّامين وبذا هدأت مناطق الثغور السابقة وسكنت داخل ديار الخلافة بعد ملاحقة الهدّامين وإنزال الضربات بهم فظنّ الكرج أن الضعف قد عمّ فخرج الوحش من وكره.

حشد الكرج ما جمعوا في شهر شعبان سنة ٥٥٦هـ وساروا مع ملكهم إلى بلاد أران غرب أذربيجان واحتلّوا بعض المدن وملكوها وقتلوا الكثير من أهلها،

فجمع أمير خلاط[1] وهو ابن إبراهيم بن سقمان العسكر وتطوّع معهم عدد كبير من المقاتلة والتقوا معهم فانهزم المسلمون وقُتل كثير منهم، وأُسر كذلك الكثير، وعاد أمير خلاط مهزوماً ولم يرجع من عسكره سوى أربعمائةِ رجلٍ.

وجمع الكرج في شهر شعبان سنة ٥٥٧هـ ما يزيد على ثلاثين ألف مقاتلٍ ودخلوا بلاد الإسلام وقصدوا بلدة دوين إلى الشرق من تفليس على حدود أذربيجان فاحتلّوها ونهبوها وقتلوا من أهلها وضواحيها ما يزيد على عشرة آلاف قتيلٍ وسبوا النساء، فلما بلغ الخبر صاحب أذربيجان وأصفهان والجبل شمس الدين إيلدكز جمع عساكره وحشدها وانضمّ إليه ابن إبراهيم بن سقمان القطبي صاحب خلاط وابن آقسنقر صاحب مراغة فاجتمع لديهم ما يزيد على خمسين ألف مقاتلٍ وساروا إلى بلاد الكرج في شهر صفر سنة ٥٥٨هـ فنهبوا وسبوا وأسروا ثم التقوا مع الكرج واقتتلوا أشدّ قتالٍ وصبر فيه الفريقان وكان النصر للمسلمين وهُزم الكرج وقُتل منهم كثير وأُسر كذلك، وكان سبب هزيمة الكرج

---

(١) خلاط: مدينة في شرقي تركيا اليوم جنوب مدينة ملاذكرد وإلى الشرق من مدينة ديار بكر، وهي على بحيرة وان.

مع كثرتهم واستعدادهم وكثرة عدتهم وسلاحهم أن بعض الكرج قد حضر عند شمس الدين إيلدكز وأسلم على يديه، وقال له: تعطيني عسكراً حتى أسير بهم في طريق أعرفها وآتي الكرج من ورائهم وهم لا يشعرون فاستوثق منه وسيّر معه عسكراً وواعده يوماً يصل فيه إلى الكرج، فلما كان ذلك اليوم قاتل المسلمون الكرج فبينما هم في القتال وصل إلى الميدان ذلك الكرجي الذي أسلم ومعه العسكر فكبّروا وحملوا على الكرج من ورائهم فانهزموا وكثُر القتل فيهم والأسر، وغنم المسلمون الشيء الكثير الكثير وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيامٍ بلياليها وعاد المسلمون منتصرين فائزين.

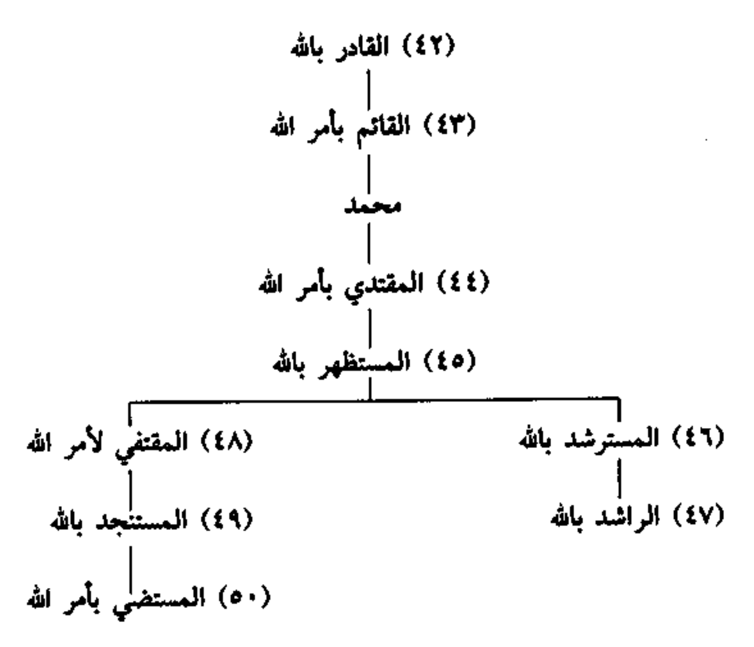
وخرج الكرج سنة ٥٦١هـ في جموعٍ كثيرةٍ وأغاروا على بلدان المسلمين فقتلوا وأسروا وسبوا ونهبوا كثيراً.

الفصل الثامن

٥٠- المستضيء بأمر الله

٥٦٦ - ٥٧٥هـ

المستضيء بأمر الله هو الخليفة أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بالله بن محمد المقتفي لأمر الله بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عمّ رسول الله ﷺ.



المستضيء بأمر الله قبل الخلافة:

ولد سنة ٥٣٦هـ، وأمه أم ولد أرمنية تدعى «غضّة»، ولم يكن له دور بارز قبل الخلافة، وذلك أمر طبيعي إذ لا يمكن لأحدٍ من صولةٍ إلا أصحاب العسكر وأهل المصالح والأهداف.

خلافة المستضيء بأمر الله:

مرض الخليفة المستنجد بالله ومات بالحمام في التاسع من شهر ربيع الثاني سنة ٥٦٦هـ فأحضر قطب الدين قايماز وهو أكبر أمير ببغداد يومذاك

وعضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء أحضرا أبا محمد الحسن ولد الخليفة وبايعاه بالخلافة ولقّباه المستضيء بأمر الله وشرطا عليه شروطاً منها: أن يكون عضد الدين أبو الفرج وزيراً، وابنه كمال الدين أستاذ الدار، وقطب الدين قايماز أمير العسكر فأجابهما إلى ذلك، فبايعه أهل البيعة الخاصة يوم إعلان وفاة أبيه الخليفة، وبايعه الناس من الغد بيعةً عامةً. وقُتل وزير الخليفة المستنجد بالله وهو أبو جعفر بن البلوي يوم ذهب للتعزية وألقي في نهر دجلة قطعاً لدوره في قتل الخليفة السابق حسبما أشيع.

تقلّد المستضيء بأمر الله الخلافة وعمره ثلاثون سنةً فنادى برفع المكوس وردّ المظالم وأظهر الكثير من العدل ومن الكرم، وكان ذا عدلٍ وأناةٍ ورأفةٍ.

خُطب له بمصر بعد القضاء على العبيديين سنة ٥٦٧هـ، كما خُطب له باليمن وبرقة، وضعف الرُّفض ببغداد، وقلّت البدع.

احتجب الخليفة عن أكثر الناس فلم يركب إلا مع الخدم، ولم يدخل عليه إلا الأمير قطب الدين قايماز.

الإمارات

ضعف أمر السلاجقة في ديار الخلافة لانصرافهم إلى أمور الدنيا واختلافهم فيما بينهم وأصبحت السلطنة صورةً باهتةً في نظر المسلمين ليس لها دور أساسي في أمور الدولة ولا سيطرة لها على الإمارات ولا نفوذ لها في الشؤون العامة، واتجهت الأنظار إلى آل زنكي الذين رفعوا راية الجهاد، وحملوا لواء قتال الصليبيين الذين دخلوا إلى البلاد حاقدين غاصبين معتدين فأنظار المسلمين تتجه دائماً إلى ساحات الجهاد وتتعلّق قلوبهم بمن يرفع تلك الراية، وقد ظهر في الميدان نور الدين محمود بعد أبيه عماد الدين زنكي، وبرز من قادته أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب، وخاصةً في مصر حيث عملا على إزالة قاعدة الباطنية دولة العبيديين، وتداول المسلمون هذه الأسماء وكان لها في القلوب مكانة خاصة وفي النفوس وقع متميز.

١" ـ آل زنكي:

ملك نور الدين محمود الموصل سنة ٥٦٦هـ، وكانت لأخيه قطب الدين مودود الذي توفي قبل مدةٍ يسيرةٍ، وسلّمها إلى سيف الدين ابن أخيه قطب الدين

مودود، وسلّم مدينة سنجار إلى عماد الدين بن أخيه قطب الدين مودود أخي سيف الدين.

تسلّم نور الدين محمود مدينة الموصل في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ٥٦٦هـ، واستناب في قلعة الموصل سعد الدين كستكين.

سار صلاح الدين يوسف عن مصر فأغار على أعمال عسقلان والرملة، وهجم على ضواحي غزة فأتاه ملك الصليبيين في عسكرٍ قليلٍ مسرعين لردّه فقاتلهم وانتصر عليهم، وأُفلت ملك الصليبيين بعد أن كاد يؤخذ أسيراً، وعاد صلاح الدين يوسف إلى مصر.

جهّز صلاح الدين مراكب وسارت في خليج العقبة فحاصر أيلة (إلى الغرب من مدينة العقبة اليوم) وفتحها في العشر الأول من شهر ربيع الثاني سنة ٥٦٦هـ، واستباح البلد ورجع إلى مصر.

أغار شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين على الأعراب الذين بصعيد مصر لأنهم أفسدوا في البلاد ومدّوا أيديهم إلى أموال العباد فانتصر عليهم وأدّبهم فكفّوا عما كانوا يفعلونه.

لما ثبت قدم صلاح الدين يوسف بن أيوب في مصر وضعف أمر الملك العبيدي العاضد كتب نور الدين

محمود إلى صلاح الدين يأمره بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله وترك الخطبة للملك العبيدي العاضد فاعتذر بالخوف من وثوب بعض المصريين المؤيّدين للعبيديين في المسجد أثناء صلاة الجمعة وإحداث فتنة تكون نتائجها وخيمةً وتُعطي صورةً غير حسنةٍ، عن إمارة نور الدين محمود ونائبه صلاح الدين بمصر، ولكن نور الدين لم يقبل عذره وألحّ عليه بقطع خطبة العاضد وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته، واتفق أن الملك العاضد مرض في هذا الوقت مرضاً شديداً، فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم يُفكّر بالمصريين ومنهم من خافهم إلا أنه لا يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين محمود، وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمي يُعرف بالأمير العالم فلما رأى ما هم فيه من الإحجام وأنه لا يتجاسر أحد أن يخطب للخليفة العباسي قال: أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان أول جمعةٍ من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله فلم يتكلم إنسان، وكتب صلاح الدين بذلك إلى سائر بلاد مصر ففعلوا، وكان العاضد قد اشتدّ مرضه ولم يُعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا: إن عوفي فهو

يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة فتوفي يوم العاشر من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ ولم يعلم بقطع الخطبة وكان قد مضى عليها أسبوع.

ولما توفي العاضد العبيدي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر المُلك وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتّبه قبل موت العاضد. ونقل أهل العاضد إلى موضعٍ من القصر ووُكّل بهم من يحفظهم، وأُخرج جميع من فيه من أمةٍ وعبدٍ فباع بعضهم، وأعتق بعضهم، ووهب بعضهم، وخلا القصر من سكانه.

وكان لما اشتدّ مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظنّ ذلك خديعةً فلم يمض إليه. ولما وصلت البشارة إلى بغداد عمّت الأفراح بزوال العبيديين عن مصر، وأرسلت الخلع إلى نور الدين وإلى صلاح الدين. وهكذا انتهت الدولة العبيدية[1] سنة٥٦٧هـ.

---

(١) قال أحدهم: أعجب لِما يُسمّون الدولة الفاطمية بالعبيدية، قلت: هل ادعاء ملوك مصر في هذه المرحلة الانتساب إلى فاطمة الزهراء ﵂ صحيح؟ قيل: لا. قلت: فكيف نُؤيّد الكذب، ونوافقه، ونسير معه؟ وكيف ننسب انحرافهم وضلالهم إلى صدق فاطمة ﵂ واستقامتها، وعلو مكانتها، =

سار صلاح الدين عن مصر في شهر صفر سنة ٥٦٧هـ يجاهد في مناطق الصليبيين فاتجه إلى حصن الشوبك[١] وألقى الحصار عليه وضيّق على الصليبيين

= وشرف نسبها؟ قال الناقد: لماذا نُطلق عليهم العبيديين؟ قلت: ننسبهم إلى أول ملكٍ فيهم ما داموا أدعياء فلا ينتسبون إلى أسرةٍ، ولا ينتمون إلى قبيلةٍ، ولا يُعرفون أنهم من مدينةٍ معينةٍ ويكفي هذا دلالةً على كذبهم فكيف ننسبهم إلى أعلى الأنساب وهم في أحطّ مستوىً من الكذب والنهج والفكر.
وإذا كانت النسبة إلى العبودية لا تروق إلى أتباعهم ومؤيّديهم فإن العبودية لله طاعة يفخر بها المؤمن وعزّ يشرُف به الصادق. أما التصغير فأولهم يُدعى عبيد الله والنسبة إليه أحسن التسمية ولا سواها، ولا يصحّ غيرها ما دام لا يعرف لهم نسب ولا انتماء ولا شهرة ولا موطن، والوضيع لا يريد إلا الرفعة لذا يُخفي كل ما يرتبط به ويدّعي ما يحلو له ويرفعه. والغريب أن العلماء المصريين أيام العبيديين قد أظهروا لحكامهم البغضاء وأحرجوهم بالسؤال عن نسبهم والأحفاد اليوم يفخرون بهم عصبيةً كحكامٍ سابقين لديارهم.
قال: وكانت دولتهم خلافة فلماذا تسميهم ملوكاً؟ قلت: الخلافة في ديار الإسلام واحدة ولا يصحّ قيام خلافتين، فإذا كانوا مسلمين فلا يصحّ أن يُسمّوا خلفاء، وإن كان غير ذلك وهو الواقع فلا نقبل تسميتهم خلفاء، لأنه اصطلاح خاص بالمسلمين، وأما إعلان عبد الرحمن الناصر في الأندلس هذا الاسم فذلك عندما عدّوا الخليفة العباسي في بغداد مقيداً بسلطان البويهيين وفكرهم غير الإسلامي.

(١) الشوبك: في منطقة الأردن، شمال مدينة معان بأربعين كيلاً.

الذين فيه وقاتلهم حتى طلبوا الأمان منه واستمهلوه عشرة أيامٍ فأجابهم إلى ذلك. ولما سمع نور الدين محمود بما أقدم عليه صلاح الدين سار عن دمشق إلى مناطق الصليبيين ليدخل إليها من جهةٍ أخرى عسى أن يكون بداية احتضار الصليبيين في بيت المقدس غير أن صلاح الدين قد رحل عن الشوبك ورجع إلى مصر وكتب إلى نور الدين يعتذر إليه عن رحيله ويخبره عن اختلالٍ حدث في الديار المصرية فرغب عدم البعد عنها، ولكن لم يقبل نور الدين ذلك وكأنه وقع في نفسه شيء على صلاح الدين.

خرج مركبان بحريان مملوءان بالبضائع التجارية من مصر واتجها نحو الساحل الشامي فألقيا مراسيهما في ميناء مدينة اللاذقية فأخذهما الصليبيون على حين كان بينهم وبين نور الدين محمود هدنة فنقضوا العهد وغدروا فأرسل إليهم لإعادة ما أخذوه من أموال التجار فغالطوا واحتجّوا بأمورٍ غير صحيحةٍ فلم يقبل مغالطتهم وجمع العسكر وبثّ السرايا في مناطقهم. بعث بعضها نحو أنطاكية، وبعضها نحو طرابلس وحاصر هو حصن عرقة وخرّب ضواحيه، وبعث سرايا من عسكره إلى حصن صافيتا وعريمة فاحتلّهما عنوةً وقهراً، وغنم

المسلمون غنائم كثيرةً وعادوا إليه وهو بعرقة فسار بالعسكر جميعها نحو طرابلس حتى اقترب منها وقد أخذ من أرباضها الكثير، وكذا غنم المسلمون الذين ساروا نحو أنطاكية فاضطر الصليبيون أن يراجعوه وأعادوا ما أخذوه من المركبين وهم صاغرون، وعملوا على تجديد الهدنة.

لا يؤمن غدر الكافر مهما أعطى من مواثيق ومهما دوّن من معاهدات إذ متى شعر بشيءٍ من القوة في نفسه أو بضعفٍ من خصمه غدر وطغى فإذا وجد أمامه قوةً وهزمته أظهر الخنوع وأبدى الأسف والندم ورجا العودة إلى العهود، ويبدو أن الصليبيين قد أحسّوا بشيءٍ من القوة فأغاروا على حوران في شهر ربيع الأول سنة ٥٦٨هـ، ووصل الخبر إلى نور الدين محمود فسار إليهم مع عسكره من بلدة الكسوة جنوب دمشق قدم عليهم مجدّاً وانطلق بجموعه عليهم فلما علموا باقترابه منهم اتجهوا نحو الغرب إلى أشجار وادي نهر الأعوج ولحقهم المسلمون فأدركوا ساقتهم ونالوا منهم، وسار نور الدين ونزل موضعاً نحو الجنوب، وأرسل سريةً إلى ضواحي طبرية فشنّوا الغارات فنالوا الغنائم وخرّبوا في المناطق التي يحتلّها الصليبيون، وسمع الصليبيون ذلك

فرحلوا إليهم ليمنعوهم عن مناطقهم فلما وصلوا إليهم كان المسلمون قد فرغوا من جمع الغنائم وعادوا وعبروا النهر وأدركهم الصليبيون فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم فقاتلوهم أشدّ قتالٍ وصبر الفريقان، الصليبيون يرومون أن يلحقوا الغنيمة فيردّوها، والمسلمون يريدون أن يمنعوهم عنها لينجو بها من قد سار معها، فلما طال القتال بينهم، وبعُدت الغنيمة مع المسلمين رجع الصليبيون ولم يستطيعوا أن يستردّوا شيئاً منها.

سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر في شهر جمادى الأولى سنة ٥٦٨هـ من مصر إلى بلاد النوبة في سبيل الاستيلاء عليها ليبقى آل أيوب فيها فيما إذا أتى نور الدين محمود إلى مصر، غير أن شمس الدولة لم يجد في بلاد النوبة ما يستحق فرجع إلى مصر مع ما حصل عليه من غنائم وعبيد وجوارٍ.

وفي الوقت نفسه أي في شهر جمادى الأولى سنة ٥٦٨هـ سيّر ملك الروم جيشاً كثيفاً من الروم وجعل عليه بعض أعيان البطارقة من أقاربه فلقيهم جيش نور الدين بقيادة مليح الأرمني فهزمهم وكثر فيهم القتل والأسر

وقويت شوكة مليح وانقطع أمل الروم في تلك النواحي، وأرسل مليح إلى نور الدين كثيراً من الغنائم وثلاثين رجلاً من الأسرى من أعيانهم فسيّر نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله. (كان مليح بن ليون الأرمني ملازم الخدمة لنور الدين ومشاهداً لحروبه مع الصليبيين ومباشراً لها، وكان من أصحاب الرأي الجيد والصائب، وقد استخدمه نور الدين لذلك وأقطعه إقطاعاً جيداً ومنه بلاد الدروب المجاورة لحلب. وسئل نور الدين عن استخدامه وإعطائه الإقطاع في بلاد الشام، قال: أستعين به على قتال أهل مِلّته وأُريح طائفةً من عسكري تكون بإزائه لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له. وكان مليح يتقوّى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم وكانت مدن: أضنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فأخذها مليح منهم إذ تجاور بلاده التي هو أميرها لذا أرسل ملك الروم هذا الجيش الذي هُزم أمام عسكر مليح).

سارت جماعة من الأتراك سنة ٥٦٨هـ مع قراقوش مملوك تقي الدين عمران أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب من ديار مصر إلى جبل نفوسة جنوب طرابلس

الغرب واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الأمراء هناك، وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن بن علي فاتفقا وكثر جمعهما هناك ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيّقا على أهلها ثم فتحت أبوابها لهما فاستولى عليها قراقوش، وأسكن أهله قصرها وملك كثيراً من بلاد إفريقية (تونس اليوم) عدا المهدية وقفصة وصفاقس وتونس وما والاها من القرى والمواضع، وصار مع قراقوش عسكر كثير وجمع أموالاً كثيرة جعلها بمدينة قابس وطمع بالاستيلاء على إفريقية (تونس) كلها لبعد صاحبها أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن.

سار نور الدين محمود سنة ٥٦٨هـ إلى إمارة عزّ الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهي ملاطية وسيواس وغيرها قاصداً محاربته وأخذ بلاده منه وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملاطية وسيواس قصده قلج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فسار إلى نور الدين محمود ملتجئاً إليه مستنجداً به فأكرم نُزُله وأحسن إليه ووعده النصرة والسعي في ردّ ملكه إليه ثم إنه أرسل إلى قلج أرسلان يتشفّع في إعادة ملكه فلم يُجبه إلى ذلك فسار نور الدين

إليه واستولى بعض مدنه وكان أولها مرعش إذ دخلها في أوائل شهر ذي القعدة سنة ٥٦٨هـ واستولى بعدها على مدنٍ أخرى وقلاع، ولما استولى على مرعش بعث جماعةً من عسكره إلى سيواس فملكوها. وكان قلج أرسلان لما سار نور الدين إلى بلاده قد أرسل إليه يستعطفه ويسأله الصلح فتوقّف نور الدين عن قصده رجاء أن تُحلّ الأمور من غير حربٍ فأتاه من الصليبيين ما أزعجه فأجابه إلى الصلح وشرط عليه أن ينجده بعساكر إلى الغزاة الروم، وقال له: أنت مجاور للروم ولا تغزوهم وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام ولا بد من الغزو معي فأجابه إلى ذلك، وأضاف: وتبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين وهي لذي النون فبقي العسكر في خدمة ذي النون إلى أن مات نور الدين سنة ٥٦٩هـ، فلما مات رحل عسكره عنها وعاد قلج أرسلان وملكها وبقيت بيد أولاده إلى سنة ٦٢٠هـ. ولما كان نور الدين محمود بهذه الرحلة جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري من بغداد ومعه بلاغ من الخليفة بامتلاك الموصل، والجزيرة الفراتية، وأربيل، وخلاط، والشام، وبلاد قلج أرسلان، وديار مصر.

سار صلاح الدين في شهر شوال سنة ٥٦٨هـ من مصر بعساكرها جميعاً نحو حصن الكرك في المنطقة الأردنية مقابل جنوب البحر الميت من ناحية الشرق وهو من الحصون المنيعة التي بيد الصليبيين ويقصد حصار ذلك الحصن والاجتماع عليه مع نور الدين محمود والاتفاق على قصده من جهتين كل واحدٍ منهما في جهةٍ بعسكره، واتفقا أيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه، وتواعدا على يومٍ معلومٍ يكون وصولهما فيه، فسار صلاح الدين عن مصر قبل لأن طريقه أبعد وأكثر مشقةً ووصل إلى الكرك وحاصره، وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرّق الأموال وجمع الأزواد وما يحتاج إليه وسار نحو الكرك فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين باقتراب نور الدين منه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العودة إلى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلاً، فلما عاد صلاح الدين أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين على ديار مصر وأنه مريض شديد المرض ويخاف أن يأتي أجله فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل معه الهداية

الفاخرة، فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه ذلك فعظم عليه وعلم المراد من العودة إلا أنه لم يظهر للرسول تأثّراً بل قال: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها، وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه. وكان سبب موت نجم الدين أيوب أنه ركب يوماً فرساً بمصر فنفر به الفرس نفرةً كبيرةً فسقط عنه فحُمل إلى قصره وبقي أياماً ومات في السابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٦٨هـ، وكان خيّراً عاقلاً حسن السيرة كريماً جواداً كثير الإحسان للفقراء.

استأذن صلاح الدين نور الدين في أن يسير أخاه شمس الدولة توران شاه إلى اليمن لقتال عبد النبي الحميري[1] صاحب زبيد لأنه قطع الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، فأذن نور الدين بذلك فشرع شمس الدولة يتجهّز ويُعدّ الأزواد والسلاح وجنّد الأجناد وحشد وسار عن مصر في مستهل شهر رجب

---

(١) عبد النبي بن علي بن مهدي الحميري: صاحب زبيد، وليها استقلالاً بعد موت أخيه مهدي سنة ٥٥٩هـ، كان أميراً جواداً بطلاً قاتل ملوك اليمن، واجتمع له مُلك الجبال وتهامة، وانتقلت إليه أموال اليمن وذخائرها جميعها، وكان يقتل المنهزم من عسكره، وله شعر ومعرفة بالأدب. ظفر به صاحب صنعاء علي بن حاتم وقبض عليه ثم قتله سنة ٥٧٠هـ.

سنة ٥٦٩هـ، فوصل إلى مكة المكرمة ومنها سار إلى زبيد، وخرج إليه عبد النبي ولكن لم يثبت أمامه أهل زبيد وانهزموا ووصل المصريون إلى سور زبيد فلم يجدوا عليه من يمنعهم فنصبوا السلالم وارتقوا السور فملكوا البلد ونهبوه وأخذوا عبد النبي أسيراً وزوجته المدعوة بالحُرّة. وسلّم شمس الدولة أسيره عبد النبي إلى أحد أمرائه يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بني منقذ أصحاب شيزر، وأمره أن يستخرج من الأموال، فأعطاه منها الكثير ودلّه على دفائن كما دلّتهم زوجته الحرة على ودائع كثيرةٍ فحصلوا على أموالٍ وفيرةٍ، ولما ملكوا زبيد واستقرّ لهم الأمر ودان أهلها وأُقيمت الخطبة للخليفة أصلحوا حالها وساروا إلى عدن فملكوها وأخذوا صاحبها ياسراً أسيراً، ومنع شمس الدولة عسكره من النهب والإساءة، ولما انتهى من عدن رجع إلى زبيد، ثم سار إلى تعز فملكها، وإقليم جَنَد فملكه، واستناب شمس الدولة عنه نواباً في المدن والقلاع، وأحسن إلى أهل البلاد وعدل بينهم فكسب طاعتهم.

أراد جماعة من مؤيدي العبيديين وأصحاب المصالح الوثوب بمصر على صلاح الدين ودعوة

الصليبيين من جزيرة صقلية ومن ساحل الشام إلى مصر وبذل المال والبلاد لهم، واتفقوا فيما بينهم أنه إذا جاء الصليبيون إلى مصر فإذا خرج صلاح الدين إليهم بنفسه ثاروا هم في القاهرة وأعادوا الدولة العبيدية فلا يبقى لصلاح الدين مقام، وإن بقي صلاح الدين في القاهرة وأرسل عسكره للقاء الصليبيين ثاروا به وأخذوه أخذاً باليد لعدم وجود الناصر له، وقال لهم أحدهم وهو عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر: وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً من أن يسدّ مسدّه وتجتمع الكلمة عليه بعده. وأرسلوا إلى الصليبيين يدعونهم. ولكن المصريين قد أدخلوا بينهم زين الدين علي بن نجا الواعظ والقاضي والمعروف بـ(ابن نجية) غير أنه حضر عند صلاح الدين وأعلمه واقع الأمر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون عمله وتعريفه ما يجدّ من أمر أولاً بأولٍ، ففعل ذلك وصار يخبره بكل ما عزموا عليه. رتّب المتآمرون الموضوع فيما بينهم فعيّنوا الملك والوزير والحاجب والداعي والقضاة إلا أن بني رزيك قالوا: يكون الوزير منا، وبني شاور قالوا: يكون الوزير منا. وصل مبعوث من الصليبيين على الساحل الشامي إلى القاهرة جاء ظاهراً إلى الأمير صلاح الدين ويحمل هديةً ورسالةً وفي الواقع جاء إلى

الجماعة الذين يريدون الوثوب على المُلك وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين بما يجري فوضع العيون على هذا المبعوث فأتته الأخبار على حقيقتها فقبض حينئذٍ على رؤوس الفتنة وقتلهم وصلبهم في الثاني من شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ. ونودي في أجناد المصريين بالرحيل إلى الصعيد، وأُخذ الاحتياط من الذين بالقصر من أسرة العبيديين، وقصد صليبيو صقلية الإسكندرية، وأما صليبيو الساحل الشامي فلم يُغيّروا مكانهم.

وفاة نور الدين:

أخذ نور الدين محمود[١] يتجهّز للسير إلى مصر

---

(١) محمود بن زنكي (عماد الدين) بن أقسنقر، أبو القاسم، نور الدين، الملقب بالملك العادل: ولد في حلب سنة ٥١١هـ، ملك الشام، والجزيرة الفراتية، ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه وأفضلهم، كان جده من موالي السلاجقة. انتقلت إمارة حلب إلى محمود نور الدين بعد وفاة أبيه سنة ٥٤١هـ، كان ملحقاً بالسلاجقة ثم استقلّ، وضمّ دمشق إلى مملكته مدة عشرين سنةً، وامتدّ سلطانه إلى الموصل وديار بكر والجزيرة الفراتية، ومصر، وبعض المغرب، وجانباً من اليمن، وخُطب له بالحرمين، وكان يرعى مصالح رعيته، ملازماً للجهاد وقتال الصليبيين، وأسقط المكوس، وحصّن قلاع الشام، وأقام الأسوار على المدن، وأقطع عرب البادية إقطاعاتٍ حتى لا=

وقد رأى فتوراً في غزو الصليبيين فأرسل إلى الموصل وديار بكر والجزيرة الفراتية يطلب العساكر للغزو، وكان عزمه أن يترك ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل بالشام ويسير هو بعساكره إلى مصر فبينما هو يتجهّز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مردّ له فمات يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر شوال سنة ٥٦٩هـ بعلّة الخوانيق ودُفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق، رحمة الله عليه، توفي وعمره ثمانٍ وخمسون سنةً.

ولما توفي نور الدين قام بالملك بعده الملك الصالح إسماعيل[١] وعمره إحدى عشرة سنةً، وحلف له

= يتعرّضوا للحجاج، وبنى المدارس، ومنها دار الحديث، والعادلية التي أتمها بعده العادل أخو صلاح الدين، وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة من غير تعصّبٍ، وسمع الحديث وأسمعه. كان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلا في حنكه، واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين، شجاعاً، يكرم العلماء يباشر القتال بنفسه، وقبره بالمدرسة النورية بدمشق.

(١) إسماعيل بن محمود بن زنكي: ولد سنة ٥٥٨هـ، واستلم بعد أبيه سنة ٥٦٩هـ فقام بأمور دولته شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم، استنكر صلاح الدين فعل شمس الدين، رحل الصالح إلى حلب فاستدعى أعيان دمشق صلاح الدين=

الأمراء والمقدّمون بدمشق وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها، وضرب السكة باسمه، وتعهده الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بـ(ابن المقدم). ولما توفي والده نور الدين كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزّيه، ويهنئه بالملك، وأرسل إليه دنانير مصريةً عليها اسمه ويُعرّفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه.

كان نور الدين محمود قبل أن يحلّ به المرض قد طلب العسكر للغزو من ابن أخيه صاحب الموصل سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي ومن غيره، فسار سيف الدين غازي في عساكره وعلى مقدمته الخادم سعد الدين كمشتكين الذي كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين غازي ابن أخيه، فلما كانوا ببعض الطريق وصلت إليهم الأخبار بوفاة نور الدين زنكي فرجع سيف الدين غازي إلى نصيبين، وهرب سعد الدين في جماعةٍ، استولى

= فقدم إليهم وأعلن بقاء الدعاء للصالح، وامتنع الصالح في حلب فقاتله ثم صالحه على أن يبقى فيها، واستمر الصالح في حلب حتى توفي سنة ٥٧٧هـ، مات شاباً عمره تسع عشرة سنةً.

سيف الدين على نصيبين وبعث من استولى على منطقة الخابور، وتابع هو إلى حران فحاصرها عدة أيامٍ وبها مملوك لنور الدين يقال له: قايماز الحراني، فامتنع بها ثـم أطاع بعد ذلك على أن تكون حران له ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه، وسار إلى الرها فحاصرها ودخلها، وكان بها خادم لنور الدين فسلّمه وطلب عوضاً عنها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر فأُعطيت له ثم أخذت منه، وسيّر سيف الدين قوةً إلى الرقة فملكها وكذلك سروج وجميع بلاد الجزيرة الفراتية سوى قلعة جعبر فإنها كانت منيعةً وكذلك رأس العين لم يدخلها وكانت لقطب الدين صاحب ماردين وهو ابن خال سيف الدين فلم يتعرّض لها. وكان شمس الدين علي بن الداية بحلب وهو من أكبر الأمراء النورية ومعه عساكر حلب ولم يستطع المسير إلى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد وذلك لمرض الفالج الذي أُصيب به فأرسل إلى الملك الصالح فلم يرسل إليه عسكراً. ولما ملك سيف الدين غازي الجزيرة الفراتية قال له فخر الدين عبد المسيح، وكان قد وصل إليه من سيواس بعد وفاة نور الدين محمود: الرأي أن تعبر إلى الشام فليس به مانع، فقال له أكبر أمرائه، وهو عزّ الدين محمود المعروف بـ(ابن الفندار)

قد ملكت أكثر ما كان لأبيك والمصلحة أن تعود فرجع إلى قوله، وعاد إلى الموصل.

لما مات نور الدين محمود شعر الصليبيون بفرحةٍ بالغةٍ وكأن الروح قد عادت إليهم فاجتمعوا وساروا إلى بانياس الجنوب من أعمال دمشق وحاصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم العسكر عنده بدمشق وخرج عنها وراسل الصليبيين ولاطفهم ثم أغلظ لهم بالقول، وقال لهم: إن أنتم صالحتمونا وعُدتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه وإلا فنرسل إلى سيف الدين صاحب الموصل ونعلمه ونصالحه ونستنجده ونرسل إلى صلاح الدين ونستنجده ونقصدكم من الجهات كلها ولا تقومون لنا. فعلموا صدقه فصالحوه على شيءٍ من المال أخذوه، وأسرى أُطلقوا لهم كانوا عند المسلمين، وتقررت الهدنة ورجعوا عن بانياس. فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه وكتب إلى الملك الصالح والأمراء الذين معه يعاتبهم ويُقبّح لهم ما فعلوه، ويبذل من نفسه قصد مناطق الصليبيين ومقارعتهم وإزعاجهم، ويرى أن تصبح له طريق إلى الشام فيملكها فيتسع سلطانه ويهتزّ كيان الصليبيين بوحدة المسلمين الذين يحيطون بهم.

تنفّس ملك الروم الصعداء بموت نور الدين محمود وظنّ أن فكرة الجهاد قد ضعفت ورايته قد نزلت فانطلق من القسطنطينية واتجه إلى إمارة قلج أرسلان في منطقة الثغور فما وصلت عساكره إلى آخر بلاد الروم حتى كان المسلمون قد استعدّوا ودبّت في نفوسهم الحماسة إذ رأوا أن ملك الروم قد رجع إلى فكرة غزو ديار الإسلام إذ اقتنع أن الضعف قد دبّ فيها غير أنه وجد غير ذلك إذ هُزم وقُتل الكثير من عسكره ورجع إلى بلاده وترك وراءه القتلى والأسرى من الروم.

كان قد وصل إلى الإسكندرية أسطول صقلية في السادس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ بناءً على دعوة المصريين من أعوان العبيديين لإزالة سلطان صلاح الدين الأيوبي عن بلدهم ـ حسب رأيهم ـ فصبر لهم أهل الإسكندرية ورأى عسكر صقلية من شجاعة أهل الإسكندرية ما راعهم، وأرسل أعيان الإسكندرية مباشرة إلى صلاح الدين يدعونه لدفع الخطر عنهم، جاءت نجدات للمسلمين من المناطق القريبة من الإسكندرية فارتفعت المعنويات وفتح المسلمون باب البلد وخرجوا لقتال الأعداء وتعالت صيحات الله أكبر فارتاع عسكر صقلية واستبشر المسلمون بالنصر، ووصل

الخبر إلى صلاح الدين فسار بعسكره وأرسل أحد قادته مع فرقةٍ عسكريةٍ إلى الإسكندرية لبشرى أهل البلد بقدوم صلاح الدين مع الجيش، فوصل القائد مع جماعته وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنودي في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد ارتفعت معنوياتهم وزال ما بهم من تعبٍ ومن ألم الجراح، وسمع عسكر صقلية باقتراب صلاح الدين مع عسكره فازداد خوفهم وضعُفت معنوياتهم وهجم عليهم المسلمون عند اختلاط الظلام فوصلوا إلى خيامهم فغنموا كل ما فيها من سلاحٍ وغيره وكثر القتل في صفوف عسكر صقلية وهرب كثير منهم إلى البحر وقرّبوا مراكبهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم واختفى. وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض مراكب أهل صقلية فغرقت فخاف الباقون من ذلك وولّوا هاربين، واحتمى ثلاثمائة فارسٍ منهم على تلٍّ فقاتلهم المسلمون وقضوا عليهم قتلاً وأسراً.

لما مات نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ وخلفه ابنه الملك الصالح بدمشق وكان بحلب شمس الدين علي بن

الداية وقد جاء إليه سعد الدين كمشتكين هارباً من سيف الدين غازي صاحب الموصل، فلما استولى سيف الدين غازي على بلدان الجزيرة الفراتية خاف شمس الدين علي بن الداية أن يُغير على حلب فيملكها فأرسل سعد الدين كمشتكين إلى دمشق يستدعي الملك الصالح إسماعيل ومعه العسكر إلى حلب فلما اقترب سعد الدين من دمشق أرسل إليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكراً فنهبوه فقفل راجعاً إلى حلب فبعث إليه شمس الدين عوضاً عما أُخذ منه. ثم إن الأمراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة فعلموا أن مسيره إلى حلب أصلح للدولة من مقامه بدمشق فأرسلوا إلى شمس الدين علي بن الداية يطلبون منه إرسال سعد الدين كمشتكين ليأخذ الملك الصالح إلى حلب فسار سعد الدين في أول شهر المحرم سنة ٥٧٠هـ من حلب إلى دمشق وأخذ الملك الصالح ورجع معه إلى حلب، فلما وصلوا إليها قبض سعد الدين كمشتكين على شمس الدين علي بن الداية وكان مريضاً وعلى إخوته وعلى رئيس ابن الخشاب رئيس حلب مقدم الأحداث بها واستبدّ سعد الدين بأمور الملك الصالح وتربيته. فخاف شمس الدين محمد بن المقدم والأمراء بدمشق من مسير سعد الدين مع الملك الصالح إلى دمشق وفعله كما فعل

بحلب لذا فقد راسلوا سيف الدين غازي صاحب الموصل يدعونه إليهم ليسلّموه دمشق فلم يقبل إذ خشي أن تكون مكيدةً بل راسل الملك الصالح وسعد الدين كمشتكين في حلب وصالحهما على ما أخذ من بلدان الجزيرة الفراتية، فخشي أمراء دمشق من التقاء الملك الصالح مع ابن عمه سيف الدين غازي، وقالوا: لم يبق مانعٍ من المسير إلينا فراسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم.

سيطرة صلاح الدين على الشام:

رأى صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر أن الخلاف وقع بالشام بين الملك الصالح بن نور الدين وابن عمه سيف الدين غازي وهذا ما يُشجّع الصليبيين على الإغارة على ديار المسلمين بل فعلوها بالهجوم على بانياس الجنوب وهذا يقتضي وحدة بلاد المسلمين واتفاق كلمة أمرائهم، ومصر والشام كانتا لنور الدين محمود وقد توفي رحمه الله وقام مكانه ابنه الملك الصالح إسماعيل ولكنه صغير يستبدّ به أمراؤه لذا يجب وحدة مصر والشام وبقية الأمصار الإسلامية إن أمكن والجهاد في سبيل الله والعمل بجدٍّ لاقتلاع جذور الصليبيين من

ديار الإسلام لذا فإنه ما إن وصل إليه أمراء دمشق يدعونه لملك مدينتهم حتى سار في سبعمائة فارس، مُيمّماً وجهه بلاد الشام ولم يُبالِ بالصليبيين في طريقه فلما وطئ أرض الشام قصد مدينة بُصرى وصاحبها من جملة الأمراء الذين كتبوا إليه يدعونه إليهم فخرج إليه ولقيه فلما رأى قلّة من معه استغرب الأمر، ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج كل من بها من العسكر إليه فتلقّوه بالترحاب وخدموه، ودخل البلد ونزل بدار والده المعروفة بدار العفيفي، وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان فأحضر صلاح الدين قاضي البلد والحاكم في جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك وهو كمال الدين بن الشهرزوري وأرسله إلى ريحان ليسلّم القلعة إليه، وقال: أنا مملوك الملك الصالح إسماعيل وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأُعيد إليه البلاد التي أُخذت منه، فصعد كمال الدين إلى ريحان ولم يزل معه حتى سلّم القلعة فصعد صلاح الدين إليها وأخذ ما فيها من الأموال وأخرجها، وثبت قدمه وقويت نفسه وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح والخطبة والسكة باسمه، وكان مُلك صلاح الدين دمشق في نهاية شهر ربيع الأول سنة ٥٧٠هـ.

لما استقرّ ملك صلاح الدين بدمشق استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى مدينة حمص في مستهل شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ، وكانت حمص، وحماة، وقلعة بعرين، وسلمية، وتل خالد، والرها من بلاد الجزيرة الفراتية في أقطاع فخر الدين مسعود الزعفراني فلما مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها، ولم يكن له في قلاع هذه البلاد حكم إنما فيها ولاة لنور الدين، وكان في قلعة حمص والٍ يحفظها فلما نزل صلاح الدين على حمص في الحادي عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ راسل من فيها بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم من الغد فاستولى على البلد، وأمّن أهله، وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعةً عليه مدةً.

ترك صلاح الدين بمدينة حمص من يحفظها، ويمنع الذين بالقلعة من التصرّف، وسار إلى مدينة حماة، وهو في أحواله جميعها لا يُظهر إلا طاعة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود وأنه إنما خرج إلى الشام لحفظ بلاده عليه من الصليبيين واستعادة ما أخذه سيف الدين غازي صاحب الموصل من بلدان الجزيرة الفراتية، فلما وصل إلى حماة ملك المدينة في

مستهل شهر جمادى الآخرة سنة ٥٧٠هـ، وكان بقلعتها الأمير جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين فأرسل إليه صلاح الدين يعرفه أنه في طاعة الملك الصالح وإنما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيّره إلى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح. سار جورديك إلى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها، فلما وصل جورديك إلى حلب قبض عليه سعد الدين كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلّم القلعة إلى صلاح الدين فملكها.

لما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب وألقى الحصار عليها في أواخر شهر جمادى الآخرة سنة ٥٧٠هـ فقاتله أهلها، وركب الملك الصالح إسماعيل وهو صبي عمره اثنتا عشرة سنةً وجمع أهل حلب وقال لهم: قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم، الجاحد إحسان والدي إليه جاء يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق، وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن البلد وجدّوا في القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوا عليها

حيث كان الصليبيون بالقرب منهم، فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين فلا يستطيع أن يقترب من البلد، وهو لا يريد إثارة فتن وضغائن وأحقاد فيتصرف تصرّف الخصم اللدود والعدو الجاهل. وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية وبذل له أموالاً كثيرةً ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعةً منهم إلى عسكره فلما وصلوا إليهم رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقيس فعرفهم لأنه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم، فلما رآهم، قال لهم: ما أقدمكم؟ ولأي شيءٍ جئتم؟ فجرحوه جراحاتٍ مثخنةً، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقُتل دونه، وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعةً ثم قُتلوا، وبقي صلاح الدين محاصراً حلب لنهاية الشهر، ثم رحل عنها في مستهل شهر رجب سنة ٥٧٠هـ.

رحل صلاح الدين عن حلب لما جرى في بعض بلاده. كان صلاح الدين ﷺ قد أسر سنة ٥٥٩هـ على مدينة حارم القومص الصنجيلي صاحب طرابلس وأُلقي في السجن، وبقي في حبسه حتى هذه الأيام فأطلقه سعد الدين كمتشكين مقابل مائةٍ وخمسين ألف دينارٍ وألف أسيرٍ، فلما وصل إلى طرابلس الشام اجتمع

الصليبيون يهنئونه وكان من شياطينهم، واتفق أن مري ملك الصليبيين قد مات في أول هذه السنة (سنة ٥٧٠هـ) وخلف ابناً مجذوماً عاجزاً عن تدبير الملك، فملّكه الصليبيون صورةً، وتولّى القومص ريموند تدبير الملك، وكان الحلّ والعقد برأيه، ويصدرون جميعاً عن أمره، فأُرسل إليه من حلب يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم، فسار القومس ريموند إلى حمص ونازلها في السابع من شهر رجب سنة ٥٧٠هـ، فلما تجهّز لقصدها وصل الخبر إلى صلاح الدين فرحل عن حلب فوصل إلى حماة في الثامن من شهر رجب بعد نزول الصليبيين على حمص بيومٍ واحدٍ، ثم سار إلى الرستن فلما سمع الصليبيون بقربه رحلوا عن حمص، ووصل صلاح الدين إليها فحاصر القلعة إلى أن ملكها في الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٧٠هـ فصار أكثر الشام بيده، ولما ملك حمص سار منها إلى بعلبك وبها خادم اسمه يُمن وهو والٍ عليها من أيام نور الدين فحاصرها صلاح الدين فأرسل يُمن يطلب الأمان له ولمن عنده فأمّنهم صلاح الدين وتسلّم القلعة في الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ.

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويطلب منه أن يقدم إليه ليقصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عسكره وكتب إلى أخيه عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود صاحب سنجار ويأمره أن يأتي إليه بعسكره ليجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع عماد الدين عن ذلك، وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لأنه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع عن أخيه، فلما رأى سيف الدين امتناعه جهّز أخاه عز الدين مسعوداً في عسكرٍ كثيرٍ يشمل أكثر عساكره وسيّره إلى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبر أميرٍ معه يقال له: عز الدين محمود ويلقب أيضاً زلفندار وجعله صاحب الأمر والنهي، وسار سيف الدين إلى قتال أخيه عماد الدين زنكي في سنجار فألقى الحصار على مدينة سنجار في شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ، وقاتل أهل البلد وجدّ بالقتال وامتنع عماد الدين بها وجدّ بالدفاع عنها، وبينما هو يحاصرها جاءه الخبر بانهزام أخيه عز الدين مسعود في لقائه مع صلاح الدين، فراسل حينئذٍ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده

ورجع هو إلى الموصل، وثبت قدم صلاح الدين بعد هذا وخافه الناس وتردّدت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي ولكن لم تستقرّ الحال.

سار عسكر سيف الدين غازي مع أخيه عز الدين ومعه زلفندار إلى حلب واجتمع مع عساكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليُحاربوه فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل له تسليم حمص وحماة وأن يُقرّ له بمدينة دمشق تكون بيده وهو فيها نائب الملك الصالح، فلم يجب إلى ذلك، وقال: لا بد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعودة إلى مصر، وكان صلاح الدين يجمع عسكره ويتجهّز للحرب فلما امتنع سيف الدين عن إجابته إلى ما بذل سار بعسكره إلى عز الدين مسعود، وعز الدين محمود (زلفندار) فالتقوا في التاسع من شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ بالقرب من مدينة حماة، وكان زلفندار جاهلاً بالحروب والقتال لا يعرف التدبير مع جبنٍ فيه إلا أنه حصل على الرضا والقبول من سيف الدين غازي فلما التقى الجمعان لم يثبت عسكر سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته قال: إما أن هذا أشجع الناس وإما أنه لا يعرف الحرب، وأمر أصحابه بالحملة

عليه، فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمّت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم وغنموا منهم غنائم كثيرة من مالٍ وسلاحٍ ودواب، ورجع عسكر سيف الدين إلى حلب مقهورين وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها وألقى الحصار على حلب وقاتل من فيها، وقطع حينئذٍ خطبة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة في بلاده، وبقي محاصراً لهم، فلما طال عليهم الأمر راسلوه بالصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم إلى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب في العشر الأول من شوال سنة ٥٧٠هـ، ووصل إلى حماة ووصلت إليه بها خلع الخليفة وهداياه مع رسوله.

لما عاد صلاح الدين إلى حماة سار إلى بعرين وهي قريبة منها، وصاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفراني من كبار أمراء نور الدين، حاصر صلاح الدين بعرين ونصب عليها المنجنيقات، وداوم على قتال من بها فسلّمها واليها بالأمان في العشر الأخير من شهر شوال سنة ٥٧٠هـ فلما ملكها صلاح الدين رجع إلى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش

الحارمي، وأقطع حمص إلى ابن عمه ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه، وسار منها إلى دمشق فدخلها في أواخر شهر شوال سنة ٥٧٠هـ.

كان عسكر سيف الدين غازي صاحب الموصل بقيادة أخيه عز الدين مسعود قد هُزم أمام صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٧٠هـ فصالح سيف الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار وعاد إلى الموصل فجمع العسكر وفرّق فيهم الأموال، واستنجد بصاحب ماردين وصاحب حصن كيفا وغيرهما فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس، فسار إلى نصيبين في شهر ربيع الأول سنة ٥٧١هـ وأقام بها فأطال الإقامة حتى انقضى فصل الشتاء فتضايقت العساكر وصارت العودة إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من النصر لما يتوقّعونه من طول الإقامة بالشام إن ظفروا بعد هذه المدة، ثم سار إلى حلب فنزل إليه سعد الدين كمشتكين مدير دولة الملك الصالح إسماعيل ومعه عساكر حلب.
وسار صلاح الدين من دمشق إلى حلب ليلتقي مع سيف الدين غازي، وكان صلاح الدين في قلةٍ من العسكر لأنه كان قد أرسل عسكراً إلى مصر وأرسل إليهم يطلبهم فتأخّروا عليه، والتقى عسكر صلاح الدين

مع عسكر سيف الدين في تل السلطان جنوب حلب بخمسة وعشرين كيلاً على طريق حماة. وكان سيف الدين قد سبقه، وكان وصول صلاح الدين وقت العصر وقد تعب هو وأصحابه وأصابهم العطش فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة. فأشار جماعة على سيف الدين غازي بقتالهم وهم على هذه الحال، فقال زلفندار: ما بنا حاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة، غداً صباحاً نأخذهم كلهم فتُرك القتال، فلما أصبحوا اصطفوا للقتال لم يرَ عسكر سيف الدين أعلامهم فظنوا أن سيف الدين قد انهزم فولّوا هاربين لم يلو أحد على أحدٍ ولم يُقتل من الفريقين مع كثرتهم إلا رجل واحد، ووصل سيف الدين إلى حلب فترك بها أخاه عز الدين مسعوداً في جمعٍ من العسكر وارتحل هو إلى الموصل وهو لا يُصدّق أنه ناجٍ، وتوقّع أن يعبر صلاح الدين الفرات ويقصده بالموصل، وقرر مغادرتها فنُصح بالثبات بها والامتناع فيها فوافق، وعزل عز الدين زلفندار عن إمارة الجيوش واستعمل مكانه مجاهد الدين قايماز. وغنم صلاح الدين أثقال عسكر سيف الدين.

سار صلاح الدين بعد ذلك إلى بزاعة بين حلب

ومنبج فحاصرها وقاتله الذين بالقلعة ثم تسلّمها فجعل فيها من يحفظها وسار إلى مدينة منبج فحاصرها في آخر شهر شوال سنة ٥٧١هـ وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي وكان شديد العداوة لصلاح الدين كثير التحريض عليه والطعن فيه وهذا ما جعل صلاح الدين يحنق عليه ويتهدّده، وقد دخل صلاح الدين بلدة منبج ولم تمتنع عليه، وبقيت القلعة وبها صاحبها وقد جمع الرجال والسلاح والذخائر فيها فحاصره صلاح الدين وضيّق عليه، ثم ملك القلعة عنوةً وملك ما فيها وأخذ صاحبها أسيراً ثم أطلقه بعد أن أخذ كل ما لديه فسار إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة.

سار صلاح من منبج إلى إعزاز فنازلها في الثالث من شهر ذي القعدة سنة ٥٧١هـ، وهي من القلاع الحصينة فحاصرها وضيّق على من بها، ونصب عليها المنجنيقات، وبينما كان صلاح الدين في خيمة بعض أمرائه إذ وثب عليه باطني فضربه بسكينٍ في رأسه فجرحه إذ كان المغفر تحت القلنسوة فجاء أمير من أمراء صلاح الدين يدعى يازكش فقبض على السكين بيده فجُرح، ولكن قُتل الباطني، وجاء باطني آخر فقُتل وثالث فقُتل، وركب صلاح الدين إلى خيمته ثم اختبر

جنده فأبعد من أبعد وأبقى من وثق به. ولازم صلاح الدين حصار إعزاز ثمانيةً وثلاثين يوماً والقتال مستمر كل يومٍ ويشتدّ، ونقب سور القلعة، وأذعن من فيها وسلّموا القلعة إلى صلاح الدين في الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٧١هـ.

لما ملك صلاح الدين إعزاز رحل إلى حلب فنازلها في منتصف شهر ذي الحجة سنة ٥٧١هـ، وألقى الحصار عليها وبها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ومعه عسكره وقد قام أهل البلد بحفظ بلدهم وتمكّنوا من منع صلاح الدين من الاقتراب منها وطال القتال ودام الحصار وماطل صلاح الدين في ذلك وتردّدت الرسل بينهم بالصلح في العشرين من شهر المحرم سنة ٥٧٢هـ، فوقعت الإجابة من الطرفين إذ ملّ أهل البلد الحصار، ووجد صلاح الدين عجزه في ملك البلد، فلما تمّ الأمر رحل صلاح الدين عن حلب بعد أن أعاد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح إسماعيل.

خاف الصليبيون من صلاح الدين لما قوي أمره وظهرت لهم نيته في الإغارة على مناطقهم ودخولها فأرسلوا إليه يطلبون منه الهدنة فأجابهم إليها وصالحهم، وأمر عسكره المصريين بالعودة إلى بلدهم للراحة على

أن يعودوا في الوقت الذي يستدعيهم فيه.

وعاد شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين إلى دمشق حنيناً إليها بعد أن ملك اليمن.

ولما رحل صلاح الدين عن حلب قصد في شهر المحرم سنة ٥٧٢هـ منطقة الإسماعيلية ليقاتلهم بما فعلوه به من الوثوب عليه وإرادة قتله فحاصر قلعة مصياف وهي أعظم حصونهم وأمنعها فنصب عليها المنجنيقات وضيّق على من بها فأرسل مقدم الإسماعيلية (الباطنية) سنان إلى صاحب حماة شهاب الدين الحارمي وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم، ويقول له: إن لم تفعل قتلناك وأهل صلاح الدين جميعهم فشفع فيهم وسأل الصفح عنهم فأجابه إلى ذلك فإن صلاح الدين قد أدرك خطر العمل السري والتخطيط الخبيث فصالحهم ورحل عنهم. وكان عسكر صلاح الدين قد ملّوا طول البعد عن الأهل وكثرة الارتحال، والمزيد من الغنائم والخوف عليها فطلبوا العودة إلى بلادهم للاستراحة فأذن لهم وسافر هو إلى مصر مع عسكرها وقد طال عهده عنها.

كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب بعلبك قد أتاه خبر مفاده أن الصليبيين قد

قصدوا منطقة البقاع وأغاروا عليها فسار إليهم وكمن لهم في الغياض فأوقع بهم وقتل كثيراً منهم، وأسر نحو مائتي رجلٍ فسيّرهم إلى صلاح الدين. وسمع شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين وهو بدمشق أن جماعةً من الصليبيين قد خرجوا من مناطقهم وأغاروا على أعمال دمشق فسار إليهم ولقيهم عند عين الجرّ بالبقاع بين بعلبك ودمشق ولكنه لم يثبت لهم وانهزم أمامهم فظفروا بجمعٍ من أصحابه فأسروهم.

عصى شهاب الدين محمد بن يزان صاحب شهرزور سنة ٥٧٢هـ على سيف الدين غازي صاحب الموصل، وكان في طاعته وتحت حكمه، وسبب ذلك أن مجاهد الدين قايماز كان صاحب إربيل وكان بينه وبين محمد بن يزان عداوة محكمة، فلما استناب سيف الدين غازي بالموصل مجاهد الدين خاف محمد بن يزان أن يناله أذىً فأظهر الامتناع والتعنّت فأرسل له جلال الدين وزير سيف الدين كتاباً لطيفاً فيه أدب وبلاغة يأمره بمعاودة الطاعة ويُحذّره عاقبة المخالفة فلما وصل إليه الكتاب امتثل وزال الخلاف.

سار صلاح الدين الأيوبي من مصر في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ إلى ساحل الشام بقصد غزو

الصليبيين فوصل مع عساكره إلى عسقلان في الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى من السنة نفسها وقد أرهبوا عدوّهم إذ قتلوا وأسروا الكثير وقد طمعوا عندما لم يروا عسكراً للصليبيين يقفون في وجههم فوصلوا إلى مدينة الرملة، ولما وصلوا إلى نهرٍ ازدحم عسكر صلاح الدين فلم يرعهم إلا وعسكر الصليبيين قد أشرفوا عليهم، وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لأن الآخرين تفرّقوا في طلب الغنيمة، فلما رأى صلاح الدين أعداءه وقف لهم مع أصحابه وتقدّم بين يديه محمد ابن أخيه فقاتل بين يدي عمّه فقُتل من أصحابه جماعة وقتلوا من الصليبيين عدداً. وكان لتقي الدين عمران أخي صلاح الدين ولد يدعى أحمد وكان في أول شبابه فأمره أبوه بالحملة على الصليبيين فحمل عليهم وقاتلهم وقد أبلى بلاءً حسناً وعاد سالماً، ثم عاد أبوه فأمره بالحملة عليهم ثانيةً فحمل عليهم ونال الشهادة ـ والله أعلم ـ. وحمل بعض الصليبيين على صلاح الدين حتى اقترب منه وكاد أن يصل إليه فقُتل الصليبي بين يديه، وتكاثر الصليبيون عليه فولّى منهزماً يسير قليلاً ويقف ليلحق به العسكر، ومضى بنفرٍ يسيرٍ إلى مصر ولقوا في رحلتهم مشقةً كبيرةً من قلّة الزاد والشراب، وكثرة هلاك الرواحل جوعاً وعطشاً،

وأما العسكر الذين أغاروا على الصليبيين فإن أكثرهم قد ذهب ما بين قتيلٍ وأسيرٍ. ووصل صلاح الدين إلى القاهرة في منتصف شهر جمادى الآخرة سنة ٥٧٣هـ.

لما رأى الصليبيون هزيمة صلاح الدين بجهات مدينة الرملة قرّروا مهاجمته في عقر داره، ووجدوا أن يكون الهجوم عليه من جهة الشمال حيث لم يكن هناك وئام بين صلاح الدين وبين الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب، ورأوا أن يكون الهجوم على مدينة حماة فوصل من البحر إلى الساحل الشامي مقابل مدينة حماة أحد كبار الصليبيين ويدعى كند، وكان نائب صلاح الدين بدمشق أخوه شمس الدين تورانشاه بن نجم الدين أيوب وما عنده من العسكر إلا القليل، فسار كند إلى مدينة حماة وألقى عليها الحصار وفيها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض، ودافع أهل البلد عن بلدهم دفاعاً قوياً مما ألزم الصليبيين على الرحيل خائبين بعد إقامة أربعة أيامٍ على البلد، ولما رحل الصليبيون عن حماة مات صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي، ومات ابنه قبله بثلاثة أيامٍ.

قبض الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين سنة

٥٧٣هـ على سعد الدين كمشتكين الحاكم في دولة الملك الصالح لخلافه مع المقدم في دولته أيضاً صالح بن العجمي وكان مقدماً عند نور الدين محمود فلما مات نور الدين بقي مقدماً في دولة ولده الملك الصالح، وبينما كان صالح بن العجمي في أحد الأيام في الجامع وثب به الباطنية فقتلوه، فتمكّن بعد ذلك سعد الدين كمشتكين وقوي وضعه وتفرّد بالأمر والحل والعقد، فاتهمه خصومه بالتعاون على قتل صالح وما زالوا بالملك حتى قبض عليه. وكانت قلعة حارم لسعد الدين كمشتكين وكان قد أقطعه إياها الملك الصالح فامتنع رجاله الذين بها بعد أن قُبض عليه وتحصّنوا فيها فأطلقه الملك الصالح وسيّره إليهم تحت المراقبة ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا وأبوا فعُذّب سعد الدين كمشتكين وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات في العذاب وأصرّ أصحابه على الامتناع والعصيان، فلما سمع الصليبيون ذلك ساروا إلى حارم من حماة في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ، وهم يحسبون أن أهل حارم لا ناصر لهم فالملك الصالح صغير ضعيف قليل العسكر وصلاح الدين بمصر فاستغلّوا ما يجري ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهرٍ ونصبوا على

أسوارها السلالم والمنجنيقات ولم يزالوا كذلك حتى بذل لهم الملك الصالح المال، وقال لهم: إن صلاح الدين قد وصل إلى الشام وربما يسلّم القلعة من بها إليه فأجابوه حينئذٍ إلى الرحيل، فلما رحلوا عنها سيّر إليها الملك الصالح جيشاً فحاصرها، وكان قد بلغ الجهد بأهلها مبلغه من حصار الصليبيين، كما كان قد قُتل من أهلها الكثير وجرح الكثير فسلّموا القلعة إلى الملك الصالح فاستناب بها مملوكاً كان لأبيه اسمه سرخك.

وعاد الصليبيون فساروا إلى مدينة حماة في شهر ربيع الأول سنة ٥٧٤هـ في جمعٍ كبيرٍ من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والسلب فأفسدوا في الأرض فقتلوا وأسروا ونهبوا وفعلوا ما شاء لهم هواهم أن يفعلوا وظنّوا أن المنطقة لا حامي لها فلما سمع بالخبر العسكر المقيمون بحماة ساروا إليهم وهم قليل متوكلين على الله ليقفوا في وجه هذا الفساد وهذه الوحشية فالتقوا بهم واقتتلوا ونصر الله المؤمنين وانهزم الصليبيون وكثر فيهم القتل والأسر، وأُخذ منهم ما نهبوا، وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام ونزل بظاهر حمص فحُملت إليه رؤوس القتلى والرجال الأسرى والغنائم فأمر بقتل الأسرى فقتلوا.

كان صلاح الدين قد سلّم بعلبك إلى شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم جزاء ما قدمه من خدماتٍ وبقيت بيده حتى سنة ٥٧٤هـ، وكان أخو صلاح الدين الأكبر شمس الدين محمد بن أيوب قد طلب بعلبك من أخيه صلاح الدين وألحّ عليه في طلبها لأن تربيته ومنشأه كان بها لذا كان يطلبها دون غيرها فلم يمكن لصلاح الدين مخالفته بصفته أكبر منه، فأمر صلاح الدين صاحبها شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم بتسليمها إلى أخيه ليعوّضه عنها فلم يُجب إلى ذلك وذكّره العهود التي له وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه فلم يُصغ إليه وألحّ في أخذها فلم يُبال بل تحصّن بها واعتصم فأرسل صلاح الدين إليه عسكراً وحاصره بها مدةً ثم رحل عنها من غير أن يدخلها وترك عليه عسكراً يحاصره فلما طال الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليُسلّمها فعوّضه عنها وسلّمها فأقطعها أخاه شمس الدولة.

اجتمع الصليبيون وساروا مع ملكهم في شهر ذي القعدة سنة ٥٧٤هـ إلى دمشق فأغاروا على مناطقها فأفسدوا ما شاء لهم هواهم إذ قتلوا وأسروا ونهبوا فأرسل صلاح الدين إليهم فرخشاه ولد أخيه

في جمعٍ من العسكر وأمره إذا اقترب منهم أن يرسل إليه يخبره على جناح طائرٍ ليسير إليه وتقدم إليه أن يأمر أهل البلاد بالنزوح من بين يدي الصليبيين، فسار فرخشاه في عسكره يطلبهم فلم يشعر إلا والصليبيون قد خالطوه فاضطر إلى القتال فاقتتلوا قتالاً شديداً وألقى فرخشاه نفسه عليهم فانتصر المسلمون وولّى الصليبيون الأدبار بعد أن قُتل عدد من مقدميهم ومنهم هنفري الذي يضربون به المثل بالشجاعة والرأي في الحرب وكان بلاءً صبّه الله على المسلمين ثم أراحهم من شرّه، ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارسٍ.

وأغار الصليبي صاحب أنطاكية واللاذقية على حصنٍ للمسلمين بشيزر وأخذه.

وأغار الصليبي صاحب طرابلس على جماعاتٍ من التركمان غرب حمص ونهب أموالهم.

وكان صلاح الدين على بانياس الجنوب فسيّر ولد أخيه تقي الدين عمر إلى حماة، وابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحماية أطرافها من العدو.

بنى الصليبيون حصناً منيعاً بالقرب من بانياس

الجنوب[1] فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس وأقام بها، وبثّ الغارات على مناطق الصليبيين ثم سار إلى الحصن وحاصره ليخبره ثم يعود إليه عند اجتماع العساكر، فلما نازل الحصن قاتل من به من الصليبيين ثم عاد عنه، فلما كانت سنة ٥٧٥هـ لم يفارق بانياس بل أقام بها وخيله تُغير على بلاد العدو، وأرسل جماعةً من عسكره مع الذين يُحضرون المؤن فلم يشعروا إلا والصليبيون مع ملكهم قد خرجوا عليهم فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار في العساكر مسرعاً مجدّاً حتى وافاهم وهم في القتال، فقاتل الصليبيون قتالاً شديداً وحملوا على المسلمين حملاتٍ كادوا يزيلونهم عن مواقعهم، ثم نصر الله جند المسلمين، وهزم الصليبيون وقُتلت منهم مقتلة عظيمة ونجا ملكهم فريداً، وأُسر منهم عدد كبير منهم: ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو يلي ملك الصليبيين بالمكانة، وأُسر أيضاً أخوه صاحب جبيل، وصاحب طبرية، وصاحب جنين وغيرهم من شياطينهم وطواغيتهم، فأما ابن بيرزان فقد فدى نفسه بمائةِ

(١) لعل موقع الحصن كان على التل المعروف اليوم باسم تل عزيزيات.

وخمسين ألف دينارٍ وإطلاق ألف أسيرٍ من المسلمين، وكان من الذين أبلوا البلاء الحسن بين المسلمين عزّ الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين.

ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة وتجهّز للدخول إلى ذلك الحصن وحصاره وسار إليه في شهر ربيع الأول سنة ٥٧٥هـ ونازلوا أهله، وعملوا على خرق السور، وتجمّع الصليبيون في طبرية للسير باتجاه بانياس لإبعاد المسلمين عن الحصن، فجدّ المسلمون بالقتال وأشعلوا النار بالسور بعد نقبه وخرقه فسقط يوم الخميس لستٍّ بقين من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٥هـ، ودخل المسلمون الحصن عنوةً وأسروا كل من كان فيه، وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين، وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الصليبيين، وأدخل الباقين إلى دمشق فسُجنوا، وأقام صلاح الدين مكانه حتى هُدم الحصن وعُفي أثره. ولما وصل خبر أخذ المسلمين الحصن إلى الصليبيين الذين اجتمعوا في طبرية تفرّقوا وفتّ ذلك في عضدهم.

وقع قتال سنة ٥٧٥هـ بين صلاح الدين وبين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية بسبب

حصن رعبان[1]، وكانت قوات صلاح الدين بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقد انتصر تقي الدين بقواته التي لا يزيد عددها على ألف فارس، على قوات قلج أرسلان التي تزيد على العشرين ألفاً.

٢" ـ السلاجقة:

زاد أمر السلاجقة ضعفاً لخلافهم فيما بينهم، ولاتساع نفوذ آل زنكي في الغرب، ونفوذ خوارزم في الشرق. وتوفي أرسلان شاه بن طغرل سنة ٥٧٣هـ، وتولى السلطنة بعده طغرل الثاني غير أنه لم يكن قادراً على تنفيذ ما يريد، وغدت منطقة نفوذه ضيقةً على حين كانت تتسع رقعة الدولة الخوارزمية.

٣" ـ خوارزم:

كان شاه خوارزم أيل أرسلان بن أتسز بن محمد بن أنوشتكين، وتوفي سنة ٥٦٨هـ فخلفه ابنه الأصغر سلطان شاه محمد وكان صغيراً فكانت أمه وصيّةً عليه فخرج عن طاعته أخوه الأكبر علاء الدين

---

(١) رعبان: بلدة من الثغور بين حلب وسميساط على مقربةٍ من نهر الفرات.

تكش فاستولى على بلاد خوارزم بعد أن سار إلى بلاد الخطا الذين كان يقاتلهم أبوه واستنجد بملكهم المؤيد على أخيه فسيّر معه جيشاً كثيفاً فلما اقتربوا من خوارزم خرج إليهم سلطانشاه وأمه إلى المؤيد وأهدى له هديةً ثمينةً جداً ووعده بأموال وذخائر خوارزم فاغترّ بقوله وجمع جيوشه وسار معه حتى وصلوا إلى بلدة تدعى سوبرلي على بعد مائة كيل من خوارزم (خيوه)، وكان علاء الدين تكش قد عسكر بالقرب منها فتقدّم إليهم فلما تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيد، وكُسر المؤيد وأُخذ أسيراً وجيء به إلى علاء الدين تكش فأمر بقتله فقُتل بين يديه صبراً، وهرب سلطانشاه وأُخذ إلى دهستان[1] فقصده أخوه خوارزمشاه علاء الدين تكش فافتتح المدينة عنوةً فهرب سلطانشاه وأُخذت أمه فقتلها علاء الدين تكش وعاد إلى خوارزم. أما عسكر المؤيد الذين انهزموا فقد ساروا إلى نيسابور وملّكوا صفانشاه أبا بكر بن المؤيد، واتصل به سلطانشاه، ثم سار من هناك إلى غياث الدين ملك الغوريين فأكرمه وأحسن ضيافته. وأما علاء الدين تكش فإنه لما استقرّ له الملك

---

(١) دهستان: بلدة في طرف مازندران بين جرجان وخوارزم بنيت أيام الخليفة محمد المهدي.

وخضع له الناس اتصلت به رسل بلاد الخطا بالاقتراحات والتحكّم فأخذته حمية الملك وقتل أحد أقرباء الملك، وكان قد ورد إليه ومعه جماعة أرسله ملكهم في مطالبة خوارزمشاه بالمال وأمر خوارزمشاه أعيان بلاده فقتل كل واحدٍ منهم رجلاً من جماعة الخطا فلم يسلم منهم أحد، ونبذوا إلى ملك الخطا عهده وبلغ ذلك سلطانشاه فسار إلى ملك الخطا واغتنم هذه الفرصة واستنجده على أخيه علاء الدين تكش، وزعم له أن أهل خُوارزم معه يريدونه ويختارون ملكه عليهم، ولو رأوه لسلّموا البلد إليه فسيّر معه جيشاً كثيراً من الخطا بإمرة (قرما) فوصلوا إلى خُوارزم وحاصروها، فأمر خوارزمشاه علاء الدين بتحويل مياه نهر جيحون عليهم فكادوا يغرقون فرحلوا عنها ولم يبلغوا منها غرضاً وندموا على ما فعلوا، ولاموا سلطانشاه وعنّفوه. وسار سلطانشاه بجيش قرما فاستولى على سرخس من الأتراك الغز وتابع إلى مرو فملكها وجعل همّه قتال الغزّ وأخذ منهم طوس، واستمر الخلاف بين علاء الدين تكش خوارزمشاه وبين أخيه سلطانشاه حتى توفي سلطانشاه في نهاية رمضان سنة ٥٨٩هـ.

٤" ـ الغوريون:

توسّع نفوذ غياث الدين محمد الغوري الذي تولّى ملك الدولة الغورية سنة ٥٥٨هـ، وقاتل خوارزمشاه علاء الدين محمد تكش، واستردّ منه خراسان لكن غياث الدين اختلف مع أخيه شهاب الدين وهذا ما جعل خوارزمشاه يعود إلى خراسان ويملكها، وبقي سلطان غياث الدين حتى توفي سنة ٥٩٩هـ.

الصليبيون

ضعف أمر الصليبيين في الشام وانخفضت معنوياتهم وارتفعت هيبة المسلمين في نفوسهم بعد:

١ ـ الهزائم المتوالية التي مُني بها الصليبيون أمام عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وأمام صلاح الدين يوسف بن أيوب.

٢ ـ اجتماع كلمة المسلمين في الشام والعراق ومصر بعد زوال الدولة العبيدية، إضافةً إلى أن قلوب المسلمين في أي مكانٍ كانت معهم تنبض مع جهادهم، وألسنتهم تدعو لهم.

٣ ـ تناقص عدد المقاتلين الصليبيين بالقتل، وتناقص مواردهم بعد انسحابهم من مناطق كانوا يستولون عليها.

٤ ـ ارتفاع فكرة الجهاد لدى المسلمين بعد فتورٍ، وهذه الفكرة هي التي ترفع معنويات المسلمين وتزيدهم حماسةً عاليةً لا توصف، وترعب الأعداء فتنهار معنوياتهم، وتمتلئ نفوسهم خوفاً فلا يرون للنجاة سبيلاً إلا الهرب أو الاستسلام، وقد كان هذا على مدار التاريخ وإلى اليوم، وفي كل وقتٍ يلتقي فيه مجاهدون مع أعداء كافرين.

٥ ـ الخوف الذي شغلهم من كل الذي سبق ذكره.

الخاتمة

في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ظهرت على الساحة في مشرق ديار الخلافة الإسلامية جماعة من الأتراك اعتنقوا الإسلام وجعلوا همّهم خدمة ما اعتنقوا فانطلقوا يقاتلون من يقف في وجههم، يسعون التوسّع لزيادة القوة وكسب النفوذ، وتمّ لهم ما أرادوا فاستطاعوا قبل أن ينتصف القرن الخامس أن يسيطروا على مركز الخلافة ويكون لهم السلطان الفعلي والأهمّ من ذلك أنهم أزالوا سلطان الذين كانوا يفرضون سيطرتهم على الخلفاء العباسيين مع حقدٍ عليهم وكراهيةٍ لهم إذ يبطلون فكراً يختلف عما هي عليه الأمة لذا كانت الفتن مستعرةً والباطنية منتشرةً ووجدت إمارات تُبطن ذلك من قرامطةٍ وعبيديين وسامانيين يسيرون على نهج السلطان ويتلقّون الدعم والتأييد سرّاً ويختلفون ظاهراً وقد يقع بينهم القتال وما ينتهي إلا بالصلح تمثيلاً على أبناء الأمة كإسلامهم بألسنتهم وما يصل شيء منه إلى قلوبهم، فكان إزالة هذا البلاء الباطني من بغداد على يد السلاجقة أكبر خدمةٍ للإسلام.

قدّم طغرل بك المتوفّى سنة ٤٥٥هـ خدماتٍ واسعةً وكذا ألب أرسلان المتوفّى سنة ٤٦٥هـ وما انتصاره بملاذكرد على الروم بقليل، إذ أثار أوربا قاطبةً ثم ملشكاه بن ألب أرسلان المتوفّى سنة ٤٨٥هـ، ولكن بعد ذلك ضعف أمر السلاجقة إذ تنازعوا على الدنيا فتصارعوا على السلطنة، واختلفوا على الملك، ثم انتهى أمرهم بمقتل آخرهم سنة ٥٩٠هـ وهو طغرل الثاني بن أرسلان شاه على يد خُوارزمشاه علاء الدين تكش، وهذا شأن كل جماعةٍ تكون الدنيا أكبر همّها.

ولكن ظهر آل زنكي في الربع الأول من القرن السادس الهجري وبرزت فكرة الجهاد وقتال الصليبيين، وكان من قادتهم أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي قامت دولته بعدهم، وكانوا اسمياً مرتبطين بالخلافة العباسية فحافظت بذلك على مكانتها، واستطاع صلاح الدين القضاء على الدولة العبيدية سنة ٥٦٧هـ، وأتبعها بإنقاذ القدس من أيدي الصليبيين في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ. فارتفعت مكانة الخلافة وفي الوقت نفسه فقد تحرّك الأعداء استعداداً وتخطيطاً في الداخل وفي الخارج على حدٍّ سواء، وإن كانت أوربا مركز الحركة والتخطيط والإثارة والاستعداد.

المُحتوى

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني
المقتدي بامر الله

الفصل الثالث
المستظهر بالله

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع
المسترشد بالله

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس

الراشد بالله

الفصل السادس

المقتفي لأمر الله

الموضوع	الصفحة

الفصل السابع

المستنجد بالله

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن

المستضيء بامر الله